"إسرائيل"

الأثنيات، العرقيات والطوائف اليهودية في "إسرائيل"



إعداد: مديرية الدراسات والتوثيق



«باحث للدراسات»



الطبعة الأولى

مركز باحث للدراسات

بيروت ـ لبنان

تلفاكس: ٠١/٢٧٠١٣٥

majalla@bahethcenter.org

الموقع: www.bahethcenter.org

الإثنيات، العرقيات والطوائف

في ¢إسرائيل¢

مركز باحث للدراسات

مقدمة

يعاني المجتمع اليهودي في الكيان الصهيوني من مجموعة كبيرة من الخلافات والصراعات التي لا تعد ولا تحصى كمصداق لقول المولى عز وجل عن اليهود ﴿*تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى*﴾

وقد حاولنا في هذه المجموعة من الأبحاث تسليط الضوء على أكبر قدر ممكن من هذه الخلافات والصراعات في شتى المجالات الأثنية والعرقية والدينية والطائفية، إنطلاقاً من الخلاف حول أصل التعريف والتسمية: (من هو اليهودي) وحتى الصراعات الكبرى ما بين المتدينين أنفسهم والمتدينين والعلمانيين في المجالات التي تطال العادات والتقاليد والممارسات ذات الطابع الاجتماعي والسياسي والآيديولوجي. إن الصهاينة يبذلون، وباستمرار، محاولات لا تنتهي من أجل تطويق الأخطار الناجمة عن هذه الخلافات والتناقضات والحد من آثارها السلبية المدمرة على التجمع الاستيطاني الاحلالي التجميعي والذي يعاني من مخاطر صراعات أخرى غير التي أخذناها كمحاور لبحثنا هنا؛ ومن أبرزها الصراع ما بين المهاجرين القدامى والمهاجرين الجدد والصراع بين الأحزاب والمنظمات والتيارات السياسية المختلفة التي وصلت في الانتخابات الإسرائيلية الأخيرة عام ١٩٩٩ إلى ٣٣ مجموعة سياسية وفكرية، إنفرزت على أساس الانتماء القومي والاثني والطائفي والسياسي.

وما من شك في أن اغتيال الإرهابي اسحق رابين، زعيم حزب العمل ورئيس الحكومة الأسبق، إنما يظهر رأس جبل النار المشتعلة في صدور اليهود الحاقدين، كما ويشكل مدى حساسية مستوى الصراع بين الممثليات اليهودية المختلفة من يهود

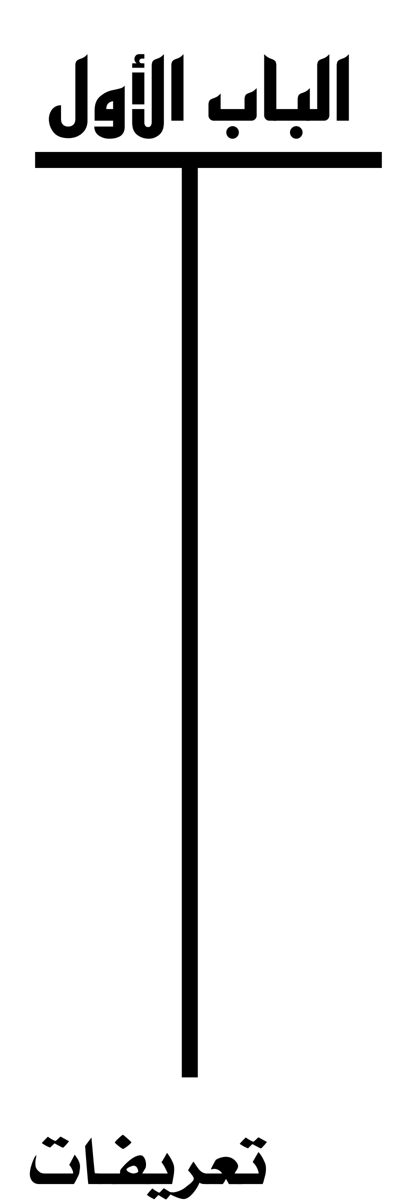
أرثوذوكس ويهود تصحيحيين ويهود تقليديين، حتى أن أحد الحاخامات قال في هذا المجال أنه يوجد في "إسرائيل" وطنان: واحد للإسرائيليين وآخر لليهود وعاصمة الأول هي تل أبيب وعاصمة الثاني هي القدس.

وهذه الدراسة المطولة حاولت أن توفر أكبر قدر ممكن من المعلومات والتحليلات لتكون بمثابة مرجع أساسي لكل من يريد إعمال النظر في التركيبة الفسيفسائية للمجتمع اليهودي الاستيطاني الموجود في فلسطين المحتلة، وفيها ما يكفي من الشواهد على الفجوات والتغيرات التي تنخر في جسد هذا المجتمع، وهي اعتمدت على مراجع كثيرة من الصحف والمجلات والكتب المتخصصة في الموضوع، بالإضافة إلى ترجمات وتلخيصات للعديد من الأبحاث العربية والأجنبية.

إن النتيجة الأساسية التي يمكن استخلاصها من هذه المادة المعمّقة هي أن الصهيونية كحركة قومية جامعة، حسبما تدّعي لنفسها، قد فشلت في بناء ما تتمناه من وطن قومي يهودي تطبق فيه الشريعة اليهودية والتعاليم الدينية "الهالاخية" بالمفهوم الأورثوذوكسي للدين اليهودي، وبالتالي فالذي نجم أخيراً عن كفاح الصهيونية الطويل إنما هو كيان هجين مسخ يعاني عدداً لا يحصى من أمراض الولادة، بحيث أنه لم يشكل مطمحاً حقيقياً وجذاباً لا للمتدينين الذين يرفضون حتى الخدمة العسكرية في هذا الكيان إنكاراً لشرعيته، ولا للعلمانيين الذين لا يجدون فيه بديلاً عما ينعمون به من امتيازات وحريات وأجواء الرخاء في دول الوفرة والغنى المالي في العالم.

كما أن استمرار الكيان الصهيوني، لا يعني بالضرورة نجاح الصهيونية، بل إنه يعني تحقق الأغراض التي كان يراد تحقيقها منذ الأصل من إقامة هذا الكيان، وهي أغراض استعمارية استغلالية هدفها الأول والأخير هو نهب ثروات المنطقة والهيمنة على جميع مقدراتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية تطبيقاً لمقولة "فوكوياما" في نهاية التاريخ ومقولة "هنتنغتون" في صراع الحضارات.

الباب الأول



تعريفات

الفصل الأول

التعريف الإثني للعرق اليهودي

"*العرق*" هو جملة السمات البيولوجية (مثل حجم الجمجمة ولون الجلد أو العيون أو الشعر...) التي يفترض وجودها في جماعة بشرية وتميزها بشكل حتمي (بيولوجي) عن غيرها من الجماعات. وكلمة عرق ترادف أحيان كلمة سلالة أو جنس أو دم. وهناك تقسيمات عدة للسلالات أو الأعراق أو الأجناس البشرية المختلفة أو الدماء التي تجري في عروقها.

وهناك اتجاه صهيوني يؤمن بأن ثمة عرقاً يهودياً مستقلاً وأنّ أساس الهوية اليهوديّة والشخصية اليهوديّة هو الانتماء العرقي ـ الإثني ولعل المفكر الصهيوني موشيه هيس (١٨١٢ ـ ١٨٧٥) مؤسس الفكرة الصهيونية (في ديباجتها الاشتراكية) هو أول من صرح تعريفاً لليهود على أساس بيولوجي أو عنصري حين ذكر أنّ العرق اليهوديّ من الأعراق الرئيسيّة في الجنس البشري، وأن هذا العرق حافظ على وحدته رغم التأثيرات المناخية فيه فحافظت اليهوديّة على نقاوتها عبر العصور. وقد تنبأ هذا المفكر الصهيوني بأن الصراع بين الأجناس والإثنيات سيكون أهم الصراعات وأسهم في المحاولة الرامية إلى التمييز بين العنصرين الأري والسامي، وهو التمييز الذي قدر له أن يكون بعد عدة سنوات أحد المفاهيم الأساسية "التي تبناها منظور الفكر العنصري الأوروبي، وقد داعبت هرتسل فكرة الهوية الإثنية (العرقية) فترة من الزمن على الأقل

فاستخدم عبارات مثل "الجنس اليهودي" أو "النهوض بالجنس اليهودي" كما أنه كان يفكر في تمييز اليهود عن غيرهم على أساس بيولوجي. وعندما قام هرتسل باول زيارة له إلى معبد يهودي في باريس، كان أكثر ما أثار دهشته التشابه العرقي الذي تصور وجوده بين يهود فيينا ويهود باريس "الأنوف المعقوفة المشوهة والعيون الماكرة التي تسترق النظرة. كما يقول ماكس نورد والذي يعد واحداً من أهم مفكري العنصرية الغربية (حتى قبل تحوله إلى الصهيونية)، في لغة لا تقبل الشك وتخلو تماماً من الإبهام: "إن اليهوديّة ليست مسألة دين وإنما هي مسألة عرق وحسب". ولا يخرج مارتن بوير في تعريفه لليهودي عن هذا الإطار حين تحدث عن "أزلية الأجيال كجماعة يربطها الدم ... فالدم هو القوة التي تحدد المستويات العميقة لوجودنا.

وكان بوير يشير إلى اليهود باعتبارهم آسيويين: "لأنهم إذا كانوا قد طردوا من فلسطين، فإن فلسطين لم تطرد منهم.

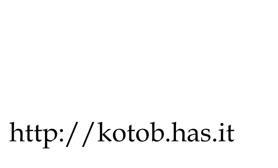
ويبدو أنّ مسألة الدم هذه لم تكن شائعة في صفوف الفلاسفة والصهاينة المتأثرين بالتراث الألماني وحسب، بل كانت شائعة في صفوف الصهاينة الانكلو ساكون أيضاً. وعرف اليهودي الأميركي لويس برانديس اليهوديّة في خطاب إلقاه عام ١٩١٥ بأنها "مسألة تتعلق بالدم". وذكر أنّ هذه الحقيقة بقيت مقبولة من جانب غير اليهود الذين يضطهدون اليهود، ومن جانب اليهود الذين يحسون بالفخر: "عندما يبدي إخوانهم من ذوي الدم اليهودي تفوقاً أخلاقياً أو ثقافياً أو عبقرية أو موهبة خاصة، حتى إذا كان هؤلاء النابهون قد تخلوا عن الإيمان بالدين، مثل أسبينوزا وماركس ويزرائيلي هاييني.

وقد حاول الصهاينة على طريقة المفكرين العنصريين في الغرب أن يثبتوا أنّهم عرق مستقل بطريقة "علميّة" وليس فقط على طريقة بوير الفلسطينيّة. ولذا فإننا نجد في صفوفهم كثيراً من "العلماء" المهتمين بهذه القضية.

وكان اللورد بلفور الصهيوني غير اليهوديّ يفكر في اليهود على أساس عرقي وتجدر الإشارة إلى أنّ إحدى المسودات الأولى لوعد بلفور كانت تدعو إلى إقامة "وطن قومي للجنس اليهوديّ" وهي جملة تحمل في طياتها تعريفاً بيولوجياً واضحاً للهوية اليهوديّة. ثمة إذن إجماع صهيوني على التعريف العرقي لليهودي وذلك لأن الصهيونية، كانت تبحث عن الشرعية من أوروبا لأمن اليهودية، ولذا كان عليها أن تصبح عرقاً مستقلاً لأن العرق المستقل وحده هو الذي من حقه أن تكون له دولة مستقلة حسب الإطار

العرفي لأوروبا العلمانية. ولكن من الواضح أن تعريف اليهودي كعضو في عرق مستقل أمر مغرق في الخيال والوهم، إذ يدحض واقع الأقليات اليهوديّة بسهولة مثل هذه الأساطير وكان على الصهاينة بالذات أن يتعاملوا مع يهود بيض ويهود سود وبضعة يهود صفر إلى جانب كثير من الظلال اللونية الأخرى. واختفاء التعريف العرقي لليهود تدريجياً يرتبط بالمجال الدلالي لكلمة "عرق" إذ أنه بحلول الثلاثينات كانت الحياة في الغرب قد تحولت عن العنصرية التي فقدت إلى حد كبير ما كانت تحظى به من قبول وتأييد في الأوساط العلمية.

وكما يقول الزعيم الصهيوني ناحوم سوكولوف: بعد أن عشنا عصراً أصبحت فيه كلمة عنصر أو عرق معادلة للقسوة والبربرية فإن معظم الناس ينفرون من استخدام هذا المصطلح. وأضاف إلى هذا أنّ عمل الأجناس قد أظهر أنّ هذا المصطلح لا يمكن أن يطبق حقاًّ على اليهود وذلك رغم أنّه كان من المعتاد تماماً الإشارة إلى اليهود في عصر ما قبل هتلر أنهم جنس وكان الكثيرون يعتقدون أنّ يهودية الشخص مسألة تتعلق بمولده وسماته. ولذا كان لابدّ من العدول عن استخدام مصطلح العرق اليهودي. وبدلاً من ذلك بدأ تعريف اليهوديّ على أساس اثني أي على أساس التراث والثقافة المشتركة ومن ثم حلت الإثنية محل العرقية كنقطة مرجعية وكأساس للهوية. لكن التعريف الإثني لا يختلف في جوهره عن التعريف العرقي. فكلاهما يفرز نظرية في الحقوق العرقية أو الاثينة، تعطي صاحب الهوية العرفية، أو الإثنية مزايا معينة وقوة مطلقة تنكرها على غيره من البشر.


http://kotob.has.it

الفصل الثاني

التعريف الديني للهويات اليهودية

كلمة يهودي هي من أكثر المصطلحات إشكالية رغم بساطتها. وهي مركبة من "يهوه" أي الله و"دي" أي الشكر، ويصبح معنى يهودي (شكر الله). وكلمة يهودي يمكن أن تستخدم للإشارة إلى العبرانيين القدامى باعتبارهم جماعة عرقية أو اثنية (قوم) أو باعتبارهم جماعة دينية (شعب مختار). ثم تستخدم الكلمة للإشارة إلى اليهود الحاخامين والقرائين والسامريين ويهود الصين واتيوبيا.

واليهود العبرانيون القدامى كانوا يشكلون وحدة ثقافية واثنية تتسم بقدر من التماسك والتجانس والوحدة. ولكن مع انتشار اليهود في أرجاء العالم في مجمعات مختلفة، لكن تقاليدها الحضارية والدينية وتواريخها، تفاعل اليهود مع هذه التقاليد والتواريخ وخضعوا لمؤثراتها، شأنهم شأن سائر الأقليات العرقية الأخرى. وقد تحول اليهود نتيجة هذه الأوضاع إلى جماعات يهودية مختلفة متفرقة وغير متجانسة. وقد أصبح أعضاء الجماعات اليهوديّة في أوروبا أقنان بلاط (خدام) وتجاراً ومرابين داخل النظام الإقطاعي، أما يهود العالم الإسلامي فلم يتسموا بتمييز وظيفي حاد بل وشاركوا في الثورة التاريخية وكانوا من الناحية الثقافية جزءاً لا يتجزأ من محيطهم الحضاري كما هو واضح في الأندلس. وكان يهود الخزر قد تبعثرت دولتهم بسبب صعود "القوة السلافية الروسية وتنصرها ولكنهم كانوا يشاركون في تأسيس المجر. وكان يهود الفلاشا قد أصبحوا جزءاً من التشكيل الحضاري الإفريقي في أثيوبيا وكونوا قبيلتهم

بل ومملكتهم وانخرطوا في الحروب القبلية المختلفة. ولا يمكن لإطار واحد أن يشمل كلّ هذه الظواهر. ولفهم سلوك هذه الجماعات وحركة خلافاتها ومصيرها لابدّ من العودة إلى التشكيلات الحضارية التاريخية التي كانوا يوجدون فيها، لا إلى جوهر يهودي يتجاوز الزمان والمكان ويشكل وحدتها الجوهرية أو إلى تاريخ يهودي يتطور حسب قوانينه الداخلية ويتطور اليهود في إطاره منعزلين عن تواريخ الجماعات التي يعيشون بين ظهرانيها.

وقد ازداد الخلاف والاختلاف وعدم التجانس ما بين الجماعات اليهوديّة بعد القرن الحادي عشر على المستويين الديني والاجتماعي، حيث تعمق التوحيد في النسق الديني اليهودي في العالم الإسلاميّ بينما تعمق العنصر الحلولي الكموني في اليهودية الغربية وظهرت عناصر الشرك مع هيمنة التراث القبالي (الصوفي). وبينما كان يهود العالم الغربي يزدادون انعزالاً وتخلفاً كان يهود العالم الإسلاميّ يزدادون اندماجاً وتحضراً. ولكن مع الصعود الاقتصاديّ للعالم الغربي بعد الثورة الصناعية والتجارية والرأسمالية، نجد أنّ يهود الغرب تحولوا بعمق وأدوا دوراً في هذه العملية التي لم تترك أي أثر في يهود الدولة العثمانية أو سواهم.

وفي العصر الحديث نجد أنّ اليهود الأورتوذوكس يكفرون الإصلاحيين والمحافظين والتجديديين. ويوجد الآن فريق من اليهود المسيحيين الذين يؤمنون بالمسيح على أنّه الماشياح من دون الاعتراف بإلهيته. كما أنّ غالبية يهود العالم الآن إما ملحدون ولا ادريون أو غير مكترثين بالدين. ويهود الفلاشاه لا يعرفون التلمود ويتعبدون بالجفرية، مع أنّ التلمود يشكل العمود الفقري لليهودية الحاخامية (الأورتوذوكسية).

من ناحية أخرى يمكن القول حالياً أن كلمة يهودي لها معنيان:

١ - يهودي بالمعنى الديني الإثني.

٢ - يهودي بالمعنى الإثني المحض.

فهي تشير إذن إلى الكتل اليهوديّة الثلاث الأساسيّة وهي الأشكناز والسفاراد ويهود العالم الإسلاميّ وإلى الجماعات اليهوديّة الأخرى التي انفصلت عن الكتل الثلاث الكبرى مثل الفلاشاه ويهود الهند. وهي تشير أيضاً إلى اليهود من شتى الفرق التي نشأت في العالم الغربي: الإصلاحيين والمحافظين والأورتوذوكسيين والتجديديين حتى ولو كفر أعضاء هذه الفرق بعضهم بعضاً. ويستخدم المصطلح للإشارة إلى المستوطنين

الصهاينة مع أنّ مسألة من هو اليهودي لا تزال دون إجابة داخل الدولة الصهيونية، أي أنها كلمة ذات مجال دلالي مختلط وغير محدد.

ويتم حالياً استخدام كلمة عبراني للإشارة إلى اليهود القدامى كمجتمع اثني ذي خصائص مميزة. وكلمة جماعة يسرائيل تشير إلى المجموعة البشرية نفسها كتجمع ديني. وتستخدم كلمة إسرائيل للإشارة إلى المستوطن الصهيوني أو السكان فهم إسرائيليون.

وغني عن البيان أنّ مصطلح "صهيوني" لا علاقة له بمصطلح "يهودي". فليس كلّ اليهود صهاينة وليس كلّ الصهاينة يهوداً وهناك صهاينة مسلمون وصهاينة مسيحيون وصهاينة بوذيون وصهاينة لا دين لهم ولا ملة.

من هنا فإن الربط بين المواطنية الإسرائيليّة واعتناق الديانة اليهوديّة طرح معضلة أخرى وهي المعضلة الخاصة بالمقيمين في إسرائيل من أبناء الديانات الأخرى من العرب وسواهم. ومعنى هذا أنّ إسرائيل لا تختلط باليهودية على الرغم من أنها تقيم علاقة متبادلة معها، الأمر الذي يقود إلى موقف تلفيقي كثيراً مالجأ إليه الصهاينة قوامه الجمع بين ضدين لا يجتمعان.

في العصور القديمة كانت اليهوديّة ديانة توحيدية في محيط وثني وكانت تكسب هويتها من هذا التعارض البسيط. أما في العصور الوسطى الغربية وفي العالم الإسلامي فقد اختلف الأمر تماماً إذ وجدت اليهودية نفسها في محيط توحيدي (إسلامي ومسيحي) أدى إلى طمس معالمها ولذلك حاول علماء اليهود ان يوجدوا هوة بين اليهود وأعضاء الديانات التوحيدية الأخرى وكان التلمود هو ثمرة هذه المحاولة. وخلال هذه الفترة ظهر تعريف الشريعة (هالاخاه) للهوية اليهوديّة. فعرّف اليهودي بأنه من ولدلام يهودية أو من تهوّد. وهذا التعريف هو الذي ساد منذ ظهور اليهودية الحاخامية مع بدايات العصور الوسطى في الغرب حتى بداية القرن التاسع عشر وبالتالي فهو التعريف الذي يعد الإطار المرجعي لكثير من الكتابات والإشكالات التي تثار حول الهوية اليهوديّة وهو تعريف ديني اثني مغلق. وكانت هناك إشكالية أساسية داخل هذا التعريف تتعلق بالجانب القومي أو العرقي للتعريف، حيث يتضمن أنّ من يولد لام يهودية يظل يهودياً حتى ولو لم يمارس تعاليم الدين اليهوديّ فهو يهودي بالمعنى الإثني. أما اليهودي المتهود فكان عليه أن يقوم بتنفيذ جميع الأوامر والنواهي أي يجب

أن يكون يهودياً بالمعنى الديني. لكن هذه الإشكالية كانت، هي الأخرى، في حالة كمون لأن عدد اليهود المتهودين كان صغيراً إلى حدّ كبير. كما أن ترابط الجماعات الدينية والإثنية، في العالمين الإسلاميّ والمسيحي، كان قوياً لدرجة، أن أي يهودي يترك دينه كان عادة ما يتبنى ديناً آخر أي أنه كان أول يهودي اثني وعلماني.

والمشكلة كانت تظهر عند أقراض النقود بالربا. فاليهودية تبيح لليهودي أن يقرض غير اليهودي بالربا. لكنها تحرم أقراض بني ملته. فإذا ما طلب يهودي متنصر قرضاً من أحد اليهود المرابين كانت قضية يهوديته تطرح نفسها وقد أفتى بعض الحاخامات بأن مثل هذا اليهودي المنتصر يجوز أقراضه بالربا لأنه ليس يهودياً على الإطلاق، ولكن أغلبية الحاخامات أفتوا بأنه يهودي حسب الشريعة اليهوديّة لأنه ولدلام يهودية (أي أنه يهودي بالمعيار العرقي).

ومن المشاكل التي واجهها الفقه اليهودي مشكلة يهود المارانو (اليهود المتخفون) الذين لم يتركوا شبه جزيرة إيبريا (الأندلس ـ إسبانيا) وتظاهروا باعتناق المسيحية بعد استرداد المسيحية لهذه الجزيرة واحتفظوا بانتمائهم اليهودي سراً. ويرى الفقه اليهوديّ أنّ اليهودي الذي اضطر إلى اعتناق دين آخر يظل يهودياً. ويمكنه أن يعود إلى حظيرة الدين متى سنحت له الفرصة. ولكن كثيراً من المارانو اعتنقوا المسيحية بإرادتهم للاحتفاظ بممتلكاتهم وثرواتهم، كما أنهم لم يفروا من شبه جزيرة إيبريا (إسبانيا) حين سنحت لهم الفرصة. بل أن انتماءهم اليهودي ضعف بشكل واضح بمرور الزمن وفي النهاية أصبح من الصعب عليهم التأقلم مع اليهوديّة الحاخامية كما حدث لاسبينوزا.

وشكل يهود الدونمه من أتباع شبتاي تسفي مشكلة أخرى إذ اعتنقوا الإسلام علناً وأبقوا على انتمائهم اليهودي سراً. ولم يكن الفقة اليهوديّ منذ أيام موسى بن ميمون، يعتبر اعتناق الإسلام من جانب اليهود شركاً أو إنكارً لوحدانية الله (على خلاف التنصر). ولذلك لم تكن هناك مشكلة من الناحية النظرية على الأقل، لكن الدونمة لم يرغموا على اعتناق الإسلام كما أنّ الادعاءات المستيحانية لقائدهم قوبلت بحرب شرسة من جانب الحاخامات الذين أعلنوا أنها هرطقة وتجديف.

ومع هذا كان اليهود في الدولة العثمانية يدرسون التلمود مع بقية أعضاء الجماعة اليهوديّة حتى منتصف القرن التاسع عشر وظلوا محتفظين بكثير من طقوسهم اليهوديّة سراً دون أن يرغمهم أحد على ذلك. ولهذا كان من الصعب تحديد ما إذا كان المارانوا

والدونمة يهوداً أم لا، وهي مسألة لم يحسمها الفقه اليهودي.

وقد ازداد انتشار أعضاء الجماعات اليهوديّة في أنحاء العالم، وازداد بشكل واضح غياب التجانس الثقافي والديني بينهم مع الثورة العلمانية الكبرى التي بدأت تترك أثرها التدريجي في الجماعات اليهوديّة (ولعل ظهور الحركات الشبتائية المختلفة هو تعبير عن تزايد معدلات العلمنة).

وبرغم كلّ المشاكل والتوترات الداخلية والخارجية، فإن تعريف الشريعة لليهودي (من ولدلام يهودية أو تهود) وهو التعريف الحاخامي الأورتوذوكسي، كان تعريفاً مقبولاً ويصلح أساساً للتفرقة بين اليهود وغير اليهود. ولكن الوضع اختلف تماماً مع ظهور العلمانية التي بدأت تترك أثرها التدريجي في الجماعات اليهوديّة إلى أن دخلت اليهوديّة في الغرب مرحلة الأزمة، فظهر فكر حركة التنوير ثم ظهرت اليهوديّة الإصلاحية ومن بعدها اليهوديّة المحافظة و اليهوديّة التجديدية ولا تعترف اليهوديّة الأورثوذوكسية باتباع هذه الفرق أو بحاخاماتها يهوداً، هذا إلى جانب انتشار نزعات الالحاد والشك الديني بين اليهود، وظهور ما يسمى "اليهوديّة الإثنية" (في الولايات المتحدة وروسيا وأوكرانيا وسواهم من كومنولت الدول المستقلة) وهي يهودية من لا يؤمنون بالعقيدة اليهوديّة وإن كانوا يمارسون بعض شعائرها باعتبارها شكلاً من أشكال الفلكلور الذي يدعم اثنيتهم اليهوديّة ويرفع روحهم المعنوية. كما ظهرت اليهوديّة الإنسانية التي تحاول أن تؤسس عقيدة يهودية لا تستند إلى الإيمان بالشريعة الموصى بها وإنما بالقيم الإنسانية العامة. وظهرت أيضاً جماعات يهودية أخرى مثل العلماء اليهود الذين يؤمنون بأن الطب الحديث لا طائل من ورائه وبأن سر الشفاء موجود في العهد القديم، وكانوا في الواقع متأثرين بفرقة دينية "مسيحية" تسمى "العلماء المسيحيون". وانضم كثير من اليهود إلى فرقة الموحدين المسيحية واحتفظوا في الوقت نفسه يهوديتهم بل وظهرت جماعة تسمى "اليهود من أجل المسيح". وقد اعتنق هؤلاء المسيحية واعتبروا المسيح عيسى بن مريم (ع) هو الماشياح اليهوديّ. ولكنهم لم يعترفوا بنبوته للرب وهكذا. وقد أصر هؤلاء (رغم إلحادهم الكامل أو رفضهم معظم مقولات الشريعة اليهوديّة) على أنّ يسموا يهودا الأمر الذي ولد موقفاً غريباً إلى أقصى درجة وهو أنّ الغالبية العظمى ليهود العالم لم تعد تلتزم بالشريعة اليهودية، ولم يعد ينطبق عليها مصطلح "يهودي" حسب التعريف الحاخامي ولكن هذه الغالبية تصرفي الوقت

نفسه على الاحتفاظ بلقب يهودي بينما لا توجد سوى أقلية صغيرة للغاية ملتزمة بالشريعة تحتفظ هي الأخرى بلقب يهودي وتدعي لنفسها حق أن تقرر من هو اليهودي ولذا فهي تذهب إلى أنّ أغلبية اليهود الساحقة ليسوا يهوداً. وقد صرح آفي بيكر، محرر إحد التقارير التي أصدرها المؤتمر اليهودي عن أوضاع الجماعات اليهوديّة في العالم أنّ الانفصال بين اليهود الأورثوذوكس واليهود العلمانيين قد أوجد شعبين مختلفين لا يتفاعلان.

الفصل الثالث

من هو اليهودي(*)؟

السؤال "من هو اليهودي"؟ يثار من حين لآخر داخل الكيان الصهيوني وهو يعبر عن فشل الإسرائيليّين في تعريف "الشخصية اليهوديّة" أو"الهوية اليهودية" كما ويعبر عن وجود عامل تفجير في منتهى الخطورة على جميع الأصعدة الاجتماعية والدينية والإثنية على حد سواء. فالمفترض أنّ الشخصية القومية هي شخصية تنتج من عمليّة تفاعل تمتد ردحاً من الزمن بين جماعة من الجماعات البشرية من جهة وتشكيل اجتماعي وتاريخي وبيئة طبيعية من جهة أخرى. وغني عن القول أنّ مصطلح الشخصية اليهوديّة يعبر عن نموذج اختزالي لا يتفق كثيراً مع الحقيقة التاريخية المتعينة ولذلك فمقدرته التفسيرية ضعيفة للغاية. والصهاينة ينسبون للشخصية اليهوديّة المستقلة صفات إيجابية مثل الابداع والمقدرة على الانسلاخ من مجتمع الأغيار والحس النقدي. ولكن في الحقيقة توجد تعريفات عديدة لشخصيات يهودية وهويات يهودية متعددة ومتباينة بين السلبية والإيجابية. ومن هنا يمكننا الحديث عن شخصية أو هوية يهودية يمنية في أواخر القرن التاسع عشر أو الشخصية الخزرية اليهوديّة في القرن نفسه أو الشخصية السفارادية من أصل سوري في أميركا اللاتينية. إما مع اندماج

(*) *موسوعة اليهود واليهودية - عبد الوهاب المسيري - ج ٢ - ص ١٦٥.*

اليهود في الحضارة الغربية وتزايد معدلات العلمنة بينهم وانفكاك قبضة المؤسسة الحاخامية التقليدية عنهم، تملك أعضاء الجماعات اليهوديّة في الغرب في العصر الحديث ناصية العلوم الحديثة فظهر العلماء وظهر الحس النقدي لديهم.

والعديد من الأدبيات الصهيونية تتحدث عن الشخصية اليهوديّة من خلال الجماعة اليهوديّة في شرق أوروبا من ناطقي لغة اليديش التي هي رطانة مختلطة ما بين العبرية والألمانية. وقد تحدث آرثر روبين في كتابه اليهود في الوقت الحاضر عن أنّ كلمة يهودي تعني بالنسبة إليه إشكنازي ولا تضم اليهود السفاراد الشرقيين. ورغم أنّ يهود اليديشية كانوا يشكلون الغالبية الساحقة من الجماعات اليهودية في العالم في نهاية القرن التاسع عشر ٨٠٪ إلاّ أنّ هذا لا يجعل منهم شخصية يهودية عالمية، إذ أنّ هذه الشخصية اليديشية (القومية) هي ثمرة تفاعل الجماعة اليهوديّة مع المجتمع الشرق أوروبي في بولندا وروسيا داخل تركيبة اجتماعية وثقافية محددة[١] .

وينبع مشروع حزب البوند السياسي من الإيمان بوجود شخصية يهودية قومية شرق أوروبية، لا شخصية يهودية عالمية. وقد اختفت الشخصية اليديشية مع التحولات الاجتماعية الضخمة التي صدمت في مجتمعات شرق أوروبا ولم يكتب لها الاستمرار. وقد تحول يهود اليديشية من جماعات شبه قومية متماسكة إلى جماعات مختلفة: يهود روسيا ويتحدثون الروسية، ويهود بولندا ويتحدثون البولندية ويهود أوكرانيا ويتحدثون الأوكرانية أما يهود اليديشية الذين استقروا في ألمانيا وفرنسا وإنكلترا والولايات المتحدة فقد اندمجوا في مجتمعاتهم وتحدثوا لغاتها.

ومن المفارقات المهمة أنّ الصهيونية الذين يمجدون الشخصية اليهودية يقومون في الوقت نفسه بالهجوم عليها ورفضها فهم يرون أنّ هذه الشخصية مريضة هامشية. ويطرح الصهاينة فكرة الشخصية اليهوديّة الحقيقية بوصفها شخصية يهودية خالصة عبرت عن نفسها من خلال الكيان اليهوديّ القومي سواء في الكومنولث الأول والثاني، وهي تعبر عن نفسها من خلال الكومنولت الثالث أي الدولة الصهيونية. لكن دارس هذه الدولة يعرف أنّ علم الاجتماع الإسرائيليّ قد تقبل كحقيقة شبه نهائية انقسام أعضاء

(١) هذه المعلومات بأكملها مستقاة استنسابياً من موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية - عبد الوهاب المسيري - دار الشرق عدة أجزاء.

التجمع الصهيوني إلى جماعات يهودية لكل شخصيتها المستقلة التي تكونت عبر مئات السنين في المنفى أي في أنحاء العالم.

ولا شك أنّ الصهاينة يفضلون كلمة هوية يهودية بمدلولها الإثني على مصطلح شخصية يهودية. وكلمة هوية يهودية لا تسبب حرجاً ليهود الولايات المتحدة لكون هذه الدولة تقبل الهويات الإثنية طالما أنها لا تتعارض مع الانتماء القومي. أما كلمة شخصية يهودية قومية فتسبب الكثير من الحرج.

إن موضوع الهوية/ الهويات اليهوديّة في غاية التركيب لأسباب عديدة يمكن تلخيصها بما يلي:

١ ـ تم تعريف الهوية على أساس ديني وعلى أساس قومي ديني وعلى أساس قومي فقط. وقد دارت معارك بين أعضاء الجماعات اليهوديّة (خصوصاً منذ نهاية القرن التاسع عشر) حوال رؤيتهم لهويتهم وتعريفهم لهذه الهوية.

٢ ـ تحددت الهويات اليهوديّة المختلفة في غياب سلطة يهودية مركزية دينية أو دنيوية عبر الاحتكاك مع عشرات التشكيلات الحضارية ومن خلالها، الأمر الذي نجم عنه تنوع هائل في الهويات اليهوديّة. وتتسم هذه الهويات باستقلال نسبي عن سياقها الحضاري شأنها شأن هويات الجماعات الإثنية والدينية ولكنها في الوقت نفسه لا تنتمي إلى هوية يهودية واحدة عالمية. ومع ذلك يستمر الجميع (اليهود وغير اليهود) في الحديث عن اليهود كما لو كانوا كلاً واحداً.

ولكل هذا ظهر ما نسميه التركيب الجيولوجي التراكمي للهويات اليهودية. وقد تكون هذه الهويات متشابهة أو متناقضة ولكنها مع هذا تعيش متجاورة ومتزامنة وغير متفاعلة ضمن تسمية واحدة هي الشعب اليهوديّ، مع افتراض وجود وحدة ولكن من دون أن يختبر أحد صدق هذه المقولة. وبعد تأسيس الدولة الكيان ظهرت الخاصية الجيولوجية التراكمية وتفجرت قضية من هو اليهودي تعبيراً عن اكتشاف أن ما يسمى الهوية اليهوديّة ليست كلاً يتسم بقدر من التجانس وإنما هي في واقع الأمر تركيب جيولوجي تراكمي.

والفكر الصهيوني ينكر واقع الجماعات اليهوديّة الحضاري الفسيفائي الجيولوجي التراكمي ويطرح فكرة الهوية اليهوديّة العالمية الواحدة (كلّ اليهود أخوة).

وجميع المصطلحات مثل يهود الدياسبورا أو يهود المنفى أو الشعب اليهودي إنما

نفترض وحدة اليهود وتجانسهم. ولكن حين يصل أصحاب هذه الهويات إلى إسرائيل سيتضح للجميع أنّهم ليسوا مجرد يهود، إذ يصبحون مرة أخرى مصريين أو مغاربة أو روس. وتتحدد مكانتهم الاجتماعية بحسب ذلك. ولذا ينكر كثير من المغاربة هويتهم العربية ويصرون على أنّهم فرنسيون وليسوا يهوداً فحسب. وكذلك فإن يهود العالم العربي الذين تم تهجيرهم باعتبارهم يهوداً بشكل عام يصبحون مرة أخرى يهوداً شرقيين يقبعون في آخر درجات السلم الاجتماعي الإسرائيليّ، كما يصبح يهود روسيا إشكنازاً أو غربيين ويعطون المنح والقروض وأفخر المنازل ثم يشغلون قمة السلم الاجتماعي. ومن هنا تظهر الهويات اليهوديّة المختلفة.

١ ـ يهودي ملحد Atheist Jew

مصطلح "يهودي ملحد" يبدو وكأنه تركيب واضح التناقض، إذ أنّنا نتصور أنّ اليهوديّ هو من يؤمن باليهودية قياساً على أنّ المسلم هو من يؤمن بالإسلام، والمسيحي هو من يؤمن بالمسيحية، بكل ما يتبع ذلك من إيمان بالإله. ولكن المعيار في تعريف اليهوديّ ليس كونه مؤمناً بالعقيدة وإنما كونه مولوداً لأم يهودية. وبحسب الشريعة اليهوديّة، يمكن أن يكون اليهوديّ من الناحية النظرية يهودياً وملحداً في الوقت نفسه. وانطلاقاً من ذلك الإبهام والتناقض في الشريعة اليهوديّة ، ذهب الأخ دانيال (وهو راهب كاثوليكي وُلد لأبوين يهوديين ثم تنصّر) إلى إسرائيل وطالب بأن يحصل على الجنسية الإسرائيليّة حسب قانون العودة، فإذا كانت الشريعة اليهوديّة تعترف بالملحد يهودياً فيمكنها (من باب أولى) أن تعترف بالمسيحي يهودياً! لكن طلبه رُفض. وقد استندت حيثيات الحكم إلى مقولة علمانية وهي أنّ الأخ دانيال، باعتناقة المسيحية، فصل نفسه عن "المصير اليهوديّ"، أي أنّ المعيار هنا هو مدى الارتباط بالشعب اليهوديّ لا بالعقيدة أو العقائد اليهوديّة . ولكن يبدو أنّ الرأي العام الإسرائيليّ بدأ يتجه اتجاهاً مغايراً في الآونة الأخيرة، بحيث أصبح لا يمانع من إطلاق مصطلح "يهودي" على مسيحي هاجر إلى إسرائيل مدفوعاً بدوافع صهيونية. وترتبط بهذا المصطلح مصطلحات أخرى مثل "اليهودية العلمانية" و"يهودي إثني".

٢ ـ يهودي إثني Ethnic Jew

"اليهوديّ الإثني" هو اليهوديّ الذي يرى أنّ يهوديته لا تنبع من إيمانه بالقيم الدينية والأخلاقية اليهوديّة وإنما من الإثنية اليهوديّة ، أي من موروثه الثقافي. وربما كان هذا ما يعنيه أسحق دويتشر بمصطلح "اليهوديّ غير اليهوديّ".

٣ ـ اليهوديّة الإثنية Ethnic Judaism

"اليهوديّة الإثنية" تعبير عن الانتماء اليهوديّ الذي يستند إلى الإثنية اليهوديّة. وكلمة "الإثنية" مأخوذة من الكلمة اليونانية "إثنوس" بمعنى "قوم" أو"جماعة لها صفات مشتركة". وتُستخدم كلمة "إثنية" للإشارة إلى الجماعات الإنسانية التي قد لا يربطها بالضرورة رباط عرقي ولكنها جماعة تشعر بأن لها هوية مشتركة تستند إلى تراث تاريخي مشترك ومعجم حضاري واحد. وكلمة "حضارة" هنا تستخدم في أوسع دلالاتها، فهي تشير إلى كلّ فعل إنساني وكل ما هو ليس بطبيعة، مثل: الأزياء وطرق حلاقة الشعر، وطريقة تنظيم المجتمع، والرقص. ومن أهم العناصر الإثنية، اللغة والأدب. ويمكن أن يكون الدين عنصراً من بين هذه العناصر الإثنية فينظر المرء، دون أن يؤمن بالإله، إلى الشعائر الدينية بوصفها تعبيراً عن الهوية، تماماً من الرقص والطعام.

ويستطيع المرء أن يشير إلى طعام إثني (بمعنى أنّه يُعبّر عنه هويته) له مضمون رمزي يتجاوز وظيفته المادية، فهو ليس مجرد طعام لسد حاجته الجسدية. وبالتالي، فإن الملوخية أو الكبسة طعام إثني، أما الهامبورجر فهو طعام ليس له مدلولات إثنية. وعلى أية حال، فإن الإثنية اليهوديّة هي مجموعات الصفات المحددة التي يُفترض أنّها تشكل ما يُسمى "الهوية اليهوديّة" من منظور إثني.

والإيمان بالذات القومية (الإثنية) هو إحدى السمات الأساسية للتشكيل الحضاري الغربي في القرن التاسع عشر. فبعد ضعف المسيحية وانتشار العلمانية، ظهر الفكر القومي الذي أسقط أي مطلق ديني أو أخلاقي وحلّت محله الذات القومية كمطلق وموضع للقداسة ومصدر وحيد للقيمة ونقطة مرجعية وركيزة نهائية.

وتجب التفرقة بين الإثني والعرِقي، فالوحدة على أساس عرقي تعني وحدة الدم والجنس (العرق). أما الوحدة على أساس إثني فتعني وحدة التاريخ والثقافة. ومعظم

الحركات القومية (مثل القومية الإنجليزية أو الفرنسية أو الجامعة السلافية والألمانية والقومية الطورانية، وكذلك النازية والصهيونية)، تستند إلى تعريف عرقي إثني للذات القومية. ولكن، بعد تجربة الإبادة النازية، أصبح من الصعب قبول التعاريف العرقية، وخاصة من جانب أعضاء الجماعات اليهوديّة ، فبدأ القبول بفكرة الوحدة الإثنية وأُسقطت الديباجات العرقية وحلت محلها ديباجات إثنية دون أي تعديل للقداسة أو المطلقية اللتين تُنسبان إلى الذات القومية. فالوحدة على أساس عرقي تشبه الوحدة على أساس إثني، إذ تدّعي كلتاهما نقاءً ما يتمتع به أصحاب الهوية. كما أنّ العرقية، مثلها مثل الإثنية تماماً، تعطي صاحبها حقوقاً مطلقة.

وتتّسم الدعوة القومية في الولايات المتحدة بأنها كانت دعوة إثنية، لأن المجتمع الأميركيّ مجتمع مهاجرين، فيه أعراق كثيرة، ولذا أصبح التضامن الإثني هو الإمكانية الوحيدة المتاحة أمام الأميركيّين، وكانت بوتقة الصهر هي الآلية التي يمكن من خلالها إذابة الإثنيات الخاصة السابقة للمهاجرين لتحل محلها الإثنية الأميركيّة العامة الجديدة. كان العنصر العرقي موجوداً منذ البداية "ويظهر في التمييز العنصري، أي العرقي، ضد السود والآسيويين والعرب) ولكنه كان هامشياً، ومع تزايد معدلات العلمنة في الولايات المتحدة، وظهور حركات الأقليات مثل حركة تحرّر السود، ظهرت حاجة لدى المواطن الأميركيّ أن يشعر بانتماء ما يضرب بجذوره في شكل من أشكال الخصوصية، وهو ما أدّى إلى بعث الإثنيات المختلفة. وقد شجع المجتمع هذا البعث الإثني شريطة ألا يتعارض مع الولاء القومي أو مع العقد الاجتماعي الأميركيّ، فبإمكان المواطن الأميركيّ أن يأكل من طعامه الإثني ويرقص من رقصاته الإثنية في حياته الخاصة وربما العامة، ما حلا له من مأكل ومرقص، على أن يظل سلوكه في رقعة الحياة العامة غير متناقض في أساسياته مع رؤية المجتمع وإيقاعه الأساسي وحياته، أي أنّ الانتماءات الإثنية الخاصة تُعامَل تماماً معاملة الانتماءات الدينية المختلفة، التي أظهر المجتمع إزاءها التسامح طالما لا تتجاوز رقعة الحياة الخاصة.

ومعظم يهود العالم في الوقت الحالي يهود إثنيون، أي أنّ يهوديتهم لا تنبع من الإيمان بالعقيدة الدينية وإنما من إثنيتهم اليهوديّة، وهي تنبع من اليهوديّة لا باعتبارها نسقاً دينياً وإنما باعتبارها فلكلوراً. وبالتالي، فالشعب اليهوديّ يصبح ما يُسمّى "الفولك اليهودي"، أو "الشعب العنصري"، (تماماً مثل "الفولك الألماني").

وربما كان التركيب الجيولوجي لليهودية هو الذي جعل ظهور مثل هذا التعريف ممكناً، وخاصة وأن الشريعة اليهودية عرّفت اليهوديّ بأنه من وُلد لأم يهودية! ويمكن القول بأن الإثنية اليهوديّة في الواقع هي صهيونية أعضاء الجماعات اليهوديّة التوطينية. فهم لا يرغبون في الهجرة إلى فلسطين، كما أنّهم لا يؤمنون بالإله أو باليهودية كنسق ديني. ولكنهم، مع هذا، يؤمنون بقداسة صفاتهم الإثنية القومية، أو على الأقل يؤمنون بأن إثنيتهم تشكل النقطة المرجعية الأساسية لوجودهم كيهود وبأن إسرائيل تُعبّر عن هذه الإثنية. ومن ثم، فهم يستمرون في تعظيم ذاتهم القومية أو الإثنية وتمجيدها، وفي تعظيم الدولة الصهيونية وتمجيدها، ولكنهم لا يهاجرون إليها قط. ولحل هذه المشكلة وضمان الاستمرار في التمتع بالهوية الإثنية، قام يهود الولايات المتحدة بإعادة تعريف إسرائيل باعتبارها بلدهم الأصلي أو وطنهم القومي، كمثل إيطاليا بالنسبة للأمريكيين من أصل إيطالي، وكذلك بولندا بالنسبة للأميركيين من أصل بولندي. أما الولايات المتحدة ، فهي وطنهم القومي الحالي. ولأن إسرائيل هي بلدهم الأصلي، فهي تمنحهم هوية إثنية خاصة ولا تلقي عليهم أية أعباء أخلاقية. والأهم من ذلك أنّ التعريف الإثني، للهوية اليهوديّة على الطريق الأميركيّة لا يتطلب منهم الهجرة، فالإنسان لا يهاجر إلى بلده الأصلي وإنما يهاجر منه! (أي أنّ الإثنية اليهوديّة تجمع كلّ اليهود تحت لواء الصهيونية في الظاهر، وتيسر عليهم الهرب منها في الباطن. وهذا ما نسميه "التملص اليهوديّ من الصهيونية" بدلاً من قبولها أو رفضها). هذا ويُلاحَظ أنّ هذه الإثنية اليهوديّة ذاتها (شأنها شأن الإثنية الإيطالية أو الآسيوية) أصبحت مجرد قشرة زخرفية فارغة.

الفصل الرابع

تاريخ الهويات اليهوديّة

تاريخ الهويات اليهوديّة طويل ومركب ويغطي العديد من الأزمنة والأمكنة التي يربطها رابط في أغلب الأحيان. وأولى الهويات اليهوديّة ما نسميه "الهوية العبرانية" قبل أن يتم تهجير اليهود إلى آشور وبابل حيث شكل العبرانيون جماعة شبه قبلية تتحدث العبرية كما كان لهم نفسهم الديني الخاص بهم.

والعبرية اكتسبها اليهود عن إحدى اللهجات الكنعانية. وقد ظهر المصطلح يهودي بعد التهجير إلى بابل. وبعد هذه الحقبة ظهرت جماعة السامريين التي شكلت جماعة دينية مستقلة ذات هوية دينية قومية مستقلة. ويرى السامريون أنهم هم أتباع النبي موسى(ع) الحقيقيون الذين لم يفسدوا اسفاره الخمسة بتعاليم الحاخامات وتفسيراتهم أي التلمود.

يمكننا حصر بعض الهويات اليهودية باستخدام معيارين: أحدهما ديني والآخر قومي اثني. فعلى المستوى الديني كان هناك السامريون كتجمع ديني مقابل بقية اليهود الذين كانوا ينقسمون بدورهم إلى عدة فرق لكل فهمه الخاص لليهودية ومن أهمها الصدوقيون والفريسيون.

لقد انقسمت اليهوديّة ودخلت مدارين أساسيين: المدار الإسلامي والمدار المسيحي. وازدادت الهوة اتساعاً بين الهويات اليهودية في الشرق والغرب. فيهود الأندلس والعالم العربي مثلاً كانوا يتحدثون العربية ويكتبون بها، بينما كان يهود فرنسا يتحدثون برطانة فرنسية ويكتبون بالعبرية. ثم ظهرت اليديشية (لغة الإشكناز في شرق أوروبا واللادينو لغة يهود السفاراد في حوض البحر الأبيض المتوسط). وكانت هناك بقايا يهود الرومانيون الذين يتحدثون اليونانية ويهود إيطاليا الذين يتحدثون الإيطالية. كما ظهرت هويات يهودية مختلفة في أماكن متفرقة مثل: الخزر في منطقة القدوماز والفلاشاه في أثيوبيا وبني إسرائيل في الهند ويهود والصين في كايفخ ويهود مانيبور والتشويتاس واليهود السود. ولم يكن انتماء هؤلاء الديني إلى اليهودية الحاخامية وإنما كان انتماؤهم إلى تقاليد دينية مختلفة دخلت عليها عناصر دينية واثنية محلية. وكان يوجد أيضاً يهود إيران وأفغانستان الذين يتحدثون اللغة الفارسية وغيرها من اللغات، وبعض اليهود الأكراد الذين يتحدثون الكردية.

وظهر عدد ضخم من الجماعات اليهوديّة الصغيرة في القوقاز مثل: يهود الجبال ويهود جورجيا ويهود الكرمشاكي. وظهرت جماعات يهودية في جبال الأطلس تتحدث البربرية. ومن الانقسامات الدينية المهمة ظهور حركة الشبتانية وظهور يهود المارانو في حوض البحر الأبيض المتوسط ويهود الدونمة في الدولة العثمانية.

هذه هي الفسيفساء التي كانت قائمة عندما ظهرت العلمانية في المجتمعات الغربية والتي زلزلت اليهودية الحاخامية وعمقت عدم التجانس.

الباب الثاني

الهويات اليهودية المعاصرة

الفصل الأول

الخريطة العامة للهويات اليهوديّة في الوقت الحاضر

لاحظنا أنّ التطور التاريخي للهويات اليهوديّة المختلفة نجم عنه ظهور هويات لا حصر لها ولا عدد. ولاحظنا أنّ تعريف الشريعة اليهوديّة لمن هو اليهوديّ كان تعريفاً يعاني من الخلل، فلا هو ديني ولا هو عرقي، بل تجمع عناصر دينية وعرقية دون تعريف حدود كلّ عنصر. وقد زادت الصورة اختلاطاً وسوءاً مع ظهور الفرق اليهودية الحديثة وظهور اليهوديّة الإثنية والإنسانية، وإصرار كلّ هؤلاء على أن يسموا أنفسهم يهوداً.

كلّ هذا يدل على أنّ كلمة يهودي تشير إلى أشخاص يؤمنون بانساف دينية متعارضة من بعض النواحي وينتمون إلى تشكيلات حضارية مختلفة، وهذا يدل على وجود مغاز ومعان دينية وقومية مختلفة. ومنذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى عشية ظهور الدولة الصهيونية، إلى عشرات الهويات والانتماءات الدينية والوثنية والطبقية:

١ ـ يهود اليديشية، ويطلع عليهم عادة يهود شرق أوروبا أو الإشكناز. وهم أكبر القطاعات اليهوديّة في العالم. وكان هؤلاء يوجدون في أوكرانيا ومنطقة الاستيطان اليهوديّة في روسيا وبولندا. وكانوا ينقسمون بدورهم إلى قسمين أساسيين:

أ ـ يهود متدينون يعرفون هويتهم على أساس ديني.

ب ـ يهود تمت علمنتهم ويعرفون يهوديتهم على أساس اثني.

وكان معظم أعضاء هذا التجمع اليهودي يتحدثون اللغة اليديشية وقد حملوها معهم إلى إنكلترا و الولايات المتحدة وأميركا اللاتينية وجنوب إفريقيا. ولكن كانت بينهم قطاعات تتحدث البولندية والأوكرانية والروسية والألمانية.

٢ ـ يهود العالم الغربي المندجمون الذين كانوا يتحدثون لغة بلادهم. وهؤلاء كانوا ينقسمون إلى عدة أقسام، فمنهم يهود متدينون يعرفون أنفسهم على أسس دينية مختلفة (إصلاحي ـ محافظ ـ تجديدي ـ أورتوذوكسي) ومنهم أيضاً يهود لا دينيون. وأكبر تجمع لهؤلاء يوجد في الولايات المتحدة.

وقد تزايد عددهم بوصول يهود اليديشية الذين اندمجوا بدورهم في المجتمعات التي وصلوا إليها واكتسبوا سماتها الإثنية والحضارية وفقدوا هويتهم السلافية اليديشية وظهر ما اسمه "الهوية اليهوديّة الجديدة". كما أنّ العناصر السفارادية في المجتمعات الغربية أنّدمجت هي الأخرى في محيطها الحضاري خصوصاً أنّ أعدادهم كانت صغيرة.

٣ ـ يهود أميركا اللاتينية الذين يتحدثون الإسبانية والبرتغالية أساساً. وقد انضم إليهم آلاف من يهود اليديشية واليهود السفاراد من العالمين العربي والغربي. وقد احتفظت كلّ جماعة يهودية مهجرة بلغتها وهويتها التي أحضرتها من بلدها الأصلي لأن المجتمع الكاتوليكي اللاتيني كان محتفظاً بهويته، فكان التعبير عن الهوية اليهوديّة هو ذاته صدى لبنية المجتمع المضيف. وحينما بدأ المجتمع اللاتيني يفقد هويته بالتدريج، وبدأت تتصاعد فيه معدلات العلمنة، أخذ أعضاء الجماعات اليهودية يفقدون هم أيضاً هويتهم ويندمجون، ولكن في محيطهم اللاديني.

٤ ـ يهود الشرق والعالم الإسلاميّ والعالم العربي، وكان من بينهم اليهود العرب (اليهود المستعربة ـ المستعربون) واليهود السفاراد الذين يتحدثون اللادنيو، وكانت توجد جماعات كبيرة منهم في العالم العربي، وقد انضمت إليهم أعداد كبيرة من يهود اليديشية، ويهود البلاد الغربية (خصوصاً فرنسا). كما تم صبغ كثير من اليهود المحليين العرب بالصبغة الغربية، وحصلت أعداد كبيرة منهم على جنسيات أوروبية.

٥ ـ الجماعات اليهوديّة المتفرقة. (مثل الفلاشاه وبني إسرائيل) التي استمر معظمهما في البقاء. ولم يختف في واقع الأمر سوى يهود الخزر، إذ لا يزال يوجد بعض أعضاء من يهود كايفيخ ومئات وربما آلاف من يهود المارانو والدونمة، وإن كان

ثمة نظرية تذهب إلى أنّ اليهود القرائين الذين يتحدثون التركية هم من بقايا يهود الخزر.

٦ ـ تم تصنيف جميع الجماعات السابقة إلى يهود غربيين يسمون إشكنازيم ويهود شرقيين يسمون سفارادبم برغم خطأ التسمية.

٧ ـ الحقيقة أنّ كلّ التقسيمات السابقة آخذة في الاختفاء وإن ثم ثلاثة أقسام أساسية الآن في العالم هي كالتالي:

أ ـ خارج فلسطين ظهر ما يمكن تسميته "الهوية اليهوديّة الجديدة" وهي هوية ظهرت في المجتمعات الغربية الحديثة، وهي ذات ملامح يهودية اثنية أو دينية، ولكن البعد اليهودي فيها هامشي لا يؤثر في سلوك أعضاء الجماعات اليهوديّة، إذ أن ما يحكم هذا السلوك هو الرؤية العامة السائدة في المجتمع (المتعة واللذة) والتي توجه سلوك المسيحيين واليهود والبوذيين والملحدين.

ب ـ داخل المستوطن اليهودي ظهرت هوية جديدة تماماً لا علاقة لها بكل الهويات السابقة، وهي جيل الصابرا ويتنبأ الدارسون بأن هؤلاء الصابرا سيكونون اغياراً يتحدثون العبرية لا تربطهم بأعضاء الجماعات اليهوديّة في العالم سوى روابط واهية لا تختلف كثيراً عن علاقة اليونانيين المحدثين بالأغريق القدامى. ويميل كثير من علماء الاجتماع إلى اليهود المولودين في إسرائيل ينقسمون أيضاً إلى شرقيين وغربيين ومن ثم يطلق مصطلح الصابراً في واقع الأمر على أولاد اليهود الغربيين وحدهم.

ج ـ يهود متدينون (أورتوذوكس) وهم أقلية صغيرة خارج إسرائيل وأقلية كبيرة داخلها.

والصورة كما نرى مركبة وغير متجانسة على جميع المستويات، فهذه الجماعات التي كانت تفصل بعضها عن بعض هوة من الخلافات الدينية، وكانت تتحدث عشرات اللغات واللهجات تقع ضمن تشكيلات اجتماعية وثقافية لا حصر لها، ابتداء من يهود الغرب المندمجين في مجتمعاتهم الرأسمالية ومروراً بيهود اليمن الذين يشكلون جزءاً متكاملاً من مجتمعهم العربي بكل فنونه وتقاليده ومزاياه وعيوبه، وانتهاء بيهود الفلاشاه (في إثيوبيا) الذين ينتمون إلى تشكيل قبلي ويتحدثون الأمهرية لغة أغلبية أهل إثيوبيا ويتعبدون بالجعزية لغة الكنيسة القبطية فيها. ويلاحظ هنا كيف يتداخل الانتماء الإثني مع الأبعاد الدينية. وربما كان هذا التداخل هو ما جعل مندوب الوكالة اليهوديّة في

الخمسينات لا يتردد في أن ينصح الفلاشاه بحل مشاكلهم كلها ليس بالهجرة إلى إسرائيل وإنما عن طريق التنصر والانضمام إلى الكنيسة القبطية في إثيوبيا.

وهذه الهويات اليهوديّة المختلفة لا وجود لها خارج محيطها الحضاري فإن فقد يهود الفلاشاه الأمهرية والجعزية والشعائر الدينية المختلفة التي أخذوها عن محيطهم الحضاري فإنهم يفقدون هويتهم التي يقال لها "يهودية". ويسري الشيء نفسه على يهود الولايات المتحدة، فخصوصيتهم نابعة من انتمائهم إلى المجتمع الأميركيّ ولا يمكن تخيلهم خارج هذا المحيط الثقافي.

وإذا كانت هناك هوية يهودية مستقلة نسبياً عن محيطها الحضاري فهذا لا يعني بالضرورة أنّ هناك هوية يهودية عالمية واحدة مترابطة والواقع أنّ هناك هويات يهودية. مختلفة متعددة بتعدد المجتمعات التي تتواجد فيها هذه الهويات إذ أنّ انفصالها النسبي لم يؤد بالضرورة إلى ترابط الواحدة مع الأخرى. يهود شرق أوروبا كانوا يكتسبون هويتهم الشرق أوروبية اليهودية من خلال اليديشية. وكان اليهود السفاراد يكتسبون هويتهم الإسبانية من خلال اللادينو. وكانت كلّ من اليديشية واللادينو تعزل أعضاء الجماعة عن محيطهم. ومن ثم كان الصدام بين السفاراد والاشكناز حاداً دائماً في جميع نقاط التماس سواء في أوروبا في القرن السابع عشر أو في العالم الجديد في القرن الثامن عشر أو في المستوطن الصهيوني في القرن العشرين.

المجتمعات الغربية التي يعيش فيها اليهود الجدد لا تهتم كثيراً بالدين في أبعاده المعرفية الكلية ولذا فهو لا يوجه سلوك أعضائها ولا رؤيتهم لذاتهم أو للواقع، وإن كان هناك بعد ديني فهو عادة هامشي ضامر. وهي مجتمعات لا ترى اليهودي باعتباره قاتل المسيح (ع) أو عدو الاله ولا ترى اليهود بأنهم الشعب الشاهد. وأعضاء هذه المجتمعات قد يتحدثون عن التراث اليهودي/المسيحي ولكن الإنسان بالنسبة لهم في التحليل الأخير هو الإنسان الاقتصاديّ، المنتج والمستهلك، والإنسان الجسماني، الباحث عن المتعة. وبدلاً من العقيدة المسيحية ظهرت مجموعة من العقائد العلمانية المختلفة (مثل الوجودية والماركسية والنازية والليبرالية...) يمكن أن يؤمن بها كلّ من يشاء. وقد طلبت حركة الانعتاق من اليهوديّ أن يكون يهودياً في بيته مواطناً في الشارع. والجميع في النهاية يلتقون على أرض علمانية صلبة. والأميركيون اليهود هم أهم قطاعات اليهود الجدد وأكبرها إذ يشكلون نحو ٩٠٪ منهم ويمثلون جماهير الصهيونية الغربية وعمودها

الفقري ويؤثرون في صنع القرار الأميركيّ. وحيث أنّ يهود أوروبا الغربية بل ويهود أوروبا الشرقية أيضاً آخذون في التلاشي (باستثناء يهود فرنسا التي هاجر إليها يهود المغرب) فاستخدام مصطلح اليهود المجدد يصبح مرادفاً لاستخدام مصطلح الأميركيون اليهود. وقد ساهمت خصوصية الولايات المتحدة الأميركيّة في سرعة ظهور الهوية اليهوديّة الجديدة وفي بلورتها. وتتمسك هذه الخصوصية بالعناصر التالية:

١ ـ المجتمع الأميركيّ مجتمع استيطاني يتكون من فسيفساء اثنية. ورغم أنّ ثمة نواة بروتستانتية بيضاء أسست المجتمع وشكلت أغلبية أعضاء النخبة، فإن المجتمع لا توجد فيه أغلبية متجانسة. ولذا لا يشكل اليهود الأقلية الإثنية أو الدينية الوحيدة، وإنما توجد بالإضافة إليهم عشرات الأقليات الأخرى، مثل الإيطاليين والإيرلنديين والمهاجرين ذوي الأصل الإسباني من بورتوريكو وأميركا اللاتينية إلى جوار العرب والسلاف. كما توجد الآن أعداد كبيرة من الآسيويين من الهند والصين واليابان وهناك أيضاً أعداد كبيرة من الأقليات الدينية من كلّ شكل ولون.

٢ ـ المجتمع الأميركيّ مجتمع جديد منفتح يوجد فيه مجال للريادة والاستثمارات والمحراك الاجتماعي، الأمر الذي يسر لأعضاء الجماعات اليهوديّة أن يحققوا كلّ إمكانياتهم الاقتصاديّة وأن يستثمروا كفاءاتهم ورؤوس أموالهم بشكل كامل.

٣ ـ لم يمارس المجتمع الأميركيّ أي تمييز ضد أعضاء الجماعات اليهوديّة في الحقوق السياسيّة أو المدنية بل منحهم هذه الحقوق كاملة منذ البداية.

وهكذا لا يتفاعل اليهود الجدد مع ثقافة إسرائيل العبرية إلاّ باعتبارها ثقافة أجنبية يربطهم بها اهتمام خاص تماماً مثلما يتفاعل المهاجر الإيطالي مع الثقافة الإيطالية حينما يدفعه الحنين الرومانسي أليها وذلك دون أن يضحي بهويته الأميركيّة.

في السياق نفسه تجدر الإشارة إلى أنّ الشكل الأساسي للهوية المعلنة بين الأميركيين اليهود واليهود الجدد هو إعلان انتمائهم الصهيوني بشكل متشنج حتى يضفوا ما يشبه المضمون الإيجابي الصلب على هذه الهوية اليهوديّة الهشة السطحية، فهي تجعل الأميركيّ اليهودي فرداً من الشعب اليهودي القديم فخوراً بتراثه ورموزه القومية، خصوصاً الرمز القومي الأكبر، أي الدولة الصهيونية. ولكن بشيء من التحليل المعمق، نكتشف أنّ يهود العالم الغربي و الأميركيّين اليهود قبلوا الصهيونية حسب شروطهم هم. والصهيونية بحد ذاتها هنا تقسم إلى قسمين: صهيونية استيطانية أي أن يهاجر

المواطن اليهوديّ من بلده ويتحول إلى مستوطن صهيوني في فلسطين، وصهيونية توطينية أو صهيونية الغوث والمعونة والهوية وهذه صهيونية تترجم نفسها إلى تبرعات مالية لإسرائيل للمساعدة في توطين اليهود الآخرين، وإلى تأييد وضغط سياسيين من أجلها، وإلى مصدر من مصادر الهوية، بحيث تصبح إسرائيل بالنسبة لهؤلاء الأميركيّين اليهود هي البلد الأصلي (مسقط الرأس) مثل إيطاليا بالنسبة للإيطاليين وإيرلندا بالنسبة للإيرلنديين وهكذا. ولهذا لا يهاجر اليهود الجدد إلاّ بإعداد صغيرة حيث نجد أنّ معدل الهجرة في صفوف الأميركيّين اليهود سنوياً هو ١٢٥٠ فقط.

٨ ـ أدعياء اليهوديّة

ادعاء اليهوديّة هو أن يدعي شخص غير يهودي، وليس له أية جذور يهودية على الإطلاق، أنه يهودي. ومع هجرة اليهود السوفيات في بداية التسعينات والتي تزامنت مع انهيار الاتحاد السوفيتي، تفاقمت ظاهرة أدعياء اليهوديّة أو "اليهود المتخفين" أي المواطنين السوفيات من أصل يهودي الذين سجلوا أنفسهم على أنّهم غير يهود (وهو أمر كان يسمح به القانون السوفيتي) بدأوا يؤكدون هويتهم اليهودية المزعومة، وانضمت لهم بأعداد متزايدة عناصر غير يهودية على الإطلاق (من بينها عناصر مسيحية بل ومسلمة) ويقال أنّ ما بين نصف أو ثلث المهاجرين اليهود السوفيات في التسعينات غير يهود (مدعو اليهودية أو زوجات وأزواج غير يهود).

ولا يقتصر الامر هنا على يهود الاتحاد السوفيتي السابق بل من المعروف أنّ عدد اليهود في مدينة مكسيكو سيتي كان يبلغ عشرة آلاف ثم قفز إلى ٣٥ ألفاً في عام واحد بعد أن بدأت منظمات يهودية أميركية بتقديم مساعدات للجماعة اليهوديّة في المكسيك. وتكررت هذه الظاهرة أيضاً في إثيوبيا، فالفلاشاه ليسوا يهوداً بالمعنى الحاخامي، ومع هذا سمح لهم بالهجرة إلى إسرائيل، ثم بدأ الفلاشاه موراه بالمطالبة بالهجرة باعتبارهم يهوداً مع أنّهم فلاشاه تنصروا منذ قرنين من الزمان. وهذه الظاهرة توسعت كثيراً في الآونة الأخيرة إذ بدأ أفراد بعض القبائل في آسيا وأفريقيا يعلنون أنهم يهود (من نسل القبائل العبرانية العشر المفقودة). ومن ثم يحق لهم الهجرة إلى إسرائيل بمقتضى قانون العودة. وقد عرفت المحكمة الإسرائيليّة العليا اليهوديّ بأنه من يرى نفسه كذلك. وهذا يخلق ورطة حقيقية للكيان الصهيوني حتى أن أصواتاً عديدة طالبت بإلغاء هذا القانون.

الفصل الثاني

التعاريف الصهيونية للهويات اليهوديّة

١ ـ التعريف العرقي

يصر المدافعون عن هذا التعريف على رؤية اليهود كعنصر عرقي متميز ولذا فهم يتحدثون عن "الجنس اليهوديّ". وعن اليهود باعتبارهم "جنساً متميزاً". وقد عرف كثير من الزعماء الصهاينة اليهوديّة بأنها "مسألة تتعلق بالدم". وانطلاقاً من ذلك يرى الصهاينة أنّ التزاوج مع الأجانب سيؤدي إلى تدهور العرق اليهوديّ، وأنه لابدّ من تأسيس وطن قومي (لهذا الجنس الفريد) ودولة مستقلة يعبر فيها عن عبقرية ويمارس فيها إرادته. ولكن تم التخلي عن هذا التعريف في هذه الأيام، إذ أنّ النظريات العرقية لم تعد مقبولة في الغرب خصوصاً بعد أن نجح هتلر في القضاء على أعداد كبيرة من اليهود باسم هذه النظريات والاعتبارات.

٢ ـ التعريف الإثني أو التراثي

يري فريق من الصهاينة أنّ اليهود جماعة مترابطة ذات تاريخ مشترك منفصل ومحدد، وأن ثمة روابط تراثية (وليست عرقية) فريدة بقيت على مدى قرابة ٤ آلاف سنة بين اليهود وأن ثمة تماثلاً في أوضاع اليهود الإثنية والتاريخية، والمختلفة من بلد

إلى بلد. وهم يرون أنّ ما حفظ وحدة اليهود هو الدين اليهوديّ لا من حيث هو عقيدة وإنما من حيث هو إطار رمزي وبعد أساسي من أبعاد التراث اليهودي. فالدين هو الوعاء الوحيد الذي ضمن الاستمرار والتجانس الإثني وبناء عليه تكون الدولة الصهيونية هي الإطار الأمثل لكي تعبر هذه الإثنية عن نفسها.

٣ ـ التعريف الديني

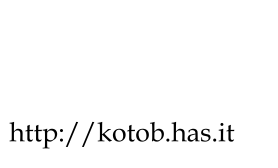
لم يقبل الصهاينة الدينيون التعاريف اللادينية السابقة، وحاولوا استرجاع قداسة الهوية اليهودية. وهكذا فهم يرون أنّ هوية اليهود القومية مصدرها الدين إذ لا يمكن التفرقة بين القومية اليهوديّة والعقيدة اليهوديّة. فاليهود أمة مقدسة وكيان منعزل غريب مقدس يكتسب هويته من علاقته الخاصة مع العرب، ومن رسالته الخالدة بين الشعوب الأخرى والتعريف الديني لا يستبعد العنصر الإثني، فالهوية اليهودية (بحسب تعريف الشريعة) ذات أساس ديني اثني. كما أنّ الهوية اليهوديّة (كما يعرفها الصهاينة المتدينون) لا تحمل معها أية أعباء أخلاقية، بل تمنح اليهود حقوقهم القومية كاملة دون أية مسؤولية تجاه الأغيار (غوييم).

ولذا لا يوجد أي تناقض جوهري بين التعريف الإثني اللاديني والتعريف الديني. ومع هذا يظل مصدر الشرعية في كلا التعريفيين مختلفاً، فمصدر الشرعية والقداسة في القول الصهيوني العلماني هو الشعب اليهوديّ ذاته. أما في القول الديني فإن مصدر الشرعية هو الحلول الإلهي في هذا الشعب. وحينما يتحدث المتدينون على اليهودي، فإنهم يستخدمون، كما هو متوقع، معياراً أورتوذوكسيا.

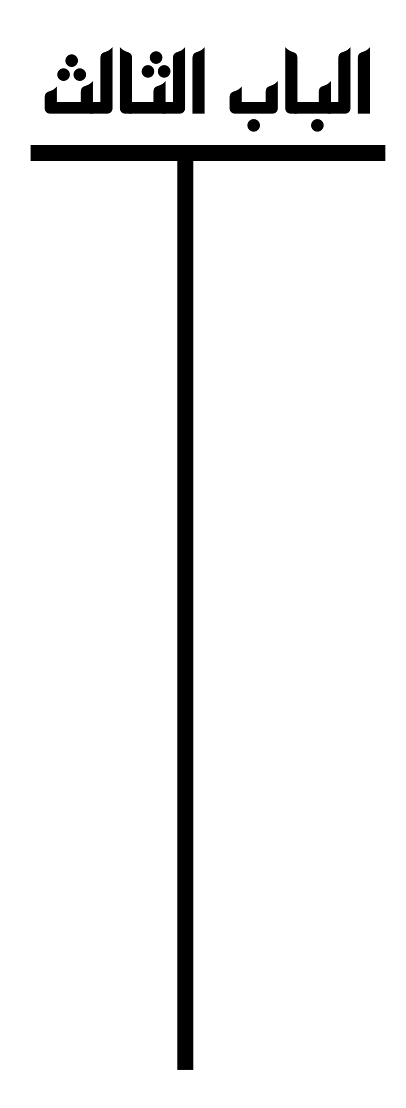
والتعريف السائد الآن في الكيان الصهيوني هو التعريف الصهيوني اللاديني الإثني بالدرجة الأولى، ويليه التعريف الصهيوني الديني الإثني. ومن الملاحظ أن التعريف الديني أخذ في الشيوع والانتشار منذ الستينات. كما أنّ الصراع بين التيارين يفجر قضية الهوية التي يشار إليها بسؤال: من هو اليهودي؟

ومن الضروري أن نتنبه إلى أنّ مقولة الهوية اليهوديّة في السياق الصهيوني الاستيطاني ليست مجرد مقولة نفسية أو فلسفية أو دينية، فهي مقولة قانونية تحمل مضموناً سياسياً واقتصادياً محدداً. فلليهودي في الكيان الصهيوني مزايا وحقوق معينة لا يتمتع بها غير اليهودي. كما أنّ ثمة وكالات ومؤسسات صهيونية عديدة يمولها يهود

الخارج وتعد الترجمة الفعلية والمؤسسية لمقولة اليهودي هذه، فهي مؤسسات تمد يد المساعدة لليهود وحسب، وتحجبها عن غير اليهود. وأهم هذه المؤسسات الصندوق القومي اليهودي الذي يمتلك معظم أراضي فلسطين المحتلة باسم الشعب اليهوديّ، والذي تحرم قوانينه بيع هذه الأراضي أو تأجيرها لغير اليهود أو حتى استخدامهم للعمل فيها. وبذلك يمكننا القول أنّ التعريف الصهيوني للهوية اليهودية هو الأساس النظري للممارسات الصهيونية العنصرية ضد العرب، بل أنّ عمليات ضم الأراضي تتم باسم هذه الهوية. وقد حذر الحاخام آرون سولوفاتيك (زعيم اليهوديّة الأورتوذوكسية في الولايات المتحدة) من أنّ قبول التعريف العلماني لليهودي سيقوي عناصر الضغط على إسرائيل لأن تتنازل عن الأراضي المحتلة وعن أجزاء من القدس وحائط المبكى، حيث أنّها ضمتها باسم الهوية اليهوديّة وباسم الحقوق التي يتمتع بها اليهود.


http://kotob.has.it

الباب الثالث



تناقض الهويات اليهودية

الفصل الأول

التناقض بين الرؤية الصهيونية والممارسات الإسرائيليّة(*)

كانت كلّ جماعة يهودية تمارس تجربتها التاريخية والدينية بمعزل عن الجماعات الأخرى، وكانت كلّ منها تطور هويتها الدينية والإثنية من خلال التشكيل الحضاري الذي توجد فيه وتتعامل معه وتسمي نفسها يهودية، وذلك دون البحث عن خاصية جوهرية ما تربط كلّ أعضاء الجماعات معاً، ودون الحاجة إلى تعريف دقيق وعالمي وشامل لليهودي.

وكان الصهاينة اللادينيون، حتى عام ١٩٤٨، يتحدثون بحرية شديدة عن "الشعب اليهوديّ الواحد" (بالألمانية: أين فولك Volk) Ein، وبالتالي عن "الهوية اليهوديّة الواحدة" و"القومية اليهودية". كما كان الصهاينة المتدينون قانعين بدورهم الثانوي في الحركة الصهيونية، ولكنهم كانوا يتحينون الفرصة ليفرضوا تعريفهم القومي الديني الأرثوذكسي. وقد تم إعلان قيام الدولة الصهيونية لا باعتبارها دولة مستقلة وحسب، وإنما باعتبارها دولة يهودية ليست مقصورة على مواطنيها، فهي أيضاً دولة الشعب اليهوديّ بأسره داخل فلسطين وخارجها. وترى هذه الدولة أنّ مصدر شرعية وجودها هو يهوديتها، ومن هنا محورية تعريف الهوية اليهوديّة، ومن هنا أيضاً حتمية ظهور

(*) أنظر موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ـ عبد الوهاب المسيري ـ ج: ٢، ص: ١٩٠.

التناقضات الكامنة.

وقد أصدرت الدولة الصهيونية عدة قوانين تعطي حقوقاً لصاحب الهوية اليهوديّة. وكان أول هذه القوانين قانون العودة (عام ١٩٥٠) الذي يعطي لأي يهودي الحق، أينما كان، في الهجرة إلى إسرائيل (فلسطين المحتلة)، والاستيطان فيها. ثم صدر عام ١٩٥٢ قانون تكميلي هو قانون المُواطَنة الإسرائيليّة، والذي يمنح الجنسية الإسرائيليّة لكل المهاجرين اليهود. ولكن كلا القانونين لم يعرّف من هو اليهودي، وتركت القضية معلقة. وقانون العودة ليس القانون الوحيد الذي يتطلب تعريف اليهوديّ، إذ تتم الإشارة إلى اليهوديّ في الدولة الصهيونية في سياقين آخرين. فقانون تسجيل المواطنين يتعرض لهذه القضية إذ تتضمن الهوية في إسرائيل البنود المعتادة مثل الجنسية (إسرائيلي)، والديانة (يهودي أو مسلم أو مسيحي)، ولكن هناك بنداً ثالثاً خاصاً بالقومية (عربي بالنسبة للعرب المسلمين والمسيحيين ويهودي بالنسبة للإسرائيليين اليهود). ولابدّ أن يتفق البندان الخاصان بالديانة والقومية في حالة الإسرائيليّين اليهود باعتبار أنّ الصهيونية في أحد تعاريفها للهوية تُوحد بينهما.

أما السياق الثالث الذي تتم الإشارة فيه إلى اليهودي، فهو المحاكم الحاخامية التي تمارس السلطة المُطلقة في أمور الزواج والطلاق. والتعريف الذي تأخذ به هذه المحاكم هو التعريف الديني القومي (الأرثوذكسي) وحسب، وهو يستبعد أي تعريف آخر.

ويمكننا أن نتحدث عن عدة تناقضات أساسية، واجهها الصهاينة في محاولتهم تطبيق المُثُل الصهيونية، ولكنهم فضلوا إرجاءها وعدم التعرض لها:

١ ـ التناقض بين الدينيين واللادينيين

التعريف الديني الأرثوذكسي لليهودي أمر معروف أقرته الشريعة اليهودية الحاخامية. أما التعريف القومي (غير الديني)، فهو مسألة غامضة للغاية، إذ أنّ من الصعب تعريف هذه الخاصية القومية الفريدة التي تُميز هذا الحشد الهائل من الجماعات اليهوديّة التي تتمتع بهويات متعددة. ومن الصعب كذلك، بل وربما من المستحيل، تعريف اليهوديّ الملحد أو اليهوديّ الإثني، أو اليهوديّ غير اليهوديّ. وفي نهاية الأمر، تصبح المسالة مسألة إحساس داخلي غامض يمارسه اليهودي بوجود هذه الخاصية اليهوديّة داخله.

ولذلك، يشير بعض المعلقين إلى التعريف الديني بأنه تعريف موضوعي، أي يستند إلى مقاييس خارجة عن الذات ويمكن الاحتكام إليها. أما التعريف العلماني، فهو تعريف ذاتي يستند إلى حالة شعورية تتفاوت في حدتها وعمقها من شخص إلى آخر. وبالفعل، تُعرف الأوساط العلمانية اليهوديّ بأنه من يشعر في قرارة نفسه بأنه يهودي ويعلن ذلك بإخلاص دون الحاجة إلى قرائن خارجية، وهو تعريف يخلق من المشاكل أكثر ممّا يحلّ.

ولإيضاح هذه النقطة، يمكن أن نشير إلى العاهرات وتجار الرقيق الأبيض والقوادين من أعضاء الجماعة اليهوديّة ممن تركزوا في الأرجنتين، وكونوا قطاعاً اقتصادياً كبيراً وجماعته ضغط، وأصبحت لهم مؤسساتهم الخاصة من نواد ومسارح ونظام رفاه اجتماعي. وهذه مسألة مفهومة تماماً في إطار علماني مادي حيث يقوم من لهم مصالح مشتركة بتنظيم أنفسهم. ولكن المشكلة ظهرت حينما أصر هؤلاء المشتغلون بهذه المهنة الشائنة على انتمائهم أو هويتهم اليهوديّة، ومن ثم كانت لهم معابدهم الخاصة وحاخاماتهم الذين يفون باحتياجاتهم الروحية، بل وكانوا يخرجون في استعراضات أو مواكب في الأعياد الدينية اليهوديّة! وغني عن القول أنّ هذا كان يسبب حرجاً شديداً لأعضاء الجماعة اليهوديّة، فظلوا يحاربون هذا الجيب الذي يُصرّ على يهوديته حتى نجحوا في القضاء عليه تماماً. وكل ما تَبقّى من هذا الجيب هو ملجأ للبغايا اليهوديات العجائز في بيونس أيرس.

٢ ـ التناقض بين السفارد والإشكناز

يمكن القول بأن الصهيونية، على مستوى الممارسة منذ أول أيامها وحتى عام ١٩٤٨، قد عرّفت اليهوديّ بأنه اليهوديّ الأبيض (الإشكنازي). وكانت، في هذا، متسقة تماماً مع نفسها، فقد كانت تُقدّم نفسها باعتبار أنّها تجربة تتم داخل إطار التشكيل الاستعماري الاستيطاني الغربي، ولذا كان على الصهاينة إثبات بياض بشرة اليهوديّ حتى يتسنى للمستوطنين أن يشاركوا في حَمْل عبء الرجل الأبيض، ويستفيدوا في الوقت نفسه من الأمن العسكريّ والدعم الاقتصاديّ الذي يوفره القائمون على المشروع الاستعماري، ويحلوا محل أحد شعوب آسيا وأفريقيا. وقد بذل آرثر روبين، أحد أهم علماء الاجتماع الصهاينة والمسؤول عن الاستيطان في فلسطين لفترة طويلة قبل إنشاء

الدولة، جهداً "علمياً" فائقاً لإثبات أنّ اليهودي هو الإشكنازي وحده وأنّ الشرقيين ليسوا يهوداً. وهناك العديد من البيانات والتصريحات تُعبر عن هذا الموقف. لكن هذا الموقف يتناقض تماماً مع موقف الصهيونية الأصلي، فالصهيونية تكتسب شرعيتها من زعمها بأنها حركة الشعب اليهوديّ بأسره.

٣ - التناقض بين التعاريف الدينية المختلفة

لا تنحصر المسألة في التناقض بين الدينيين والعلمانيين وحسب، أو بين الإشكناز والسفارد فقط، وإنما تمتد لتشمل مجال الدينيين ذاته. فالأرثوذكس لا يعترفون بالحاخامات الإصلاحيين ولا بالحاخامات المحافظين كيهود. ولذا ، فهم لا يعترفون بالمتهوّدين على أيدي مثل هؤلاء الحاخامات. وفي معرض دفاعهم عن وجهة نظرهم، يذكر الأرثوذكس أنّ الشريعة، بحسب اليهوديّة الحاخامية، حدّدت الخطوات اللازمة للتهوّد بشكلٍ واضح تماماً كما حدّدت من هو اليهوديّ. فلكي يتهوّد إنسان ما، يجب أن يتم ختانه إن كان ذكراً، أما الأنثى فعليها أن تأخذ حماماً طقوسياً وهي عارية أمام ثلاثة حاخامات (وهو الأمر الذي يسبب الحرج للإناث المتهوّدات). وعلى المتهوّد أن يتقبّل نير المتسفوت (الفرائض أو الأوامر والنواهي)، أي أن يعيش حسب قانون التوراة. أما الحاخامات الإصلاحيون، فلا يلتزمون بهذه الخطوات، إذ يكفي عندهم أن يحضر راغب التهود محاضرة عن التاريخ اليهوديّ، أو يقرأ مقطوعة من العهد القديم. ويقر الحاخامات الإصلاحيون بأن مراسم التهويد التي يقومون بها لا تتّبع الشريعة، ولكنهم يصرون في الوقت نفسه أنّ هذا لا يمنع كونها مقدّسة. أما المحافظون، فيرون أنّهم يتبعون الشريعة، لكن الأرثوذكس لا يوافقونهم على ذلك.

ومن المشاكل الأخرى التي ظهرت داخل المعسكر الديني مشكلة قيام اليهوديّة الإصلاحية بإعادة تعريف اليهوديّ بحيث أصبح من يُولَد لأب يهودي أو أم يهودية، وهو ما لا توافق عليه اليهوديّة الأرثوذكسية واليهودية المحافظة.

الفصل الثاني

التناقضات
بين الدينيين واللادينيين

هناك تناقضات يصعب تصنيفها لأنها ذات طابع ديني إثني، وقد نشأت هذه التناقضات أساساً بين المؤسسة الدينية وبعض الجماعات اليهوديّة الصغيرة بشأن انتمائهم الديني والإثني وما إذا كان هذا الانتماء خالصاً أم أنّه هجين.

وكانت أولى المشاكل التي واجهها الصهاينة التناقض بين السفارد والإشكناز، وهو انقسام سبق إعلان الدولة. وقد لجأت السلطات البريطانية لطرق عمليّة غير عقائدية لحله، إذ سمحت بوجود حاخاميتين: واحدة سفاردية، والأخرى إشكنازية، بكل ما ينطوي عليه ذلك من انقسام عميق ذو طابع ديني، ولكنه ذو أبعاد طبقية وإثنية. وهو من العمق بحيث يتبدّى من خلال تنوّع الأحزاب الإسرائيليّة وبنيتها وأنماط التصويت في الانتخابات التي تجري في المستوطَن الصهيوني. ومع هجرة اليهود الشرقيين من العالم العربي والعالم الإسلاميّ وبلاد الشرق الأخرى، مثل الهند، زاد العنصر الشرقي على حساب العنصر الغربي، وأصبح الشرقيون أغلبية في المجتمع، الأمر الذي اضطر المؤسسة الحاكمة إلى إخفاء تعريف الهوية الذي يعادل بين الإشكنازي واليهودي، وكفت المؤسسة عن إطلاق التصريحات العنصرية ضد اليهود السفارد ويهود البلاد الإسلاميّة. لكن الرؤية الكامنة التي تُوجّه الدولة الصهيونية لا تزال، أولاً وأخيراً إشكنازية، وهي تحاول القضاء على الأشكال الحضارية الشرقية التي أحضرها اليهود الشرقيون معهم، ولا تزال النخبة الحاكمة في إسرائيل غربية بوجه عام وإشكنازية

بالدرجة الأولى.

ومن الأمثلة الأخرى التي انفجرت فيها قضية الهوية من منظور ديني، قضية يهود الهند المعروفين باسم بني إسرائيل. فالحاخاميتان، السفاردية و الإشكنازية، لم تعترفا بهم كيهود، لأنهم يمارسون الزواج المُختلط ولا يعرفون التلمود. وقد استمرت مشكلتهم قائمة إلى أن اضطرت المؤسسة الدينية إلى الرضوخ لضغط المؤسسة السياسية. ولم تعترف الحاخاميتان أيضاً بيهود الفلاشاه، ولم تشجع هجرتهم طيلة الأعوام الثلاثين الماضية لعدة أسباب، من بينها أنهم هم أيضاً لا يعرفون التلمود، ولكن حينما طُلب إليهم التهود، رفضت أعداد كبيرة منهم ذلك. فاقترحت الحاخاميتان صيغة مخففة للتهويد تتضمن عمليّة تختين رمزية (حين قبل بعضهم ذلك سارع ممثل الحاخامية السفاردية بتختينهم قبل أن يقوم ممثل الحاخامية الإشكنازية بهذه العملية. ولكن حينما حضر الأخير قام هو الآخر بالعملية نفسها، أي أنّهم تم تهويدهم وتختينهم مرتين خلال عدة أيام). وتثار قضية اليهود القرّائين واليهود السامريين من آونة إلى أخرى، خصوصاً حينما يتم زواج مُختلط بين أحد أعضاء إحدى هاتين الجماعتين وفرد ينتمي إلى اليهوديّة الحاخامية. ولم تضطر الدولة الصهيونية ولا المؤسسة الدينية إلى الدخول في صراع عميق مع أيٍّ من هذه الجماعات بسبب صغر أحجامها وقلة نفوذها داخل وخارج إسرائيل. ولم تأخذ المؤسسة السياسية موقفاً حاسماً في هذه القضية، بل تركت الأمر للمؤسسة الدينية تصرفه بطريقتها.

ومع منتصف الخمسينيات، ظهرت التناقضات بين الدينيين واللادينيين، وكذلك بين الأرثوذكس من ناحية وبقية الفرق الدينية من ناحية أخرى، وذلك حينما بدأت المؤسسة الأرثوذكسية في الخارج تضغط على المؤسسة الدينية في إسرائيل حتى تتبنى موقفاً أكثر تشدداً من مسألة تعريف اليهوديّ. وقد تزامن ذلك مع موجة من الهجرة من شرق أوروبا ضمت عدداً كبيراً من الزيجات المُختلطة. وفي عام ١٩٥٧، قرر رئيس قم تسجيل الهوية في وزارة الداخلية (وهو عضو في الحزب الديني القومي) ألا يقبل وصف المهاجر لنفسه بأنه يهودي باعتباره المقياس الوحيد معتبراً أنّه معيار علماني ذاتي، وأصدر أمراً إدارياً للموظفين في إدارته بذلك. ورداً على ذلك ، أصدر وزير الداخلية (وكان علمانياً من حزب اتحاد العمال "أحدوت هاعفود") قراراً في مارس ١٩٥٨ يؤكد فيه التوجيهات القديمة التي تقبل المعيار الذاتي. فانسحب الحزب الديني القومي من

الائتلاف الحاكم احتجاجاً. فقام بن جوريون بالكتابة إلى خمسين شخصية يهودية (دينية وفكرية) في أنحاء العالم يطلب إليهم الفتوى في هذا الأمر (وكان يشار إليهم بعد ذلك بوصفهم "حكماء إسرائيل"!).

وجاءت الإجابات مشتملة على سائر التناقضات المتوقعة والتي لم يحسمها الفكر الصهيوني قبل قيام الدولة. فقد عرّف القسم الأكبر منهم (٣٧) الهوية اليهوديّة على أساس الشريعة، ولكن نفراً منهم تَبنّى معيار الاختيار الشخصي (اليهودي هو من يعتبر نفسه كذلك)، وتَبنّى نفر آخر معيار القسر الخارجي، أي أنّ اليهوديّ هو من يعتبره الأغيار كذلك. ومع هذا، صدر عام ١٩٥٩ توجيه إداري ينص على تعريف اليهوديّ بأنه الشخص الذي وُلد لأم يهودية، وذلك لاسترضاء الحزب الديني القومي حتى يعود إلى التحالف.

وقد ضمت الوزارة التالية وزيراً للداخلية من الحزب الديني القومي، فأصدر توجيهات إدارية عام ١٩٦٠ يُعرّف فيها اليهوديّ بأنه من يثبت أن أمه يهودية تهوّد حسب الشريعة وعلى يد حاخام أرثوذكسي. وقد وعد الحزب الديني بأن التعديل ستتم الموافقة عليه، ولكن الرأي العام الإسرائيليّ أفشل هذه المحاولة.

ثم تفجرت القضية مرة أخرى بهجرة الأخ دانيال (أوزوالد روفايزين) الذي وُلد لأبوين يهوديين في بولندا، وانضم إلى المقاومة ضد النازية وأنقذ كثيراً من اليهود. وبعد أن قُبض عليه فرّ إلى دير راهبات وعاش فيه متخفياً في زي راهبة حتى انتهت الحرب، فاعتنق المسيحية ودخل سلك الرهبنة، وهاجر إلى إسرائيل بموافقة الفاتيكان، وطلب اعتباره يهودياً بمقتضى قانون العودة، أي باعتباره يهودياً. وقد ذكر في طلبه أنّ الشريعة اليهوديّة تقرر أنّ اليهودي لا ينسلخ بتاتاً عن دينه اليهوديّ مهما بلغت ذنوبه وذلك بحسب ما جاء في كتاب السنهدرين في التلمود. وقد ذكر الأخ دانيال أنّه إذا كان بوسع الملحد أن يظل يهودي القومية، فمن باب أولى أن يُعتبر هو (المسيحي) يهودياً!! وقد رفضت المحكمة العليا طلبه عام ١٩٦٦، وقالت في حكمها إنه وفقاً للعرف المعمول به فإن كلّ من يغير دينه بدين آخر يُعدُّ غير يهودي لأنه اختار أن ينفصل عن مصير الشعب اليهوديّ تاريخه (ويُلاحظ أنّ فكرة المصير هذه ستصبح بالتدريج ركيزة التعريف اللاديني الأساسية). وقد بيّنت المحكمة أن حكمها هذا مناف للشريعة اليهوديّة وأكثر تشدداً منها، وأنّ الأخ دانيال قد يكون يهودياً بحسب الشريعة، ولكن لا يمكن اعتباره

يهودياً من منظور قانون العودة، أي أنّ المحكمة أخذت بتعريف لا ديني لليهودي، وجعلت أساس اليهوديّة الانتماء القومي.

ومن المفارقات، أنّ المؤسسة الدينية الأرثوذكسية كانت تقف ضد طلب الأخ دانيال، أي أنّها أخذت موقفاً أكثر تشدداً من الشريعة ذاتها بل ومنافياً لها. وقد قيل في معرض نقد هذا الحكم إنه يتعلق بتعريف من هو غير اليهوديّ ولكنه لا يعرّف اليهوديّ من قريب أو بعيد. ولم تترك القضية أثراً عميقاً في الدولة الصهيونية لأنها لم تؤثر على علاقتها بيهود العالم. بل وشعر كثير من الإسرائيليّين بأنها تخصهم.

وأثيرت القضية مرة أخرى وبحدة عام ١٩٦٨ حينما طلب الضابط بنيامين شاليط (المتزوج من إنجليزية غير يهودية رفضت التهود بسبب لا أدريتها) تسجيل أولاده باعتبارهم إسرائيليي الجنسية يهوديي القومية، على أن يُكتب في بند الدين عبارة "لا يوجد"، أي أنّه طلب الأخذ بالتعريف الإثني دون الديني. وحينما رُفض طلبه، رفع قضية في المحكمة العليا التي حكمت لصالحه عام ١٩٧٠، وذكرت المحكمة في حكمها أنّ مصطلح "قومية" خاضع للتفسير العلماني، فأولاد شاليط ارتبطوا بمصير الشعب اليهوديّ وتاريخه. ومع هذا، أكدت المحكمة أنّ حكمها ينصب على الوضع المدني، أي على قانون العودة وقانون المواطنة والإجراءات الخاصة بالتسجيل، ولا ينصرف إلى الأحوال الشخصية (مثل الزواج والطلاق) التي تختص بها المحاكم الحاخامية. وقد رفض اليهود الأرثوذكس الأخذ بهذا الحكم، لأنه في تصوّرهم سيُقسّم اليهود إلى قسمين: يهود مؤمنين ويهود غير مؤمنين. ولذا، صدر عام ١٩٧٠ تعديل لقانون العودة، وعُرّف اليهوديّ بأنه من ولد لأم يهودية بشرط ألا يكون على دين آخر. ونص أيضاً على أنّ اليهوديّ هو المتهوّد، وهو تعريف يعتمد الجانبين الإثني والديني، ولا يزال هذا التعريف هو المعتمد.

ومع هذا، أثار التعريف غضب الدينيين واللادينيين. كما أنّ جورج طامارين، المحاضر في جامعة تل أبيب، أثار جانباً آخر غير مُتوقّع للقضية. فقد رأى أنّ التعريف الأخير تعريف ثيوقراطي، أي يستند إلى أساس ديني. ولذا ، طالب بأن يسجّل في بند القومية لفظ "إسرائيلي" بدلاً من "يهودي". وقد رُفض طلبه بطبيعة الحال، لأن ذلك يعني رفض الصهيونية من أساسها.

أما الأرثوذكس، فلم يعجبهم التعريف الجديد إذ أنه يعترف ضمناً باليهود المتهوّدين

على يد حاخامات إصلاحيين ومحافظين، وهم في نظر الأرثوذكس ليسوا يهوداً، أو على الأقل مشكوك في يهوديتهم، ولذلك فهم يطالبون بإضافة عبارة "تهود حسب الشريعة" (بالعبرية: كاهالاخاه) أي على يد حاخام أرثوذكسي.

وتحوّلت القضية، من ثم، إلى من هو الحاخام؟ وقد قُدّم إلى الكنيست مشروع قرار بهذا المعنى، رُفض في ١٦ يناير ١٩٨٥، وتسبّب المعراخ أساساً في إسقاطه. والملاحَظ أنّ هذا التعديل الأخير المُقتَرح سيثير من المشاكل أكثر ممّا يحل، فهو على سبيل المثال سيهز أحد الأسس التي يستند إليها التجمع الصهيوني، وهي فكرة "الوضع الراهن". والعبارة تشير إلى الوضع السائد في فلسطين إبان حكم الانتداب. وقد توصّل الصهاينة الدينيون والصهاينة اللادينيون، عشية إنشاء الدولة، إلى اتفاق على أنّ الدولة الصهيونية ستلتزم بالشعائر والأعراف السائدة في ذلك الوقت في المجال الديني. ولا يزال الاتفاق يحكم مدى التزام الدولة بتنفيذ الشعائر الدينية.

وقد أثيرت عام ١٩٨٧ قضية شوشانا ميلر المواطنة الأمريكية التي اعتنقت اليهوديّة على يد حاخام إصلاحي ثم هاجرت عام ١٩٨٥ إلى إسرائيل، حيث رفضت وزارة الداخلية الإسرائيليّة منحها الجنسية بمقتضى قانون العودة. وطلب إليها وزير الداخلية أنّ تتهوّد مرة أخرى على يد حاخام أرثوذكسي، فرفضت طلبه وتقدمت بشكوى إلى القضاء. ولحسم المسألة، اقترح الوزير أنّ يُكتب على بطاقة تحقيق الشخصية الخاصة بالمتهوّدين لفظة "متهوّد" بدلاً من "يهودي"، سواء أكان التهود قد تم على يد حاخام إصلاحي أم على يد حاخام محافظ أم أرثوذكسي، فرفضت المواطنة ذلك أيضاً باعتبار أنّ هذا سيحولها إلى يهودية من الدرجة الثانية. وقد حكمت المحكمة لصالح الشاكية، فاستقال وزير الداخلية واتهم اليهود الإصلاحيين بأنهم "يقودون أمة إسرائيل إلى التهلكة". ولكن الوزارة اضطرت في نهاية الأمر إلى تسجيل بعض مَنْ تهوّدوا على يد حاخامات غير أرثوذكس باعتبار أنهم يهود.

وهناك حالات قامت فيها المحاكم الحاخامية بالتشكيك في يهودية بعض ضحايا الإبادة النازية الذين استقروا في إسرائيل، بل وهناك حالة قامت فيها السلطات الدينية بالرجوع إلى الأرشيف النازي للتأكيد من هوية أحد اليهود.

وكأن مشاكل الهوية لا تنتهي، فقد طُرحت القضية من جديد وبحدة بالغة في فبراير

١٩٨٨، حين حضر يهوديان اسمهما جيري وشيرلي بيرسفورد، ينتميان إلى جماعة دينية مسيحية تبشيرية اسمها رامات هاشارون، ويشبه وضعهما وضع الأخ دانيال من بعض الوجوه، ويختلفان عنه من البعض الآخر. فهما يهوديان بالمعنى الإثني وهما يؤمنان بالمسيح، تماماً مثل الأخ دانيال، ولكنهما يختلفان عنه في أنهما لم يتنصرا، أي لم يعتنقا الديانة المسيحية. ولا يبيّن المصدر ما معنى هذه العبارة، وإن كان من الواضح أنّها تعني أنهما آمناً بأن عيسى هو المسيح أو الماشيّح المُنتظَر دون الإيمان ببنوته للرب.

وقد طُرح حل صهيوني للمشكلة باعتبار أنّ قانون العودة قانون سياسي صهيوني لمن يشاء، وقانون ديني لمن يشاء، ويمكن لكل فريق أن يفسره بالطريقة التي يراها، على أن تحتفظ السلطة الأرثوذكسية بسلطتها كاملة في أمور الأحوال الشخصية وفي عمليات التهويد التي تتم داخل إسرائيل. وتحاول بعض الأحزاب الدينية تَبنّي موقف مماثل، لكنهم بدلاً من المطالبة بتغيير قانون العودة يطالبون بتغيير قانون المحاكم الحاخامية بحيث يصبح من صلاحياتها أن تقرر من هو اليهوديّ ومن هو غير اليهوديّ ، بدلاً من وزارة الداخلية. وفي هذه الحالة، سيمكنها أن تسقط صفة اليهوديّة عن الحاخامات الإصلاحيين والمحافظين. ولكن جماعة حباد الأرثوذكسية ترفض مثل هذا الحل.

وفي تصوّرنا أن أزمة الهوية اليهوديّة ستتعمق ولن تُحسم في المستقبل القريب لأسباب عديدة تتصل بالتطورات داخل المستوطن الصهيوني وخارجه. أما داخل المستوطن الصهيوني، فقد لوحظ، على عكس ما توقّع المفكرون الصهاينة، أنّ التطورات والآليات الاجتماعية لم تؤد إلى صهر العناصر اليهوديّة الدينية واللادينية والإشكنازية والسفاردية وغيرها، وإنما ازدادت الصورة استقطاباً وتطرفاً. وإذا ما ركزنا على الجانب الديني مقابل العلماني، نُلاحظ ظهور هوية يهودية جديدة بالإضافة إلى عدم التجانس، وهي هوية الصابرا من الإشكناز التي يتسم أصحابها بسمات خاصة، كمعاداة العقل والفكر وحب العنف والتحلل من القيم الأخلاقية، بل إنهم يكنون احتقاراً عميقاً ليهود المنفى، أي يهود العالم كله (وقد كان المؤمّل في الصابرا أن يكونوا الترجمة العملية لليهودي الخالص).

وإلى جانب ذلك ، يُلاحظ تَزايد معدلات العلمنة في التجمع الصهيوني (الذي وصفه أمنون روبنشتاين بأنه من أكثر المجتمعات إباحية على وجه الأرض). وبحسب بعض الإحصاءات، يبلغ عدد المواطنين الذين لا يؤمنون بالخالق ٨٠٪ من كلّ الإسرائيليّين.

وهؤلاء ينظرون إلى الشعائر الدينية باعتبارها فلكلوراً قومياً. وتُعدُّ الأعياد الدينية بالنسبة إليهم أعياداً قومية، والعبرية ليست لغة الصلاة (اللسان المقدّس) وإنما هي لغة البيع والشراء والجماع. وقد أصبح يوم السبت، وهو يوم راحة وتعبّد من الناحية الدينية، يوم صخب ولهو في الدولة التي يُقال لها "يهودية". ولا يراعي كثير من الإسرائيليّين قوانين الطعام الشرعي، ويُقال إن نصف اللحم المستهلك في إسرائيل من لحم الخنزير.

لكل هذا، حينما عُرضت قضية جيري وشيرلي بيرسفورد على الرأي العام الإسرائيليّ، قال ٧٨٪ منهم إنه يجب منحهما الجنسية الإسرائيليّة إن كان صهاينة، وعلى استعداد لأن يرتبطا بالمصير اليهوديّ. ومعنى هذا أنّ الإسرائيليّين استخدموا معياراً قومياً لا دينياً صرفاً، ولو تم الأخذ به سيظهر نوع جديد من اليهود الذين يؤمنون بالمسيح عيسى بن مريم، ولأصبح الأخ دانيال يهودياً برغم حكم المحكمة العليا.

مقابل هذا التعاظم في معدلات العلمنة، هناك تعاظم أيضاً في النزعة الدينية يتضح في هجوم المؤسسة الدينية على الصور والمظاهر الإباحية في إسرائيل، وإصرارها على إقامة شعائر السبت، وفي إصرارها على تعديل قانون العودة. وينعكس هذا الاستقطاب القومي في واقعة حرق اللادينيين معبداً يهودياً احتجاجاً على نشاط المتدينين. ويتضح الاستقطاب أيضاً في ظهور عاصمتين للتجمع الصهيوني ؛ إحداهما علمانية تماماً في تل أبيب، والأخرى في القدس يتزايد فيها نفوذ الأرثوذكس. وفي مثل هذا الإطار، يصبح الإجماع القومي، أو حتى الهدنة الاجتماعية القومية بشأن تعريف الهوية اليهوديّة، أمراً مستبعداً. وممّا يعمق المشكلة أنّ ثمة استقطاباً مماثلاً يحدث بين يهود العالم الذين تزداد بينهم معدلات العلمنة والزواج المُختلط.

ويلاحظ أنّ المشكلة السفارادية قد ازدادت تفاقماً، خصوصاً مع ازدياد عددهم وازدياد ثقتهم بأنفسهم. فالتجمع الصهيوني يعتبرهم يهوداً وحسب ماداموا في بلادهم، وهذا جزء من حملته الإعلامية، ولكنهم يصبحون يهوداً شرقيين فور وصولهم إلى إسرائيل، إذ أن التجمع الصهيوني يحتاج إليهم باعتبار أنّهم مادة بشرية قادرة على حل أزمة المصادر البشرية التي يعاني منها، وعلى العمل في قاعدة الهرم الاقتصاديّ الإنتاجية. لكن إصرار السفارد على الحراك الاجتماعي، باعتبارهم يهوداً بشكل عام، سيجعلهم يشغلون الدرجات العليا من الهرم، ويتركون قاعدته خالية يشغلها العرب.

وبهذا تشتبك مشكلة الهوية مع واحدة من أعمق مشكلات التجمع الصهيوني، وهي مشكلة الإنتاجية، خصوصاً أنّ الصهاينة يدّعون أنّ اليهوديّ الجديد شخصية منتجة على خلاف يهود المنفى الهامشيين المرابين.

وقضية الهوية اليهوديّة قضية محورية. فالدولة الصهيونية تكتسب شرعيتها، أمام نفسها وأمام الكثيرين، من ادعائها أنّها دولة يهودية، لكن استمرار تفجّر هذا القضية يقوض دعائم هذه الشريعة. كما أنّ تعديل قانون العودة سيؤدي إلى استبعاد ما يقرب من ٨٠٪ من يهود العالم (وربما أكثر) ممن يُعرّفون اليهودي على أسس دينية ذاتية أو على أسس إصلاحية ومحافظة ولا يقبلون اليهوديّة الأرثوذكسية.

ومن القضايا الأخرى المرتبطة بقضية "من هو اليهوديّ؟" قضية "من هو الصهيوني؟"، وهل هو اليهوديّ الذي يهاجر إلى إسرائيل، أي من يمارس الصهيونية الاستيطانية أم اليهوديّ الذي يدعم المستوطن الصهيوني دون أن يهاجر ويكتفي بالصهيونية التوطينية؟ وهي قضية تمس الهوية ولكنها لا تصل في عمقها إلى قضية "من هو اليهوديّ؟".

وكل هذه العناصر والتوترات والتناقضات تجعل من العسير على اليهود أنفسهم تصديق مقولة الشعب اليهوديّ الذي يتجاوز الأزمنة والأمكنة والذي يحمل داخله جوهراً يهودياً. فقد أثبت الواقع العملي أنّه لا يوجد جوهر واحد، بل هي سمات عديدة متنوعة بتنوع التشكيلات الحضارية والتاريخية التي يتواجد فيها اليهود. وقد أثيرت القضية مرة أخرى مع وصول المهاجرين اليهود السوفييت. وكما بيّنت المؤسسة الدينية، فإن معظمهم ليسوا يهوداً، فهم إما من أصل مسيحي تزوجوا من يهود أو هم من مدعي اليهودية. بل واتضح أنّ اليهوديّة بالنسبة لليهودي منهم لا تمثل سوى أصداء خافتة للغاية. ومع هذا، رحبت المؤسسة الصهيونية بوصولهم، فهي في حاجة ماسة للمادة الاستيطانية. والحاجة نفسها هي التي تُفسر الترحيب بالفلاشاه موراه (وهم أشباه يهود تَنصروّا بكامل إرادتهم منذ قرنين من الزمن). وكل هذه المؤشرات تدل على أنّ المؤسسة الصهيونية، نظراً لحاجتها للمادة البشرية الاستيطانية، قد تجعل من اليهوديّة قشرة رقيقة للغاية (مثل الانتماء المسيحي في جنوب أفريقيا) إذ أنّ المطلوب هو مادة استيطانية غير عربية يضمن الكيان الصهيوني لنفسه الاستمرار من خلالها.

الباب الرابع

الرؤية الصهيونية ليهود العالم

الفصل الأول

استجابة أعضاء الجماعات اليهوديّة للتعاريف الصهيونية للهويات اليهوديّة

Response of Members of the Jewish Communities to the Zionist Definitions of Jewish Identities.

طرحت الصهيونية (في صيغتها اللاتينية) نفسها كحركة لتطبيع اليهود، وطرحت مفهوم "اليهوديّ الخاص" الهوية اليهوديّة الحقيقية ليحل محل "يهودي المنفى" الذي يخفي هويته ويتقمّص هوية الآخرين. والدولة الصهيونية التي يُقال لها "يهودية" ستكون هي المسرح الذي تتحقق عليه هذه الهوية. وقد قبل بعض الصهاينة الدينيين المشروع الصهيوني وتحالفوا مع اللادينيين على أمل أن تُتاح لهم الفرصة بعد ذلك أن يفرضوا رؤيتهم الدينية بحيث يصبح "اليهوديّ الحقيقي" هو اليهوديّ حسب التعريف الأرثوذكسي. وقد أدّى هذا إلى توترات عميقة بين الدولة الصهيونية من جهة والجماعات اليهوديّة في العالم، بكل ما تتسم به من تنوّع وعدم تجانس، من جهة أخرى.

والصهيونية، كما بيّنا، ترى أنّ الهوية اليهوديّة خارج المُستوطن الصهيوني هوية ناقصة مريضة يجب إلغاؤها، وهذا ما يُسمى "نفي الدياسبورا" في المصطلح الصهيوني (أي تصفية الجماعات اليهوديّة أو استغلالها). وقد نجم عن ذلك صراع حاد بين أعضاء الجماعات اليهودية والمستوطن الصهيوني إذ أن أعضاء الجماعات يرون أنّ هويتهم، أو هوياتهم اليهوديّة، ليست مريضة وإنما هي جديرة بالحفاظ عليها وتنميتها، في حين تحاول المؤسسة الصهيونية أن تقلل من شأنها وأن تجعل منها وقوداً يغذي الدولة الصهيونية. ولذا، فهي تجعل من الهجرة إلى فلسطين المحتلة والاستيطان فيها،

المعيار الوحيد لتقييم مدى صهيونية اليهوديّ ومدى يهوديته. وهذه المشكلة تنفجر دائماً داخل المؤتمرات الصهيونية وخارجها.

١ ـ وانطلاقاً من المفهوم الصهيوني للهوية اليهوديّة الحقيقية، تتصرف الدولة الصهيونية أحياناً بطريقة لا تخدم صالح أعضاء الجماعات اليهوديّة وإنما تخدم مصالحها هي على حسابهم. وربما تكون حادثة بولادر نقطة مهمة في هذا الصراع، فهي تمثل تصادماً بين رؤيتين للهوية: واحدة صهيونية والأخرى أمريكية يهودية.

فتذهب الرؤية الصهيونية إلى أنّ الأميركيّ اليهوديّ يهودي أولاً وأخيراً، ولذا لابدّ أن يخدم الدولة الصهيونية، في حين تذهب الرؤية الأميركيّة اليهوديّة إلى أنّ الأميركيّ اليهوديّ هو أمريكي في المقام الأول وله مصالح تختلف عن مصالح الدولة الصهيونية.

٢ ـ عندما ينظر يهود العالم، خصوصاً المتدينين منهم، إلى الدولة التي يُقال لها "يهودية"، يكتشفون أنّ هويتها وهوية سكانها ليست يهودية على الإطلاق. فمعدلات العلمنة عالية للغاية بين الإسرائيليّين، وهو الأمر الذي يصدم الزوار اليهود للدولة الصهيونية الذين يهربون من مجتمعاتهم الاستهلاكية ويحضرون إلى إسرائيل فيفاجأون بمجتمع إباحي مفتوح أكثر علمانية من المجتمعات غير اليهوديّة التي تركوها وراءهم. والواقع أنّ المجتمع الإسرائيليّ بدأ، منذ السبعينيات، يتوجه توجّهاً استهلاكياً حاداً لا يضبطه أي ضابط أخلاقي أو حضاري أو عقائدي. وهذه التساؤلات ليست مقصورة على المتدينين، فاليهود اللادينيون، أو المندمجون الذين لا يقيمون شعائر دينهم، يحاولون التمتع بشيء من الهوية والتجربة الدينية عن طريق إسرائيل. فبرغم أنّهم يتمتعون تماماً بالاستهلاك والحضارة العلمانية في بلادهم، فإنهم يذهبون إلى إسرائيل ويدفعون لها الإعانات ليعيشوا تجربة دينية قومية (ولو بشكل مؤقت، وكأن إسرائيل ديزني لاند يهودية، على حد قول أحد الحاخامات). ولكن العلمانية الصريحة للدولة اليهوديّة تحرمهم من هذه المتعة وتلك الإثارة.

٣ ـ كما يسأل اليهود المتدينون: بأي معنى يمكن إطلاق تسمية الدولة الصهيونية على الدولة اليهوديّة وهي تُسوّي كلّ خلافاتها مع الآخرين عن طريق العنف العسكريّ ولا يمكن محاكمتها بمعايير أخلاقية يهودية؟ كما أنّ الطريقة التي يتم بها قمع الانتفاضة يصعب تسميتها "يهودية" مهما تحلى الإنسان بالكرم والخيال.

٤ ـ يشكو اليهود المتدينون من أنّ التعريف الصهيوني للهوية اليهوديّة قد صادر

الرموز والمصطلحات الدينية، بحيث يتصور كثير من اليهود الآن أنّ اليهوديّة و الصهيونية أمران مترادفان، وأنّ المرء يمكنه أن يحقق هويته اليهوديّة عن طريق التبرع للدولة الصهيونية وعن طريق شراء سندات إسرائيل. وكما قال الحاخام ألكسندر شندلر: "يتصور بعض اليهود الآن أنّ إسرائيل هي معبدهم اليهوديّ، وأن رئيس وزرائها هو حاخامهم الأكبر!".

ولكن نقطة الاشتباك الكبرى بين أعضاء الجماعات والدولة الصهيونية هي في مجال تعريف هوية اليهوديّ والمعيار المُستخدم في هذا التعريف، إذ تُصرّ المؤسسة الدينية، مُمثّلة في أحزابها الدينية، على تَبنّي تعريف أرثوذكسي. وقد حدثت مواجهة سريعة بين يهود العالم والمؤسسة الدينية في حالة يهود الهند (بني إسرائيل) في الخمسينيات، وفي حالة يهود الفلاشاه في الثمانينيات، ومع القرّائين والسامريين عبر كلّ هذه السنوات. وكان جوهر المواجهة دائماً هو إصرار المؤسسة الدينية على التمسك بتعريفها لليهودي، والذي يستبعد أعضاء هذه الجماعات. وقد حُسمت هذه المواجهات إما بتهود أعضاء هذه الجماعات مرى أخرى حسب الشريعة، وإما بتراجعهم وقبولهم مرتبة ثانوية في الهرم الديني اليهوديّ. كما أنّ المؤسسات أبدت من جانبها شيئاً من المرونة تجاههم. ولكن كلّ هذه المواجهات كانت من جماعات صغيرة لا نفوذ لها انفصلت منذ قرون طويلة عن اليهوديّة الحاخامية، ولذا لم تتسبب المواجهة في تفجير أزمة عامة ذات أثر عميق. أما المواجهة مع يهود الولايات المتحدة وروسيا وأوكرانيا وغيرهم من الجماعات اليهوديّة بشأن الموضوع نفسه، فهي مواجهة مهمة وعميقة لها أعمق الأثر في كلّ من الدولة الصهيونية وأعضاء الجماعات.

الفصل الثاني

وضع الجماعات اليهودية في العالم

لكي نفهم مدى عمق هذه المواجهة، لابدّ أن نتناول وضع الجماعات اليهوديّة في العالم. فلو نظرنا إلى الهويات اليهوديّة في أنحاء العالم الغربي، خصوصاً في الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي (سابقاً) حيث يتركز معظم يهود العالم، لوجدنا أنّ ثمة هويات متعددة غير متجانسة، مندمجة في مجتمعاتها تتفاعل معها، بحيث أصبح الإطار المرجعي لهويتهم وأساسها هو تجربتهم التاريخية في أوطانهم وليس التعريف الصهيوني أو اليهوديّ. وإن كان ثمة عنصر مشترك بينها فهو المرجعية العلمانية النهائية التي أدّت إلى ظهور "الهوية اليهوديّة الجديدة". فهوية يهود أمريكا، على سبيل المثال، هوية أمريكية ذات أبعاد إثنية دينية يهودية هامشية. والحديث الصارخ عن بعث الإثنية في الولايات المتحدة والتمسك بها إنما هو من قبيل الادعاءات اللفظية المريحة للغاية. فمفهوم الهوية في الإطار الأميركيّ لا يختلف أبداً عن مفهوم الدين، وكل من الدين والهوية شيئان يمكن تقبّلهما شريطة أن يتم تهميشهما حتى لا يتعارضا مع أداء اليهوديّ في رقعة الحياة العامة ولا يهددا الانتماء إلى المجتمع الأميركيّ. ولكن إذا استبعدنا الهوية والدين من الحياة العامة ومن الإحساس بالانتماء، فلا يبقى شيء سوى زخارف أو تسلية تُمارس في أوقات الفراغ من آونة لأخرى، ولا تشكل بعداً حقيقياً في بناء شخصية المرء ولا في رؤيته للكون.

كما أنّ أوضاع أعضاء الجماعات في إنجلترا وفرنسا وجنوب أفريقيا لا تختلف في

أساسياتها عن الصورة العامة السائدة بين أعضاء الجماعة اليهوديّة في الولايات المتحدة. بل إن وضع يهود روسيا وأوكرانيا ينطبق عليه أيضاً مصطلح "يهود ما بعد الانعتاق" أو "الهوية اليهوديّة الجديدة"، فقد حصلوا على حقوقهم السياسية والمدنية، وتوجد أطر ومنابر يمكنهم من خلالها التعبير عما تبقَى من هويتهم الشرق أوروبية. كما ينتشر بينهم الزواج المختلط (وهو من أهم معايير الاندماج) بدرجة تفوق أحياناً درجته في الولايات المتحدة. وقد صرح شرانسكي، بطل الصهاينة في الاتحاد السوفيتي، حينما أفرج عنه واستقر في إسرائيل، بأن درجة اندماج اليهود في المجتمع السوفيتي "درجة مرضية"، والمقصود أنّها "عالية". ورغم أنّه يستخدم معياراً صهيونياً للهوية، إلاّ أنّه يعترف ضمنياً بحقيقة ارتفاع معدلات الاندماج. وإذا كانت بين يهود الاتحاد السوفيتي (سابقاً) أعداد كبيرة ترغب في الهجرة، فإن هذا يعود إلى بعض المشكلات الخاصة بالمجتمع الاشتراكي وبمجتمعات كومنولث الدول المستقلة. وعلى أية حال، فإن أغلبية من تتاح له فرصة مغادرة روسيا وأوكرانيا، يهاجر إلى الولايات المتحدة، ولا تهاجر سوى أعداد صغيرة إلى إسرائيل. وحتى هؤلاء الذين يصلون إلى هناك يكتشفون أنّ هويتهم وطموحاتهم تختلف عن الهوية اليهوديّة كما عرّفها الصهاينة. بل إن يهود روسيا وأوكرانيا الذين يصلون إلى الولايات المتحدة يكتشفون أنهم روس، ومن ثم لا يختلطون باليهود في الولايات المتحدة ولا يندمجون فيهم وإنما يندمجون في المجتمع الأميركيّ. بل ويُقال إن الإسرائيليّين المهاجرين إلى الولايات المتحدة يظلون أيضاً بمعزل عن يهود الولايات المتحدة ولا يتزاوجون معهم، إذ يكتشفون أنّهم إسرائيليون وليسوا مجرد يهود.

وبشكلٍ عام، يمكن القول بأن القيم العلمانية تنتشر في الوقت الراهن بين أغلبية يهود العالم، فهم إما منصرفون عن الدين تماماً وإما يتبنون الصيغ المخففة منه والمتمثلة في اليهوديّة الإصلاحية والحافظة، ولم يَعُد بينهم سوى أقلية أرثوذكسية. ففي الولايات المتحدة، يبلغ عدد اليهود الإصلاحيين والمحافظين مليونين ولا يوجد سوى ٤٠٠ ألف أرثوذكسي. أما بقية اليهود، فهم إما لاأدريون أو غير مكترثين باليهودية، ولكنهم يلجأون إلى حاخامات إصلاحيين أو محافظين في أمور الزواج وغيره. وربما تكون درجة علمنة يهود روسيا وأوكرانيا أعلى من ذلك بكثير. ومع هذا، وبرغم علمنة هؤلاء اليهود، وبرغم ابتعاد المتدينين منهم عن الأرثوذكسية، فإنهم يتمسكون ببقايا هويتهم

الإثنية، ربما بتأثير الصهيونية. ولذا، فهم يصرّون على تسمية أنفسهم "يهود" برغم انصرافهم عن العقيدة، ثم يطالبون بتبني تعريف تعددي لليهودية، أي بأي تعريف يروق لهم بحيث يتم قبول أي يهودي يرى أنّه يهودي. وهم ينظرون إلى الدولة الصهيونية باعتبارها دولة تعددية يهودية، بالمعنى الإثني، يمكنهم تحقيق هويتهم من خلالها. وفي هذا الإطار، ليس من المستغرب أن يؤدي التعديل المقترح لقانون العودة (بحيث يعرّف اليهوديّ بأنه "المتهوّد بحسب الشريعة" أي على يد حاخام أرثوذكسي) إلى تفجير التناقضات الكامنة إذ أنّه، في واقع الأمر، يستبعد أغلبية المتهوّدين وعائلاتهم في الولايات المتحدة.

ومن المعروف أنّ عشرة آلاف أميركي يتهوّدون سنوياً نظراً لزواجهم من أقران يهود، ولا يتهود سوى ألف منهم أمام محاكم أرثوذكسية، أما الباقون فيتهوّدون على يد حاخامات إصلاحيين ومحافظين، ولا تعترف الحاخامية في إسرائيل بهم كيهود.

وهناك مشكلة أخرى أثيرت عدة مرات ولن يحسمها التعريف الجديد حتى لو تم تبنيه. فالحاخامات الأرثوذكس يطلبون ما يُسمى "جيط" من كلّ يهودية مُطلّقة، أي شهادة طلاق من محكمة شرعية يهودية ليصبح الطلاق شرعياً، وهو تقليد أبطله الحاخامات الإصلاحيون. ولذا ، فإن أية يهودية مُطلقة تتزوج دون أن تحصل على شهادة طلاق شرعي، يُعتبر أطفالها (بحسب التصور الأرثوذكسي) غير شرعيين، حتى لو كانت هي يهودية معترفاً بيهوديتها من المؤسسة الأرثوذكسية. ولهذا، فمن المتوقع أن تتفاقم المشكلة بسبب ازدياد معدلات الطلاق غير الشرعي بين اليهود في الخارج، سواء في الولايات المتحدة أو في كومنولث الدول المستقلة (الاتحاد السوفيتي سابقاً)، وبسبب جهل كثير منهم بقضية الجيط هذه!

ويدرك أعضاء الجماعات اليهوديّة، خصوصاً في الولايات المتحدة، المضمون الخفي الكامن وراء تعديل قانون العودة تماماً، والمحاولة الرامية إلى ذلك. ومن هنا كانت حدة استجابتهم لهذه المحاولة إلى درجة أدهشت القيادات في اجتماع لمجلس الفيدراليات الأميركيّة الذي خُصّص لمناقشة هذه القضية عام (١٩٨٨)، ومجلس الفيدراليات هو التنظيم الذي يضم سائر التنظيمات اليهوديّة الأميركيّة. فعندما حاولت القيادة التقليل من أهمية التعديل المقترح والتهوين من شأنه، ثارت القاعدة وأعلنت سخطها وأعلنت كذلك عن نيتها أن تترجم هذا السخط إلى فعل ضد إسرائيل. بل إن بعضهم اشتكى

إلى نوابهم في الكونجرس الأميركيّ من التعديل المزمع، وقام هؤلاء النواب، وبعضهم من غير اليهود، بنقل شكوى ناخبيهم من اليهود إلى حكومة الدولة اليهوديّة. وتتحدث الصحف الإسرائيليّة عن احتمال أن تُناقَش المسألة في الكونجرس الأميركيّ عند مناقشة المعونة الأميركيّة لإسرائيل. وهكذا ، فبدلاً من أن تستخدم الدولة الصهيونية الدياسبورا أداة للضغط على الولايات المتحدة لتحقيق مصالحها، يقوم أعضاء الجماعة الأميركيّة اليهوديّة بالضغط على الدولة الصهيونية من خلال الولايات المتحدة للحفاظ على مصالحهم. ويُقال إن استجابة يهود الولايات المتحدة لتعديل قانون العودة يشبه في حدته استجابتهم لحرب ١٩٦٧، حين أحسوا بالفخر الشديد لانتصار القوات الإسرائيليّة، أي حين تضخمت هويتهم اليهوديّة المزعومة بسبب أنصار جيوش الدولة اليهوديّة. وقانون العودة يمس هذه الهوية، ذلك أنّ تعديله ينزع عنهم هويتهم هذه ويجعل منهم مجرد يهود إصلاحيين أو محافظين، أي يهود من الدرجة الثانية. ويجب ملاحظة أنّه بينما أصبحت اليهوديّة، بالنسبة إلى معظم سكان المُستوطن الصهيوني مسألة قومية وليست دينية محضة (ولهذا فهم لا يكترثون بموقف المؤسسة الأرثوذكسية)، فإن الأمر جد مختلف بالنسبة إلى يهود العالم، فيهوديتهم برغم علمانيتهم الواضحة لا يمكن أن تُعرّف تعريفاً قومياً وحسب، حيث يتنافى هذا مع انتمائهم القومي. ولذلك، يظل البُعد الديني، برغم شكليته وضموره، أكثر أهمية بالنسبة إليهم من أهميته بالنسبة إلى الإسرائيليّين.

ومن إنجازات الانتفاضة أنها، بوصولها إلى الإعلام الخارجي، قد حولت النضال الفلسطينيّ من قضية سياسية أو أخلاقية إلى قضية إعلامية تمس صورة اليهوديّ وبالتالي هويته ورؤيته لها. ولعل الأفلام اليومية على شاشة التلفزيون الأميركيّ قد ساعدت على تهيئة الجو لثورة الأميركيّين اليهود، وغيرهم من أعضاء الجماعات، على القيادات الصهيونية ورفضهم تعديل قانون العودة.

وثمة تطوّر ثالث شديد الأهمية يتمثل في البقع التي يلتقي فيها يهود العالم بالمُستوطن الصهيوني: أي المنظمة الصهيونية العالمية. فقد شهد العقدان السابقان صهينة قطاعات كبيرة من يهود الولايات المتحدة كانت ترفض الصهيونية من قبل. فاليهودية الإصلاحية التي تشجع الاندماج، كانت ترفض الصهيونية بشكل عقائدي عند نشأتها، كما كان بعض مفكري اليهوديّة المحافظة يرفضونها.

ولكنهم، بمرور الزمن، تناسوا هذه الاعتراضات وانتهى بهم الأمر إلى الانضمام إلى المنظمة الصهيونية العالمية. هذا، بينما يُلاحظ أنّ الجماعات اليهوديّة الدينية، وضمن ذلك بعض الأحزاب الدينية في إسرائيل، إما معادية للصهيونية وإما غير صهيونية وغير ممثّلة في المنظمة الصهيونية.

وقد انعكس هذا الوضع على انتخابات المؤتمر الصهيوني الحادي والثلاثين (١٩٨٧) التي أسفرت عن فوز أغلبية من حزب العمال الإسرائيليّ وممثلي اليهود الإصلاحيين والمحافظين والعلمانيين. وهذه هي المرة الأولى التي لا يعكس فيها تكوين المنظمة الصهيونية موازين القوى داخل الدولة الصهيونية. وقد قضى المؤتمر (٢٩١ صوتاً ضد ٢٧١ صوتاً) بضرورة المساواة الكاملة بين جميع اتجاهات اليهوديّة، الأمر الذي أدّى بحركة المزراحي (الصهيونية الدينية) إلى التهديد بإعادة النظر في وضعها داخل الحركة الصهيونية. والواقع أنّ هذا الوضع يناقض الوضع داخل الدولة الصهيونية حيث يتنامى نفوذ الأحزاب الدينية.

وقد أثار وصول المهاجرين السوفييت مشكلة الهوية مرة أخرى. فعدد اليهود السوفييت حسب آخر إحصاء هو ١٥٠٠٠٠٠ وحسب، فمن أين أتت الأعداد الضخمة، خصوصاً ونحن نعرف أنّ اليهود السوفييت حققوا معدلات عالية من الاندماج وأنهم جماعة مسنة؟ ولتفسير هذا نذهب إلى أنّ اليهود الذين يهاجرون إلى إسرائيل يضمون في صفوفهم عدداً كبيراً من اليهود المتخفين الذين كانوا قد فقدوا علاقتهم باليهودية تماماً ولم يسجلوا أنفسهم كيهود، ولكنهم اكتشفوا مؤخراً أنّ مسألة الانتماء اليهوديّ مسألة مربحة وأنها ستضمن لهم تأشيره خروج من الدولة السوفيتية وتأشيره دخول إلى الدولة الصهيونية. ولعل هذه هي المرة الأولى في التاريخ التي يظهر فيها مثل هذا الموقف: أن يكون في صالح المرء أن يكتشف جذوره اليهوديّة ويعلنها ويوظفها. وأشباه اليهود هؤلاء غير مختتين وغير متزوجين من يهوديات وأولادهم غير يهود ولا يربطهم باليهودية سوى أنّ لهم جداً مدفوناً في موسكو (على حد قول أحد الحاخامات الإسرائيليّين). كما أنّ هناك فريقاً آخر ممن نسميهم مدّعي اليهوديّة، وهؤلاء ليسوا يهوداً ويشترون شهادة ميلاد تثبت أنهم يهود. وهذه الآلاف تصل إلى إسرائيل وتطالب بالجنسية حسب قانون العودة. ويُقال إن نسبتهم بين المهاجرين يمكن أن تصل إلى ٣٠٪.

وقد بدأت المؤسسة الحاخامية تحذر من أنّ إسرائيل قد تصبح دولة غير يهودية. ولكن المؤسسة الإشكنازيّة الحاكمة (اللادينية) لا تجد أية غضاضة في استقبال هؤلاء المهاجرين مادامو سيحلون المشكلة السكانية لإسرائيل، ولا تمانع في تقبّل التعريف العلماني الذي وضعه شارانسكي لليهودي باعتباره من يشعر أنّه يهودي مُضطهد. وهو تعريف لا تأخذ به، بطبيعة الحال، المؤسسة الحاخامية. ولهذا أُسست محكمة شرعية في موسكو للتحقق من الهوية اليهوديّة للمهاجرين، الأمر الذي يثير حفيظتهم ويؤدي إلى احتجاج العناصر اللادينية في إسرائيل.

وتُعتبر الأزمة التي تعتمل داخل الدولة الصهيونية، وفي صفوف الجماعات اليهوديّة في العالم، نتيجةً لمحاولة تبنّي التعريف الديني أو التعريف اللاديني الصهيوني للهوية، أمراً طبيعياً ومتوقعاً. فهذا التعريف لا يأخذ في الاعتبار تموجات التاريخ وتعرجاته ولا ينبع منها، ويتجاهل التركيب الجيولوجي للعقائد والجماعات اليهوديّة، كما أنّه مجرد تعريف عقائدي يفرض نفسه فرضاً على واقع متنوع. فهو يفترض وجود هوية يهودية واحدة رغم وجود هويات يهودية متنوعة أهمها "الهوية اليهوديّة الجديدة" التي تُهمّش العنصر اليهودي. والتعريف الصهيوني يرى أنّ اليهود شعب واحد له تاريخ واحد، وهم في واقع الأمر جماعات منتشرة لها تجارب تاريخية متنوعة ذات انتماءات قومية وإثنية وطبقية ودينية متعددة. كما أنّ أعضاء هذه الجماعات، حين يستوطنون فلسطين المحتلة، يحملون معهم انتماءاتهم وتجاربهم التاريخية، شاءوا أم أبوا. وحينما يتبنون تعريفاً صهيونياً لهويتهم، تنفجر الأزمة إذ تكتشف أغلبيتهم العظمى أنهم ليسوا يهوداً أو أن يهوديتهم مشكوك فيها بل ومرفوضة، كما حدث ليهود بني إسرائيل والفلاشاه، وكما سيحدث ليهود الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي لو تم تعديل قانون العودة.

الباب الخامس

الصهيونية الإثنية الدينية والصهيونية العلمانية

الفصل الأول

الصهيونية الإثنية

الصهيونية الإثنية بناء صهيوني يتعامل مع المادة البشرية اليهوديّة من منظور الهوية والوعي ومعنى الوجود. وقد ساهم هذا التيار في تهويد الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة عن طريق إسقاط المصطلحات الحلولية العضوية عليها وهي تتفرع إلى اتجاهين أو تيارين: صهيونية إثنية دينية وصهيونية إثنية علمانية. و الصهيونية الإثنية الدينية تدور في إطار الحلولية مرحلة وحدة الوجود الروحية. أما الصهيونية الإثنية العلمانية فتدور في إطار الحلولية في مرحلة وحدة الوجود المادية (فهي حلولية من دون إله).

ويرى أصحاب التيار الأول أنّ الدين اليهوديّ هو أساس القومية اليهوديّة ولا يمكن أن تقوم لها قائمة بدونه، أما أصحاب التيار الثاني فيذهبون إلى أنّ الدين اليهوديّ ما هو سوى أحد أبعاد القومية اليهودية. وكلا الفريقين يدعو إلى الإثنية اليهوديّة ولا يختلفان إلاّ في مصدر هذه الإثنية: هو العقيدة اليهوديّة أم ما يسمونه "التاريخ اليهوديّ" و"الثقافة اليهوديّة".

ويجدر التنبيه إلى أنّ هناك وحدة بين تياري الصهيونية الإثنية وتماثلاً في الاتجاه، فكلاهما يجعل الشعب اليهوديّ شيئاً مطلقاً مقدّساً يتسم بالوحدة العضوية. ولكن، بينما يُفسر التيار الإثني الديني هذا التماسك العضوي على أساس ميتافيزيقي (حلول

الإله في الشعب)، يفسر الفريق العلماني التماسك على أساس مادي (العملية التاريخية) أو روح الشعب (أو ما نسميه حلولية بدون إله).

وقد وصل بن جوريون فيما بعد إلى صيغة توفيقية حين صرح بأنه إذا كان الإله قد اختار الشعب فإن الشعب قد اختار الإله. وعلى كلّ حال، فإن الحاخام أسحق كوك كان كثيراً ما ينسى صيغته الحلولية ويستخدم الصيغة العضوية دون حياء أو ديباجات. وقد اختتم إحدى مقالاته قائلاً: "ستتحقق عودتنا فقط إذا ما رافقت عظمتنا الروحية العودة إلى الجسد من أجل خلق جسم صحيح قوي وعضلات قوية تغلف روحاً ملتهبة"، وهذه العبارات تليق بنيتشه وآحادهعام.

ويمكن القول بأن ثمة تقسيماً واضحاً بين تيارات الصهيونية الثلاثة الأساسية. فتتركز مهمة الصهيونية الدبلوماسية ثم العامة (التوطينية) في ضمان الدعم الإمبريالي وتجنيد أعضاء الجماعات اليهوديّة وراء المُستوطن الصهيوني وترحيل الفائض منهم. وكانت مهمة الصهيونية العمالية (الاستيطانية) هي توطين هذا الفائض في فلسطين من خلال مؤسسات استيطانية مختلفة ذات طابع زراعي عسكري. وعلى هذا، فإن لكل صهيونية منها برنامجاً سياسياً واقتصادياً يغطي مجالها ونشاطاتها. أما الصهيونية الإثنية، بشقيها الديني والعلماني، فلم يكن يعنيها كثيراً التوجه الاقتصادي أو السياسي، ذلك أنّها كانت تتعامل مع مستوى التعبير والوعي ومعنى الوجود. وقد حدّدت مجالها بأنه "اليهود" أينما كانوا في الداخل والخارج، فهم شعب متميّز ذو تاريخ متميّز، وحددت وظيفتها بأنه الإتيان بالعلاج الناجع لمشاكل اليهود الروحية (مشكلة المعنى)، وخلق الوعي اليهودي، وتطهير الفكر الصهيوني من المفاهيم الاندماجية كافة، وتعميق مفهوم الشعب اليهوديّ بالإصرار على هوية يهودية محددة للمشروع الصهيوني بحيث لا يكون هدفه أن يصبح اليهود شعباً مثل كلّ الشعوب، له دولة مثل كلّ الدول، وإنما يهدف إلى تعميق الهوية والوعي اليهوديين وإلى إضفاء معنى يهودي على الوجود اليهوديّ سواء في فلسطين أو خارجها.

والدولة التي ستؤسّس ـ من منظور الصهيونية الإثنية ـ يجب ألا تكون دولة يهود وحسب وإنما يجب أن تكون دولة يهودية شكلاً ومضموناً. ويهدف هذا التيار إلى فرض العزلة الإثنية على اليهود في الخارج حتى يمكن تجنيد أعضاء الجماعات اليهوديّة وراء المُستوطن و إعطاء المستوطنين في الداخل إطاراً عقائدياً ذا بعد زمني بحيث يمكن

إضفاء القداسة على الرموز القومية فتتحول فلسطين إلى مركز روحي (بالمعنى الإثني الديني أو بالمعنى الإثني العلماني).

كما تَجدُر ملاحظة أن دعاة الخطاب الإثني باتجاهيه الإثني الديني والإثني العلماني، نظراً لتركيزهم على مشاكل الهوية، لم يكن لهم فكر سياسي أو اقتصادي مستقل. فقد تركوا هذه الصياغات لبنسكر وهرتزل وبورو خوف وجابوتنسكي وغيرهم من الصهاينة، وركزوا هم على الديباجات الإثنية أكثر من تركيزهم على الأمور السياسيّة أو الاقتصاديّة، فهم يتحدثون عن لغة الدولة القومية ونوعية القوانين التي ستسود فيها (من منظور إثني) وعلاقتها بالتراث اليهوديّ ومدى توافق سلوك مستوطنيها مع القيم الإثنية (الدينية أو العلمانية) اليهوديّة. وقد اهتموا كذلك بالمشاريع الثقافية التي تُوحّد وعي يهود العالم، وبعلاقة يهود العالم بالدولة المزمع تشييدها.

ولا يعني هذا أنّهم لم يكونوا ملتزمين بالصيغة الأساسية الشاملة (ولا بالإيمان بأزلية معاداة اليهود أو بفكرة الشعب أو الاعتماد على الدول العظمى). فكل فكرهم ينطلق منه ويفترضه ويستند إليه. وإذا كان آحادهعام قد تَذبذَب لفترة قصيرة بشأن ضرورة إنشاء الدولة الصهيونية، إلاّ أنّ هذا التذبذب لم يَدُم طويلاً، كما أنّه لم يعارض قط فكرة نَقْل الفائض اليهوديّ من شرق أوربا إلى فلسطين. وإذا كان ذبح العرب قد سبّب له بعض القلق لبعض الوقت، فإنه استمر في دعم المشروع الصهيوني وإسداء النصح لوايزمان في الفترة التي سبقت وعد بلفور. وقد استوطن هو نفسه فلسطين في نهاية الأمر دون أن يبين كيف يمكن تنفيذ المشروع الصهيوني دون التخلص من العرب. أما بالنسبة إلى المتدينين، فإن الأمر لا يختلف كثيراً. وأثناء ثورة ١٩٢٩ في فلسطين، اتهم كوك البريطانيين بالتقاعس عن حماية اليهود، كما اتخذ موقفاً متشدداً أثناء الانتفاضة التي قامت دفاعاً عن البراق (حائط المبكى).

وبالنظر إلى عدم تعارض مجال الصهيونية الإثنية مع مجالات الصياغات الصهيوني الأخرى، فإننا نجد أنّ معارك دعاة هذا التيار كانت تدور إما فيما بينهم، أو بينهم وبين قيادة أحباء صهيون ودعاة الصهيونية الدبلوماسية فيما يختص بالقضايا الدينية والثقافية وحدها. وقد وقع أحد التصادمات بين الإثنيين الدينيين وقيادة جماعة أحباء صهيون عام ١٨٨٨ ـ ١٨٨٩، وهي سنة سبتية يُحرّم فيها على اليهود زراعة الأرض حسب التعاليم الدينية اليهوديّة. ولا يسري هذا التحريم إلاّ بعد عودة اليهود إلى أرض

الميعاد واستعادتهم إياها، كما أنّه لا يسري إن كانت الأرض ملكاً للأغيار. ولكن المستوطنين اليهود استمروا مع هذا في زراعتها رغم ملكيتهم لها. وقد تطوّع الخارجيّة موهيليفر وأفتى بإمكانية بين الأرض إلى أحد الأغيار، فتعود إلى غير اليهود، ويحل لليهود بالتالي زراعتها (وهو أمر استمر حتى الوقت الحاضر إذ تقوم الدولة الصهيونية ببيع أرض إسرائيل كلّ ست سنوات إلى أحد المواطنين غير اليهود ثم تشتريها منه مرة أخرى بعد انتهاء السنة السبتية!). وقد حال المتدينون عزل بنسكر في مؤتمر جماعة أحباء صهيون الذي عُقد في دروسكينكي (١٨٨٧)، ففشلوا في ذلك ولكنهم نجحوا في تعيين ثلاثة حاخامات في اللجنة التنفيذية.

وقد حدث أيضاً حوار ساخن بين الإثنيين العلمانيين وصهاينة أحباء صهيون التسلليين عندما كتب آحاد هعام إحدى مقالاته "ليس هذا هو الطريق" ليبين أنّ المتسللين إلى فلسطين فقدوا هويتهم اليهوديّة واستوعبتهم عمليّة البقاء المادي وأهملوا عالم الروح والهوية. ثم تحوّل هذا الحوار الساخن إلى نقد صريح لمشروع هرتزل وفكره فيما بعد. وقد بلغ رفض آحادهعام الصيغة الهرتزلية مداه حينما اقترح في مؤتمر منسك (الذي عقده الصهيونية الروس عام ١٩٠٢) الانشقاق عن المنظمة الصهيونية لتأسيس منظمة صهيونية ثقافية مستقلة تدافع عن الخطاب الإثني بين اليهود أينما كانوا.

وقد احتدم النزاع كذلك بين دعاة اتجاهي الخطاب الإثني. ولذا، فقد اضطر العلمانيون حينما ازداد نفوذ الدينيين في مؤتمر فلنا (١٨٨٩) إلى تأسيس جماعة بني موسى (على غرار المحافل الماسونية) ولكنها حُلَت عام ١٨٩٧.

وقد حُسم الصراع بين الصهاينة الإثنيين والصهاينة الذين لا يهتمون كثيراً بالإثنية مع صدور وعد بلفور. ومع استيلاء العناصر اليهوديّة من شرق أوربا على المنظمة، وتقسيم العمل بين التوطينيين والاستيطانيين، وقد أصبحت الهوية اليهوديّة الرقعة المشتركة بين الجميع، وتقبّل الصهاينة التوطينيون فكرة الهوية اليهودية ما دامت لا تتعارض مع ولائهم لأوطانهم. ولكن الصراع داخل التيار الإثني استمر بين الدينيين والعلمانيين (إذ أنّ الصراعات الأخرى بين التيارات الصهيونية الأخرى تتم على المستويين السياسي والاقتصادي). ومن أهم الصراعات التي تدور بين الاتجاهين، الصراع بشأن الهوية اليهوديّة (من هو اليهوديّ؟).

وكما أسلفنا، فقد نشبت الخلافات عدة مرات بين الفريقين الإثني الديني والإثني الديني والإثني العلماني، وتم تعليق الخلاف في برنامج بازل. وأثناء إعلان الدولة (التي يُقال لها وثيقة "إعلان استقلال إسرائيل")، نشب خلاف بين الصهاينة الدينيين والصهاينة العلمانيين حول عبارة "واضعين ثقتنا في الإله" التي أصر المتدينيون على ذكرها في الديباجة. وقد حُلّ الخلاف عن طريق صياغة صهيونية مراوغة، ألا وهي عبارة "تسور يسرائيل" التي تعني حرفياً "صخرة إسرائيل"، وهي عبارة غامضة تؤدي معنى لا دينياً للادينيين ومعنى دينياً لدعاة الصهيونية الدينية. ويبدو أنّ الدينيين حاولوا كذلك أن تشير الديباجة إلى الوعد الإلهي لجماعة يسرائيل ولكنهم أخفقوا. ولكي يتم إرضاؤهم، جاءت الديباجة مبهمة تحمل كلّ المعاني الممكنة: "إرتس يسرائيل هي المكان الذي وُلد فيه الشعب اليهوديّ، وهنا اكتسبت هويتهم الروحية والدينية والسياسية شكلها، وهنا شيّدوا أول دولة لهم وخلقوا قيماً حضارية ذات مغزى قومي عالمي، وأعطوا العالم كتاب الكتب الأزلي".

والإشارة هنا إلى ميلاد الشعب اليهوديّ الذي يمكن تعريفة دينياً أو علمانياً، وإلى هويته التي يمكن تعريفها على أسس روحية (والكلمة تعني في الأدبيات الصهيونية "إثنية لادينية" إذ تجري الإشارة إلى صهيونية آحادهعام على أنّها "صهيونية روحية") أو على أسس دينية أو سياسية عامة. و"كتاب الكتب الأزلي" أي "الكتاب المقدّس" يُشار إليه باعتباره الكتاب الذي أعطاه الشعب اليهودي للعالم (دون تحديد ما إذا كان جزءاً من فلكلور هذا الشعب أو مُرسل من الإله). ونجد في برنامج القدس (١٩٦٨) استمراراً للصيغ المبهمة نفسها، فإسرائيل قامت على أساس رؤية الأنبياء للعدل والسلام التي يمكن أن تكون مُرسلة من الإله أو تكون من صنع البشر. كما يشير البرنامج إلى ضرورة الحفاظ على هوية الشعب اليهوديّ من خلال تشجيع التربية اليهوديّة والعبرية والقيم الروحية والثقافية اليهوديّة. ولعل الإشارة إلى التربية اليهوديّة والعبرية هي في واقع الأمر إشارة إلى التربية الإثنية الدينية والعلمانية.

الفصل الثاني

الصهيونية الإثنية الدينية

Religious Ethnic Zionism

"الصهيونية الإثنية الدينية" تيار صهيوني يتقبل معظم مقولات الصهيونية الأساسية الشاملة بعد إدخال ديباجة إثنية دينية عليها. وحينما ظهرت الصهيونية برفضها العميق لليهود واليهودية تصدّى لها كثير من التدينين (الأرثوذكس والإصلاحيين)، باعتبارها هرطقة وكُفراً وإلحاداً ونكوصاً. وإذا كان الصهاينة قد أعلنوا عزمهم غزو الجماعات اليهوديّة فإنهم قد قرروا أن يُغيّروا اليهوديّة نفسها ويعلمنوها من الداخل حتى ولو لم يعلنوا عن ذلك. ولعل ممّا يسّر هذه العملية عدة عوامل من أهمها أن اليهوديّة نفسها في أواخر القرن التاسع عشر كانت تمر بأزمة حادة بعد خروجها من الجيتو. فعالم الأغيار في الغرب قد أثبت جاذبيته الشديدة، كما أنّ اليهوديّة كانت قد أجادت التعامل مع العالم من داخل أسوار الجيتو والعزلة، ولكنها لم تكن بعد قد أجادت التعامل معه في إطار الإعتاق والاستنارة والمساواة.

ولعل زيادة علمنة المجتمع الغربي وانتشار العلم والتكنولوجيا قد جعلا استمرار اليهوديّة صعباً، وخصوصاً أنّ اليهوديّة الحاخامية كانت قد تجمدت وأصبحت مثل القشرة اليابسة. وقد تهاوت مع اليهوديّة المؤسسات التقليدية التي ساعدت الحاخامات وأثرياء اليهود على إحكام قبضتهم على جماهير اليهود، مثل القهال. وقد ساهمت حركة التنوير في خلق جيل جديد من شباب اليهود الذي كان يتحرك بيُسر بين عالم

اليهود وعالم الأغيار ويجيد علوم الغرب، وأصبحت القيادة الحاخامية التقليدية والحركة الحسيدية التي اكتسحت شرق أوربا، وهي حركة حلولية متصوفة تمثل احتجاجاً على وضع اليهود، وعلى جفاف العقيدة التلمودية. وقد أحست المؤسسة الدينية بأن الوضع آخذ في الانهيار. وربما كان أكبر دليل على ذلك انتشار اليهوديّة الإصلاحية وما تبع ذلك من زيجات مُختلطة، حتى أن الحديث عن اختفاء اليهود كان مطروحاً بين علماء الاجتماع في الغرب.

في هذا السياق، كان للعقيدة الصهيونية في صياغتها المراوغة (المتمثلة في برنامج بازل) بريقها. فهي، رغم هجومها على اليهود واليهودية، قد استخدمت كلّ الرموز التقليدية من عودة إلى صهيون والأرض المقدّسة والشعب المقدس. ودولة اليهود التي تحدث عنها هرتزل تُشبه في نهاية الأمر الجيتو والقهال من بعض الوجوه، فهي دولة بدون أغيار. وكان أعضاء المؤسسة الدينية يدركون مدى حدة معاداة اليهود في أوربا عامة، وأكثر من هذا مدى خطورة الاندماج والعلمانية. ولذا، فلم يكن من العسير عليهم أن يأخذوا بالصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة المُهوّدة (بعد صهينة اليهوديّة).

وعل كلٍّ، فإن هرتزل نفسه لم يمانع في إنشاء حزب ديني بل رحب به قبل وفاته، وقام بتمويل حزب مزراحي، حيث أدرك أنّه لا تعارض حقيقياً بين صهيونيته الدبلوماسية التي تهدف إلى إخلاء أوربا من يهودها وبين الخطاب الإثني الديني. كما أن دعاة الصهيونية الدبلوماسية وجدوا أنّه قد يكون من المفيد استخدام الدين لتجنيد اليهود، بل إزالة الفوارق بين الصهيونية واليهودية في نهاية الأمر بحيث يتم تهويد الصهيونية وصهينة اليهوديّة. وقد اتخذ المؤتمر الصهيوني الخامس (١٩٠١) قراراً بتأسيس حركة دينية تُسهم في تثقيف اليهود بروح القومية اليهوديّة، أي تُظهر التلاحم الكامل بين القومية والدين.

وقد طوّر الصهاينة الدينيون هذا البرنامج، فطر حوا الأفكار الدينية التقليدية كافة بعد تفريغها من بُعدها الأخلاقي وتأكيد بُعدها الإثني، فأعادوا صياغة فكرة العودة بطريقة تتفق مع متطلبات الاستيطان الصهيوني، فتم تفسير الاستيطان (أو العودة الجسدية الفعلية إلى فلسطين) الذي كان يُعدُّ هرطقة من المنظور الديني التقليدي باعتباره مجرد إعداد لعودة الماشيّح. بل إن فكرة القومية العضوية نفسها تم التعبير عنها من خلال الصيغة الحلولية، فالصهاينة الدينيون يرون أنّ اليهود أمة ولكنهم أمة

تختلف عن بقية الأمم لن الإله هو الذي أسسها بنفسه، فهم يدورون في إطار المفهوم الحلولي الخاص بوحدة التوراة والأمة وأنّ اليهود كشعب لا يمكنه الاستمرار بدون التوراة. وأن هذه الوحدة، مع هذا، لا يمكن أن تأخذ شكلها الكامل خارج فلسطين، أي أنّ عناصر الثالوث الحلولي: الأمة كالينبوع الذي تعود له الحياة فجأة، والذي لا تملك البشرية الخلاص دون فيضه السخي. وهذه الفكرة هي فكرة القومية العضوية نفسها بعد أن اكتسبت ديباجة دينية حلولية.

بل إن مفكري الصهيونية الدينية كانوا من المؤمنين بأن علمانية الصهيونية الظاهرة هي مجرد وهم، وأنها مجرد إطار ساهم هو نفسه في إحكام قبضة القيم الإثنية الدينية على الوجدان اليهوديّ، وأن المشروع الصهيوني سيَسقُط في يد الصهاينة الدينيين. وبهذا، تكون الصهيونية الدينية قد سوّغت الصهيونية للمتدينين ولكنها تكون في الوقت نفسه قد قامت بصهينة الدين اليهودي حتى أصبح لا يختلف كثيراً عن الصياغة الإثنية التي طرحها آحادهعام والتي لا تتعارض بأي شكل مع الصياغة الدبلوماسية التي طرحها هرتزل.

وكما هو مُتوقّع، نشب صراع حاد بين الصهاينة الإثنيين الدينيين والصهاينة الإثنيين العلمانيين، فهم يتحركون في المجال نفسه، منطقة الوعي وإدراك الهوية ومعنى الوجود. وقد كان الصراع حاداً منذ البداية، منذ أحباء صهيون، واستقرت حدته بعد ظهور هرتزل داخل المؤتمرات الصهيونية المختلفة، وقد هدأت الأمور قليلاً بعد وعد بلفور وتقسيم مناطق النفوذ بين الصهيونية العمالية التي تبنت الصيغة الإثنية العلمانية والصهيونية الدينية التي مُنحت الإشراف على المدارس الدينية وعلى المحاكم وبعض المؤسسات الأخرى. ومع ظهور أزمة الصهيونية وظهور مشكلة الشرعية داخل المُستوطن الصهيوني بعد عام ١٩٦٧، بدأ الاتجاه الإثني الديني يتغلب على الاتجاه الإثني العلماني حتى بدأ كثير من أعضاء النخبة الحاكمة في إسرائيل يدّعي التدين ويستخدم مصطلحاً إثنياً دينياً، وأخيراً ظهر مائير كهانا وهو من أكبر دعاة الصهيونية الإثنية الدينية وهي صهيونية مُفرّغة تماماً من أي مضمون خلقي أو ديني. والصهيونية الدينية في الوقت الحاضر هي العمود الفقري لليمين. الصهيوني، والأرثوذكس هم طليعة الاستيطان في الضفّة الغربية ودعاة صهيونية الأراضي بعد أن أصبحت الأرض هي

مركز القداسة، وأصبح التنازل عن أي شبر منها كفر وهرطقة (على عكس الأرثوذكس في الماضي الذين كانوا يرون العودة للأرض باعتبارها كفراً وهرطقة).

وأهم مفكري الصهيونية الإثنية الدينية هما موهيليفر وكوك. وتسيطر المؤسسة الصهيونية الدينية الآن على جمهور ثابت في الشارع الإسرائيليّ عن طريق توليها شؤون الدين والزواج والطلاق وشبكة واسعة من المدارس والمعاهد الدينية والمؤسسات المالية وحركات الاستيطان التابعة لها.

والمشكلة الكبرى التي تواجهها الصهيونية الإثنية الدينية الآن أنّ أغلبية يهود العالم الساحقة ليست أرثوذكسية، كما أنّها تعيش في مجتمعات علمانية تحقق لها قسطاً كبيراً من الحرية، ولذلك يصدمهم سلوك هذه المؤسسة التي تصر على الخطاب الإثني الديني وعلى تطبيق مقولاته، وتظهر المشكلة دائماً في شكل سؤال: من هو اليهوديّ؟

الفصل الثالث

حركات إثنية دينية

١ ـ حركة مزراحي Mizrahi

"مزراحي" هو مزج لكلمتي "مركز" و"روحاني"، وهما كلمتان عبريتان تطابقان في النطق والمعنى مثيلتيهما العربيتين. وقد طرحت الحركة شعار "أرض يسرائيل لشعب يسرائيل حسب شريعة وتوراة يسرائيل"، كما لُخص الشعار في عبارة "توراه وعفوداه"، أي "التوراة والعمل"، ومعناها أنّ على الصهيوني الحق المتدين أنّ يتعلم الشريعة اليهوديّة وأن يعمل بنشاط من أجل إعادة بناء إسرائيل.

وقد أثيرت قضية الدين في المؤتمر الصهيوني الثاني (١٨٩٨). وكان رد القيادة السياسيّة (العلمانية) هو أنّ الدين مسألة شخصية وأن المنظمة الصهيونية العالمية ليس لديها موقف رسمي منه. وقد كان هذا الموقف مقبولاً من المتدينين طالما لم يتوجه المشروع الصهيوني إلاّ للقضايا السياسية والاقتصادية، وهي قضايا تقع خارج نطاق الإثنية والعقيدة. ولكن حينما تقرّر (بناءً على طلب العصبة الديمقراطية) في المؤتمر الخامس (١٩٠١) أن تُشرف المنظمة على برنامج تربوي يقوم بعملية تعليم اليهود روح القومية (الإثنية) اليهوديّة بالمعنى العلماني الذي حدده آحادهعام ودعاة الصهيونية الإثنية العلمانية، شعر المتدينون بأن هذا قد يؤدي إلى القضاء على اليهوديّة. وهنا قرر

الحاخام يعقوب راينس عام ١٩٠٢ تأسيس حزب ديني قوي داخل المنظمة الصهيونية.

وفي العام نفسه، عُقد مؤتمر منسك الذي نظمه اليهود الروس وقد تم فيه الاعتراف بالاتجاهين الإثنيين: الديني والعلماني. وحينما اندلع الخلاف بينهما، تم حسمه عن طريق إقامة لجنتين متوازيتين إحداهما إثنية دينية والأخرى إثنية علمانية. وعندئذ قرّر الصهاينة المتدينون إنشاء منظمة تُدعَى مزراحي. وقد قرّرت مزراحي القيام بنشاط ديني داخل المنظمة وفي إطار الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة المتهودة (برنامج بازل)، وهذا بمقتضى القرار الذي صدر في المؤتمر الخامس الذي سمح بتكوين اتحادات مستقلة داخل المنظمة.

وعقدت منظمة مزراحي أول مؤتمر لها عام ١٩٠٣، وعبّر فيه بعض المتدينين عن اعتراضهم على قرارات منسك التي تضمنت الاعتراف بالصهيونية الإثنية العلمانية.

وفي عام ١٩٠٤، عُقد أول مؤتمر عالمي لحركة مزراحي ضم ١٠٠ مندوب، وهناك تمت صياغة برنامج الحركة الذي نص على الالتزام ببرنامج بازل وبالتوراة وبتنفيذ الأوامر والنواهي والعودة إلى أرض الآباء والبقاء داخل المنظمة الصهيونية ونشر الوعي الديني الإثني. ثم تم نقل مقر الرئاسة إلى فرانكفورت عام ١٩٠٥، وهو العام الذي تم فيه الاعتراف بالمزراحي كتنظيم مستقل داخل المنظمة الصهيونية.

وقد بدأت مزراحي نشاطها التثقيفي الواسع فنقلت نشاطها إلى فلسطين، وأنشأت أول مدرسة دينية عام ١٩٠٨. وحينما أثيرت قضية النشاط الصهيوني الثقافي في المؤتمر العاشر (١٩١١)، انسحب وفد مزراحي منه، ولكن تقرّر بعد ذلك معارضة النشاط الثقافي دون الانسحاب من المنظمة.

وانتقل مركز مزراحي إلى الولايات المتحدة عام ١٩١٣ ـ ١٩١٤، فتوقّف نشاطها لبعض الوقت في أوروبا ولكنها عاودت النشاط مرة أخرى بعد وعد بلفور وأصبح لها فرع استيطاني. وقد تم تنظيم دار الحاخامية الأساسية والمحاكم الدينية اليهوديّة التي تسيطر عليها مزراحي، ثم تم تأسيس عمال مزارحي (هابوعيل هامزراحي) في القدس عام ١٩٢١، وأصبح للحركة بالتالي منظمتها الاستيطانية فأقامت أول مستوطنة تعاونية (موشاف) تابعة للحركة عام ١٩٢٥ وأول مستوطنة جماعية (كيبوتس) عام ١٩٣٠. وتمكنت الحركة من مد نفوذها عن طريق استيعاب أولاد المهاجرين وإيوائهم في المدارس الفنية والزراعية التابعة للحركة. وتتميّز حركة مزراحي بالمقدرة على التنازل

في الأمور الدينية، وهو أتاح التعاون بسهولة بينها وبين الصهيونية العمالية.

ولحركة مزراحي فروع في كلّ العالم، ولها تنظيم نسائي وآخر شبابي. وترجمت الحركة نفسها في الداخل إلى أحزاب دينية تتبعها منظمات شبابية ونسائية. والمؤتمر العام للحركة يتكون من مجلس مزراحي العالمي (الذي يمثل يهود الخارج) واللجنة التنفيذية المشتركة لمزراحي وهابوعيل هامزراحي (الذي يمثل يهود الداخل). ويتبع الحركة في الداخل عدة مدارس ومعاهد تعليمية وجامعة بار إيلان وعدد من المزارع الجماعية ومذابح شرعية ومؤسسات مالية مثل بنك هامزراحي وبنك هابوعيل هامزراحي وشركات بناء مساكن.

وقد اندمج حزبا مزراحي وهابوعيل هامزراحي وكونا حزب المفدال (الحزب الديني القومي) الذي اشترك في كلّ الحكومات الائتلافية في إسرائيل. وكان الحزب، حتى عام ١٩٦٧، قد حصر اهتمامه في استصدار التشريعات التي تمس الجوانب الدينية وحسب.

ولكن بعد ذلك التاريخ سيطرت عليه تلك العناصر التي تدافع عن الاحتفاظ بأرض إسرائيل الكاملة، وهو الأمر الذي أدى إلى توسيع نطاق اهتمام الحزب بحيث أصبح يشمل كلّ السياسيات الداخلية والخارجية. وقد انضم الحزب إلى وزارة الليكود عام ١٩٧٧ و١٩٨١ وأيّد سياسات مناحم بيجين، أي أنّ الحزب القومي الديني أصبح عنصراً أساسياً في اليمين الديني.

٢ ـ أجودات إسرائيل Agudat Israel

تأسست حركة أجودات إسرائيل عام ١٩١٢ كتنظيم ديني يضم جميع الجماعات الدينية الأرثوذكسية في ألمانيا وبولندا وليتوانيا (كمجموعة متحدة) ضد الحركة الصهيونية لمحاولة تغيير بنية ومضمون الحياة اليهوديّة. كما تصدّت الحركة للحركات العلمانية الأخرى كافة، مثل البوند واليهودية الإصلاحية. وبعد بداية متعثرة اتخذ المؤتمر الصهيوني العاشر (١٩١١) قراراً بضم مشاريع ثقافية (علمانية) ضمن برامجها، ممّا أدى إلى انسحاب بعض المندوبين الألمان وانضموا لجماعة أجودات إسرائيل، الأمر الذي أعطاها قوة دفع شديدة.

وقد تكونت الحركة من خلال ثلاثة عناصر أساسية:

١ ـ الأرثوذكسية الجديدة الألمانية من أتباع سمسون هيرش، وهؤلاء كانوا يحاولون تنفيذ كلّ التعاليم الدينية وإقامة كلّ الشعائر مع شيء من التكيف مع البيئة غير اليهوديّة التي عيش فيها اليهود.

٢ ـ الأرثوذكسية المجرية.

٣ ـ الأرثوذكسية البولندية.

وهذان الفريقان الأخيران كانا يضمان العناصر الحسيدية وحاخامات الأكاديميات الليتوانية، وكانا يعارضان تبني المعارف الغربية. وكان أتباع الأرثوذكسية الألمانية والمجرية يرون أنّ الجماعات الأرثوذكسية يجب أن تفصل نفسها تماماً عن الجماعات اليهوديّة غير الأرثوذكسية، على عكس أتباع الأرثوذكسية البولندية وبعض قيادات الأرثوذكسية الألمانية فكانوا يرفضون هذا الموقف.

وقد أعلنت الحركة أنّ برنامجها هو توحيد شعب إسرائيل حسب تعاليم التوراة بجميع مظاهر الحياة الاقتصاديّة والسياسية والروحية. وقد أسس المؤتمر التأسيسي ما يُسمّى مجلس القيادات التوراتية، مهمته التأكد من عدم جنوح تنظيم أجودات إسرائيل عن تعاليم التوراة. وأقامت الجمعية فرعاً لها في فلسطين عام ١٩١٩، كما أقامت عام ١٩٢٢ حركة عمالية في بولندا لمنع العمال من الانضمام للأحزاب الصهيونية. وقد أخذت الحركة شكلاً عالمياً عام ١٩٢٧ حين افتتحت فروعاً في نيويورك ولندن والقدس. كما عارضت الحركة الاستيطان في فلسطين باعتباره تحدياً للأوامر الإلهية، ذلك أن تجميع المنفيين لا يمكن أن يتم إلا بمشيئة الإله وفي الوقت الذي يحدده.

وقد قامت الجمعية بنشاط ضد الاستعمار الصهيوني والإنجليزي بالاشتراك مع العرب والمستوطنين اليهود المتدينين، وقامت بحملة إعلامية ضد الاستعمار الصهيوني إلى أن سقط أحد قوادها (جيكوب دي هان) صريعاً برصاص الصهاينة.

ولم تعترف المنظمة بالمُستوطن الصهيوني ولا بالحاخامية الأساسية، وكان لها محاكمها الحاخامية الخاصة، وطالبت السلطات البريطانية بالاعتراف بها كجماعة دينية يهودية مستقلة ولم يرفض هذا الطلب.

ومع الثلاثينيات، شهدت فلسطين وصول أعداد كبيرة من أعضاء الجمعية من بولندا. وقد وجد هؤلاء أن من الصعب عدم الاشتراك في النشاطات الصهيونية

السياسيّة و الاقتصاديّة، كما وصل يهود من الأرثوذكس الجدد ومن العناصر العلمانية من ألمانيا.

وقد تم التحول عام ١٩٣٧ في مؤتمر الجمعية إذ تغلّب التيار الصهيوني الذي يعارض عودة اليهود اسماً ولكنه يرى مع هذا ضرورة العودة لفلسطين للإعداد المقدم الماشيّح. وتعاونت حركة أجودات من المنظمة الصهيونية، فظهر مندوبوها أمام اللجنة الملكية (لجنة بيل وشو) وصرحوا بأن وعد بلفور والانتداب يتفقان مع روح الوعد الإلهي بالخلاص، أي أنّها تبنت الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة بعد إلباسها الديباجة الأرثوذكسية.

وفي عام ١٩٤٤، أقام حزب أجودات إسرائيل مزرعة جماعية (كيبوتس) بأموال الصندوق القومي اليهوديّ، وانضم أعضاء الحزب إلى منظمة الهاجاناه. ثم تعمّقت العلاقة بهذا الاتفاق الذي صاغه بن جوريون وهو الاتفاق المعروف باسم "اتفاق الوضع الراهن" الذي بموجبه حصلت الحركة الصهيونية على تأييد الصهاينة المتدينين شريطة أن تحافظ الدولة الصهيونية الجديدة على "الوضع الراهن" كما هو في الأمور الدينية. وعشية قرار التقسيم بدأت أصوات مؤيدة لقيام إسرائيل ترتفع أكثر وأكثر دخل معسكر الأجواده. وقد فسرت قرارات الأمم المتحدة وتعاطف المجتمع الدولي مع اليهود بأنها من مظاهر العناية الإلهية. وبدأ التوجه العام في أواسط اليهوديّة الأرثوذكسية ينتقل بالتدريج إلى موقف متوازن: الاعتراف الواقعي "دي فاكتو "de facto بالدولة بدون منحها اعترافاً قانونياً "دي جوري de jure، أي الرفض الإيديولوجي للدولة والتعامل مع مؤسساتها في آن واحد، أي أنّ الدولة الصهيونية لم تعد لها أية دلالة دينية خاصة، فهي مجرد مؤسسة يحكم عليها مقدار ما تقرب الشعب إلى الإله والتوراة. واشترك حزب أجودات في المجلس المؤقت وفي العملية السياسية. ومع هذا، استمرت أجودات إسرائيل في التمحك بالمصطلح الديني الرافض للصهيونية، ورفضت التحدث عن الدولة فكانت تشير لها بأنها "السلطات اليهوديّة في فلسطين".

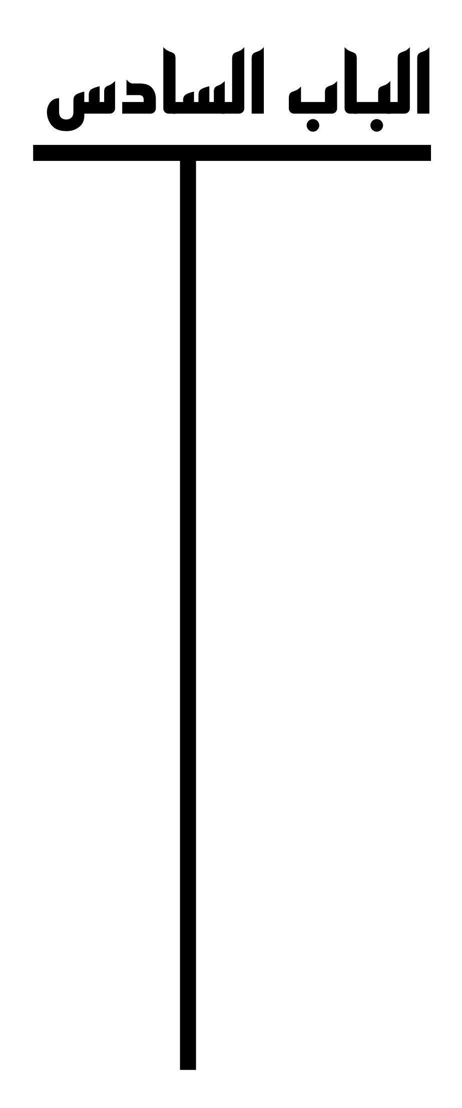
ويشير عزمي بشارة إلى أنّه عندما ثار نقاش بين قيادة أجودات إسرائيل في فلسطين وقيادتها في الولايات المتحدة، التي عارضت الانضمام إلى الحكومة المؤقتة، كان تبرير القيادة المحلية لمشاركتها منطلقاً من موقف الضعف، موقف الأقلية المضطرة إلى الانضمام إلى الحكومة لتأمين مصالحها ـ لكن التطور استبدل منطق الضعف

بمنطق القوة، منطق السلطة والتأثير فيها فيما بعد، لا لتأمين الحريات الدينية وإنما من أجل فرض الشرائع الدينية على الحياة اليومية للأكثرية العلمانية، ومن أجل تأمين المصادر المالية لمؤسسات الحركات الدينية من مدارس دينية وجمعيات خيرية ومراكز صحية وغير ذلك.

ثم تزايدت الصهيونية بعد عام ١٩٦٧ حينما أصبح اليهود الأرثوذكس من غلاة المدافعين عن الاحتفاظ بأرض إسرائيل الكاملة ومن دعاة صهيونية الأراضي.

وقد ترجمت الحركة نفسها إلى حزب أجودات إسرائيل وعمال أجودات إسرائيل في الداخل، وينصب اهتمامها على الشؤون الثقافية والتربوية. وقد شهد التيار الديني الصهيوني بعض الانقسامات داخل الدولة الصهيونية فتم تأسيس حزب ديغل هتوراه (لواء التوراة) الذي يمثل الطوائف اللتوانية (المتجديم)، ويوجد كذلك حزب شاس الذي يمثل السفارد. وقد تحوّلت حركة أجودات إسرائيل المناوئة للصهيونية إلى حركة عنصرية ذات ديباجة دينية تلعب دوراً خطيراً في تنشئه الأجيال الجديدة في إسرائيل على كره العرب وتفرض عليها الخطاب الإثني الديني. ولا يزال هناك جناح صغير من أجودات إسرائيل يتمسك بموقفه الديني القديم ويناوئ الصهيونية ألا وهو جماعة الناطوري كرتا.

الباب السادس



القومية اليهودية

الفصل الأول

الواقع التاريخي(*)

من ناحية الواقع التاريخي المتعيّن، لا توجد قومية يهودية أو شعب يهودي وإنما جماعات يهودية منتشرة في العالم تحكّمت في صياغتها حركتان أساسيتان متكاملتان:

١ ـ فالجماعات اليهوديّة لم تكن قط تشكل كتلة بشرية متماسكة تتبع مركزاً ثقافياً أو دينياً واحداً يحدد معايير مثالية أو واقعية يصوغ أعضاء هذه الجماعات رؤيتهم لأنفسهم وأسلوب حياتهم تبعاً لها، بل لم يكن لديهم ميراث ثقافي أو ديني واحد. فالجماعات اليهوديّة كانت منتشرة في كثير من بقاع الأرض داخل معظم التشكيلات الحضارية المعروفة وداخل البنى التاريخية والقومية المختلفة، تتفاعل معها وتساهم فيها وترقى برقيها وتتخلف بتخلفها. فاليهودي في الأندلس كان عربياً، واليهودي في روسيا كان روسياً، وفي اليمن كان يمنياً، وهو أمريكي في الولايات المتحدة. وقد أدّى هذا إلى تحوّل أعضاء الجماعات اليهوديّة إلى تركيب جيولوجي غير متجانس، ولا يختلف ذلك عن العقيدة اليهوديّة بخاصيتها الجيولوجية.

٢ ـ وقد كان معظم الجماعات اليهوديّة يشكل جماعات وظيفية، وهي جماعات تحافظ على عزلتها وانفصالها، ويساعدها المجتمع على ذلك حتى يتيسر لها أن تلعب دورها الوظيفي. فهي، إذن، ذات سمات إثنية خاصة تميّز كلّ واحدة منها عن أعضاء

(*) الموسوعة اليهودية والصهيونية ـ المسيري مصدر سابق ـ اشكاليات وموضوعات أساسية التعريف بالصهيونية ـ الجزء الأول ص ٢٢.

الأغلبية في المجتمعات التي يعش اليهود بين ظهرانيها. ولكن هذه السمات الإثنية لم تكن قط سمات قومية عامة تسم كلّ اليهود أينما كانوا.

فرغم أنّ كلّ جماعة يهودية كانت منفصلة عن محيطها، فإنها كانت تحدّد هويتها من خلاله، كما أنّ انفصالها عن محيطها لا يعني بالضرورة اتصالها بأعضاء الجماعات اليهوديّة الأخرى. فاليديشية الجرمانية كانت تَعزل أعضاء الجماعة اليهوديّة عن محيطهم الثقافي السلافي في بولندا. ولكنها، مع هذا ، لم تكن لها أية علاقة باللادينو (اللاتينية) التي كانت تَعزل يهود السفارد عن محيطهم العربي الإسلاميّ في الدولة العثمانية. أما العبرية (وهي اللغة الوحيدة المشتركة)، فقد ظلت من ناحية الأساس لغة الصلاة واللغة التي كُتبت بها النصوص الدينية وحسب، أي أنّ العنصر المشترك لم يتعد في جوهره الصلوات والعبادات وبعض المؤلفات. وظلت العلاقة بين أعضاء الجماعات اليهوديّة علاقة دينية أو وظيفة باعتبارهم أعضاء في الجماعة الدينية نفسها أو أعضاء في جماعات تضطلع بالوظيفة نفسها في كثير من المجتمعات. وعل كلٍّ، لم تكن الرابطة الدينية بمعزل عن الوظيفة الاقتصاديّة أو الاجتماعية تماماً إذ أنّ الجماعة الوظيفية تضرب حول نفسها العزلة ويساعدها في ذلك المجتمع المضيف. وتُعدّ العقائد الحلولية من أهم آليات العزلة.

لكن المجتمع الغربي استغنى عن الجماعات الوظيفية، وأخذ في تصفيتها بعدة طرق منها مساعدة أعضاء هذه الجماعات (ومن هؤلاء اليهود) على التخلص من خصوصيتهم الإثنية، وفي دمجهم في المجتمع أو تشجيعهم على الاندماج. واستجابةً لذلك، ظهرت حركة التنوير وحركة اليهوديّة الإصلاحية اللتان قامتا بتعريف ما يُسمّى "الهوية اليهوديّة" تعريفاً دينياً.

وقد عارضت الصهيونية هاتين الحركتين، وراحت تعمل على تحويل كلٍّ من الإحساس بالانتماء الديني إلى جماعة دينية واحدة والارتباط العاطفي بأرض الميعاد إلى شعور قومي وبرنامج سياسي.

كما قامت الصهيونية بعلمنة المفاهيم الدينية. فبعد أن كانت كلمة "شعب" تعني أنّ اليهود جماعة دينية قومية، أصبحت الكلمة في المعجم الصهيوني تعني "الشعب" بالمعنى القومي والعرقي الذي كان سائداً في أوربا في القرن التاسع عشر. وقد تأثر الفكر الصهيوني بفكرة الشعب العضوي، أي الفولك، فنظر الصهاينة إلى اليهود كشعب

عضوي قوميته عضوية وعناصره كافة (الأرض والتراث والشخصية واللغة ... الخ (مترابطة عضوياً. قد تعمقت هذه الفكرة في كتابات دعاة الصهيونية الإثنية العلمانية الذين نادوا بأن الانتماء القومي لليهود يستند إلى ما يُسمّى "التاريخ اليهوديّ" و"التراث اليهوديّ"، وما العقيدة اليهوديّة سوى جزء عضوي من خزائن التراث. أما دعاة الصهيونية الإثنية الدينية، فإنهم يرون أنّ اليهوديّة دين قومي أو قومية دينية، وأن ما يربط اليهود كشعب هو دينهم القومي أو قوميتهم الدينية.

وقد انطلق المشروع الصهيوني من هذا الافتراض، وأُسّست الدولة الصهيونية تحقيقاً لفكرة القومية اليهوديّة. ولكن من الواضح أنّ القومية اليهوديّة هي رؤية غير واقعية وبرنامج إصلاحي ليس له ما يسنده في الواقع التاريخي، فقد كان اليهود في القرن التاسع عشر، عند ظهور الصهيونية، خليطاً هائلاً غير متجانس: بينهم يهود اليديشية من الإشكناز، ويهود العالم العربي، ويهود العالم الإسلاميّ من السفارد، واليهود المستعربة. كما كان هناك القرّاءون والحاخاميون الذين انقسموا بدورهم إلى أرثوذكس ومحافظين وإصلاحيين، هذا غير عشرات الانقسامات الدينية والإثنية والعرقية الأخرى. وقد أطلق الصهاينة على كلّ هؤلاء اسم "الشعب الواحد" أو "أين فولك" حسب تعبير هرتزل. لقد طرحوا شعارهم، ونجحوا في تهجير نسبة مئوية محدودة وحسب إلى إسرائيل. بل إن الهجرة في كثير من الأحيان، لم تكن تتم لأسباب قومية وإنما لأسباب نفعية محضة. ويواجه الصهاينة أزمة في المصادر البشرية نتيجة لأن سلوك أعضاء الجماعات اليهوديّة في العالم لا يَصدُر عن إيمانهم بمقولة "القومية اليهوديّة". ومن هنا، فإن الهجرة اليهوديّة مازالت متجهة إلى الولايات المتحدة من ناحية الأساس. وهكذا، فإننا نجد أنّ أغلبية أتباع القومية اليهوديّة لا يزالون في المنفى يرفضون العودة إلى وطنهم القومي.

الفصل الثاني

التناقضات القومية

ويتضح زيف مقولة "القومية اليهوديّة" في فشل الدولة اليهوديّة في تعريف اليهودي، أي في تعريف ما يُسمى "الهوية اليهوديّة". وحينما يهاجر أعضاء الجماعات اليهوديّة المختلفة إلى أمريكا اللاتينية، فإنهم يكتشفون عدم تجانسهم، إذ أنّ اليهوديّ الألماني يكتشف أنّ الصفات الإثنية المشتركة بينه بين المهاجر الألماني غير اليهوديّ أكثر من السمات المشتركة بين وبين أعضاء الجماعات اليهوديّة الآخرين. وقد ظهرت هذه القضية في أمريكا اللاتينية أكثر من أية منطقة أخرى في العالم. وفي الولايات المتحدة، وفي دول الهجرة الأخرى مثل كندا وأستراليا، تُطرح على المهاجرين هوية قومية جديدة عليهم تبنِّيها. وقد فعل المهاجرون اليهود ذلك بكفاءة شديدة، واحتفظوا بشيء من يهوديتهم، ولكن هذه الملامح اتضح أنها مجرد ملامح يهودية داخل شخصية أمريكية واضحة. أما في أمريكا اللاتينية، فلا توجد هوية قومية جديدة، وإن وُجدت فهي كاثوليكية أي استمرار للموروث الأوربي للقارة.

وقد امتثل المهاجرون اليهود لهذا النمط، فأكّدت كلّ جماعة يهودية مهاجرة ميراثها الإثني السابق، الأمر الذي أدّى إلى تبعثر اليهود تماماً وانقسامهم إلى عشرات الجماعات وإلى ظهور انعدام تجانسهم بحدة. ويوجد في المكسيك، على سبيل المثال، عشرات الجماعات اليهودية من بينها جماعتان سوريتان، أي من أصل سوري، إحداهما

دمشقية والأخرى حلبية! لكلٍّ منهما مؤسساتها. وفي الآونة الأخيرة، بدأت الحواجز تسقط، ولكن هذا يتم داخل إطار أميركي لاتيني لا داخل إطار يهودي.

وتحاول الدولة الصهيونية بذل محاولات جاهدة لدمج المهاجرين الوافدين إليها. ولكن، مع هذا، يتضح عدم تجانسهم في انقسامهم الحاد. وحتى لو قُدّر النجاح لمحاولة إسرائيل مَزْج أعضاء الجماعات اليهوديّة، فإن ثمرة هذه المحاولة لن تكون "الشعب اليهوديّ" وتحقيق "القومية اليهوديّة" وإنما ستكون كياناً جديداً يمكن تسميته "الشعب الإسرائيليّ" و"القومية إسرائيلية".

ويرفض كثير من المفكرين اليهود، وكذلك التنظيمات اليهوديّة، فكرة القومية اليهوديّة، إما من منظور ديني أو من منظور ليبرالي أو اشتراكي، فيرون أنّ اليهود ليسوا شعباً وإنما أقلية دينية، كما يرون أنّهم ينتمون إلى الشعوب التي يعيشون بين ظهرانيها.

ويرفض دعاة قومية الجماعات (الدياسبورا) فكرة القومية اليهوديّة العالمية المجردة والمرتبطة بفلسطين، ويرون أنّه إذا كان ثمة انتماء قومي يهودي فهو عبارة عن انتماءات قومية مختلفة متنوعة مرتبطة بمجتمعات سواء أكانت هذه المجتمعات في شرق أوربا أم كانت في الولايات المتحدة. ومن ثم، يمكننا أن نتحدث عن "الجماعة اليهوديّة القومية في شرق أوربا" التي لا تختلف عن الأقليات القومية الأخرى، ولكن لا يمكننا أن نتحدث عن "الشعب اليهوديّ" بشكل عام. وثمة تيار فكري داخل إسرائيل يُسمّى "الحركة الكنعانية" (نسبة إلى أرض كنعان) يرفض فكرة القومية اليهوديّة ويطرح بدلاً منها فكرة "القومية الإسرائيليّة".

وتتواتر كلمة "الشعب" في الكتابات الدينية عند اليهود، ولكن المقصود بهذه الكلمة هو جماعة دينية ذات عقيدة دينية وانتماء ديني واحد. كما نجد مصطلحات دينية مماثلة، مثل "الشعب المختار" و"أمة الروح" و"الشعب المقدّس"، وهي مصطلحات تهدف إلى الإشارة إلى تجمّع ديني أو أخلاقي وحسب.

ولكن الصهيونية تستخدم التشابه بين المصطلح الديني والمصطلح القومي الشائع كدليل على أنّ اليهود أول شعب ظهر على الأرض وأول قومية في التاريخ. ومن ثم، فلابد أن يبتعد الباحث العربي عن استخدام مصطلحات مثل "الشعب اليهوديّ" و"القومية اليهوديّة" أو حتى "الصراع العربي اليهودي" لأنه لا يوجد بين الدين الإسلاميّ والقومية العربيّة من ناحية والدين اليهوديّ من ناحية أخرى أي صراع سياسي مسلح أو

غير مسلح، وإنما الصراع عربي إسرائيلي، أي صراع بين العرب والمستوطنين الصهاينة الذين استوطنوا فلسطين عن طريق العنف.

وفي بطاقة تحقيق الشخصية عند الإسرائيليّين، توجد ثلاثة بنود: المواطنة، والدين، والقومية. فجميع المواطنين "إسرائيليون" ومن ذلك العرب. أما الدين، فيختلف فيه مواطن عن آخر، فهو الإسلام بالنسبة إلى المسلمين، والمسيحية بالنسبة إلى المسيحيين، واليهودية بالنسبة إلى اليهود. أما القومية، فهي عربية عند العرب، وبالنسبة إلى الإسرائيليّين اليهود فلابد أن تكون القومية هي "اليهوديّة"، إذ لابدّ أن يتفق بنداً الدين والقومية (في حالة اليهود) حسب الرؤية الصهيونية.

الباب السابع

التركيب الإثني للمجتمع الصهيوني

الفصل الأول

الجماعات اليهوديّة الأساسية

Major Jewish Communities

"الجماعات اليهوديّة الأساسية" هي الجماعات اليهوديّة التي يؤمن أعضاؤها باليهودية الحاخامية. وتعيش هذه الجماعات أساساً في العالم الغربي والعالم الإسلاميّ. وقد انقسمت هذه الجماعات على أساس قومي (فرنسي ـ أمريكي ـ إنجليزي)، أو على أساس ديني (إصلاحي ـ محافظ ـ لاديني ... الخ)، أو على أساس إثني (يهودي إثني ـ يهودي غير يهودي ... الخ). ونحن نضع الجماعات اليهوديّة الأساسية مقابل الجماعات المنقرضة (مثل الخَزَر) أو الهامشية (مثل يهود الهند).

الفصل الثاني

"سفارد وإشكناز" كمرادفين لمصطلحي "يهود شرقيون ويهود غربيون"

Sephardim and Ashkenazim as Synonymous with Oriental and Western Jews

شاع في الدراسات العربيّة استخدام مصطلحي "إشكناز" و"سفارد" باعتبارهما مرادفين لمصطلحي "يهود غربيون" و"يهود شرقيون". وفي الدولة الصهيونية، تُستخدم عبارة "عيدوت مزراحي" للإشارة إلى الجماعات الشرقية بأسرها بغض النظر عن انتمائها الديني أو الإثني، وهو استخدام غير دقيق قي تصورُّنا ويطمس كثيراً من معالم التجمع الصهيوني التي لابدّ من رصدها.

لقد تكونت الدولة الصهيونية عند إنشائها من أعضاء ينتمون إلى جماعات يهودية كثيرة. ولتبسيط الأمر قليلاً، يمكن تقسيمهم إلى قسمين أساسيين:

١ ـ اليهود الغربيون: وهؤلاء هم اليهود الذين ينتمون حضارياً إلى العالم الغربي بغض النظر عن أصولهم سواء أكانت إشكنازية أم سفاردية. ومن ثم يُشار إلى جميع المهاجرين من أمريكا أو من الاتحاد السوفيتي بأنهم "غربيون"، وقد يُضم إليهم يهود من جورجيا وسفارد من هولندا.

٢ ـ يهود شرقيون: وهؤلاء يضمون يهود الشرق والعالم الإسلاميّ والعربي، والجماعات اليهوديّة المتفرقة.

ومضمون المصطلحين ثقافي، فيهود جنوب أفريقيا يُعتبرون غربيين نظراً لانتمائهم إلى الجيب الاستيطاني الأبيض.

ولكن يبدو أنّ الأدبيات الصهيونية تؤْثر استخدام مصطلحي "سفاردي وإشكنازي" على "شرقي" و"غربي" وذلك للأسباب التالية:

١ ـ كلمتا "شرقي" و"غربي" كلمتان عامتان، أما مصطلحا "سفاردي" و"إشكنازي" فهما خاصان ومقصوران على اليهود، كما أنهما مأخوذان من تراثهم اللغوي والديني. والحديث عن "سفارد" و"إشكناز" هو حديث عن "يهود في يهود" أما الحديث عن "شرقيين" و"غربيين" فيشير إلى اختلافات حضارية حقيقية وعميقة تتجاوز الإطار المرجعي اليهوديّ.

٢ ـ كلمتا "سفارد" و"إشكناز" ليس لهما حدود دلالية واضحة، بل متداخلتان، الأمر الذي يجعل استخدامهما كأدوات تحليلية أمراً صعباً.

٣ ـ وهذا التَرادُف التصنيفي الخاطئ، "شرقي" و"سفاردي" من جهة و"غربي" و"إشكنازي" من جهة أخرى، يعود إلى الرغبة المتزايدة في التصنيفات الثنائية (سالب وموجب ـ ذكر وأنثى ـ نعم ولا ـ أبيض وأسود) المرتبطة بتَغلغُل العقلية العلمية المادية. لكن الجنوح نحو التصنيف الثنائي يخدم الصهاينة بشكل خاص، فهو يستبعد عشرات الجماعات اليهوديّة التي لا ينتمي أعضاؤها إلى أيٍّ من الفريقين، مثل الفلاشاه وبني إسرائيل، يُبسّط الأمر تماماً، فيصبح اليهود جماعتين إثنيتين كلٌّ منهما تشبه الأخرى في نهاية الأمر. أما إذا أخذنا بتصنيف تعدُّدي ثلاثي أو رباعي أو خماسي، أو بتصنيف يتعدّد بعدد الجماعات اليهوديّة في العالم فسيُمكننا إدراك التنوع، وهذا ما يحققه مصطلحا "شرقي" و"غربي". فرغم أنّ هذا التصنيف ثنائي أيضاً فإنه ليس مغلقاً وإنما هو تصنيف مفتوح، فكلمة "شرقي" تشير إلى عشرات التشكيلات الحضارية الفعلية والممكنة، وكذا كلمة "غربي". ولمزيد من التوضيح والتفصيل نورد ما يلي[١] :

يتميز المجتمع الإسرائيليّ بتعدديته الإثنية ؛ فهو يتكون من أغلبية يهودية (٨١,٤٪ سنة ١٩٩٣)، وأقلية عربية فلسطينية (١٨,٦٪ مع سكان القدس العربيّة وهضبة الجولان ونحو ١٥,٤٪ من دونهم). وبالإضافة إلى تقسيم سكان إسرائيل إلى جماعتين

(١) *دليل إسرائيل العام - مؤسسة الدراسات الفلسطينية ــ ص ٥٣ وما بعدها.*

قوميتين، فإن في الإمكان تقسيم كلّ جماعة قومية إلى جماعات إثنية (أو فرعية) ؛ فاليهود ينقسمون إلى عدد كبير من الجماعات، بحسب المنطقة أو البلد أو القارة التي جاؤوا منها، و الفلسطينيّون العرب ينقسمون إلى ثلاث جماعات دينية: مسلمون وهم الأغلبية الساحقة، ومسيحيون، ودروز (أنظر الجدول رقم ١).

ينقسم اليهود إلى جماعتين إثنيتين رئيسيتين: يهود شرقيون ويهود غربيون. "واليهود الشرقيون هم، باختصار، أولئك اليهود الذين سكنوا دائماً في آسيا وإفريقيا منذ نفي أجدادهم من أرض إسرائيل" (بواسطة الرومان سنة ٧٣٢ قبل الميلاد)(*) وكان اليهود الشرقيون (أو الذين هم من أصل شرقي) يشكلون في أواسط القرن التاسع عشر الأغلبية الساحقة من يهود فلسطين. لكن بعد تدفق الهجرة اليهوديّة الصهيونية إلى فلسطين ، منذ أواخر القرن التاسع عشر، من دول أوروبا، ولا سيما دول أوروبا الشرقية، تقلصت نسبتهم في فلسطين، فأضحوا أقلية ضئيلة (أقل من ١٠٪) بين مجموع سكان فلسطين اليهود قبل سنة ١٩٤٨. لكن بعد قيام إسرائيل، هاجر عدد كبير منهم في نصف سكان إسرائيل اليهود (أنظر الجدول رقم ١).

Raphael Patai, "Western and Oriental Culture in Israel," in Michael Curtis and Mordechai Chertoff (eds.), Social Structure and Change (New Brunswick, New Jersey: Transaction Books, 1973), p.307.

الجـــــدول رقـم(١)

سكان "إسرائيل" بحسب الديانة، وبلد الأصل، ومكان الولادة، وفترة الهجرة(*) (نسب مئوية)

	8/11 1948	22/5 1961	19/5 1972	31/12 1980	31/12 1985	31/12 1989	31/12 1990	31/12 1991	31/12 1992	31/12 1993
المجموع	100.0	100.0	100.0	100.0	100.0	100.0	100.0	100.0	100.0	100.0
يهود	82.1	88.7	85.4	83.7	82.5	81.5	81.9	81.9	81.6	81.4
مسلمون		7.8	11.2	12.7	13.5	14.4	14.1	13.9	14.0	14.1
مسيحيون	17.9	2.3	2.3	2.3	2.3	2.3	2.4	2.5	2.7	2.8
دروز وآخرون		1.2	1.2	1.3	1.7	1.8	1.7	1.7	1.7	1.7
اليهود بحسب الأصل ـ المجموع	100.0	100.0	100.0	100.0	100.0	100.0	100.0	100.0	100.0	100.0
إسرائيل أو فلسطين	—	5.5	8.4	14.0	18.5	24.4	22.3	22.4	23.1	23.8
آسيا ـ إفريقيا	—	42.3	47.4	44.9	43.3	41.6	39.3	37.9	37.1	36.3
أوروبا ـ أمريكا	—	52.1	44.2	41.1	38.2	36.0	38.4	39.9	39.8	39.9
اليهود بحسب مكان الولادة ـ المجموع	100.0	100.0	100.0	100.0	100.0	100.0	100.0	100.0	100.0	100.0
مواليد إسرائيل أو فلسطين ـ المجموع	35.4	37.8	47.3	55.9	60.4	64.0	61.9	60.5	60.7	60.9
الأب: إسرائيل أو فلسطين	—	5.5	8.4	14.0	18.5	22.4	22.3	22.4	23.1	23.8
آسيا ـ إفريقيا	—	14.9	22.6	25.4	25.8	25.6	24.3	23.3	23.0	22.6
أوروبا ـ أمريكا	—	17.4	16.3	16.5	16.0	16.0	15.3	14.7	14.6	14.5
مواليد الخارج ـ المجموع	64.6	62.2	52.7	44.1	39.6	36.0	38.1	39.5	39.3	39.1
آسيا ـ إفريقيا	9.8	27.4	24.8	19.5	17.6	16.0	15.0	14.6	41.1	13.7
أوروبا ـ أمريكا	54.8	34.8	27.9	24.6	22.0	20.0	23.1	24.9	25.2	25.4

(*) المصدر: Statistical Absttract of Israel, No.45(1994). No 36(1985), p71

بلد الأصل لمواليد الخارج – مكان الولادة؛ – لمواليد إسرائيل أو فلسطين – مكان ولادة الأب.

وينضم اليهود الشرقيون، أو الذين هم من أصل شرقي، في إسرائيل إلى عدد من الطوائف ("عِدوت"، بالعبرية). والطائفة ("عِداه") هي جماعة من المهاجرين اليهود جاءت من، أو يرجع أصلها إلى ، بلد معين أو منطقة معينة، وربما مدينة معينة في العالم العربي أو العالم الإسلاميّ. وهكذا، فإن مصطلح "طوائف" ينطبق أساساً على جماعات المهاجرين الشرقيين.(*)

ومن أهم الطوائف الشرقية طائفة اليهود "الإسبان" أو اليهود الذين هم من أصل إسباني ("سفارديم" بالعبرية). ويرجع أصل هؤلاء اليهود إلى فتح العرب لإسبانيا (أو الأندلس) في القرن الثامن الميلادي، واستيطان فرع من اليهود الشرقيين في ذلك البلد. وبعد أن استرجع الإسبان والبرتغاليون شبه الجزيرة الأيبيرية في منتصف القرن الخامس عشر، بقي اليهود في أماكن سكناهم، لكنهم استبدلوا اللغة العربية باللغة الإسبانية، فتمكنوا من لغة "لادينو" ((Ladino، وهي لغة إسبانية أدخلت كلمات عبرية عليها. وبعد طردهم من إسبانيا سنة ١٤٩٢، نزلوا في شمال إفريقيا وأراضي الدولة العثمانية وبعض المناطق الأوروبية، واستمروا في استعمال لغة "لادينو". وبالنسبة إلى اليهود الإسبان في فلسطين، فقد تم في إحصاء سنة ١٨٣٩ دمجهم مع أبناء الطوائف الشرقية، لكن بحسب البلد الأصلي الذي ولدوا فيه. ومع ذلك، فإن عددهم في أواسط القرن التاسع عشر يقدّر بنحو نصف عدد اليهود الذين كانوا في فلسطين. وبسبب عمليّة الدمج المذكورة، فإنه من الصعب جداً تقدير عددهم أو نسبتهم في فلسطين قبل سنة ١٩٤٨، وفي إسرائيل اليوم.

ومن أكبر الطوائف الشرقية في إسرائيل اليوم طائفة اليهود المغاربة، يليها بحسب الترتيب، العراقيون واليمنيون والإيرانيون (أنظر الجدول رقم ٢). وبصورة عامة، فإن أبناء هذه الطوائف يتكلمون، أو يفهمون لغات الأقطار التي جاؤوا منها (إضافة إلى تكلمهم العبرية).

أما اليهود الغربيون، فيرجع أصلهم إلى أيام الإمبراطورية الرومانية وتوسعها في وسط أوروبا، وإلى استيطان يهود في بلاد أوروبية مختلفة، وخصوصاً في المناطق السلافية شمالي البحر الأسود. وفي القرون الوسطى تبنت الجوالي اليهوديّة تلك لغة

(*) A. J. Brawer, and Editorial Staff, "Jewish Communities (Edot)," in Israel Pocket Library, Society (Jerusalem: Keter Books, 1974), p.29.

"اليديش" (Yiddish)، وهي لغة ألمانيا أدخلت كلمات عبرية عليها، وأصبحت هذه الجوالي تُعرف باسم "أشكنازيم" (أي ألمان). وباختصار، يمكن القول إن الأشكناز هم اليهود الذين هم من أصل أوروبي، ومنهم أغلب يهود أميركا الشمالية وأميركا الجنوبية. وهم الجماعة الإثنية الأكبر عدداً، والأهم، والأكثر تأثيراً في البدل من النواحي الاجتماعية والسياسية و الاقتصاديّة. وقد شكلوا الأغلبية الساحقة من المهاجرين اليهود إلى فلسطين، والأغلبية الساحقة من السكان اليهود في فلسطين قبل سنة ١٩٤٨. وبعد قيام إسرائيل، وبسبب الهجرة الشعبية من دول آسيا وإفريقيا، تقلصت نسبتهم كثيراً حتى تعادلوا تقريباً مع اليهود الشرقيين. وبالنسبة إلى الأقطار التي أتوا منها، فإن نحو ثلاثة أرباعهم في إسرائيل جاؤوا هم، أو آباؤهم، من أوربا الشرقية، ولا سيما من الاتحاد السوفيتي السابق وبولندا ورومانيا، وجاء الربع الباقي من دول الأميركيتين (الشمالية والجنوبية) وأوروبا الغربية (ولا سيما ألمانيا والنمسا) "أنظر الجدول رقم ٢".

ومن الجدير ذكره أنّ الإحصاءات الإسرائيليّة تعرّف "بلد الأصل" لليهود المولودين في إسرائيل أو فلسطين بأنه "بلد ولادة الأب"، وتعرّف "بلد الأصل" لليهود المولودين في الخارج بأنه بلد "ولادة الشخص". وبحسب هذين التعريفين لبلد الأصل، يمكن تقسيم اليهود في إسرائيل إلى ثلاث جماعات إثنية رئيسية:

i - يهود شرقيون (أو يهود من أصل شرقي): يشمل هذا التعبير اليهود المولودين في آسيا وأفريقيا، وكذلك اليهود المولودين في البلد لآباء ولدوا في آسيا وأفريقيا.

ii - يهود غربيون (أو يهود من أصل غربي): وهم اليهود المولودون في أوروبا وأميركا، والمولودون في البلد لآباء ولدوا في أوروبا وأميركا.

iii - يهود أبناء البلد: وهم اليهود المولودون في البلد (فلسطين أو إسرائيل) لآباء ولدوا في البلد أيضاً.

Patai, op.cit., p.308
Brawer, op.cit., p.30.

الجـــــدول رقم(٢)

سكان إسرائيل اليهود بحسب بلد الأصل(*)، 1993

بلد الأصل	العدد المطلق	%
المجموع الكلي	4,335,2	100,0
آسيا ــ المجموع	736,300	17.0
تركيا	86,300	2.0
العراق	256,500	5.9
اليمن	158,00	3.6
إيران	134,7	3.1
غير ذلك (يشمل الهند وباكستان)	100,2	2.3
إفريقيا ــ المجموع	837,6	19.3
المغرب	502,8	11.6
الجزائر وتونس	126,5	2.9
ليبيا	74,7	1.7
مصر	63,0	1.4
غير ذلك (يشمل إثيوبيا)	70,6	1.6
أوروبا، وأمريكا، وأوكرانيا ــ المجموع	1,730,5	39.9
الاتحاد السوفيتي	712,1	16.4
بولندا	262,5	6.0
رومانيا	258,0	5.9
بلغاريا واليونان	59,9	1.4
ألمانيا والنمسا	85,0	2.0
تشيكوسلوفاكيا (سابقاً) وهنغاريا ودول أوروبية أخرى	191,8	4.4
أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية وجزر المحيطات	161,2	3.7
مواليد فلسطين / إسرائيل والأب كذلك	1,030,8	23.8

(*) المصدر: *Statistical Abstract of Israel, No. 45 (1994), pp. 96-97.*
بلد الأصل لمواليد الخارج - مكان الولادة؛ - لمواليد إسرائيل أو فلسطين - مكان ولادة الأب.

ويوضح الجدول الرقم ١ أنّ اليهود الغربيين الذين شكلوا الأغلبية الساحقة قبل سنة ١٩٤٨ تقلصت نسبتهم بعد قيام إسرائيل بسبب الهجرة الشعبية، لكنهم بقوا يشكلون أغلبية صغيرة حتى أوائل الستينات (٥٢,١٪ سنة ١٩٦٠). وتقلصت نسبة اليهود الغربيين أكثر بعد ذلك، وتفوقت عليها في أوائل السبعينات نسبة اليهود الشرقيين (٤٤,٢٪ في مقابل ٤٧,٤٪ سنة ١٩٧٢). وبقيت نسبة اليهود الشرقيين أعلى من نسبة اليهود الغربيين حتى تدفق هجرة اليهود السوفيات إلى إسرائيل في أوائل التسعينات. وفي سنة ١٩٩٣، رجحت كفة اليهود الغربيين قليلاً على كفة اليهود الشرقيين (٣٩,٩٪ في مقابل ٣٦,٣٪). أما بالنسبة إلى اليهود الذين هم من أبناء البلد، فقد ارتفعت نسبتهم من ٥,٥٪ سنة ١٩٦١ إلى ٢٣,٨٪ سنة ١٩٩٣,

وأخيراً، يوضح الجدول رقم ١ أنّ اليهود الذين ولدوا خارج البلد شكلوا أغلبية يهود إسرائيل حتى أوائل السبعينات. ثم ارتفعت نسبة اليهود المولودين في البلد (إسرائيل أو فلسطين قبل سنة ١٩٤٨) أكثر، وأصبح هؤلاء يشكلون أغلبية سكان إسرائيل اليهود (٦٠,٩٪ سنة ١٩٩٣).

٤ - يُلاحظ أنّ مصطلحي "سفارد" و"إشكناز" يصلحان إلى حدٍّ كبير لتصنيف يهود العالم الغربي، وبالتالي يمكن استخدامهما إذا كان اليهود داخل التشكيل الحضاري الغربي هم موضوع النقاش.

ولذا، فحينما يتناول الدارس تاريخ الجماعة اليهوديّة في إنجلترا مثلاً، فبإمكانه أن يتحدث عن النخبة السفاردية والجماهير الإشكنازيّة (اليديشية) حتى أواخر القرن التاسع عشر. وينطبق الشيء نفسه على يهود هولندا وفرنسا وهكذا. والمصطلحان يستبعدان الجماعات اليهوديّة الأخرى في العالم كافةً، ولا غضاضة في هذا مادام مجال النقاش هو يهود الغرب. ولكن الصورة تتغيّر إذا كان منظور التحليل هو العالم. وقد أصبح هذا هو الأمر الغالب بعد ظهور المنظمة الصهيونية التي تعطي نفسها صورة العالية، وتدّعي الحديث باسم كلّ يهود العالم، وتجعل العالم كله ساحتها. عندئذ يصبح مصطلحا "سفارد" و"إشكناز" قاصرين عن تناول الظاهرة.

وهنا، فلابد من استخدام مصطلحي "شرقي" و"غربي" للوصول إلى أعلى مستوى تعميمي، مع استخدام عدد آخر من المصطلحات إن أراد الباحث تناول الجماعات اليهوديّة على مستوى أكثر تخصيصاً. فاليهودية الغربية، أو الجماعات اليهوديّة في

الغرب، لم تعُد الإطار المرجعي الوحيد. وهذا التحول في مجال النقاش، من يهود الغرب إلى يهود العالم، هو ما أدّى إلى تداخُل المصطلحين وحدوث الخلل الذي نحاول تحاشيه.

٥ - كان مصطلحا "سفارد" و"إشكناز" صالحين بصفتهما أداتين تحليليتين حتى القرن التاسع عشر. ولكن، مع ظهور الدولة القومية الحديثة، واتساع نطاق الثورة العلمانية، لم يَعُد الانتماء الديني الإثني هو محك الهوية، وبدأ يهود الغرب يُصنّفون أنفسهم بناء على انتمائهم القومي ؛ فهذا يهودي إنجليزي وذلك يهودي هولندي، وهلم جرا. أما على الأساس الديني فهم يهود إصلاحيون أو محافظون أو أرثوذكس أو إلحاديون وعلى مستوى الهوية يمكن تصنيفهم على أنّهم يهود إثنيون أو إندماجيون أو يهود غير يهود ... الخ. وهكذا ضمر الانتماء السفاردي أو الإشكنازيّ، لم يَعُد المصطلحون صالحين.

لكننا ، فإننا نستخدم هنا مصطلحي "سفارد" و"إشكناز" حين يكون موضوع النقاش هو يهود الغرب حتى منتصف القرن التاسع عشر، أو حينما نود الإشارة إلى السفارد أو الإشكناز بالمعنى المحدد. وفيما عدا ذلك، فإننا نستخدم مصطلحي "شرقي" و"غربي"، فهما مصطلحان عامان يغطيان كلّ التنويعات والهويات اليهودية المختلفة. كما أنّنا نستخدم مصطلحات أكثر تحدّداً، مثل: يهود البلاد العربيّة و الإسلاميّة– أو يهود اليديشية، أو يهود بني إسرائيل ، أو يهود الفلاشاه. كما نستخدم مصطلح "الجماعات اليهوديّة" في صيغة الجمع ثم نشير، على سبيل المثال، إلى الجماعة اليهوديّة في هولندا في القرن التاسع عشر (مثلاً) من باب التخصيص المكاني والزماني.

السفارد Sephardim

"سفارد" مصطلح مأخوذ من الأصل العبري "سفارديم". ويُشار إلى السفارد أيضاً بكلمة "إسبانيولي"، وباليديشية كلمة "فرانك" التي تشبه قولنا بالعربية "الفرنجة" (ومن هنا تسمية جيكوب فرانك، أي جيكوب السفاردي). و"سفارد" اسم مدينة في آسيا الصغرى تم ربطها بإسبانيا عن طريق الخطأ فتُرجمت الكلمة في الترجوم (الترجمة الآرامية لأسفار موسى الخمسة) إلى "إسباميا"، و"سباميا"، أما في البشيطا (الترجمة السريانية لأسفار موسى الخمسة) فهي "إسبانيا". وابتداءً من القرن الثامن الميلادي،

أصبحت كلمة "سفارد" هي الكلمة العبرية المستخدمة للإشارة إلى إسبانيا. وتُستخدم الكلمة في الوقت الحاضر للإشارة إلى اليهود الذين عاشوا أصلاً في إسبانيا والبرتغال، مقابل الإشكناز الذين كانوا يعيشون في ألمانيا وفرنسا ومعظم أوربا. وقد استقر أعضاء الجماعة اليهوديّة في شبه جزيرة أيبريا في أيام الإمبراطورية الرومانية. ولن أهم فترة في تاريخهم هي الفترة التي حكم فيها المسلمون شبه جزيرة أيبريا والتي يشار إليها باسم "العصر الذهبي".

وكان أعضاء الجماعة اليهوديّة يتحدثون العربيّة في تلك الفترة، ويفكرون ويكتبون بها. ثم جاء الغزو المسيحي لشبه الجزيرة واستردادها، فاكتسب اليهود الصبغة الإسبانية وتحدثوا باللادينو، وهي لهجة إسبانية، ثم تم طردهم من إسبانيا عام ١٤٩٢، ومن البرتغال عام ١٤٩٧، فاتجهت أعداد منهم إلى الدولة العثمانية التي كانت تضم شبه جزيرة البلقان وشمال أفريقيا. ويُعدُّ ميناء سالونيكا (في شبه الجزيرة اليونانية) عاصمة السفارد في العالم حتى الحرب العالمية الأولى، فقد كانت هذه المدينة تضم أغلبية سفاردية. ومن أهم المدن الأخرى التي استقر فيها السفارد في الدولة العثمانية: أدرنة والأستانة وصفد والقدس والقاهرة.

وبعد قرن من الزمان، لحق بجماعة السفارد جماعات المارانو، وهم من يهود السفارد المُتخفّين (البرتغاليين)، فاتجهت جماعات منهم إلى هولندا وفرنسا، كما اتجهت جماعات أخرى إلى أماكن أخرى في أوربا، مثل: إنجلترا وألمانيا وإيطاليا والدنمارك والنمسا والمجر، وإلى العالم الجديد (البرازيل و الولايات المتحدة)، حيث أعلنت أعداد منهم عن هويتهم الدينية ومارسوا العقيدة اليهوديّة بشكل علني. وكان المُبعَدون من السفارد إسبانيين أو برتغاليين في تراثهم وثقافتهم ولباسهم وطَهْوهم وأسمائهم، ولذا كان يُطلق عليهم اسم "البِان" أو "البرتغاليون". وقد احتفظ هؤلاء المُبعدون بعلاقاتهم الثقافية بوطنهم الأصلي، حيث كانوا معتزين بهذا التراث وبالمكانة العالية التي حققوها في هذه البلاد.

وقد ظهر في صفوف السفارد عدد كبير من المفكرين مثل أورييل داكوستا. وليس من قبيل الصدفة أن أول مفكر يهودي يُعتدُّ به في العصر الحديث كان سفاردي الأصل، وهو إسبينوزا. كما أنّ قبّالاة الزوهار، وكذلك القبّالاه اللوريانية التي اكتسحت أورروبا الإشكنازيّة، كانت من أصل سفاردي، وكذا الشولحان عاروخ، أهم المصنفات الفقهية

اليهوديّة، حيث وضعه يوسف كارو. وكان شبتاي تسفي (الماشيَّح الدجال) من أصل سفاردي أيضاً ، أي أنّ كلّ التطورات التي حدثت بين الجماعات اليهوديّة في هذه الفترة كانت ذات أصول سفاردية.

وقد كان السفارد يُصرّون على الاحتفاظ بمسافة بينهم وبين الإشكناز، الذين كانوا يتسمون بقدر كبير من العزلة والتخلف الحضاريين. وأخذت هذه المسافة شكل مؤسسات دينية وتعليمية مستقلة، ورفض الزواج المُختلط من الإشكناز، حتى أنّ السفاردي الذي يتزوج من إشكنازية كان يُطرد من الجماعة السفاردية ولا يُدفن ي مدافنها. وحينما كانت الجماعة السفاردية تضطر إلى السماح لبعض الإشكناز بحضور الصلوات في معبدها، فإن أعضاءها كانوا يصلون وراء حاجز خشبي يُقام بهدف الفصل بين أعضاء الجماعتين.

وحينما كانت أية جماعة سفاردية تهاجر إلى أية مدينة، فإنها كانت تحتفظ باستقلالها وبإحساسها بتفوّقها وتفوّق قيمها، حتى أنّها كانت تصبغ بقية الجماعة بصبغة سفاردية. هذا ما حدث على سبيل المثال في الدولة العثمانية، حيث امتزج اليهود الروم (الرومانيوت) واليهود المستعربة باليهود السفارد، فأصبحت اللادينو هي اللغة السائدة بينهم. وقد حدث الشيء نفسه في شمال أفريقيا.

وفي العصر الحديث، كانت الهجرة اليهوديّة في الغرب تأخذ الشكل التالي: يستقر أعضاء جماعة سفاردية تمتلك من الخبرات ورؤوس الأموال والاتصالات الدولية ما يجعل منها جماعة تجارية إدارية متقدمة، ثم تأتي الجماهير الإشكنازيّة وتلحق بهم، وكان السفارد يشغلون في معظم الأحيان قمة الهرم. ولذا ، لعب السفارد دوراً مهماً في تطوّر الرأسمالية الغربية وبروز النظام الاقتصاديّ الجديد (في العالم) واتساع نطاق حركة الاكتشافات الجغرافية. وقد بدأت السفارد يستثمرون في كثير من المشروعات الاستعمارية الهولندية، فامتلكوا عدداً كبيراً من أسهم شركة الهند الغربية الهولندية. في حين ظل الإشكناز على هامش هذا التطور، فكان منهم صغار التجار وكان منهم المرابون المرتبطون بالنظام الاقتصاديّ القديم. ولعل هذا يُفسّر بقاء المسألة اليهوديّة مسألة إشكنازية بالدرجة الأولى. ففي فرنسا مثلاً، اصطدم النظام الجديد بعد الثورة بيهود الألزاس واللورين، وهم من يهود اليديشية الإشكناز، بينما لم تَحدث أية مواجهة بين هذا النظام وبين يهود بايون وبوردو من السفارد. وفي إنجلترا، لم تكن هناك مسألة

يهودية إلاّ بعد هجرة يهود اليديشية بجحافلهم المختلفة إليها.

وقد حقق السفارد بروزاً غير عادي في المجتمعات الغربية خصوصاً هولندا. وكان منهم أعداد كبيرة من يهود البلاط. كما اشتركوا في تمويل بعض الشركات الاستيطانية. وقد بلغ اليهود السفارد قمة نفوذهم المالي في نهاية القرن السابع عشر. ولكن وَضْعهم أخذ في التدهور بعد ذلك التاريخ، وذلك مع ظهور القوة البريطانية وانكماش القوة الهولندية، ومع تَزايد حجم التجارة الدولية التي لم يتمكن رأس المال السفاردي من استيعابها، ومع ظهور بورجوزايات محلية حلت محل يهود البلاط. وقد أدّى وصول قوات الثورة الفرنسية إلى هولندا إلى قطع علاقة أعضاء الجماعات اليهوديّة فيها بالشبكة التجارية اليهوديّة في ألمانيا وبولندا والدولة العثمانية، ومن ثم فَقد السفارد ما تبقّى لهم من قوة وثروة، وحدث التراجع الذي رجّح كفة الإشكناز.

والجدير بالذكر أنّ عبرية السفارد مختلفة عن عبرية الإشكناز. وهذا يعود إلى أنّ اليهود العالم العربي كانوا منذ أيام الأندلس لا يتحدثون إلاّ العربيّة ، واقتصر استخدام العبرية على الكتابة الدينية المتخصصة. وقد كان لاحتكاك اليهود بالعرب أثر عميق في لغتهم، فقد ازدادت عبريتهم فصاحة بمجاورتها اللغة العربيّة التي تُعدّ أرقى لغات المجموعة السامية كلها. وقد ترتب على ذلك أنّ دولة إسرائيل، التي قامت على أكتاف الإشكناز، وجدت نفسها رغم كلّ شيء مُضطرّة إلى اعتبار عبرية السفارد هي لغة المسرح الرسمية وكذلك لغة الإذاعة والتعليم في الجامعات والمدارس. وقد اضطر المؤلفون في الأدب العبري الحديث، أو العاملون في مجال الدراسات اللغوية، حتى وإن كانوا من الإشكناز، إلى الخضوع المُطلق للسان السفارد. ولكن هذا لا ينفي أنّ هناك مزيجاً لغوياً في جبهة السفارد ذاتهم، فبعضهم (مثل المارانو) يتحدث اللادينو أو البرتغالية، أما البعض الآخر فيتحدث اليونانية أو التركية وهم أقلية. وقد انعكس هذا التباين اللغوي على طريقة نطقهم للعبرية.

بل إن هذا التباين يمكن ملاحظته في نُطق العبرية بين اليهود الذين يتحدثون اللغة نفسها، فثمة سمات محلية في النطق أصبحت تُميّز اليهودي العراقي عن اليهوديّ اليمني أو المغربي، ليست نتيجة احتكاكه باللغة الفصحى وحسب بل ونتيجة احتكاكه العميق باللهجة التي يتحدث بها مواطنو بلده. وفي الوقت الحاضر، بدأ السفارد يتحدثون (أساساً) لغة البلاد التي يتواجدون فيها.

ولا يوجد اختلاف جوهري بين السفارد والإشكناز في العقائد، فكلاهما يعتبر أنّ التلمود البابلي هو المرجع النهائي. ومع هذا، كان ليهود إسبانيا طريقتهم الخاصة في الصلاة وإقامة الشعائر الدينية التي تُعدّ استمراراً للتقاليد الدينية اليهوديّة التي نشأت وتطورت في بابل. أما الإشكناز، فتعود عبادتهم أساسًا إلى أصول يهودية فلسطينية. وقد تعمّقت الفروق بين الفريقين نتيجة تأثير السفارد في عبادتهم وتلاوتهم وترتيلهم وإنشادهم بالذوق العربي، كما انفردوا بنصوص شعرية ونثرية في أدعيتهم وصلواتهم قريبة الشبة بما يماثلها عند المسلمين.

ويُلاحظ أنّ السفارد، بسبب مستواهم الثقافي العالي، كانوا أكثر تسامُحاً وأوسع أفقاً. ومن هنا نجد أنّ الشولحان عاروخ "المُصنّف التشريعي الذي وضعه كارو السفاردي) أكثر ليبرالية من تلك الرؤية التي سادت بين الإشكناز عند صدوره. وهناك اختلافات بين السفارد والإشكناز تعود إلى اختلاف البيئات الحضارية التي عاش في كنفها أعضاء الجماعات اليهوديّة السفاردية و الإشكنازيّة. ففي عيد الفصح، يستخدم السفارد الخس باعتباره أحد الأعشاب المُرّة التي تُؤكل في هذه المناسبة بدلاً من الفجل الحار.

أما الصلوات في المعبد، فهي مختلفة في كثير من النواحي السطحية، وعلى سبيل المثال، يرفع السفارد مخطوطة التوراة قبل قراءتها على خلاف الإشكناز الذين يفعلون ذلك بعدها. كما أنّ الخط المستخدم في كتابة المخطوطة مختلف. وكذلك، فإن معمار المعبد السفاردي يختلف، في بعض التفاصيل، عن معمار المعبد الإشكنازيّ.

وتختلف المصطلحات الدينية بين الإشكناز والسفارد على النحو التالي:

المصطلح	سفاردي	إشكنازي
صلاة العشاء	عربت	معاريف
تابوت العهد	هيكل	آرون
صلاة عيد الفصح	هاجاداه	سيدر
يوم الغفران	كيبور	يوم كيبور
حاخام	ربي/راف	راباي
كتاب صلاة	تيفيلوت	سيدور

وبسبب هذه الاختلافات وغيرها، اكتسب مصطلح "سفارد" دلالة دينية إلى جانب دلالته الإثنية الأصلية، وأصبح يُطلق على كلّ اليهود الذين يتبعون التقاليد السفاردية في العبادة سواء أكان أصلهم يعود إلى شبه جزيرة أيبريا أم يعود إلى غير ذلك.

ويطلق المصطلح الآن على كلّ اليهود الذين لا ينتمون إلى أصل إشكنازي غربي في التجمع الإسرائيليّ. ولكن ممّا يثير بعض المشاكل في التصنيف أنّ الحسيديين، وهم من الإشكناز، اقتبسوا كثيراً من التقاليد والطقوس السفاردية، كما أنّ بعض اليهود الهولنديين والإنجليز يتبعون التقاليد السفاردية في العبادة. ولذا، فحينما نتحدث عن سكان التجمع الصهيوني من اليهود نقول: "اليهود الإشكناز" و"اليهود السفارد"، و"يهود البلاد الإسلامية"، أو نقول: "يهود شرقيون" و"يهود غربيون" بدلاً من "سفارد" و"إشكناز" حتى لا نَسقُط في التصنيفات الثنائية البسيطة والسهلة التي تُشوّه الواقع.

وقد تدهوَر وضع اليهود السفارد، كما أسلفنا، بعد أن كانوا الأكثر عدداً والأعلى مكانة والأكثر ثقافة. ففي العصور الوسطى، كانوا يشكلون نصف يهود العالم، وكانوا على احتكاك بمؤسسات صنع القرار في بلادهم، كما كانوا يشتغلون بالشؤون المالية المتقدمة. ولكن، ابتداءً من القرن السابع عشر، بدأ صعود الإشكناز عددياً ثم ثقافياً. ورغم وجود أقليات سفاردية مهمة في لندن وأمستردام حتى القرن التاسع عشر، زاد المد الإشكنازيّ وغطى الانفجار السكاني في صفوفهم على السفارد تماماً. ومع الحرب العالمية الثانية، كان يهود العالم يبلغون ١٦,٥٠٠,٠٠٠ منهم ١٥ مليون إشكنازي، والباقي سفارد بالمعنيين الديني والعرقي. وتُوجد أغلبية السفارد في شمال أفريقيا (ما بين ٢٥٠ ألفاً إلى ٣٠٠ ألف) وأوروبا (٢٥٠ ألفاً). كما كان هناك عدد كبير في أمريكا اللاتينية (١٢٠ ألفاً)، وتركيا (٧٣ ألفاً)، وفلسطين (٤٧ ألفاً)، وتوزّع الباقي على ثلاث دول أخرى. لكن هذه الأرقام غير دقيقة، كما أنها تضم اليهود المستعربة ضمن السفارد، وكذلك أعضاء الجماعات اليهوديّة الأخرى (مثل الفلاشاه وبين إسرائيل والدونمه).

وقد أدّت تقلّبات القرن العشرين، من تحديث في اليونان والدولة العثمانية، وحروب بين اليونان وتركيا، إلى تشتيتهم من مراكز تجمّعهم الأساسية، لا سيما وأن عاصمتهم سالونيكا كانت مدينة تركية في شبة الجزيرة اليونانية. وقد تم إخلاء سكانها وتهجيرهم إلى تركيا، وضمن ذلك اليهود، باعتبارهم أتراكاً، خصوصاً وأنّ نسبة كبيرة من سفارد سالونيكا كانوا من الدونمه، أي من اليهود المتخفين الذين أظهروا الإسلام،

ولذلك تم تصنيفهم باعتبارهم مسلمين. وهاجرت أعداد كبيرة منهم إلى أوروبا و الولايات المتحدة اللاتينية حيث كان الجو الحضاري اللاتيني مواتياً لهم.

وقد انعكس الانقسام بين السفارد والإشكناز على الجماعة اليهودية في فلسطين، إذ كانت هذه الجماعة تنقسم بدورها إلى إشكناز وسفارد، ولكل جماعة حاخام خاص بها. وقد ارتبط اليهود غير الغربيين (المغاربة والمستعربة) بالحاخامية السفاردية، ومن هنا كان اختلاط المجال الدلالي للكلمة بحيث أصبحت تشير إلى كلّ من ليس بإشكناز. وكانت السلطات الإنجليزية تُفضّل السفارد واليهود المستعربة على الإشكناز، نظراً لأن الفريق الأول كان يعرف تقاليد فلسطين أكثر من الوافدين الجدد.

وإذا كانت المسألة اليهوديّة مسألة إشكنازية، فإن الصهيونية أيضاً ظاهرة إشكنازية. والواقع أنّ كلّ مفكري الصهيونية، بدون استثناء إشكناز. وربما كان الاستثناء الوحيد هو الحاخام القلعي الذي تنبع صهيونيته من رؤاه القبّالية، وكان يعيش في أطراف الدولة العثمانية (في شبه جزيرة البلقان). وقد كانت الصهيونية إشكنازية لدرجة أنّ كلمة "يهودي" في الأدبيات الصهيونية الأولى كانت مرادفة لكلمة (إشكنازي) بمعنى "يديشي". كما أنّ المشروع الصهيوني كان مشروعاً غربياً لحماية مصالح الغرب في الشرق.

ولكن بعد تأسيس الدولة، هاجر الألوف من يهود الشرق إليها، الأمر الذي أدّى إلى زيادة العنصر غير الإشكنازي في الدولة. وقد أعطاها هذا الطابع الذي يُقال له "سفاردي أو شرقي".

وتتسم العلاقات في المُستوطن الصهيوني بين الشرقيين والسفارد من جهة، والإشكناز من جهة أخرى، بالتوتر الشديد، فيشير الإشكناز للشرقيين بوصفهم "شفارتز" (أي "سود" أو "شحوريم"، مع تحميل الكلمة إيحاءات قديحة)، وهناك مَثَل يديشي يقول: "فرانك كرانك"، أي "السفارد مرض"، والرد الشرقي السفاردي هو الإشارة إلى "الإشكي نازي" بكل تداعيات الكلمة في الذهن الإسرائيليّ. ويبدو أنّ التمييز العنصري مستمر بالنسبة لأبناء اليهود الشرقيين ممن وُلدوا ونشأوا في إسرائيل. وقد اتضح هذا في النظام الحزبي في إسرائيل، فقد ظهرت فيه الأحزاب الإثنية بعد إعلان الدولة الصهيونية، وقد أعلن الصهاينة حينذاك أنّ هذا أمر مؤقت وأنّ الصهيونية (أي القومية اليهوديّة) ستصهر الجميع في بوقته واحدة. ولكن ظهر في

التسعينيات أحزاب تعبّر عن الانقسام الإثني فيضم حزب شاس (الديني) اليهود السفارد، أما حزب إسرائيل بعالياه (العلماني) فيضم المهاجرين السوفييت.

الإشكناز Ashkenazim

"الإشكناز" من "إشكانازيم" العبرية. و"الإشكناز" هم يهود فرنسا وألمانيا وبولندا. و"إشكناز"، حسب الرواية التوراتية، اسم أحد أحفاد نوح. ومن المحتمل أن تكون الكلمة قد استُخدمت للإشارة إلى قبيلة ظهرت في زمن أسر حدون تَحالَف أعضاؤها مع آشور. وهم الذين تشير إليهم المدونات الآشورية في القرن السابع قبل الميلاد بلفظ "إشوكوزا"، وهم الذين أشار إليهم اليونانيون بكلمة "إسكيثيانز "Scythiansوهم الإسكيثيون. ويبدو أنّ هذه الأقوام كانت تشغل المنطقة الموجودة على حدود أرمينيا في أعالي الفرات، وجزءاً من مملكة الميديين. ويقرن يوسيفوس كلمة "إشكناز" بمدينة في مركز ميديا. وفي بعض الكتابات الحاخامية، يُشار إلى آسيا بأسرها باعتبارها "إشكناز"، كما كان يُشار إلى الخَزَر باعتبارهم "إشكناز"، بل واستُخدمت الكلمة للإشارة إلى حملات الفرنجة.

أما الاشتقاق الحالي لكلمة "الإشكناز"، فهو من كلمة "إشكناز" بمعنى "ألمانيا". ومن الصعب معرفة متى حدث هذا التَرادُف. وثمة آراء احتمالية عدة، فهناك من يربط بين إشكناز وإسكندنافيا، وهناك من يربط بينها وبين الساكسون ومن ثم بينها وبين ألماني. ومع زمن راشي، أصبح هذا الترادف أمراً مقبولاً تماماً، فهو يشير إلى "لشون إشكناز"، أي "اللسان الألماني" أو "اللغة الألمانية". وكان يشير إلى "إرتس إشكناز" أي "أرض ألمانيا". ومن هنا، أصبح المصطلح يشير إلى يهود فرنسا وألمانيا ونسلهم من اليهود الذين هاجروا إلى إنجلترا وشرق أوروبا (بولندا وليتوانيا) بعد حروب الفرنجة. ويطرح آرثر كوستلر نظرية أخرى عن أصل أكبر كتلة بشرية إشكنازية (أي يهود بولندا)، فيرى أنّ الجماعات اليهوديّة في فرنسا وألمانيا قد أبيدت تماماً أو اختفت، وأنّ يهود بولندا هم في الواقع بقايا يهود الخزر الذين نزحوا عن أراضيهم بعد سقوط دولتهم وأسسوا دولة المجر ثم هاجروا منها إلى بولندا. وبالتالي، فإن الإشكناز عنصر تركي غير سامي.

وقد انتشر الإشكناز من بولندا إلى أوربا، خصوصاً بعد هجمات شميلنكي في أوكرانيا (١٦٤٨)، فاستقرت أعداد منهم في بولندا وألمانيا وإنجلترا والعالم الجديد. ثم

هاجر الملايين منهم في نهاية القرن التاسع عشر إلى الولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية وأستراليا ونيوزيلندا، بعد الانفجار السكاني الذي حدث في صفوفهم. كما أنّهم توجهوا إلى آسيا وأفريقيا مع حركة الوسع الإمبريالي. ولما كان يهود شرق أوربا هم أهم كتلة بشرية يهودية، فقد ارتبط المصطلح بهم، ولكننا نُفضّل أن نشير إلى هؤلاء باعتبارهم "يهود اليديشية".

وتُذكر كلمة "إشكناز" عادةً مقابل "سفارد"، وبالتالي أصبحت كلمة "إشكناز" مرادفة لمعنى "غربي" وأصبحت "سفاردي" بمعنى "شرقي"، وهو تَرادُف خاطئ لأن كثيراً من يهود الشرق (يهود الفلاشاه وبني إسرائيل) ليسوا من السفارد، ولا علاقة لهم بالتراث السفاردي الإثني أو الديني. ولكن هذا الترادف التصنيفي الخاطئ ربما يعود إلى الرغبة المتزايدة في التصنيفات الثنائية (مثل: سالب وموجب ـ ذكر وأنثى)، وإلى جَعْل مرجعية اليهود الوحيدة والأساسية هي تراثهم، ومحاولة رؤيتهم داخل إطار يهودي مُوحّد، وهو أمر يصبح صعباً لو أخذنا بتصنيف تعدّدي ثلاثي يراعي وجود أقسام مختلفة من اليهود في العالم. وما يزيد الأمور اختلاطاً، أنّ الحسيديين، وهم من أشد اليهود إشكنازيةً إن صح التعبير، تبنّوا بعض الممارسات الدينية السفاردية في محاولة لتأكيد استقلالهم عن المؤسسة الحاخامية الإشكنازية. ومع تزايُد فقدان الجماعات اليهوديّة سماتها الخاصة، وتزايد اندماجها وتحوّل أعضائها إلى أمريكيين يهود أو فرنسيين يهود ... الخ، يصبح من الأدق استخدام مصطلح "يهود غربيون" للإشارة لما يُسمّى الآن "اليهود الإشكناز".

وثمة اختلافات دينية غير جوهرية بين الإشكناز والسفارد تعود إلى اختلاف الأصول. فالإشكناز تبنّوا الصيغة الفلسطينيّة لليهودية، مقابل الصيغة البابلية التي تبناها السفارد. ومع أنّ كلا الفريقين تبنّى التلمود البابلي، في نهاية الأمر، مرجعاً وحيداً في الأمور الدينية والفقهية، فقد ظلت بعض نقاط الاختلاف. فالسفارد، على سبيل المثال، يتسمون باتساع الأفق، أما الإشكناز فلم ينفتحوا على الحضارات التي عاشوا بين ظهرانيها برغم تأثيرهم بها، وانغلقوا على الكتاب المقدّس والتلمود وعلى تفسير النصوص الجزئية. كذلك لم يحاول الإشكناز جَمْع الشريعة وتقنينها والتوصل إلى مبادئها العامة.

والاختلافات بين السفارد الإشكناز في الأمور الدينية ليست عميقة، وقد حصرنا

بعضها في مدخل السفارد. ولكن يُلاحظ أن تأثير السفارد الفكري الديني في الإشكناز كان عميقاً. فرغم أنّ بدايات القبّالاه إشكنازية، فإن تحوّلها إلى نسق متكامل في قبّالاة الزوهار ثم القبّالاه اللوريانية تم على يد السفارد، بل إن الفكر القبّالي ذاته يكاد يكون فكراً سفاردياً، وهو الذي اكتسح الفكر الحاخامي الإشكنازي. كما أنّ أهم كتب الشريعة اليهوديّة (الشولحان عاروخ) كتاب سفاردي كتب عليه أحد الإشكناز شروحاً وتعليقات. وقد لاحَظ أحد المفكرين أثر الفكر المسيحي في الفكر الديني للإشكناز، فظاهرة الاستشهاد فيما يُعرَف بمصطلح "تقديس الاسم" (بالعبرية: "قيدوش هاشيم") هي ظاهرة إشكنازية لعلها جاءت نتيجة تأثير واقعة الصلب في المسيحية على اليهود. أما المارانية، وهي شكل من أشكال التقية، فهي ظاهرة سفاردية.

ويمكن ملاحظة تأثير الفكر المسيحي في الحسيدية أيضاً، على عكس الفكر السفاردي الذي تأثر في بعض جوانبه بالفكر الديني الإسلاميّ.

ومن الظواهر التي تستحق التسجيل أنّ المشيحانية (وهي المعبّرة عن إحباط الجماهير) حركة إشكنازية بالدرجة الأولى رغم أنّ الفكر القبّالي فكر سفاردي، ورغم أنّ شبتاي تسفي (أول ماشيّح دجال في العصر الحديث) سفاردي. كما أنّ قيادة هذه الحركات انتقلت إلى الغرب بعد حركة شبتاي تسفي. فجيكوب فرانك إشكنازي (رغم تَبنيّة بعض الأساليب السفاردية، ورغم أنّ أعداءه سموه "فرانك"، أي السفاردي باليديشسية) والحركة الحسيدية أيضاً حركة إشكنازية. ويُلاحظ أيضاً أنّ الوضع تغيّر بعد سنوات من التبعية للفكر السفاردي وبدأ الإشكناز في الإبداع في مجال الفكر الديني والدنيوي، فظهرت حركة التنوير في صفوفهم، كما ظهر بينهم علم اليهودية، وكذلك جميع الحركات الدينية في اليهوديّة الإصلاحية والمحافظة والأرثوذكسية والتجديدة.

وكان معظم الإشكناز يتحدثون اليديشية الإيديولوجية اختفت بالتدريج مع عشرينيات هذا القرن، وبالتالي فهم يتحدثون في الوقت الحاضر لغة البلد الذي يوجدون فيه. ولغتهم الأساسية الآن هي الإنجليزية باعتبار أنّ أغلبيتهم تُوجد ضمن التشكيل الاستعماري الاستيطاني الأنجلو ـ ساكسوني (الولايات المتحدة الأميركيّة ـ كندا ـ أستراليا ـ جنوب أفريقيا). والعبرية السائدة بين الإشكناز مختلفة عن عبرية السفارد حيث ينطقونها بطريقة مختلفة.

وكان أكثر من نصف يهود العالم، في العصور الوسطى وحتى بدايات القرن الثامن عشر، من السفارد ويهود العالم الإسلاميّ. ولكن، بعد ذلك التاريخ، أخذ الإشكناز في التَزايد إلى أنّ حدث الانفجار السكاني في صفوفهم في القرن التاسع عشر وأصبحوا يشكلون نحو ٩٠٪ من يهود العالم. ولا تزال نسبتهم عالية. ومع أنّها قد هبطت قليلاً في الآونة الأخيرة، بسبب تناقُص معدلات الإنجاب بينهم، فإن الأغلبية الساحقة من يهود العالم تظل إشكنازية (بمعنى: غربية). كم أنهم لوجودهم في المجتمع الغربي، فإن لهم بروزاً عالمياً. ولذا، فإن معظم مشاهير اليهود الآن من الإشكناز، ابتداءً بأينشتاين ومروراً بكيسنجر وانتهاءً براكيل ويلش.

ويُلاحظ أنّ البناء الوظيفي والمهني للإشكناز مختلف عن بناء السفارد. فالإشكناز كانوا يقفون دائماً على هامش المجتمع الغربي، كشعب شاهد، ثم كأقنان بلاط ويهود بلاط ويهود بلاط ومرابين وتجار ووسطاء في النظام الإقطاعي، على عكس السفارد الذين كان بعضهم يضطلع بالوظائف الهامشية نفسها، ولكنهم كانوا أكثر اندماجاً في النظام الاقتصادي الجديد في الغرب باعتبارهم من كبار المموّلين الذين ساهموا، في أمستردام وغيرها، في تأسيس بعض الشركات الرأسمالية الجديدة، كما استثمروا أموالهم في المشاريع الاستعمارية والاستيطانية. أما من الناحية الثقافية، فقد كان السفارد أقل انغلاقاً على المجتمع الغربي وأكثر استيعاباً لثقافته وأسلوب حياته على عكس الإشكناز. ولذلك، فإن المسألة اليهوديّة مسألة إشكنازي، لم تُوجد إلاّ في البلاد التي توجد فيها أقلية إشكنازية. وحينما وُجدت أقلية سفاردية وأخرى إشكنازية في بلد واحد، كما كان الحال في فرنسا، فإن السفارد كانوا يندمجون في الاقتصاد الجديد دون أن يصادفوا عقبات كثيرة، ودون أن يواجهوا مشكلة ازدواج الولاء. ولهذا، فحينما توجّه نابليون لحل مشكلة يهود فرنسا، انصبت جُلّ جهوده على حل مشكلة يهود الألزاس واللورين من الإشكناز، ولم يضم لهم يهود بوردو وبايون من السفارد.

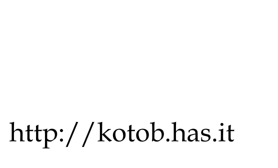
لكل ما تقدّم، نجد أنّ مصطلح "إشكناز" اكتسب دلالة حضارية وإثنية وعرقية ودينية، وأصبح هذا المصطلح يشير إلى مركب إشكنازي من العناصر والعلاقات، وقد انعكس هذا على الوضع في فلسطين. وقد كان أعضاء اليشوف القديم (وهي مؤسسة دينية محضة) ينقسمون إلى إشكناز وسفارد، وهذا الانقسام لا يزال قائماً في إسرائيل، فهناك حاخامان يشرف كلّ منهما على الشئون الدينية لجماعته. وبشكل عام، كان

السفارد يُبقون مسافة اجتماعية واسعة بينهم وبين الإشكناز، ويحاولون تأكيد نقط الاختلاف بين الفريقين. وقد كتب المفكر اليهوديّ السفاردي إسحق دي بنتو رسالة إلى فولتير يبين له فيها أنّ السفارد لا يتزاوجون مع الإشكناز، وأن لهم معابدهم المستقلة، وأنّ أزياء السفارد لا تختلف عن أزياء الأغيار على عكس الإشكناز، وأن أثرياء السفارد يتسمون بالتحضّر ولا يختلفون عن الأغيار إلاّ في الدين. وختم دي بنتو خطابه بقوله: "لو تزوج سفاردي من إشكنازية، فإنه يفقد كلّ حقوقه ويُطرد من المعبد اليهوديّ السفاردي ويُستبعد تماماً من الجماعة السفاردية ولا يُدفَن في مدافنهم". وفسّر دي بنتو هذا الاختلاف على أساس عرْقي، فالإشكناز لا تجري في عروقهم دماء يهودية نقية، أما السفارد فهم من نسل كبار أسرة قبيلة يهودا الذين أرسلوا إلى إسبانيا أثناء التهجير البابلي.

وإذا كانت المسألة اليهوديّة مسألة إشكنازية، فإن الحركة الصهيونية هي الأخرى حركة إشكنازية. بل إن جميع الظواهر اليهوديّة الحديثة تبلورت في صفوف الإشكناز، فالحسيدية نشأت في بولندا وانتشرت منها، والإصلاح الديني بدأ في ألمانيا وتبعه تزايد معدلات الاندماج والانصهار. وقد كان المؤتمر الصهيوني الأول يضم وفوداً إشكنازية بالدرجة الأولى. بل إن السفارد الذين حضروا، كانوا من بلاد أوروبية مثل بلغاريا أو فرنسا. وظل الاستيطان الصهيوني (أساساً) استيطاناً إشكنازياً. ومن ناحية أخرى، فإن مصطلح "يهودي" كان يعني في الأدبيات الصهيونية الأولى "الإشكنازي". ولا تزال النخبة الحاكمة في إسرائيل إشكنازية، كما أنّ المؤسسات الأساسية (مثل الكيبوتس) كلها إشكنازية. والواقع أنّ هذه المؤسسات تحاول أنّ تحافظ على توجه الدولة الإشكنازي، لكن العنصر اليهودي الإشكنازي في الدولة الصهيونية قد أصبح، مع ذلك، أقل من ٥٠٪ بسبب هجرة اليهود السفارد واليهود الشرقيين. ويتجلى التوتر الحاد، بين اليهود الشرقيين والسفارد من جهة والإشكناز من جهة أخرى، في إشارة الأولين إلى الآخرين باعتبارهم "أشكي نازي". ويُقال إن الاهتمام المحموم، من جانب المؤسسة الحاكمة في إسرائيل، بالهجرة السوفيتية لا يعود إلى حاجة المُستوطن الصهيوني إلى مادة بشرية قتالية وحسب وإنما إلى حاجته إلى مادة إشكنازية على وجه التحديد تُوازن العنصر الشرق السفاردي، بعد أن انخفض عدد اليهود الغربيين في الدولة الصهيونية إلى أقل من النصف.

الباب الثامن

يهود أوروبا الغربية والأميركيتين


http://kotob.has.it

الفصل الأول

بين المصطلح والواقع المعاش

"اليهود الغربيون" مصطلح يُستخدم للإشارة إلى اليهود الذين هاجروا من العالم الغربي إلى إسرائيل. ولما كانت أغلبيتهم من الإشكناز، أي من يهود بولندا ذوي الأصول الألمانية، فإن مصطلح "اليهود الغربيون" أصبح مرادفاً لمصطلح "الإشكناز". ولكن مصطلح "اليهود الغربيون" يظل (مقابل "اليهود الشرقيون") هو المصطلح الأدق والأشمل لأنه يشير إلى الانتماء العِرْقي والحضاري والإثني لهؤلاء اليهود، في حين نجد أنّ مصطلح "الإشكناز" تداخله أبعاد دينية تطمس معالمه وتجعله أداة غير دقيقة. فيهود هولندا يُشار إليهم بلفظ "إشكناز"، من أنّ بعضهم يتبع التقاليد السفاردية في العبادة. وأغلبية اليهود الغربيين من يهود اليديشية (يهود شرق أوربا)، إلاّ أنّهم فقدوا هويتهم اليديشية هذه وأصبحت أغلبيتهم تتحدث الإنجليزية (في الولايات المتحدة وإنجلترا وكندا وأستراليا ونيوزيلندا) وبقيتهم تتحدث لغات بلادهم. كما أنّ هناك جماعات من يهود الغرب، مثل: يهود اليونان (الرومانيوت أو الجريجوس)، ويهود إيطاليا، ويهود جورجيا. لكن هؤلاء الغربيين لا ينتمون إلى التشكيل الإشكنازيّ (إن صح التعبير) من قريب أو بعيد. واليهود الغربيون في إسرائيل هم الأقلية العرقية والحضارية المسيطرة على الحكومة والجيش والأحزاب والاقتصاد وعلى التوجه الحضاري العام، وهو ما يسبب حالة اغتراب شديدة لليهود الشرقيين، ويعمق الفوارق الاجتماعية. ويُلاحظ أنّ مصطلح "اليهود الغربيون" مصطلح حضاري ثقافي، ومن ثم يُشار إلى يهود جنوب

أفريقيا بوصفهم غربيين، مع أنّ أفريقيا جزء من الشرق.

على الرغم من أنّ المجموعات الإثنية التي تنتمي إلى الأقطار الأوروبية الغربية وإلى بلدان العالم الجديد: الأميركيتين أوقيانوسيا وإلى جنوب أفريقيا لا تتمتع بوزن عددي كبير في الكيان الصهيوني (بأستثناء اليهود الألمان) وعلى الرغم من أنّ معظم أفرادها قد جاؤوا بعد قيام هذا الكيان، إلاّ أنّها تعتبر جزءاً أساسياً من المجموعات اليهوديّة (الإشكنازيّة) المسيطرة فيه.

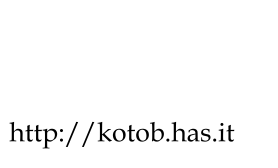
ولا يعود وزن ومكانة هذه المجموعات ضمن تراتب المجموعات الإثنية في الكيان الصهيوني إلى أقدميتها في حركة الهجرة اليهوديّة ، ولا إلى الدور الذي لعبته في نشاط الحركة الصهيونية على صعيد التنفيذ العملي - وهو ما تحتفظ بقصب السبق فيه مجموعات يهود أوربا الشرقية - ولكن هذا الوزن وتلك المكانة يهود إلى مكانة الدول التي تنتمي إليها هذه المجموعات، ودورها في عمليّة رعاية ودعم الحركة الصهيونية والكيان الصهيوني، وإلى دور ومكانة يهود هذه الدول في تقديم المساعدات المالية ودعم عمليّة التنفيذ الصهيوني على الصعد السياسيّة و الاقتصاديّة والعسكرية. وكذلك إلى الدور الاقتصاديّ الذي لعبه هؤلاء اليهود بعد هجرتهم في عمليّة بناء الكيان الصهيوني، خاصة وأن معظم هؤلاء (وعلى خلاف حال المجموعات اليهوديّة الأخرى) قد جاؤوا بأموالهم معهم وأتوا كمستثمرين إلى هذا الكيان، وكانوا في سورية علمية وتقنية رفع نسبياً من المجموعات الأخرى.

وهكذا فإن أبناء هذه المجموعات هم أكبر بروزاً على الصعد المالية والاقتصادية والثقافية، منهم على الصعد السياسيّة والإدارية الحكومية التي تحتكرها إلى حد ما المجموعات الإثنية المنتمية إلى أفكار أوروبا الشرقية (وخاصة البولنديون والروس).

ولا يشكل أبناء هذه المجموعات كتلة متميزة في الانقسامية الحاصلة في الكيان الصهيوني بل يعتبرون جزءاً مكوناً من مجتمع "اليهود الإشكناز المسيطرة في هذا الكيان".

وفي الوقت الذي تحتفظ فيه كلّ مجموعة من هذه المجموعات بملامحها الخاصة، فهي تظهر ميلاً كبيراً للاندماج ضمن المجموعات الأوروبية الغربية خصوصاً، والإشكناز عموماً، وتظهر نفوراً شديداً تجاه المجموعات الإثنية المنتمية إلى الأقطار الأفريقية الآسيوية.

ومن ناحية أخرى فالمهاجرون الجدد من أبناء هذه المجموعات هم أكثر من يعاني صعوبات الاندماج والتأقلم مع نمط الحياة والبيئة الاجتماعية في الكيان الصهيوني. وهم يتعرضون لما يشبه الصدمة الثقافية ويواجهون مشاكل على صعيد القدرة على الانخراط في الحياة الاقتصاديّة والثقافية، بالنظر إلى قدومهم من مجتمعات عالية التطور، واختلاف نمط وأساليب الحياة الاجتماعية والإدارة، واللغة عن تلك التي عاشوها في بلدانهم الأصلية.



الفصل الثاني

اليهود الألمان

تعتبر مجموعة اليهود الألمان أكبر المجموعات اليهوديّة الأوروبية الغربية الموجودة في الكيان الصهيوني، وهي تشابه في وضعها من جوانب عديدة وضع المجموعات اليهودية الأوروبية الشرقية الكبيرة. فهي الوحيدة بين المجموعات اليهوديّة الأوروبية الغربية التي كانت تتمتع بوز معتبر في "اليشفوف اليهوديّ" قبل عام ١٩٤٨، كما أن أوساط اليهود الألمان كانت مسرحاً لنشاط صهيوني واسع قامت به الأحزاب والحركات الصهيونية منذ بدايات نشوئها، كما أنّها تتمتع بنفوذ ومكانة جيدة على صعيد المكانة السياسيّة لأفرادها في هذا الكيان.

وفي الواقع فإنه لم يكن في فلسطين قبل صعود النازية سدة الحكم في ألمانيا سوى عدد قليل من اليهود. وكان من الممكن أن يجد المرء أفراداً قلائل من اليهود الالمان في فلسطين في القرن التاسع عشر، ترافق وجودهم مع بداية النشاطات الاستيطانية اليهوديّة.

استمرت الهجرة الفردية بهذا الشكل حتى الحرب العالمية الأولى حيث ضمت بين صفوفها عدداً من القادة البارزين، مثل "أرثر روبين" الذي كان مديراً لقسم الاستيطان في المنظمة الصهيونية العالمية في ذلك الحين. وحتى عام ١٩٣٣ اقتصرت هذه الهجرة في بعض الآكاديميين "والرواد" من أعضاء منظمات "الحالوتس" التابعة للأحزاب الصهيونية.

أما بعد عام ١٩٣٣ ومع صعود النازية سدة الحكم فقد بدأت هجرة يهودية واسعة من ألمانيا، حيث وصل إلى فلسطين في فترة الهجرة الخامسة (١٩٣٣ ـ ١٩٤١) حوالي "٤٠" ألف يهودي ألماني[١] .

وقد واجه هؤلاء اليهود الألمان صعوبات جمة في الاندماج داخل "اليشوف اليهودي" في تلك الفترة، وواجهت عمليّة اندماجهم واستيعابهم داخل التجمع الاستيطاني اليهوديّ مشاكل اقتصادية واجتماعية وثقافية وسياسية[٢] .

وهؤلاء المهاجرون كانوا في معظمهم من أبناء الطبقات الوسطى، ومن ذوي الاختصاصات الذين كان من الصعب عليهم الحياة في ظروف التطور الاقتصاديّ والاجتماعي المتدني الذي كانت تعيشه فلسطين و "اليشوف اليهودي" فيها في ذلك الحين. لقد كان هؤلاء محتاجين إلى تعلم مهارات ومهن جديدة وإلى الدخول في أنماط إنتاج اقتصادي غير مألوفة لديهم من أجل الاندماج في تيار الحياة اليهوديّة داخل "اليشوف". ففي الوقت الذي كان معظمهم يعمل في التجارة أو الصناعة في ألمانيا، فقد وجدوا أنفسهم مضطرين للعيش والعمل داخل المستوطنات الزراعية اليهوديّة في فلسطين.

وفي أواخر الثلاثينيات أنشأ اليهود الألمان في فلسطين حزب "علياه حداشاه" (الهجرة الجديدة) ليعبر عن تطلعاتهم السياسيّة ومصالحهم الخاصة، وقد اعتبر أحد تفرعات الصهيونية العمومية، وبعد قيام الكيان الصهيوني انتهى به الأمر للاندماج مع الصهاينة العموميين و"هعوفيد هتسيوني" لتشكيل ما كان يسمى بالحزب التقدمي(*).

وكما سبق وأشرنا فقد كان المهاجرون الألمان يضمون بين صفوفهم العديد من رجال الأعمال والتجارة الاقتصاديّين الذين حملوا أموالهم معهم، وساهموا من خلالها ببناء العديد من المؤسسات المالية والتجارية والصناعية والثقافية في اليشوف اليهوديّ ثم في الكيان الصهيوني.

وقد استمرت هجرة اليهود الألمان إلى فلسطين خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها بأشكال "مشروعة" و"غير مشروعة" حتى بلغ عددهم في فلسطين عند قيام الكيان

(1) *Judah Matress, Social changes In Israel Sociaty, Chicago, 1965, p. 28.*
(2) *Encyclopedia of Zionism and Israel, p. 381.*

(*) اندمج في عام ١٩٦١ مع حزب الصهاينة العموميين في الحزب الليبرالي، ثم عاد وانفصل عنه في عام ١٩٦٥ باسم الحزب الليبرالي الذي لا يزال قائماً حتى الآن.

الصهيوني حوالي (٥٣) ألف يهودي ألماني. كما وصل حوالي ثمانية آلاف مهاجر في السنوات الثلاث الأولى من عمر هذا الكيان، وحوالي خمسة عشر ألف مهاجر يهودي ألماني آخر في الأعوام التالية حتى عام ١٩٨٥. وفي ذلك العام أشارت دوائر الهجرة الصهيونية إلى وصول "١٣١"الف يهودي ألماني فقط كمهاجرين إلى هذا الكيان(١) .

وتشير المجموعة الإحصائية الإسرائيليّة لعام ١٩٨٦ إلى وجود حوالي (٩٣) ألف يهودي ألماني ونمساوي ولدوا هم أو آباؤهم خارج الكيان الصهيوني فإذا حذفنا منهم اليهود النمساويين الذين يقدر عددهم بين (١٤ ـ ١٥) ألف ضخ فإن عدد اليهود الألمان بين هؤلاء هو حوالي ألـ"٨٠" ألفاً، يضاف إليهم اليهود الذين ولد أجدادهم في ألمانيا ليصبح عدد اليهود الألمان في الكيان الصهيوني حوالي "١٠٠" ألف وأكثر.

وكما أشرنا فقد واجه اليهود الألمان صعوبات كبيرة في الاندماج داخل التجمع الاستيطاني اليهوديّ، وأظهروا قدراً كبيراً من الاستعصاء ضد تقبل الثقافة والتعليم العبريين، بسبب من تجذر ثقافتهم الألمانية، وقطعهم شوطاً بعيداً في الاندماج داخل المجتمع الألماني قبل صعود النازية، وذلك بالمقارنة مع يهود أوربا الشرقية الناطقين باليدشية. وهم يندمجون ببطء في حياة التجمع الاستيطاني في الكيان الصهيوني، وبالنسبة للزواج داخل المجموعة نفسها كمعيار من معايير الاندماج فإن المعدلات الخاصة بيهود ألمانيا (ويهود النمسا لم تكن مرتفعة حيث بلغ وسطيها في السنوات الممتدة بين عامي ١٩٥٢ ـ ١٩٦٢ حوالي ٣٠٪ وهي تتجه للتناقص بشكل بطيء ففي حين كانت ٣١٪ عام ١٩٥٢ أصبحت ٢٩٪ عام ١٩٦٢ (٢).

ومن الناحية الاقتصاديّة فقد كان لهم دور هام وبارز في الصناعة، وبناء الورش والمشاريع الصناعية التي كان لها تأثير كبير في التطور الصناعي اللاحق في هذا الكيان. وفي تطوير تجارة التجزئة، وفي هندسة بناء المستوطنات والمدن الاستيطانية، خاصة وأنهم حملوا معهم أموالهم، وبسبب من ارتفاع مستواهم التقني.

لقد استوطن معظم اليهود الألمان في المدن فيما اتجه عدد منهم إلى المستوطنات الزراعية. ومن أهم المستوطنات التعاونية التي بناها اليهود الألمان الذين كانوا ينتمون إلى الطبقات الوسطى: رامات هاشوفيم (قرب كفار سابا في منطقة الشارون الجنوبي

(1) Statistical Abstract of Israel, 1986, p. 150 - 151

(2) Moshe Lissak, Social Mobillity in Israel Society, Jerusalem 1969, pp. 46 - 47.

عام ١٩٣٣) ورامات هدار، وكفارشمرياهو (منطقة هرتسيليا في السهل الساحلي عام ١٩٣٧)، وبيت يتسحاق (وادي الحوارث عام ١٩٤٠)، وشافي تسيون (قرب نهاريا شمال عكا عام ١٩٤٤) وهي مستوطنات قامت على زراعة الأزهار والخضراوات وتربية الدواجن كما بنى اليهود الألمان المدينة الاستيطانية نهار (شمال عكا عام ١٩٣٤) التي تطورت إلى منتجع صيفي مشهور في الكيان الصهيوني، واستوطن عدد كبير من اليهود الألمان في "بات يام"[١] (منطقة يافا) وفي المدينة الاستيطانية رحوبوت (منطقة يافا أيضاً وفي حيفا وضواحيها، والقدس وتل أبيب) [٢].

كما ساهم اليهود الألمان في بناء المؤسسة الأكاديمية، ومؤسسات التعليم الثانوي وفي تطوير ما يسمى "بالثقافة الإسرائيليّة"، وقدم العلماء الألمان اليهود مساهمات هامة في مجال الطب والبحث العلمي، وبرز عدد من اليهود الألمان في مجال النحت والموسيقي والكتابة والصحافة[٣] .

ويمكن القول أنّ تقدم اليهود الألمان في مجال السياسة كان بطيئاً إلاّ أنّهم احتلوا في النهاية مراكز هامة في الحياة السياسيّة في الكيان الصهيوني. ومن أبرز الشخصيات الصهيونية التي تعود إلى الأصل الألماني الدكتور يوسف بورغ "الزعيم السابق لحزب المفدال الديني" والذي شغل مناصب في الكنيست والحكومة الصهيونية منذ قيام الكيان الصهيوني وحتى الآن ومنهم أيضاً: "بنحاس روزين" الوزير الأسبق واحد زعماء المؤسسين للحزب التقدمي، وكذلك الوزراء السابقون بيرتس بيرنشتاين، جورج جوزفنتال وبيرتس نفتالي[٤] يتسحاق بيرمان، درورز يجرمان. ومنهم أيضاً "ميخائيل برونو الخبير الاقتصاديّ المعروف ومحافظ بنك إسرائيل حالياً، وشلومو لاهط" رئيس بلدية تل أبيب واحد قادة الحزب الليبرالي.

وتصدر باللغة الألمانية صحيفة "يديعوت حدا شوت" التي تأسست عام ,١٩٥٩ وهناك روابط مشتركة لليهود الألمان والنمساويين مثل رابطة "حتحدوت ألمانيا ـ النمسا" التي تأسست عام ١٩٦٠، وتتركز نشاطاتها على تقديم المساعدات للمهاجرين الجدد وعلى المجالات الاجتماعية والثقافية.

(١) الموسوعة الفلسطينية الجزء الأول/ص ٣٤٣.

(٢) استراتيجية الاستيطان الصهيونية/ مؤسسة الأرض للدراسات الفلسطينية دمشق/ ١٩٧٨ ص ,١٦١

(3) Encyclopedia of Zionism and Israel, p. 382.

(4) Decision in Israel Foreign Policy, p. 582.

الفصل الثالث

اليهود النمساويون

وهي أقل شأناً من مجموعة اليهود الألمان، مع أن المجموعتين متقاربتين، جداً، حيث تشير المصادر الصهيونية إليهما في كثير من الأحيان على أنّهما مجموعة واحدة بسبب تقاربهما الإثني، وتماثل ظروف هجرتهما، بينهما من وشائج وروابط مشتركة وقوية.

ويتراوح عدد اليهود النمساويين في الكيان الصهيوني ـ كما أشرنا عند الحديث عن اليهود الألمان "١٢ - ١٥" ألف شخص.

وعلى الرغم من قدم النشاط الصهيوني وكثافته في النمسا، ومن كونها معبر الهجرة ليهود البلدان الأوروبية الأخرى - سواء في الوقت الحالي، أو في السابق حين كان المهاجرون اليهود يمرون عبرها إلى ميناء "ترتسيا فميناء يافا في فلسطين إلاّ أنّ يهود هذا البلد كانوا في معظمهم يهوداً أرثوذكس، معارضين للصهيونية ولم ينجح الصهاينة في تهجير عدد يذكر منهم قبل الانتداب البريطاني على فلسطين.

وبعد صدور وعد بلفور، وبداية الانتداب البريطاني أنشئت في فيينا "دائرة فلسطين" التي استفاد الصهاينة كثيراً منها لتعزيز نشاطهم في النمسا، حيث استطاعوا تهجير عدد من الشباب والأطفال إلى فلسطين.

وبعد احتلال ألمانيا للنمسا وضمها إليها عام ١٩٣٨ أنشأ الصهاينة لجنة لنقل وتنظيم الهجرة غير المشروعة. وحين انتهت الحرب عام ١٩٤٥ كانت المنظمة "برحاه" التي كان يرأسها "آشربن ناتان" في جلب المهاجرين غير الشرعيين إلى فلسطين.

أما عن إجمالي عدد المهاجرين اليهود النمساويين في الفترة من ١٩١٩ إلى ١٩٤٨ فإن المصادر الصهيونية تورد أرقاماً مختلفة. فموسوعة الصهيونية وإسرائيل تقول أن عدد هؤلاء بلغ "١٢١٨٩" مهاجراً. أما المجموعة الإحصائية الإسرائيليّة، فهي تشير إلى رقم أصغر هو (٧٧٤٨) مهاجراً.

وتذكر المجموعة الإحصائية الإسرائيليّة أنّه وصل إلى الكيان الصهيوني (٢٦٣٢) مهاجراً في السنوات الممتدة من عام ١٩٤٨ إلى عام ١٩٥٢ وأن (٢٤٤٢) مهاجراً آخر قدموا من ذلك الحين حتى عام ١٩٨٤. أما في عام ١٩٨٥ فالمجموعة تشير إلى (٢٢) مهاجراً نمساوياً فقط.

وحسب المصادر الصهيونية، فيهود النمسا جاؤوا خلافاً ليهود ألمانيا خالي الوفاض مفلسين، وزاد من مأزقهم أنّ فلسطين كانت تمر في ذلك الحين(*) بأزمة اقتصادية حادة. وكان الأطباء والتجار والمحامون والاختصاصيون محظوظين إذا وجدوا لهم عملاً كسعاة بريد أو مزارعين. أو أي من الأعمال البسيطة الأخرى وقد عملت زوجاتهم في غسل الألبسة في المنازل. أما الشبان والأولاد فقد كانت تستقبلهم رابطة "حتحدوت النمسا" وترسلهم إلى الكيبوتسات والموشافات.

ولم يتحسن وضع اليهود النمساويين في "اليشوف اليهودي" إلاّ بعد الحرب العالمية الثانية بعد أن انضم الكثيرون منهم إلى الجيش والبوليس البريطاني وعمل الأطباء في مستشفيات هذا الجيش، وحتى المهاجرون الجدد "غير الشرعيين" كان الجيش البريطاني يقبلهم في صفوفه.

وبعد قيام الكيان الصهيوني وخاصة بعد الستينات، صار من الممكن رؤية اليهود النمساويين في إدارات الدولة الصهيونية ومرافقها الاقتصاديّة حيث برز منهم سياسيون معروفون من أبرزهم "آشر بن ناتان" السفير السابق في الولايات المتحدة و"المليخ ريملط" (الزعيم الأسبق للحزب الليبرالي والذي شغل منصب رئيس بلدية رامات غان) و"تيدي كوليك" رئيس بلدية القدس، وغيرهم. كما لعب آخرون منهم دوراً في الحياة الثقافية الصهيونية ككتاب وأساتذة جامعات وموسيقيون.

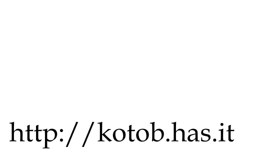
واليهود النمساويون مستوطنون في تل أبيب وضواحيها وفي رامات غان والقدس،

(*) في الثلاثينيات.

وفي مستوطنة "رامات هن" التي بنيت بأموال التعويضات الألمانية[1].

وبالنسبة لمسألة اندماجهم فكما سبق وأشرنا فهم يعتبرون في كثير من الأحيان واليهود الألمان مجموعة واحدة يبلغ وسطي معدلات الزواج داخلها ٣٠٪ (سنوات ١٩٥٢ حتى ١٩٦٢).

(1) Encyclopedia of Zionism and Israel, pp. 94 - 95


http://kotob.has.it

الفصل الرابع

اليهود البريطانيون

يمثل اليهود البريطانيون في الكيان الصهيوني نموذجاً للمجموعة العرقية التي لا تعود مكانتها إلى كبر حجمها أو أقدميتها في الهجرة، بل إلى قوة ونفوذ الطائفة اليهوديّة في بريطانيا ودورها في الحركة الصهيونية، وإلى الدور الذي لعبته وتلعبه بريطانيا في دعم ورعاية المشروع الصهيوني.

ولم تكن هناك هجرة يهودية من بريطانيا في العهد التركي، حيث لم يتجاوز عدد من استوطنوا فلسطين منهم قبل صدور وعد بلفور بضعة أشخاص شاركوا في بناء موشاف مرحافي "عام ١٩١١" كما قامت مجموعة صهيونية من يهود بريطانيا من منظمة "لندن ـ أحوزا" ببناء مستوطنة "كركور" (تقع شمال شرقي الخضيرة أصبحت برديس حناكركور فيما بعد) عام ١٩١٣.

ومع وصول الجيش البريطاني إلى فلسطين عام ١٩١٧ استقر فيها بعض الضباط اليهود الذين كان أبرزهم السير "هربرت صموئيل" المندوب السامي البريطاني الذي استوطن وأسرته في فلسطين. واستمرت عمليّة الاستيطان من قبل اليهود البريطانيين في فلسطين بشكل فردي حتى عام ١٩٣٢ حين تم تأسيس منظمة الحالوش (الرواد). وقد قام أعضاؤها الذين جاءت أول مجموعة منهم عام ١٩٣٦ ببناء مستوطنة "كفاربلوم" في منطقة الحولة عام ١٩٣٩. وفي السنوات التالية قام أعضاء المنظمات الشبابية

الصهيونية المختلفة ببناء العديد من المستوطنات فقد قام أعضاء منظمة "برايت" ببناء كيبوتس "لابي"، وكيبوتس يازور (جنوب يافا). وقام أعضاء حركة "هتسومير هتسعير" ببناء كيبوتس "زكيم" وكيبوتس "أميعاد" وكيبوتس "بيت هعميك"، وموشاف "بيت هيفر" وموشاف "كفار مردخاي" (قرب الخضيرة). كما قام أعضاء هبوعيل همزراحي ببناء موشاف "ماسو يتسحاق".

وفي عام ١٩٤٤ تأسست في لندن حركة صهاينة باسم "باتو" لتحريض العمال والمهندسين اليهود على الهجرة، وقامت هذه الحركة بتنظيم مجموعات مهنية للهجرة من الأطباء، والممرضين والمهندسين، وشجعتهم على تعلم العبرية ليساهموا في بناء المؤسسات العلمية والأكاديمية والطبية الضرورية للتجمع الاستيطاني اليهوديّ في فلسطين . كما لعبت هذه الحركة دوراً مهما على صعيد تقديم الدعم المالي الضروري لعملية الاستيطان، فأنشأت مؤسسة غوث فلسطين ودفعت مئات من الرجال والنساء اليهود البريطانيين للاستيطان في الكيبوتسات والموشافات وللعمل في المهن المدنية.

وبالإجمال فإن عدد اليهود البريطانيين في اليشوف اليهوديّة وحتى قيام الكيان الصهيوني لم يزد عن ألفي شخص.

وقد استمرت هجرة اليهود البريطانيين بعد قيام الكيان الصهيوني حيث قدرت موسوعة الصهيونية وإسرائيل عددهم عام ١٩٦٦ بحوالي (٨ ـ ١٠) آلاف شخص مع هجرة سنوية تقدر بحوالي ٧٠٠ شخص سنوياً. وفي السنوات الأخيرة كانت معدلات هجرة اليهود البريطانيين من المعدلات المرتفعة نسبياً حيث تراوحت بين "٥٠٠ ـ ١٠٠٠" شخص سنوياً[1]، وهو ما يبدو أنّه ناجم عن تركيز الدوائر الصهيونية على اليهود الغربيين عموماً لتهجيرهم إلى الكيان الصهيوني بعد نضوب المصادر التقليدية للهجرة (في بلدان أوربا الشرقية، والأقطار العربية و الإسلاميّة) وعليه فإنه يمكن تقدير عدد اليهود البريطانيين في الكيان الصهيوني بحوالي عشرين ألف مستوطن، أغلبهم جاء بعد قيام هذا الكيان، وأكثر من نصفهم في العقدين الأخيرين.

وبالنظر إلى الهوة الشاسعة بين مستوى الحياة بريطانيا ومستوى الحياة في الكيان الصهيوني وخاصة السنوات الأولى من عمر هذا الكيان، والصعوبات واجهها المهاجرون

(1) Statistical Sbstract of Israel, 1986, p 150 -151

من بريطانيا والأقطار الغربية.

والذين كانوا مضطرين إلى تخفيض مستوى معيشتهم، وإلى تكييف ثقافتهم ومعارفهم مع حياتهم الجديدة، بالنظر إلى ذلك فقد تم إيجاد اتحادات خاصة ليهود بريطانيا، هدفها دفع عمليّة الهجرة، ومساعدة المهاجرين الجدد على التأقلم مع نمط الحياة الجديدة، في التجمع الاستيطاني.

ففي عام ١٩٤٩ أنشأ المهاجرون البريطانيون في تل أبيب الاتحاد الصهيوني ليهود بريطانيا العظمى وأيرلندا، الذي ساهم عن طريق تقديم الأموال والقروض بشروط في دعم الكيبوتسات والموشاف التي أنشأها اليهود البريطانيون.

كما أنشئ اتحاد المهاجرين البريطانيين في عام ١٩٥٠، حيث وضع لنفسه أهدافاً مثل: تسهيل وتطوير استيطان أعضائه في الكيان الصهيوني وتشجيعهم على تقديم أقصى مجهوداتهم الفردية لجمع المساعدات لتطوير هذا الكيان، وجذب أكبر عدد من المهاجرين من بريطانيا وإيرلندا. وقد قامت فروع هذا الاتحاد في أنحاء الكيان الصهيوني بمساعدة المهاجرين الجدد على الاندماج في الحياة في هذا الكيان وعلى إيجاد المساكن والأعمال المناسبة والأصدقاء والوسط اجتماعي ذي الخلفية المشابهة والذي يساعدهم على اكتساب طرائق وعادات الحياة في التجمع الاستيطاني.

وقد انضم هذا الاتحاد عام ١٩٥٢ إلى رابطة المهاجرين اليهود الأميركيّين والكنديين في الكيان الصهيوني، وإلى مجموعة الروابط المشابهة التي تنتمي إلى أقطار العالم الغربي، لتكوين "مجلس هجرة اليهود الغربيين" وهو هيكل تنظيمي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالحكومة الصهيونية، وبالوكالة اليهوديّة لتسهيل مجريات استيعاب اليهود الغربيين. وفي هذا المجال استطاع المجلس "النجاح في تحسين بعض الإجراءات الخاصة بأنظمة الجمارك وبيوت الضيافة التي تستقبل المهاجرين العازبين في المدن الرئيسيّة، وما يتعلق بالإجراءات التي تسبق الخدمة في الجيش، وتقديم القروض(١).

وتتجه عمليّة اندماج اليهود البريطانيين بالطبع إلى المجموعات القريبة المماثلة من اليهود الأوروبيين الغربيين والأمريكيين الشماليين الذين يعودون إلى أصول إثنية مماثلة، ويتكلمون الإنكليزية (بما فيهم يهود جنوب أفريقيا وأستراليا ونيوزيلاندا)، والذين رأينا

(1) Encyclopedia of Zionism and Israel, p. 161.

كيف يقيمون وإياهم الاتحادات والروابط المشتركة.

ويتواجد أفراد هذه المجموعة في أجهزة ودوائر الدولة المختلفة ومؤسساتها كالقضاء والإعلام، والسلك الدبلوماسي، وكذلك ضمن المستوى الأكاديمي والسياسي العالي. ومن أبرز الشخصيات التي تعود في أصولها إلى هذه المجموعة - حاييم هرتسوغ - الرئيس الحالي للكيان الصهيوني والمولود في مدينة "بلفاست" في إيرلندا الشمالية. "ودافيد كمحي" المدير العام السابق لوزارة الخارجية الصهيونية، وهو إنكليزي من مواليد لندن.

هذا وتصدر في الكيان الصهيوني باللغة الإنكليزية الصحيفة اليومية المعروفة "جيروزاليم بوست" كما توزع فيه الصحيفة الأسبوعية التي تهتم بشؤون الطائفة اليهوديّة في بريطانيا "جويش كرونيكل" التي تصدر في لندن.

الفصل الخامس

اليهود الإيطاليون

وهي من المجموعات الإثنية الضئيلة الحجم في الكيان الصهيوني، ولا يتجاوز عدد أفرادها ٣ ـ ٤ آلاف شخص يعش معظمهم في تل أبيب وضواحيها. ولم يتجاوز المعدل السنوي لهجرة اليهود الإيطاليين في السنوات الأخيرة أل "٥٠" شخصاً سنوياً تقريباً(١) وهو ما يعود أساساً إلى صغر حجم الطائفة اليهوديّة أصلاً في إيطاليا.

وفي الواقع لم تبدأ هجرة اليهود الإيطاليين إلى فلسطين إلاّ بعد عام ١٩٣٨ على إثر التشريعات ذات الطابع المعادي لليهود التي اتخذتها الحكومة الإيطالية بزعامة "موسوليني" حيث لم يهاجر طيلة الفترة الممتدة من عام ١٩٢٦ وحتى عام ١٩٣٨ سوى (١٥٠) يهودياً إيطالياً، الأمر الذي يعود إلى ازدهار الأوضاع الاقتصاديّة ليهود إيطاليا في تلك الفترة. أما بعد عام ١٩٣٨ فقد كان معظم المهاجرين ينتمون إلى الطبقة الوسطى الذين استوطنوا في المستوطنات المدنية وفي الكيبوتسات.

وعقب الحرب العالمية الثانية مباشرة جاءت موجة قوية نسبياً من المهاجرين اليهود الإيطاليين قدر عددها بـ"١٠٠٠" شخص ثم تضاءلت هذه الهجرة إلى حد كبير، وكان معظم مهاجري تلك الموجة من اليهود السفارديين المزراعين الذين اعتنقوا اليهوديّة

(1) Statistical Abstract of Israel, 1986, p. 150 - 151

حديثاً، وهاجروا جماعياً إلى الكيان الصهيوني. وقد استوطن هؤلاء في حوالي عشرين مستوطنة جماعية كيبوتس، حيث ذهب العدد الأكبر منهم إلى مستوطنة زحوما (التي بنيت فوق أراضي قرية الجمامة العربيّة بين غزة وبئر السبع عام ١٩٤٤) وإلى كيبوتس "سيديه الياهو" في وادي بيسان عام ١٩٣٩)، وكيبوتس "رجوفيم" الواقع بين مرج بن عامر والخضيرة (والذي تأسس عام ١٩٤٨) وكيبوتس "جعفيم" (الواقع شمال النقب والذي تأسس عام ١٩٤٧) وكيبوتس "نتسرسرنيا" الواقع في منطقة ريشون لتسيون جنوب يافا (والذي تأسس عام ١٩٤٨) وكيبوتس "بارعام الواقع في شرق الجليل الأعلى، (والذي تأسس عام ١٩٤٩) ... وغيرها(١).

وبالنظر إلى صغر حجم هذه المجموعة فهي مندمجة جيداً مع المجموعات الأوروبية الأخرى وأفرادها متواجدون في مؤسسات الدولة وخاصة وزارة الخارجية والمكتب المركزي للإحصاء، وهم بارزون في مصانع الطائرات، كما أنّهم تركوا تأثيراً ملحوظاً في نمط بناء المعابد اليهوديّة في الكيان الصهيوني التي تحمل الطابع المعماري الإيطالي.

ولهذه المجموعة منظمتان خاصتان، هما: منظمة مهاجري (إيطاليا ورابطة المهاجرين الإيطاليين"، ويقتصر نشاطهما على المجالات الثقافية.

(1) Encyclopedia of Zionism and Israel, p. 588.

الفصل السادس

اليهود الفرنسيون

لا توجد مجموعة من اليهود الفرنسيين ذات شأن في الكيان الصهيوني بل يوجد مهاجرون يهود من فرنسا، لا تعود أصول الكثيرين منهم إلى الأصل الفرنسي، بل إلى أصول أثنية أخرى كيهود أوروبا الشرقية أو يهود شمال أفريقيا، الذين هاجروا من بلدانهم إلى فرنسا ثم جائوا أو جاء أبناءهم إلى الكيان الصهيوني بعد أن اكتسبوا الجنسية الفرنسية حيث يشار إليهم في المصادر الصهيونية كمهاجرين فرنسيين.

وتشير المجموعة الإحصائية الإسرائيليّة إلى قدوم "١٦٣٧" مهاجراً يهودياً من فرنسا قبل عام ١٩٤٨، وإلى قدوم "٣٠٥٠" مهاجراً آخر في السنوات من عام ١٩٤٨ حتى عام ١٩٥١، وإلى قدوم حوالي "٢٠" ألف مهاجر في الفترة الممتدة من عام ١٩٥١ إلى عام ١٩٨٤. أما عام ١٩٨٥ فقد جاء إلى الكيان الصهيوني "٦١٨" مهاجراً من فرنسا.

ولا يعرف بالضبط عدد الفرنسيين أصلاً بين هؤلاء المهاجرين في الوقت الذي لا تتحدث المصادر الصهيونية إطلاقاً عن وجود مجموعة يهود فرنسيين في الكيان الصهيوني، مع أنّ أعداد المهاجرين التي سبق ذكرها تفوق كثيراً بل أضعافاً عدد اليهود الإيطاليين الذين تتحدث عنهم تلك المصادر كمجموعة متميزة.

وتذكر موسوعة الصهيونية وإسرائيل أنّ معظم اليهود الفرنسيين كانوا يرفضون "القومية اليهوديّة" وكانوا أنصاراً للاندماج، ويعتبرون أنفسهم فرنسيين فقط على الرغم من كلّ الدعم الذي قدمته الحكومات الفرنسية المتعاقبة للحركة الصهيونية وللكيان

الصهيوني، ومن عدم وضعها أية عقبات أمام النشاط الصهيوني فيها، حيث سمحت قبل عام ١٩٤٨ بنشاط الوكالة اليهوديّة، وبتدريب وتنظيم عصابات الهجناه وشراء الأسلحة لها، وبنشاط منظمات الهجرة "غير المشروعة فيها".

وتذكر هذه الموسوعة أيضاً أنّ نشطاء الصهاينة في فرنسا كانوا من مهاجري أوربا الشرقية، أنّ المطبوعات الصهيونية كانت تنشر باليديشية وليس بالفرنسية.

وعند احتلال النازيين لفرنسا قامت المنظمات الصهيونية بتهجير بعض الأطفال اليهود من المدن الفرنسية إلى فلسطين عبر إسبانيا. وقد شارك اليهود الفرنسيون في بناء مستوطنة "بني تسيون" في منطقة هرتسليا على السهل الساحلي عام ١٩٤٧ .

كما تصدر في الكيان الصهيوني صحيفة باللغة الفرنسية هي "لانغورماسيون دي إسرائيل" التي تأسست في تل أبيب عام ١٩٥٧.

ولم تحدث هجرة تذكر من يهود البلدان الأوروبية الغربية الأخرى قبل عام ١٩٤٨. من هنا فإنه لم تتبلور أو تبرز مجموعات إثنية يهودية تعود في أصولها إلى تلك البلدان، ولم تتعرض المصادر الصهيونية إليها كمجموعات إثنية متميزة.

وتشير المعطيات الإسرائيليّة بالنسبة إلى اليهود الهولنديين إلى أنّه كان في فلسطين "١٢٠" مهاجراً هولنديا قبل عام ١٩٤٨، وإلى أنّه قدم إلى الكيان الصهيوني حوالي "٣٠٠" مهاجر منذ قيامه وحتى عام ١٩٨٥ الذي جاء فيه "١٣٠" مهاجراً من هولندا.

وتشير تلك المعطيات إلى قدوم ثلاثة آلاف مهاجر يهودي من بلجيكا منذ قيام الكيان الصهيوني وحتى نهاية عام ١٩٨٥. وإلى قدوم ٢٥٠٠ مهاجر يهودي من بلدان إسكندنافيا في الفترة ذاتها. كما جاء ٢٥٠٠ من سويسرا في الفترة نفسها، و١٠٠٠ مهاجر من إسبانيا .

(1) *Ibid, Encyclopedia, p. 353 _ p. 360.*

(2) *Statistical Abstract of Israel, 1986, p.150 - 151.*

(3) *من الشخصيات البارزة في الكيان الصهيوني التي تعود في أصلها إلى يهود إسبانيا "أسحق نافون" وزير التعليم ورئيس الكيان الصهيوني السابق.*

الفصل السابع

يهود كندا و الولايات المتحدة

من الصعب القول أنّ اليهود المهاجرين من كندا و الولايات المتحدة يشكلون مجموعة أثنية واضحة المعالم على الرغم من السمات المشتركة لهم. فهؤلاء المهاجرون شأنهم شأن اليهود المهاجرين من كلّ أقطار العالم الجديد، لا ينتمون إلى أصل إثني واحد، كون مجتمعات تلك الأقطار هي في الأصل مجتمعات استيطانية تضم خلائط إثنية، وكانت تستقبل المهاجرين حتى عهد قريب، (وبعضها لا يزال يستقبل المهاجرين حتى اليوم: مثل كندا، وأستراليا وإلى حد ما الولايات المتحدة).

وفي الواقع فإن الولايات المتحدة وكندا هما في الأساس مراكز استقطاب للهجرة اليهوديّة أكثر من الكيان الصهيوني نفسه، فقد انتقل إليهما (وخاصة الولايات المتحدة) عدة ملايين من يهود أوربا الشرقية في أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحالي أي في الوقت الذي كانت الحركة الصهيونية قد بدأت فيه نشاطها في أواسط هؤلاء اليهود. وإذا كان الكيان الصهيوني قد استقبل منذ قيامه ألوف أو عشرات ألوف من يهود الولايات المتحدة وكندا، فإن الولايات المتحدة وحدها استقبلت في الوقت نفسه مئات ألوف اليهود الذين نزحوا عن هذا الكيان (أكثر من أربعمائة ألف). ومن هنا فإن المهاجرين من هذين البلدين ربما يكونوا الأقل استقراراً في الكيان الصهيوني من بين

كلّ المهاجرين من المجموعات اليهوديّة الأخرى فيه.

ويقدر عدد اليهود الأميركيّين الشماليين (من الولايات المتحدة وكندا) في الكيان الصهيوني حالياً لحوالي "٨٠ ـ ٩٠" ألفاً، منهم حوالي (٥ ـ ٦) آلاف من كندا والباقي من الولايات المتحدة.

وقد بدأ استيطان يهود الولايات المتحدة في فلسطين منذ مطلع القرن الحالي حيث أنشئت منظمة (حالوتس) للتشجيع على الهجرة، إلاّ أنّها لم تستطع أن ترسل سوى عدد قليل من المستوطنين حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، ساهم بعضهم في بناء موشاف "عوفديم".

وفي العام ١٩١٨ وصل فلسطين من الولايات المتحدة فريق طبي تابع لمنظمة "حداشا" مكون من ٤٤ شخصاً استوطن وبعضهم فيها، فيما عاد البعض الآخر إلى الولايات المتحدة. وفي العام نفسه وصل "٢٠٠٠" يهودي أمريكي وكندي متطوعين في الفيلق اليهوديّ الذي كان يحارب مع الحلفاء. وقد بقي ٥٠٠ منهم كمستوطنين في فلسطين.

وفيما بين الحرب العالمية الأولى وعام ١٩٢٧، وصل فلسطين حوالي ٤٣٠٠ مهاجر من أمريكا الشمالية معظمهم أقام مشاريع خاصة في المدن الاستيطانية، بينما انضم قسم آخر إلى كيبوتس "رامات ياحون" (على خليج حيفا).

وفي عام ١٩٣١ قام المهاجرون اليهود من الولايات المتحدة ببناء أول كيبوتس "تابع لحركة هشومير هتسعير) خاص بهم وهو "عين هاشوفيت" (عند قاعدة جبال نابلس المطلة على مرج بن عامر).

وفي الفترة الممتدة من عام ١٩٣٣ وحتى عام ١٩٤٨ وصل إلى فلسطين ٥٥٥٠ مهاجراً من أميركا الشمالية كان ٨٥٠ منهم مسجلين كسائحين. وقد بلغ مجموع اليهود(*) الأميركيّين والكنديين الذين هاجروا إلى الكيان الصهيوني حتى عام ١٩٤٨ حوالي ١١ ألف مهاجراً ٦٦٠٠ منهم كانوا مسجلين كمهاجرين من الولايات المتحدة، و٢٨٥ من كندا والباقي كان ضمن الهجرة غير المشروعة) ومن هؤلاء ألـ ١١ ألفا عاد خلال تلك الفترة ٣٥٠٠ إلى مواطنهم الأصلية.

(*) *معظمهم في الأصل من يهود أوربا الشرقية.*

وفي مجال الدور الاستيطاني لهؤلاء اليهود الأميركيّين فقد شارك أعضاء المنظمات الشبابية الصهيونية في بناء عدد من المستوطنات منها "أضافة إلى عين هاشوفيت التي سبق ذكرها): "كفار مناحيم (شرق أسدود في الساحل الجنوبي عام ١٩٣٧م، أفيجال (شمال ناتانيا عام ١٩٣٤)، كفار بلوم (في وادي الحولة عام ١٩٤٣)، حيروت (في منطقة كفار سابا عام ١٩٣٠، وحتسور (قرب أسدود عام ١٩٤٦)، جيشر هزيف (مكان بلدة الزيب العربية عام ١٩٤٩ قرب الحدود اللبنانيّة)، معيان باروخ (وادي الحولة على أرض قرية السنجرية العربيّة عام ١٩٤٨)، وعين دور (مقابل جبل طابور في الجليل الأدنى عام ١٩٤٨)".

وقد شهدت تلك الفترة (قبل عام ١٩٤٨) مشاركة هامة من يهود الولايات المتحدة في المجالات الاقتصاديّة والمالية و الاجتماعية والصحية، وبرز منهم في تلك الفترة "إسرائيل جولد شتاين" رئيس الكيرين هايسود لصندوق تأسيس فلسطين، وجرمشون أغرونسكي رئيس بلدية القدس واحد مؤسسي صحيفة الجيروزاليم بوست، وجوداح ماغنس "أول رئيس للجامعة العبرية".

أما بعد عام ١٩٤٨ عام قيام الكيان الصهيوني ـ الذي جاء فيه "١٧٧٠" متطوعاً أمريكياً وكندياً للقتال إلى جانب العصابات الصهيونية وبقي منهم ٥٠٠ كمستوطنين في هذا الكيان ـ فقد جاء حتى عام ١٩٦٧ مستوطنين شاركوا في تأسيس مستوطنات، براكيا (في وادي عرعرة/ منطقة الخضيرة عام ١٩٤٩) وسعسع (على أراضي قرية سعسع في الجليل الأعلى عام ١٩٤٩) وهاسوليم (على طريق عكا الناصرة) ويفتاح (في الجليل الأعلى قرب الحدود اللبنانيّة عام ١٩٤٨، وكيسوفيم (شمال النقب عام ١٩٤٩)، وأوريم (شمال غرب النقب عام ١٩٤٩)، وجلعون (بين الفالوجة وبين جبرين عام ١٩٤٩)، ونحشون (في منطقة اللطرون على طريق القدس ـ تل أبيب، وكفادوروم، وبيت حتسور[1].

وفي الواقع فإن أكثر من نصف هؤلاء المهاجرين جاؤوا في السنوات ١٩٦٥، ١٩٦٦، ١٩٦٧، وهو ما يشير إلى تصاعد معدلات الهجرة من الولايات المتحدة وكندا منذ منتصف الستينات، هذا التصاعد الذي استمر عالياً حتى الثمانينات. وقد بلغ عدد

(1) Encyclopedia of Zionism and Israel, p 26.

المهاجرين اليهود من الولايات المتحدة في السنوات العشرين الممتدة بين عام ١٩٦٥ وعام ١٩٨٥ / "٥٠٥٠١" مهاجراً أي بمعدل يزيد عن ٢٥٠٠ مهاجر سنوياً. وفي عام ١٩٨٥ وصل ١٦٤٧ مهاجراً وهو أعلى رقم بين كلّ الأقطار في هذا العام أما من فقد وصل في الفترة من ١٩٦٥ وحتى ٨٥ حوالي ٥٣٠٠ مهاجر(١).

ويعود هذا الارتفاع الكبير في معدلات الهجرة من هذين البلدين إلى ما سبق وأشرنا إليه عند الحديث عن يهود بريطانيا من نشاط صهيوني لتهجير يهود البلدان الغربية، بعد نضوب مصادر الهجرة التقليدية في البلدان العربية الإسلاميّة أو الأوروبية الشرقية، وإلى وجود مئات ألوف النازحين من الكيان الصهيوني، والمهاجرين من الأقطار إلى الولايات المتحدة خاصة، فهؤلاء النازحون أو المهاجرون يعود بعضهم للهجرة إلى الكيان الصهيوني، بعد أن يكون قد اكتسب الجنسية الأميركيّة. وفي الوقت نفسه فإن بعضهم يعود إلى النزوح ثانية إلى الولايات المتحدة.

وبالنسبة لتوزع اليهود الأميركيّين والكنديين في الكيان الصهيوني، فمن أصل ٢٣ ألفاً منهم كانوا يتواجدون في هذا الكيان عام ١٩٦٧، كان هناك ١٧ ألفاً يعيشون في المدن يعملون كتجار ومهنيين، وتقنيين، وأكاديميين، وفي الخدمات العامة، أما الآخرون فكانوا موزعين في عدد من الكيبوتسات والموشافات والمستوطنات الزراعية الخاصة.

وتظهر الأرقام أنّ ٢٢٪ من المهاجرين من الولايات المتحدة وكندا كانوا من الاختصاصيين أطباء ومهندسين، وعلماء، ومبرمجي كمبيوتر، واقتصاديين.

كما تظهر أرقام التركيب العمري لهؤلاء المهاجرين أنّ حوالي ٢٥٪ منهم تجاوزت أعمارهم ألـ ٦٠ عاماً(٢) .

وهؤلاء المهاجرين متواجدون في مختلف القطاعات الاقتصاديّة وفي المعاهد والجامعات والإدارات. وفي المستوى السياسي برز عدد من المهاجرين من الولايات المتحدة والذين يعودون في أصلهم إلى الأصل الروسي حيث كانوا قد هاجروا هم أو آباؤهم إلى الولايات المتحدة، ثم إلى الكيان الصهيوني، ومن أبرز هؤلاء رئيس الحكومة الصهيونية الأسبق "جولدا مائير" ووزير الحرب الصهيوني الحالي "يتسحاق رابين" ووزير الحرب الصهيوني السابق ووزير الدولة حالياً "موشي آرنس".

(1) Etatistical Abstract of Israel, 1986, p.150 - 151
(2) Encyclopedia of Zionism and Israel, p. 27 - 28.

ومن اليهود الذين هاجروا من الولايات المتحدة ولا يزال يحمل الجنسية الأميركيّة الحاخام الفاشي زعيم حركة كاخ عضو الكنيست الحالي "مئير كهانا" أما من كندا فقد برز "دوف جوزيف" الذي تقلد مناصب وزارية عدة في الكيان الصهيوني في الفترة بين عامي ١٩٤٩/١٩٦٦.

وبالنسبة لمسألة اندماج يهود الولايات المتحدة وكندا في التجمع الاستيطاني الصهيوني فقد اعتبر الصهاينة هؤلاء المهاجرين طاقة بشرية ذات خبرة تقنية ضرورية للمساعدة في بناء الصناعة والزراعة والتعليم الأكاديمي وتطورهما في الكيان الصهيوني، ومن هنا فقد تم توجيه تركيز خاص من قبل المسؤولين الصهاينة لاستيعاب هؤلاء المهاجرين وتقديم خدمات خاصة بهم، خاصة وأن هؤلاء المهاجرين ـ ومثلهم المهاجرون من بريطانيا وأمريكا اللاتينية، وجنوب أفريقيا وأقيانوسيا ـ وقد جاؤوا طواعية ودون أن تجبرهم ظروف قسرية على الهجرة وفي ضوء كون خيار هؤلاء المهاجرين في العودة إلى أوطانهم أكبر ممّا هو لدى أبناء المجموعات الأخرى.

وفي الواقع فقد كان معظم هؤلاء المهاجرين يتطلبون ظروفاً يتمكنون فيها من متابعة العمل في اختصاصاتهم والعيش في المستوى وبالطريقة التي اعتادوها في أوطانهم، وهو مستوى معيشة مرتفع جداً في الولايات المتحدة وكندا.

وعليه فقد أصيب أكثرهم بالإحباط فالصورة كانت مختلفة تماماً عن متطلباتهم وخاصة في الستينات فحيث كانت المرتبات أقل، وإيجارات السكن، وأثمان السيارات والأدوات الكهربائية أعلى. وقد زاد من هذه الصعوبات أنّهم وجدوا "مجتمعاً" غريباً، له قوانين وهياكل تشريعية وأعراف بعضها موروث من زمن العثمانيين لم يستطيعوا التعايش معها وخاصة المحامون والقضاة الذين وجدوا القوانين والتشريعات مختلفة عن تلك التي عرفوها، وكذلك العديد من التقنيين الذين لا وجود لمثل تخصصاتهم في الكيان الصهيوني والذين وجدوا صعوبة كبيرة في تعلم اللغة العبرية.

ولتجاوز هذه المشاكل قامت منظمتان صهيونيتان في الولايات المتحدة بتسهيل أمور استيعاب المهاجرين، وخاصة تهيئة مساكن وأعمال مناسبة للمهاجرين، وقد شارك منظمة "باتوا" ولجنة القوى العاملة في هذه الجهود.

وفي الوقت نفسه أنشئت لجنة خاصة لهذا الغرض أسميت لجنة الهجرة الإسرائيليّة من مندوبين عن الوكالة اليهوديّة، والحكومة الصهيونية، ورابطتي اليهود الأميركيّين والكنديين في الكيان الصهيوني، وقد قامت هذه اللجنة بتولي مهمة أنشأ مشروعات سكنية خاصة ومعالجة مسائل القروض، والرسوم الجمركية، وتجاوز قضايا الروتين الرسمي.

أما بالنسبة لمعدلات زواج اليهود الأميركيّين داخل المجموعة نفسها فقد كانت أخفض النسب بين كلّ المجموعات تراوحت بين ١٢ ـ ٧٪ في الفترة الممتدة بين سنوات ١٩٥٦، ١٩٦٢[١].

ومن الطبيعي أنّ هذه النسبة المنخفضة تعكس اتجاه هذه المجموعات للاندماج ضمن المجموعات الأوروبية التي يعود مهاجروا الولايات المتحدة وكندا في أصولهم الإثنية إليها، وهي لا تعكس مطلقاً توجها للاندماج مع المجموعات المتواجدة في هذا الكيان دون تمييز أو بشكل متوازن، ذلك أنّ يهود هذه المجموعة وخاصة المهاجرون الجدد هم الأكثر تنافراً مع المجموعات الأفرو آسيوية.

Moshe Lissak, Social Mobillity in Israel Society. Jerusalem, 1969, pp. 46 - 47.

الفصل الثامن

اليهود الزنوج

تعيش في الكيان الصهيوني مجموعة من الزنوج الأميركيّين يتراوح عدد أفرادها بين ٢٥٠٠ و٣٥٠٠ شخص، ثلثهم من مواليد الكيان الصهيوني، وهم يقيمون حالياً في ثلاث من "مدن التطوير" الصهيونية في منطقة النقب، وهي "ديمونا" التي يعيش فيها أكبر مجموعة تتراوح بين ١٥٠٠ ـ ٢٥٠٠ شخص، ومجموعات أصغر في "متسفي رمون" وفي غراد تبلغ عدة مئات وقد قدم هؤلاء من الولايات المتحدة ما بين عامي ١٩٦٩ و١٩٧١[١].

هؤلاء الزنوج يعيشون في الواقع حالة من الحصار والاضطهاد حيث يرفض الكيان استيعابهم، وتمارس ضدهم كلّ أنواع التمييز العنصري وترفض السلطات الصهيونية منحهم الجنسية الإسرائيليّة، أو حتى هويات شخصية، ولا تطبق عليهم الخدمة في الجيش الصهيوني على الرغم من أنّهم يتطوعون للعمل فيه بشكل فردي. والصهاينة داخل الكيان من الأصول الأوروبية والأمريكية يرفضون الاعتراف بأن هؤلاء الزنوج هم يهود أيضاً. وقد قررت لجنة "غلاس" التي شكلتها الحكومة الصهيونية في تقريرها الذي قدمته عام ١٩٨٠ أنّ هؤلاء الزنوج ليسوا من اليهود[٢].

وتعمد الحكومة الصهيونية بين الحين والآخر إلى اتخاذ إجراءات عنيفة ضدهم وتطرد بعضهم، وتعلن أنّها ستقوم بإبعادهم إلى الولايات المتحدة.

(1) Ibid, From p 45 To p 62 - .

(٢) الغيتو الزنجي في ديمونة/ صحيفة دافار، ١٤-١٨-١٩/٣/١٩٨٤ (أمير روزبنلث).

والذين يعيشون منهم في "ديمونة" يقيمون داخل حي يطلق عليه "الغيتو الأسود" تطغى عليه مظاهر البؤس وأغلب بيوته لا ماء فيها ولا كهرباء. كما يتعلم أفراد هذه المجموعة في مدارسهم الخاصة، وهم يتحدثون الإنجليزية، وبعضهم من خريجي الجامعات في الولايات المتحدة، ويروج الصهاينة أنّ لهؤلاء طقوسا خاصاً وأنهم يمارسون تعدد الزوجات وأنهم يعتبرون زعيمهم "بن عمي كارتر" إلها[1].

(١) *أسود، أبيض/ صحيفة هآرتس، ١٩٨٦/٢/١٧؛ مردخاي أرتئيلي، وصحيفة عل همشمار، ١٩٨٦/٦/١٥.*

الفصل التاسع

يهود أميركا اللاتينية

مثلما تحدثنا عن يهود الولايات المتحدة وكندا، فإنه لا يمكن اعتبار يهود أمريكا اللاتينية مجموعة أو مجموعات إثنية بالمعنى الصحيح للكلمة، إذ أنّهم في الأساس يعودون إلى الإثنيات الأوربية، وقد هاجروا إلى أمريكا اللاتينية في أوقات مختلفة من القرن الماضي أو الحالي، إلاّ أنّهم ونتيجة لإقامتهم في هذه البلدان أصبحت لهم بعض السمات والخاصيات المشتركة (ليهود كلّ بلد).

وفي غالب الأحيان كان المهاجرون اليهود من بلدان أمريكا اللاتينية يندمجون بعد قدومهم إلى الكيان الصهيوني في مجموعاتهم الأصلية كالروس والبولنديين وغيرهم.

وعلى الرغم من هذا الواقع فإن المعطيات "الإسرائيليّة" التي تتحدث عن المهاجرين تشير إلى أكثر من ٧٠ ألف يهودي من بلدان أمريكا اللاتينية كانوا متواجدين في الكيان الصهيوني عام ١٩٨٥.

ويمكن القول أنّه لم تكن توجد هجرة يهودية حقيقية من أقطار أمريكا اللاتينية قبل قيام الكيان الصهيوني، فالمجموعة الإحصائية اليهودية لا تشير إلاّ إلى ٢٤٨ ـ مهاجراً من الأرجنتين جاؤوا قبل ذلك التاريخ (١٩٤٨). وتشير موسوعة الصهيونية وإسرائيل إلى أنّ العدد القليل الذي وصل قبل الحرب العالمية الثانية يستوعب عند وصوله فلسطين ضمن المجموعات الإثنية الأصلية التي ينتمي إليها (كالرومان، والبولنديين). كما تشير تلك الموسوعة إلى أنّه وصلت مع نهاية الحرب العالمية الثانية مجموعة صغيرة

من "الشباب الرواد" ثم وصلت مجموعة من المتطوعين للقتال إلى جانب العصابات الصهيونية في حرب عام ١٩٤٨ بلغ عددها ٥٠٠ متطوع، عاد بعضهم من حيث أتى عند نهاية الحرب، فيما استوطن البعض الآخر مع عائلاتهم في الكيان الصهيوني.

وفي الفترة الممتدة من عام ١٩٥٦ إلى عام ١٩٦١ ارتفعت معدلات الهجرة من أقطار أمريكا اللاتينية بسبب الأزمات السياسيّة و الاقتصاديّة والاجتماعية في تلك الأقطار حيث انضم المهاجرون الأكبر سناً مع عائلاتهم في المدن والبلدات الاستيطانية وعملوا في الصناعة وكحرفيين ومهنيين ورجال أعمال.

وبعد عام ١٩٦١ تصاعد تيار الهجرة من تلك الأقطار بعد انفجار أعمال مشبوهة ـ لا يستبعد أن يكون للصهاينة أنفسهم ضلع فيها ـ في العاصمة الأرجنتينية "بيونس أيرس" والعاصمة الأوروغوية "مونتفيديو" في ذلك العام. فلقد وصل إلى الكيان الصهيوني بين عامي (١٩٦١ و١٩٦٥) حوالي ١٣ ألف مهاجر بما يفوق كلّ أعداد المهاجرين من أقطار أمريكا اللاتينية في السنوات السابقة. وهو ما يؤكد أنّ تلك الأحداث كان لها أثر في اهتزاز قناعات اليهود في أمريكا اللاتينية وخاصة الأجيال التي ولدت هناك وتأصلت فيها ثقافة ونمط الحياة في تلك المجتمعات.

أما بعد عام ١٩٦٥ فقد عادت معدلات الهجرة من تلك الأقطار إلى الهبوط أثر تحس الظروف الاجتماعية و الاقتصاديّة، وبعد أن خفت التوترات السياسية، وبعد أن انكشفت الصعوبات التي يواجهها المهاجرون من هذه الأقطار في التكيف مع الحياة داخل الكيان الصهيوني. غير أنّ تيار الهجرة الذي أصبح شبه ثابت من هذه البلدان ظل أكبر ممّا كان عليه قبل عام ١٩٦١.

وقد أشارت الإحصاءات الإسرائيليّة إلى أنّه كان في الكيان الصهيوني عام (١٩٧٢) ٢٤٦٦٩ مهاجراً من الأرجنتين، و٦٦٣٥ مهاجراً من البرازيل و٣٧٠٩ مهاجرين من تشيلي، و٣٧٠٠ مهاجراً من الأوروغوي، و١٥٨٦ مهاجراً من المكسيك و٥٣٨٣ مهاجراً من أقطار أمريكا اللاتينية الأخرى.

أما بعد عام ١٩٧٢ وحتى عام ١٩٨٥ فقد وصل إلى الكيان الصهيوني ١٨٧٤٥ مهاجراً من الأرجنتين و٣١٥٤ مهاجراً من البرازيل و٥٧٣١ مهاجراً من الأورواغي و١٧٥٧ مهاجراً من تشيلي و١٢٣٦ من المكسيك، وبضع مئات من أقطار أمريكا اللاتينية الأخرى.

وفي عام ١٨٩٥ بالذات احتل المهاجرون من الأرجنتين الرتبة الثالثة في عدد المهاجرين إلى الكيان الصهيوني من أقطار العالم بعد الولايات المتحدة ورومانيا(١).

أنّ نشاط هجرة يهود أمريكا اللاتينية إلى الكيان الصهيوني منذ مطلع الستينات يعود إلى النشاط الصهيوني الواسع النطاق الذي تلعبه الأحزاب والحركات الصهيونية في هذه الأقطار، والذي لا يستبعد أن تكون أحداث عام ١٩٦١ ضد اليهود من صنعه. كما لعبت الأزمات الاقتصاديّة و الاجتماعية والسياسية التي عصفت وتعصف بأفكار هذه البلدان، بين الحين والآخر، دوراً مهماً في هذا المجال، إضافة إلى حداثة وجود هؤلاء المهاجرين النسبية في هذه البلدان، وهو ما ينعكس ضعفاً في ارتباطاتهم وتجذرهم في المجتمعات فيها.

هذا وتعكس البنية الاجتماعية لهؤلاء المهاجرين كنوعاً إثنيا، وطبقياً وثقافياً كبيراً، ويعيش ثلث عددهم تقريباً في الكيبوتسات، فيما يعيش الباقي في المدن الاستيطانية ويعملون في الطب، والهندسة والتدريس، والمهن والحرف الأخرى، فيما يشتغل بعض منهم في الصناعة، والبحث العلمي.

وفي الوقت الذي يتوزع فيه هؤلاء المهاجرين جغرافياً في أنحاء الكيان الصهيوني إلاّ أنّ غالبيتهم تتركز في مدينة تل أبيب وضواحيها، وفي ريشون لتسيون وأسدود وبئر السبع، والقدس وحيفا.

أما من حيث الاندماج والتكيف في المجتمع الاستيطاني فإنه يمكن القول أنّ هؤلاء المهاجرين مثلهم مثل مهاجري الأقطار الغربية الذين يأتون طوعاً (مهاجرون لهم خيار) قد عكسوا مشكلاتهم الخاصة على سياسة الاستيعاب الصهيونية.

وفي الواقع فإن الحكومة الصهيونية وقسم الاستيعاب في الوكالة اليهوديّة قد وطنوا أنفسهم على استيعاب هجرات كبيرة من يهود ملاحقين أو جاؤوا قسراً إلى الكيان الصهيوني، ولم يكونوا مهيئين لاستيعاب مهاجرين ذوي مستوى عالي التطور. وقد وجد مهاجر أمريكا اللاتينية في الستينات أنفسهم أمام صعوبات كبيرة، وأمام عدم تفهم لمشكلاتهم، وخاصة ما يتعلق بالعمل، وبالسكن، وتعلم اللغة العبرية.

والجيل الأصغر الذي كان يبلغ نسبة ٣٠٪ منهم كان حاصلاً على التعليم الثانوي

(1) Statistical Abstract of Israel, 1986, p 150 - 151.

ويحمل ثقافة علمانية مدنية، وكانت الثقافة اليهودية ضعيفة لديهم ومعرفتهم بالعبرية شبه معدومة. والجيل الأكبر كان محباً للحياة الاجتماعية النشيطة التي لم يجدها في الكيان الصهيوني. وعليه فقد وجد هؤلاء أنفسهم منقطعين عن المجرى العام للحياة الاجتماعية والسياسية بسبب عدم معرفتهم العبرية، واختلاف الأجواء العامة ممّا جعل نسبة النزوح ترتفع بينهم حيث وصلت في السنوات من ١٩٦١ ـ ١٩٦٥ إلى ٣٪ بين اليهود المهاجرين من الأرجنتين فيما وصلت ٥٪ بين يهود أمريكا اللاتينية عموماً(١).

وقد تشكلت منظمة "مهاجري أمريكا اللاتينية" لتقوم بمساعدة الحكومة الصهيونية، وقسم الاستيعاب في الوكالة اليهوديّة على حل مشاكل هؤلاء المهاجرين وتقديم التسهيلات لهم. وبالنسبة لمعدلات الزواج داخل المجموعة نفسها فقد أظهرت تفاوتاً بين سنة وأخرى، حيث كانت ٢٨٪ عام ١٩٥٢ ليهود الأرجنتين ثم ارتفعت إلى ٦٤٪ عام ١٩٥٨، لتعود وتهبط إلى ٣٤٪ عام ١٩٦٢ أي أنها لا تعطي اتجاهاً محدداً نحو زيادة الاندماج، أو زيادة شرنقة المجموعة حول نفسها.

(1) Encyclopedia of Zionism and Israel, p. 703.

الفصل العاشر

يهود جنوب أفريقيا

يعيش في الكيان الصهيوني عدة آلاف من اليهود الذين هاجروا من جنوب أفريقيا التي يعش فيها حالياً "١٢٠" ألف يهودي يشكلون جزءاً أساسياً من الأقلية البيضاء العنصرية الحاكمة.

وعلى الرغم من أنّ وزن هذه المجموعة ليس كبيراً بالمعيار الرقيم، إلاّ أنّ دورها وتأثيرها كانا كبيرين في المجالات الاقتصاديّة والسياسية، بما يفوق كثيراً مرتبتها من حيث أقدمية الهجرة أو الحجم العددي ـ ويعكس هذا الأمر العلاقات الخاصة الموجودة بين الكيان الصهيوني والحركة الصهيونية والنظام العنصري في جنوب أفريقيا، كما يعكس دور ونفوذ يهود جنوب أفريقيا ودورهم في هذه العلاقة[1].

والمعطيات الصهيونية تختلف حول عدد المهاجرين من جنوب أفريقيا ففي الوقت الذي تذكر فيه بعض المصادر أنّ عدد هؤلاء المهاجرين قد بلغ في الفترة من عام ١٩٤٨ حتى ١٩٧٢ رقمها هو "٨٩٧٥" مهاجراً[2]، تشير موسوعة الصهيونية وإسرائيل إلى "٥٢٢٣" مهاجراً فقط في نفس الفترة وفي الوقت الذي يذكر فيه "دان تساغر" أنّ عدد

(1) Moche Lissak, Social Mobillity in Israel Society, Jerusalem, 1969, pp 46 -47.
(2) Israel Pocket Library, Imigration and Settlement. Jerusalem, Keterbooks,1973, p. 64.

هؤلاء في الكيان الصهيوني عام ١٩٨٦ قد بلغ "٢٠" ألفاً فإن المجموعة الإحصائية الإسرائيليّة لا تشير إلى أكثر من "٩٤١٩" مهاجراً في نفس الفترة.

ومن الجدير بالذكر أنّه يتواجد في جنوب أفريقيا حوالي "٢٠" ألف[1] نازح إسرائيلي يعملون في مجالات مختلفة.

لقد بدأ مجيء يهود جنوب أفريقيا إلى فلسطين في عهد الانتداب البريطاني حيث وصل إليها عدد قليل منهم في ذلك العهد، أما أغلبيتهم فقد جاءت بعد قيام الكيان الصهيوني وخاصة بعد مطلع الستينيات حيث تزايدت معدلات الهجرة، ووصلت أوجها بعد أحداث "سوتيو" في جنوب أفريقيا عام ١٩٧٦، وهو ما يعكس تأثير نضال الثوار الإفارقة ضد نظام الأقلية العنصرية البيضاء، وهرب اليهود وأفراد هذه الأقلية وخشيتهم من انهيار هذا النظام. غير أنّ هجرة هؤلاء اليهود صارت تتجه في السنوات الأخيرة ليس إلى الكيان الصهيوني ولكن إلى أستراليا والولايات المتحدة وكندا.

ويمكن القول أنّ هجرة يهود جنوب أفريقيا جاءت بدوافع صهيونية تعكس الأرضية العنصرية المشتركة للنظامين في الكيان الصهيوني وجنوب أفريقيا، حيث جاء هؤلاء أما للعمل مع الجيش الصهيوني، أو للمشاركة في بناء المستوطنات أو ضمن النشاطات الاقتصاديّة المشتركة للنظامين العنصريين. ففي عام ١٩٤٨ تطوع حوالي "٧٠٠" يهودي من جنوب أفريقيا وانضموا إلى العصابات الصهيونية في القتال ضد الشعب الفلسطينيّ والجيوش العربيّة. وكان هؤلاء قد خدموا أساساً في جيش جنوب أفريقيا خلال الحرب العالمية الثانية. وبعد انضمامهم إلى العصابات الصهيونية لعبوا الدور الأساسي في تشكيل سلاح الجو الصهيوني ونفذوا عملياته الأولى، وقد استوطن بعضهم في الكيان الصهيوني بينما عاد البعض الآخرون إلى جنوب أفريقيا.

أما على صعيد الاستيطان فقد شارك أعضاء المنظمات الشبابية الصهيونية في جنوب أفريقيا في بناء مستوطنات: براكيا، جلعاد هابونيم، كفاربلوم، شوفولون (في ضواحي تل أبيب)، معين باروخ، مولدين تيريم، شولوموت، تيموريم، تشودا.

ويقيم بعض مهاجري جنوب أفريقيا في المستوطنات والكيبوتسات المذكورة، فيما يقيم أغلبيتهم التي تنتمي إلى الطبقات العليا في منطقة تل أبيب والمنطقة الساحلية

(١) *هآرتس ١٩٨٦/٤/١، صهيونية دون هجرة، دان ساغر.*

وخاصة في سافيون، وكفار شمرياهو وهرتسيليا[1].

أما الدور الأساسي الذي لعبه يهود جنوب أفريقيا فهو في تقديم الدعم المالي للاستيطان، وعلى صعيد البناء الاقتصاديّ في الكيان الصهيوني، وإقامة المشروعات الصناعية المشتركة بين هذا الكيان وجنوب أفريقيا.

فبالإضافة إلى المساهمة في بناء العديد من المستوطنات التي سبق ذكرها، مول يهود جنوب أفريقيا بناء كلية مدينة أشكلون (قرب مدينة عسقلان العربيّة) وسلموها هدية للحكومة الصهيونية عام ١٩٥٨.

وعلى صعيد المشروعات الاقتصاديّة تعود مساهماتهم إلى عهد الانتداب البريطاني حيث قاموا بتأسيس شركة "بنيان مورتيجيج" عام ١٩٢٢ التي بنت الأحياء اليهوديّة في حيفا وضواحيها. وقد اندمجت هذه الشركة في أواخر الستينات مع شركة التأمين "مجدال" لتنشأ شركة "مجدال بنيان" التي تعتبر أكبر شركة تأمين في الكيان الصهيوني. كما قاموا بتأسيس "شركة فلسطين للتخزين والتبريد" عام ١٩٢٠ والتي كانت أول شركة من نوعها في فلسطين.

وفي الثلاثينات أنشأ يهود جنوب أفريقيا شركة فلسطين / جنوب أفريقيا (التي أصبحت الآن إسرائيل / جنوب أفريقيا) للاستثمارات، والتي عملت في بناء العقارات وتجارتها، وهي التيبنت مستوطنة سافيون في ضواحي تل أبيب. كما أسسوا "شركة تجارة فلسطين / أفريقيا" التي تطورت في أواخر الستينات إلى شركة "بلتورز" لتصبح أكبر مؤسسة ملاحة وأعمال. وسياحة وتأمين في الكيان الصهيوني.

ومن الشركات الأخرى التي أسسها هؤلاء: شركة "بالمكس" للاستيراد والتصدير التي تعمل على نطاق عالمي. وشركة "أرارات" للتأمين وشركة "سايكو" للإنشاءات..

وفي مجال الصناعة أسس يهود جنوب أفريقيا: أكبر مصنع أثاث في الكيان الصهيوني "مغي" وشركة "ميروميت" لصناعة المعادن، وأقاموا "مصنع بيت شيمش" لإنتاج الموتورسيكلات والدراجات.

أما أبرز مساهماتهم على الإطلاق في المجال الاقتصاديّ فهو تأسيس شركة "العال" للطيران التي أسسها اتحاد صهاينة جنوب أفريقيا عام ١٩٤٨ بهدف إيجاد خط جوي

(1) Encyclopedia of Zionism and Israel, p. 1061.

لنقل الدعم من جنوب أفريقيا إلى الكيان الصهيوني.

وعلى الرغم من هذا الدور الاقتصاديّ والعسكري في دعم هذا الكيان، فقد واجه مهاجرو جنوب أفريقيا صعوبات كبيرة في مجال التأقلم النفس والانتظام في المناخات الاجتماعية السائدة في الكيان الصهيوني وبالنظر إلى اختلاف اللغة ومستويات المعيشة، ونمط الحياة الاجتماعية.

ويتواجد يهود جنوب أفريقيا في الإدارات الحكومية، والسلك المهني، ومؤسسات التعليم العالي. وأبرز الشخصيات السياسية التي تعود في أصولها إلى يهود جنوب أفريقيا: "اباايبان" وزير الخارجية الصهيوني الأسبق، ورئيس لجنة الخارجية بالكنيست حاليا، ويعقوب جيري، وزير الصناعة والتجارة الأسبق الذي كان في الوقت نفسه مديراً لشركة استثمارات (أفريقيا/فلسطين) التي سبقنا الإشارة إليها، وكذلك مايكل كومي ممثل إسرائيل الأسبق في الأمم المتحدة[1].

(1) Ibid, p. 1062.

الفصل الحادي عشر

يهود أستراليا ونيوزيلاندا

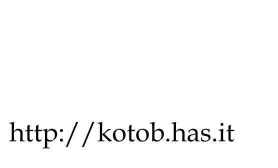
على الرغم من وجود طائفة يهودية كبيرة نسبياً في أستراليا (حوالي "٨٠" ألف يهودي تقريباً) فإن الهجرة منها إلى الكيان الصهيوني كانت متواضعة الأبعاد لم تتجاوز بضعة آلاف عاد معظمهم من حيث أتى، ليس هذا فقط بل أنّ أستراليا تعتبر مركز استقطاب لهجرة اليهود وخاصة من جنوب أفريقيا كما سبق وأشرنا. وتشير المجموعة الإحصائية الإسرائيليّة إلى "٣٠٧٨" مهاجراً يهودياً من أستراليا ونيوزيلاندا منذ قيام الكيان الصهيوني وحتى غاية عام ١٩٨٥[١] .

وقد ساهم يهود أستراليا في تقديم الدعم المالي وبناء بعض المشروعات في الكيان الصهيوني وخاصة الغابات والحدائق مثل: "إيفان فورست" أستراليا بارك غابة منزيس قرب بات شلومو، غابة أنزاك، نيتوت هيكيكار، نحلات عدولان، نحلان فكتوريا[٢].

ومن هنا فليس هناك مجموعة متبلورة يمكن الحديث عنها داخل الكيان الصهيوني من يهود أستراليا ونيوزيلاندا ـ على غرار المجموعات الأخرى التي تعود لنفس الأصول الإثنية كيهود بريطانيا، و الولايات المتحدة وكندا، وجنوب أفريقيا تمثل من لم يرجع إلى أستراليا من هؤلاء اليهود.

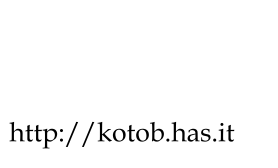
(١) هآرتس ١٩٨٦/١١/١٢ - رئيس الدولة بعيداً عن أرض الوطن - جدعون آلون.

(2) Encyclopedia of Zionism and Israel, pp 89-90-91.


http://kotob.has.it

الباب التاسع

يهود أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتي



الفصل الأول

بين المصطلح والواقع المعاش(*)

"اليهود الشرقيون" مصطلح كان يُطلق على نسل أولئك اليهود الذين اتجهوا، عندما غادروا فلسطين قديماً، إلى العراق وإيران وأفغانستان وشبه الجزيرة العربية ومصر وبلدان شمال أفريقيا، وعلى يهود القوزاق (يهود جورجيا والجبال). ولكنه يشر الآن، في التجمع الاستيطاني الصهيوني، إلى اليهود الذين لا ينحدرون من أصل غربي، وقد أصبح لفظ "سفارد" مرادف للفظ "شرقيين" لأن معظم اليهود الشرقيين، في البلاد العربيّة على وجه الخصوص، يتبعون التقاليد السفاردية في العبادة. ولكن مصطلح "سفارد" غير دقيق، فبعض اليهود الغربيين في هولندا وإنجلترا وإيطاليا من السفارد. كما أنّ الحسيديين يتبعون بعض التقاليد السفاردية في العبادة. لذا، يجب أن نستخدم مصطلح اليهود الشرقيين باعتبار أنّه الكل الذي يضم معظم السفارد كجزء، وهذا الكل يضم يهود الفلاشاه ويهود الهند وغيرهم، وباعتبار أنّ مصطلح اليهود الشرقيين ذو مضمون طبقي عرِْقي ثقافي مُتعيّن، على عكس مصطلح "سفارد" ذي المضمون الديني غير المُحدّد. كما يُستخدم مُصطلح "اليهود الغربيون" للإشارة إلى كلّ يهود الغرب.

ويبدو أنّ مصطلح "الشعب اليهوديّ" يستبعد هؤلاء الشرقيين على مستوى فعلي،

(*) هذه المعلومات مأخوذة من مجلة الأرض العدد الحادي عشر آب - ١٩٨٧، ص ٤٤ وما بعدها.

وذلك بعد أن كان يستبعدهم اسماً وفعلاً في الماضي. فاليهود الشرقيون، وغيرهم من أعضاء الجماعات، يهود بشكل عام وأعضاء في "الشعب اليهودي" ماداموا في الخارج.

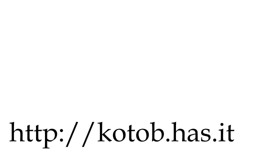
ولكنهم حينما يصلون إلى إسرائيل، يصبحون مغاربة أو مصريين، وتتحدد مكانتهم الاجتماعية بل ووضعهم الطبقي حسب هذا التصنيف. ويلجأ بعض يهود المغرب العربي إلى الإدعاء بأنّهم من أصل فرنسي حتى يُحسنّوا صورتهم أمام الآخرين. وهذا يعني أنّ النقطة المرجعية لإدراكهم لأنفسهم ولغيرهم ليس الهوية اليهودية المجردة وإنما هويات يهودية مختلفة. ويُلاحظ أنّ مصطلح "يهود شرقيون" مصطلح ذو بُعد حضاري ثقافي. ومن ثم، يُشار إلى يهود جنوب أفريقيا بأنهم غربيون نظراً لانتمائهم إلى تشكيل حضاري غربي هو الجيب الاستيطاني الأبيض في جنوب أفريقيا. وتُصرّ النخبة الحاكمة في الدولة الصهيونية على الطبيعة الغربية (الإشكنازيّة) للدولة. وقد صرح شاعر الصهيونية الأكبر نحمان بياليك، وهو إشكنازي من يهود اليديشية، بأنه يكره العرب لأنهم يُذكّرونه باليهود الشرقيين. ولعل خوف النخبة الإشكنازية من العزلة الحضارية هو ما يدفعها إلى إثارة الحروب من آونة إلى أخرى في المنطقة حتى لا يندمج الشرقيون في المحيط الحضاري العربي، فهم في حقيقة الأمر، ينتمون حضارياً وعرقياً إلى هذه المنطقة. ولو تحقَّق مثل هذا الاندماج، لوجدت النخبة الحاكمة الإشكنازيّة نفسها في موضع الأقلية مرة أخرى، وهو الأمر الذي مططت هذه النخبة وأنفقت كلّ أيامها من أجل الهرب منه. وعلى كلٍّ، فقد تحولت الأغلبية الإشكنازيّة إلى أقلية عددية، ولكنها لا تزال تملك ناصية الأمور وتحتكر صنع القرار.

وفي إطار هذا التصوّر، يمكننا فهم الحملات الصهيونية التي وُجّهت ضد الاتحاد السوفيتي (سابقاً) للسماح لليهود السوفييت بالهجرة، فهي محاولة من جانب الإشكناز لاستعادة التوازن العرقي والحضاري داخل إسرائيل لصالحهم، خصوصاً أنّ الهجرة من أوربا قد توقفت، كما أنّ نسبة التوالد بين الشرقيين أعلى منها لدى الإشكناز. ولكن الهجرة من روسيا وأوكرانيا تثير من المشاكل أكثر ممّا تحل. فالمهاجرون الروس والأوكرانيون يُعامَلون معاملة خاصة لتشجيعهم، إذ أنّ هجرتهم غير عقائدية وتأتي في سياق بحثهم عن مكاسب اقتصادية لم يجدوها في وطنهم الأم. لكن هذه المعاملة الخاصة تثير حفيظة الشرقيين، وتُصعّد حدة التناقض بين "الأمتين" (وهو المصطلح

المُستخدم في إسرائيل للإشارة إلى الإشكناز من جهة وغير الإشكناز ﷺمن السفارد والشرقيين رضي الله عنه من جهة أخرى). ويُقال إن علم الاجتماع الإسرائيليّ يُؤثر، في الوقت الحالي، استخدام هذا المصطلح باعتباره مصطلحاً تحليلياً وصفياً للوضع القائم في إسرائيل. وتوجد أحزاب سياسية وقوائم انتخابية في المُستوطن الصهيوني تحاول جميعاً تمثيل مصالح اليهود الشرقيين، ومن بين هذه القوى حزب تامي وحزب شاس الديني.

ورغم أنّ اليهود الشرقيين يشكلون أقلية بين يهود العالم (كانت لا تتجاوز ١٠٪ عند بدء الحركة الصهيونية في نهاية القرن الماضي) إلاّ أنّ عددهم يزيد عن ٥٥٪ بسبب تدفقهم على الدولة الصهيونية وازدياد معدل الزيادة الطبيعية.

شكل يهود أوروبا الشرقية المادة الخام الأساسية التي استخدمتها الحركة الصهيونية في تنفيذ المشروع الذي أقامته في فلسطين، وكانت أوساط اليهود التربة الخصبة التي نشأت وترعرعت فيها مختلف الأحزاب والحركات الصهيونية قبل أن يأخذ التجمع الاستيطاني الصهيوني في فلسطين "اليشوف" صورته الخاصة به. كما كانت هذه الأوساط المصدر للهجرة اليهوديّة منذ ظهور الحركة الصهيونية تمام الكيان الصهيوني عام ١٩٤٨ ومن هذه جاء قادة العمل الصهيوني، وجاءت الأحزاب التي سيطرت خلال فترة "اليشوف" ثم في الصهيونية. وسنبدأ بالتعرض إلى المجموعات الأكبر حجما والأكثر أهمية.



الفصل الثاني

مجموعة اليهود البولونيين

وهم المجموعة الأقوى والأكثر سيطرة في الكيان صهيوني، وهي تبسط هيمنتها على الحكومة والهستدروت، والكنيست، والجيش، والاقتصاد، ولها أكبر وجود في الوظائف الكبيرة في مختلف القطاعات وخاصة من هم من أبناء الهجرتين الأولى والثانية.

لقد جاء أول اليهود البولونيين إلى فلسطين في فترة الأولى (١٨٨٢ ـ ١٩٠٣) ولم يكن عددهم كبيراً خلال هذا الفترة بالنظر إلى عدم وجود الظروف الضاغطة داخل بولندا، كالتي حدثت في روسيا في الفترة نفسها. وقد قامت حوالي "١٣" عائلة من يهود بولندا باستيطان "بتاح تكفا" قرب يافا عام ١٨٨٣، وفي العام التالي استوطنت ٢٥ عائلة أخرى مستوطنة "يسودها معلاً" في وادي الحولة.

وفي عام ١٨٩٠ قام مهاجرون يهود بولونيون تابعون لمنظمة وأرسو بإنشاء مستوطنة "رحوفوت" قرب يافا. وفي فترة الهجرة الثانية ١٩٠٤ ـ ١٩١٤ جاء إلى فلسطين عدد أكبر من اليهود البولونيين ضموا بين صفوفهم أبرز قادة الحركة العمالية الصهيونية، وعلى رأسهم "دافيد بن غوريون" الشخص الذي لعب الدور الأكبر في قيادة الحركة العمالية الصهيونية وفي عمليّة التنفيذ الصهيوني.

وكان قدامى المهاجرين الذين جاءوا في هاتين الموجتين "اليشوف القديم" مرتبطين بمنظمات الإحسان اليهوديّة "كوليم" التي أقيمت على أساس الأماكن الأصلية للمهاجرين كمنظمة وأرسو، وبيالتسك وغيرها، وخاصة من كانوا قد استوطنوا منهم

في مدينة القدس.

وتشير إحصاءات منظمات الإحسان اليهوديّة تلك والمستمدة من دائرة فلسطين إلى أنّه كان في القدس في عام ١٩١٦ حوالي ١٠٠٠ عضو من جاليسيا، و١٤٠٠ عضو من وارسو، و١١٠٠ عضو من كوردانو، و١٠٠٠ من فولهانيا و١٤٠٠ من فيلنا(*) وكان هناك عدد آخر من اليهود البولونيين في مدن طبريا وصفد والخليل وقد قدر عدد هؤلاء في المدن الأربع بحوالي "٦" آلاف مستوطن في حين قدر عددهم في عموم فلسطين في ذلك العام بـ"١٠" آلاف مستوطن(١) .

ومع نهاية الحرب العالمية الأولى عادت الهجرة اليهوديّة في بولندا، إلى النشاط ثانية خاصة وقد صدر وعد بلفور وأصبحت فلسطين تحت الانتداب البريطاني حيث وصل في تلك الفترة ـ "الهجرة الثالثة" ١٩١٩ ـ ١٩٢٣ "٩١٥٨" مهاجراً يمثلون ٣٠٪ من مجموع اليهود الذين جاءوا في تلك الفترة وبلغ عددهم "٣٥" ألف مهاجر.

أما في فترة الهجرة الرابعة (١٩٢٤ ـ ١٩٣١) فقد بلغ عدد المهاجرين البولونيين "٣٨٦٠٥" مهاجراً من أصل "٨٠" ألفاً وصلوا إلى فلسطين في تلك الفترة. وحسب رأي موسوعة الصهيونية وإسرائيل فإن أغلبية مهاجري تلك الموجة كانوا من العمال، وليسوا من أوساط الطبقة الوسطى الذين يقال أنهم جاءوا هرباً من القيود الاقتصاديّة التي فرضت في بولندا آنذاك حسب بعض المصادر الأخرى(٢).

وتذكر تلك المصادر أنّ "٧٥١" مهاجراً من اليهود البولونيين ممن يمتلكون رؤوس أموال هاجروا إلى فلسطين في أعوام ١٩٢٤/ ١٩٢٥/ ١٩٢٦ مقابل ١٣٤٢٤ مهاجراً من العمال، كما تذكر إحصاءات عام ١٩٣٦ أنّ ٣٧,٦٪ من العمال اليهود في فلسطين كانوا من البولونيين.

لقد لعب مهاجرو هذه الفترة من اليهود البولونيين دوراً هاماً في تطوير الحرف والصناعات اليهوديّة في فلسطين لأن نسبة هامة منهم كانت من أبناء الطبقة الوسطى وأصحاب رؤوس الأموال كما سبق وأشرنا. وقد كان هؤلاء من المبادرين لإنشاء الصناعات النسيجية، وصناعة الحبال، ومصانع صغيرة أخرى تحولت فيما بعد إلى

(*) كانت فيلنا في بولندا في ذلك الحين وليس في الاتحاد السوفييتي.

(1) Encyclopedia of Zionism and Israel, p. 902.

(2) Ibid.

مؤسسات صناعية كبرى:

وفي أواسط الثلاثينات جاء مهاجرون من الطائفة الحسيدية، حيث نشط حاخامو تلك الطائفة في العمل على تهجير أتباعهم إلى فلسطين والاشتغال بالزراعة. وقد قام هؤلاء بإنشاء المستوطنين الزراعيتين: غلات يعقوب، وأغودات يسرائيل المتجاورتين قرب يافا لكن هؤلاء الحاخاميين غادروهما بعد وقت ونزحوا كلياً عن فلسطين، لتعود فيما بعد نواة أخرى من المستوطنين وتقيم بدلاً منهما مستوطنة واحدة هي "كفار حسديم" وفي تلك الفترة أيضاً قام مستوطنون بولونيون آخر ببناء مستوطنة بني براك(*) شمال شرق يافا.

كذلك ساهم المهاجرون البولونيون في تلك الفترة مساهمة أساسية في بناء تل أبيب(**) والعديد من المدن الاستيطانية الكبرى.

ويمكن القول: أنه على الرغم من قرار حكومة الانتداب البريطاني عام ١٩٢٧ بتقييد الهجرة إلى فلسطين إلاّ أنّ عدداً كبيراً من اليهود البولونيين وصلوا إلى فلسطين بطرق مختلفة، كالحصول على شهادات هجرة احتيالية، أو القدوم على شكل سائحين بضمان مقداره "٦٠" جنيها فلسطينياً ثم الاستيطان وعدم مغادرة فلسطين مطلقاً. وتشير إحصاءات الحكومة الانتدابية البريطانية إلى أنّ "١٥" ألف يهودي جاءوا إلى فلسطين كسائحين وظلوا فيها وقدرت تلك الإحصاءات أن ثلثي هؤلاء المهاجرين كانوا من اليهود البولونيين.

وبالإجمال وصل إلى فلسطين في الفترة الممتدة من عام ١٩٣٢ وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية (٩٧٥٠٠) مهاجراً بولونياً يمثلون ٣٠٪ من مجموع الهجرة التي جاءت خلال تلك الفترة والتي قدرت بـ٣٢٥ ألف مهاجر. وقد كان الاحتلال النازي لبولونيا الأساسي في ضخامة هذا الرقم من المهاجرين البولونيين. وكان هؤلاء المهاجرون في معظمهم من الطبقة الوسطى، ومن العمال والشباب.

وعقب انتهاء الحرب العالمية الثانية وحتى عام ١٩٤٨ حين أعلن عن قيام الكيان الصهيوني وصل "١٧" مهاجر معظمهم من اليهود البولونيين ضمن بالهجرة غير المشروعة(***).

(*)وهي مدينة استيطانية كبيرة حالياً، موجودة شمال بتاح تكفا تماماً وإلى الشمال الشرقي من تل أبيب.

(**) بدأ بناء تل أبيب عام ١٩٠٩ واستمرت في التوسع حتى أصبحت أكبر المدن الاستيطانية الصهيونية في فلسطين.

(***) المهاجرون الذين كانوا يأتون تهريباً لأنهم لا يحملون تصاريح أو شهادات هجرة.

وعند الإعلان عن قيام الكيان الصهيوني كان البولونيون يشكلون حوالي ٣٠٪ من مجموع المستوطنين اليهود في فلسطين، حيث بلغ عدد المهاجرين منهم ألف مهاجر.

كما وصلت فلسطين موجة كبيرة من هؤلاء اليهود خلال الفترة الممتدة من عام ١٩٤٨ وحتى عام ١٩٥١ بلغ أفرادها "١٠٦٤١٤" يهودياً بولونياً معظمهم من معسكرات اللاجئين اليهود الهاربين من الاحتلال لبولندا.

ومن عام ١٩٤٨ وحتى عام ١٩٧٠ وصل رقم المهاجرين البولونيين إلى فلسطين "١٥١" ألف مهاجر. عدد اليهود البولونيين في الكيان الصهيوني في العام (١٩٧٠) بحوالي "٤٠٠" ألف شخص[١].

أما بعد ذلك التاريخ وحتى عام ١٩٨٤ فقد وصل "٩" آلاف مهاجر آخر، ممّا يشير إلى ضعف الهجرة اليهوديّة من بولونيا وانخفاض معدلاتها كبيرة في السنوات الأخيرة يؤكد ذلك أنّ عدد الفعليين والمحتملين منهم لم يتجاوز "١٧٧" في عام ١٩٨٥ حسب أرقام دوائر الهجرة الصهيونية[٢].

أما عن عدد اليهود البولونيين المقيمين حالياً في الكيان الصهيوني فالمجموعة الاحصائية الإسرائيلية عام ١٩٨٦ تشير إلى أن (٣٠٨٤٠٠) من مواليد بولونيا ولد آباؤهم فيما كانوا يعشون في هذا الكيان عام ١٩٨٥[٣].

ولا يتضمن هذا الرقم اليهود من أصل بولوني ولد أجدادهم في بولونيا وخاصة ممن جاءوا في الهجرات الأولى ، ويذكرون في المجموعة الثانية من حيث يعد اليهود المغاربة. يتواجد اليهود البولونيون حالياً بشكل أساسي في المدن الثلاث الكبرى وخاصة تل أبيب وحيفا وضواحيهما، وفي الكيبوتسات والمستوطنات الزراعية. ولإبناء هذه المجموعة أكثر من ٣٠٠ رابطة فرعية خاصة متواجدة في مختلف المدن والمستوطنات الصهيونية وتجمع رابطة مهاجري بولندا التي أنشئت عام ١٩٢٠ حوالي "١٥٠" من هذه الروابط، التي تنشغل في تقديم المنح التعليمية وفي تقديم الخدمات الخاصة لليهود البولونيين وخاصة الجدد منهم والمسنين.

لقد أشرنا في بداية الحديث عن هذه المجموعة إلى وضعها المسيطر ودورها الفاعل في الكيان الصهيوني ومؤسساته التنفيذية والتشريعية. وعلى سبيل المثال ففي عام

(1) Ibid.
(2) Statistical Abstract of Israel, 1986, pp 150 - 151.
(3) Ibid.

١٩٦٥ كان في الحكومة الصهيونية المكونة من سبعة عشر وزيراً ٨ وزراء من أصل بولوني. وكان هناك في الوقت نفسه ٩ أعضاء في قيادة المنظمة الصهيونية من أصل ٢٠ عضواً، إضافة إلى أنّ رئيس المنظمة نفسه كان بولونيا. وكذلك كان حاكم بنك إسرائيل ورئيس الهستدروت. أما الكنيست فكان ٣٠٪ من أعضائه من اليهود والبولونيين، وكان هناك ١٣ رئيس بلدية، من البولونيين من أصل ٢٤، إضافة إلى عدد كبير من رؤساء المجالس المحلية(١) وكانوا مسيطرين في إدارة المصانع والجامعات والصحافة وغيرها(*).

ويمكن أن نذكر من الشخصيات البارزة في الحياة الحزبية والحكومية الصهيونية الأسماء الآتية التي تعود إلى الأصل البولوني: دافيد بن غوريون زعيم حركة العمل وأبرز الشخصيات في تاريخ الكيان الصهيوني، مناحيم بيجن: مؤسسي حركة حيروت ورئيس الحكومة الصهيونية السابق، ويتسحاق شامير رئيس الحكومة الصهيونية وزعيم حيروت حالياً، شمعون بيرس الزعيم الحالي لحزب العمل ووزير الخارجية ونائب رئيس الحكومة الحالي ومنهم أيضاً موشي كول، زعيم ومؤسس الحزب التقدمي(**)، الميليخ ريملت، ويوسف سيرلين من الزعماء السابقين للحزب الليبرالي، ومردخاي بنتوف أحد مؤسسي حزب المبام، واليعزر كابلان من زعماء هذا الحزب أيضاً، ويتسحاق مئير ليفين "زعيم مؤسس لحزب أغودات يسرائيل) وحاييم موشي شابيرا (من زعماء حزب المفدال سابقاً، وكذلك ارئيل شارون وزير الصناعة. ويوسف الموجي، وحاييم جفعاتي ممن شغلوا مناصب وزارية. ومنهم أيضاً يسرائيل جاليلي(٢) أحد زعماء حزب العمل السابقين وصاحب وثيقة جاليلي أيضاً زعيم الحزب الليبرالي يتسحاق موداعي.

إنّ الوضع المسيطر لهذه المجموعة يجعل أفرادها أكثر تأقلما واندماجاً. وأقل مواجهة للصعوبات من أعضاء المجموعات الإثنية الأخرى الموجودة في الكيان الصهيوني

(1) Ibid, Encyclopedia p. 902.

(*) على أساس أنّ اليهود البولونيين كانوا يمثلون ٣٠٪ من اليهود المهاجرين، في فلسطين. وتجدر الإشارة إلى أنّه من غير الممكن تحديد العدد عن طريق جمع أعداد المهاجرين ذلك أنّ هذه الأرقام تشمل ليس المهاجرين الفعليين فقط، بل والمحتلين أيضاً، إضافة إلى من مات من هؤلاء المهاجرين.

(**) اتحد مع الحزب الليبرالي عام ١٩٦١، وعاد فظهر بعد عام ١٩٦٥ تحت عنوان المستقلون.

(2) Brecher, Michael: Decision In Israel Foreign Policy, Oxford Press, London, 1947.

هذا مع ضرورة الأخذ بعين الاعتبار التمايز الموجود بين أفراد المجموعة اليهوديّة البولندية نفسها على أساس الوضع الاقتصاديّ الطبقي، وعلى أساس أقدمية الهجرة، وخاصة بين أبناء جيلي ما قبل عام ١٩٤٨، الصابرا وما بعده. فالصعوبات أكبر والوضع الاجتماعي والاقتصادي أدنى بشكل عام للشريحة الأكثر حداثة من ناحية الهجرة.

وهناك داخل المجموعة عائلات مسيطرة في المجالات السياسيّة و الاقتصاديّة وخاصة من أبناء العائلات التي جاءت في موجات الهجرة الأولى والثانية والثالثة.

وبالنسبة لاتجاه أفراد هذه المجموعة للاندماج مع المجموعات الأخرى فإذا أخذنا معدلات الزواج داخل المجموعة نفسها كرائز في هذا المجال، فهي تشير إلى هبوط من نسبة ٥٩٪ عام ١٩٤٢ إلى ٤٨٪ عام ١٩٦٢[1]، وهي نسبة عالية إلى حد ما تشير إلى تماسك المجموعة. (تجدر الإشارة إلى أنّ المجموعة الإحصائية الإسرائيليّة لم تعد تشير إلى الموضوع المتعلق بالمجموعات الإثنية ومعدلات الزواج داخل كلّ مجموعة وصارت تكتفي بالإشارة إلى هذا الأمر على أساس الطائفتين الأساسيتين أو مجموعتي الأوروبيين الأميركيّين، والأفريقيين والآسيويين، مفردة مكاناً خاصاً لمن تعتبر أنّ بلد الأصل بالنسبة لهم ـ إسرائيل.

ومن الواضح أنّ اتجاه هذه المجموعة نحو الاندماج هو في اتجاه المجموعات الإثنية القريبة منها من الإشكناز وخاصة الأوروبيين الشرقيين، وليس في اتجاه السفارديين أو اليهود الشرقيين.

لهذه المجموعة صحيفة خاصة تصدر باللغة البولونية أسمها ـ نوفيني أكوير ـ تأسست في تل أبيب عام ١٩٥٠[2] .

(1) *Moshe Lissak, Social Mobility in Israel Society, Jerusalem, 1969, pp.* 46 - 47.

(٢) *حبيب قهوجي، الصحافة والمجتمع الإسرائيلي، دمشق ، ١٩٧٤*

الفصل الثالث

مجموعة اليهود الروس

وهي المجموعة الإثنية الثانية بعد مجموعة اليهود البولونيين من حيث المكانة في الكيان الصهيوني والثالثة بعد مجموعتي اليهود المغاربة واليهود البولونيين من حيث العدد أو الحجم.

ولا يقصد باليهود الروس هنا اليهود من اصل روسي فقط، بل كلّ اليهود الذين جاءوا إلى فلسطين من الجمهوريات والأقاليم الواقعة ضمن حدود الاتحاد السوفييتي، والقسم الأوروبي منه تحديداً(*) وهذا يعني أنّ المجموعة تضم يهوداً تعود أصولهم إلى العديد، من القوميات الموجودة داخل الاتحاد السوفيتي كالتوانيين، والجورجيين، والأوكرانيين، وأن يكن اليهود من أصل روسي هم الغالبية بين هؤلاء.

وقد لعب اليهود الروس دوراً أكثر أهمية وبروزاً من اليهود البولونيين في بدايات الحركة الصهيونية، وبدايات عمليات الاستيطان الصهيوني في فلسطين، حيث شكلوا العنصر الغالب بين يهود الهجرتين الأولى والثانية. وكان اليهود الروس يهاجرون كأفراد إلى فلسطين في أواخر القرن الثامن عشر، وأوائل القرن التاسع عشر ليقيموا في مدينتي صفد وطبريا(**) هؤلاء كانوا من المتدينين من الطائفة الحسيدية، اتباع غاؤون

(*) هناك مجموعة يهود "بخارى" تشير إليها المصادر الصهيونية بشكل مستقل عن يهود الاتحاد السفوييتي.

(**) صفد وطبريا اثنتان من المدن الأربع المقدسة لدى اليهود والاثنتان الأخريان هما القدس والخليل.

(من فيلنا عاصمة ليتوانيا)، يعتاشون على ما تقدمه لهم "منظمات الإحسان يهودية الدينية".

وأول موجة هجرة يهودية منظمة لليهود الروس موجة الهجرة الأولى التي بدأت عام ١٨٨٢ واستمرت حتى عام ١٩٠٣، ونشطت فيها جمعية صهيون أثر المذابح التي ارتكبها الحكم القيصري بيهود روسيا. وكان هؤلاء يسمون يهود "البيلو".

وقد قام يهود هذه الهجرة بأول أعمال الاستيطان في فلسطين حيث أسسوا مستوطنات: ريشون لتسيون عام (١٨٨٢ جنوب شرق تل أبيب)، يسود همعلا (١٨٨٣ في وادي الحولة)، أكرون، نيس تسيون (عام ١٨٩٠ جنوب ريشون لتسيون، الجديرا قطرة) جنوب شرق يافا عام ١٨٨٤، رحفوت بالمشاركة مع البولونيين) جنوب شرق يافا عام ١٨٩٠ وكفار سابا (١٩١٢ سهل الشارون مقابل قلقيلية)، متمارها ياردن (عام ١٨٨٤ قرب جسر بنات يعقوب في الجليل الأعلى، وهديرا، وبيرتوفيا (بين أسدود وسقلان عام ١٩٣٠).

أما موجة الهجرة الثانية التي امتدت من عام ١٩٠٤ وحتى عام ١٩١٤ فقد ضمت عدداً من قادة الحركة العمالية الصهيونية. كان من بينهم: أهرون ادفيد وردن، جوزيف وتكين، ويتسحاق بن زفي (ثاني رئيس للكيان الصهيوني، وبيرل كاتسنلسن (أحد قادة ومؤسسي الهستدروت وحزب مباي، يوسف مبرتزاك، دافيد ريمز، جوزبف تريمبلدور (الذي سميت على اسمه حركة بيتار أو عصبة تريمبلدور والذي في مستوطنة كفار تابور) ويتسحاق تابنكين (من مؤسسي الهستدروت وحزب مباي).

وقد قام أفراد هذه الموجة من اليهود الروس ببناء أول المستوطنات الزراعية مثل بحرية طبريا عام ١٩١٠، مزحافيا في مرج بن عامر عام ١٩١١، وكفار ملال في منطقة كفار سابا عام ١٩٢٢. وساهموا بشكل أساسي في بناء تل أبيب (١٩٠٩) كأول مدينة استيطانية يهودية في فلسطين (مؤسسها وأول رئيس بلدية لها الروسي مئير ديزنجوف).

وكان لهؤلاء مبادرات على صعيد الحياة الاقتصاديّة والثقافية لليشوف اليهوديّ في فلسطين كإقامة الشركة الإنجليزية الفلسطينيّة (مصرف إنجلترا فلسطين) التي هو فرع من التروست اليهوديّ الاستعماري، والتي أصبحت المؤسسة البنكية الأساسية في فلسطين (مؤسسها زلمان دافيد ليفونتين من أصل روسي). كما قاموا بتأسيس أول

المدارس الثانوية اليهوديّة وأول المدارس المهنية، وكانوا نشطاء في إقامة الصناعات النسيجية والخزفية، وأسسوا شركة "آيندا" لصناعة الصابون التي تطورت إلى صناعة "شيمون" الواسعة. وأقام بعضهم مصانع للمعادن، والمكائن، والإسمنت والطوب، والأثاث والدهان وغيرها.

وتذكر موسوعة الصهيونية وإسرائيل أنه كان في فلسطين عشية الحرب العالمية الأولى حوالي "٥٠" ألف يهودي من أصل روسي يشكلون ثلثي عدد اليهود الموجودين في فلسطين في ذلك الحين، والذين قدر عددهم بـ ٨٥ ألفاً.

أما في موجة الهجرة الثالثة (١٩١٩ ـ ١٩٢٤) فقد وصل إلى فلسطين ١٥٨٠٠ مهاجر من اليهود الروس، الذين جاءوا هرباً من التغيرات السياسية والاجتماعية التي أعقبت ثورة أكتوبر الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي، وقد خرجوا بوسائل مختلفة، كذلك هرب من الاتحاد السوفيتي "١٥٥٠٠" يهودي آخر بطرق ووسائل مختلفة في فترة الهجرة الرابعة (١٩٢٤ ـ ١٩٣١) بعضهم جاء عن طريق سيبيريا واليابان.

أما في فترة الهجرة الخامسة (١٩٣٢ ـ ١٩٣٩) والسنوات التي تلتها وحتى قيام الكيان الصهيوني فلم يصل إلى فلسطين سوى "٧" آلاف مهاجر روسي[1] . ويعود الضعف النسبي لتيار الهجرة اليهوديّة من الاتحاد السوفيتي إلى فلسطين في تلك السنوات إلى قوانين المنع السوفييتية إلى محاربة النشاطات الصهيونية داخل الاتحاد السوفيتي.

وعند الإعلان عن قيام الكيان الصهيوني، وحسب أرقام دوائر الهجرة الصهيونية التي توردها المجموعة الإحصائية الإسرائيليّة كان قد هاجر إلى هذا الكيان "٥٢٣٥٠" مهاجراً يهودياً روسياً (في الفترة من عام ١٩١٩ ـ ١٩٤٨ حسب المجموعة). وتشير هذه الأرقام (التي تضم المهاجرين المحتملين أيضاً إلى هجرة حوالي "٢٠" ألف مهاجر يهودي روسي حتى عام ١٩٦٤)[2]، وحسبما تذكر موسوعة الصهيونية وإسرائيل فإن معظم هؤلاء المهاجرين جاءوا في الغالب من المناطق السوفييتية الحدودية.

وقد عادت الهجرة اليهوديّة من الاتحاد السوفيتي إلى النشاط في النصف الأول من عقد السبعينيات بعد حملة ضغط مكثفة قامت بها الدوائر الصهيونية والغربية ضد

(1) Encyclopedia of Zionism and Israel, pp. 983 - 984.
(2) Statistical Abstract of Israel, 1986, pp. 156 - 157.

السياسة السوفيتية في مجال الهجرة. وتشير أرقام المجموعة الإحصائية الإسرائيليّة إلى حوالي "١٦٢" ألف مهاجر (ومهاجر محتمل)(*) في الفترة الممتدة بين عامي ١٩٦٥ و١٩٨٠(١)، وهو أضخم عدد يصل إلى الكيان الصهيوني من اليهود الروس في كلّ تاريخ هجرة هذه المجموعة الإثنية.

أما في السنوات الخمس التالية الممتدة من عام ١٩٨٠ وحتى عام ١٩٨٤ فقد وصل عدد المهاجرين من يهود الاتحاد السوفيتي إلى "١١٤٥٩" (بما فيهم المهاجرين المحتملين) وهبط عدد هؤلاء في عام ١٩٨٥ إلى "٤٨١" مهاجراً فقط.

ولابد من الإشارة هنا إلى أنّ وضع هؤلاء المهاجرين من يهود الاتحاد السوفيتي الذين قدموا في السنوات العشرين الأخيرة لا يجمعه جامع مع وضع المهاجرين الروس الأوائل من أبناء الهجرات الأولى التي جاءت قبل عام ١٩٤٨ بصورة خاصة. حيث يواجه هؤلاء صعوبات ضخمة في مجال التكيف الاجتماعي والاقتصادي. وفي الحصول على سكن أو عمل، ويجد الكثيرون منهم في وضع مأساوي يحاولون التخلص منه عن طريق النزوح والارتداد. وهو ما كان له أثر كبير في ضعف تيار الهجرة في السنوات الأخيرة وارتداد القسم الأكبر من المهاجرين اليهود السوفييت وذهابهم إلى الأقطار الغربية الأخرى بدلاً من إسرائيل.

وتظهر المجموعة الإحصائية الإسرائيليّة إلى أنّه كلما كان عهد الهجرة حديثا كلما ارتفعت نسبة الذين لا يملكون سكناً، ولم يستطيعوا استئجار مسكن ويقيموا في مراكز الاستيعاب ويتواجد هؤلاء في منطقة تل أبيب والمنطقة الوسطى أساساً إضافة إلى منطقة حيفا والمنطقة الجنوبية.

أما عن العدد الإجمالي لليهود الروس في الكيان الصهيوني حالياً، فالمجموعة الإحصائية الإسرائيليّة ١٩٨٦ تشير إلى "٢٩٥٣٠٠" يهودي روسي يقيمون في الكيان الصهيوني (عام ١٩٨٥) هم ممن ولدوا أو ولد آباؤهم في الاتحاد السوفيتي. وبما أنّ اليهود الروس كانوا يشكلون ثلثي يهود فلسطين عام ١٩١٤ أو ما يزيد على "٥٠" ألفاً، إضافة إلى "٣٠" ألف آخرين موجتي الهجرة الثالثة والرابعة، فإنه يمكن إضافة أكثر من ١٠٠ ألف آخرين في موجتي الهجرة الثالثة فإنه يمكن إضافة أكثر من ١٠٠ ألف آخرين

(*) تعتبر دوائر الهجرة الصهيونية كلّ يهودي يعلن عن رغبته في زيارة الكيان الصهيوني على سبيل السياحة أو غيرها. أو يعلن رغبته في زيارة هذا الكيان مهاجراً محتملاً.

(1) Ibid.

ممن تعتبر الدوائر الصهيونية أن بلد الأصل بالنسبة لهم إسرائيل. وعليه فإن عدد اليهود الروس في الكيان الصهيوني يزيد من "٤٠٠" آلف شخص[1].

وهم يقيمون في المدن الثلاث الكبرى القدس وحيفا وتل أبيب، وفي المنطقة الوسطى والجنوبية وخاصة في ريشون لتسيون وأسدود (التي يقيم فيها عدد كبير من اليهود الجوررجيين) وفي مدن طبريا وصفد، إضافة إلى وجودهم في الكيبوتسات ولامؤشافات وخاصة المستوطنات القديمة.

أما عن دورهم في الحياة السياسيّة والاجتماعية والاقتصاديّة للكيان الصهيوني، فيكفي أن نذكر أنّ ثلاثة من رؤساء هذا الكيان هم حاييم وايزمن، ويستحاق ابن زفي، وزلمان شازار، هم من أصل روسي، وإنّ ثلاثة من الرؤساء الستة الذين تسلموا رئاسة الحكومة الكيان الصهيوني، وهم موشي شاريت، وليفي اشكول، وجولدامائير هم من أصل روسي أيضاً.

ومن الشخصيات الأخرى التي برزت في تاريخ الحركة الصهيونية فلاديمير جابوتنسكي زعيم حركة التصحيحيين الصهاينة، ومؤسس حركة بيتار والأب الروحي لحزب حيروت الحالي "ويهودا ليب ميمون" الزعيم المؤسس لحركة مزراحي التي انبثق عنها حزب المفدال الديني "وايجال آلون" مؤسس حزب أحروت "عفودا ـ بو عالي تسيون" ثم حزب العمل وقائد البلماخ، و"موشي دايان" وزير الحرب الصهيوني في حرب ١٩٦٧، وعيزر وايزمن وزير الحرب الأسبق ووزير الدولة الحالي، وكاديش لور من زعماء المباي ورئيس الكنيست الأسبق، وآرييه دولتشين من قادة حزب الليبرالي والرئيس الحالي للمنظمة الصهيونية المالية. ومنهم أيضاً أفرايم كاتسير، والجنرال اهرون ياريف، وموشي آرنس وزير الحرب الأسبق، والجنرال مردخاي غور رئيس الأركان الأسبق، ويتسحاق بيرمان وزير طاقة سابق، كما أنّ يتسحاق رابين وزير الحرب الحالي هو مولود لابوين روسيين في الولايات المتحدة[2].

واليهود الروس، كما أسلفنا ـ هم من أوجد أول موشاف زراعي "نحلال" عام ١٩٢٠ وأول كيبوتس "حين حارود" عام ١٩٢١، وأول مجموعة كيبوتسات "دجانيا" عام ١٩١٠، وأول مجموعة تعاونية وجماعية في سهل مرج بن عامر، ووادي الأردن. ومنهم "بنحاس

(1) Statistical Abstract of Israel, 1986, pp. 156 - 157.

(2) Decision In Israel Foreign Policy, p.854.

روتنبـرغ" صـاحب أول شـركـة كهـرباء في فلسطين، وهـم من أقـام شـركـة أمـلاح البحـر الميت.

واليهـود الروس كانوا أيضـاً القيادات المركزية في المؤسسات الصهيونيـة، وفي اللجنة التنفيـذية الصهيونية، وفي "الفعاد ليئومي"(*)، وفي "الكيـرين كميت (الصنـدوق القومي) والكيـرين هايسـود (الصندوق التأسيسي)" اللذين يعتـبـران من أهم المؤسسـات الماليـة للحركة الصهيونية.

ولليهود الروس روابطهم الخاصة، والتي تعمل أساسـاً في مساعدة المهاجرين الجدد، منها رابطة مهاجري الاتحاد السوفيتي بفروعها في تل أبيب، والقدس، وحيفا، ورابطة مساعدة الصهاينة "الرواد" من الاتحاد السوفيتي (فيفان).

ويمكن القـول أنّ هنـاك اتجـاه للتمـازج بين اليـهـود والروس من المناطق الحـدودية وخاصة من لانفيا، وبيصربيا، وبوكوفينا، واليهود البولونيين. وأنّ الكثيرين من المهاجرين الأزواج من اليهـود الروس والبولونيين، كان أحدهمـا روسي فـيمـا الأخر بولـوني. وتعد نسـبـة تزاوج اليـهـود الروس داخل المجـمـوعـة نفسـهـا من أقل النسب بين المجـمـوعـات الأخرى، وقد تراوحت في السنوات الممتدة بين عامي ١٩٥٢ و١٩٦٢ بين ٢٢٪ و١١٪ في سنوات أخـرى[1]. ومن الطبـيـعي أنّ اتجـاه هؤلاء نحـو الاندمـاج هو في اتجـاه اليـهـود الأوروبيين الشـرقـيين الآخرين والإشكناز عمومـاً. وكمـا سبق وأشـرنا هناك تمايز داخل هذه المجـمـوعـة بين الإثنيـات المكونة لهـا، وكـذلك بين أجـيـال المستـوطنين والمهـاجـرين وخـاصـة بين جيل الصـابرا، وجيل المهـاجـرين الجـدد، الذين يواجهـون مصـاعب الاندمـاج المختلفة وخـاصـة اختـلاف نمط الحياة بين النظام الاشتراكي الذي عـاشوه في الاتحـاد السوفيتي، ونظام الحياة في المجتمع الاستيطاني الصهيوني العنصري.

(*)الفعاد ليئومي: هي الجمعية المنتخبة ليهود فلسطين في عهد الانتداب البريطاني.

(1) Ibid, Moshe Lissak.

الفصل الرابع

اليهود الرومانيون

وهي المجموعة الرابعة من حيث العدد في الكيان الصهيوني، وتأتي بعد مجموعتي البولونيين والروس من حيث المكانة، ومثلهم مثل اليهود الروس بدؤوا هجرتهم إلى فلسطين في القرن التاسع عشر قبل ظهور صهيونية هرتسل. وقد قامت مجموعة "يشوف أرض إسرائيل" من اليهود الرومانيين التي جاءت من موجة الهجرة الأولى (١٨٨٢ ـ ١٩٠٢) بإنشاء مستوطنة: "زخرون يعقوب" (بين حيفا والخضيرة على ساحل الكرمل) عام ١٨٨٢ ومستوطنة "روش بيناه" (في الجليل الأعلى قرب قرية الجاعونة) في العام نفسه، كما أنّهم أول من استوطن "مشمارها ياردن" التي أنشأها اليهود الروس عام ١٨٩٠ ـ كما سبق وأشرنا.

ولم تكن لليهود الرومانيين هجرة ملحوظة إلى فلسطين في فترة الهجرة الثانية (١٩٠٤ ـ ١٩١٤) في حين جاء "١٠٤١" مهاجراً يهودياً رومانياً معظمهم من منطقتي بوكوفينا وبيصربيا(*) في فترة الهجرة الثالثة (١٩١٩ ـ ١٩٢٣) ومعظم هؤلاء المهاجرين كانوا من أعضاء حركتي هشومير هتسعير، وهتسعير صهيون.

أما في فترة الهجرة الرابعة (١٩٢٤ ـ ١٩٣١) فقد جاء من رومانيا مجموعة "٢١٣٢" مهاجراً. وكانت حركات شبابية صهيونية مختلفة في رومانيا تقوم في تلك الفترة

(*)وهي من المناطق التي ضمت إلى رومانيا عقب الحرب العالمية الأولى.

بتدريب الألوف من أعضائها في المزارع، ومراكز التدريب المهنية من أجل إرسالهم للاستيطان في فلسطين.

وفي أعقاب صعود هتلر سدة الحكم في ألمانيا، ارتفعت معدلات الهجرة اليهوديّة من رومانيا إلى فلسطين بسبب ازدياد الضغوط الموجهة ضدهم من قبل الحكومة الرومانية المؤيدة للنازية ففي السنوات الأربع من عام ١٩٣٣ وحتى غاية ١٩٣٦ وصل إلى فلسطين "٩١٢٤" مهاجراً يهودياً رومانيا. ثم انخفضت أرقام هذه الهجرة في السنوات التالية بسبب تفجير الثورة الفلسطينيّة الكبرى (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩)، فلم يصل إلى فلسطين في هذه الفترة سوى "١٠٦٧" يهودياً رومانياً(١).

وفي سنوات الحرب العالمية الثانية وعلى الرغم من وجود حكومة رومانيا ضمن التحالف الذي تتزعمه ألمانيا النازية، إلاّ أنّ هذه الحكومة لم تتبع سياسة القضاء على السكان اليهود، بل سياسة تهجيرهم إلى فلسطين، حيث كانت رومانيا القطر الأوروبي الوحيد الذي يستطيع اليهود السفر منه بحرية إلى فلسطين، بل وكانت موانئها على البحر الأسود تهيئ السبل والوسائل لنقل اليهود الذين يلتجئون إليها إلى فلسطين، "ويبدو أنّ ذلك كان ضمن سياسة مرسومة ومتفق عليها بين التحالف النازي والصهيونية للإبقاء على قطر يكون منفذاً لتهجير اليهود إلى فلسطين".

وفي عمليّة واحدة انتقل إلى فلسطين عبر موانئ رومانيا "١٤" ألف يهودي جاءوا على متن ٣١ سفينة.

وبعد تحرير رومانيا من الاحتلال النازي على يد الجيش الأحمر السوفيتي تضاءلت أرقام الهجرة اليهوديّة إلى فلسطين بسبب منع السلطات الاشتراكية في رومانيا هجرة اليهود.

وتشير معطيات دوائر الهجرة الصهيونية التي وصل إلى فلسطين حتى عام ١٩٤٨ عدداً من المهاجرين يبلغ "٤١١٠٥" مهاجراً يهودياً رومانياً. وظل الأمر على هذا الحال حتى عام ١٩٤٩ أصبحت السلطات الرومانية تعطي أذون هجرة تحت الظروف الاجتماعية للمعاقين، وكبار السن..." وق أدى ذلك إلى خروج تيار ضخم من المهاجرين اليهود الرومان بلغ في الفترة الممتدة من عام ١٩٤٩ وحتى عام ١٩٥٢: "١٠٩ آلاف

(1) *Ibid, Statistical Abstract, pp. 150 - 151.*

مهاجر".

وأثر خروج هذا السيل الضخم من اليهود الرومانيين تشكلت في رومانيا هيئة رسمية باسم لجنة اليهود الديمقراطيين. وقامت بشن حملة مكثفة ـ ضد عمليّة الهجرة اليهوديّة من رومانيا إلى الكيان الصهيوني، أكدت خلالها أنّ هذه العملية تستهدف إعاقة التطور الاشتراكي في رومانيا وتخريبه، شارحة حقيقة الوضع في الكيان الصهيوني وجملة الصعوبات الاقتصاديّة و الاجتماعية والمعيشية التي يواجهها المهاجرون اليهود وقامت الحكومة الرومانية عام ١٩٥٤ بمحاكمة حوالي "١٢٠" صهيونياً في رومانيا ممن كانوا يتزعمون حملة الدعاية الصهيونية للهجرة اليهوديّة.

وبالمقابل قامت الحركة الصهيونية والهيئة الدولية المؤيدة لها بشن حملة ضغط مضادة نجحت في عام ١٩٥٥ بالحصول على بعض تصاريح هجرة تحت ستار جمع شمل العائلات ثم عادت الحكومة الرومانية عام ١٩٦٣سمحت بإعطاء أذون خروج للراغبين من فيهم بعض الاختصاصيين(١).

وتشير أرقام دوائر الهجرة الصهيونية إلى أنّ "٩٦" ألف يهودي روماني قد هاجروا إلى الكيان الصهيوني بين عامي ١٩٥٢ ـ ١٩٦٥، وأن حوالي ٤١ ألفاً آخرين، قد جاءوا إلى الكيان الصهيوني في ما بين عامي ١٩٦٥ ـ ١٩٨٠، كما جاء "٧٢٠١" مهاجراً آخر وصلوا في السنوات من ١٩٨٠ ـ ١٩٨٤، وأن ١٣٦٢ مهاجراً آخر في عام ١٩٨٥(٢).

وهذه الأرقام تدل على أنّ تيار الهجرة اليهوديّة من رومانية مازال مستمراً وإن يكن بوتيرة أضعف كثيراً ممّا عليه في سنوات الخمسينات والستينات، ولكنه الأقوى من كلّ الدول في عام ١٩٨٥ بعد الولايات المتحدة.

أما بالنسبة للعدد الإجمالي لليهود الرومانيين في الكيان الصهيوني حالياً، فالمجموعة الإحصائية الإسرائيليّة تشير إلى وجود "٢٨٠٥٠٠" يهودي روماني عام ١٩٨٥ ممن ولدوا أو ولد آباؤهم في رومانيا. ويمكن أن نضيف إلى هؤلاء ما بين "٤٠ ـ ٥٠" ألفاً آخرون ممن جاء أجدادهم في فترة الانتداب البريطاني أو قبلها، وتعتبر الدوائر الصهيونية أنّ بلد الأصل بالنسبة لهم إسرائيل. وعليه يكون إجمالي عددهم في حدود "٣٢٠ ـ ٣٣٠" ألفاً.

(1) Ibid, Encyclopedia, pp. 959 - 960.
(2) Ibid, Statistical Abstract, pp, 150 - 151.

وأنّ تركيب مجموعة اليهود الرومانيين من حيث تاريخ الهجرة بين أنّ نسبة المهاجرين المستوطنين منهم من جيل الصابرا، هي أقل من نسبة البولونيين أو الروس وأن النسبة العظمى منهم حوالي ٨٥٪ قد جاءت بعد قيام الكيان الصهيوني، وهو أمر يؤثر في مكانة هذه المجموعة ويجعل منافستها للمجموعتين الأكبر(*) ضعيفة حكماً. كما أنّه يجعل أفراد هذه المجموعة أقرب عهداً بالارتباط بثقافتها الرومانية وأضعف اندماجاً في الحياة الإسرائيلية أما بالنسبة لمساهمة اليهود الرومان في عمليّة الاستيطان الصهيوني في فلسطين (قبل عام ١٩٨٤ بشكل خاص) فقد أسس هؤلاء كيبوتس "معبروت" (في وادي الحوارث عام ١٩٣٣ من قبل اليهود الرومانيين التابعين للكيبوتس القطري) "وشعارها عماكيم" (١٩٣٥ في تلال طبعون بين حيفا والناصرة، و"ساريد" (في مرج بن عامر عام ١٩٢٦) "ودالياه" (على الطرف الجنوبي لمرج بن عامر على أراضي قرية الدفوف العربية عام ١٩٣٩) "ورحوما" (على أراضي خربة جمامة العربيّة في شمال النقب إلى الشرق من غزة عام ١٩٤٤) و"شامير" (في وادي الحولة قرب المطلة عام ١٩٤٤).

كما كان اليهود الرومانيون المساهمين الأساسيين في بناء "مدينة الحدائق" الاستيطانية اليهوديّة على جبل الكرمل في جيفا عام ١٩٢٥، وأسسوا كذلك مستوطنة "سابينا" على خليج عكا بين عكا وحيفا.

وخلال الحرب العالمية الثانية أنشأ المهاجرون اليهود الرومانيون كيبوتسات "رشافيم" (في وادي بيسان عام ١٩٤٨) "وزيكيم، (على بعد ١٢ كم جنوب عسقلان عام ١٩٤٩)، و"ماجن" (في النقب الشمالي عام ١٩٤٩)، وبالإجمال فقد بنوا حوالي ربع الكيبوتسات التي بناها الكيبوتس القطري التابع لحركة "هشومير هتسعير".

وكان للحركات الصهيونية المختلفة الرومانية مساهماتها الخاصة في عمليّة الاستيطان فقد أقامت حركة جردونيا الصهيونية الرومانية "مسادا" (قرب طبرية)، وجولدا، ونيرعام (شمال شرق غزة)، جانيتا ... وأقامت حركة دور الصهيونية ... بيت عورن (جبل الكرمل) "هشلموت"، ياغور (خليج حيفا)، مسجاف عام (على الحدود

(*) البولونيون والروس.

اللبنانيّة) محنايم (جسر بنات يعقوب)، "بيت جوفرين" عند قرية بيت جبرين في جبل الخليل("جيشر " (شمال نهاريا مكان بلدة الزيب العربيّة) كما أنشأت حركة هابونيم ترانسلفانيا (مستوطنة "معجان" منطقة طبريا قرب سمخ). وأقامت مجموعة بين عكيفا الدينية الرومانية : كيبوتس يافن، وشاركت في بناء: ألوميم، وكفار عتسيون (جنوب شرق بيت لحم)، كفار حسديم (خليج حيفا).

أما مجموعة بيتار الصهيونية فقد شاركت في بناء كفار سابا، ورامات تيوموكين وتل تسور، ورامات رزانيل (في جبل القدس). وأقام أعضاء هعوفيد هتسيوني، وحركته العمالية هتوعد هتسيوني: مستوطنة أوشا (بين حيفا وشفا عمر، وكفار جليكسون منطقة الخضيرة، ونيشانيم "جنوب سدود" وكفار شموئيل (المنطقة الرملة، وتالم يافا، وآلون أيا...).

وكان المهاجرون اليهود الرومانيون قد أنشأوا في سنوات (١٩٣٣ ـ ١٩٣٦) حوالي "١٩" موشافا جديداً، وشاركوا مجموعات عرقية أخرى في استيطان ٢٤ موشافاً آخر.

وفي عام ١٩٤٤ بنى اليهود الرومانيون "جفعات شموئيل" المجاورة لمدينة بني براك الاستيطانية. ومن الشخصيات المعروفة في الكيان الصهيوني من اليهود الرومانيون الوزاريين "يتسحاق بن أهرون" و"زئيف شاريمن"، ومنهم أيضاً "مئير زوريع" جنرال الاحتياط وعضو سابق في الكنيست. ومنهم أساتذة في الجامعات الصهيونية في مختلف الاختصاصات، وكتاب وصحافيون وموسيقيون وفنانون.

ولليهود الرومانيون شأن اليهود الروس والبولونيين، منظمات وروابط خاصة بهم مثل: منظمة بني برايت بفروعها في القدس وتل أبيب، ورابطة "قدماء القادة الرومانيين" بفروعها في القدس وحيفا وتل أبيب، ورابطة الأعضاء القدامى في "هاسوفينا" مدينة في رومانيا)، ومنظمة طلبة "بوخارست" الصهيونية، ومنظمة طلبة أياس الصهاينة . (أياس مدينة في رومانيا أيضاً)...

أما منظمة مهاجري رومانيا فكانت قد أنشئت قبل الحرب العالمية الثانية لمساعدة المهاجرين الرومانيين الجدد وتسهيل عمليّة اندماجهم وتكيفهم مع الوسط الاستيطاني الصهيوني في فلسطين ، وقد تفرعت على أساس إثني وسياسي من هذه الرابطة رابطتان عام ١٩٦٠، إحداهما ليهود "بوكوفينا" تصدر صحيفة باللغة الألمانية، والثانية ليهود "بيصربيا، تصدر صحيفة باللغة الاديشية. هذا في الوقت الذي كانت فيه لليهود

الرومانيين عموماً صحيفة باللغة الرومانية هي صحيفة "نياتسرا " التي بدأت الصدور عام ١٩٥٥، وصحيفة "يوج كيلط" باللغة الهنجارية(*) التي بدأت الصدور عام ١٩٤٨(١).

ولكل حزب سياسي في الكيان الصهيوني نشاط وأتباع في أوساط اليهود الرومانيين وتقوم هذه الأحزاب بإصدار نشرات دعائية انتخابية باللغة الرومانية وأوقات الحملات الانتخابية للكنيست وللمجالس والبلدية. كما تضم قوائم هذه الأحزاب لهذه الانتخابات باستمرار أسماء من اليهود الرومانيين.

وبالنسبة لعملية اندماج اليهود الرومانيين في المجموعات العرقية الأحزاب الموجودة داخل الكيان الصهيوني فإنه يمكن القول أنّ توجه هؤلاء للاندماج أضعف من اليهود الروس، وحتى من البولونيين حيث تشير نسب الزواج داخل مجموعتهم إلى أرقام مرتفعة تراوحت بين نسبة ٧٠٪ عام ١٩٥٢ و٥٨٪ عام ١٩٦٢(٢). ولكنها تتجه نحو التناقض كما هو ملاحظ. واتجاه الاندماج عند هؤلاء أيضاً هو نحو المجموعات القريبة منهم من الأوروبيين الشرقيين واليهود الإشكناز على وجه العموم.

وتشتد صعوبات الاندماج على وجه الخصوص المهاجرين الذين جاءوا بعد عام ١٩٦٢ حيث أنهم في مجتمع اشتراكي، وليس لديهم أفكار واضحة الصهيونية ولا معرفة باللغة العبرية، وقد تم التركيز عليهم في الجيش الصهيوني بوضع برامج تعليم خاصة لهم. وقد واجه المحامون ورجال القانون صعوبات تتعلق باختلاف الدستور، والوضع القانوني بين روس و الكيان الصهيوني ، كما واجه كبار السن والمتقاعدون صعوبات زائدة في التكيف مع الوضع الجديد.

"بوكوفينا"

يهود بوكوفينا كجزء متميز له قومية خاصة اليهود الرومان، "النمسا هنجاريا" قبل الحرب العالمية الأولى. إلى رومانيا انتهت فترة الازدهار البحبوحة اليهود في عهد آل هسبورغ "ممّا نتج عنه واسعة في أوساطهم في فترة ما بين الحربين".

بعد قيام الحركة الموالية للنازية في رومانيا وإعلانها على الاتحاد السوفيتي عام ١٩٤١، جرت عمليّة جماعي ليهود "بوكوفينا".

(*) قسم كبير من المهاجرين اليهود من رومانيا لغتهم الأم اللغة النهجارية.

(١) حبيب قهوجي، الصحافة والمجتمع الإسرائيلي، دمشق ١٩٧٤.

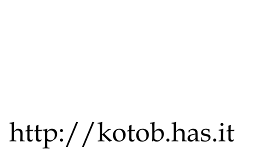
(2) Ibid, Moshe Lissak.

وقد أنشأ يهود كلّ مدينة في "بوكوفينا" اتحاداً للمساعدة المتبادلة في الكيان الصهيوني استفاد منه القادمون الجدد بوجه خاص. كما عملت هذه على مطالبة ألمانيا الاتحادية بتعويضات عن التي لحقت بيهود بوكوفينا في العهد النازي.

بين الشخصيات التي برزت في الكيان الصهيوني بوكوفينا: "بيرل لوكر" عضو الجنة التنفيذية (١٩٣١ ـ ١٩٥٦) ورئيس بلدية القدس في من ١٩٤٨ ـ ١٩٥٦. وكذلك "يهود أسفارى" مثل الحزب التقدمي في الكنيست بين عامي ١٩٥٦.

ومن المؤسسات الاقتصاديّة التي أقامها يهود بوكوفينا: مؤسسة النسيج "أرجمان" ومؤسسة "افايتر إخوان" للخدمات العامة(١).

(1) *Encyclopedia of Zionism and Israel, p 198.*


http://kotob.has.it

الفصل الخامس

مجموعة يهود تشيكوسلوفاكيا وهنغاريا

مجموعة يهود تشيكوسلوفاكيا

بدأ يهود تشيكوسلوفاكيا في الهجرة إلى فلسطين بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، وصدور وعد بلفور، من الحركات الشبابية، وحركات الحالوتس التابعة للأحزاب الصهيونية المختلفة. ويقدر عدد يهود تشيكو سلوفاكيا الذين نجحت هذه الأحزاب في تهجيرهم من فلسطين في الفترة بين عامي ١٩١٨ ـ ١٩٣٨ نحو أربعة آلاف مهاجر.

وقد شارك المهاجرون من يهود تشيكوسلوفاكيا بناء واستيطان الكيبوتسات: حفتسي باح (شرق مرج بن عامر) ساريد (في مرج بن عامر وسبق ذكره حيث إقامة اليهود الرومان) جفعات حاييم (في وادي الحوارث)، وجان شموئيل (في شرق الخضيرة)، وبير يتسحاق (في السهل الساحلي إلى الشرق من تل أبيب) ومعجان (إلى الشرق من طبريا) ونئوت مردخاي، (في وادي الحولة)، وشعارها جولان (في منطقة طبريا)، وسعد ناحوم (إلى الغرب من بيسان) وتل يوسف (على طريق العفولة بيسان في وادي حاردو) ونير عتسيون على السفوح الغربية لجبل الكرمل بين حيفا والخضيرة) كفار مكابي (خليج حيفا) حاهوتريم (ساحل الكرمل قرب قرية الطنطورة)، لحفوت هافيت (في منطقة

الشارون الشمالي قرب الخضيرة)، دوردت (جنوب شرق عسقلان)، مغيت (شرق الخضيرة) أوجين (الشارون الأوسط) وكفار سوريك (عام ١٩٣٩ على خليج حيفا).

وقد تزايدت هجرة يهود تشيكوسلوفاكيا عقب قيام ألمانيا بضم النمسا عام ١٩٣٨ واحتلالها لمنطقة السوديت عام ١٩٣٩. ففي هذه الفترة هاجر "١٣٣٥" يهودي معظمهم من زعماء الصهاينة في منطقتي بوهيميا ومورافيا.

وفي الفترة من عام ١٩٣٩ وحتى عام ١٩٤٨ هاجر "٤٥٦١" يهودي تشيكوسلوفاكي إلى فلسطين ضمن الهجرة غير المشروعة (تهريب) خلال الحرب والتحق بهم عدد كبير ممن كانوا في معسكرات الناجين. كما جاء حوالي "١٠٠٠" يهودي آخر ممن كانوا يخدمون في "الفرقة اليهوديّة التي كانت تعمل مع الحلفاء في الحرب العالمية الثانية. وخلال حرب فلسطين عام ١٩٤٨ انضم إلى العصابات اليهوديّة حوالي "٢٠٠٠" من المتطوعين من يهود تشيكوسلوفاكيا وبالإجمال كان في فلسطين حوالي "١٧" ألف مستوطن يهودي تشيكوسلوفاكي عند الإعلان عن قيام الكيان الصهيوني عام ١٩٤٨ أي حوالي ٢/٥ عدد اليهود الرومانيين و١/٦ اليهود الروس و١/١٠ اليهود البولونيين.

وفي الأعوام التي تلت قيام الكيان الصهيوني وحتى عام ١٩٥٢ جاء إلى هذا الكيان حوالي "١٩" ألف مهاجر يهودي تشيكوسلوفاكي يمثلون نصف عدد اليهود الذين كانوا موجودين في ذلك البلد. ثم ضعف تيار الهجرة بحيث لم يتجاوز العدد السنوي ألـ "١٠٠" مهاجر سنويا بعد إن منعت السلطات التشيكية الهجرة اليهوديّة رسمياً[1]. وحتى عام ١٩٦٥ وصل ١٦٨٨ مهاجر آخر (بما فيهم المهاجرون المحتملون). وفي عام ١٩٨٥ أشارت أرقام ودوائر الهجرة الصهيونية إلى "٣٢" مهاجراً ومهاجراً محتملاً فقط أي أنّ هذه الهجرة توقفت من الناحية العملية[2].

أما عن العدد الحالي لليهود من أصل تشيكوسلوفاكي في الكيان الصهيوني، فالمجموعة الإحصائية الإسرائيليّة لعام ١٩٨٦ تشير إلى ألفاً من مواليد تشيكوسلوفاكيا، أما مواليد إسرائيل من آباء تشيكوسلوفاكيين فهي تجملهم مع يهود هنغاريا وآخرين يبلغ عددهم "٤٤" ألفا، يقارب يهود تشيكوسلوفاكيا حوالي خمسهم. وإذا أضيف إليهم من ولد آباؤهم في إسرائيل، وهم ليسوا كثرة فيمكن تقدير عدد يهود

(1) *Ibid, Encyclopedia, p. 234.*

(2) *Ibid, Statistical Abstract, p. 150 - 151.*

تشيكوسلوفاكيا بما بين "٣٠ ـ ٤٠" ألفاً.

ويمكن القول أنّه كان ليهود تشيكوسلوفاكيا دور هام في المجال الاقتصاديّ في بناء المشروع الصهيوني، وخاصة من جاء منهم في عامي ١٩٣٨/ ١٩٣٩، حيث أحضر هؤلاء ثرواتهم معهم وكانوا من الزعماء والأغنياء. وقد ساهموا في بناء المستوطنات الزراعية، وإقامة المشروعات الصناعية وخاصة في مجال الصناعات النسيجية وصناعة الملابس والأحذية، والأدوات البلاستيكية.

وهؤلاء اليهود حسنو الاندماج في التجمع الاستيطاني الصهيوني، ولا يوجد عدد كبير من المهاجرين الجدد منهم، وهم متواجدون في مختلف فروع الاقتصاد الثقافة، والجيش، والسلك الدبلوماسي. كان منهم أول رئيس لبلدية حولون حاييم كول وصحفيون معروفون مثل "موشي زنيبار" في صحيفة "عل همشمار" و"موشي تابور" في "صحيفة معريف".

وبالنسبة لمعدلات زواجهم داخل المجموعة فقد تراوحت هذه المعدلات بين ٢٥٪ عام ١٩٥٢ و١٦٪ عام ١٩٦٢ وهي معدلات منخفضة نسبياً تماثل معدلات اليهود الروس. وهم يندمجون في المجموعات المماثلة لهم واليهود الأوروبيين الشرقيين الإشكناز، شأنهم شأن المجموعات السابقة.

واليهود التشيكوسلوفاكيين موجودين أساساً مدينتي حيفا وتل أبيب وضواحيها والكيبوتسات والمستوطنات التي سبق ذكرها.

مجموعة يهود هنغاريا

وهي تماثل مجموعة يهود تشيكوسلوفاكيا من حيث الحجم وتاريخ الهجرة تقريباً. وقد كان اليهود يأتون كأفراد من هنغاريا خلال العهد التركي، واحتلاله من هنغاريا وفلسطين في "المدن المقدسة". وخاصة صفد والقدس. ومثلهم مثل باقي اليهود الذين كانوا يأتون في القرن الماضي إلى فلسطين ، كان هؤلاء على ما تقدمه لهم "منظمات الإحسان اليهوديّة" وخاصة في بلداتهم الأصلية.

وفي هذا الصدد تذكر بعض المصادر الصهيونية أنّ حوالي "٢٠" أسرة يهودية نقلها الحكم التركي في القرن السادس عشر من مدينة "بودا" في المجر إلى مدينة صفد ليتحول أفرادها وليصبحا من الطائفة السفاردية. وتذكر تلك المصادر أنّ عدداً آخر من

اليهود الهنغار انتقلوا إلى فلسطين في القرن التاسع عشر بعد نشوب انتفاضة هنغاريا ضد النمسا (١٨٤٨ / ١٨٤٩) وليستوطنوا في القدس، صفد، طبريا ويافا، وليعيشوا على ما تقدمه لهم منظمات الإحسان اليهوديّة النهغارية. وبعض هؤلاء من الذين كانوا يقيمون في حي مئة شعار بالقدس. كانوا من المشاركين في إقامة مستوطنة "بتاح تكفا" عام ١٩٨٢ مع اليهود الروس والبولونيين.

أما في القرن الحالي فلم تبدأ هجرة اليهود من "هنغاريا" والأقاليم التي أعيدت لها بعد الحرب العالمية الثانية، إلاّ بعد أنّ وضعت فلسطين تحت الانتداب البريطاني.

قد جاءت أول موجة منهم في عام ١٩٢١، وضمت سكانها عدداً من المهندسين كان من بينهم "جوزيف بروير" والذي ترأس مشروع ري مصرف "وادي يزراعيل" (مرج بن عامر)، و"أرباد أغوت" الذي بني مصنع نيشر للإسمنت في حيفا.

ونشطت الهجرة اليهوديّة من "هنغاريا" نوعاً ما في الفترة الممتدة بين عامي ١٩٢٤ و١٩٣٩ حيث وصلت عالم ١٩٣٩، قبل الحرب العالمية الثانية مباشرة مجموع هؤلاء المهاجرين حتى عام ١٩٤٨ حوالي "١٢" ألف مهاجر.

وتشير المجموعة الإحصائية الإسرائيليّة إلى وجود "٢٢٩٠٠" مستوطن يهودي هنغاري في الكيان الصهيوني ١٩٤٩. أما موسوعة الصهيونية وإسرائيل فهي تشير إلى وجود "٣٠" ألف يهودي هنغاري في الكيان الصهيوني عام ١٩٦١، ذاكرة أنّ "١٥" ألف شخص قد جاءوا عقب قيام هذا الكيان. وتذكر تلك الموسوعة أيضاً: "أنّه كان هناك في عام ١٩٦٦ حوالي "١٩" ألفاً من اليهود اليوغسلاف والرومانيين، والتشيكوسلوفاكيين والنمساويين إضافة إلى الهنغاريين لغتهم الأم اللغة الهنغارية".

وبالإجمال يقدر عدد اليهود "الهنغاريين" في الكيان الصهيوني حالياً بحوالي "٤٠" ألفاً (بحساب ٣٠ ألفاً عام ١٩٦١، و"٤" آلاف آخرين تشير إليهم أرقام دوائر الهجرة منذ ذلك العام وحتى عام ١٩٨٢، والتزايد الطبيعي خلال تلك الفترة).

واليهود الهنغاريين يتواجدون في مدن حيفا وتل أبيب والعديد من المدن الاستيطانية والكيبوتسات الأخرى. ولأفراد هذه المجموعة اتحاداتهم وروابطهم الخاصة، منها: الاتحاد الدولي لليهود الهنغاريين، ومركزه في تل أبيب ولهم فروع في المدن الاستيطانية الأخرى في الكيان الصهيوني.

وهناك منظمات تخص المهاجرين من كلّ مدينة في هنغاريا: كمنظمة مهاجري "بودابست" ومنظمة مهاجري "كاسا" ... الخ [1].

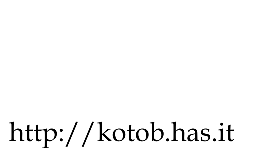
كما أنّ هناك جمعيات لأتباع الأحزاب المختلفة: فأعضاء "الصهيونيين العموميين (الليبرالي حالياً) قد أنشئوا "جمعية بن هرتسل". وأعضاء حزب المباي أنشئوا نادي "حولون أيج". كما أنشأ اليهود الهنغار "بيت نورداو" في المدينة الاستيطانية "بني برايت". ومن الشخصيات المعروفة التي برزت منهم في الكيان الصهيوني "دافيد زفي بنحاس" الذي كان وزيراً للنقل في حكومة (١٩٥١ ـ ١٩٥٢) الصهيونية. ولهم دور في الحياة السياسيّة يفوق نسبة حجمهم أحياناً، ففي كنيست عام (١٩٦٥ ـ ١٩٦٩) كان منهم "٥" أعضاء.

ووجود اليهود الهنغاريين في الحياة الأكاديمية والثقافية أكثر بروزاً أيضاً، فمنهم أساتذة في الجامعة العبرية، وجامعة بار إيلان، وفي معهد التخنيون، وفي جامعة تل أبيب. ومنهم صحافيون معروفون مثل: "حنة زيمر" رئيسة تحرير جريدة دافار، و"دافيد جلعادي" في صحية "معريف"، و"باروخ بِير" في هآرتس.

كما لعبوا دوراً متميزاً على الصعيد الاقتصادي، وخاصة في تطوير الأسطول التجاري الصهيوني. وتنطق بالهنغارية صحيفة "يوج كيلط" التي سبقت الإشارة إليها في الحديث عن اليهود الرومانيين.

وهذا الوضع يدل على أنّ هذه المجموعة العرقية حسنة الاندماج في التجمع الاستيطاني الصهيوني، واندماجها هو باتجاه المجموعات القريبة منها من اليهود الإشكناز والأوروبيين الشرقيين خاصة الذين توجد بينهم مجموعات كبيرة ناطقة بالهنغارية كما سبق وأشرنا. وقد تراوحت معدلات الزواج داخل مجموعتهم بين ٤٣٪، و٢٨٪ في السنوات الممتدة بين عامي ١٩٥٢ و١٩٦٢ . وهي نسبة أعلى منها لدى اليهود التشيكوسلوفاك والروس، وأخفض منها عند اليهود البولونيين و الرومانيين.

(1) Ibid, Statistical Abstract, p. 67 - 70.
(2) Ibid, Moshe Lissak, p. 56 - 47.



الفصل السادس

اليهود البلغاريون

يشكل اليهود البلغاريون مجموعة عرقية أكبر حجماً من حجم المجموعتين العرقيتين لليهود التشيكوسلوفاك والهنغاريين في الكيان الصهيوني ، حيث يبلغ عدد أفرادها "٦٠" ألفاً تقريباً حسب المصادر الإسرائيليّة[1]، التي تشير إلى أنّه لم يبق في بلغاريا سوى خمسة آلاف يهودي فقط.

لقد بدأت هجرة اليهود البلغاريين إلى فلسطين في أواخر القر الماضي على مستوى الأسر التي لم يزد عددها عن العشر، والتي قامت ببناء مستوطنة عرتوف[*] عام ١٨٩٦.

أما في القرن الحالي فلم تحدث هجرة ملحوظة من يهود بلغاريا إلاّ بعد عام ١٩٢٠، وبمعدلات قليلة بالنسبة للمجموعات الأخرى، وحتى عام ١٩٤٨ بلغ عدد اليهود البلغاريين في فلسطين ٧ آلاف مستوطن، كان أغلبهم يسكن في مدينة تل أبيب إضافة إلى مجموعتين صغيرتين في مدينتي حيفا والقدس.

أما في عمليّة الاستيطان فبالإضافة إلى مستوطنة "عرتوف" التي سبق ذكرها وأقيمت في أواخر القرن الماضي، أقام اليهود البلغار مستوطنتي: كفار عيثم، وبيت حنان (في منطقة ريشون لتسيون جنوب شرق يافا).

(1) Encyclopedia of Zionism and Israel, p 170.

(*)*في أطراف جبل الخليل عند تخوم السهل الساحلي.*

وعقب الإعلان عن قيام الكيان الصهيوني عام ١٩٤٨ وصل إلى هذا الكيان حوالي "٣٨" ألف مهاجر من اليهود البلغار في السنوات الثلاث الأولى لقيامه، ثم أخذت أرقام الهجرة في التضاؤل بحيث لا يزيد الرقم الذي تورده دوائر الهجرة الصهيونية لعدد المهاجرين والمهاجرين المحتملين من اليهود البلغار طيلة السنوات الثلاثين التالية عن "٢٥٠٠" مهاجر، ويعود ذلك أساساً لضآلة عدد اليهود الباقين واستمرار أوضاعهم، ولسياسة الدولة البلغارية الاشتراكية في مجال الهجرة اليهوديّة. وفي عام ١٩٨٥ لم تسجل دوائر الهجرة الصهيونية قدوم أي يهود بلغاري إلى الكيان الصهيوني[1].

ويقيم اليهود البلغاريون الذين يبلغ عددهم حالياً "٦٠" ألفاً تقريباً ـ كما سبق وأسلفنا ـ بشكل أساسي في تل أبيب (بواقع ٨٠٪ منهم). كما يقيم "٧" آلاف آخرين في مدينة حيفا، إضافة إلى أعداد قليلة في حي البقعة في القدس، وفي مدينة صفد، واللد، وعكا، وطبريا. كما يسكن عدد من اليهود البلغاريين في مستوطنات، تل حنان، كفار موشي، وتسور موشي (في السهل الساحلي في المنطقة السماء الشارون الأوسط).

وهم كمجموعة عرقية مندمجون بشكل جيد في الحياة الثقافية والاقتصادية خاصة، وأنه لا يوجد بينهم الكثير من المهاجرين الجدد، ومنهم أساتذة في جميع المجالات الآكاديمية، وفي الأقسام المختلفة بالجامعة العبرية، ومعهد وايزمان للعلوم في رحبوت، وفي صفد التخنيون في حيفا. ومن مساهماتهم في الاقتصاديّ الصهيوني تأسس بنك "أفحا" وبنك "كوبات أليا" التعاوني[2] .

ويوجد منهم مسؤولون في الهستدروت وفي مختلف المجالات الاقتصاديّة. ومن أبرز الشخصيات الصهيونية من أصل بلغاري "فيكتور شيمطوف" وهو زعيم لحزب المبام وتسلم العدد من الحقائق الوزارية.

أما نسبة الزواج داخل هذه المجموعة منذ تراوحت بين ٦٥٪ عام ١٩٥٢ و٣٧٪ عام ١٩٦٢ وهي نسبة متوسطة أعلى ممّا هي لدى اليهود الهنغاريين و التشيكوسلوفاكي والروس، ولكنها أدنى ممّا هي عند البولونيين عن اليهود الرومانيين.

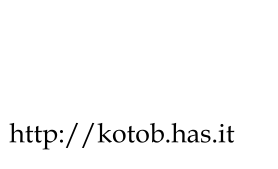
واليهود البلغار في الكيان الصهيوني علمانيون عموماً، وليس ليدهم أي نشاط أو ارتباط بالمجالات الدينية اليهوديّة في هذا الكيان. وقد بقيت اللغة البلغارية سائدة في

(1) Statistical Abstract of Israel, 1986, pp 150 - 151.
(2) Ibid, Moshe Lissak.

أوساط هذه المجموعة مع أنّ الجيل الصغير يتحدث العبرية الي جانب اللغة الأم .. وجميع الأحزاب الصهيونية تصدر باللغة البلغارية.

هناك رابطة ليهود بلغاريا في الكيان الصهيوني يقتصر عملها على مساعدة المسنين البلغار، وعلى متابعة المسائل المتعلقة بأملاك هؤلاء اليهود في بلغاريا(١). المجموعة صحيفة بالعبرية أسمها "فارترنيونا" فرقة فنية يهودية بلغارية تعتبر الأفضل بين الفرق الفنية في إسرائيل.

(1) Encyclopedia of Zionism and Israel, p 169.


http://kotob.has.it

الفصل السابع

يهود يوغوسلافيا

لا تعتبر مجموعة يهود يوغسلافيا (الذين جاءوا من المناطق التي تقع ضمن اتحاد الجمهوريات يوغسلافية حالياً) مجموعة ذات أهمية بارزة الكيان الصهيوني ، على الرغم من أنّ عدد أفرادها يتجاوز الـ١٠ آلاف مستوطن. ولا توجد إشارة إلى وضع هذه المجموعة أو مساهماتها في عمليّة الاستيطان الصهيونية.

ويبدو أنّ القسم الأكبر من يهود يوغوسلافيا هاجر إلى غير الكيان الصهيوني، فالمصادر الصهيونية تشير إلى أنّه كان في يوغسلافيا عقب الحرب العالمية الأولى ما يزيد على ٦٠ ألف يهودي (أي أكثر من عدد الذين كانوا في بلغاريا)، وأنّ عدد هؤلاء زاد ٧٥ ألفاً عشية الحرب العالمية الثانية، وهي أيضاً تشير إلى أنّه يعد في يوغسلافيا يهود حالياً.

وعند قيام الكيان الصهيوني لم يكن فيه أكثر من ٢٠٠٠ مستوطن يهودي يوغسلافي، وبعد قيامه حوالي ٧٠٠٠ آخرين[1].

ومن مساهمات اليهود اليوغسلاف في عمليّة الاستيطان الصهيوني أقامتهم لمستوطنة "بيت شعاريم" في مرج بن عامر ١٩٣٦ كمستوطنة زراعية.

وهذه المجموعة حسنة الاندماج تتراوح نسبة الزواج داخل المجموعة بين ٣٢٪ عام ١٩٥٢ و١٨٪ عام ١٩٦٢، وهي نسبة منخفضة بالنسبة لما هو الحال عند المجموعات

(1) Ibid, Statistical Abstract.

الأخرى تماثل وضع اليهود الروس، والتشيكوسلوفاكي تقريباً.

ومن الشخصيات المعروفة في الكيان الصهيوني وتعود في أصلها إلى اليهود اليوغسلاف وزير الشرطة ورئيس الأركان سابقاً واحد القادة البارزين في حزب العمل "حاييم بارليف".

وما دمنا بصدد الحديث عن يهود أوروبا الشرقية بما فيهم مجموعات من اليهود في شبة جزيرة البلقان فلابد من التطرق إلى مجموعة "اليهود اليونانيين" (وأن تكن اليونان تقع ضمن التحالف الغربي وليس ضمن أوروبا الشرقية حسب الجغرافية السياسيّة الحالية).

وهي مجموعة غير بارزة، لا تتطرق المصادر الصهيونية إلى وضعها أو دورها شأنها شأن مجموعة اليهود اليوغسلاف.

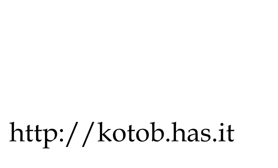
واليهود اليونانيون من اليهود السفارديين، كان عددهم في فلسطين عشية قيام الكيان الصهيوني حوالي ثمانية آلاف يهودي يوناني، هاجر في الأعوام الثلاثة التالية حوالي "ألفين" آخرين بحيث أصبح عدد هؤلاء حوالي عشرة آلاف مستوطناً، وفي السنوات الأخيرة لم تعد هناك هجرة من اليونان في حين كانت بضع عشرات في سنوات الستينات والسبعينات.

أما بالنسبة لمعدلات اندماجهم، فمعدلات الزواج ضمن مجموعة اليهود اليونانيين تراوحت بين ٤٨٪ عام ١٩٥٢، و٣٧٪ عام ١٩٦٢ وهي معدلات متوسطة تقارب ما هي عليه عند اليهود البلغاريين [1].

(1) Ibid, Moshe Lissak.

الباب العاشر

التمييز العنصري في الكيان الإسرائيلي


http://kotob.has.it

الفصل الأول

التمييز الطبقي الطائفي والإثني(*)

كان المجتمع اليهوديّ قبل سنة ١٩٤٨ أقل تمايزاً، من الناحية الطبقية، من المجتمع العربي الفلسطينيّ ومن كثير من المجتمعات المتقدمة والنامية على حد سواء.

فقد تميز ذلك المجتمع بعدم وجود طبقة إقطاعية، لأن أغلبية الأراضي التي اشتراها اليهود من العرب حتى سنة ١٩٤٧ كانت ملكاً للصندوق القومي اليهوديّ وهي أراض سجلت باسم الشعب اليهوديّ واعتبرت غير قابلة للانتقال. كما أنّ الطبقة البرجوزاية اليهوديّة كانت في طور النمو، ولم تأخذ في التبلور إلاّ في الهجرة الخامسة، أي مع تدفق رأس المال اليهوديّ من ألمانيا في أواسط الثلاثينات وخلال الحرب العالمية الثانية. وأهم الشرائح الطبقية التي وجدت بين يهود فلسطين في ذلك الوقت هي العمال والمزارعون.

ومن أهم أسباب التجانس الطبقي النسبي للمجتمع اليهودي قبل سنة ١٩٤٨ صغر حجم ذلك المجتمع (نحو ٦٤٥,٠٠٠ نسمة سنة ١٩٤٧)، وكونه مجتمع مهاجرين جاءوا، أساساً، من دول شرق أوربا (ومن الطبقات المتوسطة أيضاً)، وسيطرة القطاع العام (ممثلاً بالمنظمة الصهيونية، والصندوق القومي اليهوديّ، والهستدروت، ومؤسسة عامة

(*) *دليل إسرائيل العام - مؤسسة الدراسات الفلسطينية ص ٧٤ وما بعدها.*

أخرى) على أغلب الأراضي اليهوديّة وعلى رأس المال اليهوديّ الموظف في فلسطين، ولا سيما في فروع المواشي والدواجن، والبناء، والنقل والمواصلات.

كما أن "الطلائعية"، وما تضمنته من استعداد للتضحية والعيش بتقشف والتشديد على العمل اليدوي، ولا سيما الزراعة، والعمل على إحياء اللغة العبرية _ كل ذلك بهدف وضع أسس الوطن القومي اليهودي _ أثرت في تدرج المهن في القطاع اليهودي قبل سنة ١٩٤٨. فقد منح المزارع والعامل الماهر، وإلى حد ما المعلم والطبيب، تقديراً كبيراً بسبب مساهمتهم في وضع أسس الوطن القومي اليهودي أو الدولة اليهودية. أما المحامي والمهندس والعالم، فقد منحوا تقديراً أقل بسبب عدم مساهمتهم في تحقيق الأهداف القومية.

مع نهاية عهد الانتداب، ازدادت الفوارق الطبقية بين اليهود في فلسطين؛ إذ أتسعت الفوارق في مستوى المعيشة بين فئات سكانية مختلفة، ولا سيما بين المدينة والقرية، وظهرت أحياء فقر في المدن، مثل حي هتكفا في مدينة تل أبيب، وضعفت الأيديولوجية الطلائعية، وظهرت مقاييس جديدة للمكانة الاجتماعية، مثل مستوى التعليم والمهنة، وتدفقت الهجرة البرجوازية في ألمانيا، مصحوبة بإنشاء الكثير من المشاريع الاقتصادية الجديدة وبنمو "طبقة الإداريين والمهنيين". وقد ساهم ذلك كله في زيادة التمايز الاقتصادي بين السكان اليهود.

بعد قيام إسرائيل سنة ١٩٤٨، اتسعت الفجوة الطبقية بين السكان اليهود في ضوء الهجرة الشعبية الواسعة من أقطار آسيا وإفريقيا، وازدياد نسبة اليهود الشرقيين من مجموع اليهود في إسرائيل (إلى ٥٠٪ تقريباً) من ناحية، والتطور الرأسمالي الكبير الذي حدث في الاقتصاد الإسرائيلي، وخصوصاً في قطاع الصناعة، من ناحية أخرى. وانعكست الفجوة الطبقية بظهور فارق كبير بين أصحاب الدخل المرتفع وأصحاب الدخل المنخفض. فقد تبين في بحث أجري في أواخر الخمسينات أن أغنى ١٠٪ من سكان المدن في إسرائيل حصلوا على ٢٤,٢٪ من مجموع الدخل، في حين أن أفقر ١٠٪ حصلوا على ١,٦٪ فقط. وتبين أيضاً أن النصف الأعلى من السكان حصل على ثلاثة أرباع الدخل، بينما حصل النصف الأدنى على الربع فقط، ومع ذلك، بقي الفارق في الداخل في إسرائيل أقل من فوارق الدخل في كلّ من الولايات المتحدة وبريطانيا

وهولندا.

وبعد قيام إسرائيل أيضاً، حدثت تغييرات جوهرية في تدرج المهن. فقبل قيام دولة إسرائيل تم التدرج، كما ذكرنا، بحسب درجة اتصال هذه المهن بمفهوم الطلائعية، أي بحسب مساهمتها في بناء الوطن القومي اليهوديّ. لذلك، فقد وضع المزارع والعامل والمعلم في رأس سلم التقويم الاجتماعي. أما بعد قيام الدولة، وبسبب تلاشي الطلائعية، أصبح تقويم المهن يرتبط أكثر بمقاييس التعليم والدخل والمهنة، كما هي الحال في المجتمعات الصناعية. ففي بحث أُجري على تدريج المهن في أواخر الخمسينات أيضاً، وضعت المهن العلمية والأكاديمية (عالم، طبيب، مهندس، محام، معلم ثانوي)، بالإضافة إلى صانعي القرار السياسيّ (سياسي، عضو كنيست)، في أعلى درجات سلم التقويم. أما المزارعون والعمال، المهرة منهم وغير المهرة، فوضِعوا في أسفل درجات السلم.

إن تطور البنية التشغيلية للعاملين اليهود في إسرائيل يشير إلى تقلص طبقتي العمال والمزارعين من ناحية، واتساع حجم الطبقة المتوسطة من ناحية أخرى. فقد انخفضت نسبة العمال، المهرة منهم وغير المهرة، من ٣٥,٢٪ سنة ١٩٥٥ إلى ٢٣,٩٪ سنة ١٩٩٣، وانخفضت نسبة المزارعين من ١٤,٤٪ إلى ٣,١٪ على التوالي. وفي المقابل، ارتفعت نسبة أصحاب "الياقوت البيض" (أصحاب المهن العلمية والأكاديمية والفنية، المديرون والإداريون، والكتبة) من ٢٧,٧٪ سنة ١٩٥٥ إلى ٤٩,٦٪ سنة ١٩٩٣ (أنظر الجدول رقم ١٢). يعود هذا التغيير في البنية التشغيلية أساساً إلى اتساع الخدمات الإنتاجية (مؤسسات تجارية ومالية قانونية ومؤسسات تأمين... الخ) والخدمات الاجتماعية (تعليم، صحة، خدمة اجتماعي ... الخ).

وحدثت تغييرات أساسية في البنية الطبقية للمواطنين العرب، فتقلصت إلى حد كبير طبقة الفلاحين، واتسعت في المقابل طبقة العمال والطبقة المتوسطة. فبين سنتي ١٩٥٥ و١٩٩٣، تقلصت نسبة العاملين في الزراعة من ٥٠,٩٪ من مجموع قوة العمل العربيّة إلى ٦,١٪. وارتفعت نسبة العمال، المهرة منهم وغير المهرة، ٣٢,٥٪ إلى ٥٤,٥٪، وارتفعت نسبة أصحاب "الياقات البيض" بين العرب من ٧,٣٪ إلى ٢٠,٢٪ على التوالي (الجدول رقم ١٢). أما تقلص حجم طبقة الفلاحين فيرجع في الأساس إلى عاملين

رئيسيين:

الأول/ هو مصادرة السلطات الإسرائيليّة لجزء الأكبر من الأراضي العربيّة؛

والثاني/ هو تدني إنتاجية الزراعة العربيّة، ولا سيما أنّ أغلبها زراعة بعلية، وتوفر العمل المأجور بدخل أعلى في المدن اليهوديّة.

وهكذا، فإن مقارنة البنية التشغيلية اليهوديّة بنظيرتها العربيّة تشير إلى تمركز قوة العمل اليهوديّة في "فئات العمل الفكري"، وتمركز قوة العمل العربيّة في "العمل اليدوي الماهر، غير الإشرافي، والإنتاجي المأجور"[1] . بكلمات أخرى، ينتمي نصف العاملين اليهود تقريباً إلى الطبقة المتوسطة، طبقة "أصحاب الياقوت البيض"، بينما ينتمي أكثر من نصف العاملين العرب إلى الطبقة العمالية.

إن التقسيم الطبقي، أو التوزيع المهني، للسكان اليهود يتأثر بانتمائهم الإثني، وبالتحديد بمتغيرين رئيسيين: مكان ولادة الشخص (البلد، أوروبا ـ أمريكا، وآسيا ـ إفريقيا)، ومكان ولادة الأب بالنسبة إلى مواليد البلد (أوروبا ـ أمريكا، وآسيا ـ إفريقيا). وفي ضوء ذلك، يمكن التمييز بين الشرائح، أو الجماعات الإثنية الآتية:

(i)مواليد بلد غربيون (أو من أصل غربي): تتكون هذه الشريحة من اليهود الذين ولدوا في فلسطين أو في إسرائيل لآباء ولدوا في أوربا ـ أمريكا. ويحتل هؤلاء الدرجات العليا في السلم الطبقي ؛ فهم يشتغلون أكثر من غيرهم في المهن العلمية والأكاديمية والفنية (٤٠,٢٪ في سنة ١٩٩٣)، ومستوى تعليمهم، عموماً، أعلى من مستوى تعليم غيرهم (٥١,٩٪ أنهوا ١٣ سنة تعليمية فأكثر من سنة ١٩٩٣)، ومتوسط دخلهم أعلى أيضاً من متوسط دخل الشرائح الأخرى.

(ii)مهاجرون غربيون: يشكل المهاجرون الغربيون الشريحة الثانية. وهم يتدرجون بعد الشريحة الأولى من حيث العمل في المهن العملية والأكاديمية والفنية (٣٠,٧٪ في سنة ١٩٩٣)، ومستوى تعليمهم (٤٢,٧٪ أنهوا ١٣ سنة تعليمية فأكثر في سنة ١٩٩٣)، ومتوسط دخلهم.

(iii)يهود من أبناء البلد: تتكون هذه الشريحة من اليهود الذين ولدوا هم وآباؤهم في فلسطين أو في إسرائيل. وهي في منزلة الوسط بين الشرائح العليا الغربية والشرائح

(١) نجوى مخول، *"تغييرات في البنية التشغيلية للعرب في فلسطين المحتلة"، "صامد الاقتصادي"، السنة السادسة، عدد ٥٠ ـ ٥١ (تموز/ يوليو ـ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٤)، ص/ ٤٣.*

الدنيا الشرقية.

(iv مواليد بلد شرقيون (أو من أصل شرقي): هم اليهود الذين ولدوا في فلسطين أو فلسطين إسرائيل لآباء ولدوا في آسيا - إفريقيا. وعلى عكس الشرائح الثلاث السابقة التي تتميز بأن الجزء الأكبر من أبنائها يعمل في مهن أكاديمية أو فنية، فإن الجزء الأكبر من أبناء هذه الشريحة (٢٨,٨٪ في سنة ١٩٩٣) عمال، مهرة أو غير مهرة، ونسبة قليلة فقط تعمل في المهن الأكاديمية والفنية (١٨,٧٪ في سنة ١٩٩٣). كذلك فإن مستوى تعليمهم ومتوسط دخلهم أقل، بصورة عامة من مستوى تعليم ومتوسط دخل الشرائح السابقة (أنظر الجدول رقم ١٣).

(v مهاجرون شرقيون: يشكل المهاجرون الشرقيون أدنى الشرائح اليهوديّة. وتحتوي هذه الشريحة، مقارنة بالشرائح السابقة، على أعلى نسبة من المال (٢٩,٦٪ في سنة ١٩٩٣)، وأقل نسبة من العاملين في المهن العلمية والأكاديمية والفنية (١٤,٩٪ في سنة ١٩٩٣). كما أنّ مستوى تعليم أبناء هذه الشريحة أدنى من مستوى تعليم الشرائح السابقة (٤٥,٨٪ أنهوا بالمعدل أقل من ٩,٤ سنوات تعليمية).

الجـــدول رقم(12)

المستخدمون في إسرائيل بحسب المهن
والانتماء القومي، ومكان الولادة، وفترة الهجرة، 1993 (نسبة مئوية)(*)

	مهن علمية وأكاديمية وفنية	مديرون وإداريون	كتبة وما شابه	عمال مبيعات، وكلاء	عمال خدمات	زراعة	عمال مهرة وعمال غير مهرة	المجموع
يهود – المجموع 1955	10.9	2.7	14.1	11.7	11.0	14.4	35.2	100
1993	26.6	5.8	17.2	9.0	14.3	3.1	23.9	100
مواليد "إسرائيل" أو فلسطين – المجموع	28.3	6.0	19.7	9.6	12.1	3.5	20.9	100
الأب ولد في "إسرائيل" أو فلسطين	30.3	5.8	18.3	8.5	14.7	5.9	16.5	100
الأب ولد في آسيا – إفريقيا	18.7	4.1	21.8	9.9	14.4	2.4	28.8	100
الأب ولد في أوروبا – أمريكا	40.2	8.8	17.5	10.1	7.6	3.4	12.4	100
مواليد آسيا وإفريقيا – المجموع	14.9	5.9	15.9	10.2	20.3	3.2	29.6	100
هاجروا حتى 1960	13.9	6.9	15.2	10.4	21.1	3.1	29.4	100
1964 – 1961	15.7	5.6	15.4	8.4	21.0	2.2	31.7	100
1965 +	17.0	3.7	18.5	10.7	17.6	4.4	28.1	100
مواليد أوروبا وأمريكا – المجموع	30.7	5.3	13.4	7.2	14.8	2.1	26.5	100
هاجروا حتى عام 1960	27.8	10.4	20.5	10.7	8.2	3.3	19.1	100
1964 – 1961	35.3	10.5	17.8	10.1	8.0	0.9	17.4	100
1974 – 1965	40.5	5.8	16.1	8.1	10.2	0.7	18.5	100
1989 – 1975	44.3	3.2	14.0	5.2	12.7	2.3	18.3	100
1990 +	21.1	0.5	4.9	4.1	25.0	2.0	42.3	100
عرب – المجموع (1955)	4.1	1.4	1.8	6.5	2.8	50.9	32.5	100
(1993)	12.5	1.8	5.9	6.9	12.4	6.1	54.5	100

(*) المصـــــدر: *Statistical Abstract of Isral, No. 45 (1994), pp 330 - 392; No.10*

تم أعلاه التمييز بين الشرائح الخمس السابقة للسكان اليهود بحسب متغيري مكان ولادة الشخص ومكان ولادة أبيه (بالنسبة إلى مواليد البلد). وهذه الشرائح ليست طبقات اجتماعية ؛ إذ إن أبناء الشريحة لا يحتلون الموقع نفسه في عمليّة الإنتاج، ولا يعملون كلهم في المهن نفسها أو في الفئات المهنية ذاتها، وإنما هي جماعات إثنية ذات طابع طبقي. فأفراد الجماعة الإثنية الواحدة يتوزعون على طبقات (أو على فئات مهنية) مختلفة، لكنهم يمثلون أكثر من غيرهم في طبقة معينة أو في فئة مهنية معينة. فاليهود الذين هم مواليد البلد الغربيون ممثلون أكثر من غيرهم في فئة أصحاب المهن العلمية والأكاديمية، والفنية، وممثلون أقل من غيرهم في الطبقة العمالية. وفي المقابل، فإن المهاجرين اليهود الشرقيين ممثلون في الطبقة العمالية أكثر من الجماعات الإثنية اليهوديّة الأخرى، وممثلون أقل من هذه الجماعات في فئة أصحاب المهن العلمية والأكاديمية والفنية.

وبالنسبة إلى المواطنين العرب، فإنهم يحتلون قاع السلم الطبقي للمجتمع الإسرائيليّ، ويشكلون الشريحة السادسة، بعد الشرائح الخمس اليهوديّة الأخرى. إنهم طبقياً أدنى حتى من المهاجرين اليهود الشرقيين. فأكثر من نصف القوى العاملة العربيّة (٥٤,٥٪ في سنة ١٩٩٣) عمال، مهرة أو غير مهرة. كما أنّ متوسط دخلهم أقل، عموماً، ومن متوسط دخل المهاجرين اليهود الشرقيين (أنظر الجدول رقم ١٣).

الجـــدول رقـم(13)

عدد سنوات التعليم للسكان في سن 15 سنة فأكثر،
ومتوسط الدخل الشهري بالشيكل لأسرة حضرية ربما مستخدم بأجر،
بحسب مكان الولادة، وفترة الهجرة، والانتما القومي، 1993
(توزيع سنوات التعليم بالنسبة المئوية ومتوسطات الدخل بالأعداد المطلقة)(*)

	عدد سنوات التعليم							متوسط الدخل الشهري بالشيكل
	صفر	1 ـ 4	5 ـ 8	9 ـ 12	13 +	المجموع	الوسيط	
يهود ـ المجموع	3.7	2.1	11.6	50.3	32.3	100	12.0	6.188
مواليد إسرائيل أو فلسطين ـ المجموع	0.4	0.3	4.7	62.0	32.6	100	12.3	6.426
الأب ولد في إسرائيل أو فلسطين	0.2	0.2	3.0	64.0	32.6	100	12.3	6.200
الأب ولد في آسيا ـ أفريقيا	0.5	0.4	6.9	71.2	21.0	100	12.0	5.508
الأب ولد في أوربا ـ أمريكا	0.2	0.2	2.4	45.3	51.9	100	13.2	7.821
مواليد آسيا وأفريقيا ـ المجموع	16.4	5.8	23.6	39.9	14.3	100	9.6	5.890
هاجروا حتى 1954	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	6.733
1955 ـ 1964	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	5.643
1965 +	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	3.452
مواليد أوربا وأمريكا ـ المجموع	1.2	2.9	15.7	37.5	42.7	100	12.4	6.040
هاجروا حتى 1954	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	7.998
1955 ـ 1964	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	8.230
1965 +	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	5.122
عرب ـ المجموع	10.9	6.2	26.5	45.3	11.1	100	9.7	3.938

(*) المصـــــــدر: Statistical Abstract of Isral, No. 45 (1994), pp 340 - 637 - 638

الوسـيط يعني عـدد سنوات الدراسـة الذي تعلم نصف السكان أقل منه والنصف الأخـر أكـثـر منه

الفصل الثاني

العلاقات بين الجماعات الإثنية

تتميز العلاقات بين الجماعات الإثنية في إسرائيل بسيطرة اليهود الإشكناز اقتصادياً وسياسياً وثقافياً. وقد انعكست السيطرة الاقتصاديّة، كما أوضحنا سابقاً، بتمثيل زائد ليهود الغربيين في الشرائح الطبقية العليا، وتمثيل زائد لليهود الشرقيين في الشرائح الدنيا. وانعكست السيطرة السياسيّة بسيطرة اليهود الغربيين على مختلف مؤسسات الحكم، وخصوصاً الكنيست (البرلمان)، والحكومة، والأحزاب الرئيسيّة، والوكالة اليهوديّة. صحيح أنّ مشاركة اليهود الشرقيين في هذه المؤسسات ازدادت، لكن تمثيلهم فيها بقي أقل من نسبتهم من مجموع سكان إسرائيل اليهود والعرب. فقد ارتفع، مثلاً، عدد الأعضاء الشرقيين في الكنيست من ٨ أعضاء فقط (٦,٦٪) في الكنيست الخامس (١٩٦١) إلى ٣١ عضواً (٢٥,٨٪) في الكنيست الحادي عشر (١٩٨٤). وإذا علمنا أنّ اليهود الشرقيين شكلوا في سنة ١٩٤٨ نحو ٣٦,٢٪ من مجموع سكان إسرائيل اليهود والعرب، يتضح أنّ نسبتهم في الكنيست في تلك السنة بقيت اقل من نسبتهم من مجموع السكان[١].

وفي الكنيست الثالث عشر (١٩٩٢) ارتفعت أكثر نسبة الأعضاء اليهود الشرقيين ؛ فقد "ضمت القوائم الانتخابية لحزبي العمل والليكود أعداداً مثيرة للإعجاب ومتساوية تقريباً، من السياسيين الشرقيين. وعلى الرغم من التقدم الملحوظ الذي حصل عليه

(١) أبو النمل، مصدر سبق ذكره، ص: ٣٥٨ ـ ٣٥٩.

أبناء الطوائف الشرقية في السياسة، فإنهم لم يحصلوا على مساواة في القوة الفعلية"(١) . وانعدم تمثيل اليهود الشرقيين، إلاّ في حالات قليلة، في المناصب القيادة الأولى للدولة، ولا سيما في مناصب رئيس الدولة ورئيس الحكومة ووزير الدفاع ووزير الخارجية.

وعلى الرغم من الفجوة الكبيرة التي ما زالت قائمة في البنية الطبقية وصنع القرار السياسي بين اليهود الغربيين واليهود الشرقيين، فقد اتجهت الطوائف اليهوديّة الشرقية نحو الانصهار *Assimilation* في الثقافة الإشكنازيّة الغربية. وتخلى اليهود الشرقيون "عن كلّ، أو تقريباً عن كلّ تراثهم الثقافي التقليدي"(٢) ، واستبدلوه بأنماط ثقافية غربية. ونتج من ذلك أن سيطر اليهود الإشكناز ثقافياً أيضاً.

لتوضيح تخلي اليهود الشرقيين عن ثقافتهم التقليدية، يورد رفائيل باتاي أمثلة كثيرة، منها اختفاء ظواهر تعدد الزوجات، وزواج الأطفال، وأمية الإناث، والباعة المتجولين، والحرف التقليدية، وتلاشي الأسرة الممتدة، والسلطة الأبوية، وسكن الأبناء المتزوجين في بيوت آبائهم، واستهزاء الشباب بالطب الشعبي والسحر والشعوذة وما شابه ذلك(٣) . واستُبدلت مثل هذه الظواهر القديمة بأنماط ثقافية غربية، فانتشرت، مثلاً، الأسرة النووية، وخرجت المرأة للعمل بأجر، وتعززت مشاركة أفراد الأسرة البالغين في اتخاذ القرارات، واستقل الأبناء المتزوجون عن أهلهم، وساد الاختلاط بين الجنسين في المدرسة والشارع وفي كلّ مكان تقريباً، وانتشرت العلاقات الجنسية قبل الزواج حتى أصبحت ظاهرة طبيعية، والقائمة طويلة. وباختصار، يمكن القول إن الثقافة السائدة اليوم بين اليهود، بمختلف طوائفهم، في إسرائيل هي الثقافة الغربية التي جلبها المهاجرون الإشكناز إلى البلد. أما مساهمات اليهود الشرقيين في "الثقافة الإسرائيليّة" الحديثة، فهي ضئيلة جداً، ويمكن "عدها على أصابع اليد"، وأهمها الطعام الشرقي، وبعض الحرف الشرقية (مثل التطريز وصناعة السلال)، والموسيقي الشرقية، وطريقة لفظ اللغة العبرية.

ومن الملاحظ أنّ انصهار اليهود الشرقيين في الثقافة الغربية لم يضمن قبول اليهود

(١) أ. أريان وم. شمير، *"انقلابان ثوريان في السياسة الإسرائيليّة"*، "مغموت" (القدس)، مجلد ٣٦، عدد ٤ (حزيران ـ يونيو/ ١٩٩٥)، ص:.٣٧٢

(2) Patai, op.cit., p.310.

(3) Ibid.

الغربيين لهم. فقد بقي الأخيرون يرفضونهم، ويستعلون عليهم، ويلصقون بهم أفكاراً مسبقة *Stereotypes* ذات طابع سلبي[١] فكثيراً ما يصف اليهود الغربيون اليهود الشرقيين، وخصوصاً المغاربة منهم، بأنهم متخلفون وعدائيون. وينعكس رفض اليهود الغربيين لليهود الشرقيين بعدم الرغبة في إقامة علاقات اجتماعية معهم. ففي بحث أجراه يوحنان بيرس في أواخر الستينات على طلاب مدارس ثانوية يهود، من أبناء الطوائف الغربية، تبين أنّ ٣٩٪ فقط من أفراد العينة وافقوا بلا تحفظ على الزواج من الطوائف الشرقية، وأعرب ٦٣٪ فقط من استعدادهم الكامل للسكن في جوار اليهود الشرقيين[٢] .

ومن الجدير ذكره أنّ اليهود الغربيين ليسوا وحدهم الذي يُقيّمون شخصية اليهوديّ الغربي بأنها أكثر إيجابية من شخصية اليهوديّ الشرقي، بل إن اليهود الشرقيين، بسبب شعورهم بالنقص، كانوا يشاركونهم في هذا التقويم. وفي بحث جديد أُجري على مجندين يهود جدد في الجيش الإسرائيليّ، تبيّن أنّ المجندين الشرقيين ما زالوا يفضلون زملاءهم الغربيين على زملائهم الشرقيين في المجال المعرفي فقط (من حيث القيادة، والتكيف للجيش، والتعاون، والمسؤولية، والجندية الجيدة، والرغبة في النجاح). أما في المجال السلوكي (من حيث الأشخاص الذين يفضلون مصادقتهم، ومرافقتهم إلى دور السينما، وزيارتهم في البيت، والشف لهم عن الأسرار الشخصية) والمجال العاطفي (من حيث الأشخاص الذين يشعرون بالحب نحوهم، أو التشبه بهم) فيفضل المجندون الشرقيون زملاءهم الشرقيين على زملائهم الغربيين. وعلى عكس المجندين الشرقيون الذين يفضلون زملاءهم الغربيين في المجال المعرفي وزملائهم الشرقيين في المجال السلوكي والمجال العاطفي، فقد أظهر البحث أنّ المجندين الغربيين يفضلون زملاءهم الغربيين على زملائهم الشرقيين في المجالات الثلاثة المذكورة[٣].

يتضح ممّا تقدم أنّ الانصهار الثقافي لليهود الشرقيين صُحب باندماج اجتماعي *In-tegration* بطيء بينهم وبين اليهود الغربيين. فالعلاقات الشخصية، المتمثلة في علاقات

(1) Celia S. Heller, "The Emerging Consciousness of the Ethnic Problem among the Jews of Israel," in Curtis andChertoff, op.cit., pp.319-320.
(2) Peres, "Ethnic Relations in Israel," American Journal of Sociology, 76 (6), (1971), pp.1021-1047.
(٣) ي. شفارتسولد وي. أمير، "التوجه الطائفي لدى المجندين الجدد"، "مغموت" (القدس)، مجلد ٣٥، عدد ٤ (آذار/ مارس ١٩٩٤).

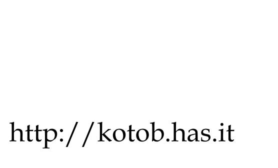
الزواج والصداقة، مازالت محدودة بين الفريقين. ومع ذلك ، يلاحظ أنّ هذه العلاقات في تزايد مستمر. فقد ارتفعت نسبة الزواج المختلط بين اليهود الغربيين واليهود الشرقيين، من مجموع حالات الزواج، من ١٢٪ سنة ١٩٥٥ إلى ١٨٪ سنة ١٩٧٠ ثم إلى ٢٧٪ سنة ١٩٨٥(١). ومن المتوقع أنّ يتعمق الاندماج الاجتماعي أكثر في ضوء التقارب في المستوى العلمي والمهني والمعيشي بين مختلف الجماعات الإثنية.

وبالنسبة إلى الفلسطينيّين من مواطني إسرائيل، فقد أوضحنا سابقاً أنّهم يحتلون أدنى درجة في السلم الطبقي ؛ فهم أدنى طبقياً حتى من المهاجرين اليهود الشرقيين. كما أنّ مشاركتهم في صنع القرار السياسيّ للدولة تكاد تكون معدومة. صحيح أنّهم يشاركون في انتخابات الكنيست وأنّ عدداً منهم يُنتخب لمقاعد فيه (على سبيل المثال، في الكنيست الحالي ثمانية أعضاء)، غير أنّ الأحزاب الصهيونية، ومنها حزب العمل، تستثني الأعضاء العرب من الائتلافات الحكومية، ومن بعض لجان الكنيست (مثل لجنة الخارجية والأمن ولجنة مراقبة الدولة)، ومن عمليّة صنع القرار السياسي عموماً. فبعد انتخابات الكنيست لسنة ١٩٩٢، لم يتجرأ زعيم حزب العمل، يتسحاق رابين، على إشراك أعضاء الكنيست العرب من الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة والحزب الديمقراطي العربي في الائتلاف الحكومي، واكتفى بموقفهم الداعم للائتلاف من الخارج.

وعلى عكس اليهود الشرقيين، فإن الفلسطينيّين داخل إسرائيل أقلية قومية غير منصهرة ثقافياً وغير مندمجة اجتماعياً. ومن الواضح أنّ المواطنين العرب قد تأثروا بالثقافة الغربية السائدة في إسرائيل (مثلاً، انتشار الأسرة النووية، وارتفاع مستوى التعليم، وتعزز النزعة الاستهلاكية)، وتعلموا اللغة العبرية، وتعرضوا لوسائل الإعلام الإسرائيليّة، وتعرفوا على طريقة تفكير اليهود الإسرائيليّين ونمط حياتهم. مع ذلك، بقي الفلسطينيّون في إسرائيل محافظين على ثقافتهم وعلى انتمائهم الوطني والقومي. وينعكس ذلك، مثلاً، في محافظتهم على اللغة العربيّة، وتمسكهم بالدين والروابط الأسرية وبكثير من العادات العربيّة، بالإضافة إلى تعزز هويتهم الوطنية الفلسطينيّة والقومية العربيّة.

(1) Israel, Statistical Abstract of Israel, Jerusalem, No.28 (1977), p.72; (1986),p.101.

وأخيراً، يعتبر اليهود المواطنين الفلسطينيّين في إسرائيل أقلية معادية، أو طابوراً خامساً، أو أقلية غير ودية في أحسن الأحوال، ويلصقون بهم الكثير من الأحكام المسبقة السلبية (مثل معاد، وناكر للمعروف، وأناني). وهكذا، فإن أغلب اليهود يرفض إقامة أية علاقات اجتماعية بالمواطنين العرب (مصادقتهم، أو السكن في جوارهم، أو العمل معهم في مكتب واحد...) ومن ناحية أخرى، يلاحظ أنّ نظرة المواطنين العرب إلى اليهود أكثر إيجابية وواقعية، وهم مستعدون عموماً للتعامل معهم والارتباط بهم بعلاقات اجتماعية. وهذا طبعاً لا يتناقض مع كونهم أقلية غير مندمجة، متمسكة بهويتها المميزة ومتضامنة سياسياً ومعنوياً ومادياً مع أبناء جلدتها في الضفة الغربية وقطاع غزة.


http://kotob.has.it

الفصل الثالث

خلاصة عامة

أوضحنا في هذه الدراسة أنّ المجتمع الإسرائيليّ مجتمع مهاجرين أو مجتمع مستوطنين لا يزال ٣٩,١٪ من سكانه اليهود من مواليد أماكن خارج البلد، و٣٧,١٪ من مواليد البلد (فلسطين أو إسرائيل) لكن آباءهم ولدوا خارج البلد، و٢٣,٨٪ فقط من السكان اليهود ولدوا هم وآباؤهم في البلد. وقد نما عدد السكان اليهود سريعاً، فتضاعف منذ قيام إسرائيل في أيار/مايو ١٩٤٨ حتى نهاية سنة ١٩٩٣ نحو ست مرات. وساهم ميزان الهجرة، بصورة عامة، في نصف الزيادة السكانية وساهم التكاثر الطبيعي في النصف الآخر.

إن الفلسطينيّين في إسرائيل، باستثناء سكان القدس العربيّة ، يشكلون ١٥,٤٪ من مجموع السكان. وقد حافظ المواطنون العرب على نسبتهم، على الرغم من الهجرة اليهوديّة المكثفة، بفعل التكاثر الطبيعي الذي تصل نسبته إلى نحو ضعفي نسبة التكاثر الطبيعي لدى اليهود.

والسكان اليهود في إسرائيل ينقسمون، وفقاً لـ"بلد الأصل" كما تعرفه الإحصاءات الإسرائيليّة، أي وفقاً لمكان ولادة الشخص ومكان ولادة أبيه، إلى ثلاث جماعات إثنية رئيسية:

(ا)يهود غربيون (أو من أصل غربي): وهم مواليد أوربا ـ أمريكا، ومواليد البلد لآباء

من مواليد أوربا ـ أمريكا.

(ii) يهود شرقيون (أو من أصل شرقي): وهم مواليد آسيا ـ إفريقيا، ومواليد البلدة لآباء من مواليد آسيا ـ إفريقيا.

(iii) يهود أبناء البلد: أي يهود ولدوا هم وآباؤهم في البلد (فلسطين أو إسرائيل).

في سنة ١٩٩٣ شكّل اليهود الغربيون ٣٩,٩٪ من مجموع السكان اليهود، وشكّل اليهود الشرقيون ٣٦,٣٪، واليهود أبناء البلد، كما ذكرنا، ٢٣,٨٪. وإذا أردنا أن نتحرى الأصل بالنسبة إلى اليهود أبناء البلد، بحيث نهتم بمكان ولادة الجد أيضاً، نصل إلى افتراض أنّ هؤلاء هم في أغلبيتهم من أصل غربي، وذلك بسبب كون الإشكناز الأغلبية الساحقة قبل قيام إسرائيل وفي الأعوام الأولى لقيامها.

وتشير مقارنة معدلات الخصوبة في إسرائيل بالمعدلات في دول أخرى إلى أنّ معدل الخصوبة لدى اليهود في إسرائيل أقل من معدلات الخصوبة في الدول النامية، ولا سيما الدول العربيّة، لكنه أعلى من معدلات الخصوبة في الدول الصناعية الغربية. وفي إسرائيل تختلف أنماط الخصوبة بين مختلف الجماعات الإثنية؛ فمعدل الخصوبة لدى اليهود الشرقيين يزيد عن معدل الخصوبة لدى اليهود الغربيين واليهود أبناء البلد.

أما بالنسبة إلى الفلسطينيّين في إسرائيل، فإن معدل الخصوبة لديهم أعلى من معدل الخصوبة لدى مختلف الجماعات اليهوديّة، بما في ذلك اليهود الشرقيون. وعموماً، يمكن القول إن نسبة المواليد لدى المواطنين العرب هي تقريباً ضعفاً نسبة المواليد لدى اليهود (٣٤ في الألف في مقابل ١٨,٦ في الألف سنة ١٩٩١)، الأمر الذي يشكل، من وجهة نظر الكثير من الإسرائيليّين، "خطراً ديمقوغرافياً" على الدولة اليهوديّة.

هذه الفوارق في معدلات الخصوبة تؤدي إلى فوارق في التوزيع العمري للسكان. ولقد أوضحنا أنّ اليهود في إسرائيل أكبر سناً من سكان الدول النامية، وأصغر سناً من سكان الدول الصناعية. ففي سنة ١٩٨٥، مثلاً، كانت السن الوسيطة لليهود ٢٧,٧ (أي أنّ نصف اليهود تقل أعمارهم عن هذه السن، والنصف الآخر تزيد أعمارهم عنها) في مقابل ٢١ في الدول النامية و٣٢,٥ في الدول الصناعية. والعرب في إسرائيل هم الأصغر سناً بين مختلف الجماعات الإثنية، واليهود الغربيون هم الأكبر سناً. أما اليهود

الشرقيون فيتوسطون في سنهم بين الجماعتين.

إن التقسيم الطبقي أو التوزيع المهني، لليهود في إسرائيل يتأثر بمتغيري "بلد الأصل" (غربيون، شرقيون، أبناء بلد) والأقدمية في البلد بالنسبة إلى الغربيين والشرقيين (مواليد البلد ومواليد الخارج). وفي ضوء ذلك، يمكن التمييز بين خمس شرائح أو خمس جماعات تحتل درجات مختلفة في السلم الطبقي. أما ترتيب هذه الشرائح، من الأعلى إلى الأدنى، فهو كما يلي:

(i مواليد بلد غربيون (أو من أصل غربي): تشمل هذه الشريحة مواليد البلد لآباء من مواليد أوربا ـ أمريكا.

(ii مهاجرون غربيون: وهم مواليد أوربا أمريكا.

(iii أبناء البلد: هم مواليد البلد لآباء من مواليد البلد.

(iv مواليد بلد شرقيون (أو من أصل شرقي): وهم مواليد البلد لآباء من مواليد آسيا ـ إفريقيا.

(v مهاجرون شرقيون وهم مواليد آسيا ـ إفريقيا.

يحتل مواليد البلد الغربيون قمة السلم الطبقي، ويليهم، بحسب الترتيب، المهاجرون الغربيون، وأبناء البلد، ومواليد البلد الشرقيون، وأخيراً المهاجرون الشرقيون. ومع صعود درجات هذا السلم تزداد نسبة العاملين في المهن العملية والأكاديمية والفنية، وتنخفض نسبة العاملين كعمال مهرة أو كعمال غير مهرة. ومع الصعود يرتفع أيضاً، عموماً، مستوى التعليم ومتوسط الداخل. ويلاحظ أنّ التقسيم الطبقي يتأثر ببلد الأصل أكثر من تأثره بالأقدمية في البلد ؛ ذلك لأن اليهود الغربيين، سواء كانوا من مواليد البلد أو من مواليد الخارج، هم أعلى طبقياً من اليهود الشرقيين بشطريهم: مواليد البلد ومواليد الخارج.

أما المواطنون العرب، فيشكلون الشريحة السادسة، بعد الشرائح الخمس اليهوديّة. وهم أدنى طبقياً حتى من المهاجرين اليهود الشرقيين. وينعكس ذلك بانخفاض نسبة العاملين العرب في المهن العلمية والأكاديمية (١٢,٥٪ سنة ١٩٩١)، وارتفاع نسبة العمال، المهرة وغير المهرة، لديهم (٥٤,٥٪). كما ينعكس ذلك بانخفاض مستوى التعليم والدخل.

وتتميز العلاقات بين الجماعات الإثنية في إسرائيل بسيطرة اليهود الغربيين (أو الذين هم من أصل غربي)، لا اقتصادياً وسياسياً فحسب، وإنما ثقافياً أيضاً. فالمهاجرون الإشكناز جلبوا الثقافة الغربية إلى فلسطين وعملوا على تطويرها. وعندما جاء اليهود الشرقيون إلى البلد اتجهوا نحو الانصهار في الثقافة الإشكنازيّة السائدة. لكن الانصهار الثقافي لليهود الشرقيين صُحب باندماج اجتماعي بطيء مع اليهود الغربيين.

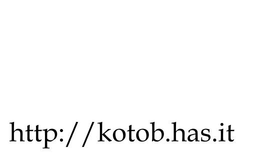
وقد رفض الإشكناز، ولا سيما في البداية، اليهود الشرقيين، وألصقوا بهم أحكاماً مسبقة سلبية، وتحفظوا من الارتباط بهم بعلاقات شخصية (زواج وصداقة). ومع ذلك، يلاحظ أنّ الاندماج الاجتماعي بين اليهود الغربيين واليهود الشرقيين مستمر باطراد، وإن ببطء. وينعكس ذلك بازدياد نسبة الزواج المختلط بين الفريقين.

أما العلاقات بين اليهود والعرب في إسرائيل فتتميز، طبعاً، بسيطرة اليهود اقتصادياً وسياسياً. وينعكس ذلك باحتلال العرب أدنى درجات السلم الطبقي، وبتهميشهم سياسياً، واستثنائهم من عمليّة صنع القرار السياسي. وعلى عكس اليهود الشرقيين، فإن الفلسطينيّين في إسرائيل أقلية قومية، محلية، غير منصهرة ثقافياً، وغير مندمجة اجتماعياً. فالمواطنون العرب حافظوا على ثقافتهم العربيّة (لغة وعادات) وعلى هويتهم الوطنية الفلسطينية[1].

(١) إسرائيل العام ــ المصدر السابق ص ٧٤ وما بعدها.

الباب الحادي عشر

مجالات التمييز الطبقي والطائفي



الفصل الأول

معطيات عن مستويات الدخل(*)

إنّ الأغلبية الساحقة من أبناء الشرائح الاجتماعية المغبونة في الكيان الصهيوني تنتمي إلى الطوائف الشرقية، وفي حين لا توجد مطابقة قاطعة بين الطوائف والطبقات، لكن هنالك سمات طائفية بارزة لتركيبه الطبقات المختلفة، كذلك فهناك تناسق على درجة عالية بين الهوة الاجتماعية و الاقتصاديّة وبين بلاد المنشأ حتى أصبحت في الكيان الصهيوني أقوال مألوفة مثل:

"أنّ اليهود الشرقيين ليسوا كلهم فقراء لكن كلّ الفقراء يهود شرقيون"، أو تعابير السخرية التي تقول: "اسمي مزراحي ولذلك أكسب فقط ٧٠٠ ليرة شهرياً واسمه يعقوبو فيتش ولذلك يكسب ٢٠٠٠ ليرة شهرياً".

لقد جاء في صحيفة معريف: "إن الحقيقة الأكثر قابلية للانفجار وهي أنّ الطبقة الأفقر من السكان مكونة تقريباً على وجه الحصر من اليهود الشرقيين حيث أنّ أكثر من ٩٠٪ من العائلات لها ٤ أطفال أو أكثر، وهؤلاء من اليهود الشرقيين، وهناك أكثر من (١٨٠١٦٦) عائلة شرقية تتم إعالتها غالباً من قبل معيل واحد".

وحسب المعطيات الرسمية التي يصدرها المكتب المركزي للإحصاء فقد كان معدل

(×) مجلة الأرض ــ العدد السابع ١٩٨٥/١٢/٢١ ص ٢٦ وما بعدها.

دخل عائلة الإجراء من أصل إشكنازي في عام ١٩٧٦ مرتفعاً بنسبة ٣٤٪ من الداخل المعدل لعائلة الإجراء من أبناء الطوائف الشرقية (سفارادي)، وتزداد عاماً بعد عام هوة الفجوات الطائفية في مستويات الدخل مع تعميق عدم المساواة العامة فقد كانت أرقام عام ١٩٧٨ تقول أنّ معدل دخل عائلة الإجراء من أصل إشكنازي قد أصبح أعلى بنسبة ٣٩٪ من دخل أبناء الطوائف الشرقية.

وبين العائلات التي لم يعمل أربابها وتشمل المتقاعدين والمشوهين وغيرهم تتوسع الفجوة الطائفية أكثر فأكثر، وفي هذه العائلات كان معدل دخل الذين هم من أصل أوروبي في عام ١٩٧٦ أعلى بحوالي ٣٠٪ مقابل الذين هم من البلدان الآسيوية والإفريقية في حين أصبحت هذه الفجوة في عام ١٩٧٨ بنسبة حوالي ٦٠٪.

لقد شكلت العائلات التي يعيلها أشخاص من مواليد آسيا وإفريقيا في سنة ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ حوالي ٣١,١٪ من مجموع العائلات، وكان ٥٥,٥٪ من هذه العائلات يحتل العشر الأسفل من الدخل، بينما احتل ٥,٧٪ منها العشر الأعلى من الدخل أما الأرقام الموازية بالنسبة لمواليد أوربا وأمريكا فهي ٤٥,٥٪ من مجموع العائلات و١٨,٣٪ من بين العشر الأسفل و٧٠,٢٪ من بين العشر الأعلى (أنظر الجدول رقم ١):

وتشير الإحصاءات أيضاً إلى أنّ (١٤٢,٤٠٠) أسرة في الكيان الصهيوني تضم أكثر من (٥١٤,٤٠٠) نسمة.

جدول رقم (١)

مستويات الدخل لليهود في الكيان الصهيوني في عام ١٩٧٥ . ١٩٧٦(نسبة مئوية ٪)

منطقة المنشأ	الجزء العشري من الدخل					
	العشر الأول والأدنى	العشر الثاني	العشر الثالث	العشر الثامن	العشر التاسع	العشر العاشر والأعلى
عائلات من مواليد آسيا . إفريقيا بالنسبة المئوية من مجموع العائلات في نفس العشر	٥٥,٥	٤٧,٥	٤٥,١	١٧,٠	٨,٩	٥,٧
عائلات من مواليد أوربا . أمريكا بالنسبة المئوية من مجموع العائلات في نفس العشر	١٨,٣	٣٢,٦	٣٥,٠	٥٤,٦	٦١,٢	٧٠,٢

وقد تجلت الفجوة الطبقية العميقة في نوعية الأعمال التي يقوم بها اليهود

الشـرقيـون في سلم العمـالة والتي تعطي مـردودات اقتـصـادية مـحددة لا تتناسب مع مسـتوى المعـيشـة المرتفع في إسـرائيل. وقد أدى انخفـاض الدخل إلى تـردي المسـتويات المعيشية لليهود الشرقيين في مجالاتها كافة.

والمعطيـات الإحصائية الـرسميـة الصـادرة في إسـرائيل حـول مسـتويات الدخل تبـرز هذه الفجوة الواسعة بشكل واضح (راجع الجدول رقم ٤) حيث أنّ معدل الدخل السنوي لليهود من مواليد أفريقيا في عام ١٩٦٥ كان ٧١,٧٪ من الدخل اليهود من مواليد أوربا وأمريكا. وممّا يرفض فكرة "إلاّ أنّ الأقدمية في الهجرة تحسن من وضع المهاجرين"، أي ترفع مسـتوى الدخل وتضيق الفـجوة نـلاحظ أنّ المهاجـرين من آسـيا وأفريقيـا قبل عـام ١٩٩٨ كانت نسـبة الخل لديهم ٩٠,٣٪ (٩٠,٣٪) في حين كـانت لدى أمثالهم من مـواليد أوربا وأمـريكا تسـاوي ١٢٠,٥٪. وفي خـلال ١٨ سنة (١٩٦٥ ـ ١٩٨٣) انخـفض الفـرق بأقل من النـصف بين هـاتين الفئتين من اليـهود إذ أصبـح الفـرق ١٦,٧٪ بينمـا كـان عـام ١٩٦٥، ٣٠,٢٪ ولكن بالـنسـبـة للمـهاجـرين قعـد عـام ١٩٦١ ازدادت الفـجـوة في الدخل فبينمـا كان الفرق عـام ١٩٧٠ (١٤٪) أصبـح عـام ١٩٨٢ (٢٢,٢٪) وبالنسـبة للمـهاجـرين في الفترة ١٩٤٨ ـ ١٩٥٤ ظلت الهوة ثابتة طيلة الفترة ١٩٦٥ ـ ١٩٨٣.

ونلاحظ في الجدول رقم ٥ حول معدلات الدخل لعامي ١٩٦٣ ـ ١٩٦٤ عمق الفـجوة التي لا زالت قـائمـة حتـى الآن. فـالفـرق بين مـعدل الدخل الإجـمـالي للأسـرة الغـربيـة والأسـرة الشـرقيـة يبلغ ٢٧٨٣ لـيرة إسـرائيليـة. وفـي حـالة دخل الإجـراء نجـد أنّ الفـرق يزداد كثيراً حيث يصبح ٣١٩٨ ليرة إسـرائيلية وتتعمق الهوة بين المهـاجرين القـدماء إلى فلسطين حيث تصبح ٤٠٥٦ ليـرة إسـرائيلية وهذا أيضـاً ينفي أثر الأقدمية فـي الهجـرة في تحسين الوضع...

الجـدول (رقم ٦) يوضح توزع الأسـر اليـهـوديّة على أعـشـار الدخل الصـافي حـسب المخـدر الصحـافي. فنلاحظ أنّ اليهود الشـرقيين يتـركزون في الأعشـار الخمسـة الدنيـا ثم تبـدأ نسـبـة تواجدهم بالتضـاؤل حـتى تصل إلى ٩,٦٪ فقط من مـجمـوع الأسـر في العشـر الأعلى. بينمـا يحصل العكس بالنسبة لليهود الغربيين حيث يتركزون في الأعشـار الخمسـة العليا ثم تبدأ نسبـة تواجدهم بالتناقض من يشكلون ٢٩,١٪ من مجمـوع الأسـر في العشـر الأدنى[١] .

(١) مجلة الأرض، العدد السابع ٢١/١٢/, ١٩٨٥

وإذا كانت نسبة اليهود الشرقيين تفوق نسبة اليهود الغربيين في العشر الأدنى بمقدار ٩,٤٪، فإن اليهود الغربيين يفوقون الشرقيين في القسم الأعلى بمقدار ٥٦,٥٪. وهناك بالضبط تبدو الفجوة عميقة ولا يمكن ردها خلال عشرات السنين.

وخلاصة ذلك أنّ عشرات السنين التي مضت والتي ستأتي غير قادرة على إزالة الفجوة الكبيرة القائمة في الدخل بين اليهود الغربيين واليهود الشرقيين، لما يؤدي بالضرورة إلى إبقاء مستوى المعيشة للآخرين ولا يمكن أن يؤدي إلى حدوث تحسن في أحوالهم الاجتماعية الأخرى من حيث التعليم والسكن وسواهما. ولما كان الدخل في المجتمعات الرأسمالية يحدد الانتماء الطبقي فإن الطوائف الشرقية ستبقى في أسفل السلم الطبقي في المجتمع اليهودي في إسرائيل وستبقى تعيش في الضائقة.

الفصل الثاني

السكن و"أحياء الضائقة"

يستطيع اليهودي في إسرائيل الحصول على مسكن بإحدى طريقتين: أما عن طريق الحكومة أو على نفقته الخاصة. وبين النوعين المذكورين للمساكن يوجد فرق كبير بين المساهمة والنوعية. فالبيوت تتكون أساساً من البيوت العربيّة القديمة التي هجر أصحابها عام ١٩٤٨، أو من البيوت القديمة ذات المساحات الصغيرة التي لا تتجاوز ٤٥ متراً مربعاً والتي يسكنها اليهود قبل عام ١٩٤٨ وتركوها إلى الأحياء الجديدة. أما البيوت الخاصة فإنها على عكس ذلك، تكون حديثة وذات نوعية بناء جيدة من حيث المساحة وتوفر الشروط الصحية والاجتماعية المطلوبة فيها.

وتوجد في جميع المدن الكبيرة أحياء يطلق عليها اسم أحياء الضائقة أو الحزام الأسود مثل أحياء في تل أبيب ومصرارة في القدس ووادي الصليب في حيفا. من هذه الأحياء في صفد وطبريا وغيرها. وتتميز هذه الأحياء بصفد مساحة البيوت وضيق الشوارع والأزقة والبيوت المتراصة غير المنتظمة وبعدم توفر الخدمات الصحية اللازمة كالعرف الصحي المياه وجمع القمامة والإنارة والشوارع المعبدة.

ويسكن في هذه الأحياء عادة أبناء إسرائيل الثانية وهم أصلاً من الطبقات الدينية في المجتمع والذين يشكل اليهود الشرقيون غالبيتهم العظمى حيث أنهم يعتمدون في سكنهم على الدولة بعد بقائهم في العبروت فترات طويلة وصلت في بعض الأحيان إلى عشر سنوات.

ولما كانت الغالبية العظمى من اليهود الشرقيين تنتمي إلى المهاجرين بعد عام ١٩٤٨ وحتى أوائل الستينات وهي تلك المرحلة التي تميزت بالهجرة الواسعة ومحاولات القيادة الصهيونية استيعاب هذه الهجرة بحسب الخطط الصهيونية لنشر الاستيطان في المناطق المحتلة كافة عام ١٩٤٨ مع عدم توفر الإمكانية لبناء مساكن كافية لاستيعاب جميع الأسر المهاجرة فقد تم اللجوء إلى إنشاء مراكز الاستيعاب المؤقتة (معبروت) وهي عبارة عن مساكن مؤقتة من الخيم وبيوت التنك والتخشيبات حيث كان يسكن فيها عام ١٩٥٠ (١٨٠ ألف مهاجر في ١٢٣ معبراة) في مناطق متفرقة من الأرض المحتلة[١].

وقد كان المهاجرون من أوروبا وأمريكا شأنهم شأن المهاجرين من آسيا وإفريقيا ينقلون إلى المعبروت وذلك في بداية الأمر ولكن الإشكناز نجحوا في تقصير فترة مكوثهم في المعبروت. كما يقول ايلي تابور "لأن العلاقات العائلية ومعرفتهم باليشوف القديم الذين كان في معظمه إشكنازياً كان الأمور سهلت عمليّة استيعابهم في مراكز السكان القديمة المصدر نفسه ويقصد في المدن. ولكن المهاجرين من اليهود الشرقيين ظلوا فترات زمنية أطول وأحياناً سنين عديدة في المعبروت شكلت نقطة سوداء في تاريخ حياتهم كلها. فقد نشأ وترعرع جيل كامل من أبناء اليهود الشرقيين أطلق عليهم "جيل المعبروت".

وعند محاولات تصفية المعبروت قامت سياسة الحكومة على أساس نقل سكان المعبروت إلى مستوطنات جديدة في مناطق بعيدة ومقفرة ومقطوعة كالمعبروت نفسها[٢]. وبهذه السياسة لم تتم تصفية المعبروت علياً وقد هرب أغلبية سكن هذه المستوطنات النائية ومن المعبروت نفسها أيضاً إلى المدن الكبيرة وشكلوا أحزمة الفقر فيها وسميت أحياؤهم، أحياء الضائقة. وقد تشكل عدد كبير من اللجان الحكومية لجت إمكانات تحسينها منذ بداية السبعينات ولكن الوضع السكني الحالي لليهود الشرقيين يعكس فشل هذه اللجان التي لم تتمكن ولن تتمكن من ردم الفجوة الطبقية القائمة. فالأسرة اليهوديّة الشرقية التي تقع في أسفل السلم الاجتماعي من حيث نوعية العمل ومستوى الدخل، لا يمكنها الحصول على مسكن مناسب من حيث الشروط

(١) يديعوت أحرونوت ١٩٨١/٧/١٧.
(٢) المصدر نفسه.

الصحية والاجتماعية على الرغم من كلّ الادعاءات الرسمية في العمل على تحسين الوضع السكني لليهود الشرقيين. وتكشف الوقائع والإحصائيات الإسرائيليّة المختلفة حقيقة الوضع السكني لليهود الشرقيين. وتكشف الوقائع والمعطيات الإحصائية الإسرائيليّة المختلفة حقيقة الوضع السكني للأسر اليهوديّة الشرقية بالمقارنة مع وضع الأسر اليهوديّة الغربية التي تسكن غالبيتها في الأحياء الحديثة العصرية. ويمكن ملاحظة عمق الفجوة بين سكان الطائفتين من خلال المعطيات التالية:

- ازدادت نسبة مواليد إسرائيل بمقدار ٣,٨٪ ومواليد آسيا وإفريقيا القدماء ٣,٦٪ والجدد ٤,٩٪ بينهما ازدادت نسبة مواليد أوربا وأمريكا القدماء ١٦,١٪ والجدد ١١,٤٪ خلال فترة ثماني سنوات.

وترجع الزيادة في نسبة اليهود من مواليد آسيا وإفريقيا أساساً إلى توجيههم نحو الاستيطان في المناطق المحتلة على ١٩٦٧ واعطائهم تسهيلات كبيرة للسكن لإغرائهم في استيطان الأراضي العربيّة المحتلة من جهة وللتخفيض من مشكلات المدن الكبيرة من جهة أخرى. وفي عام ١٩٦٩ بقيت الفجوة السكانية كبيرة.

وفيما يتعلق بالمهاجرين فإن الفجوة واسعة أيضاً بين الطائفتين. وخلال الفترة ما بين ١٩٦١ و١٩٨٣ ازدادت الفجوة اتساعاً على الرغم من كل الادعاءات الرسمية وتشكيل اللجان الحكومية بالعمل على تضييقها[1].

(١) ملحق عال همشمار جوتام - ١٩٨٢/١٢/٢٦، ص ٢٢.

الفصل الثالث

الوضع التعليمي والثقافي

يعود التفاوت الثقافي بين اليهود الشرقيين والغربيين في جزء كبير منه إلى عوامل موضوعية تابعة من التفاوت الذي كان قائماً بين أوربا وأمريكا من جهة وبين بلدان الشرق العربي والإسلامي من جهة أخرى وينطبق ذلك على المهاجرين في بداية وصولهم إلى فلسطين المحتلة. ولكن بقاء هذا التفاوت بعد مرور عشرات السنين على هجرتهم وبوجود ادعاءات ومزاعم القادة الصهاينة عن تقدم المجتمع الإسرائيليّ وعن الفجوة الحضارية بين إسرائيل ومحيطها العربي يعتبر خير معبر عن فشل الصهيونية في تحقيق شعارها "دمج الشتات".

والتعليم والثقافة يعتبران مفتاحاً رئيسيةً لاكتساب الحضارة والمعرفة بجوانبها كافة. كما أنّ ايسر السبل وأسرعها لنقل الحضارة إلى الأمم والشعوب المختلفة وأفضل المجالات الممكنة لاكتساب الحضارة الحديثة من خلال الاندماج التعليمي والتربوي للنظم والعادات الحضارية الاجتماعية والثقافية والعلمية وغيرها. وقد تمكن العديد من الشعوب في العالم من القضاء ليس على التفاوت بين منطقة وأخرى أو التفاوت بين الريف والمدينة فحسب بل على أشد أشكال التخلف التعليمي والثقافي وتعني بذلك القضاء على الأمية خلال سنوات معدودات. ولكن بالرغم من مرور أكثر من خمسة عقود على قيام الكيان اليهوديّة فالهوة الثقافية والتعليمية بين اليهود الشرقيين

والغربيين ما تزال قائمة. والجداول ٩ ـ ١٠ ـ ١١ تبين بشكل واضح حجم الفجوة في الدراسات الجامعية الأولية والعليا.

وإزاء المعطيات التي تدل على انخفاض المستوى التعليمي لأبناء الطوائف الشرقية الذي يشكل الأساس للثقافة العامة ولدرجة الوعي العلمي والثقافي الاجتماعي لدى الأشخاص يمكننا القول أنّ المستوى الثقافي العام لليهود الشرقيين منخفض لدرجة كبيرة جداً إزاء اليهود الغربيين ونتيجة لضعف المستويات العلمية العالية من التحصيل الدراسي لدى اليهود الشرقيين، فإنهم يتجهون نحو الأعمال ذات المركز المنخفض، وهذا يؤدي إلى "انعكاس سلبي بالنسبة لاحتمالات دمجهم في النخبة الاقتصاديّة ـ السياسية الثقافية في إسرائيل التي تزداد متطلباتها العلمية بشكل مستمر[١].

ولما كان التحصيل العلمي يحدد نوع العمل ودرجته وهو بدوره يحدد مستوى الدخل الذي يتحكم بالمستوى المعيشي والسكني والثقافي، فإن آفاق تحسن وضع اليهود الشرقيين تبدو غير واردة.

(١) *شؤون فلسطينية العدد ١٤٠ - ١٤١، تشرين الثاني - كانون الأول ١٩٨٤*، ص ٤٥ __ ٦٨.

الفصل الرابع

التمييز في مجال العمل

لم يقتصر التمييز ضد اليهود الشرقيين على المجالات السابقة التي سببت فجوة كبيرة تفصل بين اليهود الشرقيين والغربيين بل شمل جمال الاختلاف الاجتماعي وبشكل خاص الزواج المختلط وكذلك التمييز الديني. ففي حالة الزواج المختلط يلاحظ أنّ هناك أحجاماً لدى اليهود الغربيين تجاه هذا النوع[1] من الزواج. فقد جاء في مقابلة مع عضو الكنيست شارلي بيطون من حركة الفهود السود قوله: لا يسمح الإشكنازيون بزواج أبنائهم وبناتهم من يهود شرقيين. وابدى استعداده لذكر عدد من الحالات التي يعرفها من هذا النوع . وبعد مرور أكثر من خمسة عقود على تأسيس الكيان وعلى رفع شعار دمج الشتات فإن نسبة الزيجات المختلطة بين اليهود ذوي الأصل الشرقي وذوي الأصل الغربي ما تزال ضئيلة.

وفي مجال التمييز الديني ضد بعض الطوائف اليهوديّة الشرقية يتجلى في معاناة اليهود الآسيويين الفلاشاه الذين يعانون إلى جانب ذلك التمييز العنصري بسبب لون بشرتهم. وقد أصرت الحاخامية الكبرى للاعتراف بهم كيهود أن يتعلم أولادهم في مدارس التيار الرسمي الديني[2]، وكذلك التمييز في حالة الزواج حيث يرفضون تسجيل زواجهم شرعياً ومدنياً إلاّ بعد إثبات يهوديتهم.

(١) حوتام - ملحق عال همشمار ١٩٨٢/٢/٢٦، ص ٢٢ .

(٢) هآرتس ١٩٨٢/١٢/١٤، ص ١١ .

وهكذا فالفجوة الطائفية بين اليهود الشرقيين والغربيين تعتبر بمثابة سياسة دولة يسيطر عليها اليهود الغربيون الإشكناز. وأنّ عمليّة ردم أو تقليص هذه الفجوة لا يمكن أن تتم بالتراضي عن طريق دعوة اليهود الغربيين للتنازل عن المستوى الطبقي الذي يعيشون فيه ولا عن طريق رفع مستوى اليهود الشرقيين، لأن ذلك يتوقف على مدى رغبة القيادات الإشكنازيّة فيه ـ أنّ ذلك لا يتم إلاّ عن طريق تغيير جذري للنظام السياسي ـ الاقتصادي.

لقد أصبحت أرضية الهرم الاجتماعي في الكيان الصهيوني امتيازاً شرقياً وذروته امتيازاً إشكنازياً كما يقول عالم الاجتماع الإسرائيليّ سامي سموحا، هناك فقط ٣٪ من أبناء الطوائف الشرقية يتواجدون في ذروة الهرم، والضائقة تكاد تكون كلها من نصيب أبناء الطوائف الشرقية.

وتخضع قضية إيجاد العمل في الكيان الصهيوني لسلم أولويات بائسة ومبرمجة، فالوظائف الرئيسيّة هي من اختصاص اليهود "الإشكناز" حيث يتحكمون في قيادة الأحزاب وإدارة الشركات الكبرى وهيئات البحث العملي والجامعات والمعاهد والوزارات والإعلام وقيادات الاتحادات "الهستدروت" أما يهود آسيا وإفريقيا فهم غير مرغوبين في الوظائف وإن حصلوا على وظيفة فغالباً ما تكون ثانوية مثل الكتبة والمساعدين.

ويطرح العديد من العلماء في الكيان الصهيوني نظريتين بخصوص أوضاع العمل المتردية لليهود الشرقيين: تدعي النظرية الأولى بوجود تمييز واضح في المجتمع يتمثل في تفضيل "الإشكناز" على السفاراديم "حتى في مجالات المساواة الثقافية والمساواة في المؤهلات" وتدعي النظرية الثانية أنّ أبناء الطوائف الشرقية هم ذوو ثقافة أخرى مختلفة ولا تناسب المجتمع الغربي أو المجتمع الذي يطمح لأن يكون غربياً، وهذه الثقافة تسبب الفشل في المنافسة مع الإشكنازيم".

ومن أجل تفحص هذه الادعاءات قامت دراسة لمتخصصين في علم الاجتماع هما البروفيسور عوزير شيلد والدكتورة فيرد كراوس استخلصت نتائج منها إن الادعاء بأن تزايد الاولاد في العائلات السفارادية هو طريق التقدم الاجتماعي وتحقيق مهنة محترمة ليس صحيحاً، وبينت الدراسة أيضاً أنّ الادعاء القائل بأن مصدر الهوة في الأساس البيتي فقط ما يبرره بصورة جزئية، ولكن كما يبدو هناك أثر لعوامل تمييز

الجـــــدول رقم(١)

السكان اليهود حسب قارة الولادة

السنوات وتاريخ الإحصاء	1948 8/11		1961 22/5		1972 19/5		1980 31/12		1981 31/12		1982 31/12		1983 31/12	
مجموع السكان	بالألف	%	بالألف	%	بالألف	%	بالألف	%	بالألف	%	بالألف	%	بالألف	%
المجموع الكلي	872,7	–	2179,5	–	3147,7	–	3921,7	–	3977,9	–	4063,6	–	4148,5	–
اليهود	716,77	100%	1932,4	100%	2686,7	100%	3282,7	100%	3320,3	100%	3373,3	100%	3436,9	100%
مواليد إسرائيل	–	–	106,9	5,5	225,8	8,4	459,6	14,0	494,6	14,9	532,8	15,8	574,2	16,7
آسيا	–	–	818,3	42,3	655,9	24,4	739,7	22,5	739,7	22,3	742,3	22,0	745,3	21,7
أفريقيا	–	–	–	–	617,9	23,0	744,4	22,4	744,4	22,4	754,3	22,4	766,3	22,3
أوروبا وأمريكا	–	–	1007,1	52,1	1187,0	44,8	1348,1	41,1	1341,7	40,4	1343,6	39,8	1354,4	39,3

أخرى لم تحدد أو لم يقض عليها، وقد أكدت الدراسة أيضاً بأنه في حال كان الأساس البيتي متساوياً (بين الأوروبيين والشرقيين فإن الهوة تبقى كبيرة).

وعلى هذا الوضع يعقب الدكتور موريه وهو يهودي مهاجر من العراق: "الحقيقة أنّه حكم علينا ما بين ليلة وضحاها بمواصلة حياتنا ضمن حالة المخلوقات الدنيا، لقد أطلقوا علي ألقابا كريهة، ولم يصدقوا أنني قادر على الفهم عندما أقرأ صحيفة إنكليزية، وفي الجيش أجابني النقيب لدى محاولتي دراسة العلوم السياسيّة في المساء قائلاً: من بحاجة إلى علمكم؟.. عليكم أن تكونوا عملاً"

الجـــــدول رقـم(٢)

بنية العاملين اليهود في الكيان الصهيوني في عام 1979...

العمل	مواليد أوربا أمريكا	مواليد آسيا إفريقيا	مواليد فلسطين المحتلة				مجموع العاملين اليهود
			الأب من مواليد			المجموع	
			أوربا أمريكا	آسيا إفريقيا	فلسطين المحتلة		
المجموع بالآلاف	391.5	316.2	192.2	152.2	55.9	410.3	1.118.1
النسبة المئوية	100.0	100.0	100.0	100.0	100.0	100.0	100.0
أصحاب المهن الأكاديمية والعلمية	12.7	2.6	15.5	2.3	8.5	9.4	8.7
المهنيون والفنيون والمشتغلون المرتبطون بهم	14.6	9.2	25.1	12.3	21.5	19.9	15.0
المديرون والمشتغلون بالأعمال الإدارية	5.4	2.9	6.0	1.8	5.3	4.3	4.3
المشتغلون بالأعمال الكتابية ومن إليهم	19.1	15.1	20.6	25.7	22.4	22.7	19.3
المشتغلون بالبيع	9.4	8.0	5.6	6.1	6.7	5.8	7.7
المشتغلون في الخدمات	9.1	18.5	4.8	10.4	7.1	7.4	11.1
المشتغلون في الزراعة	4.0	4.9	5.8	4.0	7.1	5.8	4.9
العمال المهرة في الصناعة والمناجم والبناء والنقل ومن إليهم	22.0	32.4	15.2	33.4	20.2	22.7	25.2
عمال آخرون في الصناعة والنقل والبناء والعمال غير المهرة	3.6	6.3	1.1	3.8	1.3	2.1	3.8

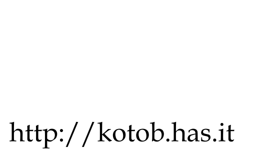
أنّ النخبة الإسرائيليّة المختارة ـ كما يقول شلومو فرنكل ـ هي بوضوح نخبة "بقية تقليدية"، وإن التحديد القائل بأن العامل "الحاسم في الانضمام إلى المقررين يتمثل في "المؤهلات الشخصية" عار عن الصحة تماماً.

ويتابع فرنكل قوله: أنّ المجتمع الإسرائيليّ ليس "مجتمعاً مفتوحاً" والقمة الإسرائيليّة ليست "قمة مفتوحة جداً" ولا يوجد للمجتمع الإسرائيليّ أي شكل من أشكال "المساواة" رغم الأساطير التي حاولوا تنميتها لدينا خلال عشرات السنين، والأسوأ من ذلك هو: أنّ المسيرة لا تتجه نحو الانفتاح الزائد والمساواة الزائدة، بل أنّ المسيرة عكسية" أننا نجد حتى في الإحصائيات الرسمية الفوارق الواضحة بالنسبة لبنية العاملين اليهود في الكيان الصهيوني فنلاحظ من قراءة الجدول رقم (٢) أنّ ذوي المهن الأكاديمية والعلمية يشكلون (١٢,٧٪) من العاملين من مواليد أوربا وأمريكا بينما يشكلون فقط (٢,٦٪) من بين مواليد آسيا وإفريقيا، ونجد نفس النسبة بالنسبة للأبناء الذين ينحدر آباؤهم من أصول أوربية ـ أمريكية حيث يشكل ذوو المهن الأكاديمية والعلمية بينهم (١٥,٥٪) بينما يشكلون فقط (٢,٣٪) من بين أبناء لآباء أصولهم آسيوية ـ إفريقية، وهذا ما يؤكد أنّ التمييز والفوارق الإثنية لم تزل بل امتدت من جيل لآخر.

وتبدو الصورة معكوسة لدى مقارنة نسبة العاملين في مهن ترتكز أساساً على العمل اليدوي، فالعاملون المهنيون المهرة في الصناعة والمناجم والبناء يشكلون (٢٢٪) من العاملين أبناء أوربا ـ أمريكا مقابل (٣٢٪) من العاملين أبناء آسيا ـ إفريقيا، ويشكل العمال المشتغلون في الخدمات (٩,١٪ بين الإشكناز) مقابل (١٨,٥٪ بين السفاراديين).

ويعتقد شاؤول بن سمحون عضو اللجنة المركزية للهستدروت (سفارادي) بأن إشراك أبناء الطوائف الشرقية في كلّ المؤسسات ليس كاملاً، وهو مع وقف التنفيذ لدرجة معنية، ويقول: "نحن موجودون في لجان كثيرة هنا ـ في اللجنة التنفيذية، والشركات الكبرى والبنوك والمؤسسات العامة ـ ولكن هذا لا يعني حتى الآن أننا موجودون بين من يتخذون القرارات، وهذا لم نتوصل إليه حتى الآن، ولا يبدو لي أننا سنفعل ذلك بصورة سريعة"[١].

(١) *مجلة الأرض العدد السابع ١٩٨٥/١٢/٢١ ص ٢١.*



الفصل الخامس

التمييز في مجال السكن

تعيش حوالي ٦٠ ألف عائلة يهودية في الكيان الصهيوني في شروط سكنية متدنية ومنها حوالي ٤٠ ألف عائلة تسكن في ظروف ازدحام تصل إلى ثلاثة أشخاص في الغرفة الواحدة، وما تبقى من مبان غير صالحة للسكن، والأغلبية الساحقة من هذه العائلات من الطوائف الشرقية.

ووفقاً لدراسة استقصائية لشركة إسكان العاملين جرت عام ١٩٧٧ كان على الأجير أن يدفع أجور عمل سنوات ونصف لكي يحصل على منزل، وفي عام ١٩٧٩ كان عليه أن يدفع أجور عمل سنوات ونصف) والوضع مستمر في التدهور حتى وصلت الصراعات للحصول على السكن شكل عمليات الاحتجاج المعروفة التي قامت بها حركة "هاأوهاليم" (الخيام) في القدس وفي أماكن أخرى من الكيان الصهيوني.

ويتركز أبناء الطوائف الشرقية عموماً في ما يسمى مدن "التطوير" وفي ضواحي المدن وأحياء الفقر وفي موشافات المهاجرين، "فمدن التطوير" كما يكتب سفير سكي وكتسير التي أقيمت بين السنوات (١٩٥٢ ـ ١٩٦٤) استوعبت جزءاً كبيراً من المهاجرين كجزء من سياسة حكومية لتوزيع السكان، ومدن التطوير هذه مركبة اليوم في أغلبيتها الساحقة من الشرقيين فأكثر من ٩٠٪ من السكان المولودين خارج الكيان الصهيوني في

مدن أوفكيم وشالومي ونتيفوت وحتسور وأيضاً ٦٠٪ من السكان المولودين خارج الكيان الصهيوني في مدن أسدود وأشكلون (عسقلان) وعكا هم من الشرقيين".

وتضيف الدراسة إلى أنه في عام ١٩٧٤ كان مجموع عدد السكان في مدن التطوير نصف مليون نسمة وكان ٧٠٪ منهم من الشرقيين أي حوالي (٣٥٠) ألف نسمة أي أن حوالي ٢٧٪ من مجموع السكان الشرقيين في الكيان الصهيوني كان يسكن في مدن صغيرة، وهناك دلائل على أن نسبة السكان الشرقيين في مدن التطوير أخذة بالازدياد.

ولدى تلخيصهما للمعطيات بالنسبة لمدن التطوير يكتب سفير يسكي وكتسير أن "مستوى الدخل فيها منخفض ومستوى الخدمات الثقافية أقل انخفاضاً، ومستوى الخدمات والمنشآت الصحية وعدد الأطباء لكل نسمة أكثر انخفاضاً فيها من وسط البلاد، وحالة السكن فيها متدنية أكثر في نوعيتها والازدحام أعلى بكثير، كذلك فالخدمات البلدية والإنفاق على النشاطات الثقافية والصحية والتعليمية لكل نسمة أقل بكثير مما هو عليه في وسط البلاد".

وفي سنوات الهجرة الكبيرة تم تحويل أغلب المهاجرين إلى ما يسمى مدن المهاجرين الصغيرة أو وحدات المهاجرين السكنية في أطراف المدن الكبيرة، كذلك فإن سكان هذه المناطق السكنية أصبحوا في غالبيتهم من الشرقيين، فمجموع سكان اللد والرملة وكريات آنا، وكريات ـ يام، وأوريهودا وأورعكيفا وطيرات الكرمل ويفنية، وأهود مفسيرت تسيون وروش هعاين (رأس العين) وصل في سنة ١٩٧٢ إلى حوالي ٢١٢ ألف نسمة ويقدر سفير يسكي وكتسير أن حوالي ٧٠٪ من هؤلاء السكان أي حوالي (١٥٠) ألف نسمة هم من أبناء الطوائف الشرقية.

ومن أصل ٢١٤ موشافا تم إقامته ما بين ١٩٤٨ ـ ١٩٦٣ هناك ١٦٧ موشافاً شرقياً متجانساً، وفي عام ١٩٧٢ بلغ عدد سكان هذه الموشافات حوالي (٨٠) ألف نسمة.

أما في المدن الكبيرة فلا يعيش في الضواحي الفقيرة مثل هاتكفاه في تل أبيب أو القطمون في القدس إلا الشرقيون، ويحشر اليهود في أحياء خاصة بهم، فيهود شمال إفريقيا مثلاً يعيشون في حي المصرارة بالقدس، واليهود اليمنيون في بلدة رأس العين قرب تل أبيب، وفي الجليل الأعلى يعيش يهود ليبيون في مستوطنة علما ومعظم سكانها جاءوا من مدينة زاوية الليبية عامي ١٩٤٩ ـ ١٩٥١.

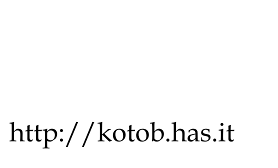
وهناك أحياء فقيرة أخرى منها وادي الصليب في حيفا، وشاطئ "شيمن" وفي

القدس لفتا والمالحة معظم سكانها من اليهود الشرقيين.

ونتيجة للأوضاع السيئة التي يعشيها اليهود الشرقيون فقد وقعت عام ١٩٥٩ مظاهرات عنيفة قام بها يهود شمال إفريقيا من سكان حي وادي الصليب في حيفا حيث الأوضاع السكنية والصحية غاية في التردي، وحدثت اشتباكات مع الشرطة، وكذلك حدثت في مطلع السبعينات مظاهرات عديدة نظمتها حركة "الفهود السود" وهي حركة نشأت عام ١٩٧١ في حي المصرارة بالقدس احتجاجاً على الفقر والتمييز ضد اليهود الشرقيين، وماذا كانت النتيجة؟ ... في كل مرة كانت السلطات تعتقل بعض المتظاهرين ثم ترسل لجنة "للتحقيق" في أوضاع اليهود الشرقيين المتردية ولا تخرج بأي جديد.

لقد قال أحد سكان علياه في يافا، وهو حي سواد ساكنيه من اليهود الشرقيين، مخاطباً أحد الصحفيين: "ليس من المفيد أن تكتب عنا، لأن قصص المقهورين الأبديين غير رائجة في السوق، وقد تعب الشعب وسئم منا .. لو كنت شاباً سليم الجسم لهربت من هذا المرحاض، والآن بعد أن أصبحت عجوزاً ضعيفاً لا يسعني سوى أن أشجع الشباب على الهرب من هنا، إلى مراكش إذا أمكن ذلك".

أما الطبقة الأخرى، وهي الطبقة التي يسميها شلومو فرنكل "طبقة متخذي القرارات" والتي بلغ تعداد أفرادها حوالي ٣٠٠ ألف إسرائيلي والمؤلفة من الستمائة عائلة التي تحتل قمة المجتمع الإسرائيلي وكل هذه العائلات تقريباً هي إشكنازية وقديمة فلا أهمية لموضوع ما إذا كانت تسكن في أحد الأحياء الراقية في تل أبيب أو منزل متواضع في مشمار هعيمق أو في فيلا مبنية على الطراز الإسباني في قرية فيتكين ففي القدس يقيمون في حي (هكيرم) وفي حيفا في حي الفيلات "دانيا" وفي تل أبيب في حي "نفية اميفيم" وغير ذلك من الأحياء "الراقية" التي لا توجد فيها أزمة هواتف وتوجد طرقات معبدة سليمة وأرصفة سوية ومناطق خضراء كثيرة ومسابح ومنشآت رياضية ومدارس جيدة .. هذا إضافة إلى البيوت الصيفية في مناطق الاستجمام في قيسارية وحوفيت وأسدود وصفد وطبريا كما في أوربا.



الفصل السادس

التمييز في التعليم

يعجز الكثيرون من أبناء الطوائف الشرقية عن متابعة تحصيلهم الثانوي والعالي وذلك بسبب الظروف المعاشية لعائلاتهم ولارتفاع تكاليف الدراسة، ففي حين يشكلون الأغلبية في المدارس الابتدائية نجد معدلات التسرب منهم ترتفع في المرحلة الثانوية والعالية.

وأن القرار الذي صدر عام ١٩٦٨ بإعفاء أولاد المهاجرين في عام ١٩٦٣ وما بعده من أقساط المدارس الثانوية لم يشمل أبناء الطوائف الشرقية لأن معظمهم قد هاجر قبل هذا التاريخ.

لقد كان الطلاب الشرقيون في عام ١٩٦١ في المدارس الثانوية يشكلون (١٢٪) فقط من مجموع الطلاب وفي مستوى الجامعة كانت نسبتهم (٥٪) فقط، أما في السبعينات فقد ارتفعت نسبتهم في المدارس الثانوية إلى (٣٠٪) وفي مؤسسات التعليم العالي إلى (١٣٪).

أما في عام ١٩٧٧ ـ ١٩٧٨ فقد كانت نسبة أبناء آسيا وإفريقيا (٥٥,٧٪) من التلاميذ في المدارس الابتدائية العبرية و(١٧٪) فقط من طلاب مؤسسات التعليم العالي.

لقد جاء في تقرير لمجلة "اوت" الإسرائيلية أن ثلاثة أرباع الطلاب ذوي المنشأ الغربي يجتازون "اليكر" (امتحان دخول المدارس الثانوية) بينما يسقط ثلثاً الطلاب

الشرقيين، وتصل الفجوة بين أبناء الطائفتين في الجامعات إلى خمسة مقابل واحد في الطوائف الشرقية.

ومن مظاهر الاحتجاج ضد سياسة التمييز في فرص التعليم ضد اليهود الشرقيين نورد ما قاله عضو المجلس البلدي في بئر السبع بن يائير تعقيباً على هذا الوضع: "نحن لا نريد مخازن أو مالاً أو عملاً أو أذونات، أن ما نريده هو أن يحصل أولاد المهاجرين من المغرب على فرص التعليم نفسها التي كانوا سيحصلون عليها لو بقوا في المغرب".

وهكذا، يجد العديد من أبناء الطوائف الشرقية بسبب الأعباء المالية للدراسة وظروف السكن غير الملائمة والموقف العنصري تجاههم صعوبة في متابعة الدراسة منهم يلجأون إلى المدارس الدينية التي تتبع نظامي التعليم للمفدال وأغودات إسرائيل.

ومن هنا فإن أبناء آسيا وإفريقيا الذين يشكلون حوالي ٥٠٪ من مجموع الطلاب في المدارس الابتدائية الرسمية تصل نسبتهم إلى ٧٥,٤٪ في المدارس الابتدائية الرسمية الدينية، والذين يشكلون ٤٧,٦٪ في المراحل الإعدادية الخاضعة للأشراف الرسمي تصل نسبتهم إلى ٨٢,٣٪ في المراحل الإعدادية الخاضعة للأشراف الرسمي الديني و٩٧,١٪ في المراحل الإعدادية التابعة للنظام "التعليم المستقل" التابع لاغودات إسرائيل.

أن نشوء التمايز الطبقي بارز بشكل خاص في التعليم الديني، فأبناء الشرائح الاجتماعية المغبونة يشكلون أكثرية كبيرة في المدارس الثانوية الدينية، بينما يصل أبناء الشرائح الاجتماعية النخبوية (غالبيتهم الساحقة من الإشكناز) إلى "يشيفوت ههسدير" المعروفة بمستواها العالي (وهي مدارس دينية عليا يتلقى فيها الطلاب أيضاً تدريباً عسكرياً).

ويعلق يهودا بن عيزر على واقع التعليم لأبناء اليهود الشرقيين في مقال بعنوان "كذب تاريخي وفعلي" بقوله: "يجد أبناء الطوائف الشرقية الذين وصل آباؤهم إلى إسرائيل إلى أمل أن يحصل أولادهم على التعليم المعاصر والإنساني والواعي الذي يؤهل الطفل ليكون ابن عصره، يجد هؤلاء أنفسهم في أماكن كثيرة من إسرائيل مقيدين أكثر بتيار التعليم الرسمي الديني الذي يبعد هؤلاء الأولاد عن التعليم المعاصر وعن تأهيلهم للحياة في عصر كعصرنا".

الفصل السابع

التمييز في الرعاية الاجتماعية

يقول الكاتب اليهودي افرايم سيفيلا في كتابه "وداعاً يا إسرائيل": "لقد حشروا اليهود الأفرو ـ آسيويين في غيتوات جديدة، حكموا عليهم بالبطالة التامة التي تفقد العزيمة، وأفسدوهم نهائياً بهبات هزيلة ومهينة أدت إلى إذلالهم وجعلت منهم متسولين في أدنى مستويات السلم الاجتماعي".

وفي الواقع فإن أعمدة الصحف الإسرائيلية والعالمية تمتلئ بقصص العاطلين عن العمل وقصص المجرمين السفاحين ومهربي ومسوقي المخدرات وبأخبار أسواق النخاسة التي تبيع الرقيق الأبيض وعصابات فرض "الخوة" والتي تتخذ قواعدها جميعاً في أحياء الفقراء التي يشكل اليهود الشرقيون أكثريتها الساحقة.

لقد ذكرت صحيفة عل همشمار: "أن أحياء تل أبيب مثل يافا القديمة والعجمي وجفعات علياه قد سجلت رقماً قياسياً قطريا في نسبة الشباب العاطلين عن العمل وعن الدراسة حيث وصلت إلى (٤٠٪) ونسبة من يتعلمون في تلك الأحياء مماثلة لنسب العاطلين عن العمل وعن الدراسة ووتيرة تحطيم هذه الأرقام القياسية في الأحياء ومدن التطوير سريعة جداً".

أما صحيفة دافار فقد ذكرت أن (٩٠٪) من الخاضعين لأشراف ضباط مراقبي الأحداث هم من أبناء الطوائف الشرقية أبناء الجيل الثاني والثالث من مواليد آسيا وإفريقيا وهم أبناء لعائلات تنطبق عليها المقاييس الثلاثة التي وصفتها لجنة كاتس:

دخل متدن، ازدحام سكني، وثقافة متدنية، وهم أبناء لعائلات تتميز بعلاقات داخلية مشوشة وقليلة المعرفة باللغة العبرية وأول ما يشغلها هو مشاعر الضيق اليومية المتمثلة باللباس والحذاء والسكن والغذاء وبكلمات أخرى: "فالجنوح كمشكلة أخلاقية لا يشغلهم بتاتاً".

وحتى المليونير الصهيوني نسيم جيئون زعيم الاتحاد العالمي لليهود الشرقيين فقد كتب في مجلة يهودية تصدر في سويسرا قائلاً: "أن أكثر من (٦٠٪) من اليهود الشرقيين ينقطعون عن إتمام الدراسة في وقت مبكر، وأن أكثر من ٢٥ ألف شاب تتراوح أعمارهم بين ١٤ ـ ١٧ عاماً يعانون من البطالة وعدم متابعة الدراسة وأن (٧٠٪) من الجانحين الشباب هم من أبناء الطوائف الشرقية".

لقد تهربت مختلف حكومات الكيان الصهيوني من معالجة جذرية شاملة للأوضاع الاجتماعية لليهود الشرقيين بأساليب مختلفة، فقد كان حديثها ينصب دائماً على "الشرائح الضعيفة" وعن "العائلات المحظوظة بكثرة الأولاد" وعن "المعوزين" وعن "من هم بحاجة إلى رعاية خاصة" وعن "الشبيبة الهامشية" وعن "سكان الضائقة" وخلاف ذلك من المصطلحات التي يجري عن طريقها تجزئة المشكلة وأحالتها إلى لجان وزارية وإلى عشرات المؤسسات الاجتماعية والخيرية، في حين لم تكف هذه الحكومات عن التحدث عن الفجوات الاجتماعية وضرورة تقليصها ومعالجتها مما يخلق لها الذرائع للاستجداء المستمر للدول الإمبريالية وليهود العالم، وقد علقت على ذلك صحيفة يديعوت أحرونوت مخاطبة "النخبة" في الكيان الصهيوني: "أنكم تحبون التحدث عن الفجوات الاجتماعية، وتتغنون بها كما تغنى نيرون بحريق روما، أنتم خلقتم هذه الفجوات، وأنتم حصلتم على المليارات من يهود المهجر مقابل يهود إسرائيل، ترى كيف وزعتم هذه الأموال؟ .. ومن سيقدم قرشاً واحداً لولا رواياتكم المؤثرة عن المتطلبات الأمنية لدولة صغيرة ومحاطة بالأعداء واعتبرتم الضائقة عملاً مدراً للدخل خاصة عندما تروون لليهود الرحماء في الولايات المتحدة عن فتيات وفتيان الأحياء الفقيرة الذين يتعاطون الدعارة والحشيش".

الفصل الثامن

التمييز داخل الجيش

في حديث مع الجنرال الاحتياط مردخاي غور رئيس الأركان السابق أجرته صحيفة عل همشمار أثناء الانتخابات الأخيرة بوصفه أحد قادة المعركة الانتخابية للمعراخ، قال غور: "كان عندي في اللواء الذي كنت على رأسه أو في اللواء جولاني (٨٠٪) من جماعات معينة من السكان .. وأن ٥٪ أو ١٠٪ منهم يصلون إلى مناصب كبيرة فقط، وهو أمر اعتبره في نظري شيئاً لا يطاق، ومع المدة فإن هذا التمييز لا يطاق في "دولة" إسرائيل ولاسيما في الجيش الإسرائيلي مما دعاني إلى تجنيد أعداد كبيرة جداً من الأشخاص ممن لم يجر تجنيدهم قبل الآن وكانت غالبيتهم الساحقة من أبناء الطوائف الشرقية".

ويؤكد هذا الواقع في مقابلة أخرى الصحفي الإسرائيلي يسرائيل زامير قائلاً: "حسب أقوال مردخاي غور فإن حوالي ٨٠٪ من جنود الجيش يعتبرون من أبناء الطوائف الشرقية في حين أن نسبة الضباط الكبار من رتبة رائد فما فوق من بين أبناء الطوائف الشرقية هي نسبة منخفضة جداً".

وكان زامير قد توجه بسؤال حول هذا الأمر إلى شالومو افتيال (اوسام أبو طبول) مدير دائرة توجيه الجندي المسرح (وهو يهودي مهاجر من المغرب) فأجاب أبو طبول بقوله: "لقد كانت الهجرة من شمالي إفريقيا هي الهجرة الوحيدة التي وجهوا أفرادها من السفن أو الطائرات إلى بلدات التطوير مباشرة، وباستيطانهم خلقوا حزام أمن

مؤثر "لدولة" إسرائيل بدءاً من إيلات وكريات شمونا وديمونة ومتسبيه رمون وسديروت ونتيفوت وشالومي ومعالوت وحتسور وما شابه ذلك، وليس سراً أن المعلمين والمربين الممتازين رفضوا الخروج لكي يدرسوا ويعلموا في بلدات التطوير فكيف يمكن لمربين شباب أن يصلوا إلى مثل هذه النتائج، لقد كان يوجد ما هو بمثابة تسلط أبناء الدول الأوربية على باقي الطوائف في إسرائيل فهم الذين حددوا هنا معايير الحياة، وكانوا بين الأوائل الذين أخذوا مراكز قيادية وتولوا السلطة هنا ... وأنني أظن أننا وضعنا ثقة بغيرنا أكثر من اللزوم فقد رأينا أمامنا يهودا فاعتقدنا بشكل ساذج بأنهم هم ونحن نشكل نفس الشيء".

ويؤكد صحفي أخر أن ٣٪ فقط من ضباط جيش العدوان الصهيوني الذين يحملون رتبة مقدم فما فوق هم من أبناء الطوائف الشرقية، حيث تكفي أصابع يد واحدة لتعداد أبناء الطوائف الشرقية الذين وصلوا في الجيش إلى رتبة تزيد عن رتبة عميد.

لقد قام يتسحاق كدمان أحد المسؤولين عن الشؤون الاجتماعية بزيارة وحدات من الجيش فاجتمع بوحدات كلها من أبناء الطوائف الشرقية تسيطر فيها سياسة التفريق بين "نحن" و"هم" والذين يخدمون في هذه الوحدات لم ينهوا دراسة المرحلة الابتدائية، وزار بالمقابل وحدات أخرى لا يوجد فيها أي من أبناء الطوائف الشرقية فوجد أن الجميع يحملون شهادة التوجيهي.

أن الطبقية والتمييز الإثني أوضح ما تكون في جيش العدوان الصهيوني في الفروع التكنولوجية كفروع الطيران وغيرها، "فالضباط الكبار هم من ذوي الأصول (الانجلو - سكسون من غرب أوربا) مع وجود نسبة كبيرة منهم من الكيبوتزيم (سكان الكيبوتس)، ويليهم في المرتبة يهود دول البلقان كرومانيا وبلغاريا مع نسبة عالية من "السود" الذين "اشكنزتهم" (أي جعلهم إشكناز) .. وتحت المستوى بالطبع هناك الجنود العاديون "السود" أو كما يقولون "الأنواع السيئة".

وهذا ما يؤكده أحد الصحفيين الإسرائيليين في زيارته لإحدى قواعد الطيارين الجدد التي لم يجد فيها طيارين ينتمون للطوائف الشرقية بل وجد أبناء هذه الطوائف في الكراجات وفي المطابخ فتوجه بسؤاله حول هذا الواقع إلى أحد قادة الجيش فكان جوابه: "إن مهمتي أن أخلق طيارين متفوقين والباقي ليس من شأني".

الفصل التاسع

التمييز في التمثيل السياسي

من المعروف أن الصفوة السياسية في الكيان الصهيوني والمتمثلة في عضوية الكنيست والحكومة والوكالة اليهودية والسلطات المحلية ومراكز الأحزاب والهستدروت والمجالس العمالية كانت وما زالت بيد الإشكنازيين حيث يشكلون الأغلبية الدائمة في هذه المؤسسات. ورغم ضآلة التمثيل السياسي لليهود الشرقيين في هذه المؤسسات فقد كان هدف زعماء البورجوازية الطائفية في الغالب حصر قضية اليهود الشرقيين في زيادة عدد ممثليهم في مؤسسات الصفوة السياسية هذه، وذلك عن طريق عرض القضية الطبقية كقضية طائفية بحتة وحصرها بمسألة التمثيل السياسي، فالهدف هو وببساطة توسيع التمثيل السياسي للبورجوازية الطائفة نفسها، فإن تلك القلة القيادية من أبناء الطوائف الشرقية التي وصلت إلى الكنيست أو الوزارة أو المؤسسات النخبوية الأخرى لم تكن في يوم من الأيام ممثلة لليهود الشرقيين داخل المؤسسة الحاكمة وأحزابها بقدر ما كانت ممثلة للمؤسسة الحاكمة لدى اليهود الشرقيين، فقد كان هدف هذه الزعامة رعاية مصالح النهج الحاكم وضمان الدعم السياسي للمؤسسة الحاكمة بدلاً من التضامن من الأوضاع الطبقية المتردية وبهذا الصدد تقول صحيفة عل همشمار: "هناك فقط حوالي ٥/١ (واحد إلى خمسة) أعضاء كنيست من أبناء الطوائف الشرقية، وهؤلاء الأشخاص بينهم المحامي الناجح ورئيس شركة التأمين وأبناء عائلات حاخامية غنية من المشكوك فيه ما إذا كانوا يتضامنون من أزمة أبناء

طائفتهم، وفي حال فعلوا ذلك لا توجد صعوبة أن نلاحظ النفاق واللامنطقية في هذا التضامن والعكس صحيح حيث أن بعضهم يريدون أن يزيلوا من ذاكرة الناس البطاقة الطائفية التي تتمسك بهم وهم يفعلون ذلك عن طريق نقل مدروس لنشاطاتهم إلى مجالات أخرى".

والعادة الشائعة هي أن أبناء الطوائف الشرقية الذين يصلون إلى مائدة الحكومة هم بمثابة وزراء هامشيين ليس إلا، ولهذا ترى صحيفة عل همشمار:

"أن ما يدور من حديث حول شق طريق في المجال السياسي أو غير ذلك لا يتعدى كونه خرافة ينطوي نشرها على اعتبارات ومناورات وأحابيل حول ضرورة إسكات الضمير وتهدئة الخواطر، وهكذا فإن السكان الذين كانوا يعيشون في محنة هم "سكان هدف" للإدارة الإشكنازية وفي الماضي استفاد من ذلك قسم من الأحزاب العمالية وخاصة المباي، وفي الأونة الأخيرة استفاد من ذلك الليكود والمفدال..".

لقد قام عام الاجتماع سبيرسكي في كتابة المعنون "ليسوا متخلفين ولكن مرغمين على التخلف" بنشر سلسلة مقابلات أجريت عام ١٩٧٨ مع حوالي مئة شخص وصفوا بأن لهم مكانتهم بين أبناء الطوائف الشرقية، نقتطف منها مقطعاً من أقوال عزراً العراقي الأصل المولود في فلسطين المحتلة وهو عضو في لجنة العمال في مصنع حكومي حيث يقول: "توجد طائفة في البلاد سيطرت تماماً على حياة هذه الدولة، ولا أخجل من أن أقول هذا، وهي الطائفة البولونية ـ رجال الهجرة الأولى أو الهجرة الثانية، في وزارات الحكومة التي كثيراً ما أتردد عليها وعلى الهستدروت. خذهم واحداً واحداً كلهم من أصل بولوني، الجميع، وأحد يسحب الآخر إلى هذه الوظائف الكبيرة، والطوائف الشرقية التي أنا واحد من أبنائها غير مشمولة في هذه الوظائف، أنهم رجال العمل الأسود .. الهستدروت هي البولونيون ولا نقاش في هذا، مع من أنت تتحدث؟ أنت ترى النقاش بين ميشل وبين بيجن وبين إيرليخ وبين ميشل، من هو إيرليخ ومن ميشل؟ وللبلهاء المراكشيين أقول: "ميشل هو بولوني، أغبياء أنتم لا تعرفون بيجن، أنه ليس مراكشياً بل أنه بولوني، وإذا كان هناك مراكشي واحد فهو دافيد ليفي، أنهم يغلقون فمه ويقولون له: أسكت وإلا ستطير من الحكومة وهو غير قادر على أن يفعل شيئاً، لماذا يأخذون دافيد ليفي إلى الحكومة؟ ومن أجل الأصوات !!.. "السفارادي" لا

يستطيع أن يقف في السلطة، السفارادي أقتله فلن يستطيع الوقوف في السلطة، إنه مباع..".

وفيما يلي بالتفصيل أوجه التمييز في الكنسيت والأحزاب السياسية(١):

يدعي القادة الصهاينة أنهم أقاموا نظاماً ديمقراطياً في فلسطين المحتلة. و الديمقراطية في مفهومها العام تعني حكم الشعب. وإذا تجاوزنا الظلم والاضطهاد الذي تعرض ويتعرض له المواطنون العرب منذ عام ١٩٤٨ حتى الآن، سواء منهم أولئك الذين سلبت أراضيهم وهجروا منها، أم أولئك الذين ظلوا تحت نير الحكم العسكري الإسرائيلي، لأن ذلك ليس مدار بحثنا هنا، فإن الزعم الإسرائيلي بديمقراطية الحكم تدحضه الوقائع والأحداث اليومية التي يعيشها اليهود الشرقيون فينطلق الجوانب الحياتية كافة، ومنها الجانب السياسي. فقد فرضت في هذا المجال، شأنه في ذلك الشأن بقية المجالات الأخرى، دكتاتورية "إشكنازية"، من خلال السيطرة على مفاصل الحياة السياسية بأكملها.

كتب يورام بيري في صحيفة دافار مقالاً بعنان "صعود القوائم الطائفية وسقوطها" قال فيه: "أن أمواج الهجرة الجماهيرية من شمال إفريقيا جلبت معها أناساً تنقصهم الثقافة السياسية الغربية المتطورة، فسلبيتهم السياسية، وارتباطهم الاقتصادي بالهيئات التي استوعبتهم، جعلاً منهم مادة خام، مريحة قابلة للخلط في أيدي أحزاب النظام. (هذه هي فترة الأيام السعيدة لصالح شباتي)(*). تلك الفترة التي رعت فيها أحزاب النظام زعماء طائفيين يعملون لحسابهم. وكذلك فهذه هي فترة مقاولي الأصوات بين الطوائف الشرقية.

وفي تلك السنوات نشأت المفارقة المطبوعة في جوهر القوائم الطائفية كافة وقد تم فور إقامة الدولة، تطوير ورعاية المعايير الأخلاقية التي تمثلت بشعار "دمج الشتات". وعمليا، فإن زعماء الدولة من شرق أوربا، قصدوا بذلك الشعار انصهار الطوائف الشرقية في المجتمع الإشكنازي. فالزعامة الجديدة التي بدأت تنمو في أوساط هذه الطوائف، تقبلت هذه المعايير، وبذلك أدخلت نفسها في ورطة. فمن ناحية بقيت عملية

(١) *هذه المعلومات مستقاة من مجلة الأرض العدد السابع - ١٩٨٥/١٢/٢١ ص ٢١ وما بعدها.*

(*) *عنوان فيلم عن حياة الطوائف الشرقية.*

الدمج مجرد أسطورة فقط، لأنهم لم ينجحوا في التوغل إلى مواقع الأحزاب والقيادة السياسية، ومن ناحية أخرى، لم يستطيعوا تشكيل قوائم مستقلة لأنهم كانوا يتهمون بالأضرار بمبدأ دمج الشتات المقدس".

الفصل العاشر

التميز داخل الكنيست

تجري الانتخابات البرلمانية في إسرائيل وفق مبدأ التصويت للقائمة وليس للأفراد، وعلى أساس الأسلوب النسبي، فالقائمة التي لا تحصل على نسبة ١٪ من مجموع أصوات الناخبين الصحيحة لا تدخل إلى الكنيست "البرلمان". وتكون هذه القوائم، عادة، ممثلة لأحزاب وحركات سياسية. فإذا علمنا أن نسبة اليهود الشرقيين إلى مجموع اليهود، كانت قليلة، وغير مؤثرة، وكانت غالباً غير صهيونية، لأن هؤلاء اليهود، إما من سكان فلسطين القدماء، أو ممن هاجروا إليها بدوافع دينية. وفي الوقت نفسه كانت الأغلبية الإشكنازية مسيطرة على أجهزة الحركة الصهيونية ، وعلى الأحزاب السياسية التي نشأت جميعها ـ بشكل أو بآخر ـ في البلدان الأوربية على هامش النشاط الصهيوني هناك. لذلك فإنه ليس لليهود الشرقيين أحزاب سياسية خاصة بهم، وكذلك لا يحتلون مواقع قيادية في الأحزاب الصهيونية، الغربية الأصل والانتماء، وهم بالتالي ظلوا يعيشون على هامش النشاط السياسي، وتوزعت انتماءاتهم بين الأحزاب القائمة.

كان ذلك قبل إنشاء الكيان الصهيوني، في عام ١٩٤٨، وحتى في سنواته الأولى، حيث كان نسبة اليهود الشرقيين تعادل حوالي ١٥٪ فقط من مجموع السكان اليهود. ولكن بعد الهجرة شبه الجماعية ليهود البلدان العربية وبعض البلدان الإسلامية، بدأت

هذه النسبة ترتفع بشكل متسارع حتى أصبحت في عام ١٩٥٩، ٤٣٪(*). ومن مقارنة ذلك بالجدول رقم (٢) يتبين حجم التمييز الذي يتعرض له اليهود الشرقيون على نطاق تمثيلهم في الكنيست، وهي أعلى مؤسسة سياسية مقررة في الكيان الصهيوني. ففي الكنيست الأولى ، في سنة ١٩٤٩، كان هناك فقط ٩ أعضاء كنيست من اليهود الشرقيين، من أصل ١٢٠ عضواً، العدد الكلي لأعضاء الكنيست، وهذا يعني نسبة ٨ و٧٪ من عدد أعضاء الكنيست، وذلك في الوقت الذي تبلغ فيه نسبة اليهود الشرقيين تعادل ١٥٪ من مجموع اليهود . وإذا كان الفرق في النسبتين، هنا، يعادل الضعف تقريبا، فقد ارتفع هذا الفرق في سنة ١٩٥٩، في الكنيست الرابعة، إلى درجة كبيرة جداً، إذا كانت نسبة تمثيل اليهود الشرقيين في الكنيست تعادل ٥ و١٢٪ لـ(٥) عضواً في الوقت الذي وصلت فيه نسبتهم إلى ٤٣٪ من مجموع اليهود. وهكذا ظلت الفجوة كبيرة بين نسبة اليهود الشرقيين إلى السكان ونسبة تمثيلهم في الكنيست حتى الانتخابات الأخيرة للكنيست الحادية عشرة في صيف ١٩٨٤، حيث وصل إلى الكنيست (٣٢) عضواً أي بنسبة ٥ و٢٦٪، في الوقت الذي وصلت فيه نسبتهم إلى المجموع الكلي لليهود إلى حوالي ٧٠٪.

دخل اليهود الشرقيون إلى الكنيست، بصفتهم الطائفية، في الكنيست الأولى ـ ١٩٤٩ والكنيست الثانية ـ ١٩٥٢، عندما شاركت في الانتخابات قائمتان طائفيتان هما: قائمة "الاتحاد الإقليمي للسفارديم وأبناء الطوائف الشرقية" وقائمة "اتحاد يهود اليمن في إسرائيل" ونالت الأولى ٤ أعضاء والثانية عضوين في الكنيست الأولى وتقلص الأعضاء الستة إلى ٤ أعضاء في الكنيست الثانية. وبعد ذلك لم تنجح أية قائمة طائفية في دخول الكنيست، رغم تفاقم الأوضاع الاجتماعية ـ الاقتصادية لأبناء هذه الطوائف، مما أدى إلى حصول الاضطرابات المتعددة بين أبناء هذه الطوائف وبين أجهزة السلطة في عام ١٩٥٩ وعام ١٩٧١ وغيرها ولكن تفاقم هذه الأوضاع، واشتداد الأزمات، وبلوغها حد المصادمات الدموية مع السلطة، لم يؤد إلى بلورة حركة سياسية مستقلة خاصة باليهود الشرقيين، بل وحتى عند ظهور بوادر تشكيل هذه الحركة في عامي ١٩٧٠ ـ

(*) راجع الجدول رقم (١)، مع الأخذ بنظر الاعتبار أن نسبة كبيرة من "مواليد إسرائيل" في السنوات الأخيرة، من ذوي أصول شرقية.

١٩٧١ في شخص "حركة الفهود السود" لم تنل تأييداً سياسياً كبيراً من أبناء هذه الطوائف يوازي الوزن العدد الذي يمثلونه (حوالي ٥٠٪)، وحجم الأزمة الاجتماعية ـ الاقتصادية التي كانوا يعانون منها، مما يدعو إلى التساؤل عن أسباب هذا الموقف السلبي لليهود الشرقيين تجاه حركة سياسية تنادي بأنصافهم.

وللإجابة عن هذا التساؤل، ينبغي التعرف أولاً على الأسباب التي دعت، عموماً، منذ الكنيست الثالثة، إلى عدم ظهور تنظيم مستقيم لليهود الشرقيين، أو قوائم انتخابية طائفية مستقلة لهم إلى الكنيست بعد اندثار القائمتين المذكورتين. أن السبب في ذلك يرجع أساساً إلى سيطرة الإشكناز على قيادات الأحزاب السياسية الصهيونية، وكذلك السيطرة على جميع مراكز اتخاذ القرار في الحكومة والكنيست ودوائر الاستيعاب والتوظيف وغيرها، هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فإن أسلوب التصويت النسبي على أساس القائمة للحزب منع وصول اليهود الشرقيين إلى الكنيست بسبب سيطرة الإشكناز على قيادات الأحزاب السياسية وتحكمهم في تعيين المرشحين لعضوية الكنيست وتحديد هويتهم، ووضع اليهود الشرقيين في مواقع غير مضمونة، ومن الجهة الثانية كان يطغى على اليهود الشرقيين أنفسهم ـ الذين عبأتهم الحركة الصهيونية نفسياً بشعار "دمج الشتات" ـ شعور غامر بإمكانية الاندماج داخل المجتمع اليهودي، استناداً إلى الوعود التي كالتهالهم الحركة الصهيونية والأجهزة التي قامت باستقبالهم، مع الإشارة إلى "جسامة المهمات الملقاة على عاتق الجميع بضرورة المساهمة ببناء الوطن"، والتنازل عن المكاسب الشخصية.

وهكذا فقد تمكنت الزعامة الإشكنازية من وضع اليهود الشرقيين ضمن إطار المؤسسات السياسية القائمة من خلال تضليل وتعمية المهاجرين منهم حديثاً بشعار "دمج الشتات" و"بناء الوطن" و"الدفاع عنه" وقد كان اليهود الشرقيون يفهمون "دمج الشتات" على أنه "مساواة" بين جميع اليهود بغض النظر عن الطوائف التي ينتمون إليها، أو البلد الذي قدموا منه، في حين كان اليهود الغربيون يفهمونه على أنه "انصهار" للطوائف الشرقية في قيم وأخلاقيات الإشكناز الأوربية، لأنهم "الشرقيون" أقل شأناً من الناحية الحضارية نتيجة تخلف البلدان التي قدموا منها ثقافياً واجتماعياً بالمقارنة مع أوربا.

لذلك فقد ساهمت هذه السياسة التي اتبعتها القيادات الإشكنازية، في تشتيت أصوات اليهود الشرقيين بين الأحزاب الصهيونية القائمة، من خلال تربية كوادر وقيادات طبقية من بين اليهود الشرقيين بعد أن جرى اختيارهم وضمهم إلى مراكز ثانوية في هذه الأحزاب. وأطلق على هؤلاء الزعماء اسم "مقاولي الأصوات" وهم الذين جندتهم الأحزاب الصهيونية للدعاية لها بين أوساط طوائفهم لكسب الأصوات لهذه الأحزاب. وكانت قادات الأحزاب تضع بعضهم في مراكز متقدمة بين المرشحين للكنيست بهدف الدعاية لها بين أوساط اليهود الشرقيين. علماً بأن هؤلاء لا يمثلون اليهود الشرقيين ـ طبقياً ـ في تلك الأحزاب أو في الكنيست، وكذلك في الحكومة.

أنهم ـ كما يقول حنان أنوش ـ "ممثلي البرجوازية اليهودية بين اليهود الشرقيين، وليسوا ممثلي اليهود الشرقيين ، وليسوا ممثلي اليهود الشرقيين داخل المؤسسة الحاكمة. فهذه القلة تدفع قدماً مصالح النهج الحاكم داخل "إسرائيل الثانية"(*) (ضمان الدعم السياسي وخلافه)، وليس العكس".

ولكن، وفي وقت متأخر، عندما اشتدت الضائقة باليهود الشرقيين، تحرك بعض "مقاولي الأصوات" السابقين لتشكيل قائمة طائفية جديدة سميت "حركة تقاليد إسرائيل ـ تامي" عشية انتخابات الكنيست العاشرة، في سنة ١٩٨١. وكان هؤلاء (أهرون أبو حصيرا وروبين بن تسيون ـ من حزب المفدال الديني، وأهرون اوزان ـ من حزب العمل) قد عجزوا عن تحقيق أية مكاسب لليهود الشرقيين ضمن أحزابهم حتى في حدود البرامج الانتخابية والوعود التي كانت تكيلها هذه الأحزاب لليهود الشرقيين قبل الانتخابات ، كما أن بعضهم عجز عن الوصول إلى قائمة مرشحي الكنيست.

ومع ذلك، وعلى الرغم من تجنيد طاقات وإمكانيات مالية كبيرة لقائمة تامي، فإن العوامل والأسباب التي خذلت قائمة الاتحاد السفاردي والقائمة الجديدة ولم تحصل إلا على ثلاثة أعضاء، فقط، وفي الكنيست الحادية عشرة (١٩٨٤) حصلت على مقعد واحد، وذلك على الرغم من أن نسبة اليهود الشرقيين بلغت في حدود ٧٠٪ من مجموع اليهود.

(*) مصطلح يعبر عن التمييز الطبقي داخل إسرائيل و"إسرائيل الثانية" تعني أبناء الطبقات الكادحة في المجتمع، على النقيض من إسرائيل الأولى التي تمثل أبناء الطبقة البرجوازية المسيطرة على مقاليد الحكم والاقتصاد.

الفصل الحادي عشر

التمييز داخل الحكومة

تتشكل الحكومة عادة، في إسرائيل، من أعضاء الكنيست، بناء على توازن القوى الموجودة فيها، التي تستطيع تشكيل حكومة ائتلافية(*)، ولما كان تمثيل اليهود الشرقيين في الكنيست، على قلته، مشتتاً بين أحزاب الائتلاف الحكومية، لذلك فإن وصولهم إلى الحكومة يتوقف على درجة تأثيرهم في تلك الأحزاب. ولما كان تمثيلهم في قيادات وزعامات هذه الأحزاب ثانوياً، فمن غير المتوقع ضمهم إلى الحكومة. وهكذا، فإن جميع الحكومات، التي تشكلت منذ عام ١٩٤٨، لم تضم ممثلاً للطوائف الشرقية سوى "بيخور شلوم شتريت" الذي تزعم قائمة "اتحاد السفارديم وأبناء الطوائف الشرقية" التي تم ذكرها آنفاً، والذي انضم إلى حزب المباي ـ العمل فيما بعد ـ الحاكم في عام ١٩٥٤. وقد عينه بن غوريون وزيراً للشرطة، وهي وزارة غير موجودة في الغالبية العظمى من حكومات العالم. علماً بأن شتريت من مواليد فلسطين عام ١٨٩٥ ـ وظل في الوزارة حتى وفاته في أواخر عام ١٩٦٦, كما ضمت الحكومة الياهو ساسون ـ من مواليد سوريا ـ كوزير للبريد في عام ١٩٦١، وهذه وزارة ثانوية كوزارة الشرطة، ويسرائيل يشعياهو ـ من مواليد اليمن ـ كوزير للبريد في عام ١٩٦٧ عندما نقلت وزارة الشرطة إلى ساسون، وشلومو هيلل ـ من مواليد العراق ـ كوزير للشرطة في عام ١٩٦٩,

(*) بسبب كثرة الانقسامات التي تحدث في الأحزاب الصهيونية وتعدد الأحزاب، بحد ذاته، لم يتمكن أي من الأحزاب بصورة منفردة، من تشكيل حكومة تنال ثقة أكثر من نصف أعضاء الكنيست. لذلك تلجأ الأحزاب الصغيرة لتجميع ٦١ صوتاً أو أكثر في الكنيست.

وهؤلاء الوزراء، جميعهم، ممن هاجر إلى فلسطين قبل قيام "دولة إسرائيل" في عام ١٩٤٨. ولم يدخل الحكومة الإسرائيلية، من اليهود الشرقيين، ممن هاجروا بعد قيام "الدولة"، إلا في عام ١٩٧٤ حين جاء أهرون أوزان في حكومة يتسحاق رابين الأولى، التي جاءت بعد فشل غولدامائير بالحصول إلى ثقة الكنيست. وفي حكومة مناحيم بيجين الأولى، بعد انتخابات الكنيست التاسعة عام ١٩٧٧ ووصول الليكود إلى السلطة نتيجة ارتفاع نسبة المصوتين من اليهود الشرقيين إلى جانب الليكود، والذي اعتبر في حينه شكلاً من أشكال الاحتجاج على سياسة حزب العمل، دخل إلى الحكومة كل من أهرون أبو حصيرا لوزارة الأديان ـ حزب المفدال، ودافيد ليفي لوزارة الاستيعاب ـ من حزب حيروت، وكلاهما مهاجري الغرب. وفي الحكومة الثانية التي شكلها بيجن أثراً انتخابات الكنيست العاشرة ـ حزيران/ ١٩٨١، أشرك فيها ثلاثة وزراء من اليهود الشرقيين وهم: موشي ليفي واهرون أبو حصيرا ومشي نسيم، وفي الوزارة التي شكلها يستحاق شمير بعد استقالة بيجن في أيلول ١٩٨٣، جاء دافيد ليفي وموشي نسيم ـ واهرون اوزان ومردخاي بن بورات. وفي حكومة بيرس الحالية هناك دافيد ليفي ويتسحاق نافون وموشي نسيم ومشي شاحل. وقد تقلد الوزراء الشرقيون في الحكومتين الأخيرتين وزارات البناء والإسكان والعدل عدا وزارة بيرس التي شملت وزارة التعليم والطاقة.

هكذا يلاحظ أن الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة دأبت على تعيين وزير أو اثنين وفي حالة واحدة ـ حكومة شمير ـ ضمت أربعة وزراء، يتسلمون وزارات ثانوية غير مؤثرة. وحتى عند تعيين دافيد ليفي نائباً لرئيس الوزراء، فإن صوته غير مؤثر بالقياس إلى صوت وزير الدفاع وصوت وزير الخارجية ما يسمى بـ"المطبق السياسي ـ الاقتصادي" في إسرائيل، وهو الذي يصوغ ويحدد مجمل قرارات الحكومات الإسرائيلية في المجالات السياسية و الاقتصادية وما يترتب عليها من نتائج اجتماعية.

لذلك فإن دور هؤلاء الوزراء، من اليهود الشرقيين، اقتصر دائماً على المطالبة، فقط، بتحسين أحوال اليهود الشرقيين ولم يتمكنوا من إجراء أي تحسين عملي يذكر على أوضاعهم السيئة. وذلك لأهداف دعائية انتخابية ليس أكثر، لأنهم كما قال حنان أنوش "ليسوا ممثلي اليهود الشرقيين"، وبالتالي فهم لا يعانون مما يعانيه هؤلاء اليهود من ضائقة اجتماعية ـ اقتصادية.

الفصل الثاني عشر

التمييز داخل الأحزاب

تتميز الأحزاب في إسرائيل - باستثناء الحزب الشيوعي - راكح - بأنها جميعاً أحزاب صهيونية تنتمي إلى ثلاثة تيارات أساسية، وتلتف حولها شبكة من الأحزاب والحركات الصغيرة التي جاءت نتيجة تشظيات للأحزاب الأصلية. وهذه التيارات الثلاثة هي: أحزاب حركة العمل أو ما يسمى باليسار الصهيوني، الأحزاب اليمينية، التي زحفت على ما يسمى بأحزاب الوسط واستوعبتها في داخلها، والأحزاب الدينية. وقد تشكلت نوى هذه الأحزاب جميعها على شكل حركات سياسية أو إرهابية "عسكرية"، في أوربا، ثم انتقلت إلى فلسطين المحتلة في فترات متفاوتة، وبذلك ترسخت عملية التقسيم هذه بين سكان فلسطين من اليهود أبان فترة الانتداب البريطاني، واتخذت صورتها النهائية قبل إنشاء الكيان الصهيوني في عام ١٩٤٨. وكانت تعمل هذه الأحزاب وسط شعارات "علمانية - وطنية - روحية"، داخل أوساط أبناء الطوائف الشرقية منذ موجات الهجرة الأولى لهذه الطوائف، وعلى رأس هذه الشعارات، كان شعار "دمج الشتات".

وقد كان لكل حزب قيادته "التاريخية" المسيطرة، وكل من أتى بعد ذلك يكون موقعه في أسفل السلم الحزبي، وهو ما أحتله المنتمون الجدد لهذه الأحزاب من أبناء الطوائف الشرقية. وقد كان النشاط الصهيوني في أوساط هذه الطوائف ، في بلدانها الأصلية، لا يجري بصفة سياسية معينة، بل كانت جميع الأحزاب الصهيونية تعمل تحت "سلطة

الحركة الصهيونية" وك"ممثلين عنها"، وكان الهدف الأساسي للجميع تهجير هؤلاء اليهود من مواطنهم الأصلية إلى فلسطين المحتلة لكي "يساهموا في بناء وطنهم"!!.

وبالنسبة لليهود الذين انخرطوا في العمل السياسي في أوطانهم الأصلية فقد انخرطوا في أحزاب محلية ولم تكن لهم أية علاقة بالأحزاب الصهيونية التي كانت قائمة في أوربا أو في فلسطين. ومن هنا جاء سبب عدم وجود تنظيم سياسي معين يمثل أبناء الطوائف الشرقية وعدم احتلالهم مراكز متقدمة في قيادات الأحزاب الصهيونية بعد هجرتهم.

وحتى قائمة اتحاد السفارديم وقائمة اتحاد مهاجري اليمن، لم تكونا قائمتين سياسيتين تمثلان حزباً سياسياً أو إيديولوجية سياسية معينة، ولهذا السبب فقد اندثرتا بسهولة واحتوت الأحزاب الصهيونية القائمة مؤيديهما.

أما حركة تقاليد إسرائيل ـ تامي، التي ظهرت قبيل انتخابات الكنيست العاشرة في عام ١٩٨١ بفترة قليلة جداً، فهي القائمة الوحيدة الطوائف ذات الطابع السياسي الواضح. وقد جاء تشكيلها بمثابة "احتجاج" باسم الطوائف الشرقية على الوضع المتردي الذي تعيشه هذه الطوائف على الرغم من وعود الأحزاب الصهيونية الكبيرة والحكومات التي شكلتها بحل الضائقة التي يعانون منها وإنهاء التمييز الذي يتعرضون له.

وقد كشف أهرون اوزان، أحد قادة الحركة، والذي كان يشغل مراكز هامة في حزب العمل(*)، الكثير حول أسباب تركه حزب العمل المساهمة في تشكيل هذه الحر الطائفية الجديدة، بعد أكثر من ثلاثين سنة على رفع شعار "دمج الشتات". قال اوزان عن سبب تركه حزب العمل: "أسف أن أقرر بأن حزب العمل انغلق على نفسه، ولم يرغب بسماع أي شيء. وفي أحد أحاديثي مع شمعون بيرس، بشأن تشكيل المكتب السياسي للحزب، سألته عن سبب عدم دخول المزيد من مهاجري آسيا وإفريقيا إلى المكتب السياسي، فقال لي بيرس أنه يتعرض لضغوطات، عندها قلت له أنني أكبر ضاغط في الاتجاه

(*) شغل أهرون أوزان منصب وزير في حكومة رابين عام ١٩٧٤، وهو أول وزير شرقي من المهاجرين بعد عام ١٩٤٨، ومنصب سكرتير عام حركة الموشافيم. وعضو في المكتب السياسي للحزب. كان الحديث مع أوزان في عهد حكومة بيجن الثانية قبل استقالته في خريف السنة نفسها.

المعـاكس، لكنني لم انجح في هذا العمل أيضاً". وأعلن اوزان أن هناك، لدى أبناء الطوائف الشرقية، خيبة أمل كبيرة من الماضي، ومن حقيقة أن وضعهم، على الرغم من كل شيء، لم يكن أفضل.

وعن حركة تامي وفيما إذا كانت ستشكل ظاهرة سياسية عابرة، قال اوزان: "ستكون حركة تامي ظاهرة عابرة في حياتنا السياسية، إذا قام ثلاثة يهود في دولة إسرائيل، ليس أكثر وهم. رئيس حكومة إسرائيل (مناحيم بيجن)، وزعيم المعارضة شمعون بيرس، وزعيم حزب المفدال، الدكتور يوسف بورغ، وجلسوا منا، وقرروا، أن كل واحد منهم، في حركته، وبتأثيره على المؤسسات التي يسيطر عليها، سواء أكانت هذه المؤسسات حكومية أم هستدروتية، إعطاء الاحترام المناسب، وفقاً للقدرة والمؤهلات، لمهاجري آسيا وإفريقيا، ليصبحوا شركاء في اتخاذ القرارات. فإذا تم مثل هذا الأمر، لن يعود هناك مبرر لوجود حركة تامي".

وسئل عما إذا كان المقصود إعطاء نسبة ٥٠٪ من التمثيل في الأحزاب، أجاب: "٥٠، ٦٠، ٧٠٪ أو ١٠، ٤٠٪ لا فرق إنما يجب إعطاء الإمكانية لكل واحد وواحد، وفقاً لمؤهلاته للتنافس".

وكان اوزان قد دعا اعتبار اليهود الذين هم من أصل آسيوي وإفريقي مواطنين لهم حقوق متساوية مع حقوق غيرهم، وتمكينهم من التنافس على أي منصب سياسي أو شعبي.

وقد أثارت الدعاية الانتخابية لقائمة تامي، التي ركزت على الجانب الطائفي ردود فعل عنيفة لدى قيادات الأحزاب الصهيونية، وحتى لدى جمهور واسع من اليهود الغربيين، على الرغم من أنها لم تدع إلى استعمال العنف في الحصول على مكاسب لأبناء الطوائف الشرقية لتحصين أوضاعهم[١].

(١) *مجلة الأرض العدد السابع* ١٩٨٥/١٢/٢١ ص ٢٦.

الجـــدول رقم (٣)

العاملون اليهود حسب المهنة وقارة المولد الأصلي/ 1983(*)

المهن والأعمال	المهاجرون المولودون في أوربا وأمريكا 363,2	المهاجرون المولودون في آسيا وأفريقيا	مواليد إسرائيل				المجموع الكلي(**)
			الأب مولد في:			المجموع	
			أوربا وأمريكا	آسيا وأفريقيا	إسرائيل		
المجموع الكلي ـ بالآلاف	363,3						
النسبة المئوية	100%	100%	100%	100%	100%	100%	100%
الأكاديميون والعلميون	13,9	2,9	14,6	2,7	7,6	8,7	8,7
الفنيون والتقنيون وسواهم	15,8	10,2	25,0	12,9	19,3	19,3	15,9
المديرون والرؤساء	6,9	3,5	7,7	2,2	6,3	5,2	5.1
الموظفون والكتبة	19,1	14,7	21,1	25,7	25,1	23,4	19,8
عمال البيع	8,4	8,4	7,3	7,2	6,1	7,1	7,9
عمال الخدمات	9,4	20,0	5,4	12,3	9,8	8,9	12,0
العمال الزراعيون	3,1	4,4	5,4	4,3	7,4	7,4	4,4
العمال المهرة في الصناعة وغيرها	21,0	31,1	12,5	29,7	17,0	20,1	23,3
العمال الآخرون ـ غير المهرة	2,8	4,8	1,0	2,7	(1,3)(***)	1,7	2,9

(*) المصـــــــــــدر: Statistical Abstract of Isral, No. 45 (1994), pp 348 - 349

(**) يشمل المجموع الكلي غير المعروفين

(***) العدد الموضوع بين قوسين(..) إما أن يكون تقديراً أو مشكوكاً في صحته



عدد أعضاء الكنيست من اليهود الشرقيين ونسبتهم إلى مجموع السكان وإلى أعضاء الكنيست

الكنيست	السنة	عدد الأعضاء من اليهود الشرقيين	نسبتهم إلى عدد أعضاء الكنيست	نسبة اليهود الشرقيين إلى مجموع السكان
الأولى	1949	9	7,8%	15%(1)
الرابعة	1959	15	12,5%	43%*
التاسعة	1977	22	18,3%	حوالي 50%(*)
العاشرة	1981	27	22,5%	حوالي 60%**
الحادية عشرة	1984	32	26,5%	أكثر من 70%**

(*) فرنكل شلومو: متخذو القرارات في الكيان الصهيوني - مؤسسة الأرض للدراسات الفلسطينية - دمشق ١٩٨٠، ص:٢٩.

(**) ملحق يدعوت احرونوت ١٩٨٤/٨/٣١ .

الجدول رقم (٤)

مؤشر معدلات الدخل المالي السنوي الكلي لأسر الإجراء في المدن حسب الأصل وفترة الهجرة(*)

السنوات / البلد الأصلي وفترة الهجرة	1965	1970	1980	1981	1982	1983
معدل الدخل الإجمالي (بآلاف الشيكلات) أسعار الميزانية	0.8	2,1	37,6	93,8	203,8	313,9
النسبة المئوية للزيادة والنقصان بالأسعار الاستهلاكية	00	22,1	2084,9	128,4	112,2	130,8
	المؤشرات الأصلي: مواليد أوربا وأمريكا 100%					
اليهود ــ المجموع	90.1	90.0	91.5	92.9	91.2	91.6
مواليد إسرائيل	108.6	103.3	93.8	97.0	92.5	92.8
مواليد آسيا وأفريقيا	71.7	73.9	80.1	80.8	81.1	81.6
المهاجرون منهم حتى 1947	90.3	83.6	89.0	87.4	87.6	89.8
1948 ــ 1954	71.5	75.8	83.1	84.4	83.6	85.1
1955 ــ 1960	63.7	72.4	75.8	77.4	81.0	87.1
1961 وما فوق		63,2	75.7	75.3	72.2	71.4
مواليد أوربا وأمريكا	100	100	100	100	100	100
المهاجرين منهم حتى 1947	120.5	111.3	115.6	109.0	113.4	106,5
1948 ــ 1954	91.0	98.6	102.2	108.6	102.4	105,0
1955 ــ 1960	79,5	92,5	97,1	97.4	97.0	93.6
1961 وما فوق		77.2	88.8	89.6	95.1	93.6
العرب	00	61.1	64.9	59.1	63.9	61.1

(*) المصـــــــــــــدر: *Statistical Abstract of Isral, No. 45 (1994), pp 293*

جدول رقم (5)

معدل الدخل الإجمالي والصافي للسكان اليهود في المدن حسب قارة الولادة وفترة الهجرة لرب الأسرة(*)

قارة الولادة وفترة الهجرة	مدخولات مجموع السكان: المعدل بالنسبة لوحدة الدخل بالليرة الإسرائيلية - الدخل الإجمالي	مدخولات مجموع السكان: المعدل بالنسبة لوحدة الدخل بالليرة الإسرائيلية - الدخل الصافي	مدخولات مجموع السكان: النسبة المئوية للأسر	مدخولات العاملين في المدن: المعدل بالنسبة لوحدة الدخل بالليرة الإسرائيلية - الدخل الإجمالي	مدخولات العاملين في المدن: المعدل بالنسبة لوحدة الدخل بالليرة الإسرائيلية - الدخل الصحافي	مدخولات العاملين في المدن: النسبة المئوية للأسر
المجموع	6633	5585	100	7160	6101	100
المولودون في آسيا وأفريقيا المجموع	4824	4368	33.8	5209	4777	35.5
المهاجرون منهم حتى 1947	5304	4569	5.1	5901	5264	4.1
1948 ـ 1954	4959	4511	20.0	5473	4993	21.3
منذ 1955	4226	3919	8.7	4420	4117	10.1
المولودون في أوربا وأمريكا المجموع	7607	6242	54.3	8407	6958	50.8
المهاجرون منهم حتى 1947	9008	7128	24.2	9957	7983	21.9
1948 ـ 1954	6916	5857	21.7	7946	6736	20.0
منذ 1955	5354	4685	8.4	5597	4911	8.9
المولودون في إسرائيل	7401	6100	11.9	7628	6414	13.7

الجدول رقم(٥)

(*) المصدر: *Statistical Abstract of Isral, No. 45 (1994), pp 1881*

الجدول رقم(٦)

توزيع الأسر على الأعشار حسب الدخل الصافي في الطبقة للفرد القياسي وبلد المنشأ وفترة الهجرة 1979 ـ 1980(*)

بلد المنشأ وفترة الهجرة / الأعشار	اليهود المجموع	مواليد إسرائيل	مواليد آسيا وأفريقيا			مواليد أوربا وأمريكا			العرب
			المجموع	مهاجرون قدماء	مهاجرون جدد	المجموع	مهاجرون قدماء	مهاجرون جدد	
الأول الأدنى	73.8	6.2	38.5	23.6	14.9	29.1	11.7	17.4	26.2
الثاني	84.8	8.6	40.8	33.9	6.9	35.4	19.6	15.8	15.2
الثالث	85.6	16.1	36.8	27.1	9.7	32.7	22.1	10.6	14.4
الرابع	89.3	15.6	41.1	31.7	9.4	32.6	24.2	8.4	10.7
الخامس	96.0	21.9	36.2	31.0	5.2	37.9	27.9	10.0	4.0
السادس	98.0	25.9	31.4	27.3	4.1	40.7	31.7	9.0	2.0
السابع	100	32.8	28.4	23.7	4.7	38.8	29.2	9.6	00
الثامن	100	27.4	23.0	19.0	4.0	49.6	38.4	11.2	00
التاسع	100	33.3	12.0	9.1	2.9	54.7	39.6	15.1	00
العاشر الأعلى	99.5	23.7	9.6	9.1	0.5	66.1	57.1	9.0	0.6
المجموع	92.7	21.1	29.8	23.6	6.2	41.8	30.2	11.6	7.3

(*) المصـــــــــــــــــــدر: *Statistical Abstract of Isral, No. 45 (1994), pp 287*



جدول رقم (7)

(*)مجموع الأسر اليهودية والكثافة السكنية حسب الأصل وفترة الهجرة لرب الأسرة

الأصل وفترة الهجرة	المجموع الكلي لليهود(**)	مواليد إسرائيل				مواليد آسيا وأفريقيا				مواليد أوروبا وأميركا					العرب
			الأب مولود في				هاجروا				هاجروا				
عدد الأفراد في الغرفة الواحدة		المجموع	إسرائيل	آسيا وأفريقيا	أوروبا وأميركا	المجموع	حتى 1960	1961-1964	1965 وما بعدها	المجموع	حتى 1960	1961-1964	1965-1968	1969 وما بعدها	
1980															
أقل من 1	31.3	24.3	29.5	15.3	29.1	19.0	18.3	16.3	27.4	45.4	48.0	42.0	39.8	38.5	5.1
1	22.9	24.2	22.8	23.5	25.0	17.5	17.6	14.0	21.0	26.4	24.8	30.9	21.1	30.7	9.3
1.01 — 1.49	20.0	26.1	22.6	23.3	29.4	19.5	19.6	20.0	18.9	16.4	15.5	16.2	23.6	18.7	7.8
1.50-1.99	12.8	13.7	11.3	19.6	10.2	19.7	20.0	21.0	16.6	6.8	6.6	6.6	9.2	7.0	12.9
2	7.1	7.0	9.1	10.3	3.9	11.9	12.2	13.2	7.7	3.4	3.5	2.5	(3.5)**	3.4	12.6
2.01 — 2.49	2.0	1.2	(1.7)	2.0	(0.5)	4.5	4.2	6.8	(3.1)	0.5	(0.4)		(0.5)	(0.9)	6.6
2.50 — 2.99	2.2	1.8	(1.3)	3.2	(0.9)	4.3	4.4	4.6	(3.1)	0.7	0.7	(0.8)	(1.5)	(0.4)	10.4
3 وأكثر	1.8	1.8	1.7	2.8	1.0	3.6	3.7	4.2	2.1	0.6	0.5	(0.7)	(0.7)	(0.3)	35.2
المجموع: النسبة المئوية	100	100	100	100	100	100	100	100	100	100	100	100	100	100	100
المجموع: الأسر بالآلاف	894.4(***)	233.5	36.8	82.6	112.7	289.2	217.0	39.8	29.8	371.0	253.8	30.4	11.7	73.4	88.3

(Footnotes)

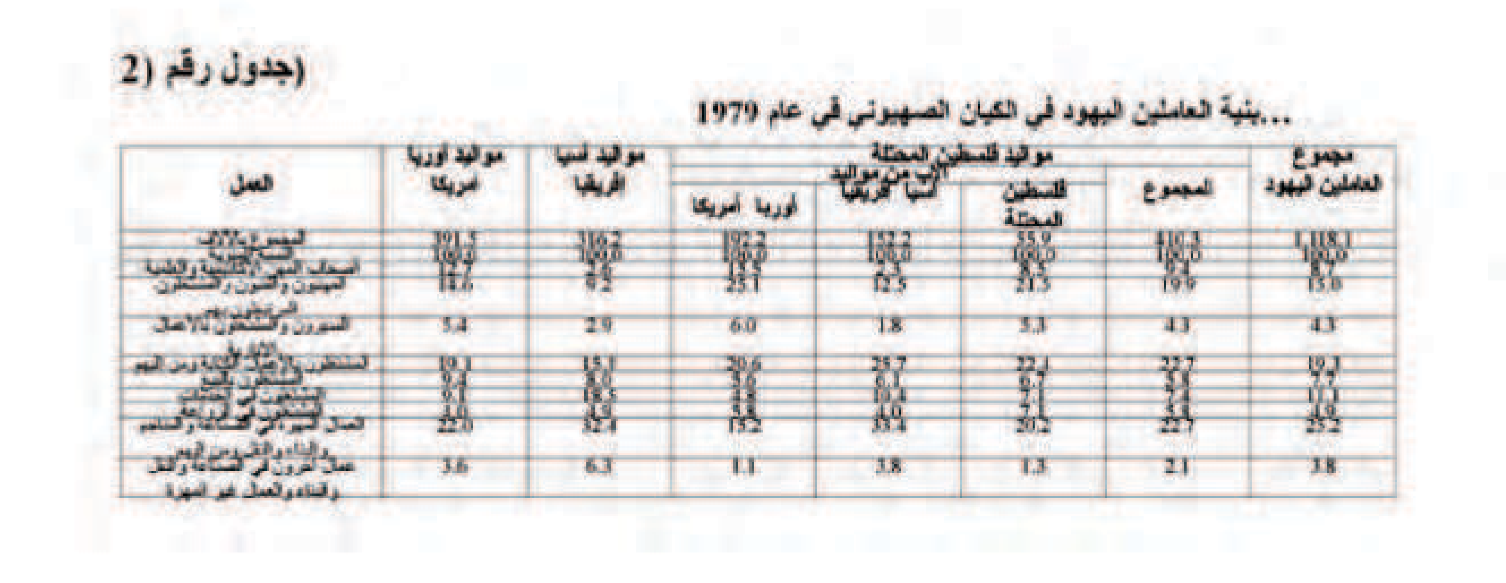
(*) المصدر: Statistical Abstract of Israel, No.35,1984; p.301

(**) يشمل المجموع الأسر غير المعروفة.

(***) النسب المئوية الموضوعة بين قوسين إما أن تكون تقديرية أو مشكوك في صحتها.

(*) المصــــــــــــــــدر: *Statistical Abstract of Isral, No. 45 (1994), pp 301* .

(*) يشمل مجموع الأسر غير المعروفة



(جدول رقم 2)

...بنية العاملين اليهود في الكيان الصهيوني في عام 1979

العمل	مواليد أوربا أمريكا	مواليد آسيا أفريقيا	مواليد فلسطين المحتلة: الأب من مواليد أوربا أمريكا	مواليد فلسطين المحتلة: الأب من مواليد آسيا أفريقيا	مواليد فلسطين المحتلة: الأب من مواليد فلسطين المحتلة	مواليد فلسطين المحتلة: المجموع	مجموع العاملين اليهود
[illegible]	391.5	316.2	192.2	152.2	55.9	410.3	1,118.1
[illegible]	100.0	100.0	100.0	100.0	100.0	100.0	100.0
أصحاب المهن الأكاديمية والعلمية	14.7	[illegible]	15.5	2.5	8.5	9.4	8.7
[illegible]	14.6	9.2	25.1	12.5	21.5	19.9	15.0
[illegible]	5.4	2.9	6.0	1.8	5.3	4.3	4.3
[illegible]	19.1	15.1	20.6	25.7	22.4	22.7	19.3
[illegible]	9.4	8.0	[illegible]	6.1	9.7	[illegible]	7.7
[illegible]	9.1	18.5	4.3	10.4	7.1	[illegible]	11.1
[illegible]	4.0	4.5	5.8	4.0	7.1	4.8	4.9
[illegible]	22.0	32.4	15.2	33.4	20.2	22.7	25.2
[illegible]	3.6	6.3	1.1	3.8	1.3	2.1	3.8

جدول رقم (8)

التلاميذ اليهود حسب مراحل التعليم ونوع الدراسة والأصل/ بالنسب المئوية(*)

			مواليد إسرائيل	مواليد آسيا وأفريقيا	مواليد أوربا وأمريكا	المجموع %
المدارس الابتدائية		1976 ـ 1977 مجموع	20.3	55.7	24.0	100
		1979 ـ 1980 مجموع	23.6	52.1	24.3	100
		الصف الأول	27.6	49.1	24.3	100
		الصف السادس	20.7	54.6	23.3	100
المدارس المتوسطة		1976 ـ 1977 مجموع	14.6	57.4	24.7	100
		1979 ـ 1980 مجموع	18.8	55.2	27.9	100
		الصف السابع	19.4	55.8	26.0	100
		الصف الثامن	18.5	56.8	24.7	100
		الصف التاسع	19.2	54.9	25.9	100
المدارس الثانوية		1976 ـ 1977 مجموع	15.4	50.6	34.0	100
		1979 ـ 1980 مجموع	18.6	51.9	29.5	100
	نوع التعليم	علم نظري	23.4	39.9	36.7	100
		صفوف تكميلية(**)	37.2	20.9	41.9	100
		مهني	12.9	64.4	22.7	100
		زراعي	17.1	64.6	18.3	100
		الصف العاشر	19.0	52.7	28.3	100
		الصف الحادي عشر	18.3	51.3	30.4	100
		الصف الثاني عشر	17.5	49.6	32.9	100
		الصف الثالث عشر	14.5	38.8	46.7	100
		الصف الرابع عشر	10.1	36.8	53.1	100

(*) المصـــــــــــــــــــدر: *Statistical Abstract of Isral, No. 45 (1994), pp 625*

(**) الصفوف التكميلية: صفوف فوق الثانوية ملحقة ببعض المدارس، ويعبر عنها في الجداول" الصف الثالث عشر والصف الرابع عشر

الجـــدول رقم(٨)

الجـــدول رقـم(٩)

السنة الدراسية / الأصل وفترة الهجرة	1964 ـ 1965	1965 ـ 1966		
		المجموع	طلاب البكالوريوس	طلاب الماجستير والدكتوراه
المجموع	17188	20498	17136	3362
مواليد إسرائيل:	10263	11943	10082	1861
الأب مولود في إسرائيل	1136	1353	1192	161
آسيا وأفريقيا	375	482	432	50
أوروبا وأمريكا	8149	9483	8259	1224
غير معروف	603	625	199	426
مواليد آسيا وأفريقيا	1594	1927	1720	207
منهم هاجروا حتى 1954	1162	1352	1209	143
مواليد أوروبا وأمريكا	5180	6457	5189	1268
منهم هاجروا حتى 1954	3712	4535	3582	953
غير معروفين	151	171	145	26

(*) المصـــــــــــــــدر: *Statistical Abstract of Isral, No. 45 (1994), pp 609* .

الجـــــدول رقــم (١٠)

السنوات الدراسية	1965 ـ 1964	1970 ـ 1969	1975 ـ 1974	معدل السنتين الدراسيتين 1979/78 ـ 1978/77	1981 ـ 1980
المجموع	3.8	6.3	7.2	6.8	6.7
الذكور	5.4	7.0	8.0	7.3	7.0
الإناث	2.8	5.6	6.3	6.4	6.5
العمر: 20 ـ 24	5.6	8.1	9.0	8.9	8.2
العمر: 25 ـ 29	2.5	3.5	5.1	4.7	5.4
	قارة أو البلد الأصلي				
إسرائيل المجموع	8.1	9.9	9.5	7.5	7.2
الأب مولود في: إسرائيل	5.2	7.5	10.0	11.3	..
آسيا وأفريقيا	1.6	2.5	3.0	2.6	00
أوروبا وأمريكا	10.7	12.6	14.0	12.7	00
آسيا وأفريقيا	0.8	1.6	2.1	2.1	2.8
أوروبا وأمريكا	5.3	9.8	8.4	9.8	9.1

(*) المصـــــــــــــــدر: *Statistical Abstract of Isral, No. 45 (1994), pp 638*

الجدول رقم (11)

جدول رقم (11)

طلاب الجامعات حسب المرتبة الدراسية والأصل(*)

السنوات الدراسية والمرتبة العملية / اليهود حسب الأصل	1964ـ1965	1969ـ1970	1974ـ1975	1978ـ1979: المجموع	1978ـ1979: المرتبة الأولى "بكالوريوس": المجموع	1978ـ1979: المرتبة الأولى "بكالوريوس": منها في السنة الأولى	1978ـ1979: المرتبة الثانية "ماجستير"	1978ـ1979: المرتبة الثالثة "دكتوراه"
اليهود المجموع	99	97.9	97.1	94.0	96.7	97.1	98.5	98.7
مواليد إسرائيل المجموع	47.9	63.2	66.6	68.8	66.8	62.7	55.7	59.9
الأب مولود في إسرائيل	4.6	8.4	13.7	12.6	11.3	7.3	5.6	5.3
آسيا وأفريقيا	(2.7)	6.0	14.1	13.5	11.5	7.1	3.2	2.2
أوروبا وأمريكا	40.3	48.7	37.9	41.1	42.8	48.0	45.9	47.8
مواليد آسيا وأفريقيا	6.0	(5.6)	(5.5)	7.3	6.9	8.8	10.2	9.3
مواليد أوروبا وأمريكا	45.1	29.1	29.1	25.0	23.0	25.6	32.5	30.4
العرب	(1.0)	(2.0)	(2.9)	3.7	3.3	2.9	1.6	1.3

(Footnotes)

(*) المصدر: Statistical Abstract of Israel, No.35, 198, p.663.

(*) المصـــــــــــــــــــدر: *Statistical Abstract of Isral, No. 45 (1994), pp 663* ·

الفصل الثالث عشر

التمييز ضد اليهود الشرقيين

عاش اليهود الشرقيون في البلدان التي كانوا يقيمون فيها ضمن أطر الروابط العائلية الوثيقة، والطاعة الطائفية، ومفاهيم الحياة الدينية القوية، وبصفة عامة ضمن إطار بنية اجتماعية تقليدية.

ولقد واجه اليهود الشرقيون منذ اللحظات الأولى لهجرتهم إلى الكيان الصهيوني مشاعر الإحباط والغبن وذلك بسبب تقويض القيم والمفاهيم التي كانت مألوفة لديهم لدى اصطدامهم الحاد بنمط المجتمع الرأسمالي الغربي الذي حاول بناءه مؤسسو الكيان الصهيوني من الإشكنازيين، ونتيجة ضغوط استيعاب الهجرة الجماعية وإيجاد حول سكنية سريعة وأماكن عمل مؤقتة، إضافة إلى مشكلات اللغة والاتصال والعلاقات، وجد اليهود الشرقيون أنفسهم في أسفل الشرائح الاجتماعية، وخصوصاً من كان منهم ينتمي في بلاده الأصلية إلى فئات صغار أرباب الأعمال كالحرفيين والباعة المتجولين وصغار التجار وغيرهم، في حين أن أغلب هذه المشكلات لم تواجه موجات الهجرة من أوربا وأمريكا الأمر الذي سهل انخراط الإشكنازيين في نمط المجتمع الذي لم تكن أغلب قيمه بعيدة عنهم بعدها عن الطوائف الشرقية، وهكذا ترسخ منذ البداية انقسام طائفي طبقي كان يحتد من حين لآخر، وبدأت نتائجه تتراكم

سنة بعد أخرى حتى ظهرت ملامحه أشد ما تكون في الأشهر الأخيرة، وفي حين كانت الأحزاب والحكومات الصهيونية تواجه هذا الانقسام بالتعبئة الإيديولوجية المتمثلة بشعارات "دمج الطوائف" و"المساواة بين الطوائف" و"كل اليهود أخوة" و"أخوة الدم" وغير ذلك من الشعارات، فلم يكن المقصود دائماً إلا اندماج اليهود الشرقيين في أطر وقيم ومفاهيم وأهداف المجتمع الرأسمالي للإشكنازيين وتحطيم الكبرياء الذاتية والأطر الاجتماعية التقليدية لليهود الشرقيين باعتبارها أطراً بالية متخلفة، والاستغلال الواسع لقوة عملهم الرخيص التكلفة في تشغيل آلتي الإنتاج والحرب.

غير أن ذلك لم يمنع المؤسسة الحاكمة في الكيان الصهيوني في أحيان كثيرة من استخدام نفس الأطر التي تحاول تهديمها وكل أشكال التنظيم الحمائلي والعائلي لليهود الشرقيين وكل مفاهيمهم وأحاسيسهم الدينية كلما دعت الحاجة إلى ذلك، مستعينة بالزعامة البورجوازية الطائفية لليهود الشرقيين التي اندمجت سريعاً في خدمة أهداف المشروع الصهيوني.

وقد اتبعت الأحزاب والحكومات الصهيونية أساليب متعددة لامتصاص مشاعر الإحباط والغبن الذي بدأ يتراكم نتيجة التمييز الطبقي الطائفي، ومن هذه الأساليب:

- أولاً: إذكاء الغرائز القومية المتطرفة، فالإحساس "بالمصير القومي المشترك" الذي نماه حزب المباي بالأساس في أوساط المهاجرين الأوائل من اليهود الشرقيين استخدم كعامل تعويض عن مكانتهم المتدنية في المجتمع وجعلهم ينظرون إلى التمييز ضدهم كظاهرة مؤقتة، في حين جرى توجيه مشاعر الغضب والإحباط نحو العرب بصورة خاصة: العرب في فلسطين المحتلة بتشجيع النظرة الفوقية لليهود الشرقيين تجاههم، والعالم العربي المحيط بالكيان الصهيوني بتصوير إسرائيل بأنها معرضة لخطر الإبادة، فطالما بقيت إسرائيل قوية، سيصبر اليهود الشرقيون على التمييز، وكما يقول الدكتور شاحاك "فطالما هناك فتوحات فإن لديهم من ينظرون إليه بفوقية".

- ثانياً: امتصاص الصراع بعدم اللجوء إلى قمع النشاطات الاجتماعية قمعاً كلياً، بالإضافة إلى الوعود والشعارات بالاندماج الكامل، وإصدار بيانات علنية تعبر عن التفهم والتعاطف والاهتمام، والمعالجة الجزئية لبعض المشاكل الاجتماعية و الاقتصادية والثقافية عن طريق اللجان الوزارية والمؤسسات الاجتماعية والخيرية.

- ثالثاً: الاستعانة بالتأثير الكبير للدين على أبناء الطوائف الشرقية والتعليم الديني

الرسمي والشعارات الدينية المختلفة لتأمين دعم اليهود الشرقيين المستمر للمؤسسة الحاكمة وتبرير ممارساته وقد استفاد من ذلك بصورة خاصة حزب المفدال (قبل ذلك حزباً همزراحي وهبوعيل همزراحي) واستعان هذا الحزب بسيطرته التقليدية على وزارات الداخلية والأديان والشؤون الاجتماعية وعلى التعليم الرسمي الديني والاغوداتي لتوسيع صفوفه بين اليهود الشرقيين.

لقد شكلت الهجرة الواسعة ليهود آسيا وإفريقيا في بداية الخمسينات مخزوناً أساسياً لأصوات حزب مباي الحاكم والحزب الديني المتحالف معه وذلك باستخدام أساليب التعبئة الإيديولوجية التي أشرنا إليها، غير أن استفحال مشاكل الاستيعاب وتغير التركيب الديمغرافي للسكان في الكيان الصهيوني المتمثل بالازدياد النسبي التدريجي لحجم اليهود الشرقيين مع استمرار تدني مستوى حياتهم الاجتماعي و الاقتصادي بالقياس إلى الإشكنازيين، كل ذلك بدأ يترافق مع ازدياد مشاعر خيبة الأمل والإحباط التي أصبحت توجه نحو حكم المباي وممثليه، وقد برزت بداية ذلك في الحقل السياسي في نتائج انتخابات الكنيست الثالثة عام ١٩٥٥ بقفزة حيروت الحركة المعارضة إلى مكانة الحزب الثاني من حيث الحجم، وقد بلغ ذلك أوجه في انتخابات عام ١٩٧٧ حيث بدأ أبناء الطوائف الشرقية بتحويل دعمهم السياسي من مباي ـ المعراخ إلى حيروت ـ جاحل ـ الليكود، تلك الأحزاب التي تدمج التطرف بالديماغوجية الاجتماعية الواسعة. وهذا ليس معناه أن أساليب التعبئة الإيديولوجية والسياسية التي استخدمها المباي وزعيمه بن غوريون في الخمسينات والمتمثلة بإذكاء التطرف القومي لدى اليهود الشرقيين وعدم المعالجة الجذرية لأوضاعهم المتردية وتجنيد زعمائهم في خدمة المؤسسة الحاكمة، وتوظيف المشاعر الدينية توظيفاً سياسياً، ليس معناه أن هذه الأساليب قد تغيرت بل على العكس فإنها تستخدم الآن وعلى يد الليكود وزعيمه بيجن على أوسع نطاق وهذا ما اتسمت به معركة الانتخابات الأخيرة.

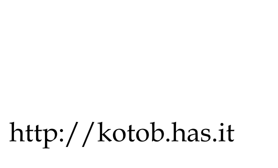
لقد لعبت بورجوازية أبناء الطوائف الشرقية دورها البارز في عملية امتصاص مشاعر اليأس والسخط لدى اليهود الشرقيين، والإطار التنظيمي الأهم للبورجوازية الطائفية هو الاتحاد العالمي للسفاراديم الذي يشكل كتلة منفردة في الحركة الصهيونية، ويترأس الاتحاد المليونير نسيم جاؤون، أما الفرع الإسرائيلي فيترأسه الوزير السابق، ونائب وزير الاستيعاب الحالي اهرون اوزان وعوض إدارة الوكالة اليهودية تشارلز تابير،

ويحاول هذا الاتحاد إقامة أية صلة أو علاقة مع كل تنظيم سياسي واجتماعي في صفوف اليهود الشرقيين والسيطرة عليه بمختلف الوسائل.

وهناك توجهان سائدان في أوساط البورجوازية من أبناء الطوائف الشرقية، الأول توجه نحو الاندماج الكامل في مواقف البورجوازية الإسرائيلية، وعمل من خلال المؤسسات والأحزاب الصهيونية الكبيرة في دعم النظام الاقتصادي الاجتماعي السياسي، واعتبر نفسه جزءاً طبيعياً من زعامة الكيان الصهيوني، بينما توجه القسم الآخر من البورجوازية الطائفية بأحزاب وحركات وقوائم طائفية في مختلف المعارك السياسي الأوسع لليهود الشرقيين، وبمعنى آخر تأمين مصالح هذه الشريحة البورجوازية بالدرجة الأولى والمندمجة مع مصالح رأس المال الاحتكاري والزعامة الاقتصادية السياسية في الكيان الصهيوني. وإلى جانب هذين الاتجاهين في بورجوازية أبناء الطوائف الشرقية، هنالك اتجاهات أخرى بين أبناء الطوائف الشرقية، منها ذلك الاتجاه الذي يرى أن المشاكل الطبقية هي جزء من المشكلة الطائفية ومن ممثلي هذا الاتجاه في المجال الآكاديمي عالم الاجتماع الدكتور سامي سموحا المحاضر في جامعة حيفا، وهنالك اتجاه آخر يساوي بين المشكلة الطبقية والمشكلة الطائفية من خلال التشديد على التطابق بين الطائفية والطبقات في الكيان الصهيوني ومن ممثلي هذا الاتجاه الدكتور شلومو سفيرسكي والدكتور دفوراه برنشتين، كما ظهرت في صفوف اليهود الشرقيين حركة الفهود السود في عام ١٩٧١ كرد فعلٍ على الاضطهاد الاجتماعي الطبقي الذي تمارسه الطبقة الحاكمة الإشكنازية على اليهود الشرقيين وننتشر هذه الحركة في الأحياء الفقيرة في القدس وتل أبيب وحيفا والخضيرة وعسقلان، وهي حركة معارضة للصهيونية في ممارساتها إلا أنها لا تمتلك إيديولوجية يسارية محددة.

الباب الثاني عشر

الجماعات اليهودية الشرقية

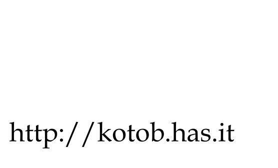

http://kotob.has.it

الفصل الأول

اليهودية المستعربة(*)

"اليهود المستعربة" هم يهود البلاد العربية الذين اكتسبوا خصائص الحضارة العربية فأصبحوا عرباً، وهم أغلبية يهود العالم العربي، ولا سيما قبل دخول الاستعمار الغربي الذي فرنج عدداً منهم. وهم يُسمون خطأ "سفارد". والواقع أن كثيراً منهم يتبع المنهاج السفاردي في العبادة، ولكن هذا لا يجعلهم من السفارد بالمعنى الإثني، الذي لا ينطبق إلا على اليهود الذين خرجوا من إسبانيا والزين ينتمون إلى أولئك الذين كانوا يتحدثون اللادينو ومنهم المارانو (أو البرتغاليون). واليهود المستعربة جزء ممن نُطلق عليهم الآن مصطلح "يهود الشرق والعالم الإسلامي" أو "اليهود الشرقيون".

(*) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ـ ج٢ ـ ص ١٢٩.


http://kotob.has.it

الفصل الثاني

الصابرا
جيل ما قبل عام ١٩٦٧ (*)

Sabra: Pre 1967 Generation

"صابرا" كلمة عبرية مُشتقة من الكلمة العبرية "الصبار" أو "التين الشوكي"، وقد تردد المصطلح بمعناه الاجتماعي، لأول مرة، في أعقاب الحرب العالمية الأولى مباشرة حيث أطلق في مدرسة هرتزليا الثانوية في تل أبيب على التلاميذ اليهود من مواليد فلسطين والذين كانوا يُحسون نقصاً حيال أقرانهم الأوروبيين الأكثر تفوقاً في الدراسة مما كان يجعلهم يلجأون إلى تعويض هذا الشعور بتحدث هؤلاء الأوربيين بنوع من النشاط الخشن يرد لهم اعتبارهم. وقد تمثل ذلك النشاط في الإمساك بثمرات التين الشوكي وتقشيرها بالأيدي العارية، وهي مهارة يدوية تأتي بالمران والممارسة وليس من خلال الدراسة الفكرية. وقد أصبحت كلمة "الصابرا" تُطلق اسماً على كل يهودي يُولد في فلسطين. ومن المصطلحات الأخرى المرتبطة بها كلمة "شوتسباه" اليديشية التي إلى مجموعة من الصفات مثل الجرأة الزائدة، التي قد تصل إلى حد الوقاحة، والسذاجة المختلطة بالذكاء. وحسب الرؤية الإسرائيلية الشائعة، فإن جيل الصابرا يتسم بالشوتسباه، أي الجرأة الزائدة هذه. ومن صفات الصابرا أيضاً ما يُسمى "تسيفتسوت إيحاد جادول"، وهي عبارة عبرية تعني "تصفيرة واحدة كبيرة"، وتشير إلى مقدرة جيل الصابرا على أن يسخر من كل المشاكل ويقابلها بهذه التصفيرة. ويُشار إلى لغة الصابرا

(*) *موسوعة اليهود واليهودية* ـ ج٢ ـ ص ١٣١.

بأنها لغة "الدوغري"، وهي كلمة عامية مصرية شائعة معناها "مباشر ولا يحب اللف أو الدوران".

ومصطلح "الصابرا"، والمصطلحات المرتبطة به، تؤكد صفات محددة في شخصية صاحبها، أي أبناء المستوطنين الصهاينة الذين وُلدوا ونشأوا في فلسطين، ومن أهمها معاداة الفكر والمقدرة على التعامل مع الواقع بشكل مباشر. وهذه الصورة موضوع أساسي كامن في الفكر الصهيوني الذي يَصدُر عن نقد ما يُسمى "شخصية يهود المنفى"، باعتبارهم شخصيات مريضة ضعيفة هزيلة حزينة شاحبة منغلقة هامشية قلقة يغمرها الإحساس بالذنب ولا تسيطر بأية حال على مستقبلها أو مصيرها مما يُسمى في الأدبيات الصهيونية "العجز وانعدام السيادة وممارسة السلطة". وكانت الصهيونية تطرح فكرة تطبيع الشخصية اليهودية، أي جعل اليهود شخصيات طبيعية عن طريق الاستيطان في فلسطين وأداء أعمال يدوية، وعدم الاعتماد على العمالة غير اليهودية، باعتبار أن هذه العملية ستؤدي في نهاية الأمر (حسب التصور الصهيوني) إلى نفي الدياسبورا، أي القضاء على الجماعات اليهودية في الخارج. وقد طرح الصهاينة ما سموه "اليهودي الخالص"، وهو اليهودي مائة بالمائة الذي يُجسد القيم الصهيونية الجديدة، بديلاً ليهودي المنفى.

وكان من المتوقع أن يكون المُستوطن الصهيوني هو آخر يهود المنفى وأول اليهود الخُلص الذين لا تشوبهم شائبة من عالم الأغيار، وهذا هو ما عبروا عنه في قولهم: "فلتكن آخر اليهود وأول العبرانيين". وقد تنبأ الشاعر الصهيوني نحمان بياليك بتطبيع اليهود، وأنهم سيصلون إلى هذا المستوى حين تظهر أول بغي عبرية، وأول لص عبري في فلسطين!.

وأخذ المستوطنون يحاولون وَضْع هذه الرؤية موضع التنفيذ بحيث يصبح الإنسان العبراني الجديد نقيض يهود المنفي. وكما قال الشاعر الإسرائيلي تسفي جرينبرج في قصيدة له: "الأمهات اليهود أحضرن أطفالهن إلى الشمس ليحترق الدم الذي يجري في عروقهم ويزداد حمرة، بعد أن بهت في الجيتو وعالم الأغيار!". والإنسان الجديد هو الصابرا ؛ هذا الإنسان العبراني المعادي للفكر، القوي البسيط المباشر الذي يرفضه يهود المنفي ولا يفهم هو سلوكهم أو خضوعهم. والصابرا يدين بالولاء لدولته القومية ولا يعاني من أي ازدواج في الولاء، ويحب أن يسير مع الجماعة (وقد جاء في إحدى

القصائد الإسرائيلية أن الصابرا، حينما يحلم، يحلم بضمير جمع المتكلمين) ولا ينفصل عنها (جاء في إحدى النكات الإسرائيلية أن عضواً في الكيبوتس قد تركه أصدقاؤه بمفرده، ففكر في الانتحار، وحاول ذلك بالفعل، ولكنه فشل لأنه كان بمفرده). والصابرا لا يؤمن بالدين، فقد تمت علمنته بشكل كامل على النمط الأوروبي، كما أن هويته العبرانية هوية قومية مرتبطة بالأرض لا بالقيم الدينية. وهو، علاوة على كل هذا، شخصية منتجة ـ حسب التصور الصهيوني ـ تتحكم في مصيرها. وينعكس كل هذا في الأبعاد العسكرية لشخصيته، ولذا نجد أن ذروة هذه الشخصية وأقصى تحقق لها هو الكيبوتسنيك، أي عضو الكيبوتس الذي لا ينتمي إلى أسرة مُحددة ويعيش في مجتمع شبه زراعي شبه عسكري في بيئة مختلفة تماماً عن الجيتو.

وقد وصف عالم الاجتماع الفرنسي جورد فريدمان أفراد هذا النموذج الجديد بأنهم "أغيار يتحدثون العبرية"، فهم يتسمون بكل سمات الأغيار، ومنها معاداة اليهود، ولا يختلفون عنهم إلا في اللغة. وقد أشار آرثر كوستلر إلى النموذج الجديد باعتباره "طرزاناً يهودياً"، أي إنساناً طبيعياً مجرداً من التاريخ والقيم يعيش بقيم الغابة الغربية الداروينية، ولم يبق له من اليهودية سوى الشكل، اليهود أنه علماني تماماً. ويُشار إليه أحياناً بوصفه "سوبرمان يهودي" قياساً على سوبرمان أو بطل نيتشه الأرقى الذي يُمجده الفكر النازي والصهيوني. وبالفعل، نجد أن الصابرا يُجسد مجموعة من القيم النيتشوية التي تُعلي من شأن القوة والفعل مقابل الضعف والفكر.

ولكن هذه الرؤية المختلة للذات، والتي لا تستند إلى التاريخ، تحوي داخلها عدة تناقضات نوجزها فيما يلي:

١ ـ صورة يهود المَنْفَى صورة كاريكاتورية ساذجة للغاية لا تُعبر عن ثراء حياتهم أو عن إنجازاتهم الحقة أو عن تواريخهم المتنوعة، وخصوصاً أن تواريخ اليهود التي يُشار إليها باعتبارها "التاريخ اليهودي" لم تأخذ مسارها في أرض فلسطين وإنما خارجها في المَنفى.

٢ ـ حينما يلجأ أبناء جيل الصابرا إلى رَفْض يهود المَنفى، فإنهم يرفضون الماضي الوحيد الذي يمكن أن تستند هويتهم إليه، إذ لا يمكن إدراك الهوية دون ماض. ويُقال إن من صور الصابرا الأساسية المتواترة في الأدب الإسرائيلي أنه جيل يتيم لا أب له ؛ طفل أزلي غير قادر على النضوج لأنه لا يتفاعل مع الماضي.

٣ ـ ومن أن جيل الصابرا يرفض اليهود واليهودية، فإن مشروعه الصهيوني يهف إلى إنشاء دولة يهودية لحماية اليهود ولتحقيق الهوية اليهودية والجوهر اليهودي. ومعنى ذلك أن شريعة وجوده في فلسطين، والأساس الأخلاقي لطَرد سكانها، يستند أن إلى أساس يهودي افتراضي: رؤى دينية (أو إثنية) يهودية مثل الميثاق أو أرض الميعاد.

وقد تبدت هذه التناقضات في شكل تناقض إحساس الصابرا بيهوديتهم. فحين تم استطلاع رأي جبل الصابرا (بعد إنشاء الدولة)، وُجد أن لديهم إحساساً شديداً بهويتهم المُخلقة الجديدة تأخذ شكل اعتزاز شديد بالنفس واحتقار عميق ليهود العالم، وخصوصاً أن الملايين التي كان من المفترض قدومها للاستيطان في الأرض المحتلة آثرت البقاء في أوطانها التي يُشار إليها بلفظ "المَنفَى". كما أفاد الاستطلاع أن الرؤية المباشرة المعادية للفكر عند الصابرا تبدت في صورة رَفْض للفكرة الصهيونية ذاتها، وذلك باعتبار أن الصهيونية ليست تجربة وجودية حية وإنما مجرد نظرية تُعبر عن استجابة يهود المنفى لعالم الأغيار وعن تطلعاتهم للخلاص منه برنامج لإصلاحهم وتطبيعهم، الأمر الذي لا ينطبق على الصابرا الذين يعيشون واقعهم الجديد. أما معاداة اليهود، إحدى ركائز الصهيونية، فهي بالنسبة للصابرا محض ذكريات الآباء والأجداد، لا يشاركون هم فيها. بال إن الفرد من جيل الصابرا، حينما ينظر إلى هذه الذكريات أو "الماضي اليهودي"، لا يُبدي سوى الازدراء له لاقترانه بالضعف والسلبية، فهو لا يقبل مثلاً سلوك الستة ملايين الذين يزعَم أنهم أبيدوا بغير مقاومة على يد النازيين.

لكل هذا، أصبح الصابرا، من منظور القائمين على المجتمع الصهيوني، مرادفاً للتحلل العقائدي ولازدياد الشك والنزعة العلمية على حساب الالتزام العقيدي. وم هنا، بدأت عملية إعادة تثقيف، أخذت شكل التأكيد على الإبادة النازية لليهود، وبالذات عناصر المقاومة اليهودية، والتأكيد على ما يُسمى "المصير اليهودي المُشترك" الذي يربط اليهود بعضهم ببعض أينما كانوا. كما تم تقرير مادة تُسمى "الوعي اليهودي" في المدارس حتى لا يبتعد جيل الصابرا تماماً عن الجذور اليهودية التي رفضتها الصهيونية.

ولكن هذه المحاولة التخليقية، التي ترمي إلى الحفاظ على صهيونية العبراني الجديد، قابلت هي الأخرى عدة صعوبات من أهمها أن تطبيع المجتمع الإسرائيلي أدى إلى تَبني جيل الصابرا قيماً علمانية أمريكية برجماتية ترفض الماضي وأية عقيدة أو

نظرية، الأمر الذي عمق رفضهم الفكر النظري أو العقائدي، وإلى انتشار ما يُسمى بعقلية "روش قطان" وهي عبارة عبرية تعني "الرأس الصغير" وتشير إلى الإنسان العلماني الاستهلاكي الذي يهتم بمصالحه الخاصة ولا يهتم بالأهداف القومية (ولذا، فإن معدته كبيرة ورأسه صغير).

كما أن أزمة الصهيونية، داخل وخارج المستوطن الصهيوني، تجعل بعث هذه العقيدة، التي لم تَعُد تَصلُح دليلاً للعمل، مهمة صعبة. ولكن هذا، يزداد الانصراف عن الصهيونية كعقيدة. وقد انعكس هذا الاتجاه البرجماتي الاستهلاكي العملي في تزايد معدلات العلمنة الشاملة وتقبل قيم المنفعة واللذة بين الإسرائيليين، وزيادة أمركة المجتمع الإسرائيلي، فأصبحت الدولة الاستهلاكية العظمى في الغرب (الولايات المتحدة) هي المثل الأعلى لا الدولة الصهيونية الصُغرى في فلسطين المحتلة. ومن هنا، تزايُد نزوح الأفراد من جبل الصابرا عن إسرائيل، بل تم تقبل قرار النزوح اجتماعياً بعد أن كانت تلك مسألة مرفوضة تماماً تشبه الخيانة القومية. وقد أدى هذا إلى ظهور ما يُسمى "الدياسبورا الإسرائيلية" حيث هناك مئات الألوف من المرتدين أو النازحين الإسرائيليين من جيل الصابرا أو غيرهم (ويُقال إنهم يبلغون ٧٠٠ ألف، أي أكثر من سكان التجمع الصهيوني عند إعلان الدولة، وحسب بعض الإحصاءات يبلغ عددهم مليوناً). وعلى المستوى العملي، يتضح هذا الاتجاه البرجماتي المعادي للصهيونية بكل جلاء في واقع أن كثيراً من الصابرا لا يعتبرون الولايات المتحدة جزءاً من المنفى بل وطناً قومياً ثانياً!

وإلى جانب هذا، تُوجد في الوقت الحاضر عناصر أخرى في تجربة جيل الصابرا تدفعه أيضاً بعيداً عن الصهيونية، لا إلى الاستهلاكية والبرجماتية والتأمرك فقط وإنما إلى أحضان الماضي اليهودي الذي كان يهرب منهم وكانوا هم يرفضونه بحثاً عن الجذور (بالإنجليزية: وروتس roots)، وهذا ليس بعودة إلى الماضي، وإنما عودة إثنية إلى الذات الإثنية القومية! ومن أهم هذه العناصر، تفاقم أزمة العلمانية الشاملة في التجمع الصهيوني وظهور أزمة هوية بصورة حادة. فالصابرا بدون تاريخ هو في نهاية الأمر بدون هوية.

كما أن الصابرا، هذا العلماني الشامل البرجماتي، يجد نفسه في دولة كل ما فيها رموز دينية، مثل نجمة داود والمينوراه، وحتى الاسم "يسرائيل" معناه "المدافع عن الإله".

كما يجد نفسه مضطراً لأن يخوض حروباً باسم هذه القيم الدينية التي يُفترض فيه أنه لا يؤمن بها إلا باعتبارها فلكلوراً شعبياً! وقد آتت مادة "الوعي اليهودي" أكلها، إذ بدأ بعض أعضاء جيل الصابرا يدركون عناصر هذا الماضي ويفهمونا في سياقها. ومن ثم بدأوا ينظرون إلى عالم المَنفَى بشيء من الإعجاب وبكثير من الشك في شخصية الصابرا المجردة التي لا جذور لها ولا تراث. وقد كان يهودي المَنفى ـ حسب هذه الرؤية ـ ذا هوية حدودها واضحة مُتعينة على الأقل، وله لغته وثباته وتراثه. كما كانت الجماعة اليهودية تتسم بالتماسك الشديد والتضامن، على عكس المجتمع الصهيوني الذي يفتقد الهوية الواضحة وتُفتته النزاعات الحزبية ويفتقد الإجماع القومي في الوقت الحاضر. (فكر سكان الكيبوتسات بالفعل في ذلك الوقت في الطرق المختلفة للانتحار).

كما بدأ موقف أبناء جيل الصابرا يتغير من الإبادة النازية (قصة الفضل اليهودي الأكبر) إذ بدأوا يسألون: هل كان بوسع اليهود أن يفعلوا شيئاً أمام قوة النازي وسطوته؟ ويجري الآن طرح السؤال التالي: لو وصل روميل إلى فلسطين، هل كان بمقدور المستوطنين، أن يفعلوا شيئاً سوى الاستسلام أو الانتحا؟

ومما عقد الأمور أن أزمة الصهيونية رافقها نجاح يهود المَنفى (وبخاصة في الدولة) من إنجازات اقتصادية وثقافية واندماج في مجتمعاتهم وحراك طبقي وثقة بالنفس، وهو نجاح أدى إلى أن الدولة الصهيونية وجدت نفسها معتمدة في بقائها على هؤلاء الذين ترفضهم من الناحية العقائدية أو تطلب تصفيتهم.

لكن ما تقدم، تزايد ارتباط بعض أعضاء جيل الصابرا في الآونة الأخيرة بيهود المَنفى، فوجدوا أنفسهم يعودون إلى شبكة المصير اليهودي والتراث اليهودي. والعودة هنا ليست عودة إلى الصهيونية وإنما إلى شيء يتصورونه أكثر عمقاً، عودة إلى ما يتصورن أنه "التراث اليهودي"، فظهر ما يُسمى الاتجاه "اليهودي" الجديد، لا "اليهودي" الجديد، ومن هنا كان النظر بإعجاب إلى عالم المنفى وتراثه الثقافي واللغوي، والواقع أن هذا الموقف يُناقض الموقف الصهيوني الذي ينطلق من رفض هذا العالم وهذا التراث.

كما أنهم بدأوا يتحدثون اليديشية، ويرفضون عبرنة أسمائهم، ويطلقون لحاهم وأحياناً سوالفهم. لكن العودة إلى التراث والجذور والسلف رد فعل لتعاظم العلمنة بكل ما تؤدي إليه من اغتراب وتَبعثر (وإن كان اغتراب المستوطن الصهيوني أعلى كثيراً من

اغتراب الفلاح الهندي الذي ينتقل إلى المدينة مثلاً، ومن هنا حدة استجابة الصابرا). وحينما يتحدث الصابرا عن "التراث اليهودي"، فهم يتحدثون، عادةً، عن تجربة يهود اليديشية في شرق أوروبا (في الشتتل وفي منطقة الاستيطان) لا عن تجربة اليهود السفارد أو يهود العالم الإسلامي. وقد أخذ هذا الاتجاه نحو التراث يتمثل في تبني القيم الدينية الأرثوذكسية كمصدر من مصادر الشرعية والهوية.

ومن أهم شخصيات جيل الصابرا الممثل يوري زوهار الذي عبر عن كل سمات جيل الصابرا بشكل متبلور فكان يرتدي الصندل ويسير دون أن يأبه بالقيم أو التراث. وبالتدريج، أخذ زوهار في التحول، فلبس قبعة اليرملك ثم أطلق سوالفه ولحيته حتى أصبح في هيئة الحسيديين في الشتتل. ومن الصابرا من ينضم إلى الجماعات اليهودية الأرثوذكسية التي ترفض الدولة ، وترى أن حالة المَنفى نهائية لا تصل إلى نهايتها إلا حين يأذن الإله وذلك حتى لا يرتكب جريمة "دحيكات هاكتس"، أي "التعجيل بالنهاية" ، أي أن الصابرا الذي كان يرفض يهود المنفى ويهرب منهم ينتهي به الأمر في الآونة الأخيرة إلى معانقتهم والهرب إليهم!

ومن المهم جداً أن نيشير إلى أن الدراسات السكانية الإسرائيلية، في تصنيفاتها لسكان التجمع الإسرائيلي، تعترف بالفروق العرْقية والإثنية بين اليهود المولودين في فلسطين والمهاجرين إليها. إلا أنها، مع هذا ، تحاول إنكار وجود مثل تلك الفروق بين الأبناء المولودين في فلسطين ، وذلك بوضعهم جميعاً تحت اسم "الصابرا". ويتسق ذلك مع حديث علماء الاجتماع وعلم النفس الإسرائيلي عن الصابرا باعتبارها كتلة واحدة متسقة لها خصائصها النفسية و الاجتماعية المُوحدة. ومثل ذلك الموقف يعني تجاهُلاً تاماً لحقيقة أن أساليب التنشئة الاجتماعية (طرق التربية) التي يمارسها المهاجرون تتباين تبعاً لأصولهم الحضارية. وبالتالي، فإن تكوينات هؤلاء الأطفال النفسية لابد أن تتباين، ولفترة طويلة تبعاً لتباين أساليب التنشئة الاجتماعية التي اتُبعت معهم. ومن هنا، فإن تعبير "الصابرا" يخدم في نهاية الأمر هدفاً سياسياً صهيونياً هو الإيهام بأن الصهر الاجتماعي لمختلف اصول اليهود الحضارية قد تحقق في إسرائيل وتمثل في جيل جديد هو جيل الصابرا الذي تتلاشى فيه مثل هذه الفروق الحضارية. وعلى أية حال، فإن استقراء الكتابات الإسرائيلية في هذا الصدد بشكل دقيق يكشف عن أن الحديث عن الصابرا يَنصب عملياً على أولئك المنتمين إلى أصول إشكنازية فحسب.

وكما قال الكابت الإسرائيلي شيمون بلاس (من أصل عراقي)، فإن كلمة "صابرا" لا تشير من قريب أو بعيد إلى يهود الشرق. ويوافقه في هذا ميلفورد إسبيرو حيث يرى في دراساته أن أهم ما يميز الصابرا من أبناء الكيبوتسات هو كراهية الغرباء عامة، والمهاجرين من العالم الإسلامي على وجه الخصوص، إذ ينظرون إليهم كمواطنين من الدرجة الثانية، ويُطلقون عليهم لفظ "شحوريم" أي "السود". كما أن هناك عدداً من الدراسات الأخرى تؤكد على أن أخطر ما يزعج الصابرا هو ارتفاع معدل تكاثر اليهود الشرقيين، وهم يرون ف يزلك أمراً يمكن أن يدفع بإسرائيل إلى أن تصبح شعباً متخلفاً أسود البشرة.

وتزداد أهمية الصابرا (بمعنى المولودين داخل إسرائيل) في استمرار تزايد نسبتهم إلى إجمالي السكان، فبينما لم تتجاوز نسبة الصابرا إلى إجمالي السكان ٣٤٪ عام ١٩٦٢، وصلت هذه النسبة عام ١٩٦٤ إلى ٣٩,٤٪. وقد استمرت هذه الزيادة في التصاعد بسبب انخفاض معدلات الهجرة الشرقية والغربية على السواء، وهو ما جل التركيب السكاني عام ١٩٨٩ مختلفاً تمام الاختلاف حتى أن نسبة المولودين داخل إسرائيل تصل إلى ٦٤٪ من إجمالي سكان إسرائيل اليهود ، أي أن الصابرا قد وصلت إلى حد التكافؤ مع العناصر المهاجرة الشرقية والغربية مجتمعة (وإن كانت هجرة اليهود من روسيا وأوكرانيا غيرت الصورة قليلاً فقد وصلت النسبة إلى ٦٠٪ عام ١٩٩١)، مع العمل بأن مصطلح "المولودون داخل إسرائيل" أصبح يشير إلى المواليد من أصل غربي أو شرقي ولا يميز بينهما.

وقد نتج عن ازدياد إسهام الصابرا في التكوين السكاني، عاماً بعد عام، أمران في غاية الأهمية، أولهما: ظهور ما يُطلق عليه "الوطنية الإسرائيلية" مقابل "القومية اليهودية"، بمعنى أن معظم سكان إسرائيل لا يعرفون الآن وطناً آخر لهم، ومن ثم، فهم لا يشعرون إطلاقاً بأي إحساس بالذنب إزاء ما وقع للفلسطينيين من اغتصاب أرضهم وطردهم منها. والأمر الثاني: ارتفاع نسبة من هم في سن الإنتاج والقتال بالنسبة إلى إجمالي السكان، وهو ما يترتب عليه استمرار بل تَصاعد روح المخاطرة والتطلع إلى التوسع السيطرة على المنطقة. وعلى أية حال، فإن ارتفاع نسبة العلمنة والاستهلاكية قد حيد هذا العنصر إلى حد ما. ومع هذا لابد أن نأخذ في الاعتبار التركيب النفسي لجيل الشباب (كما يُبين مدخل "جيل ما بعد ١٩٦٧ [أو أزمة الخدمة العسكرية]".

الفصل الثالث

حركة الكنعانيين(*)

Canaanite Movement; Semitic Action

"حركة الكنعانيين" حركة سياسية ثقافية ذات نظرة خاصة لما يُسمى "التاريخ اليهودي". بدأت نشاطها في الأربعينات في فلسطين. وينطلق دعاتها من أسطورة مفادها أن اليهود عندما عادوا من مصر إلى أرض كنعان لم يجدوا قبائل معادية لهم أو مختلفة عنهم من الناحية العرقية، وإنما وجدوا شعباً يتكلم العبرية ويُشبههم في الملامح والخصائص البدنية، ولذلك فإن اليهود أو العبرانيين ليسوا إلا كنعانيين وما الإسرائيليون المحدثون سوى "الكنعانيين الجدد"، وبهذا تكون للأمة الإسرائيلية الجديدة جذور براسخة في الأرض الفلسطينية، وهي جذور تمتد إلى العبرانيين القدامى قبل أن تنتشر بينهم اليهودية، وهم بهذا يؤكدون وحدة الشعب الإسرائيلي وتربة فلسطين، أو كما يقول يتسوري (الذي اشترك في اغتيال اللورد موين في القاهرة عام ١٩٣٤): "نحن لسنا صهاينة، نحن الأبناء الطبيعيون لتربة إسرائيل".

وعن طريق تأكيد هذه الوحدة، يُسقط الكنعانيون من حسابهم تراث يهود الدياسبورا (أعضاء الجماعات اليهودية في العالم) بل والتراث اليهودي كله، فيهود الدياسبورا ـ حسب تصورهم ـ ليست لهم أية سمات قومية متميزة، فلغتهم وأنماطهم الثقافية وجنسيتهم أو مواطنتهم، تنتمي جميعاً إلى البلدان التي يعيشون فيها، فهم من

(*) موسوعة اليهود واليهودية - المسيري ـ ج٢ ـ ص ١٣٣.

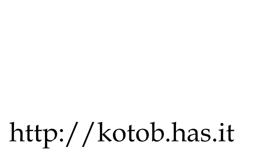
البولنديين أو الإنجليز أو الأميركيين، ولهذا السبب فإن لهم أثراً ضاراً على الإسرائيليين لأنهم يعوقون تطور الأمة العبرانية الجديدة.

ويمكن القول بأن فكر حركة الكنعانيين هو تعبير عن وجهة نظر إسرائيلية تختلف عن وجهة النظر الصهيونية، فهو تعبير متطرف عن إحساس جيل الصابرا باختلافهم عن يهود العالم وانفصالهم النفسي والثقافي والعِرْقي عنهم. ولعل أهم نقط الاختلاف بين وجهتي النظر تتلخص في محاولة الكنعانيين التملص من التصور الصهيوني لما يُسمى "الشعب اليهودي" و"القومية اليهودية" ذات الأبعاد الدينية القومية، فالكنعانيون يحاولون إضفاء شيء من السواء على الظاهرة الإسرائيلية عن طريق إلغاء الجانب الديني من المقدسات القومية الإسرائيلية والإبقاء على الجانب القومي وحده، آملين أن يتحول النمط الإسرائيلي عن طريق ذلك إلى نمط قومي عادي يشبه بقية الأنماط القومية المعروفة، أي أن فكرة الشعب المختار صاحب الحقوق المطلقة وموضوع الحلول الإلهي والذي يضم اليهود أينما كانوا تحل محلها فكرة الشعب الإسرائيلي الموجود في الشرق الأوسط في فلسطين والذي له حقوق قومية عادية. وإذا كان المفكر الصهيوني يتباهى عادةً بأن العشب اليهودي لا يُصنف، فإن الكنعانيين يؤكدون أنهم أمة مثل كل الأمم. ويؤمن الكنعانيون بأن أمامهم بديلين لا ثالث لهما: إما أن يكونوا آخر اليهود أو أن يكونوا بداية لأمة جديدة (على حد قول بيرديشفسكي) وهز يفضلون البديل الثاني. ولذلك فالكنعاني يؤمن بأن الدولة الجديدة هي نهاية المنفى والجيتو بل ونهاية اليهودية ذاتها، وأن أية سمات "يهودية" للدولة الجديدة هي سمات متخلفة ورواسب من الماضي الميت، وأن على الإسرائيليين أن يخلقوا حضارة جديدة مستقلة تماماً عن التراث اليهودي ومرتبطة بحضارة الشرق الأدنى القديم (ولذلك كانوا يطالبون بعبادة عشتروت زوجة الإله بعل الكنعاني). وفكر الحركة الكنعانية متأثر ببيرديشفسكي وأفكاره الكونية وبالنزعات النيتشوية الفلسفية، وزعيم الحركة هو الكاتب يوناثان رطوش (اسمه الحقيقي: أويل هالبرين شيلا)، ومن بين أعضائها الكاتب آهارون أمير وبنيامين تموز. ورغم أن هذه الحركة لا تؤثر بأي شكل في الحياة السياسية في إسرائيل، فإن لها بعض الأثر في الحياة الثقافية. كما أنها تُعبر عن مدى الأزمة التي يعيشها الوجدان الإسرائيلي وعن محاولة الإسرائيلي أن يتعامل بشكل ما مع الواقع الغريب الذي يحيط به.

وقد انحلت حركة الكنعانيين، وحلت محلها حركة العمل السامي (نسبة إلى الجنس السامي)، والتي اختفت بدورها وحلت محلها جماعة (هاهولام هازه/ قوة حاداش) (هذا العالم/ القوة الجديدة).

ويبدو أن الكنعانيين لم يختفوا تماماً، إذ أنهم عاودوا الظهور عام ١٩٦٩ وطالبوا بتجنيد العرب في الجيش الإسرائيلي، وتعليمهم اللغة العبرية باعتبارهم عبرانيين، وتحقيق المساواة بينهم وبين العبرانيين، وإلغاء كل المزايا التي يتمتع بها المواطنون اليهود لكونهم يهوداً. كما نادوا بضرورة إنشاء جيش قوي والاحتفاظ بالأراضي المحتلة، وتصعيد الهجرة اليهودية، وزيادة نسبة المواليد، وإنشاء علاقات قوية مع الأقليات الأخرى في المنطقة مثل الأكراد والدروز. وطالبوا أيضاً بإنشاء فيدرالية تضمن إسرائيل وجبل الدروز والموارنة في لبنان.

ورغم اختلاف الكنعانيين مع الصهاينة في محتوى تفكيرهم، فإن ثمة تشابهاً طريفاً بينهم من الناحية البنيوية. فكلا الفريقين يلغيان المنظور التاريخي ويُبسطان التاريخ ويختزلانه ويحولانه إلى أسطورة تخدم أهواء الحركة وبرنامجها السياسي وتُسهل لها التعامل مع الواقع دون مجابهته، كما أن كلاً من الفريقين يقابل الوجود الفلسطيني مسلحاً بأسطورته الاختزالية المُسبَقة.


http://kotob.has.it

الفصل الرابع

الجماعات اليهودية المنقرضة والهامشية(*)

Extinet and Marginal Jewish Communities

"الجماعات اليهودية المنقرضة والهامشية" هي تلك الجماعات اليهودية التي لا تنتمي إلى أي من الجماعات الأساسية الثلاث:

١ ـ الإشكناز.

٢ ـ السفارد.

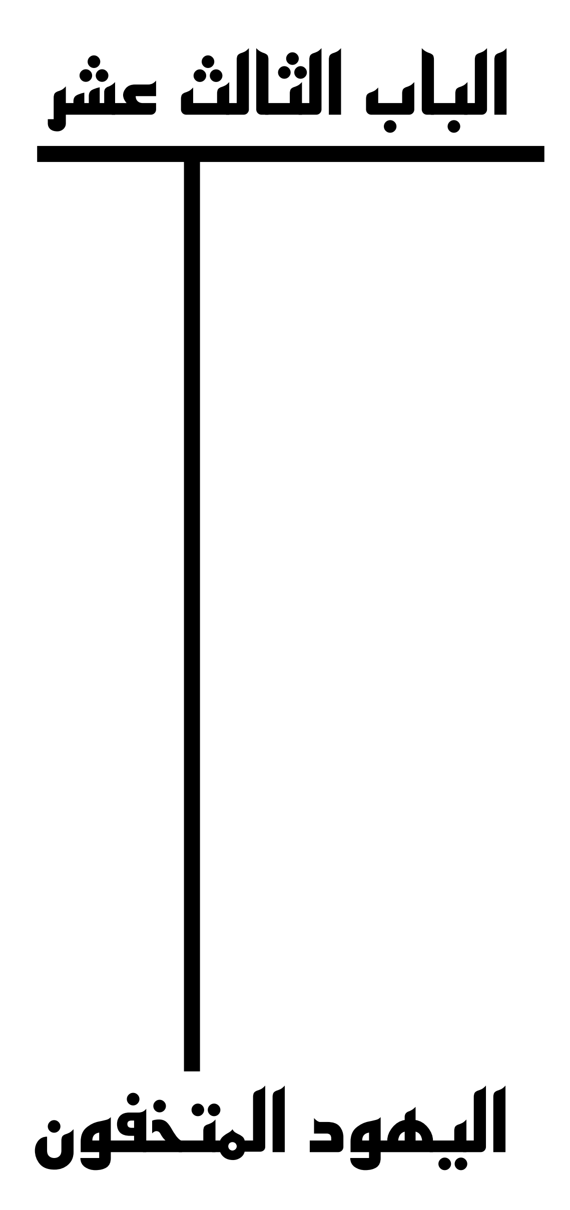
٣ ـ يهود العالم الإسلامي.

ويُلاحظ أن الجماعات الثلاث الأساسية تُشكل، من ناحية الكم، ما يزيد على ٩٨٪، ويمتد وجودها إلى عدة قرون ويستمر حتى الوقت الحاضر. وتدور الجماعات الثلاث في إطار اليهودية الحاخامية. كما أنها تنتمي إما إلى العالم الغربي أو العالم الإسلامي. أما الجماعات المنقرضة والهامشية، فهي جماعات كبيرة أو صغيرة اندثرت تماماً أو على وشك الاندثار (الخَـزَر ـ المارانو ـ السامريين ـ الكرمشاكي ـ يهود الصين)، أو جماعات صغيرة للغاية (العبرانيون السود ـ يهود كوشين). كما نُلاحظ أن معظم هذه الجماعات الهامشية قد انفصل عن تيار الجماعات اليهودية الأساسي وأحياناً عن اليهودية الحاخامية (الدونمه ـ يهود مانيبور ـ يهود الصين ـ الفلاشاه ـ القرائين). ويُلاحظ أن الجماعات الهامشية هذه، نظراً لانفصالها عن المراكز الدينية والثقافية اليهودية الكبرى، قد استوعبت عناصر إثنية ودينية من محيطها الحضاري بشكل

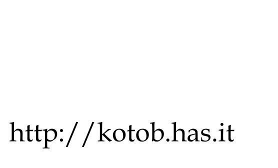
(*) موسوعة اليهود واليهودية ــ المسيري ــ ج٢ ــ ص ١٣٤.

ملحوظ وانفصلت عن أية معيارية يهودية. وتكمُن أهمية دراسة الجماعات اليهودية المنقرضة والهامشية في أنها تتحدى النظام التصنيفي الصهيوني والمعادي لليهود، الذي يُصنف كل أعضاء الجماعات اليهودية باعتبارهم "يهود والسلام" بطريقة اختزالية تبسيطية. كما يمكن القول بأن هذه الجماعات اليهودية المنقرضة والهامشية تشكل لحظة تبلور النموذج (اليهود كجماعات غير متجانسة واليهودية كتركيب جيولوجي لاككل عضوي أو شبه عضوي متماسك)، ومن ثم فهي تلقي عليه الضوء وتبين طبيعته رغم أنها تشكل لحظة متطرفة من عدم التجانس والبُعد عن أية معيارية.

الباب الثالث عشر



اليهود المتخفون


http://kotob.has.it

الفصل الأول

تعريف(*)

Crypto _ Jews

"اليهود المُتخفون" هم اليهود الذين يتظاهرون باعتناق دين آخر غير اليهودية، بسبب الظروف المختلفة، ويظلون على دينهم في الواقع. ومن أهم فرق اليهود المتخفين "المارانو"، ويُشار إليهم أيضاً باسم "المسيحيين الجدد" و"الكونفرسوس" و"البرتغاليين" في شبة جزيرة أيبريا، كما يُشار إليهم باسم "الدونمه" في تركيا، وباسم "جديد الإسلام" في إيران، وباسم "التشويتاس" في جزيرة مايوركا.

وقد لاحظ أحد المستشرقين أن ظاهرة اليهود المتخفين لم تظهر أساساً إلا داخل التشكيل الحضاري الإسلامي في إسبانيا التي كان سكانها من اليهود على علاقة وثيقة بهذا التشكيل، وحاول أن يُفسر ذلك في إطار مفهوم الاستشهاد في الإسلام حيث لا يكون ذلك إلا أثناء الجهاد والمعركة (أما فيما عدا ذلك، فإن المسلم يتعين عليه أن يحمي نفسه بالتقية)، ومن هنا ظهرت فكرة التخفي. ويقف هذا على الطرف النقيض من الحضارة المسيحية حيث تُعد واقعة الصلب في منظورها واقعة أساسية، وهي حضارة تشجع على الاستشهاد وتجعل منه قيمة في ذاته. ولذا، نجد أن اليهود الإشكناز كانوا يقومون بما يُسمى "تقديس الاسم" (بالعبرية: قيدوش هاشم) أي تأكيد وحدانية الإله، والاستشهاد بدلاً من الارتداد حتى ولو ظاهرياً.

(*) المصدر السابق نفسه.

ويُلاحظ المؤرخون أن المارانية هي شكل من أشكال الموسية، أي الإيمان بالعهد القديم دون حاجة إلى حاخامات، كما أنها عبادة تُركز على الجوهر وحسب، وتتجاوز كل الشعائر والتحريمات، ومن هنا التقاؤها باليهودية الإصلاحية.

ويجب التمييز بين يهود المارانو ويهود الدونمه، من حيث أن المارانو اضطروا إلى أن يكونوا يهوداً متخفين، أما الدونمه فقد اعتنقوا الإسلام باختيارهم للتمويه على المسلمين واليهود على حد سواء.

وتقرن الدراسات بين المسيحيين الجدد والمارانو وتوحد بينهما، وإذا كان المارانو هو الذي يُظهر غير ما يُبطن، أي اليهودي المتخفي، فإن كثيراً من المسيحيين الجدد كانوا مسيحيين بصدق. وقد تهود بعضهم أو اضطروا إلى التهود فيما بعد، ومن ثم يكون من الخطأ أن نستخدم المصطلحين كما لو كانا مترادفين. ومع هذا نظراً لشيوع هذا الترادف، فإننا نستخدم كلمة "المارانو" للإشارة إلى كل من "المارانو" و"المسيحيين الجدد".

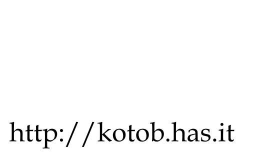
الفصل الثاني

أنوسيم (*)

Anusim

"أنوسيم" كلمة عبرية تعني "المُكرَهون"، أو "المغلوبون على أمرهم"، وهو اسم آخر ليهود المارانو واليهود المتخفين.

(×) المصدر السابق نفسه, ١٣٥



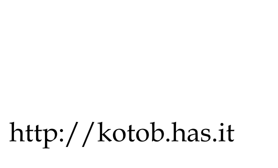
الفصل الثالث

البرتغاليون(*)

"البرتغاليون" مصطلح يُستخدم للإشارة إلى اليهود المتخفين من المارانو الذين خرجوا من شبه جزيرة أيبريا (إسبانيا والبرتغال). ومن المُرادفات الأخرى "كونفرسوس" أي "المهتدون"، و"المسيحيون الجدد"، وبالعبرية "أنوسيم" أي "المُكرهون" بل و"السفارد". ولعل تسمية "البرتغاليون" تعود إلى أن أغلبية المارانو جاءت من البرتغال.

كما أن مصطلح "برتغالي" كان أكثر تهذيباً من مصطلح "مارانو"، وكذلك أكثر إبهاماً من مصطلح "المسيحيون الجدد". وبالتالي، كانت الدول (مثل إنجلترا) تسمح لليهود بالاستقرار فيها باعتبارهم "برتغاليين" (اسماً) وهي تعلم جيداً أنهم "مارانو" (فعلاً). وكان هؤلاء يمارسون شعائرهم الدينية إما سراً وإما علناً. وكانت المؤسسة الحاكمة تغض النظر عن كل هذا. وقد لجأت بعض المؤسسات الحاكمة إلى هذا الحل لحاجتها الشديدة إلى اليهود بسبب نفعهم ولأنهم مادة استيطانية مهمة، حيث لم يكن بوسعها استصدار التشريعات اللازمة لذلك بسبب المعارضة الشعبية وبسبب الهيكل القانوني ذاته الذي كان يستند إلى شريعة دينية. ومع نهاية القرن السابع عشر، بدأت كثير من الدول تعترف بالبرتغاليين كيهود.

(*) المصدر السابق نفسه.


http://kotob.has.it

الفصل الرابع

يهود المارانوا - تاريخ وعقيدة(*)

The Marranos History and Doctrine

كلمة "مارانون" أطلقت على أولئك اليهود المتخفين، في إسبانيا والبرتغال، الذين تراجعوا ظاهرياً عن اليهودية وادعوا اعتناق الكاثوليكية حتى يتمكنوا من البقاء في شبه جزيرة أيبريا مع تَراجُع الحكم الإسلامي وبعد طَرد يهود البرتغال عام ١٤٨٠ وطرد يهود إسبانيا ١٤٩٢. وقد أطلق عليهم أيضاً تعبير "كونفرسوس"، أي "الذين اهتدوا إلى دين جديد"، و"كريستاوس نوفوس"، أو "المسيحيون الجدد". وكلمة "مارانو" التي أحرزت شيوعاً في القرن السادس عشر ليست معروفة الأصل على وجه التحديد. وفيما يلي بعض الكلمات والعبادات التي قد تكون أصلاً للكلمة:

١ - "مارانو" كلمة باللهجة الإسبانية القديمة معناها "خنزير".

٢ - "ماترانثا" كلمة إسبانية معناها "الملعون".

٣ - "المُرائي" كلمة عربية معناها "المنافق".

٤ - "مارئيت عيين" عبارة عبرية معناها "ظاهر للعين"، فهو يُظهر المسيحية ويبطن اليهودية.

٥ - "محورام أتاه" كلمة عبرية معناها "أنت مطرود من حظيرة الدين".

٦ - "مارن أث" عبارة آرامية معناها "أنت مولانا"، والخطاب فيها موجه إلى المسيح.

(*) المصدر السابق نفسه

وكان محتوماً على اليهودي أن ينطق بها كثيراً لإبعاد الشبهة عن نفسه.

والأصل الإسباني للكلمة هو الأكثر رجوحاً.

ولم يكن المصطلح ذائعاً في الأوساط الرسمية، ولم يرد في أي من الوثائق الرسمية الخاصة بمحاكم التفتيش. والمقابل العبري هو "أنوسيم"، أي "المُكرهون" أو الذين "قُسروا" على التنصر. ويُشار أحياناً إلى المارانو بعد خروجهم من شبه جزيرة أيبريا واستيطانهم مختلف دول أوربا، خصوصاً هولندا، باسم "البرتغاليون"، باعتبار أن أغلبيتهم جاءت من هناك، كما يشار إليهم كذلك بكلمة "السفارد" باعتبار أنهم جميعاً من السفارد، أي من شبه جزيرة أيبريا. ورغم أن الدراسات تُوحد بين المسيحيين الجدد ويهود المارانو وتقرن بينهما، فإننا، كما سنبين فيما بعد، نرى أن هذا الترادف خاطئ. ولكننا، مع هذا، نضطر إلى استخدامه بسبب شيوعه وبسبب إبهام هوية المارانو كما سنبين لاحقاً.

وقد كانت هناك حالات متفرقة من التنصر القسري في العالمين الإسلامي والمسيحي. وقد وقعت مثل هذه الحالات في إسبانيا قبل الفتح الإسلامي، وفي أوربا المسيحية مع حروب الفرنجة وغيرها.

لكن مثل هذا التنصر ظل الاستثناء لا القاعدة، لن الكنيسة كانت تقف ضده، نظراً لأن مثل هذه العملية تُفقد فكرة الشعب الشاهد مضمونها. فهذه الفكرة، التي كانت تَحكُم علاقة الكنيسة بأعضاء الجماعات اليهودية، تذهب إلى أن اليهود ذُلهم وضعفهم يقفون شاهداً على عظمة الكنيسة وانتصارها، وسيكون تنصرهم في نهاية الأمر أكبر قرينة على هذه العظمة. ومن ثم، يكون التنصر اليهودي طوعاً علامة على هذه العظمة. أما التنصر القسري فلا يضيف إلى أمجاد الكنيسة، ولذلك كانت الكنيسة تسمح لليهود الذين نُصروا عنوة بالعودة إلى دينهم الأصلي.

ولكن الأمر يختلف بالنسبة للمارانو الذين يبدأ تاريخهم عام ١٣٩١ حين نشبت اضطرابات ضد يهود إسبانيا وقامت مظاهرات عرضت عليهم إما "الموت أو الصلب". وقد أدت هذه الاضطرابات إلى تنصر أعداد كبيرة من اليهود بشكل قسري. ولكن تبع هذا موجه تنصر طوعي، بسبب انكسار أعضاء الجماعات اليهودية وهبوط الروح المعنوية. فضلاً عن أن يهود إسبانيا كانوا مُستوعَبين في الثقافة العقلانية الرشيدية (نسبة إلى ابن رشد) التي قوضت إيمانهم الديني. كما أن كثيراً من أعضاء النخب

الثقافية والمالية اليهودية كانت لهم مصالح مالية متشابكة من مجتمع الأغلبية (المسيحي). ثم قامت حركة تنصير أخرى عام ١٤١١ ـ ١٤١٢. ويمكن القول بأن تنصر الغالبية العظمى كان حقيقياً، ولكن ظلت هناك أعداد ممن مارسوا الطقوس اليهودية بشكل خفي. وقد عاش اليهود المتنصرون ومدعو التنصر جنباً إلى جنب مع أعضاء الجماعة اليهودية، بينما حاولت الدولة الإسبانية قَدْر استطاعتها أن تفصل بين الفريقين. وقد احتفظ كثير من المتنصرين بمهاراتهم الحرفية والإدارية واتصالاتهم التجارية كأعضاء في الجماعة الوظيفية اليهودية، وقد حققوا بسبب ذلك حراكاً اجتماعياً غير عادي، ولد الأحقاد ضدهم من قبل بعض عناصر الأرستقراطية القديمة.

وبعد سقوط غرناطة (واستعادة كل شبه جزيرة أيبريا) واجهت الدولة الجديدة مشكلة سكانية، وهي أن معظم سكان شبه الجزيرة كانوا إما مسلمين أو يهوداً أو من أصول مسلمة أو يهودية، ولم تكن توجد سوى أقلية مسيحية، ومن هنا لم يكن مفر من طرد العناصر غير المسيحية، لخَلْق التوازن السكاني لصالح المسيحيين، الأمر الذي يطلبه أمن الدولة.

لهذا كان لابد من طرد المسلمين واليهود، ففُرض عليهم إما التنصر أو مغادرة البلاد. وقد تنصرت أعداد كبيرة من اليهود انضمت إلى الأعداد التي تنصرت قبل ذلك. لكن العناصر الدينية الصلبة قررت اللجوء إلى البرتغال التي قدمت لهم حق اللجوء المؤقت، نظير ضريبة يدفعونها. ولكن حينما اعتلى مانويل الأول العرش عام ١٤٩٥ تغيرت السياسة تجاه اليهود . فمانويل كان يطمح إلى تحويل البرتغال إلى قوة تجارية عالمية، ووجد أن السبيل إلى ذلك هو أن يحكم ابنه مملكة موحدة في كل شبه جزيرة أيبريا، ولذا حاول أن يزوج ابنه من ابنة فرديناند وإيزابيلا، فوافق الملكان شريطة أن يقوم بطرد اليهود من البرتغال. وقد سبب هذا حيرة حقيقية لمانويل، فهو من ناحية كان حريصاً على اتهام هذا الزواج، ولكنه في الوقت نفسه كان يهمه الحفاظ على أعضاء الجماعة الوظيفية اليهودية ليستفيد من خبراتهم التجارية في بناء إمبراطورية التجارية.

وقد حل مانويل هذه المشكلة بأن احتفظ باليهود وفرض عليهم التنصر القسري، ولكنه منحهم في الوقت ذاته حريتهم الدينية والحصانة ضد محاكم التفتيش لمدة عشرة

أعوام. وقد اندمج المتنصرون في مجتمع الأغلبية، ولكن، كما هو الحال في إسبانيا من قبل، ظلت هناك عناصر تمارس الطقوس اليهودية سراً.

ويُلاحظ أن اليهود المتنصرين في البرتغال كانوا يشكلون كتلة بشرية كبيرة (كانت تصل، حسب بعض التقديرات، إلى ١٠٪ من إجمالي عدد السكان). وكان اليهود الذين فُرضت عليهم اليهودية في البرتغال من العناصر الصلبة، كما أسلفنا، ولذا احتفظوا بتماسكهم حتى أنهم كانوا يُسمون أحياناً "اليهود" بشكل علني أو "الأمة" أو "رجال الأعمال" (بالبرتغالية: أومينز دي نيجوسيوس homens de negocios)، كما كانت لهم اتصالاتهم التجارية والمالية المهمة. وقد أدى هذا إلى بروزهم في التجارة الدولية حتى أصبحت كلمة "برتغالي" مرادفة لكلمة "يهودي" في أنحاء أوربا. وقد كونوا جماعة ضغط قوية داخل البرتغال نفسها وكان لهم سفير خاص في روما، نجح في تقديم الرشاوى التي أخرت إنشاء محاكم التفتيش في البرتغال.

وتُشكل كل هذه العناصر مكونات مشكلة المارانو: عناصر يهودية تنصرت قسراً وادعت المسيحية، وعناصر أخرى تنصرت طوعاً وآمنت بالمسيحية فعلاً، وكلها عناصر ذات خطاب حضاري واحد (أيبيري كاثوليكي)، يوحد بينها، رغم اختلاف العقائد أو الادعاءات الدينية.

وقد تأخر إنشاء محاكم التفتيش في البرتغال بعض الوقت ولكنها بدأت نشاطها بشكل رسمي عام ١٥٣٦، ثم مارست نشاطها بشكل فعال في منتصف القرن السادس عشر، وبدأت في تعقب اليهود المتخفين الذين تخفوا ما يزيد عن قرن ونصف القرن (١٣٩١ ـ ١٥٥٠) أي الذين كانوا قد دُمجوا حضارياً تماماً إن لم يكن دينياً أيضاً. ومما زاد الأمور تعقيداً صدور القرار الخاص بنقاء الدم (بالإسبانية: لامبيثا دي سانجري Li-moieza de sanger) عام ١٥٦٦ الذي جعل من الأصول العرقية (لا الإيمان الديني) معياراً للتمييز.

وبعد أن كان التنقيب يتم عمن يمارسون الطقوس اليهودية خفية، أصبح التنقيب عن ذوي الأصول غير النقية، ومن ثم أصبح مصطلح "المارانو" لا يشير إلى اليهود المتخفين وحسب وإنما إلى ذوي الأصول اليهودية حتى ولو كانوا من المسيحيين الأتقياء (ولذا يميز البعض بين "المارانو المسيحيين" و"المارانو اليهود").

وقد مارس المارانوا (اليهود) جميع الشعائر التي تقتضيها الديانة المسيحية في

العلن. ولكن بعضهم ظل، في الوقت ذاته، يمارس شعائر الديانة اليهودية سراً. فكان اليهودي المارانو يُعمد أطفاله ويذهب إلى الكنيسة يوم الأحد ويذهب للاعتراف دون أن يدلي بأية اعترافات حقيقية، ويتناول القربان في الكنيسة ثم يبصقه خارجها.

وقد تأثرت عقيدتهم اليهودية بطول التخفي، فاختفت شعائر يهودية، مثل: الختان، والذبح الشرعي، واستخدام شال الصلاة، وكثير من الأعياد. واكتسب الشعائر ملامح جديدة ابتعدت بهم تماماً عن دينهم الأصلي. وكان أساس عقيدة المارانو هو الإيمان بأن الخلاص يتم من خلال شريعة موسى لا من خلال الكنيسة أو المسيح، وكانوا يؤمنون بأن تنصيرهم القسري هو جزء من العقاب الإلهي الذي حاق باليهود، تماماً مثل النفي (في حالة اليهودية الحاخامية). وقد تبوأت إستير مكانة خاصة في فكرهم الديني، فكان يُنظر إليها باعتبارها صورة مُسبقة لما يحدث لهم. فإستير، هي الأخرى، اضطرت إلى إخفاء هويتها الدينية مدة من الزمن حتى تحرز مكانة متميزة داخل البلاط الفارسي. وقد تمكنت خلال ذلك من إنقاذ شعبها من المذبحة التي كان يدبرها هامان لهم. وقد أنكر المارانو أن المسيح عيسى بن مريم هو الماشيح، وأصبح هذا الإنكار ركناً أساسياً في عقيدتهم، وهو ما زاد من أهمية العقيدة المشيحانية وانتظار مجيء الماشيح، ولعلها أصبحت المبدأ الوحيد. وكان المارانو يحتفلون بشعائر السبت يوم الأحد، وإن كان الاحتفال يأخذ شكلاً يسمح بالتخفي مثل: تنظيف المنزل، وتغيير الملاءات والملابس، والاستحمام، وإعداد وجبة تُسمى "أدافينا" (وكانت تُعد قبل يوم السبت). كما كانوا يحتفلون بأعياد اليهود المهمة الأخرى (مثل عيد الفصح وعيد الغفران) بعد العيد بعدة أيام حتى لا تتعقبهم محاكم التفتيش. وكان الصوم من أهم الشعائر التي يمارسونها لسهولة إخفائه، كما أن صوم إستير كان أهم أعيادهم، حيث كانوا يتلون مزامير داود أو قصائد من نظمهم باللغة الشائعة بينهم. وكانت هذه الصلوات تؤكد وحدانية الخالق (مقابل التثليث المسيحي)، بل وكان لديهم طقس يهدف إلى محو أثر التعميد المسيحي.

وقد بهت انتماء يهود المارانو بالتدريج بعد أن ترك التخفي لمدة طويلة أثره العميق. فعلى سبيل المثال، أصبحت عبادة الخالق في الخفاء جزءاً عضوياً من عقيدتهم، وأصبح الإعلان عن عقيدة الإنسان أمراً لا يليق (ومن هنا، استمر عدد كبير من يهود المارانو في التخفي حتى بعد أن أصبح من حق اليهود ممارسة شعائر دينهم علناً في إسبانيا والبرتغال). وقد تأثر المارانو بالطقوس الكاثوليكية، فهم يشيرون إلى "سانت إستير"،

كما تأثروا بتقاليد التصوف الكاثوليكية فكانوا يصومون من أجل الأحياء والموتى (وهو تقليد كاثوليكي).

وأصبحت لهم عبادات وأدعية خاصة بهم تختلط فيها الطقوس والعبادات الكاثوليكية بالطقوس والعبادات اليهودية. وكان المارانو لا يتزوجون إلا فيما بينهم ولا يتزاوجون مع غيرهم من اليهود. وكانت القيادة الروحية لجماعة في يد النساء العجائز، وكان الأطفال لا يعرفون الهوية الدينية الحقيقية إلا بعد سن الخامسة عشرة. كما أن يهود المارانو كانوا يُشكلون شبكة متماسكة، فكان التاجر المارانو يرفض أن يشارك تاجراً آخر إلى أن يتأكد من هويته. وقد أدى ذلك إلى تسهيل عملية التجارة والائتمان، وساعد هذا التَماسُك على تسهيل الحراك الاجتماعي للمارانو.

ثم بدأت محاكم التفتيش نشاطها في كل شبه جزيرة أيبريا. ومما يجدر ذكره أن محاكم التفتيش لم تتعقب اليهود الذين أعلنوا عن هويتهم الدينية، فهؤلاء لم يكن يُسمح لهم بالبقاء أساساً، وإنما تعقيب المسيحيين المشكوك في أمرهم والذين كان يُظن أنهم مارانو، أي "مواطنون يُظهرون المسيحية ويُبطنون اليهودية"، فهؤلاء كانوا في رأي محاكم التفتيش يشكلون خطراً على العقيدة المسيحية وعلى أن الدولة. ولكن هناك بعداً آخر بدأت الدراسات الحديثة تؤكده، وهو أن محاكم التفتيش في إسبانيا لم تكن تابعة للبابا. بل إن روما كانت تعترض في كثير من الأحيان تطرف قضاة هذه المحاكم، وعلى أن هذه المحاكم كانت تستخدم ديباجات دينية تستغل الشرعية الدينية لتعقب من كانت تظنهم أعداء الدولة. وتبين هذه الدراسات أن رجال الدين الذين عُينوا قضاة في هذه المحاكم نُصبوا من قبل الدولة الإسبانية لا من قبل روما. وتذهب هذه الدراسات إلى أن الدولة الإسبانية كانت في الواقع أول دولة مطلقة تضع مصلحتها الدنيوية فوق أية مصلحة أخرى، وهي ظاهرة بدأت تتضح في بقية أوربا في تاريخ لاحق، وتذهب أيضاً إلى أن هذه الدولة طالبت رعاياها لهذا السبب بولاء مطلق. وتحل الدولة العلمانية الحديثة مشكلة الولاء عن طريق جعل الدين أمراً خاصاً، على أن يتم التضامن داخل المجتمع على أساس مصلحة الدولة. ولكن في حالة الدولة الإسبانية، لم يكن هذا ممكناً برغم توجهها الدنيوي لأن التحالفات في أوربا كانت تتم في إطار ديني، ولم تكن العقيدة العلمانية قد تطورت أو أحرزت شيوعاً بعد. ومن هنا كان تمسك الدولة الإسبانية بالديباجات الدينية برغم توجهها الدنيوي.

ويذهب أصحاب هذه النظرية إلى أن عملية المطاردة أصبحت بعد قليل مثل مطاردة أجهزة المخابرات الحديثة لمن يُسمون "أعداء الدولة". وهذه الأجهزة كثيراً ما تختلق الاتهامات ضدهم وتخترعها اختراعاً إن لم تجدها، حتى يُكتَب لوظيفتها الاستمرار وحتى تُحكم قبضتها على الحاكم ويتزايد نفوذها وهيبتها. ومن هنا مطاردتها لبعض المسيحيين الجدد الذين تنصروا عن صدق، حتى يُكتب لها الاستمرار وتحقيق الرسالة!

ويُضيف هذه النظرية بعداً اجتماعياً أخيراً، وهو أن محاكم التفتيش لم تكن تهدف في واقع الأمر إلى القضاء على الهرطقة اليهودية بين المارانو كما كانت تدعي، وإنما كانت تهدف إلى وقف الحراك الاجتماعي لكل المسيحيين الجدد. ولم تكن تميز بين من اعتنق المسيحية عن صدق وبإرادته من جهة وبين من ادعى الإيمان بها من جهة أخرى. فالمسيحيون الجدد كانوا يشكلون طبقة وسطى جديدة لها إمكانيات غير متوافرة لكثير من قطاعات النخبة الحاكمة.

ومن المعروف أنه، مع نهاية القرن السابع عشر، لم يكن هناك فرق بين المسيحيين الجدد والمسيحيين القدامى. ولكن، مع هذا، تم تأكيد الفروق لتكون مسوغاً لمطاردة أعضاء الطبقة الجديدة. وقد استخدمت محاكم التفتيش معياراً دنيوياً غير ديني ("درجة نقاء الدم") وبالتالي تكون محاكم التفتيش هي أولى علامات العنصرية العلمانية (مقابل التعصب الديني) والتي تعتمد العرق (لا الدين) معياراً للتفرقة بين البشر. ولم تتوقف المطاردة إلا عام ١٧٧٣ حين تقرر إحراق الوثائق التي تُفرق بين المسيحيين الجدد والمسيحيين القدامى.

ومن القرائن التي تُذكَر كدليل على أن هؤلاء المسيحيين الجدد قد تنصروا فعلاً بإرادتهم وأنهم كانوا مسيحيين عن صدق، موقف الشرع اليهودي منهم، فكثير من الحاخامات كانا لا يعتبرونهم يهوداً. بل ورفضت المؤسسة اليهودية البعض ممن تهودوا وعاملت من قبلتهم باعتبارهم متهودين أو غرباء (بالعبرية: جير) اعتنقوا اليهودية ، أي أنها كانت تراهم مسيحيين تهودوا. ويُقال إن المؤسسة الحاخامية كانت سعيدة بملاحقة محاكم التفتيش للمسيحيين الجدد واضطهادها لهم، على أساس أنهم تركوا دينهم عن قصد. وعلى وجه العموم، كان اليهود يحتقرون المسيحيين الجدد (المارانو) الذين كانوا بدورهم لا يكنون أي احترام لليهود.

ومن القرائن الأخرى التي يجب ذكرها أن كثيراً من المسيحيين الجدد لم يعتنقوا

اليهودية حتى بعد طردهم من شبه جزيرة أيبريا، لأنهم كانوا مسيحيين بالفعل. كما يُفسر هذا اتجاه أغلبيتهم إلى العالم المسيحي وعدم توجههم إلى الدولة العثمانية الإسلامية . وقد جاء في إحدى الدراسات قصة تبين غباء البشر في بعض الأحيان وعُمّق تعصبهم، فقد قامت محاكم التفتيش بطرد فتاة بتهمة أنها مارانو تدعي المسيحية وتُبطن الإسلام. وعند وصولها إلى المغرب أكدت للناس هناك أنها مسيحية مؤمنة، فقاموا بتعذيبها باعتبارها مرتدة فأصرت على موقفها وقُتلت، فاحتُفل بها في شبه جزيرة أيبريا باعتبارها شهيدة مسحية!

وقد لاحظ بعض الدارسين أن كثيراً من المارانو كانوا في واقع الأمر ملحدين أو بغير هوية دينية على الإطلاق. ولهذا طالب المفكر الهولندي الشهير جروتيوس بأن يؤكد كل يهودي (فوق سن الرابعة عشرة) إيمانه بالإله والأنبياء واليوم الآخر للتأكد من يهوديته.

تبقى بعد ذلك قضية المارانو أو "المسيحيون الجدد" الذين تهودوا عند خروجهم. ولتفسير حالة هؤلاء ، نورد الأسباب التالية:

١ ـ لم يكن كل المسيحيين الجدد، كما أسلفنا، مؤمنين بالعقيدة المسيحية، بل كان منهم بالفعل مارانو يتحينون الفرصة لإظهار ما يُبطنون.

٢ ـ يُعتقد أن بعض المسيحيين الجدد، الذين كانوا يؤمنون بالمسيحية عن حق، اعتنقوا اليهودية نتيجة مطاردة محاكم التفتيش وملاحقتها لهم، وهم في هذا يشبهون المتهم الذي يعترف بجريمة لم يرتكبها، تحت وطأة التعذيب، حتى يُريح نفسه. كما أن هناك أيضاً عنصر الانتقام من مؤسسة عنصرية غبية.

٣ ـ يُعتقد أن كثيراً من المسيحيين الجدد تهودوا بعد أن وصلوا إلى أمستردام وغيرها من البلاد، حتى يحصلوا على عمل أو يمكنهم الالتحاق بإحدى النقابات الحرفية، أو المهنية. إذ أن المارانو كانوا قد وصلوا إلى بلد غريب ذي تنظيم ينتمي إلى العصر الوسيط ولا يسمح باستيعاب الغريب. وإذا أراد المرء أن يُكتب له البقاء، خصوصاً إذا كان وافداً جديداً، كان عليه أن ينتمي إلى إحدى النقابات أو المؤسسات. ولكن لم يكن من المتوقع أن تقبله نقابات المهنيين أو إحدى التنظيمات الوسيطة الأخرى باعتباره مسيحياً. وهناك حالات رُفض فيها السماح لبعض المسيحيين الجدد بالتنصر الفعلي حتى لا يحصلوا على حقوق المسيحيين. وقد كان أمام هؤلاء فرصة الانضمام إلى إحدى النقابات اليهودية عن طريق التهود.

٤ ـ ولقد أتى هؤلاء المسيحيون الجدد من شبه جزيرة أيبريا، ومن ثم فإن من كان منهم مسيحياً حقاً كان يؤمن بالكاثوليكية، ثم استقروا في هولندا، وكانت حينذاك بلداً بروتستانتياً معادياً لإسبانيا، يتسامح مع اليهودية ويقبلها ولا يتسامح مع الكاثوليكية. فالدول البروتستانتية الجديدة في أوربا كانت تنظر إلى الكاثوليكية والكاثوليك (لا اليهودية واليهود) باعتبارهم الخطر الأعظم. ومن ثم كان من المنطقي أن يتبنى هؤلاء المطرودون من بلادهم البديل الوحيد المقبول وهو اليهودية.

وقد ظهرت نظرية مؤخراً تذهب إلى أن المارانية هو نتاج شكل من أشكال العبادة الشعبية التي كانت موجودة في شبه جزيرة أيبريا، وهي عبادة اختلطت فيها العناصر اليهودية بالعناصر المسيحية والإسلامية (كما هو الحال مع العقائد الشعبية). وقد شاعت هذه العبادة بين الجماهير اليهودية التي كانت تَشعُر بالاغتراب عن اليهودية الحاخامية الرسمية بنزعتها العقلية والعقلانية، خصوصاً بعد تأثرها بالفلسفة العقلانية الرشدية. والديانات الشعبية عادةً ما يتم تَوارُثها من خلال الأسرة، ولذا كان اليهودي المتنصر عن صدق يصبح من المارانو إن كان من ممارسي هذه الديانة الشعبية.

ومهما كانت الأسباب والدوافع لتعقب محاكم التفتيش للمارانو وتهودهم بعد خروجهم من شبه جزيرة أيبريا، وبغض النظر عما إذا كانوا مسيحيين عن صدق أم يهوداً، فما يهمنا هنا هو تأكيد أن المضمون اليهودي لهوية المسيحيين الجدد، والمارانو بعد خروجهم من شبه جزيرة أيبريا، إما أنه لم يكن موجوداً أساساً أو أنه قد ضعف تماماً أو اختفى كليةً. وقد انضمت أعداد كبيرة منهم إلى الجماعات اليهودية في أوربا، الأمر الذي ترك أعمق الأثر في هذه الجماعات. فهوية المارانو كانت هوية هامشية بالنسبة إلى المجتمعات كافة. ذلك أنهم بعد انضمامهم إلى الجماعات اليهودية، لا يكونون مسيحيين في المجتمع المسيحي، ولا يهوداً من منظور اليهودية الحاخامية. ولذا، قُدر لهم أن يلعبوا دوراً تحديثياً ضخماً بوصفهم "غرباء هامشيين" وكجماعات وظيفية داخل المجتمعات الغربية وبين الجماعات اليهودية.

وقد انتشر يهود المارانو في كل أنحاء العالم بعد طردهم، فذهبت أعداد كبيرة منهم إلى الدولة العثمانية واستوطنوا سالونيكا، فكان عدد يهود المارانو في هذه المدينة يفوق عدد اليهود بل وعدد غير اليهود فيها. ولذا، كانت هذه المدينة تعد عاصمة المارانو في العالم. كما اتجهوا إلى الأستانة والقاهرة وكونوا نخبة متفوقة، الأمر الذي أدى إلى

اندماج مختلف الجماعات اليهودية الأخرى فيهم، وأصبحت اللادينو لغة يهود الدولة العثمانية.

وقد اتجه المارانو إلى الدول الغربية، خصوصاً البروتستانتية، حيث كانت محاكم التفتيش محط كراهية عميقة، وكان كثير من البروتستانت من ضحاياها. فاستوطن المارانو في إنجلترا وأمستردام وهامبروخ، بل واتجه بعضهم إلى الدول الكاثوليكية فاستقروا في بايون وبوردو وليون في فرنسا، وفي بعض المستعمرات الاستيطانية التابعة لإسبانيا أو البرتغال في العالم الجديد. وكانت بعض الدول مثل هولندا تعترف بالمارانو كيهود عند وصولهم. أما بعض الدول الأخرى، فكانت تتسامح في وجودهم وحسب، وتلجأ في ذلك إلى حيل قانونية أو غير قانونية. فكانت بعض الدول، مثل إنجلترا، تغض النظر عن هويتهم الحقيقية، فيظلون مسيحيين اسماً ويمارسون عقيدتهم اليهودية سراً أو علناً، ولكن دون اعتراف رسمي، لأن الاعتراف الرسمي كانت تنجم عنه بكل تأكيد تعقيدات إدارية بالغة في مجتمع تستند كل مؤسساته إلى العقيدة المسيحية وإلى الإيمان بها. وكما أشرنا سالفاً، فإن كلمة "برتغالي" كانت في كثير من الدول تعني "مارانو" أو "يهودي".

وكان يهود المارانو عادةً يستوطنون في بلد ما ليُشكلوا نواة سفاردية متقدمة تلحق بها عناصر إشكنازية تزيد من عددها. وقد ظل السفارد النخبة التي كانت تلعب دوراً قيادياً. أما الإشكناز فكانوا هم الجماهير، أو الفائض غير المرغوب فيه. وقد زادت الهجرة الإشكنازية من شرق أوربا بعد هجمات شميلنكي في القرن السابع عشر، ومن تفاقُم المسألة اليهودية في القرن التاسع عشر، حتى زاد عدد اليهود الإشكناز على عدد يهود السفارد من المارانو السابقين وأصبحوا هم الأغلبية العظمى.

وفي الأدبيات الصهيونية يتحدثون عن "المارانو الجدد"، وهم اليهود المندمجون الذين يحاولون الاندماج في محيطهم الثقافي ويخفون يهوديتهم بقدر الإمكان. ولكن كما قال حاخام فيينا بعد لقائه بهرتزل: "من هو اليهودي الحقيقي؟: هل هو الذي يمارس شعائر دينه ويندمج في مجتمعه، أم هو الصهيوني الذي يتحدث عن العودة إلى فلسطين ولا يمارس أياً من الأوامر والنواهي؟". ويمكننا من هذا التساؤل أن نقول إن الصهيوني هو مقلوب المارانو، فهو يتباهى بهويته اليهودية ولكنه في داخل إنسان غير منتم إلى الدين اليهودي. وقد لاحظ بن جوريون نفسه أن يهود أمريكا يستخدمون الصهيونية كغطاء

يستترون به حتى يزيدوا من اندماجهم الفعلي في مجتمعاتهم، وتنحصر يهوديتهم الظاهرة في إرسال التبرعات إلى إسرائيل لإخفاء باطنهم المندمج، ومن هنا الإشارة ليهودية هؤلاء باعتبارها "يهودية دفتر الشيكات".

وقد اختفى أثر المارانو في إسبانيا، أما في البرتغال، حيث كانت توجد أعداد كبيرة منهم، فقد استمر وجودهم حتى القرن العشرين على هيئة جماعات متفرقة يبلغ عدد أعضائها نحو عشرة آلاف. ومن الطريف أن جيرانهم يعرفون أنهم مارانو وأنهم فقدوا الصلة تماماً بالجماعات اليهودية في العالم وإن كانوا يحتفظون بالصلة فيما بينهم. وقد أصبحت ممارستهم الخفية جزءاً أساسياً من عقيدتهم، كما أصبحت طقوسهم الباهتة التي توارثوها عبر الأجيال هي ممارستهم الدينية اليهودية الوحيدة. ورغم أن البرتغال أعلنت حرية العبادة عام ١٩١٠، فإن المارانو لم يغتنموا الفرصة وظلوا على ممارستهم.

ومن أهم جماعات المارانو جماعة مدينة بلمونت، فهم يتصورون أنهم من نسل اليهود البرتغاليين مباشرةً، وأنهم غير مُخلطين. كما أنهم لا يزالون يمارسون بعض الشعائر الدينية اليهودية ، فهم يوقدون الشموع يوم السب، ويصومون يوم الغفران، ويقيمون بعض شعائر عيد الفصح، فلا يأكلون لحم الخنزير في يوم السبت أو في الأعياد ولكنهم يأكلونه في الأيام الأخرى، وهم يحتفلون بهذه الأعياد في أيام غير تلك التي حددها التقويم اليهودي حتى يحولوا الأنظار عنهم. ويتم عقد الزيجات باسم الإله أبراهام وأسحق ويعقوب. كما احتفظوا ببعض شعائر الدفن مثل الطهارة، أي تغسيل الميت. وقد اختفت اللغة العبرية في صلواتهم، فلم يبق سوى عبارات مُحرفة تكاد تكون غير مفهومة. وقد أصبحت عقيدتهم بعيدة عن اليهودية وتتضمن خرافات كثيرة. ويبدو أن الممارسات الدينية مقصورة على النساء، ربما لصرف الأنظار.

وتحاول بعض الجماعات اليهودية، خصوصاً في إنجلترا حيث يوجد يهود كثيرون من أصل برتغالي، أن يُهودوا المارانو ويُدخلوهم حظيرة اليهودية العلنية. وقد بذلت الأليانس جهوداً كبيرة في هذا المضمار، واتصلت بهم الوكالة اليهودية مؤخراً، ويبدو أنها أقنعتهم بالتهود والهجرة إلى إسرائيل . وهذا يعني بالنسبة إليهم حراكاً اجتماعياً لأن معظمهم فقراء يعملون بائعين متجولين.

والمارانو يشبهون من بعض الوجوه ظاهرة الموريسكيين، وهم العرب المسلمون الذين

اضطروا إلى التنصر بعد استرداد المسيحيين لإسبانيا. وقد نسي الموريسكيون اللغة العربية وإن كانوا يتحدثون بلهجة يُقال لها "الألخميادو" (تحريف لكلمة "أعجمية")، وهي اللغة القشطالية بعد أن دخلت عليها كلمات عربية ولاتينية، وكانت تُكتب بحروف عربية. وكان الموريسكيون صناعاً مهرة وفنيين في العديد من المهن، مثل: صناعة الحرير، والذهب والفضة، والنقش والبناء، والفلاحة وأساليب الري الفنية. كما كانوا وراء تعميم زراعة البرتقال والموالح وقصب السكر ومختلف الأشجار المثمرة كالتوت، ومن الواضح أنهم كانوا مُركزين في قطاعات الاقتصاد الإنتاجية، على خلاف يهود إسبانيا الذين كانوا مركزين في التجارة والمال والأعمال الوسيطة. وقد حاولت الدولة الإسبانية صبغهم بالصبغة الإسبانية بعد تنصرهم، فكان يُحرم عليهم لبس الرداء العربي أو التحدث بالعربية أو اقتناء كتب عربية أو طبخ الكُسكُس (الطعام المغربي الشهير). وقد اندلعت الثورات بينهم من أهمها ثورة الموريسكيين الكبرى في البشرات (قرب غرناطة) سنة ١٥٦٩ (وتُسمى ثورة البشرات الثانية). وحينما فشل النظام الإسباني في إسقاط هويتهم العربية ، قام بطردهم سنة ١٦٠٩ (كان مجموع المسلمين الذين طُردوا يتراوح ما بين ٩٠٠ ألف و٣٠٠ ألف، وفي بعض التقديرات يُقال إن مجموع من طُرد من المسلمين يصل إلى ثلاثة ملايين).

ومع هذا، بقي كثير من المسلمين يمارسون شعائر دينهم في الخفاء، ويتداولون الكتب الدينية المكتوبة بالألخميادو. وقد تعقبتهم محاكم التفتيش، وبالفعل وُجد في غرناطة (عام ١٧٢٧) قساوسة من أصل موريسكي يمارسون شعائر الدين الإسلامي سراً. وكانت بعض الأسر المرويسكية تُشهر إسلامها بعد مغادرتها إسبانيا. وفي سنة ١٧٥٧، حُوكم موريسكي بتهمة اتباع شعائر الدين الإسلامي سراً. وقد لاحَظ بعض الرحالة الإنجليز في أواخر القرن الثامن عشر أن بعض الأسبان مازالوا يمارسون شعائر الدين الإسلامي سراً.

ويقول بعض الأساتذة الأسبان إنه لا تزال توجد في إسبانيا قرى بأسرها موريسكية. وقد بدأ بعض دعاة القومية الأندلسية في إسبانيا الحديثة يصر على أن تراث أهل الأندلس هو التراث الإسلامي، بل إن بلاسي إنفانتي بيريز (١٨٨٥ ـ ١٩٣٦) أبا حركة البعث الأندلسي، وهو من نسل الموريسكيين القدامى، اعتنق الإسلام، وقد أعدمته قوات فرانكو رمياً بالرصاص في ١٠ سبتمبر ,١٩٣٦

الفصل الخامس

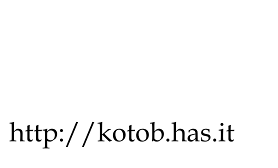
جديد الإسلام(*)

Jedid al _ Islam

"جديد الإسلام" مصطلح إيراني بمعنى "المسلمون الجدد"، ويشير هذا المصطلح إلى اليهود المتخفين الذين أُرغموا عنوة على اعتناق الإسلام في إيران في القرنين السابع والثامن عشر، فأظهروا الإسلام وأبطنوا اليهودية. ويشير المصطلح على وجه التحديد إلى أعضاء الجماعة اليهودية في مشهد، والذين اضطروا إلى اعتناق الإسلام إبان حكم أسرة الكاجار عام ١٨٣٩.

ولا نعرف شيئاً عن مصير اليهود الذين اعتنقوا الإسلام عنوة في القرنين السابع عشر والثامن عشر. والظن الغالب، أنه تم استيعابهم في المجتمع الإسلامي. أما جماعة مشهد، فقد احتفظت بهويتها ولم يتزاوج أعضاؤها إلا فيما بينهم، ثم هاجر بعضهم إلى القدس عام ١٨٩٠. أما بقية الجماعة، فقد ظلت في مشهد حتى أواخر الأربعينات من القرن العشرين، وكونت جماعة اقتصادية مستقلة.

(*) المصدر السابق ص ١٤١.


http://kotob.has.it

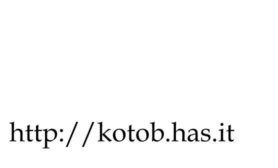
الفصل السادس

جماعة "تشويتاس" (*)

Chuetas

"تشويتاس" من كلمة "تشويا" وتعني "لحم خنزير" بلهجة جزيرة مايوركا، إحدى جزر الباليايك التابعة لإسبانيا. غير أن هناك نظرية أخرى تذهب إلى أن الكلمة مُشتقة من كلمة "تشوهينا" وتعني "يهودي" بلهجة الجزيرة. وهم من أهم جماعات المارانو التي استمر وجودها حتى الوقت الحالي في جزيرة مايوركا. وأعضاء هذه الجماعة يعملون أساساً بالتجارة وصناعة الحلي الفضية. وقد فَقدوا كل علاقة باليهودية، ومع هذا فهم لا يزالون يحتفظون بعزلتهم وهويتهم الخاصة الباهتة. ولا يُعرف عددهم على وجه الدقة، وإن كان لا يتجاوز مائتين أو ثلاثمائة. وقد هاجرت أعداد منهم إلى إسرائيل وتم تهويدهم واستوطنوا فيها، ولكن التجربة فشلت فعادوا إلى مايوركا.

(*) المصدر السابق نفسه.



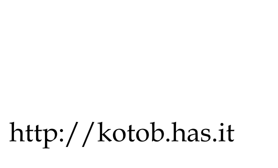
الفصل السابع

الرومانيوت(*)

Romaniot

تُستخدم كلمة "رومانيوت" للإشارة إلى الجماعة اليهودية داخل الإمبراطورية البيزنطية في آسيا الصغرى وشبه جزيرة البلقان. وكان الرومانيوت يُسمون أيضاً "الجريجوس"، كما تُستخدم الكلمة للإشارة إلى نسلهم ومن ورثوا تراثهم اللغوي والثقافي. وكان الرومانيوت يتسمون بأسماء يونانية، كما كانت معابدهم تُعرف بأسماء يونانية أيضاً. وقد تأثروا بعمق بالتراث اليوناني وباللغة اليونانية التي أصبحت لغة الصلاة في المعبد. وقد صدرت عام ١٥٤٧ ترجمة العهد القديم باليونانية الحديثة واللادينو. ومع بداية القرن السادس عشر، بدأ يهود السفارد يصلون لاجئين إلى الدولة العثمانية، وكان مستواهم الثقافي الرفيع وخبراتهم الإدارية والمالية واتصالاتهم العالمية تؤهلهم لاستلام قيادة الجماعات اليهودية في الدولة العثمانية، الأمر الذي وضع يهود الرومانيوت في حال دفاع عن النفس. وعلى أية حال، فقد بدأت معابدهم في التناقض وأصبحت لهجتهم اليونانية مقصورة على بضعة تجمعات يهودية متناثرة. وقد انتهى الأمر باندماج معظمهم في السفارد وتبنيهم اللادينو التي أصبحت لغة معظم يهود الدولة العثمانية في الكتابة والحديث.

(*) المصدر السابق نفسه.



الفصل الثامن

يهود الهند(*)

Indian Jews

توجد عدة جماعات يهودية في الهند من بينها بني إسرائيل في بومباي، ويهود كوشين على ساحل مالابار، في ولاية كيرالا، واليهود البغدادية في بومباي أيضاً، ويهود مانيبور على الحدود مع بورما. وقد بلغ عددهم عام ١٩٤٧ نحو ٢٦,٥٠٠. أما في عام ١٩٦١، فقد بلغ عددهم ١٤,٦٠٨ في الهند ذاتها، إضافة إلى ٢٣ ألفاً في إسرائيل، و٢٠٠٠ في إنجلترا حسب إحصاءات عام ١٩٦٧، أي أن عددهم يبلغ نحو ٣٩,٥٠٠، وهو ما يعني أن نسبة التكاثر بين يهود الهند من أعلى النسب بين الجماعات اليهودية (إذا كانت الإحصاءات دقيقة). وقد تأثرت كل هذه الجماعات اليهودية بالبيئة الهندية وبنظام الطوائف المغلقة. وهي لا تنتمي إلى أي من الكتل اليهودية الثلاث الكبرى: الإشكناز، والسفارد، ويهود العالم الإسلامي. ولذا ، فهم يُعَدون ضمن الجماعات الهامشية مثل الفلاشاه ويهود كايفنج.

ويُلاحظ أن قبول اليهود في مجتمع ما، واندماجهم فيه، يؤدي إلى ذوبانهم وأنصارهم. ولكن يهود الهند يمثلون نمطاً مغايراً تماماً إذ أن اندماجهم أدى إلى الحفاظ على هويتهم. وهذه مفارقة واضحة تعود إلى حركيات المجتمع الهندي ذاتها، فهو مجتمع تُعد الوحدة الأساسية فيه القرية والطائفة المغلقة. وتستطيع أنواع مختلفة

(*) المصدر السابق نفسه

من البشر الاحتفاظ بهوياتهم فيه، ماداموا يقبلون الطائفة المغلقة إطاراً للتنظيم الاجتماعي، ربما ببعض المعتقدات الهندوكية الأساسية. وتقوم عملية التضامن داخل الجماعة المغلقة بتقوية الهوية مادامت لا تهدد النظام الاجتماعي. وبالتالي، فإن ثمة هويات هندية يهودية مختلفة، بل ومتصارعة، لكل سماتها الواضحة.

وهذا، بطبيعة الحال، مختلف عن وجود هوية يهودية محدد داخل كل مجتمع، وعن الافتراض الصهيوني القائل بوجود هوية يهودية عامة أو عالمية. ويُلاحظ أن الهويات اليهودية الهندية آخذة في الاختفاء بسبب الهجرة من الهند سواء إلى إسرائيل أو إلى غيرها من البلدان. كما أن الأجيال الجديدة من الهنود اليهود بدأت تتمرد على نظام الطوائف المغلقة، تماماً مثل جيل الشباب الهندي ككل.

ويعيش القسم الأكبر من يهود الهند الذين هاجروا إلى إسرائيل في مدن التنمية، خصوصاً تلك الموجودة في النقب والمنقطة الجنوبية مثل: بئر سبع وعسقلان وعراد إضافة إلى بيسان في غور الأردن.

ويعيش قسم آخر في المدن الكبرى الثلاث: القدس، وتل أبيب، وحيفا. ويعيش عدد قليل للغاية في بعض الكيبوتسات (وهي مؤسسات إشكنازية بالدرجة الأولى) والموشافات. ومن الظواهر التي تستحق التسجيل أن ثمة قائمة خاصة بمهاجري الهند ظهرت في انتخابات عام ١٩٨٤.

الفصل التاسع

يهود "بني إسرائيل" (*)

Bene Israel

"بني إسرائيل" اسم عَلَم يُطلق على مجموعة من يهود الهند كانت تقطن أساساً في منطقة كونكان، ولكنها، ابتداءً من القرن الثامن عشر، انتقلت إلى بومباي حيث أسست أول معبد يهودي عام ١٧٩٦. ومع حلول عام ١٨٣٣، كان ثلثاً يهود بني إسرائيل يعيشون في بومباي. ولا نعرف الكثير عن أصل يهود بني إسرائيل، إلا أنهم، حسب روايتهم، يعودون إلى ما قبل الميلاد. وقد انقطعت صلتهم باليهودية الحاخامية، ولكنهم بعد احتكاكهم بيهود كوشين تعلموا على أيديهم أصول عقيدتهم مرة أخرى، كما انضم إليهم اليهود البغدادية في القرن التاسع عشر. ولون يهود بني إسرائيل أميل إلى البياض مقارنةً بلون بشرة الهنود العاديين، وهم يرتدون الملابس الهندية ويتحدثون الماراثي (وهي اللغة الشائعة في المنطقة التي يعيشون فيها)، ويتسمون أسماءً هندية. ونظراً لانفصالهم عن اليهودية الحاخامية لعدة قرون، فإن شعائرهم الدينية تختلف عن شعائر باقي يهود العالم في كثير من النواحي، فهم لا يعرفون التلمود، بل كانوا قد نسوا التوراة بعض الوقت ولكنهم أعادوا اكتشافها من بعد. ولم يُترجم العهد القديم إلى اللغة التي يتحدثونها إلا في بداية القرن التاسع عشر. ومع هذا، فهم يعرفون صلاة عبرية هي صلاة الشماع، وللنبي إلياهو مكانة خاصة في عبادتهم. ومن عاداتهم الدينية عادة

(*) المصدر السابق ص ١٤٢.

تُسمى "ماليدا" وهي إعداد طعام خاص يقدم قرباناً. وتُتلَى بعض الصلوات اليهودية في مناسبات مهمة مثل الختان والزواج. وأعيادهم وأيامهم المقدسة هي: رأس السنة (ويُحتفَل به لمدة يوم واحد)، و يوم الغفران، وعيد الفصح. ولكنهم كانوا لا يعرفون عيد التدشين. كما كانوا لا يعرفون شيئاً عن هَدْم الهيكل على يد تيتوس. وهم يقيمون شعائر السبت والختان وبعض قوانين الطعام، ويمارسون صيام رمزان (وقد يكون هذا الاسم تصحيفاً لكلمة "رمضان"). وكان يترأس الجماعة اليهودية من الناحية الدينية والدنيوية الكاجي (القاضي؟). وقد أصبحت الوظيفة وراثية حتى صارت كلمة "كاجي" هي اسم العائلة. وبعد احتكاك يهود بني إسرائيل باليهودية الحاخامية في بقية العالم وتأسيسهم معابد يهودية، ظهرت وظيفة المقدم الذي اطلع بالوظيفة الدنيوية للكاجي، كما حل المرتلون (حزان) محل الكاجي في الجوانب الشعائرية. ولا يوجد عندهم حتى الآن حاخام مُعتَمد تلقى التدريب الصحيح.

وكان يهود بني إسرائيل يعملون أساساً بالزراعة واستخراج الزيت وببعض الحرف اليدوية. وبعد احتلال الإنجليزية للهند، خدم يهود بني إسرائيل في الفرق العسكرية الإنجليزية وعملوا في المهن المختلفة وفي وظائف ذوي الياقات البيضاء وفي المهن التجارية والمالية الأخرى، أي أنهم تحولوا إلى جماعة وظيفية في خدمة الاستعمار. وهناك ١٠٪ من يهود بني إسرائيل يعملون بالتجارة، ولكن أغلبيتهم العظمى تعمل كَتَبة في الحكومة والمكاتب الخاصة.

ولذا، يُشار إليهم الآن بوصفهم "طائفة الكتبة المغلقة"، كما تضم الجماعة بعض الأساتذة الجامعيين.

ويمكننا أن نقول إن يهود بني إسرائيل قد استطاعوا الحفاظ على هويتهم من خلال نشاطهم داخل المجتمع الهندي لا ضده، أي من خلال اندماجهم فيه. ومن هنا، فإن بعض أنماط سلوكهم يختلف عن أنماط سلوك يهود الغرب. ورغم أن سمعة الأطباء اليهود جيدة في الهند، فإن أبناء الجماعة لا يترددون عليهم. ونادراً ما يستخدم أرباب العمل اليهود عمالاً يهودياً، على عكس ما كان عليه الأمر في أوربا قبل الثورة الصناعية. ونادراً ما يرسل أعضاء الجماعة أبناءهم إلى مدارس يهودية. كما لا تُوجد نسبة كبيرة من التجار بينهم.

ولكن الاندماج يظهر، أكثر ما يظهر، في استيعاب نظام الطوائف المغلقة (الهندوكي)

لأعضاء الجماعات اليهودية، وكذلك في تأثيره العميق عليهم وعلى رؤيتهم للذات وللآخر. فأعضاء الجماعات اليهودية ينقسمون إلى قسمين: اليهود البيض (جورا إسرائيل)، الذين يعتبرون أنفسهم اليهود الحقيقيين والأكثر رقياً (وهم حسب أسطورتهم أبناء العائلات السبع نقية الدم التي وصلت إلى الهند واستقرت في ساحل كونكان)، واليهود السود (كالا إسرائيل) وهم هنود مُتهودون أو نتاج زواج مختلط. ويُعتبَر الجوار إسرائيل أنفسهم في مكانة اجتماعية أعلى من الكالا إسرائيل، ويحاولون الحفاظ على نقائهم ولا يتزاوجون معهم، بل ولا يلمسون أدوات الطبخ الخاصة بهم. وقد انعكست الثورة على النظام الطائفي في الهند على بني إسرائيل إذ أن أعضاء الكالا إسرائيل يُظهرون الآن تذمراً من عنصرية الجوار إسرائيل.

ويُطلق جيران اليهود مصطلح "شانو ارتيليس"، أي "زياتو السبت" باعتبار أن أعداداً كبيرة منهم تعمل في استخراج الزيت وبيعه، الأمر الذي يعني أنهم كانوا طائفة مُغلَقة متدنية في سلم الطوائف، ويسبب مجرد لمس أحد أشخاص هذه الطائفة الدناسة. ولم يتأثر يهود بني إسرائيل بالملابسات الاجتماعية وحسب، وإنما نجد أن بعض العقائد الهندوكية وجدت طريقها إلى يهوديتهم. فمثلاً كان يُحرم الزواج من الأرامل، وكانوا يتصورون أن أكل لحم البقر مُحرم عليهم وأن ذلك منصوص عليه في التوراة!

وينقسم يهود بين إسرائيل في الوقت الحاضر إلى ثلاثة اتحادات دينية: أولها اتحاد الأبرشيات الأرثوذكسية، وهو مرتبط بالاتحاد الذي يحمل الاسم نفسه في الولايات المتحدة. والثاني معبد الهند المتحد، ويرتبط بالمجلس العالمي للمعابد المحافظة. وليس هناك فارق واضح بين هاتين الطائفتين (وقد يكون من قبيل المفارقات أن كلا الاتحادين قد أخذ بالطقوس السفاردية). وهناك اتحاد ثالث هو الاتحاد اليهودي الديني، وهو مرتبط بحركة اليهودية الليبرالية الإصلاحية في إنجلترا ويضم أعضاء بني إسرائيل الذين حققوا مكانة اجتماعية عالية. ولا تختلف شعائر هذا الاتحاد الثالث عن الاتحادين الآخرين. ولذا ، يظل الاختلاف هو الاختلاف في الانتماء الطبقي للأعضاء.

وعندما اتصلت الحركة الصهيونية بيهود بين ارس ليرسلوا ممثلين لهم للمؤتمرات الصهيونية، رفضوا في بداية الأمر إذ أنهم كانوا في انتظار "اليد المقدسة" لتقودهم إلى أرض الميعاد. وبعد عدة سنوات، وتحت تأثير الوكالة اليهودية التي بدأت تُشرف على أمورهم الدينية والدنيوية، هاجر بضعة آلاف منهم إلى إسرائيل حيث عانوا من التفرقة

العنصرية وفشلوا في العثور على وظائف، وهو ما اضطرهم إلى الإضراب والمطالبة بالعودة إلى الهند. وقد عاد بعضهم بالفعل. أما الفريق الذي استوطن إسرائيل نهائياً، فقد وُطن في موشاف جديد يقطنه أساساً يهود عراقيون وهنود. وفي عام ١٩٦١، أصدر حاخام السفارد (الحاخام نسيم) قراراً (بإيعاز من اليهود البغدادية) بالتحقق من أصل يهود بني إسرائيل الذين يودون التزاوج من خارج جماعتهم الدينية الإثنية، لأنه لم يكن متأكداً إن كان أسلافهم قد راعوا القوانين اليهودية في الزواج والطلاق، وكذلك التحريات الخاصة بالزواج المُختلَط، وذلك حتى يتسنى للحاخامية أن تقرر إن كان أولادهم شرعيين أم غير شرعيين (مامزير). وقد أدى هذا إلى إضراب عام من جانب بني إسرائيل عام ١٩٦٤، الأمر الذي اضطر الحاخامية إلى تغيير موقفها بالنسبة لهم. ومن أشهر الإسرائيليين المنتمين إلى هذه الأقلية آبي نيثان، وهو من الموافقين على حل الصراع العربي الإسرائيلي سلمياً ومن معارضي سياسة التوسع الإسرائيلية. وقد قابل آبي نيثان الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات وزُج به في السجن لذلك السبب. وكان عدد بني إسرائيل في الهند: ٥٢٥٥ عام ١٨٣٧، و٧٠٠٠ عام ١٨٨١، و١٤,٨٠٥ عام ١٩٤١. أما في عام ١٩٤٧ فقد بلغ عددهم ١٧,٥٠٠، ثم هاجرت أعداد منهم إلى الدولة الصهيونية. وهبط عددهم إلى ١٥ ألفاً عام ١٩٦٠ وإلى ١٣ ألفاً عام ١٩٦٨. ثم هبط عددهم بعد ذلك إلى ١٢ ألفاً. ويبدو أن عدد يهود بني إسرائيل في الهند قد أخذ في التناقض بسبب الهجرة إلى إنجلترا وكندا وأستراليا إذ بلغ عام ١٩٨١ نحو أربعة آلاف.

الفصل العاشر

يهود كوشين(*)

Cochin Jews

"كوشين" مدينة هندية، وتُسمى بهذا الاسم أيضاً منطقة على ساحل مالابار تقع جنوب غربي الهند، وهي الآن جزء من ولاية كيرالا. وتضم كوشين جماعة يهودية متميزة تمثلت كثيراً من سمات الحضارة الهندية. وتعود أصول هذه الطائفة إلى عصور قديمة.

ويدعي يهود كوشين أنهم من قبيلة منَسى، وأنهم وصلوا إلى مالابار بعد هَدْم الهيكل. وفي حوزة يهود كوشين وثيقة مكتوبة على ألواح من النحاس تتضمن صك الانتماء إلى طائفة النبلاء، وقد منحها الراجا الهندي لليهودي يوسف رابان. وحسبما جاء فيها، فإن الصك يعطي يوسف هذا عدة مزايا، فقد أصبح من حقه أن يركب فيلاً، وأن يُحمل في محفة، وأن يُحمَى من الشمس بمظلة من مظلات الدولة ، ومن حقه أيضاً أن يفرض الضرائب، وأن تسبقه الطبول والمزامير كلما خرج إلى الشوارع، كما مُنح قرية انجوفانام على حدود كوشين يتوارثها أبناؤه من بعده. وقد كان يهود كوشين يساعدون الراجا في حروبه ضد الإمارات المجاورة، وانضمت إليهم عناصر يهودية جديدة في القرن السادس عشر (مع وصول الاستعمار الغربي)، فجاء يهود من هولندا وإسبانيا وألمانيا وحلب. وقد وقعت كوشين تحت حكم البرتغاليين (١٥٠٢ ـ ١٦٦٣). ولكن الراجا حمى اليهود من ممارسات البرتغاليين العنصرية، وعين لهم رئيساً (مداليار).

(*) المصدر السابق ـ ص ١٤٣

وقد أعقب ذلك مرحلة هولندية (١٦٦٣ ـ ١٧٩٥) كانت تتسم باستقرار اليهود النسبي حيث تحول بعض أعضاء الجماعة إلى وسطاء تجاريين، ونشأت علاقة بينهم وبين يهود هولندا. ثم جاء الاستعمار الإنجليزي بعد ذلك وعمق هذا الاتجاه.

ويُقسم يهود كوشين إلى:

١ ـ اليهود البيض أو "ميوحاسيم"، أي "المنتسب إلى"، ويُسمون أيضاً "بارناس" أي "شخص". فهم من نصل يهود أوربا الذين جاءوا مع الاستعمار وتزاوجوا مع أثريا اليهود المحليين، وكونوا طائفة مغلقة متميزة عن اليهود السود.

٢ ـ اليهود السود أو "ميشواريم".

٣ ـ اليهود المعتقين أو "مشو حراريم".

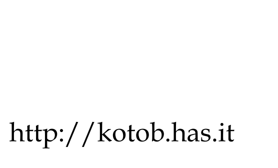
ويشكل اليهود السود أغلبية أعضاء الجماعة اليهودية . أما اليهود البيض، فهم أقل عدداً، ولون جلدهم مختلف، وهم يدعون أنهم من نسل المهاجرين الأوربيين، وأن جلدهم قد اكتسب لونه الداكن نتيجة تعرضهم للشمس الاستوائية. أما الفريق الثالث، فهو من سلالة عبيد الفريقين السابقين، أو ثمرة العلاقة بين اليهود البيض والسود من ناحية والمحظيات أو الجواري من ناحية أخرى. ولذا، يُقسم هذا الفريق أحياناً إلى مُعتقين بيض ومُعتقين سود.

ويهود كوشين مُستوعَبون تماماً في مجتمعهم الهندي، فهم يرتدون الأزياء الهندية ويتحدثون لغة المالايالام (وهي لغة سكان الهند الأصليين)، ويتحدث اليهود البيض منهم الإجليزية إلى جانب هذه اللغة.

وقد ترك نظام الطوائف المغلقة فيهم أعمق الأثر. ولذا، فإن الفرق الثلاثة أو الأربعة لا تتزاوج فيها بينها إلا نادراً. ويعيش كل في حي مقصور عليه، ولا يسمح لأعضاء الفرق الأخرى بالسكنى فيه، ولم يكن من حق أعضاء الفريق الثالث، حتى عام ١٩٣٢، أن يجلسوا في المعبد اليهودي أو يشاركوا في الصلوات. ويستخدم يهود كوشين العبرية في صلواتهم، وشعائرهم سفاردية مع بعض الأشكال الإشكنازية نتيجة الهجرة المُختلَطة في القرن السابع عشر.

وكان عدد يهود كوشين عام ١٩٨١ نحو ٤٢٢ أسرة، أي حوالي ٢٠٠٠ شخص. ونَقص عددهم عام ١٨٧٣ إلى ١٠٣٩، وعام ١٩٣١ بلغ عددهم نحو ١٧٧٤ حيث كانوا مُقسمين على النحو التالي: ١٦٠٠ يهودي أسود، و١٤٤ أبيض، و٣٠ ميشو حراريم أو مُعتَقين.

وفي عام ١٩٤٨، بلغ عددهم ٢٥٠٠، منهم مائة يهودي أبيض. وفي عام ١٩٦٨، هاجر اليهود السود، ولم يهاجر من اليهود البيض أحد لأن الحكومة الهندية لم تسمح لهم بأخذ أموالهم. ويبلغ عدد يهد كوشين الآن (في إسرائيل) ما يزيد على أربعة آلاف. وقد وُضعوا تحت الحجر الصحي بسبب انتشار مرض الفيل بينهم. ولا ندري هل اعترفت دار الحاخامية بهم يهوداً أم لا، فهم لا يعرفون إلا القليل من التلمود وتراث التوراة الشفوية بشكل عام. ويُقال إن عدد يهود كوشين المتبقين في الهند لا يزيد عن ثلاثين فرداً.


http://kotob.has.it

الفصل الحادي عشر

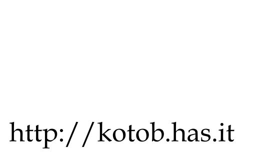
يهود مانيبور(*)

Mainpur Jews

"مانيبور" منطقة في الهند، على حدودها مع بورما، تُوجد فيها جماعة يهودية لا يزيد عددها عن مائة شخص. ويرى يهود مانيبور أن أصولهم تعود إلى يهود الصين، وأنهم هربوا من كايفنج منذ ثمانمائة عام أمام الغزو المغولي، ثم استوطنوا الكهوف في الهند الصينية ووصلوا مانيبور في القرن الثامن عشر. وقد نسي أعضاء الجماعة تراثهم اليهودي. وهم لا يمارسون معظم الشعائر، مثل الختان، ولا يعرفون التلمود، ونسوا حتى التوراة مثل يهود الصين.

ولكن من المفارقات أنهم حينما احتكوا بالإرساليات المسيحية، اكتشفوا التوراة وبدأوا يمارسون بعض شعائرها، وإن كان بعضهم يمارس الشعائر المسيحية أو العبادات الوثنية السائدة في المنطقة مع الشعائر اليهودية جنباً إلى جنب. ويذهب يهود بني إسرائيل إلى أن يهود مانيبور ليسوا يهوداً، ولذا فإن عليهم التهود إن أرادوا الانضمام للجماعة اليهودية.

(*) المصدر السابق ص ١٤٤.


http://kotob.has.it

الفصل الثاني عشر

يهود البغدادية(*)

Baggdadi Jews

"يهود البغدادية" مجموعة من يهود بغداد السفارد هاجروا إلى الهند في القرن التاسع عشر، وكانوا على مستوى ثقافي راق كما كانوا من الأثرياء. وأسسوا كثيراً من الصناعات التي خلقت عدداً كبيراً من الوظائف. وقد رحب بهم يهود بني إسرائيل في البداية حيث لم يكن بينهم كاهن يقوم بالطقوس الكهنوتية، إلا أن اليهود البغدادية كونوا جماعة مستقلة عن يهود بني إسرائيل ويهود كوشين بسبب إحساسهم بالتفوق على أعضاء الجماعتين. ولذلك، أقام اليهود البغدادية سياجاً من العزلة حولهم وادعوا أن الدماء اليهودية الخالصة لا تسري إلا في عروقهم وحدهم. وأصبح لهم مؤسساتهم الدينية والخيرية المستقلة، وكانت لهم مدارسهم الخاصة التي يتم التدريس فيها بالإنجليزية. وقد بلغ إحساسهم بالتفوق أنهم كانوا لا يحسبون أعضاء بني إسرائيل ضمن النصاب اللازم لإقامة الصلاة في المعبد، كما لم يكن يُنادي على أي منهم لتلاوة التوراة. وحاولوا استبعادهم من استخدام الأسرة المخصصة لليهود في بعض المستشفيات، بل ومن العضوية في معبد رانجون. ولا يتزاوج اليهود البغدادية مع بني إسرائيل إلا في حالات نادرة. وقد بلغ تعداد اليهود البغدادية ٦٥٠٠ نسمة عام س١٩٤٧، لكن هذا العدد تناقص بسبب الهجرة بحيث أصبح لا يزيد على الألف. ويبدو

(*) المصدر السابق – ص ١٤٤.

أنه لم يهاجر منهم سوى أعداد قليلة للغاية إلى إسرائيل، وربما يعود هذا أن لديهم من رأس المال والخبرات ما يسمح لهم بالاستقرار في الغرب، تماماً كما استقرت النخبة الثرية والمثقفة من يهود المغرب العربي في فرنسا ولم تتجه إلى إسرائيل.

الفصل الثالث عشر

يهود القوقاز(*)

The Jews of the Caucasus

تُعد القوقاز من أكثر المناطق تنوعاً من الناحية العرقية. ويحيط بمنطقة القوقاز روسيا الأوربية شمالاً، والبحر الأسود غرباً، وتركيا وإيران جنوباً، وبحر قزوين شرقاً. وهي مقسمة إلى ثماني عشرة منطقة إدارية وهو ما يعكس ثراءها الحضاري. وقد احتفظت عناصر قومية كثيرة بهويتها المستقلة، وذلك بسبب عزلتها في الجبال والوديان. ويبلغ عدد سكان القوقاز أثنى عشر مليوناً تشمل ما لا يقل عن ثلاثين قومية أساسية. وقد انعكس هذا على الجماعات اليهودية، إذ توجد عدة جماعات يهودية في القوقاز منها يهود جورجيا الذين يختلفون عن يهود الجبال (أو اليهود داغستان)، أو يهود بخارى، أو عن بقايا يهود الكرمشاكي.

ويبدو أن معظم يهود القوقاز جاءوا من إيران، إذ يظهر أثر ذلك في لهجاتهم الخاصة. والواقع أن أول إشارة وردت عنهم كانت في كبت الرحالة العرب. وبعد أن ضمت الحكومة الروسية القيصرية القوقاز، سمحت لهم بالاستمرار في حياتهم والتمتع بحقوقهم، باعتبار أنهم كانوا مزارعين مندمجين في مجتمعاتهم، لا جماعات هامشية غير منتجة مثل يهود اليديشية. وقد مُنع يهود اليديشية في بداية الأمر من الانتقال من منطقة الاستيطان إلى القوقاز. ولكن الحظر رُفع فيما بعد حتى بلغ عدد يهود القوقاز

(*) المصدر السابق ص١٤٥ .

في عام ١٨٩٧ نحو ٥٦,٧٧٣ ، منه ٧,٠٣٨ من يهود الجبال و٦,٠٣٤ من يهود جورجيا والباقي من يهود اليديشية. وقد زاد عدد اليهود في القوقاز، فبلغ عددهم في عام ١٩٥٩ نحو ١٢٥ ألفاً، منهم ٣٥ ألفاً من يهود جورجيا و٢٥ ألفاً من يهود الجبال. وقد انخفض عدد يهود القوقاز بسبب معدلات الاندماج المرتفعة وهجرة أعداد كبيرة من يهود جورجيا إلى إسرائيل. وقد بين إحصاء عام ١٩٨٩، وهو أول إحصاء قُسم يهود الاتحاد السوفيتي فيه إلى جماعات يهودية إثنية مختلفة، أن عددهم لا يتجاوز ٧٢,٦٩١، منه ١٦,١٢٣ في جورجيا و٢٠,٠٠٠ من يهود الجبال و٣٦,٥٦٨ من يهود بخارى.

الفصل الرابع عشر

يهود جورجيا(*)

Georrgian Jews

"جورجيا" هي إحدى جمهوريات دول الكومنولث (الاتحاد السوفيتي سابقاً)، وتقع على الساحل الشرقي للبحر الأسود.

ويعتقد يهود جورجيا أنّهم من نسل قبائل يسرائيل العشر المفقودة التي هجّرها شلمانصر. وهم يدعمون هذا بقولهم إنه لا يوجد بينهم كهنة. ومهما يكن الأمر، فإن جذورهم في جورجيا موغلة في القدم، وقد قامت علاقات ثقافية بينهم وبين يهود الخزر. وتوجد إشارات عديدة إليهم في الوثائق التاريخية، وقد تحوّل بعضهم (بعد الغزو المغولي) إلى أقنان يعمل بعضهم بالزراعة والحرف (النسيج والصباغة) والتجارة. وكان الأقنان يعيشون في ضياع أسيادهم وقراهم بمعزل عن يهود العالم، الأمر الذي أدّى إلى ضمور الهوية والانتماء الديني لديهم، وكان الأقنان يُقسّمون إلى: أقنان الملك، أقنان الإقطاعيين، أقنان الكنيسة. ومع ضم جورجيا إلى روسيا عام ١٨٠١، تحوّل أقنان الملك إلى أقنان الخزانة إذ كان عليهم دفع ضريبة للخزانة. وقد اعترفت الحكومة القيصرية بحقوق اليهود في جورجيا (على خلاف يهود اليديشية الذين كانوا خاضعين لبعض القيود). وألغيت القنانة في جورجيا في الفترة ١٨٦٤ ـ ١٨٧١.

وبعد اندلاع الثورة البلشفية، قامت حركة قوية للاستقلال في جورجيا اشتركت فيها

(*) المصدر السابق.

عناصر يهودية معادية للصهيونية (وتحالف معهم أعضاء جماعة حبد). وقد هاجم الجيش الأحمر جورجيا، وبدأت عمليّة دمج جورجيا في الدولة السوفيتية وهو ما تضمن دمج أعضاء الجماعة اليهوديّة. ولم تتدخل الحكومة في الشئون الدينية، ففُتحت المعابد اليهوديّة، بل وسمحت الحكومة بالنشاطات الصهيونية لبعض الوقت. ولكن، بعد أن تزايدت النشاطات المعادية للسوفييت، تغيّرت موقف السلطات السوفيتية. وفي منتصف العشرينيات، بذلت هذه السلطات جهداً مضاعفاً لعلمنة يهود جورجيا، ففتحت أبواب المصانع للعمال اليهود، كما فتحت لهم المزارع الجماعية اليهوديّة. ولكن، في منتصف الثلاثينيات، قررت السلطات السوفيتية أنّ تحطم ما تصورته الانغلاق الإثني لليهود في المزارع الجماعية، فأسست مزارع مختلطة (أممية) تضم يهوداً وأرمن. وقد فكرت السلطات السوفيتية في أن تُطوِّر ثقافة سوفيتية جورجية على نمط الثقافية السوفيتية اليديشية، لكن المحاولة توقفت بعد فترة قصيرة من البدء فيها. ويعمل يهود جورجيا أساساً بالتجارة كما يعمل كثيرون منهم بالمهن الحرة، فمنهم العلماء ومنهم المهندسون والمدرسون. ويوجد بينهم كذلك عمال مهرة.

والجو الحضاري في جورجيا تعددي متسامح. ولا يتّسم تاريخ الجماعة اليهوديّة بظاهرة العزل أو الطرد أو المذابح، كما هو الحال مع يهود اليديشية في أواخر القرن التاسع عشر.

ولا تختلف أسماء يهود جورجيا أسماء جيرانهم المسيحيين، بل إن لهم العادات نفسها، ويرتدون الأزياء نفسها، ويتبعون أسلوب حياة واحد. وهم يشاركون جيرانهم المسيحيين أعيادهم فيحتفلون بالكريسماس معهم، في حين يشاركهم المسيحيون الاحتفال في عيد النصيب، ويرقصون معهم في عيد نزول التوراة.

ويبدو أنّ يهود جورجيا فقدوا، بمرور الزمن، علاقتهم باليهودية الحاخامية. ولذا، كان سكان المدن من المتمسكين بدينهم اليهوديّ يشيرون إليهم باسم "الكنعانيين". ولا يأكل يهود جورجيا لحم الخنزير، ولكنهم لا يحافظون على قوانين الطعام الأخرى.

وهم يعرفون الذبح الشرعي ولا يمارسونه بصورة دائمة. وبشكل عام، يُلاحظ أنّهم لا يعرفون كثيراً من الشعائر اليهوديّة، وحينما يعرفونها فإنهم يتجاهلون معظمها. والفاصل الأساسي بينهم وبين جيرانهم من غير اليهود هو أنّهم لا يتزاوجون معهم، ولكن يُلاحظ أنّ نسبة الزواج المختلط بينهم آخذة في الزيادة منذ الستينات.

ويتحدث معظم أعضاء الجماعة اليهوديّة في جورجيا اللغة الجورجية (٩١٪) ويكتبونها بالحروف الجورجية (و هؤلاء هم اليهود الأصليون)، كما تتحدث أقلية من يهود جورجيا اليديشية والروسية. ولم تكن العلاقة جيدة دائماً بين يهود اليديشية الذين هاجروا من منطقة الاستيطان في أواخر القرن التاسع عشر (باعتبارهم عنصراً روسياً) ليستوطنوا المناطق الآسيوية التي ضمتها الحكومة القيصرية (فهم جماعة وظيفية استيطانية). ورغم جو التسامح، وعدم وجود معاداة لليهود، ورغم معدل الاندماج العالي الذي حققه اليهود في جورجيا، فإنهم حين فُتحت أبواب الهجرة إلى إسرائيل هاجر منهم ما يساوي نصف عددهم الكلي.

والسؤال الآن: إذا كان يهود جورجيا مندمجين ومتساوين في الحقوق مع غير اليهود، فلم هاجرت أعداد كبيرة نسبياً منهم إلى الدولة الصهيونية؟ وللإجابة عن هذا السؤال، لابدّ من العودة إلى حركيات المجتمع الجورجي حتى يتسنى لنا فهم العناصر التي أدّت إلى الهجرة، عناصر الطرد من الاتحاد السوفيتي ثم عناصر الجذب إلى إسرائيل.

يستند المجتمع الجورجي إلى شبكة اتصالات واسعة. وهذه الشبكة هي مؤسسة وسيطة تشبه علاقاتها علاقات القرابة أو العلاقات القَبَلية، وهي تضم مجموعة من الأفراد يدخلون في علاقة متعينة مباشرة، فتزوّد الشبكة العضو بالعون في لحظة حاجته، بالطمأنينة في لحظات الأزمة، وتشدّ من أزره في كلّ الأحوال في مواجهة المجتمع ككل، وبالذات في مواجهة الدولة الحديثة (بكل تجريديتها) وفي مواجهة البيروقراطية السوفيتية التي تتّسم أفعالها بمستوى عال من العقلانية وعدم الاكتراث بالعناصر الشخصية. وليس بإمكان عضو أن يوجد خارج هذه الشبكة التي يُعدّ اعتماده عليها مصدر عزته وكرامته، وعليه بالمقابل أن يقدم لها ما تريد. ويُلاحظ أنّ اليهود ينتظمون في شبكات اتصال غير يهودية، كما أنّ هناك مسيحيين ينتظمون في شبكات اتصال يهودية. وفي هذا الإطار، يُعتبر الولاء للدولة أمراً ثانوياً قياساً بالولاء إلى الجماعة/الشبكة المباشرة. ويُنظَر إلى كلّ من الدولة والشبكة باعتبارهما طرفين متعارضين. فالدولة السوفيتية هي الكيان المجرد البيروقراطي، والشبكة هي الجهاز المتعين المحلي الذي يستطيع الفرد التعامل معه بشكل إنساني ومباشر.

وهذه الشبكة الهائلة المتطورة، وهذا التمازج بين الفرد والأسرة، هما أساس القومية الجورجية، وهي قومية معادية للضغوط الخارجية التي تأتي عادةً من موسكو. ويتمثل

رفض الحكومة المركزية فيما يُسمّى "الاقتصاد الثاني"، وهو القطاع الحر غير الشرعي الذي تديره الشبكة بطبيعة الحال لصالح أعضائها، والذي يُعبّر عن الهوية الجورجية القومية في وقوفها ضد تدخّل الدولة الحديثة ومحاولاتها في خلق اقتصاد موحّد يُدار مركزياً.

ويشارك يهود جورجيا هذا الإحساس القومي الجورجي الرافض للدولة الحديثة، والذي يتبدّى في شكل الارتباط بالشبكة، أي أنّ هوية يهود جورجيا هي هوية جورجية قوية ذات أبعاد يهودية خاصة تلعب دوراً حاسماً في تشجيع الهجرة إلى إسرائيل. غير أنّ هذه الهجرة لم تتم لأسباب يهودية عامة وإنما بسبب حركيات المجتمع الجورجي. وتحتوي كلّ عمليّة هجرة على عنصر جذب إلى الوطن الجديد وعلى عنصر طرد من الوطن القديم.

١ ـ عنصر الجذب:

عند نشوب حرب ١٩٦٧، وقف السوفييت إلى جانب العرب ضد إسرائيل، الأمر الذي جعل الجورجيين (بعدائهم التقليدي للروس) يتعاطفون مع إسرائيل ضد العرب وحلفائهم الروس. وقد غذى هذا الشعور التراث الجورجي المحلي المعادي للإسلام.

فتحوّلت الدولة الصهيونية إلى ما يشبه المثل الأعلى: الدولة الصغيرة الإيديولوجية يمكنها الحفاظ على هويتها والوقوف ضد السوفييت. وكان هذا الإحساس الجورجي المحلي قوياً للغاية عند يهود جورجيا. ولعل هذا يمثل عنصر الجذب.

٢ ـ عنصر الطرد:

حكم مجافنادزة (السكرتير الأول للحزب الشيوعي الجورجي) جورجيا مدة تسعة عشر عاماً، وكان الفساد قد وصل في عهده إلى مستويات لم يسبق لها نظير، إذ يبدو أنّ الشبكة الجورجية نجحت في التسلل والاستيلاء على مؤسسات الحزب الشيوعي ذاتها هناك، وفي تسخيرها لصالح أعضاء الشبكة أو الشبكات، وبعد إقالته، عُيّن مكانة شفارنادزة المشهور بنزاهته. ولذا ، كان من المتوقع أن يقوم بمناهضة الاقتصاد الثاني الذي كان يرتبط به عدد كبير من اليهود بنسبة تفوق نسبة غير اليهود. وقد شكلت هذه التحولات الاقتصاديّة عنصر الطرد.

ويُلاحظ أنّ كلاً من عنصري الجذب والطرد محليان تماماً، وأنّ اختلاف اليهود عن غير اليهود كان اختلافاً في الدرجة وحسب وليس في النوعية، إذ أنّ استجابتهم للأحداث كانت استجابة جورجية أساساً وذات بعد يهودي يزيد من حدة الاستجابة عندهم. وقد كانت درجة تعاطفهم مع الدولة الصهيونية بطبيعة الحال أعلى، كما أنّ درجة الضرر الذي لحق بهم نتيجة الإصلاحات الاقتصاديّة كانت أكبر كما بيّنا. ويمكن أن نضيف هنا عناصر أخرى مساعدة، فعلى سبيل المثال رأى يهود جورجيا أنّ الدولة الصهيونية زاخرة بفرص العمل الحر (الاقتصاد الثاني) الأمر الذي كان يزيد ولا شك من عنصر الجذب. ومن هنا معاداة معظم المهاجرين من جورجيا للصهيونية العمالية التي تؤيد تدخّل الدولة في الاقتصاد. ومن العناصر المساعدة الأخرى، أنّ عناصر الشبكة التي انتقلت إلى إسرائيل لعبت دوراً أساسياً في جذب أعداد كبيرة من يهود جورجيا. فالمهاجرون السوفييت، كي يحصلوا على تأشيره هجوة، كان عليهم أن يحصلوا على دعوة من قريب لهم في الخارج. وقد حصل يهد جورجيا على أعلى نسبة من الدعوات وصلت إلى نحو ١١٨٪، حيث كان بعض اليهود يتلقون أكثر من دعوة. وحينما كان جزء من الشبكة اليهوديّة ينتقل إلى إسرائيل، كان بقية الأفراد الذين تخلفوا يجدون الحياة صعبة للغاية ولا معنى لها خارج نطاق الشبكة، فيهاجرون هم أيضاً ليلحقوا بإخوانهم.

وفيما يلي أعداد اليهود الذين هاجروا من جورجيا:

السنة	عدد المهاجرين	السنة	عدد المهاجرين
١٩٧١	٤٣٠٠	١٩٧٣	٧,٧٥٠
١٩٧٢	١٠,٩٠٠	١٩٧٤	٢,٧٠٠

ولم يزد عدد المهاجرين بعد ذلك التاريخ على ألف، مع أنّ السوفييت لم يتخذوا سياسة متشددة في منح تأشيرات الخروج إلاّ بعد عام ١٩٧٩، أي أنّ الأعوام الخمسة التالية للفترة التي شهدت الهجرة اليهوديّة المكثفة من الاتحاد السوفيتي شهد أيضاً تراجعاً بين يهود جورجيا. ويمكن تفسير ذلك مرة أخرى في ضوء حركيات الجذب والطرد الخاصة بالمجتمع الجورجي، فعنصر الجذب الأساسي، وهو حرب ١٩٦٧، كان

آخذاً في التضاؤل التدريجي، وفقد كثيراً من بريقه في حرب الاستنزاف، واختفى تقريباً بعد حرب ١٩٧٣. أما عنصر الطرد، وهو التحولات الاقتصادية التي هزّت الاقتصاد الثاني، فيبدو أنّه بدأ يقل، إذ أنّ مخاوف الجورجيين، ومن بينهم اليهود، أخذت تهدأ قليلاً، وظهر أنّ الأمر لم يكن مخيفاً كما توهموا في بداية الأمر، ومن هنا تناقصت الهجرة.

ويشكل يهود جورجيا في إسرائيل مشكلة كبيرة، فهم لا يشعرون بالسعادة هناك، كما أنّهم يعانون من التفرقة العنصرية التي تُمارس ضدهم. وقد أصبحوا من أهم مصادر الجريمة المنظمة في الدولة الصهيونية وتخصصوا في تزييف النقود. وهاجرت أعداد منهم إلى الولايات المتحدة وشكّلوا هناك بعض عصابات الجريمة المنظمة، والجريمة المنظمة هي أحد أشكال الاقتصاد الثاني.

وكان عدد يهود جورجيا ٥٢ ألفاً عام ١٩٥٩ (وجاء في إحصاء آخر أن عددهم كان ٨٠ ألفاً من الناحية الفعلية)، وانخفض إلى ٤٣ ألفاً عام ١٩٧٠. أما إحصاء عام ١٩٨٩، الذي يتميّز بأنه يُقسّم يهود الاتحاد السوفيتي إلى جماعات يهودية أثنية مختلفة، فيذكر أنّ عدد يهود جورجيا ١٦,١٢٣ يعيش أغلبهم في تفليس عاصمة الجمهورية. ولا يزال الجو العام في جورجيا تعددياً، وإن كانت الوظائف الاستراتيجية تُحجَب عن اليهود لأنهم سيهاجرون إلى إسرائيل. وقد أخذت معدلات الاندماج والعلمنة في التزايد، وبدأ اليهود يصطبغون بالصبغة الروسية لا الجورجية. وإذا أضفنا إلى ذلك هجرة اليهود المتدينين، فليس من المستبعد أن يختفي يهود جورجيا في المستقبل. وقد أصبحت جورجيا جمهورية مستقلة، وهو ما يعني أنّ الإطار الذي يتحرك في أعضاء الجماعة اليهوديّة قد تغيّر بشكل جوهري.

الفصل الخامس عشر

يهود بخارى(*)

Bukhara Jews

"بخارى" إمارة إسلامية تركية ضمتها الإمبراطورية الروسية في القرن التاسع عشر. وتقع بخارى الآن ضمن جمهورية أزبكستان. وتعود جذور يهود بخارى إلى عصور قديمة، وتعود جذور يهود بخارى إلى عصور قديمة، فتقول أساطيرهم إنهم منحدرون من أسباط يسرائيل العشرة المفقودة. وهم مندمجون في الوسط الحضاري الذي يعيشون فيه، ويتحدثون اللغة الطاجيكية، وهي لهجة فارسية. وقد كان يهود بخارى وأفغانستان ووسط آسيا يُشكّلون وحدة ثقافية واحدة، ثم انقسمت هذه الجماعة في القرن السادس عشر، مع بداية الحكم الشيعي في إيران، إلى يهود إيران ويهود وسط آسيا ويهود أفغانستان الذين ظلوا تحت الحكم السني.

ثم انقسمت الجماعة الأخيرة، في القرن الثامن عشر، وتفرّع عنها يهود بخارى ويهود أفغانستان. ويبلغ عددهم، حسب إحصاء ١٩٥٩، ثمانية وعشرين ألفاً يعيش ثلاثة وعشرون ألفاً منهم في أزبكستان، في سمرقند وبخارى، والباقون في طاجيكستان. أما إحصاء ١٩٨٩، فيحدد العدد بنحو ٣٦,٥٦٨ ألفاً.

وإن صدقت هذه الأرقام، تكون الجماعة اليهوديّة في بخارى هي الجماعة الوحيدة في كومنولث الدول المستقلة التي زاد عد أعضائها.

(*) المصدر السابق ص ١٤٨ .

وكان يهود بخارى يعملون بالتجارة والصباغة عشية الثورة وازدهر حالهم بعد ضم الإمارات الإسلاميّة إلى الإمبراطورية نظراً لفتح الأسواق أمامهم. ولكن، مع قيام الثورة الاشتراكية، تدهور وضع التجارة عامة، وبدأت الحكومة السوفيتية في إنشاء مزارع جماعية لهم، لكن التجربة فشلت.

ويبدو أنّهم فقدوا، في مرحلة من المراحل، علاقتهم باليهودية الحاخامية ونسوا شريعة موسى. ولذا، فإنهم كانوا لا يمارسون الذبح الشرعي بل ويأكلون اللحوم التي يذبحها المسلمون. وكانت زوجاتهم يلبسن الحجاب مثل نساء المسلمين. كما كانوا يمضغون الطباق ويدخنون النرجيلة.

ويظهر الأثر الإسلامي أيضاً على المعبد اليهوديّ الذي يشبه المسجد ويغطيه السجاد الفاخر. ويصلي فيه اليهود جالسين القرفصاء. وهم يُنادون بعضهم البعض بالاسم الأخير مع إضافة لفظة "أخ" أو "عم"، كما يُنادى العلماء بلفظ "ملاّه". أما رجال الدين، فيسمونهم "الحاخامات" وليس "الرابي" كما هو الحال في الغرب. وتشبه مدارسهم الدينية "الكتاتيب".

الفصل السادس عشر

يهود الجبال
(يهود التات، يهود داغستان)(*)

Mountain Jews (Tat Jews; Daghestsn Jews)

"يهود الجبال" جماعة يهودية لها خصوصياتها الإثنية واللغوية، يعيش أعضاؤها في مقاطعة داغستان السوفيتية وأذربيجان (ومن هنا يشار إليهم بلفظ "يهود داغستان") كما يُشار إليهم كذلك باسم "يهود التات". ويُسمى اليهود الجبال أنفسهم "جوهور".

ولكن مصطلح "يهود الجبال" ذاته هو مصطلح روسي صكته السلطات الروسية القيصرية في منتصف القرن التاسع عشر بعد ضم المنطقة إليها.

وتشير الدلائل اللغوية والتاريخية إلى الأصول الإيرانيّة ليهود الجبال، فلهجتهم من أصول إيرانية شمالية دخلت عليها كلمات تركية وعبرية. وقد تكوّنت الجماعة نتيجة هجرة اليهود المستمرة من شمال إيران (وربما من الإمبراطورية البيزنطية) لأذربيجان حيث استوطنوا بين متحدثي لغة التات التي أصبحت لغتهم. وقد بدأت هذه العملية في منتصف القرن السابع الميلادي مع الفتح الإسلاميّ للمنطقة، واستمرت حتى غزاها المغول في القرن الثالث عشر.

وفي هذه الفترة، اتصل يهود الجبال بيهود الخزر. وقد انقطعت الصلة بعد ذلك بين يهود الجبال وبقية يهود العالم حتى بداية القرن التاسع عشر تقريباً.

(*) المصدر السابق نفسه.

وليهود الجبال عادات وقيم قَبلية، فهم يمجدون الشجاعة، ويدافعون عن شرفهم مستخدمين السيف، ويأخذون بالثأر، وتنتشر بينهم الخرافات، ويعيشون في بيوت طينية منخفضة تعلّق على حوائطها أسلحتهم المصقولة، وهو ما يدل على اندماجهم في الحضارة القوقازية الإسلاميّة في هذه المنطقة. وهم يتّسمون بأسماء توراتية بعد إضافة النهاية الروسية "أوف"، فيصبح "بنيامين" مثلاً "بنيامينوف". وتشبه معابدهم المساجد من الخارج، وكانت تُستخدم كمدرسة دينية على طريقة المسلمين حيث يجلس الأطفال على الأرض ويحفظون التوراة على يد الحاخام. وهم يحتفلون بالأعياد اليهوديّة، وخصوصاً عيد النصيب وعيد الفصح، وإن كانت الطقوس الخاصة بعيد الفصح مختلفة عن تلك المعروفة بين اليهود. كما أنّ طقوس الزواج عندهم مختلفة عن تلك الطقوس المعروفة لدى يهود أوربا، إذ يدفع الزوج ما يُسمى "الكالين" أو "الفدية". وهم يقسمون بالنار ويشعلون النار بجوار المرضى، الأمر الذي يشير إلى أصولهم الإيرانيّة. والوحدة الاجتماعية الأساسية هي الأسرة الممتدة، والتي تضم ثلاثة أو أربعة أجيال ويبلغ عددها نحو سبعين عضواً. وكان يهود الجبال يمارسون تعدد الزوجات. ويشكل كلّ سبع أو ثماني إسرائيل قرية يهودية.

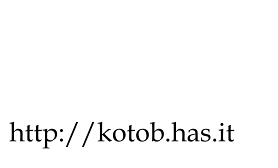
وقد تدهورت أحوال الجماعة اليهوديّة بتدهور المنطقة ككل نتيجة تحولها إلى ساحة صراع بين كلٍّ من روسيا وتركيا وإيران إلى جانب الصراع بين عدد من الحكم المحليين. وقد نجحت روسيا في نهاية الأمر في ضمها عام ١٨١٣. وقد طلب يهود الجبال من السلطات القيصرية أن تضعهم تحت حمايتها. كما حدثت تحولات عميقة لجماعة اليهوديّة بعد ضم القوقاز لروسيا، فانتقلت أعداد كبيرة من اليهود من المناطق الجبلية إلى المدن حتى أنّه كانت هناك في منتصف القرن التاسع عشر نحو ٤١٪ من أعضاء الجماعة في المدن، ولكن، مع هذا ، ظل حوالي ٥٨٪ منهم في القطاع الزراعي، بل إن سكان المدن من اليهود كانوا يعملون في صناعات مرتبطة بالمحاصيل الزراعية مثل تقطير الكحول. وكان أثرياء يهود الجبال من أصحاب شركات تقطير الخمور وبيعها، كما أنّ إحدى العائلات كانت تمتلك أهم شركة صيد في داغستان، وكان الكثيرون من أعضاء الجماعة يقومون بزراعة نبات الروبيا Rubia وهو نبات كانت تُستخلص من جذوره صبغة حمراء، كما كانوا يشغلون بدباغة الجلود وبصيد بعض الحيوانات لاستخدام جلودها. وقد أصبح كثير من أعضاء الجماعة اليهوديّة عمال صيد أو عمالاً

أجـراء وانتقلوا إلى باكـو ودربنت بعـد أنّ تصـاعدت مـعـدلات التـصنيع والتـحـديث في روسيا القيـصرية، وهو ما جعل الصناعات اليـدوية غير قادرة على الاستمرار، كما عمل كثيرون منهم تجاراً صغاراً.

وبعـد الثـورة البلشـفـيـة، تغـيّـر وضع يهـود الجـبـال بشكل أعـمق. وكـمـا طلب يهـود داغسـتان من السلطات القيصـرية من قبل وضعهم تحت الحـماية، فإنهم تحالفـوا تماماً مع السلطات السوفيـتية ضد غالبية السكان. ولذا ، فحينما قامت حركة انفصالية ضد السوفييت، كـان ٧٠٪ من الحرس الأحمر في المنطقة من يهود داغسـتان. وكانت الأعمال الأدبيـة التي كتبـها أدباء من يهـود الجبـال تتبنى خط الحزب بشـكل كامل. وقـد جلب كلّ هذا على أعضاء الجماعة اليهوديّة كرة الجماهير.

وقد أدّت حركة التصنيع في الاتحاد السوفيتي، والخطط الخمسية المتتالية، إلى فك التضامن القبلي بين يهود داغستان، فتركوا الجبـال وبدأوا يعملون بالمصـانع. ومع هذا، فإن أصـولهم القبليـة وترابطهم العـائلي يسـاعدانهم على الاحـتفـاظ بقسط كبـير من خصوصيتهم الجبلية.

وحسب إحصـاءي ١٩٥٩ و١٩٧٠، كان عدد يهود الجبال يبلغ مـا بين ٥٠ ألفاً و٧٠ ألفاً (وهو في تصورنا عدد مبالغ فيه). وقد هـاجر حوالي ١٢ ألفاً في الفترة بين عام ١٩٧٤ ومنتصف الثمانينيات إلى إسرائيل، وبحسب إحصاء عام ١٩٨٩ (وهو أول إحصاء يُقسّم يهود الاتحـاد السوفيـتي إلى جماعـات إثنية مختلفة)، يبلغ عددهم حوالي ٢٠ ألفاً، ولعل انخفـاض العدد بهذا الشكل الملحـوظ يرجع إلى استـبعـاد يهـود اليـديشـيـة المقيـمين في داغسـتـان. وأهم مـراكـزهم السكانيـة باكـو عـاصـمـة أذربيـجـان. أمـا فـي داغسـتـان، فإن معظمهم يعيشون في دربنت وفي عاصمة الجمهورية.


http://kotob.has.it

الفصل السابع عشر

يهود الخزر(*)

Khazar Jews

"الخَـزر" قـبـيلة من أصل تركي عـاشت فـي منخفض الفـولجـا جنوب روسـيـا وكـوّنت مملكة كـان حكامـهـا وبعض سكانهـا يدينون بعبـادات وثنيـة ولكنهم تحـولوا إلى اليـهـوديّة. ويُنطق الاسم أحياناً "خازارا" كما هو الحال في العربية. ولكن ثمـة دلائل على أنّ هناك طرائق أخرى للنطق، فهو بالعبرية "كوزاي" وبالصينية "كوزا".

وربما يعود الاسم إلى الكلمة التركية "قزمق" بمعنى "يتجول أو ينتقل كالبدو" (المشتق منها كلمة "قوزاق") أو ربما يعود إلى كلمة "قوز" أو "جاز" بمعنى "جانب الجبل المتجه إلى الشمال"، وقد يُفسّر هذا الاشتقاق الأخير النطق العبري (كوزاري).

وقـد وصل الخَـزر إلى منطقـة الفـوجـا والقـوقـاز من أقصى الشـرق في تـاريخ غـيـر معـروف، وإن كـان آرثر كـوسـتلر يذكـر نقـلاً عـن برسكس، رسـول الإمـبـراطور البـيـزنطي لقـبـائل اليـهـود فـي القـرن السـادس الميـلادي، أنّ الخـزر ظهـورا على المسـرح الأوروبي حوالي منتصف القرن الخامس الميلادي باعتبارهم شعباً خاضعاً لسيادة قبائل الهون. ويمكن أن يُعتبرواهم والمجر وغيرهم من القبائل نسل قبيلة أتيلا زعيم البرابرة الشهير. وتُطلق التـواريخ الروسـيـة المعـاصـرة على الخـزر مـصطلح "الأوجـاريين البـيـض"، مـقـال

(*) المصدر السابق – ص ١٤٩.

"الأوجاريين السود"، وهم الهنغار أو المجريون. وقد أدّى موت أتيلا إلى ظهور فراغ كبير وهو ما يسّر عمليّة ظهور الخزر باعتبارهم قوة في المنطقة التي شغلوها، فقاموا بصهر واستيعاب وقهر بعض القبائل التركية الأخرى، ثم هزموا البلغار في نهاية الأمر واضطروهم إلى الهجرة.

ولكن، قبل استقلال الخزر الكامل في المملكة، كان الخزر يشكلون جزءاً ممّا كان يُسمى الإمبراطورية التركية الغربية أو المملكة التركية أو جزءاً من أتراك التركستان، وكانوا يشكلون اتحاد قبائل تخضع لحاكم واحد هو الخاقان، أو الكاجان، أو الخاجان. ويُقال إن الخزر ساروا مع سنجيبو، أول خاقانات الأتراك الغربيين، ضد إحدى القلاع الساسانية الفارسية. وقد استمرت المملكة التركية مدة قرن (٥٥٠ ـ ٦٥٠)، وأصبحت كلمة "تركي" بعد ذلك تشير إلى الأتراك وحسب دون الشعوب التركية الأخرى.

كانت المملكة الخزرية تقع على المعبر الحيوي الواقع بين البحر الأسود وبحر قزوين، بين القوتين الشرقيتين العظميين في ذلك الوقت: الدولتين الإسلاميّة والبيزنطية (دولة الروم). وقد أصبحت تمثل عازلة حدودية تحمي بيزنطة من الغارات الهمجية التي تشنها قبائل الإستبس الشمالية مثل البلغار والمجر، كما أنّها أوقفت التقدم الإسلاميّ. فقد قامت بين الخزر والعرب عدة حروب كانت أولها بين عامي ٦٤٢ و٦٥٢ حينما أصدر الخليفة عمر أمره للقوات الإسلاميّة بالهجوم على عاصمتهم بالانجار، ولكن المسلمين لم ينجحوا في مهمتهم واستُشهد قائدهم عام ٦٥٣.

وقامت الحرب الثانية بين عامي ٧٢٢ و٧٣٧ وانتهت بهزيمة الخزر على يد مروان بن محمد (مروان الثاني) وأسلم بعدها خاقان الخزر، ولكنه عاد وتحوّل إلى ديانته الأصلية. ويقول المسعودي إن الخزر قد نقلوا عاصمتهم (تحت ضغط الهجمات العربيّة) إلى أتل، عند مصب نهر الفولجا، بعد عام ٧٣٧. ويبدو أنهم خلال الفترة بين اتخاذهم كلاً من بالانجار وأتل عاصمة لهم، كانت لهم عاصمة ثالثة هي سمندر.

وممّا يجدر ذكره أن كُتبر الرحالة والمؤرخين العرب القدامى (مثل: ابن فضلان، والأصطخري، وابن حوقل، والمسعودي، وابن سعيد المغربي، والبلخي، واليعقوبي، وابن رسته، والمقدسي، وابن النديم، والطبري، وابن مسكويه، والبيروني، وياقوت) لا تزال من أهم المصادر عن الخزر، سواء فيما يتعلق بتاريخهم أو عاداتهم. ومع أنّه توجد مصادر

أخرى بيزنطية وروسية، فإن كُتب الرحالة العرب لا تزال المصدر الأساسي. ومن المفارقات التي يجب أن تسبّب لنا، نحن عرب القرن العشرين، الإحساس بالحرج أننا لم نستفد بهذه الدراسات وإنما استفدنا بدراسات كتاب غربيين معظمهم من اليهود مثل آرثر كوستلر في كتابه دولة الخَزر وميراثها (القبيلة الثالثة عشرة). وكتاب العالم اليهودي دنلوب، والموسوعات اليهوديّة المختلفة، في حين استمد هؤلاء الكُتّاب معلوماتهم من المصادر العربيّة بالدرجة الأولى.

ورغم انتصارهم، لم يتمكن العرب من القضاء على مملكة الخزر، بسبب المشاكل الداخلية للخلافة الأموية، ولعل هذا هو الذي أنقذ الخزر في نهاية الأمر. وتشهد فترة الحرب الثانية قيام تحالفات مع الإمبراطورية البيزنطية ربما للرد على الهجوم الإسلاميّ. وقد زوّج الإمبراطور البيرنطي ابنه من أميرة خزرية عام ٧٣٢، وكانت ثمرة هذا الزواج الإمبراطور ليو الخزري (٧٧٥ ـ ٧٨٠).

ولا يعرف أحد بالضبط مدى اتساع مملكة الخزر (خزاريا)، فيجعلها بعض المؤرخين مملكة صغيرة على الفولجا والدون، في الحين يرى البعض الآخر أنّها كانت في قمة اتساعها وتطوّرها، في منتصف القرن الثامن حيث شكلت مملكة مترامية الأطراف تمتد حدودها بين سواحل البحر الأسود الشمالية، ونهر الدنيبر في الغرب، وبحر قزوين ونهر الفولجا في الشرق، حتى حدودها الجنوبية وجبال القوقاز في الجنوب. كما اتجه الخزر شمالاً. ويُقال إن حدود المملكة وصلت إلى كييف، لكن القرائن على ذلك ضعيفة. ويقول آرثر كوستلر إن الخزر، في ذروة قوتهم، فرضوا الجزية على ما يزيد على ثلاثين عشيرة وقبيلة مختلفة تقطن المساحات الشاسعة فيما بين القوقاز وجبال الأورال ومدينة كييف والإستبس الأوكرانية. ومن بين الشعوب الواقعة تحت سلطان الخزر: البلغار (بلغار الفولجا)، والغز، والمجريون (الهنغار)، وسكان المستعمرات الجرمانية واليونانية في القرم، وبعض القبائل السلافية.

وكانت الجيون الخزرية تشن غاراتها أيضاً جنوب المناطق الواقعة وراء مناطق سيادتها المترامية، جورجيا وأرمينيا، وتغلغلت في الأراضي العربيّة حتى شارفت الموصل. ولم يكن للخزر، حتى القرن التاسع، أي منافس لسيادتهم في المناطق الواقعة شال البحر الأسود وما يلحقها من مناطق الإستبس والغابات على نهر الدنيبر. وقد

ظلوا القوة العظمة في النصف الجنوبي من أوربا الشرقية مدة قرن ونصف قرن، وكانوا حاجز حماية منيع يسدر ممر الأورال وقزوين فيما بين آسيا وأوربا. وقد صدّوا طوال هذه الفترة غارات القبائل البدوية الزاحفة من الشرق. وقد بدأ تدهور الخزر في القرن العاشر بسبب تزايد قوة قبائل البيشنج في الشمال والغرب والروس في إمارة كييف.

وبرغم تدهورها وضعف نفوذها، احتفظت مملكة الخزر باستقلالها حتى القرن العاشر، حين قام حاكم كييف (الأمير سفياتوسلاف) بالهجوم على أتل عام ٩٦٥ وتحطيم قوتها وتدمير عاصمتها وكذلك قلعة سمندر وساكريل على نهر الدون. ولكن هذا لا يعني أنّ الخزر قد أبيدوا، وإنما يعني تناقُص قوتهم وانكماش نفوذهم، إذ أن ذكرهم يأتي في المدونات المختلفة حتى القرن الثاني عشر. ويمكن القول بأن الإمبراطورية الخزرية تهاوت تماماً باعتناق الأمير الروسي فلاديمير الديانة المسيحية، فقد أدّى هذا إلى ظهور تحالف مسيحي يضم بيزنطة في الغرب وروسيا في الشمال، وهذا ما جعل مملكة الخزر اليهوديّة دون قيمة إستراتيجية كدولة عازلة، وسقطت تماماً في نهاية الأمر تحت هجمات الروس أواخر القرن العاشر وأوائل القرن الحادي عشر. ويُقال إن خاقان الخزر اعتنق الإسلام في تلك الفترة لعقد تحالف مع المسلمين، وقضى الغزو التتري على ما تبقّى من الخزر في وادي الفولجا عام ١٢٤٧ حين اختفوا تماماً كجماعة مستقلة. ويُلاحظ أنّ دولة الخزر تقع في المنطقة التي تلتقي فيها عدة إمبراطوريات ولم تحقق الازدهار إلاّ بسبب الفراغ الموجود في تلك المنطقة. وهي في هذا، تشبه، في كثير من الوجوه، الدولة العبرانية المتحدة (في الماضي)، والدولة الصهيونية (في العصر الحديث).

وحضارة الخزر آسيوية قَبَلية بدائية احتفظت بكثير من الطقوس البدائية حتى بعد أن أحرزت قدراً لا بأس به من التقدم. وقد عرف الخزر نظام الملكية المزدوجة المعروف بين القبائل التركية وبعض الشعوب الآسيوية إذ كان يحكمهم الخاقان أو الكاجان الأكبر الذي لم يكن يظهر إلاّ مرة واحدة كلّ أربعة أشهر ولا يتحدث إلاّ إلى نفر محدود من الناس. وكان الخاقان موضع تبجيل كبير، ويجري تتويجه في احتفال مهيب للغاية. وقد كان دائماً من سلالة ملكية، وكان المنصب يُورّث في العائلة نفسها، حتى لو كان الوريث شخصاً عادياً فقيراً كما يُلاحظ الرحالة العرب. وكانت سلطة الخاقان مطلقة حتى أنّه

لو طلب إلى أحد أن يقتل نفسه لفعل. ولكن الخاقان كان في نهاية الأمر مبعداً معزولاً إذ كان نائبه، كاجان بك أو البك وحسب، وهو الذي يصرّف شئون الدولة شاملة إعداد الجيوش وقيادتها، وهو الذي يظهر للعامة ويقودهم في الحروب، وهو الذي كان يمتلك كلّ القوى ذات التأثير. ورغم أنّ البك كان يدين بالطاعة لحضرة الخاقان الأكبر ويأتيه كلّ يوم في إذعان وخضوع، فإنه هو الذي كان يُعيّنه كما يذكر الأصطخري، أو ربما كان مؤثراً في اختياره. وربما كان هذا التقسيم للسلطة بين الخاقان والبك تقسيماً للسلطتين الدينية والدنيوية. فالخاقان الأكبر صاحب السلطة الروحية المطلقة، والبك صاحب السلطة الدنيوية الفعلية. وهذه العلاقة تشبه إلى حدّ كبير علاقة الإمبراطورية (أو الميكادو) بالحاكم العسكري (الشوجن) في اليابان، فالأول هو صاحب السلطة المطلقة الذي يخضع له الشوجن، ولكن هذا الأخير هو الذي يقدر على الحل والربط. وقد عُقدت مقارنة طريفة بين نظام الحكم لدى الخزر ولعبة الشطرنج، الملكية المزدوجة، تُمثّل على رقعة الشطرنج بالملك (الكاجان) والوزير (البك) حيث يظل الملك في عزلة يحميه أتباعه ضعيف الحول لا يجد حراكاً لأكثر من خطوة قصيرة واحدة في كلّ مرة. أما الوزير فهو على النقيض من ذلك، له الوجود الأقوى على الرقعة التي يسيطر عليها. وبرغم ذلك، فإن من المحتمل أن "يموت" الوزير وتظل اللعبة قائمة في حين يكون "موت" الملك الكارثة العظمى التي تُنهي اللعبة. وإن أردنا استخدام المصطلح الذي نستخدمه في هذه الموسوعة لقلنا إن الملك هو اللوجوس أو المطلق، وإنه ركيزة النسق النهائية أو المرجعية التي لا مرجعية بعدها.

وكانت التجارة المصدر المالي الأساسي لمملكة الخزر حيث كانت متحكمة في الطرق التجارية الموصلة بين الشرق الأقصى والإمبراطورية البيزنطية، وكذلك في الطرق الموصلة بين العرب والبلاد السلافية. وقد كانت تفرض الضرائب على البضائع التي تمر فيها. كما كان الخراج من الدول الخاضعة لها مصدراً للريع.

وكانت ديانة الخزر في المراحل الأولى شامانية بدائية يهيمن عليها الشامان (الكاهن/ الساحر/الطبيب) الذي يدّعي المقدرة على شفاء المرضى والسيطرة على الأرواح الشريرة ويدّعي معرفة الغيب. ويبدو أنّ الخزر أحرزوا قسطاً كبيراً من التحضر قبل تهوّدهم وبعده، فقد تركوا خيامهم وبنوا البيوت من الحدر المحروق. وكان

للمسلمين مساجد متعددة في مملكتهم، منها مسجد كانت مئذنته ترتفع إلى ما يفوق ارتفاع القلعة الملكية. كما أنّهم مارسوا الزراعة، واتسع نطاق تجارتهم الدولية. وقد ازدهرت أيضاً الفنون الحرف، ومنها صناعة الأزياء النسائية وصناعة الفضة. أما نمط الفن الخزري، فقد كان متأثراً بالفن الفارسي. وقد تطور نظامهم القضائي أيضاً بحيث كان في عاصمة الخزر سبعة قضاة، اثنان منهم للمسلمين واثنان لليهود واثنان للمسيحيين وواحد للوثنيين.

وكما أسلفنا الذكر، بلغت مملكة الخزر أوج عظمتها وقوتها بين القرنين الثامن والعاشر. وأثناء هذه الفترة، اعتنق ملكها بولان (٧٨٦ ـ ٨٠٩)، ومعه أربعة آلاف من النبلاء، الديانة اليهوديّة وجعلها الديانة الرسمية، وهو ما يؤكده المسعودي حين يشير إلى أنهم تهودوا في عهد هارون الرشيد. ويبدو أنّهم عرفوا اليهوديّة من خلال عشرات من المهاجرين اليهود الذين فرّوا من اضطهاد الإمبراطورية البيزنطية بخاصة في عهد هرقل (في القرن السابع الميلادي). وقد كتب أحد يهود الأندلس (حسداي ابن شبروط)، حين عرف بقيام هذه المملكة، إلى يوسف ملك الخزر، فيما يُعرف باسم "المراسلات الخزرية"، يسأله عن القبيلة العبرية التي ينتمي إليها وعن أمور أخرى. وقد أكد له الملك أن أصل الخزر تركي وليس سامياً، ولا علاقة بأسباط يسرائيل العشرة المفقودة ولا بفلسطين.

وفي ردة على ابن شبروط، يذكر الملك يوسف كيف اعتنق بولان اليهوديّة ، فيقول إنه بعث في طلب زعماء الديانات السماوية وأقام بينهم حواراً ليشرح كلّ منهم دينه ويناقش الأديان الأخرى، وقد اقتنع الملك بعد هذه المناقشة بالدين اليهودي. وقد تخيّل الشاعر الأندلسي اليهوديّ يهودا اللاوي هذا الحوار الفلسفي ورواه في كتاب له عن هذا الموضوع. وقام أحد أحفاد بولان بإصلاح ديني، فترجم العهد القديم والتلمود (ربما بعضة أجزاء منه نظراً لضخامته). ويقول كوستلر إن يهودية بولان كانت قرّائية تؤمن بالعهد القديم دون التلمود، ثم تطورت إلى يهودية حاخامية. وقد ظهر مذهب القرائين في القرن الثامن في العراق، وكان للقرّائين حركة تبشيرية قوية. ومن المعروف أنّ القرائية ظلت في بلاد الخزر قائمة بشكل واضح حتى النهاية، ولا تزال قرى اليهود القرائين الناطقين بالتركية قائمة حتى الآن في روسيا. ولم تكن يهودية الخزر كاملة، بل

احتفظوا بكثير من العادات الشامانية من تراثهم التركي البدائي.

فكانوا، على سبيل المثال، يقتلون الملك عادةً بعد أن يحكم أربعين عاماً، وهذا دليل على استمرار عبادات الخصب حتى بعد اعتناقهم اليهوديّة ، كما أنهم كانوا يقتلون من يتولون حفر قبر الخاقان الأكبر (ولعل هذا يُفسر عدم اكتراث يهود العراق بهم، فم يكونوا من وجهة نظر المؤسسة الدينية يهوداً خُلّصاً). وقد رد يوسف ملك الخزر على سؤال ابن شفروط عن آخر الأيام رداً مبهماً للغاية. وليس من المعروف إن كان أعضاء قبائل الخزر كلهم قد تهوّدوا، أم أنّ الأمر ظل مقصوراً على الملك والنبلاء وأقلية من الشعب.

وقد حاول المؤرخون تفسير ظاهرة تهوّد الخزر، فيُقال إنهم تهودوا لأسباب سياسية حيث كانوا واقعين بين الإمبراطوريتين البيزنطية و الإسلاميّة ، وكانت الإمبراطورية الروسي حينذاك فراغاً. ولكي يحتفظوا باستقلالهم، تبنوا عقيدة دينية مختلفة عن عقيدة القوتين العظميين. ويُقال أيضاً إن التهود كان لأسباب اقتصادية إذ أنّ الخزر كانوا قد بدأوا في احتراف التجارة وكان على من يودّ ممارسة هذه المهنة في هذه المناطق وغيرها أن يتهود حتى يستفيد من شبكة الاتصالات اليهوديّة في العصور الوسطى، والتي كانت تعتبر نظام ائتمان دولي. وقد أصبح بوسع الخزر، بتهودهم، أن يلعبوا دور الوسيط أو الدولة الوظيفية الوسيطة بين القوتين العظميين، إذ كان لكل منها قوانينها وشرائعها، ولم تكن تُوجد بينهما قنوت اتصال ولا يمكن لتجار كلّ طرف أن يَعبروا إلى أرض الطرف الآخر إلاّ بصعوبة. ولذا ، كان من الضروري ظهور طرف ثالث هامشي محايد، مثل الجماعة الوظيفية الوسيطة، ليقوم بالنشاط التجاري بينهما. ويُقال إن النخبة الحاكمة الخزرية قد تبنت ديانة سماوية توحيدية مثل اليهوديّة، وذلك حتى تضفي على نفسها هيبةً ووقاراً، وتُوجد مسافة بينها وبين العبادات الشامانية البدائية السائدة، وتربط بينها وبين النخب الحاكمة في العالمين الإسلاميّ والمسيحي.

ويرى بعض المؤرخين، ومن بينهم العالم الإسرائيليّ إ. ن. بوليك أستاذ التاريخية الوسيط في جامعة تل أبيب، وكذلك علماء الأجناس، أن يهود شرق أوربا الإشكناز ليسوا من نسل يهود فلسطين وإنما من نسل الخزر الذين استوطنوا هناك بعد تشرذمهم.

وقد وصفهم الجغرافيون العرب بأنهم ذوو بشرة بيضاء وعيون زرقاء وشعر غزير ضارب للحمرة. ومن هنا، فإن مقولة أنّ يهود أوربا الإشكناز من أصل خزري تركي ليست مقولة فكرية محضة ذات مقدرة تفسيرية عالية تستند إلى العقل والمنطق وحسب، وإنما هي مقولة تستند أيضاً إلى المعطيان التاريخية المحسوسة. ومن أهم ما كُتب في هذا الموضوع كتاب المؤلف الإنجليزي المجري الأصل، اليهوديّ العقيدة، آرثر كوستلر، والذي أسلفنا الإشارة إليه، حيث يبرهن فيه على المقولة الخاصة بهجرة يهود الخزر إلى شرق أوربا، الإشارة إلى العلاقة الوثيقة بين الخزر والمجر وكيف أسهم خاقان الخزر في تأسيس دولة المجر بأن عيّن لقبائل المجر ملكاً يخضع لسلطانه. وقد ظلت العلاقات قوية بين الشعبين إلى أن طُرد المجريون من بلادهم عام ٨٩٦ وعبروا سلسلة جبال الكربات وانتزعوا المنطقة التي أصبحت موطنهم الحالي. ويبين كوستلر كيف انضمت إلى المجريين في هجرتهم إلى هنغاريا قبائل خزرية معروفة باسم "الكابار"، وقادتهم إلى مواطنهم الجديد. وقد استمرت العلاقة الوثيقة بين المجر والخزر حتى استقرار المجموعات الخزرية المجرية في الوطن الجديد. وقد دعا دوق تاكسوني المجري عدداً غير معلوم من الخزر ليستوطنوا بلاده، ولا شك في أن نسبة كبيرة منهم كانت من اليهود . بل ويرى كوستلر أنّ تدفق اليهود لم يكن على المجر وحسب بسبب العلاقات المجرية المخزرية كما أنّه لا يمثل حالة خاصة، فهذه الهجرة كانت جزءاً من هجرة أكبر وهي الهجرة الجماعية الشمالية من الإستبس الأوراسية تجاه الغرب، أي تجاه أوربا الوسطى والشرقية. ولذلك، فهو يتحدث عن "الشتات الخزري" أي انتشار اليهود من بلاد الخزر إلى أرجاء أوربا، مقابل "الشتات" وحسب، أي انتشار يهود من فلسطين.

ويلاحظ كوستلر أنّ اختفاء الشعب الخزري من موطنه التاريخي قد صاحبه الظهور المعاصر لأكبر تجمّع يهودي في الشمال الغربي من أوربا. ولهذا، اتفق المؤرخون على أنّ الهجرة من خزاريا قد أسهمت بالتأكيد في نمو الجماعات اليهوديّة البولندية.

ولكن يظل هناك سؤال يتصل بحجم هذا الإسهام؟ وما إذا كان اليهود الخزر قد كوّنوا مجرد نواة للجماعة اليهوديّة وحسب، أم أنهم لم يكونوا مجرد نواة؟

وهنا يستعرض كوستلر تاريخ يهودا أوربا فيبين ضآلة عددهم، ثم يستعرض تاريخ

طرد اليهود من بلد أوربي إلى آخر، ويشير إلى أن يهود حوض الراين (حتى القرن الحادي عشر) كانوا ضئيلي الأهمية قليلي العدد، وقد تعرضت هذه الجماعات للإبادة وتناقصت أعدادها أثناء حروب الفرنجة. أما أعضاء الجماعات اليهوديّة التي كان يتم تدميرها تماماً، فقد كانوا يتركون مكان إقامتهم بعض الوقت يم يهودون إليه ، أي أنهم لم يكونوا يهاجرون منها. وقد ظهر الطاعون أو الموت الأسود الذي تفشّى في الفترة ١٣٤٧ ـ ١٣٥٠ وقضى على ثلث سكان أوربا. لكن هذا ، يرى كوستلر أنّ فكرة هجرة يهود غرب أوربا إلى شرقها يتعذر إثباتها تاريخياً، بل إنها مجرد خرافة، أو افتراض خلقه المؤرخون، وكان عليهم اختلاقه لتفسير ظاهرة ازدياد عدد يهود أوربا الشرقية في القرن الخامس عشر، خصوصاً في بولندا، زيادة مفاجئة وهائلة، حتى أنّ معظم يهود أوربا كانوا في القرن السادس عشر يقيمون في بولندا.

واستمر هذا الوضع قائماً، فنجد أنّ معظم يهود العالم (مع بداية القرن التاسع عشر) موجودون في بولندا بحيث يمكن القول بأن يهود العالم الحديث من اصل بولندي.

وفي محاولة تفسير تزايد عدد يهود بولندا، اختلق المؤرخ الروسي اليهوديّ دبنوف وغيره فرضية هجرة يهود غرب أوربا إلى شرقها (بسبب المذابح التي ارتُكبت ضد الجماعات اليهوديّة إبان الحروب الصليبية). ولم على الرغم من أنّ الحوليات المعاصرة لا تتحدث عن مثل هذه الهجرة، بل ومن الصعب تخيّلها. ومردّ ذلك جهل المؤرخين بتاريخ يهود الخزر، وتاريخ هذه المرحلة السديمية التي كانت تنتقل فيها شعوب أوربا أو قبائلها من مكان إلى آخر. أما كوستلر، فيهتم بقضية يهود الخزر باعتباره يهوداً رافضاً لفكرة الاستمرار العرقي اليهوديّ والحقوق اليهوديّة في فلسطين ، وباعتباره مدافعاً عن حقه في أن يظل منتمياً (كيهودي إنجليزي) إلى وطنه إنجلترا. وهو يستخلص النتيجة التالية: "إو الدلائل المعروضة تدعم الحجة القوية التي قدمها أولئك المؤرخون المحدثون، سواء النمساويون أو الإسرائيليّون أو البولنديون، أو أولئك الذين أثبتوا (مع استقلال كلٍّ عن الآخر) أنّ الأغلبية العظمى من اليهود المعاصرين ليسوا من أصل فلسطيني وإنما من أصل قوقازي وأنّ تيار الهجرات اليهوديّة الرئيسيّ لم ينبثق من حوض البحر المتوسط عبر فرنسا وألمانيا متجهاً نحو الشرق ثم عائداً أدراجه ثانياً ولكنه تحرّك في

اتجاه ثابت دائماً (نحو الغرب). بادئاً من القوقاز عابراً أوكرانيا إلى بولندا ومنها إلى وسط أوربا. وعندما حدث في بولندا هذا الاستيطان الضخم الذي لم يسبق له نظير، لم يكن إلى جانبه (في الغرب) سوى عدد قليل ولا يُعتدّ به من اليهود، في حين أنّ شعباً بأسره (في الشرق) كان في سبيله إلى التحرك نحو حدود جديدة".

وتحاول الصهيونية ، في أحد أشكالها، أن تؤسس نظرية الحقوق اليهوديّة في فلسطين على أساس عرقي. إذ تدّعي أنّ اليهود ، بالمعنى العرقي، شعب ارتبط دائماً بفلسطين (أو أرض الميعاد)، وأنّ هذا النقاء العرقي وهذا الارتباط الأزلي بأرض الأجداد، يبرران عمليّة الاستيلاء على فلسطين . ولكن تهود الخزر، مثل تهود الأدوميين وغيرهم من الأقوام، يمثل تحدياً لهذه الفكرة الخاصة بالنقاء العرقي. فالأصل الحزري لمعظم يهود الغرب، إلى الأغلبية العظمى من يهود العالم، يفند فكرة الحقوق اليهوديّة التي تستند إلى أساس عرقي. ومع هذا ، يجب التنبيه على أنّ الصهيونية تُعرّف الهوية اليهوديّة الآن تعريفاً إثنياً فضفاضاً ولا تركز إلاّ نادراً على النظرية العرقية ونظرية النقاء العرقي، كما أنها تؤسس نظرية الحق اليهوديّ على الارتباط الإثني والديني والحضاري وليس على الارتباط العرقي.

الفصل الثامن عشر

يهود الكرمشاكي(*)

Krimchaki (History of Jews of the Crimean Peninsula)

"يهود الكرمشاكي" جماعة يهودية صغيرة ذات سمات إثنية خاصة، تسكن شبه جزيرة القرم، ويتحدث أعضاؤها لهجة تترية دخلت عليها كلمات عبرية آرامية وكلمات قليلة من اللادينو واليديشية، وهي تُكتب بحروف عبرية. وكان الكرمشاكي يُطلقون على أنفسهم لفظ "يهودي" أو "سريلي بالالاري" (أبناء إسرائيل).

ولكنهم، مع نهاية القرن التاسع عشر، بدئوا يستخدمون الكلمة الروسية "كرمشاك" أي "سكان شبه جزيرة القرم". وقد ظهر هذا الاسم لأول مرة في السجلات الروسية عام ١٨٥٩. ويبدو أنّ السلطات الروسية قد صاغت هذا لاسم للتمييز بينهم وبين القرّائين و الإشكناز.

ويعود تاريخ اليهود في القرم إلى القرن الثاني قبل الميلاد (مع الاستيطان اليوناني فيها). ويبدو أنهم كانوا يعملون بالتجارة وفي بعض الحرف، كما عملوا في الدولة والجيش. وقد تغيّرت هوية أعضاء الجماعية اليهوديّة عدة مرات، ويبدو أنّ تتريكهم بدأ في حكم إمبراطورية الخزر، ولكنهم اكتسبوا هويتهم التترية التركية مع الغزو التتري عام ١٢٣٩، فارتدوا الأزياء التركية الإسلاميّة وتبنّوا اللغة التترية. وتأثر بناء الأسرة بينهم ببناء الأسرة التترية، فظلوا يمارسون تعدُّد الزوجات حتى بدايات القرن التاسع

(*) المصدر السابق ص ١٥٣.

عشر. وكانوا بمعزل عن الحركات الفكرية التي اكتسحت يهود أوربا مثل الاستنارة و الصهيونية والإصلاح الديني. وكانت غالبيتهم من الحرفيين، واشتغلت أقلية منهم بالزراعة عدد قليل جداً منهم في التجارة. ورغم تبنيهم الأنماط الحضارية التركية والتترية، إلاّ أنّ أسماء عائلات الكرمشاكي تدل على تنوع أصولهم العرقية، فهناك أسماء تركية (لولباكش ـ ديمارجي ـ أزميرلي)، وأسماء قوقازية (أبابيف)، وإيطالية وإسبانية (كونفينو ـ مانتو)، كما توجد أسماء من أصل إشكنازي (سيلزر ـ أوري) وهناك أسماء عبرية (كوهين ـ مزراحي).

وبعد ضم روسيا القيصرية للقرم، تغيّر وضع الكرمشاكي تماماً إذ بدأت عمليّة تحديثهم وترويسهم، ولكنهم لم يستجيبوا لذلك في بداية الأمر ورفضوا التزاوج مع يهود اليديشية الذين كانوا يُعدّون عنصراً روسياً ويُوطّنون في القرم كعنصر استيطاني. وقد تصاعدت هذه العملية مع الثورة البلشفية، وزاد المستوى التعليمي بينهم، الأمر الذي نجم عنه تآكل أشكال الحياة التقليدية. وقد قام كثير من أعضاء الجماعة الذين عملوا مهنيين (مهندسين أو مدرسين أو أطباء) يقطع صلتهم بمجتمع الكرمشاكي.

وقد انخفض عدد الكرمشاكي عام ١٩٨٩ إلى ١٥٥٩. ويمكن القول بأن الكرمشاكي يذوبون بسرعة في اليهود الروس والأوكرانيين ويتزاوجون منهم، ولا يوجد منهم الآن سوى مائة أسرة في الولايات المتحدة. ويبدو أنّ أعضاءها خضعوا الحركيات المجتمع الأميركيّ، كما بدئوا يتزاوجون بأعضاء الجماعت اليهوديّة الأخرى.

الفصل التاسع عشر

اليهود الأكراد(*)

Kurdish Jews

"اليهود الأكراد" جماعة يهودية لها سماتها الإثنية الخاصة، يعيش معظم أعضائها في العراق، رغم أنّ معظم الأكراد يعيشون في تركيا، حيث توجد ١٤٦ قرية يهودية في العراق و١٩ في إيران و١١ في تركيا، كما تُوجد أيضاً مجموعة في روسيا. وتوجد بين أكراد العراق أقليتان دينيتان: المسيحيون النسطوريون (الذين يُسمون أيضاً الآشوريين)، واليهود. وقد تأثر أعضاء الجماعتين بالثقافة الكردية.

ولكنهم، مع هذا، لم يتبنوا اللغة الكردية إذ أنهم يتحدثون الآرامية ويتحدث يهود الموصل العربيّة، وهم بذلك لا يصنفون باعتبارهم أكراداً. ويُقال إن وجود اليهود في هذه المنطقة يعود إلى أيام التهجير الآشوري ومملكة أديابني.

وقد وضع أغوات الأكراد (أي كبار ملاك الأراضي) جماعة اليهود تحت حمايتهم، فكان اليهود يُعدون ملكية خاصة لهم يجمعون منهم المحاصيل ويُخضعونهم للسخرة، بل وكان في مقدور الأغا أن يبيع ما يملك من يهود (وهذا أمر نادر في الحضارة الإسلاميّة وإن كان يشبه ما حدث في أوربا). وفي منتصف القرن العشرين، كان ٨٠٪ من يهود كردستان يعيشون في المدن ويعملون تجاراً صغاراً وبقالين، وكان الحرفيون يعملون صباغين وترزية ونجارين ودباغين ومراكبية ينقلون الأخشاب في قوارب أنهار

(*) المصدر السابق – ص ١٥٤.

الموصل. وكان العشرون في المائة الباقية يعيشون في المناطق الريفية.

ولا تختلف عادات الأكراد اليهود عن عادات الأكراد بصفة عامة. وعلى سبيل المثال، فإن عادات الزواج بينهم لا تختلف كثيراً عن عادات الزواج السائدة في المجتمع الكردي، حيث تتزوج الفتيات في سن مبكرة، وعلى العريس أن يدفع مهر الوالد العروسة تعويضاً له عن تربيتها وتنشئتها. ولا تختلف طقوس الزواج بينهم عن الطقوس السائدة بين الأكراد من تمسك بعذرية الفتاة عند الزواج إلى غير ذلك من القيم والشعائر. وفي ليلة الزفاف، يتم التحقق من ذلك وتُعلن النتيجة على المدعوين، وإن اكتشفوا أنّ الفتاة غير عذراء يقوم أبوها بقتلها. ويُعتبر تعدد الزوجات أمراً مباحاً. كما أنّ علاقة الزوجة بزوجها وأمه لا تختلف عما هو سائد بين أهل هذه المنطقة. وهذه مجرد أمثلة عابرة تعبر عن مدى اندماج الجماعة اليهوديّة في محيطها الحضاري ومدى استيعابهم لها.

وكان تعداد الأكراد اليهود حوالي ١٤,٨٣٥ عام ١٩٢٠، زاد إلى ١٩,٧٦٧ عام ١٩٤٧، وهم يعيشون في ١٤٦ قرية. وبعد إعلان دولة إسرائيل، هاجر الأكراد اليهود جميعاً إلى إسرائيل (١٩ ألفاً من العراق وثمانية آلاف من إيران وثلاثة آلاف من تركيا).

الفصل العشرون

يهود الصين (يهود كايفنج)(*)

Chinese Jews (K‘aifeng Jews)

"يهود الصين" جماعة يهودية كبيرة كانت تعيش في مدينة كايفنج عاصمة مقاطعة هونان الواقعة على ضفاف النهر الأصغر، ولذا يُقال لهم أيضاً "يهود كايفنج". ويبدو أنّ تاريهم يعود إلى القرنين التاسع والعاشر، حيث هاجرت مجمعموعة من يهود إيران وربما الهند. ويبدو أنّ الجماعة اليهوديّة كانت مهمة نوعاً، فقد عيّن أباطرة أسرة تانج أحد أعضاء طبقة الماندرين (وهي الأرستقراطية الثقافية من الموظفين/العلماء) مسئولاً عنهم، فكان يزور معبدهم باسم الإمبراطور مرة كلّ عام، ويحرق البخور أمام المذبح. وكان المهاجرون اليهود (في بداية الأمر) يتحدثون الفارسية، وكانوا متخصصين في المنسوجات القطنية وصابغتها وطباعة الألوان عليها، وهي صناعة كانت متقدمة في الهند. وكان سكان الصين يتزايدون في تلك المرحلة، الأمر الذي أدّى إلى نقص حاد في المنسوجات الحريرية ونشوء حاجة إلى المنسوجات القطنية، وهو ما قد يفسّر استقرار اليهود في الصين في ذلك الوقت. ومن الناحية الاجتماعية والطبقية، كان اليهود ينتمون إلى طبقة التجار والصناع التي تقع بين الفلاحين من جهة وطبقة الموظفين/العلماء من جهة أخرى. ومن ثم كان طموحها الاجتماعي، مثلها مثل الطبقات التي تقع في الوسط، هو الاتصال بالطبقة العليا والابتعاد عن طبقة الفلاحين.

(*) المصدر السابق ص ١٥٥.

وقد تأسس أول معبد يهودي في عام ١١٦٣، حيث كان يُسمى معبد الطهر والحقيقة ـ وهو اسم ذو نكهة كونفوشيوسية. وكان يترأس الجماعة الحاخام وأحد الوجهاء الذين كانوا يحتفظون بكتب اليهود المقدّسة المكتوبة بالعبرية ويقرأون أسفار موسى الخمسة مرة كلّ عام.

وقد اندمج يهود كايفنج بالتدريج، وتزاوجوا مع الصينيين، خصوصاً المسلمين. وفي مرحلة من المراحل، كان اليهود يُصنّفون بوصفهم مسلمين، حتى اختفى أثرهم تقريباً.

ويُفسّر اندماجهم، ثم انصهارهم في نهاية الأمر، على أساس انعزالهم عن يهود العالم وعدم وصول مهاجرين يهود إليهم، وكذلك على أساس الزواج المُختلط وعدم وجود معاداة لليهود في هذا المجتمع. ولكن هذه الأسباب الجاهزة لا يمكنها أن تفسر الظاهرة، إلا أنّ السؤال يظل يطرح نفسه: لماذا تزايد الزواج المُختلط؟

فهناك مجتمعات لا يوجد فيها عداء لليهود، ومع ذلك لم ينصهر اليهود فيها مثل الهند. ولتفسير هذه الظاهرة، لابدّ أن نعود إلى حركيات المجتمع الصيني. فمن المعروف أنّ الكونفوشيوسية، وهي العقيدة الرسمية للدولة في الصين قبل الثورة، كانت لا تعارض التعددية الدينية ما دامت هذه التعددية لا تهدد النظام السياسي، فكان المطلوب من أعضاء أية جماعة دينية أن تعترف بعبادة الأسلاف والمكانة الدينية للإمبراطور. كما لم تكن توجد أفكار دينية أو قومية تؤدي إلى عزل الأقليات الدينية ، ذلك أن مفهوم الأمة لم يكن مفهوماً أساسياً في الصين. فالإمبراطورية هي العالم، وهي تتكون من دوائر متداخلة وتزداد درجة الهمجية فيها كلما ابتعدنا عن المركز الصيني، وهكذا فإن اليهود (وكذلك المسلمين الذين كانوا اليهود يُقرنون بهم) عاشوا في هذا العالم دون تمييز قانوني أو اقتصادي أو اجتماعي. كما أن تركيب المجتمع الصيني (من الأسرة الممتدة، والعشيرة، والحكم من خلال السلطة المركزية) قد ساعد على هذا النمط، فهو يقلل الاحتكاك المباشر بين الأعضاء كما يقلل احتمالات الصراع، فيتم الاحتكاك بين الجماعات من خلال مؤسسات الدولة ، هو ما يساعد على تنظيم العلاقة وتقليل الوترات. وقد أدّى كلّ هذا إلى اندماج اليهود تدريجياً وتمثّلهم كثيراً من عناصر العبادة الكونفوشيوسية التي تشكل أساس التعامل بين الجماعات. وبدأ أعضاء الجماعة اليهوديّة يتبنون كثيراً من الطقوس البوذية والطاوية مع الطقوس اليهوديّة جنباً إلى جنب.

والواقع أن قبول عناصر غير يهودية في اليهودية أمر ليس بجديد على اليهوديّة ، بسبب تركيبها الجيولوجي، كما أنه جزء من التقاليد الصينية الدينية التي لا تمانع في استيراد عناصر من الديانات الأخرى. وكان من الممكن أن يظل الاندماج على هذا المستوى ولا ينصهر اليهود تماماً لو أنّ الجماعة اليهوديّة ظلت تتعامل مع الجماعات الأخرى من خلال مؤسسات الدولة. فربما، لو حدث ذلك، لكان من الممكن أن يحتفظ يهود الصين بهويتهم الصينية اليهوديّة، كما حدث ليهود الهند، من خلال نظام الطائفة المغلقة. ولكن، ابتداءً من القرن الرابع عشر، أعيد تنظيم طبقة العلماء/الموظفين (بشكل أكثر انفتاحاً) من خلال نظام الامتحانات الإمبراطوري، ذلك النظام الذي أتاح أمام يهود كايفنج فرصاً ضخمة للحراك الاجتماعي.

فدخلت عناصر من قياداتهم الامتحانات ونجحت فيها وانضمت إلى البيروقراطية الحاكمة. وقد كان الانخراط في هذه الوظائف يعد، في نظر المجتمع الصيني، أكثر أهمية وقيمة من الأعمال التجارية، كما كان يعني نقلة طبقية كبيرة وإعفاءً من السخرة الجسدية، فالعمل كموظف بالحكومة كن يمنح الإنسان في الصين السلطة والمكانة والثروة.

لكن هذا النجاح أفقد أعضاء الجماعة اليهوديّة البُعد اليهودي في هويتهم الصينية اليهوديّة ، إذ أنّ العمل في مثل هذه الوظائف كان يتطلب دراسة الكلاسيكيات الصينية التفقه فيها، واستيعاب المُثل الكونفوشيوسية واستبطانها تماماً. فالانخراط في سلك المثقفين الكونفوشيوسيين لم يكن مجرد عمل أكاديمي، وإنما كان أمراً يؤثر في شخصية الإنسان نفسه وفي منظوره الفلسفي والديني. لهذا، كان يُتوقع من اليهودي الذي ينخرط في سلك العلماء ـ الموظفين، أن يتصرف باعتباره كونفوشيوسياً داخل إطار الفكر الكونفوشيوسي، أي أنّ الانتماء إلى الوظيفة كان يطلب تحولاً جوهرياً داخلياً وخارجياً.

ورغم أنّ المؤسسة الدينية اليهوديّة في الصين نظرت بعين الشك إلى الطبقة العلماء/الموظفين من اليهود ، فإن هؤلاء أصروا على أنّ الكونفوشيوسية و هي لا تَعارُض بينهما. وبالتدريج، تحوّلوا إلى النخبة القائدة في الجماعة، وبدأت رؤيتهم الكونفوشيوسية تتسلل إليها ككل حتى امتزجت اليهوديّة بالكونفوشيوسية. والأمر الذي أسرع بهذا الاتجاه أنّ الانتماء إلى طبقة العلماء/الموظفين كان يعني تناقض عدد

أعضاء الجماعة، إذ أنّ هذا النظام يمنع تعيين الموظف في محل ميلاده لمنع الوساطة والمحسوبية. ولذا كان على اليهودي الذي ينضم إليها أن يصبح واعياً بمكانته الاجتماعية وبوضعه الطبقي وبانتمائه إلى الطبقة الجديدة، وهو ما جعل الزواج المُختلط من داخل الطبقة مسألة شبه حتمية، خصوصاً وأن العلماء/الموظفين كانوا يعيشون بعيداً عن أسرهم وعشائرهم.

والواقع أنّ تحول القيادة، وكذلك تشتّتها، هو الذي ساعد على تحويل اليهوديّة من الداخل. فبدأ اليهود بالإشارة إلى الخالق بالمصطلح الكونفوشيوسي، فكانوا يشيرون إليه بأنه "تاين"، أي "السماء"، أو "طاو"، أي "الطريق". ثم تعمّق الأمر وبدأ اليهود يتبعون عبادة الدولة التي تتضمن تبجيل بل وتقديس كونفوشيوس.

وتأثر اليهود كذلك بأهم مظاهر العبادة الكونفوشيوسية وهي عبادة الأسلاف. ومن ثم، نشأت إلى جوار المعبد اليهودي صالات الأسلاف التي كانت تضم الآباء العبرانيين وأولاد يعقوب الإثني شعر وموسى وهارون ويوشع وعزرا وآخرين من مشاهير اليهود.

وتبنّى اليهود كذلك طقوساً كونفوشيوسية للاحتفال ببلوغ سن التكليف الشرعي والزواج والموت والدفن. كما أنّهم حاولوا أن يجدوا أساساً لأعيادهم وشعائرهم الدينية في الكلاسيكيات الكونفوشيوسية لا في الكتاب المقدس. وراح اليهود ينصرفون عن كثر من أهم شعائرهم التي كانت تحفظ لهم عزلتهم وهويتهم مثل أكل لحم الخنزير الذي كانوا يمنعون عن أكله في الأعياد. وكانوا، عند تقديم القرابين إلى أسلافهم، يقدمون لهم لحم الضأن. كما أنّ اليهود لم يترجموا قط كتبهم المقدسة من العبرية إلى الصينية. ولهذا كان كيان الجماعة مهدداً دائماً بالاختفاء في حالة نيسان القيادة لعبرية، ويبدو أنّ هذا هو ما حدث بالفعل قبل عام ١٧٢٣ إذ أنّ العبرية كانت قد نسيت في ذلك التاريخ.

لكل هذا ، تقوّضت هوية الجماعة اليهوديّة من الداخل تماماً. وحينما مات آخر حاخام في القرن التاسع عشر، انتهى ما تبقّى من اليهوديّة بحيث أصبح أعضاء الجماعة مع ستينيات القرن الماضي صينيين في ملامحهم وردائهم وعاداتهم ودينهم. وفي عام ١٩٠٠، قامت مجموعة من اليهود الإنجليز في شانغهاي بتأسيس "جماعة إنقاذ يهود الصين" التي حاولت إحياء اليهوديّة في كايفنج دون جدوى، حيث كانوا قد اندموا تماماً وكان كلّ ما يعرفونه عن اليهوديّة هو أنّهم يهود. ولا يزال هناك نحو مائتين

وخمسين صينياً من سلالة يهود كايفنج ولكنهم منصهرون تماماً. ويشبه يهود كايفنج، من بعض الوجوه، يهود الولايات المتحدة في نجاحهم وانتمائهم إلى طبقة المهنيين، وفي استبطانهم القيم الأميركيّة ، وفي توزّعهم الجغرافي، وتزايد معدلات الزواج المختلط بينهم وكذلك في انتمائهم الكامل إلى مجتمعهم.

الفصل الواحد والعشرون

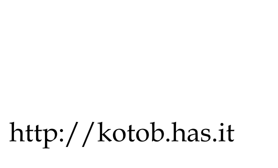
اليهود الزنوج(*)

Negro Jews

"اليهود الزنوج" مصطلح يستخدم للإشارة إلى الزنوج السود الذين يؤمنون باليهودية جميعاً. وبالتالي، فإن المصطلح يضم الفلاشاه والعبرانيين السود، وكذلك جماعات بشرية أخرى ذات هويات يهودية سديمية. وقد وجد أحد الباحثين في ساحل لوانجو في غرب أفريقيا جماعة تصنّف باعتبارهم يهودية ويُسمى أعضاؤها أنفسهم "مافامبو" ويقيمون شعائر السبت. ومن المعروف أنّ ساحل لوانجو لا يبعد كثيراً عن جزيرة ساوتومي البرتغالية التي أحضر إليها الأطفال اليهود الذين تم تنصيرهم عنوة عام ١٤٩٣ ـ ولعل هذا هو مصدر تسميتهم باليهود. وتوجد بالقرب من ساحل مدغشقر فرقة يهودية تسمى "زافي إبراهيم" أي "نسل إبراهيم"، يدعي أفرادها أنّهم يهود، ولكن ليس هناك أي شيء يميزهم عن بقية السكان.

وفي عام ١٧٥٠، أسست مستوطنة بالقرب من سورينام (غينيا الهولندية) تضم أبناء اليهود الذين تزوجوا من العبيد الأفريقيين السود، وكانوا يتحدثون لهجة "الدجوتونجو" أي "لغة اليهود"، وهي خليط من البرتغالية والعبرية وبعض الكلمات المحلية.

(*) المصدر السابق – ١٥٦.


http://kotob.has.it

الفصل الثاني والعشرون

العبرانيون السود(*)

Black Hebrews

"العبرانيون السود" فريق من الأمريكيين السود الذين يؤمنون باليهودية وملتزمون بتطبيق الشريعة اليهوديّة بتشدّد يفوق تشدد اليهود البيض. ويدّعي العبرانيون السود الانتساب إلى قبائل يسرائيل العشر المفقودة، وأنهم هم وحدهم (وليس يهود الأرض المحتلة أو يهود العالم) سلالة اليهود القدامى الحقيقية. ويؤكد العبرانيون السود أنّ أنبياء اليهود من السود، وأنّ إسرائيل القديمة كانت أيضاً دولة سوداء، وأنّ قناة السويس ما هي إلاّ ثغرة صنعها الإنسان الأبيض لفصل إسرائيل عن أفريقيا السوداء.

وانطلاقاً من هذا ، كتب شاليح بن يهودا، مساعد رئيس الجماعة، إلى رؤساء الدول الأفريقية يحثهم على المطالبة بحقوقهم في إسرائيل والتي سرقها اليهود . ويطمح رئيس الجماعة، بن عمي كارتر، إلى أن يترأس الدولة الصهيونية. بل إنهم يقولون إن إسرائيل بأسرها ملك خالص لهم سرقها الإشكناز، اليهود اليهود البيض. وقد بدأ العبرانيون السود في التوافد إلى إسرائيل ابتداءً من أغسطس عام ١٩٦٩ من شيكاغو، احتجاجاً على أوضاع الزنوج هناك. ثم استمرت جماعات منهم في الاستيطان حتى بلغ عددهم ١٥٠٠ مهاجر (ويرتفع هذا العدد حسب التقديرات الأخرى إلى ٣٠٠٠).

ويتركز تجمّع العبرانيين السود في إسرائيل في الأماكن التالية:

(*) المصدر السابق ص ١٥٧ .

- ديمونة ويقيم فيها ١٥٠٠.
- عراد حيث يقيم ٤٠٠.
- متسبي رامون حيث يقيم ٨٠.

وجميعها قرى في النقب. كما تتوزع عشرات الأسر بين رعنانا وعدة مناطق أخرى في النقب أيضاً. والمنطقة التي يقيمون بها في ديمونة معزولة ومحاطة بالأشجار والنباتات التي تفصلهم عن بقية المدينة. وفي البداية سمحت السلطات الإسرائيليّة لهؤلاء العبرانيين السود بالإقامة المؤقتة، إلاّ أنّها سرعان ما حاولت التخلص منهم بدعوى أنهم مصدر للمشاكل ويمثلون عبئاً اقتصادياً. وفي ٨ ديسمبر ١٩٧١، وصلت إلى إسرائيل مجموعة مُكوّنة من ٤٨ شخصاً ومُنعت من الدخول ووُجهت إلى الولايات المتحدة.

ولا يحمل العبرانيون السود أية بطاقة رسمية أو وثيقة تبين هويتهم، الأمر الذي يُعد في حد ذاته مخالفة للقانون الإسرائيليّ. ويحمل معظمهم تأشيرة سائح لمدة ثلاثة أشهر لا تُجدد بعد انتهائها.

ويُعتبر وضعهم في الزواج غير منظم من الناحية القانونية. فالزواج والطلاق بالمعنى المألوف للكلمة لا وجود له بين أعضاء الجماعة، كما أنهم يمارسون تعدد الزوجات. وتتسبب كثافة العبرانيين السود المخيفة، وانحطاط مستواهم المعيشي، في تفاقم وتوتر العلاقات بينهم وبين جيرانهم اليهود. وللعبرانيين السود نظام تعليمي مستقل، وهم لا يقومون بتسجيل حالات الولادة أو الوفاة لديهم، ويوفرون لأنفسهم كلّ الخدمات اللازمة حيث أقاموا مدارس وفصولاً مستقلة وعيادات وورش خياطة.

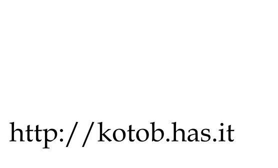
وليس من المتوقع أنّ تجد مجموعة بشرية مثل العبرانيين السود كثيراً من الاستقرار في مجتمع استيطاني عنصري استبعادي، كما هو الحال في إسرائيل. وبالفعل، ثار المستوطنون الصهاينة ضد توطين العبرانيين السود إلى جوارهم، وهدد أولياء الأمور بالإضراب احتجاجاً على تسجيل أبنائهم في مدارس ديمونة، كما هددوا سكان عراد بالقتل إذا باع أحدهم شقته لأي منهم، بل وشكلوا لجنة قومية تُسمى "اللجنة الإسرائيليّة لطرد الزنوج العبرانيين".

وقد أثارت وسائل الإعلام الإسرائيليّة الشك حول يهودية الزنوج، كما أنّ المؤسسة

الدينية أنكرت تماماً انتماءهم إلى الدين اليهودي وهو ما دفعهم إلى التظاهر أمام مقر دار الحاخامية الرئيسية كي تعترف بصفتهم اليهوديّة . وتقدم قادتهم بشكوى إلى الأمم المتحدة اتهموا فيها حكام إسرائيل باستخدام أساليب الجستابو والقمع العنصري.

وتُسبب القضية الكثير من الحرج للكيان الصهيوني، بخاصة أمام الأمريكيين السود في الولايات المتحدة. ولذا ، تحاول المؤسسة الصهيونية تشويه صورتهم إعلامياً، فتشيع أنّ الجريمة تنتشر في صفوفهم وأنّ ما لا يقل عن خمسة وعشرين من أعضاء هذه الجماعة مطلوب القبض عليهم من قبل البوليس الفيدرالي الأميركيّ. كما تقول السلطات الصهيونية إن زعيم الجماعة هو الزعيم المطلق الذي يقوم بجمع الأموال والتصرف فيها.

ومن الطريف أنّ المستوطنين الصهاينة يخفقون في التفرقة بين العبرانيين السود من جهة ويهود الفلاشلاه من إثيوبيا من جهة أخرى. فهؤلاء جميعاً "سود" على العموم، وهو ما يدل على أنّ عمليّة التصنيف والإدراك داخل التجمع الصهيوني تتم على أساس عرقي بين اليهود أنفسهم، فالأبيض يُوضع مقابل الأسود، والشرقي مقابل الغربي.


http://kotob.has.it

الفصل الثالث والعشرون

يهود الفلاشاه:
تاريخ وهوية(*)

Falashas: History and Identity

"الفلاشاه" كلمة أمهرية تعني "المنفيين"، كما أنها تعني أيضاً "غريب الأطوار". وأصل الكلمة يعود إلى الجذر "فلاشا" في اللغة الجعزية، ويعني "يهاجر" أو "يهيم على وجهه". ويستخدم أهل إثيوبيا الكلمة للإشارة إلى جماعة أثنية أفريقية تدين بشكل من أشكال اليهوديّة ، وهي لا تنتمي إلى أيٍّ من الكتل اليهوديّة الكبرى الثلاث: الإشكناز والسفارد ويهود العالم الإسلاميّ. كما يستخدمون كلمة "إيهود"، أي "يهود"، أما الفلاشاه فيشيرون إلى أنفسهم بوصفهم "بيت إسرائيل".

وأصول الفلاشلاه ليست سامية خالصة وإنما هي حامية أيضاً ، إن قبلنا هذا التمييز العرقي والحضاري، فهم ينتمون إلى مجموعة القبائل المسماة "أجاو" التي كانت مستقرة في إثيوبيا قبل هجرة القبائل السامية إليها من جنوب الجزيرة العربيّة. ويقال إن اليهوديّة انتشرت بينهم من خلال يهود الجزيرة العربيّة قبل الإسلام (ويُقال إن عبد الله بن سبأ من أصل فلاشي).

وثمة رأي قائل بأن أصل الفلاشاه يعود إلى جنوب شبه الجزيرة العربيّة ، وربما وصلتهم اليهوديّة عن طريق مصر وربما جاءوا هم أنفسهم من صعيد مصر. وقد كانت

(*) المصدر السابق – ص ١٥٨.

توجد جماعة من الجنود المرتزقة اليهود على حدود مصر الجنوبية (في جزيرة إلفنتاين) بالقرب من الشلال الأول في أسوان. وثمة رأي آخر يذهب إلى أن أصلهم يرجع إلى جماعة من اليهود استوطنوا إثيوبيا بشكل دائم. ويقال إن عدد الفلاشاه كان كبيراً قبل أن تعتنق أسرة إكسوم الحاكمة الديانة المسيحية في القرن الرابع. ولكن، بعد هذا التحول إلى المسيحية، نشبت صراعات حادة وحروب عديدة بينهم وبين جيرانهم المسيحيين.

واشتراك الفلاشاه في التمرد الذي قامت به قبائل الأجاو ضد أكسوم في القرن العاشر، حيث أسقطوا النجاشي وفتكوا بالرعايا المسيحيين وهدموا كنائسهم وأديرتهم. ولكن أسرة زاج، التي حلت محل أسرة أكسوم، كانت هي الأخرى مسيحية وحاولت تأكيد السلطة المسيحية.

وفي عام ١٢٧٠، وتحت تأثير الكنيسة، اعتلى أحد أعضاء أسرة أكسوم القديمة العرش. وقرر ملوك الأسرة المالكة، بعد استعادة الحكم، أن يضعوا حداً لاستقلال الفلاشاه، خصوصاً وأنهم كانوا يعتبرونهم عنصراً مشكوكاً في ولائه في حروبهم مع الممالك الإسلاميّة المجاورة. ولذلك، قام ملوك أكسوم تجريد مجموعة من الحملات ضدهم.

وأثناء حكم النجاشي لينادنجل (١٥٠٨ ـ ١٥٤٠) غزا المسلمون إثيوبيا. وقد انضم الفلاشاه، في بادئ الأمر، إلى المسلمين تحت زعامة ملكهم جدعون وملكتهم جوديث (يهوديت)، بل وتعقبوا النجاشي المهزوم الفار. ولكنهم انضموا بعد ذلك إلى الإثيوبيين، فألحق المسلمون الهزيمة بهم وبحلفائهم الإثيوبيين، ووقع ملك وملكة الفلاشاه في الأسر. وقد ظل هذا الشد والجذب قائماً حتى حكم النجاشي سوسينيوس (١٦٠٧ ـ ١٦٣٢) الذي ألحق بالفلاشاه هزيمة نكراء، بفضل تجهيز جيشه بالأسلحة النارية، وهدم قراهم ومعابدهم وصادر أراضيهم، فتحولوا إلى عاملين أجراء. وضد ظلوا على هذا الوضع حتى القرن التاسع عشر حين وصلت الإرساليات المسيحية البروتستانتية التي حققت نجاحاً ملحوظاً بين صفوفهم. وقد يُفسر هذا النجاح التناقض الكبير في أعدادهم إن صدقت الإحصاءات.

ولا يُعرف عدد الفلاشاه على وجه الدقة، وإن كان قد قدّر عددهم في بداية القرن

الثامن عشر بمائة ألف، بل إن أحد أعضاء الإرساليات قدرة بربع المليون. ولكن، مع بداية القرن العشرين، وصل عددهم إلى خمسين ألفاً على أحسن تقدير، وإلى سبعة آلاف حسب أسوئها. وحسب تقديرات عام ١٩٧٦، وصل عددهم نحو ٢٨ ألفاً موجودين في ٤٩٠ قرية مختلفة.

ويتركز الفلاشلاه أساساً في شمال إثيوبيا في المنطقة الواقعة بين نهر نازي في الشمال والشرق، وبحيرة تانا والنيل الأزرق في الجنوب، والحدود السودانية في الغرب. وهم يعيشون في قرى صغيرة مقصورة عليهم تضم كلّ قرية نحو خمسين أو ستين عائلة وتوجد أهم القرى بجوار مدينة جوندار. كما يوجد داخل جوندار نفسها جماعة صغيرة من الفلاشاه تعيش في حي مقصور عليها. وتوجد قرى الفلاشاه عادة على قمة أحد التلال القريبة من النهر.

وتتكون كلّ قرية من مجموعة من الأكواخ المستديرة يغطيها القش، ويُخصص أحد الأكواخ معبداً لهم، كما يُخصص كوخان آخران بعيدان عن القرية لعزل النساء وقت الطمث وبعد الإنجاب.

ولا تختلف ملامح الفلاشاه كثيراً عن ملامح غيرهم من الإثيوبيين، كما لا يمكن الحديث عن نمط فلاشي متميز إذ اختلطت فيهم الدماء الحامية والسامية. ولذا ، لا توجد اختلافات في لون الجلد وملامح الوجه. ولا يختلف أسلوب حياتهم، من معظم الوجوه، عن أسلوب حياة جيرانهم، كما أنهم يرتدون نمط الثياب نفسه ويأتزرون بالعباءة المسماة "الشاملة". وهم يعملون أساساً بالزراعة كعمال أجراء، كما يعملون في بعض الحرف الأخرى مثل صناعة الفخار والغزل والنسيج وصنع السلاسل، كما يعملون حدادين وصاغة وحائكي ملابس، ويعمل كثير منهم الآن بحرفة البناء في المدن.

ولم تكن طريقة توزيع الأراضي في إثيوبيا تسمح للفلاشاه باقتناء الممتلكات، لأنهم لم يكونا من موظفي الدولة . فالحال هناك كانت أشبه بأوربا الإقطاعية حيث كانت الخدمة العسكريّة الإلزامية للدولة أو الكنيسة شرطاً للتملك. وإذا كان بعض الفلاشاه، وخصوصاً أولئك الذين سكنوا أقصى الغرب، يملكون الأرض، فإنهم في المناطق الأخرى كانوا يعملون حرفيين. أما ممارستهم الزراعة، فقد اقتصرت على زراعة الأرض لأصحابها المسيحيين. ولم ينطبق حظر التملك على الفلاشاه وحسب، وإنما على مجمل الحرفيين بصرف النظر عن طوائفهم.

ويتحدث معظم الفلاشاه الأمهرية. وثمة أقلية منهم تعيش في تيجري وفي إريتريا وتتحدث اللغة التيجيرينية. وهناك أقلية أخرى في الجزء الشمالي تتحدث لهجات قبائل الأوجاو. أما أبدهم، فكله مكتوب باللغة الجعزية أو الإثيوبية (لغة إثيوبيا الكلاسيكية) وهي أيضاً لغة الكنيسة القبطية الإثيوبية.

ولكن ثمة نصوصاً تدل على أنّ الفلاشاه كانوا يتحدثون ويتعاملون بلغة قبائل الأجاو، ولا تزال توجد بينهم بعض الصلوات بهذه اللغة. والفلاشاه يجهلون العبرية تماماً، فمعرفتهم بها مقصورة على بضع كلمات لا يدركون هم أنفسهم أنها من هذه اللغة.

ويضم أدب الفلاشاه المكتوب بالجعزية عدة كتب موجودة على هيئة مخطوطات. ومن الطريف أنّ بعض هذه الكتب متداول بن اليهود والمسيحيين في آن واحد. بل إن بعض الكتب اليهوديّة تضم أشعاراً من العهد الجديد (أهم الكتب المقدسة لدى المسيحيين).

وفلكلور الفلاشاه، كما هو الحال في أفريقيا، ثرى للغاية، فلهم أغان ورقصات عديدة. كما أنّ لهم تاريخهم الأسطوري، فهم يعودون بأصولهم إلى منليك، ابن الملك سليمان، الذي عاد إلى أمه بلقيس ليعتلي عرض إثيوبيا. ولما كان الإثيوبيين المسيحيون يؤمنون بالأصول الأسطورية نفسها، فإننا نجد أنّ الفلاشاه قد أضافوا إلى القصة ما يفسر انفصالهم، إذ يقولون إن ملكة سبأ سافرت إلى القدس واعتنقت اليهوديّة بتأثير ملكها سليمان وأنجبت منه منليك الذي عاد يوماً لزيارة أبيه فأكرم وفادته وأمر بعض رجال حاشيته وبلاطه الملكي بمرافقة الأمير عند عودته. وقد سرق منليك سفينة العهد وعبر نهراً يوم السب الذي يحرّم فيه السفر والسير لمسافات طويلة. وقد تبعه بعض الخاطئين (مسيحيو إثيوبيا)، أما الأتقياء الذين امتنعوا عن عبور النهر فهم يهودها، إلى الفلاشاه.

ويمارس الفلاشاه عادة الزار لطرد الأرواح. ويُقال إن هذه العادة بدأت في إثيوبيا وانتشرت منها إلى بعض بلاد الشرق الأوسط. كما أنهم يقومون بصنع الأحجبة والتعاويذ اتقاء للعيون الشريرة. وبسبب اشتغالهم حدادين يعتبرهم أهل القرى من السحرة.

ويمكننا هنا أن نثير قضية ما إذا كان يهود الفلاشاه يُشكّلون جماعة وظيفية أم لا.

الواقع أنّ أعضاء الجماعات اليهوديّة في الغرب قد اطلعوا بوظيفة الجماعة الوظيفية الوسيطة وعملوا بالتجارة والصيرفة في أماكن متفرقة من أوربا، أما يهود إثيوبيا فكانوا يعملون بالزراعة، ولم يشتغلوا بالتجارة والصيرفة، كما أنهم كانوا أعضاءً في مجتمع قَبَلي مبني على الاقتصاد الطبيعي، لا يوجد فيه نقد ولا قطاع تجاري أو مالي يُذكر. فالفلاشاه لم يضطلعوا بدور الجماعة الوظيفية المالية والوسيطة ولكنهم مع هذا أصبحوا جماعة وظيفية تشتغل ببعض الحرف التي يعتبرها المجتمع إما وضيعة أو هامشية أو مشبوهة، أو في غاية الأهمية، أو تتطلب خبرة معينة لابدّ من تراثُها مثل الحدادة. ومن هنا كان اتهامهم بالسحر، وهي تهمة كانت تُوجّه إلى المرابي اليهودي في أوربا، وتوجّه عادةً إلى الشخصيات الهامشية في المجتمع. لكن الهامشية لا تعني بالضرورة عدم الأهمية، فالهامشية قد تنتُج من التفرد والتميز.

وحتى الآن، لم نطلق على الفلاشاه صفة "يهود". وأرجأنا ذلك إلى أن نستعرض عقيدتهم الدينية. وتعريف الفلاشاه في الموسوعة اليهوديّة يلقي كثيراً من ظلال الشك على انتمائهم الديني، إذ جاء فيه ما يلي: "الفلاشاه جماعة إثنية في إثيوبيا تزعم أنها من أصل يهودي، ومرتبطة بنوع من أنواع الديانة اليهوديّة يستند إلى العهد القديم والكتب الخارجية (أبوكريفا)، أي الكتب غير المعتمدة والكتب الدينية الأخرى التي ظهرت بعد الانتماء من تدوين العهد القديم".

والواضح أنّ التعريف يرى أنّهم من أصول إثنية ليست بالضرورة يهودية، وأنهم ليسوا يهوداً وإن كانوا "يزعمون" أنهم من أصول يهودية. كما أنّ ما يعرفونه عن اليهوديّة يختلف عن اليهوديّة التي يتبعها معظم يهود العالم والسائدة في الدولة الصهيونية. ففي أي شيء تختلف يهودية الفلس عن اليهوديّة الحاخامية؟

تستند عبادة الفلاشاه إلى العهد القديم الذي لا يعرفونه إلاّ باللغة الجعزية لغة الكنيسة الإثيوبية. ويضم العهد القديم الذي يعرفونه كلّ الكتب المعتمدة وبعض كتب الأبوكريفا غير المُعتمدة مثل: كتاب يهوديت، وحكمة سليمان، وحكمة بن صيرا، وكتاب المكابيين الأول والثاني، وكتاب باروخ. ولم يصل التلمود إلى الفلاشاه. وغني عن الذكر أنّ التلمود هو عمود اليهوديّة الحاخامية الفقري وعصبها، وعدم الاعتراف به ينطوي على عدم اعتراف بها.

والعناصر اللاهوتية والحضارية المُشتركة بين المسيحيين واليهود في إثيوبيا كبيرة. وقد أشرنا إلى أن بعض الكتب الدينية متداولة بين الفريقين معاً، وإلى أنّ الجعزية هي لغة العبادة بين اليهود والمسيحيين هناك، كما أنّ أسطورة الأصل مشتركة مع تنويعات خفيفة. ويمكن أن نضيف هنا أنّ الفلاشاه ليس لدهم حاخامات وإنما قساوسة يطلق على واحدهم لفظة "قس". كما أنهم ينتسبون، مثل الكهنة القدامى في يهودية ما قبل التهجير، إلى هارون. وينتخب الكهنة في كلّ منطقة كاهناً أعظم لهم لكي يصبح زعيماً دينياً للجماعة، ويصبح من صلاحيته ترسيم الكهنة.

ويقدم الكهنة القرابين في المناسبات الدينية المختلفة. ويعيش بعض هؤلاء الكهنة في الأديرة رهباناً وراهبات على النمط المسيحي، ويُطلق عليهم لقب "ناذير" وهي لفظة عبرية تعين "الذي نَذر نفسه للشعائر الدينية وانقطع لها". كما أنّ البعض الآخر يعيش على طريقة النُسّاك في الغابات والصحارى وعلى حواف القرى.

ومن الطريف أنّ عادة الاعتراف المسيحية موجودة عند الفلاشاه فهم يدلون باعترافاتهم إلى الكاهن من آونة إلى أخرى وعند نهاية اليوم. وإلى جانب الرهبان والكهنة، يوجد علماء يستخدمون صحن المعبد لتعليم الدين.

ويقيم الفلاشاه شعائر يوم السبت بصرامة غير عادية، فيمتنعون عن الجماع الجنسي في ذلك اليوم، ويقضي الرجال يومهم في الصلاة. لكن التحريمات الخاصة به مختلفة من بعض الوجوه عن تحريمات اليود الأرثوذكس. فهم مثلاً لا يعتبرون استخدام النور الكهربائي من المحرّمات. كما أنهم يحتفلون بعدد من الأعياد أكبر من المنصوص عليه في الشريعة اليهوديّة ، فعندهم أعياد شهرية لتذكرهم بالأعياد السنوية. وفي العاشر من كلّ شهر قمري، يوجد احتفال يذكرهم بعيد يوم الغفران. وفي اليوم الخامس عشر من كلّ شهر، يحتفلون بذكرى عيد الفصح وعيد المظال. ويُعد ثالث سبت في خامس شهر قمري هو سبت الأسبات يتلون فيه الصلوات والأدعية. وفي الثامن عشر من الشهر السادس القمري يحيون ذكرى وفاة إبراهيم وإسحق ويعقوب. وهم لا يحتفلون بعيد التدشين أو عيد النصيب فلم يرد لهما ذكر في التوراة.

وإلى جانب هذه الأعياد والاحتفالات توجد أيام صيام أسبوعية وشهرية وسنوية، فيصومون يوم الخميس إحياءً لذكرى طلب عزرا من المنفيين أن يصوموا. ويصومون

كذلك في الفترة ١ ـ ١٧ آب (أغسطس) إحياءً لذكرى سقوط القدس (ولا يصوم اليهود الحاخاميون إلاّ في يوم التاسع من الشهر نفسه لإحياء هذه الذكرى) ويصومون في العاشر من أيلول (سبتمبر) تذكرة بيوم الغفران. وهم يحافظون على شعائر الزواج والختان اليهوديّة ، ولكنهم يختتون البنات على عادة بعض الشعوب الأفريقية. ويحافظون كذلك على التحريمات الخاصة بالطعام، ولكنهم لا يستعملون أواني منفصلة للمأكولات من الحليب واللحم على غرار الجماعات اليهوديّة الأخرى.

ويختن المسيحيون الإثيوبيون (هم الآخرون) أولادهم الذكور، ويمتنعون عن تناول المأكولات المحرّمة عند اليهود. كما أنهم، ولفترة طويلة، كانوا يتخذون السب يوم راحة لهم بدلاً من الأحد. ومن الجوانب اليهوديّة الأخرى في المسيحية الإثيوبية، التشديد على أهمية العهد القديم في الكتاب المقدس. وكذلك يلاحظ وجود الرموز المتعلقة بسفينة العهد في الكثير من الكنائس المسيحية الإثيوبية.

واشتهر الفلاشاه أيضاً بمغالاتهم في التطهر، ولذا فهم يمتنعون قدر الإمكان عن لمس الغرباء. وإذا حدث أنّ لمس أحدهم غريباً، فإن عليه أن يتطهر (ولذلك توجد قراهم على مقربة من الأنهار حتى يمكنهم، التطهر دائماً). ومن هنا، فإن الفلاشاه الذين يعشيون في جوندار، ويفرض عليهم أسلوب حياتهم الاحتكاك الدائم بالأجانب والغرباء، يُعدّون "غير طاهرين" في نظر بقية الفلاشاه.

وتتبدّى مغالاة الفلاشاه في قوانين الطهارة في تعاملهم مع النساء. فبعد أن تلد المرأة ولداً، فإنها تعد غير طاهرة مدة أربعين يوماً. وإن وضعت بنتاً، فإن المدة تتضاعف. وبعد نهاية المدة، تحلق المرأة شعر رأسها وتغطس في الماء وتغسل ملابسها قبل أن تعود إلى منزلها. وأحياناً يحرق الكوخ الذي قضت فيه فترة العزل.

والمعبد هو مركز الحياة الدينية بين الفلاشاه والذي تطلق عليه كلمة "مسجد" أو "بيت إجزابهير" أو "بيت الإله". وهو يتكون من حجرتين، يطلق على الحجرة الداخلية اسم "قدستا قدوسان"، إلى "قدس الأقدس"، تماماً كما في هيكل سليمان القديم، ولا يدخله إلاّ الكاهن والشماس. ويحفظ في هذه الحجرة التوراة وملابس الكاهن الشعائرية. ولا يُسمح للنساء، إلاّ غير المتزوجات والعجائز، بدخول المسجد. وتُقام سبع صلوات في اليوم الواحد، وإن كان معظم الفلاشاه يكتفون بإقامة صلاتين: واحدة في

الصباح والأخرى في الليل. ويستخدم الفلاشاه اللغة الجعزية في الصلاة، ويقضون معظم يوم السبت وأيام الأعياد في الصلاة داخل المسجد، ويقفون لتناول الطعام في مأدبة جماعية. كما أنهم يغنون ويرقصون في الأعياد.

ويؤمن الفلاشاه بإله واحد ويؤمنون بالعبث والعالم الآخر والثواب والعقاب، كما يؤمنون بعقائد اليهود الأخرى كإيمانهم بأنهم من الشعب المختار وأنه سيظهر بينهم ماشيّح. وقد حدث عام ١٨٦٢، أثناء حكم الإمبراطور تيودور الثاني، أنّ ظهر ماشيّح دجال أقنع الفلاشاه بالعودة إلى أرض الميعاد سيراً على الأقدام، ولكن معظمهم مات في الطريق.

ويبدو أنّ بعض الفلاشاه ممن تقع قراهم على مقربة من قرى المسلمين بد استوعبوا أيضاً عناصر إسلامية في عقيدتهم، وربما كان بينهم مسلمون بالفعل. إذ ذكرت الصحف الإسرائيليّة أنّ بعضهم قد اعتنق الإسلام في إسرائيل . كما أوردت أنّ بعضهم، أثناء زيارة حائط المبكى، سمع صوت الأذان فاتجه إلى المسجد لإقامة الصلاة.

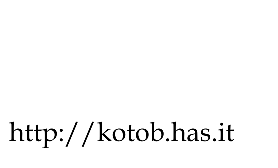
كما ذكرت إحدى الصحف الإسرائيليّة أنّ بعضهم أقام الصلاة على طريقة المسلمين في المطار فور وصوله إلى إسرائيل وقد وصفتهم الصحيفة بأنهم "فلاشاه سُنيّون".

وقد احتفظ الفلاشاه بهويتهم المتميزة، وهي هوية إثنية أفريقية استمدوها من بيئتهم ومن طبيعة التشكيل الحضاري الأفريقي. و يرى بعض المتخصصين في مجتمع الفلاشاه أنهم من قبيلة الأجاو، وأنهم عِرق إثيوبي صاف. أما تقاليدهم وعاداتهم فتشمل خليطاً من المعتقدات والطقوس الوثنية واليهودية والمسيحية وربما الإسلاميّة.

وقد نفى أحد المؤرخين صفة اليهوديّة عنهم ووصفهم بأنهم مسيحيون تمسكوا السبب أو آخر بالعهد القديم بدلاً من العهد الجديد. وهو يرى أنّ علاقات الفلاشاه الحضارية والعرقية مع جيرانهم المسيحيين الإثيوبيين، تتخطى تلك التي يشاركون بها يهود العالم. وقد تكون هذه الطبيعة المُختلطة لهوية الفلاشاه هي ما حدا بأحد المسؤولين في الوكالة اليهوديّة في أوائل الخمسينيات إلى أن ينصح الذين فكروا منهم في الهجرة إلى إسرائيل بالتنصّر وحل مشكلتهم بهذه الطريقة بدلاً من الهجرة إلى إسرائيل.

ومع هذا ، تم تهجيرهم باسم الهوية اليهوديّة العالمية. ون الواضح أنهم سيفقدون

في إسرائيل هويتهم الأفريقية هذه ولن يكتسبوا هوية جديدة، لأن المجتمع ينظر إليهم بعين الشك بسبب لون جلدهم وتوجّههم الثقافي بل ومعتقداتهم الدينية. وقد شكّكت دار الحاخامية في يهوديتهم.


http://kotob.has.it

الفصل الرابع والعشرون

تهجير الفلاشاه(*)

Transfer of The Falashas

ابتداءً من عام ١٩٧٣، حدث تحول في الموقف الصهيوني تجاه الفلاشاه . فقد أعلن الحاخام شلومو غورن أنّ أعضاء هذه الجماعة اليهوديّة هم في الواقع من أحفاد قبيلة دان، ومن ثم فهم يهود حقيقيون. وقد طُبّق عليهم قانون العودة (بعد أن كانت الوكالة اليهوديّة تنصحهم بالتنصر). وبدأت عمليّة التهجير حوالي ١٩٧٧، فكانت تصل بضع مئات. وحينما قامت الثورة الإثيوبية، توقفت العملية ثم استمرت بشكل سري. ثم وضع مخطط التهيجر في أواخر السبعينات. وفي عام ١٩٤٨، نفذ مخطط التهجير على نطاق واسع فيما عرف باسم "عمليّة موسى" إذ تم نقل حوالي ١٢ ألف إثيوبي في جسر جوي سري عبر السودان (كان عدد المهجّرين الإجمالي في هذه الفترة ١٤,٠٣٧). وقد تمت العملية في سرية كاملة حيث فُرض تعتيم إعلامي كامل، إلى أن نشرت إحدى نشرات المستوطنين الصهاينة في الضفّة الغربية (نكوداه) أنّ معظم يهود إثيوبيا موجودون في إسرائيل. ويُقال إن تسريب نبأ هجرة يهود الفلاشاه قام به موظف كبير من حزب المفدال الديني يهدف وقف الهجرة، وهو ما يدل على وجود انقسام في الأوساط الصهيونية حيال هذه العملية. وكان حكومة الولايات المتحدة من أكثر

(*) المصدر السابق ص – ١٦١.

الحكومات حماساً، بل وألمحت صحيفة واشنطن بوست إلى أنّ الحكومة الأميركيّة هي التي ضغطت على الدولة الصهيونية لتقبل الفلاشاه، وقد خصص صندوق اللاجئين التابع الحكومة الولايات المتحدة ١٥ مليون دولار لاستيعاب المهاجرين. وعلى أية حال، فقد بلغت تكاليف عمليّة موسى مائة مليون دولار قامت جماعات يهودية أمريكية بتغطيتها. كما تمت عمليّة أخرى باسم "عمليّة سليمان" في مايو ١٩٩١ بعد سقوط نظام منجستو، وتم فيها نقل ١٩,٨٧٩ من الفلاشاه بواسطة جسر جوي بين أديس أبابا وتل أبيب شمل أربعين رحلة مكوكية. كما هُجر ٣,٥٠٠ عام ١٩٩٢ (إذا أضفنا لهؤلاء عدد ٦,٤٢٢ وهم أبناء الفلاشاه المولودون في إسرائيل فإن إجمالي عددهم يصل ٥١,٤٢٩).

لقد أسلفنا أنّ الحاخامية في إسرائيل اعترف بالفلاشاه كيهود تمديهاً لعملية التهجير. ومع هذا، لم يكن الاعتراف بهم كاملاً، فيهوديتهم حسب التصور الديني ناقصة. ولذا ، طلب منهم عند وصولهم أن يُعاد تختينهم، وأن يأخذوا حماماً طقوسياً لتطهيرهم. ولوحظ أنّه لا تصدر لهم بطاقة هوية إلاّ بعد هذه الطقوس، بل ويتسلمها بعضهم دون تحديد الديانة حتى بعد الختان والاستحمام الطقوسي. ومن الطريف أنّ هؤلاء الفلاشاه ، المشكوك في يهوديتهم، ذُهلوا من علمانية المجتمع الصهيوني وعدم حرصه على الشعائر اليهوديّة إذ لاحظوا أنّ يهود الكيان الصهيوني لا يلتزمون بشعائر السبت.

ولكن الرفض على أساس إثني وعرقي كان أعمق وأشد حدة، فعلى سبيل المثال رفضت مدينة إيلات (عدد سكانها عشرون ألفاً) تزويد المستوطنين الفلاشاه بالماء والكهرباء، كما رفض المجلس المحلي لمستوطنة يروحام إدخال الفلاشاه إليها . وفي صفد تظاهر السكان ضد إعطائ المهاجرين من إثيوبيا بيوتاً، كما هدد أولياء أمور الطلاب في المدارس الدينية بلامتناع عن إرسال أطفالهم إليها إذا استمر أطفال الفلاشاه معهم. وشكاً رئيسا بليدة عكا ونهاريا من توطين الفلاشاه في بلدتيهما بحجة أنّ هذه مدن اصطياف سياحية ووجود الفلاشاه لا يساعد كثيراً على اجتذاب السياح، فهو يخلق التوتر ويزيد تفاقم ظاهرة العنصرية في المدينة.

وليس من المتوقع أن تحقق محاولة استيعاب الفلاشاه في التجمع الصهيوني نجاحاً كبيراً. فمع تفاقم الأزمة الاقتصاديّة في المجتمع الصهيوني، لن يمكن تدبير المبالغ

اللازمة لاستيعابهم وتحقيق المستوى المعيشي العالي الذي يضمن سكوتهم. وقد انعكس الصراع بين الدينيين واللادينيين داخل التجمع الصهيوني عليهم، فقد دأبت الوكالة اليهوديّة على إرسال أبنائهم إلى المدارس الدينية، وهو أمر لا يقبله الصهاينة اللادينيون، كما أنّ كثيراً من المهاجرين الفلاشاه الجدد (من سكان المدن) لا يتمسكون كثيراً بالدين، وبالتالي فهم أيضاً يمانعون في إرسال أولادهم إلى المدارس الدينية. وقد بدأ يصل مع المهاجرين الفلاشاه نموذج جديد وهو الفلاشي المتعلم الذي لا يحتقر ثقافة الوطنية بالضرورة ويجيد التعامل مع المؤسسات الحديثة. وهذه العناصر بدأت تتولى القيادة بين المهاجرين والدفاع عن حقوقهم.

وأكبر دليل على فشل عمليّة الاستيعاب تلك الأخبار التي نشرتها الصحافة الإسرائيليّة عن حوادث الانتحار الفعلية وعن محاولات الانتحار العديدة التي قام بها يهود الفلاشاه، وعن تهديدهم بالانتحار الجماعي. وقد أنشأ بعض اليهود منظمة "مهاجري إثيوبيا"، لا لتسهيل استيعابهم وتوطينهم بل للعمل على تهجير جزء منهم إلى كندا.

ويمكن طرح السؤال التالي: ما الذي يمكن أن تربحه الدولة الصهيونية من تهجير ما بين ٢٥ ـ ٣٥ ألف يهودي من إثيوبيا (العدد الكلي للفلاشاه في إسرائيل)، خصوصاً أنها كانت تدرك بعض المشاكل التي ستنجم عن هذه الهجرة؟ يمكننا ابتداءً استبعاد العنصر الإنساني، فلو كان الدافع إنسانياً لانصب اهتمام الكيان الصهيوني على تحسين أحوالهم في بلادهم، وعلى الدفاع عن حقوقهم هناك، ولشمل كلّ ضحايا المجاعة في إثيوبيا. ولعل أول الدوافع الحقيقية هو الدافع المالي، فالقصص المثيرة عن تدهور حال يهود إثيوبيا تؤدي إلى تدفّق التبرعات. كما أنّ هناك مردوداً إعلامياً، فإسرائيل دولة معروفة للعالم الغربي بعنصريتها. ولذا فإن إنقاذ يهود الفلاشاه (السود الأفارقة) قد يُحسّن صورتها بعض الشيء.

وهذه الدوافع المادية، المالية والإعلامية، دوافع حقيقية ولكنها سطحية. أما الدافع الحقيقي الكامن وراء تهجير الفلاشاه فهو أزمة النظام الصهيوني العقائدية والسكانية العميقة. فالكيان الصهيوني يعاني من نضوب مصادر الهجرة اليهوديّة، إذ أنّ يهود الغرب المتحمسين يكتفون بإرسال الشيكات وبرقيات التأييد الحارة ولا يهاجر منهم إلاّ

القليل النادر. أما يهود الاتحاد السوفيتي فهم بالمثل يؤثرون الهجرة، إن هاجروا، إلى الولايات المتحدة. لكن العنصر البشري أساسي بالنسبة للاستعمار الاستيطاني الإحلالي، والفلاشاه سيساهمون بلا شك في سد هذا العجز، وسيساعدون آلة الاستيطان والحرب على الاستمرار. كما أنّ الفلاشاه زُرّاع مهرة، وقد يمكنهم زراعة الأرض الفلسطينية التي استولت عليها الدولة الصهيونية، خصوصاً بعد انصراف المؤسسات الزراعية الصهيونية من ندرة الأيدي العملة اليهوديّة وتُضطر إلى استئجار عمالة عربية، وقد يبطئ وجود الفلاشاه هذه العملية قليلاً.

ومن الواضح أنّ تهجير الفلاشاه هو تعبير عن مقدرة الصهاينة على الحركة والإنجاز ولكنه أيضاً تعبير عن أزمة صهيونية. وهي عمليّة قد تحل بعض المشاكل مؤقتاً، ولكنها ستفجر بعض المشاكل الأخرى، وبكل حدة، داخل الكيان الصهيوني. وقد تفجرت مرة أخرى مع وصول الفلاشاه مسألة من هو اليهوديّ. كما أنها قد تساعد على التشكيك في المقولة الصهيونية الخاصة بوحدة الشعب اليهوديّ، إذ يأتي الفلاشي بملامح وقيم وعادات مختلفة. ولنتخيل يهودياً أمريكياً أشقر من أصحاب المذهب الإصلاحي أو يهودياً علمانياً أو يهودياً ملحداً يقف بجوار يهودي من الفلاشاه أسود البشرة يرقص في "مسجده" اليهوديّ في الأعياد، فهل سيقتنع الاثنان بأنهما ينتميان إلى شعب واحد؟

وينتشر الفلاشاه في إسرائيل داخل أراضي فلسطين المحتلة منذ عام ١٩٤٨، كما ينتشرون في الأراضي العربية المحتلة بعد عام ١٩٦٧. وأكبر تركيز لهم (في الضفّة الغربية المحتلة) في مستوطنة كريات أربع قرب الخليل، وفي مناطق الجليل والجليل الأعلى (مدينة صفد). ويتركز عدد لا بأس به منهم في مدينة عسقلان، أما الباقون فهم موزعون على الضواحي الاستيطانية حول مدينة القدس مثل راموت وبيت مئير وتلة زئيف.

وقد نشبت أزمة مؤخراً حين كُشف النقاب عن أنّ بنك الدم الإسرائيليّ قد أخذ يتخلص بالتدريج من مخزون الدم الذي يتبرع به يهود الفلاشاه خوفاً من أن تكون هذه الكميات ملوثة بفيروس مرض الإيدز، وأيّد وزير الحصة الإجراءات التي يقوم بها البنك.

الفصل الخامس والعشرون

الفلاشاه مورا(*)

Falasha Mura

"فلاشاه مورا" جماعة قَبلية في إثيوبيا يُقال لها أيضاً "فلاس مورا". وكلمة "فلاشاه" كلمة أمهرية تُطلق على يهود إثيوبيا، وتعني "الغرباء". أما "مورا"، فيبدو أنها تعني "الأغيار"، أي غير اليهود. ويُطلق الاصطلاح على يهود الفلاشاه الذين تنصّروا على يد المبشرين المسيحيين. وهم ينقسمون إلى قسمين:

١ ـ فلاشاه تنصّروا منذ حوالي قرنين من الزمان.

٢ ـ فلاشاه تنصّروا منذ ثلاثين عاماً.

ويمكن تقسيمهم أيضاً، على أساس معدلات الاندماج إلى قسمين:

١ ـ فلاشاه تنصّروا واحتفظوا باستقلالهم كجماعة يهودية مُتنصّرة.

٢ ـ فلاشاه تنصّروا واندمجوا في مجتمع الأغلبية.

وتميل الصحافة الإسرائيليّة الآن إلى الإشارة إلى الفلاشاه مورا باعتبارهم "يهود مارانو"، أي اليهود المتخفين، وهو اصطلاح يُطلق في الأدبيات اليهوديّة على يهود إسبانيا الذين يُقال إنهم أجبروا على ترك عقيدتهم وتبنّي العقيدة الكاثوليكية، فتظاهروا بأنهم كاثوليك واستمروا في ممارسة شعائر دينهم في الخلفاء، وقد استمر

(*) المصدر السابق – ص ١٦٣.

بعضهم في ممارسة هذه الشعائر حتى الوقت الحاضر. ويبلغ عدد الفلاشاه مورا ١٧٥ ألفاً، منهم ١٥ ألفاً ممن تنصّروا واحتفظوا باستقلالهم كجماعة فلاشيه مُتنصّرة. وهناك ٦٠ ألفاً تنصّروا واندمجوا في المجتمع المسيحي، وكل ما يربطهم باليهودية جذورهم الفلاشيه (الإثنية).

ويبدو أنّ الفلاشاه أنفسهم يعتبرون الفلاشاه مورا (أياً كان نوعهم) غير يهود. ولذا ، فإن أحدهم إذا أراد العودة إلى حظيرة الدين اليهوديّ، تُطبّق عليه الشعائر الخاصة بمن يريد التهود، فيُحلق شعر رأسه وجسمه، وهي شعائر لا تُطبّق إلاّ على غير اليهود (ومهما يكن من أمر سخرية الصحافة الإسرائيليّة من هذه الشعائر، فإنها على أية حال الشعائر نفسها التي كانت تُطبّق في الماضي قبل ظهور اليهوديّة الحاخامية).

وقد بدأ الحديث عن تهجير الفلاشاه مورا إلى إسرائيل (مع حوالي ثلاثة آلاف يهودي من يهود الفلاشاه الذين لا يزالون موجودين في إثيوبيا). لكن المؤسسة الحاخامية اعترضت، بطبيعة الحال، على تهجير هؤلاء لأهم ليسوا يهوداً، وذلك بعد أن كانت قد اعترضت في بداية الأمر على تهجير الفلاشاه ذاتهم، بدعوى أنّ اليهوديّة التي يؤمنون بها غير تلمودية وغير حاخامية وتضم شعائر لا مثيل لها بين يهود العالم، بل وتنطوي على عناصر مسيحية ووثنية.

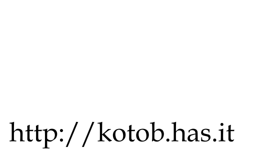
ومن المعروف أنّ قانون العودة في إسرائيل لا يسمح بهجرة من يعتنق ديناً آخر حتى ولو وُلد يهودياً. ولذا، فحينما تجمع ثلاثة آلاف من الفلاشاه مورا ليهاجروا مع الفلاشاه، لم يُسمح لهم بالهجرة ونُصحوا بالعودة إلى ديارهم.

وتُشير المؤسسة الحاخامية (وكل من يعارض هجرة الفلاشاه مورا) إلى أنّ هؤلاء لم يتنصّروا قسراً، وأنهم تحولوا عن يهوديتهم لتحقيق المغانم الاقتصاديّة والحراك الاجتماعي وللاستفادة من المعونات المالية التي يقدمها المبشرون. كما يؤكد أصحاب هذا الرأي أنّ الفلاشاه مورا يودون الهجرة إلى إسرائيل للأسباب نفسها. ومن ثم، فإن دوافعهم ليست دينية ولا آيديولوجية، فهم إذن مرتزقة.

ويحذر هؤلاء من أنّ عشرات الآلاف من الإثيوبيين، خصوصاً من الأمهريين الذين فقدوا نفوذهم بعد سقوط منجستو، قد ينتهزون الفرصة ويدّعون أنهم فلاشاه مورا حتى يهاجروا إلى إسرائيل.

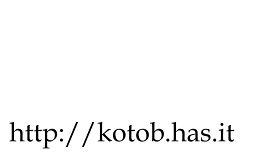
ولكن يبدوا أنّ المؤسسة الحاكمة في إسرائيل لا تُمانع في هجرتهم، كما أنّ الولايات المتحدة بدأت تدعو إلى تهجيرهم. والدافع وراء هذا، على ما يبدو، هو تَعطش المستوطن الصهيوني للمادة البشرية. كما يُلاحظ أنّ الوظائف الدنيا في الهرم الإنتاجي أصبحت شاغرة بعد أن حقّق اليهود الشرقيون شيئاً من الحراك الاجتماعي. وبدأ العرب في ملئها، الأمر الأمر الذي أدّى إلى تزايد اعتماد المستوطن الصهيوني على العمالة العربيّة، وهو أمر يهدد أمنه. ولعل المادة البشرية الوافدة، يهودية كانت أم غير يهودية، تسد هذه الثغرة. فالدولة الصهيونية بدأت عام ١٩٤٨ دولة يهودية استيطانية إحلالية مبنية على طرد العرب أو إبادتهم لتُحل يهوداً محلهم، ثم تحوّلت بعد عام ١٩٦٧ إلى دلو يهودية استيطانية مبنية على التفرقة اللونية التي تمكّن العنصر اليهوديّ من استغلال العنصر العربي. ويبدو أنّ الدولة الصهيونية بدأت تدخل مرحلة جديدة تبهت فيها يهوديتها لتصبح دولة استيطانية مبنية على التفرقة اللونية وتُصرّ على استجلاب مادة بشرية غير عربية وليست بالضرورة يهودية (ويهوديتها هي إما مجرد ديباجات لفظية أو محض علاقة وهمية إسمية). وهي في هذا لا تختلف كثيراً عن جنوب أفريقيا التي بدأت دولة استيطانية إحلالية بيضاء مسيحية، ثم أصبحت دولة استيطانية تمارس التفرقة اللونية لصالح البيض المسيحيين، وتحوّلت المسيحية إلى مجرد ديباجة دون إصرار على المادة البشرية المسيحية. وقد تبدّى هذا أيضاً في هجرة اليهود السوفييت حيث وصل مئات الألوف من أشباه اليهود ممن تآكلت علاقتهم العقائدية والإثنية باليهودية، وبالتالي فهم ليسوا يهوداً بالعقيدة ولا بالإثنية وإنما بجذورهم البعيدة وحسب. وكما قال أحد الحاخامات، فإن كلّ ما يربط هؤلاء اليهود باليهودية هو جد يهودي مدفون في موسكو.

وقد وصل مع المهاجرين السوفييت أيضاً مئات الألوف من مدّعي اليهودية، إلاّ أنّ المؤسسة الإشكنازية الحاكمة غضّت نظرها عن ذلك رغم احتجاج المؤسسة الدينية. وكما قلنا، فقد غلّبت المؤسسة الإشكنازية الاعتبارات العملية على الاعتبارات الإيديولوجية أو العقائدية الضيقة. ولعلها تفعل الشيء نفسه مع الفلاشاه مورا.



الباب الرابع عشر

اليهود الروس
والعنصرية الصهيونية



الفصل الأول

إستطلاعات حول اليهود الروس

بدأت موجة الهجرة من الاتحاد السوفياتي سابقاً إلى الكيان الصهيوني عام ١٩٨٩ وحملت معها حتى نهاية العام ١٩٩٩ نحو ٥٣٨٠٠٠ مهاجر يشكلون نحو ١٢٪ من مجمل السكان في الدولة أي نحو ١٥٪ من السكان اليهود.

يتميز المهاجرون الروس بنزعة إثنية روسية عميقة الجذور وبأنماط ومواقف تختزن العقائد والتقاليد والعادات التي أثرت على هذه المجموعة خلال فترة النظام السوفياتي. ولتأكيد هذه الحقيقة نورد فيما يلي نتائج استطلاعات للرأي في صفوف اليهود الروس كانت نتيجتها كالتالي:

أ _ التمسك المتين بالاستمرارية الثقافية _ الحضارية والحفاظ على الأطر الفردية والجماعية والتنظيمية الإثنية.

أجاب ٩١٪ من الذين جرى استجوابهم أنه من المهم أو المهم جداً أن يعرف أولادهم اللغة الروسية. أما فيما يتعلق بمعرفة الثقافة الروسية، فقد بلغت هذه النسبة ٨٨٪ وأيد ٨٠٪ من المُستجوَبين أهمية استمرار المحافظة على الأطر الثقافية الروسية في إسرائيل. كما أكد ٦٦٪ أهمية ضمان وجود الأطر التعليمية غير المنهجية باللغة الروسية، في حين ذكر ٥٧٪ أنه من المهم أو المهم جداً استمرارية إنشاء وإقامة أطر

تعليمية رسمية في اللغة الروسية. وأكد ٧٣٪ من الذين جرى معهم الاستفتاء أنه من المهم أو المهم جداً وجود الأحزاب السياسية التي يقودها مهاجرون من الاتحاد السوفييتي سابقاً.

أما بالنسبة لانتخابات الكنيست الأخيرة (١٩٩٩)، فقد اتضح أن نسبة التصويت لدى المهاجرين الروس، كانت عالية نسبياً، إذ مارس حق الاقتراع حوالي ٨٥٪، حيث صوت ٥٧٪ من بينهم إلى أحزاب روسية: (٤١٪ لصالح حزب "يسرائيل بعليا" بقيادة شيرانسكي، و ١٦٪ لصالح "يسرائيل بيتينو" بقيادة ليبرمان).

أما بالنسبة إلى انتخابات السلطات المحلية، التي جرت في تشرين الثاني ١٩٩٨، فيبرز التصويت على أساس إثني أيضاً بين المهاجرين، إذ يتضح أن ١١٪ فقط من المستطلعين، الذين مارسوا حق الاقتراع، قد منحوا أصواتهم إلى قوائم محلية لم تشمل مرشحين من المهاجرين الروس، بينما أدلى ٤٥٪ بأصواتهم لصالح قوائم المهاجرين الروس، كما صوّت ٤٤٪ لصالح قوائم تضم في صفوفها مرشحين من المهاجرين الروس.

ب ـ تعكس المواقف والأنماط السلوكية لمعظم الذين جرى استجوابهم، صورة عن الازدواجية التي يتميز بها المهاجرون الروس بكل ما يتعلق بسلطة القانون والتشكيك في البيئة الاجتماعية، حيث يُظهر معظم المستطلعين مواقف محافظة متزمتة في ما يتعلق بالقوانين التي تدافع عن حرية الرأي لدى الأفراد. فقد ذكر ٨٤٪ من المستطلعين أنه يجب عدم الدفاع بتاتاً عن حرية الرأي في حالات المساس بأمن الدولة أو رموزها عن طريق تسريب أسرار عسكرية لدولة غريبة، وذكر ٨٣٪ نفس الجواب بالنسبة لاستعمال عبارات من شأنها أن تمس بأمن الدولة وثمة ٧٩٪ غير مستعدين أبداً منح الدفاع القانوني باسم حرية التعبير لكل من يحرق علم الدولة علناً، في حين يُولي ٤٢٪ فقط أهمية لحرية الصحافة دون رقابة حكومية.

مع ذلك، تُظهر نتائج الاستطلاع تسامحاً نسبياً لدى المهاجرين تجاه أنماط سلوكية لا تدخل ضمن إطار القانون في مجال "جرائم أصحاب الياقات البيضاء".

لقد تم التعبير عن هذا التسامح من خلال مقارنة مواقف المهاجرين مع عيّنة متشابهة من الإسرائيليين (غير المهاجرين من اليهود والعرب) فعلى سبيل المثال، ٣٩٪

من المهاجرين غير مستعدين لإعلام السلطات حول ظاهرة الحصول على "الرشوة" مقابل ١٤٪ من الإسرائيليين عامة. وثمة ٦١٪ من بين المهاجرين من الاتحاد السوفييتي سابقاً، غير مستعدين لإعلام السلطات حول ظاهرة "المحسوبية"، مقابل ٣٢٪ من الإسرائيليين عامة.

تبرز رواسب تأثير النظام السوفييتي السابق بما يتعلق بمفهوم الازدواجية تجاه سلطة القانون وحرية التعبير للأفراد من خلال معطيات تشير إلى أن ٨٧٪ من المهاجرين يشعرون بمطلق الحرية للتعبير عما يفكرون به في بيوتهم وبين أفراد العائلة بالمقارنة مع ٣٩٪ من الذين يشعرون بهذه الحرية في مكان العمل، بينما يشعر ٢٩٪ بمثل هذه الحرية في الاجتماعات العامة، و٢٦٪ فقط في مكان العمل وبحضور الموظف المسؤول.

لقد شكل المهاجرون الروس، بالرغم من مرور عشر سنوات على بداية موجة الهجرة من الاتحاد السوفييتي سابقاً، مجموعة اجتماعية متبلورة ذات خصوصيات ثقافية واجتماعية منغلقة خارجياً بالنسبة لعلاقاتها الاجتماعية مع المجموعات الأخرى في المجتمع الإسرائيلي تشير الأغلبية الساحقة من الذين جرت مقابلتهم (٨٤٪)، بأنهم يسكنون في أحياء يشكل فيها المهاجرون الروس ثلث السكان أو أكثر، وذكر ٧١٪ أنه لا يوجد بين أقرب خمسة أصدقاء لهم أي صديق من الإسرائيليين القدامى، بينما أكد ٦٦٪ منهم أن جميع أقرب أصدقائهم الخمسة هم من المهاجرين من الاتحاد السوفييتي سابقاً.

إن اللقاء مع الإسرائيليين القدامى يتم في الأساس في أماكن العمل، حيث يلتقي ٦٠٪ منهم خلال فترات متقاربة أو متقاربة جداً، بينما يلتقي ٥٦٪ من بينهم مع الإسرائيليين القدامى وعلى نفس الوتيرة في أحيائهم السكنية، أما وتيرة اللقاءات الاجتماعية بين المهاجرين والإسرائيليين فهي محدودة، حيث أن نسبة الذين يلتقون مع الإسرائيليين القدامى خلال فترات متقاربة أو متقاربة جداً، ضئيلة للغاية، لا تتعدى ١٩٪ في إطار التعليم و ١٨٪ في الإطار الاجتماعي، أما اللقاء في الإطار العائلي فيصل إلى ١١٪ فقط.

أبدى ٦٥٪ من المهاجرين الذين جرى استطلاعهم رضى قليلاً أو قليلاً جداً من علاقاتهم الاجتماعية مع الإسرائيليين القدامى من ضمنهم عبّر ٣٣٪، عن رضى قليل

جداً، في حين يعتقد ٦١٪ من هؤلاء المهاجرين أن علاقتهم مع الإسرائيليين القدامى تتسم باستغلال الآخرين لهم (٣٤٪ منهم قالوا إنهم راضون إلى حد كبير، و ٢٧٪ قالوا إلى حد كبير جداً).

إن شبكة علاقات المهاجرين الروس الاجتماعية ليست وحدها المحدودة والمقيدة، إذ ان مصادر المعلومات التي يطلعون عليها محدودة أيضاً: ٧٧٪ من المستطلعين يشاهدون بشكل ثابت محطات الكوابل والتلفزة التي تبث برامجها من روسيا، وذلك مقابل ٢٥٪ ممن يشاهدون التلفزيون الإسرائيلي باللغة العبرية بشكل ثابت، كما يستمع ٤٠٪ من المهاجرين الروس وبشكل ثابت لبث راديو "ريكع" باللغة الروسية في إسرائيل، مقابل ٢١٪ منهم يستمعون وبشكل ثابت لمحطات الراديو الإسرائيلية، التي تبث في اللغة العبرية.

ثمة ٦٠٪ من المستجوبين يقرأون بشكل ثابت الصحافة التي تصدر باللغة الروسية مقابل ٩٪ فقط ممن يقرأون الصحافة العبرية في إسرائيل.

الفصل الثاني

سوفيات أكثر من إسرائيليين!

أما في ما يتعلق بأنماط الهوية لدى المهاجرين فيشعر ٧٨٪ إلى حد كبير أو كبير جداً بأن الهوية اليهودية تعبّر عنهم. وثمة ٦٦٪ يُبدون نفس الشعور بالنسبة للهوية الإثنية، أي "يهود من الاتحاد السوفييتي سابقاً"، في حين يشعر ٢١٪ فقط بأن الهوية الصهيونية تعبر عنهم إلى حد كبير أو كبير جداً، بينما أجاب ٤٤٪ نفس الجواب بالنسبة للهوية الإسرائيلية، ليندرج هذا الشعور في إطار الموقف الوسط.

تجدر الإشارة إلى أن الهوية اليهودية لدى الغالبية المطلقة للمهاجرين لا تحمل في ثناياها في معظم الحالات مفهوماً دينياً، إنما هي هوية يهودية علمانية، واضحة المعالم، تتناقض كلياً مع المفاهيم الدينية السائدة في مجالات حياتية أساسية في إسرائيل.

رفض ٧٤٪ من مجمل المستجوَبين أن تكون دولة إسرائيل ذات طابع ديني يهودي، رغم أنها تُعرّف كدولة لليهود. وثمة ٧٨٪ منهم يعتقدون بوجوب إلغاء أو تقليص القوانين الدينية المعمول بها في إسرائيل. تنعكس النزعة العلمانية لدى المهاجرين الروس وبشكل خاص في المواضيع التالية ذات الصلة بعلاقة الدين والدولة. كما تم تعريفها في القانون الإسرائيلي.

يوافق ٩٣٪ من المستجوبين إلى حد أقصى بأن تسمح إسرائيل بالزواج والطلاق المدني.

كما يعتقد ٨٨٪ أنه من حق الإنسان الذي يُعرّف نفسه يهودياً، حتى وإن لم يكن كذلك حسب الشريعة اليهودية (الهلاخا)، بأن يُدفن في مقبرة يهودية. وثمة ٨١٪ من المهاجرين يعتقدون بوجوب السماح بفتح المحلات التجارية أيام السبت، وهناك ٦٩٪ يؤيدون حرية الإتجار الحر بلحم الخنزير.

تجدر الإشارة إلى أن النزعة العلمانية لدى المهاجرين ليست ناتجة عن رؤيا علمانية _ مدنية شاملة ومتسامحة، ترتكز على التعددية، إنما هي محدودة بالأساس للنقاش الداخلي الذي يدور بين الجمهور اليهودي في البلاد بالنسبة لعلاقة الدين والدولة.

تتماشى النزعة العلمانية البارزة لدى المهاجرين مع مواقف سياسية متشددة تجاه مبدأ الأرض مقابل السلام، إذ إن ٢٥٪ منهم فقط على استعداد للتنازل عن هضبة الجولان مقابل السلام الكامل مع سوريا (٨٪ فقط على استعداد لإعادة هضبة الجولان بكاملها، بينما ١٧٪ على استعداد للتنازل عن جزء صغير فقط من هضبة الجولان).

يتبين كذلك أن ٣٧٪ مستعدون لإعادة مناطق مقابل السلام الكامل مع الفلسطينيين، (يبدي ١١٪ فقط استعدادهم لإعادة المناطق الفلسطينية بكاملها أو أجزاء كبيرة منها بينما نجد أن ٢٦٪ على استعداد لإعادة جزء صغير من المناطق مقابل سلام مع الفلسطينيين).

من الجدير بالذكر، ان معارضة معظم المهاجرين البارزة لإعادة مناطق في الضفة وقطاع غزة أو هضبة الجولان، لا تنعكس في أنماط تصويتهم للكنيست، إذ إن ٣٤٪ فقط من بين المصوتين للكنيست أكدوا أنهم منحوا أصواتهم لأحزاب قومية يمينية، (١٦٪ يسرائيل بيتينو، ١٤٪ ليكود، ٣٪ أحزاب دينية و١٪ لأحزاب أخرى)، وقد صوت ٣٩٪ من بينهم لصالح نتنياهو.

الفصل الثالث

راضون من السكن...
يتذمرون من "المعاش"

تشير المعطيات إلى أن هناك رضى كبيراً جداً بين المهاجرين من مسألة استيعابهم في إسرائيل. ٧٩٪ راضين إلى راضين جداً عن استيعابهم (١٠٪ راضين جداً، و ٦٩٪ راضون)، وأجاب ٦٠٪ من المستجوَبين أنهم متأكدون من بقائهم في إسرائيل، من بينهم ١٦٪ متأكدون للغاية، كما يشير ٥٣٪ من بينهم أنهم يشعرون في إسرائيل كما في "البيت" إلا أن ٣٤٪ منهم يشعرون بذلك إلى حد معين.

يُبدي المهاجرون أكبر قدر من الرضى في مجال الإسكان، إذ يعرب ٦٠٪ منهم عن رضاهم الكبير في هذا المجال (١٩٪ رضى كبير جداً، ٤١٪ رضى كبير)، إذ إن ٦٤٪ من المهاجرين وعائلاتهم يحظون بالسكن الدائم، إما من خلال الملكية أو الاستئجار من القطاع العام.

وعلى الرغم من ذلك، يُبدي قطاع كبير من المهاجرين تذمراً شديداً من الضائقة الاقتصادية التي تحيط بهم، وهبوط مكانتهم الاجتماعية _ الاقتصادية نتيجة لهجرتهم، حيث أشار ٦٧٪ من المستطلعين أن دخلهم يكفي بصعوبة لتغطية قسم صغير من احتياجاتهم أو أنه لا يكفي كلياً، (ذكر ٢٤٪ منهم أنه لا يكفي بتاتاً).

يُدرج ٥١٪ من المهاجرين أنفسهم في إسرائيل مع مستوى الطبقة الوسطى المنخفضة، أو مع مستوى الطبقة الدنيا، (٢٤٪ في مستوى الطبقة الدنيا). وفي المقارنة

مع الاتحاد السوفييتي سابقاً، يقول ٦٪ فقط من بين المهاجرين أنهم كانوا ينتمون لهاتين الطبقتين، (٤٪ للطبقة الوسطى _ المنخفضة و ٢٪ للطبقة الدنيا).

تجدر الإشارة إلى أن المكانة الاجتماعية في البلاد، ترتفع مع الأقدمية والتمكن من اللغة العبرية لدى المهاجرين، بينما تنخفض هذه المكانة مع ازدياد أعمار المهاجرين، أي أنه كلما كان المهاجر أصغر عمراً، طالت سنوات إقامته في البلاد وكلما زاد تمكنه من اللغة العبرية، ازداد شعوره بالانتماء إلى طبقة أعلى.

الفصل الرابع

نظرة فوقية.. واستعلاء

اختار المهاجرون الروس موقفهم من المجموعات المختلفة في المجتمع الإسرائيلي من خلال اعتبارات ثقافية، وإثنية وقومية. لذا نجدهم يُدرجون مدى قربهم من هذه المجموعات حسب الترتيب التالي (من الأقرب إلى الأبعد):

اليهود العلمانيون _ الاشكناز؛ السفاراديم وأبناء الطوائف الشرقية، اليهود المتدينون، المهاجرون الاثيوبيون؛ العرب. وعليه تشير المعطيات بأن المهاجرين يشعرون تجاه العرب في إسرائيل بأكبر بعد اجتماعي في شتى المجالات: ٨٪ فقط من المهاجرين مستعدون أو مستعدون جداً بأن يتزوج أولادهم من العرب، ١٨٪ فقط على استعداد لقبول العرب جيراناً لهم، ٢٣٪ فقط يقبلون أن يكون العرب أصدقاء لأولادهم وثمة ٢٩٪ فقط مستعدون أو مستعدون جداً لقبول العرب مسؤولين عنهم في أماكن العمل.

إن نظرة المهاجرين الروس إلى المجتمع الإسرائيلي نظرة فوقية بشكل عام، يقيّم المهاجرون من الاتحاد السوفييتي سابقاً تأثيرهم على المجتمع الإسرائيلي بأنه إيجابي إلى حد بعيد، يفوق كثيراً تأثير المجتمع الإسرائيلي عليهم ويبرز هذا التفوق في المجالات التالية:

يعتبر ٨٨٪ من المهاجرين تأثيرهم في مضمار الحياة الثقافية الإسرائيلية إيجابياً أو إيجابياً جداً. أما في مضمار العلوم والتكنولوجيا فتصل هذه النسبة إلى ٨٦٪ وفي مجال النمو الاقتصادي ٨٦٪، أما في الحياة السياسية فالنسبة ٧٥٪، ويرى المهاجرون تأثيرهم الإيجابي أو الإيجابي جداً حتى في المجال الأمني ٦٤٪.

أما المجال الوحيد الذي يعتقد المهاجرون أن تأثيرهم فيه على المجتمع الإسرائيلي سلبي إلى حد بعيد فينحصر في مجال الإجرام والجنوح، إذ يعتقد ٤٩٪ من المهاجرين، أن تأثيرهم في هذا المجال سلبي أو سلبي جداً على المجتمع الإسرائيلي.

أكد ٢٦٪ من المهاجرين الذين جرى استجوابهم أنهم ليسوا يهوداً حسب الشريعة اليهودية (الهلاخا)، بما في ذلك اليهود المتزوجون من غير اليهود في إطار الزواج المختلط.

كان حجم هذه المجموعة ضئيلاً نسبياً في بداية موجة الهجرة بين العام ١٩٩٠ والعام ١٩٩٤، حيث ذكر ٢٠٪ منهم أنهم من غير اليهود. إلا أن هذه النسبة ارتفعت إلى ٤١٪ خلال السنوات ١٩٩٥ و ,١٩٩٩

اعتمد غير اليهود في دخولهم إلى إسرائيل على صلة القرابة العائلية مع اليهود، كما ينص عليه قانون العودة. إلا أن الصلة بالهوية اليهودية، كما تم التعبير عنها من قبل المهاجرين غير اليهود، الذين تم استجوابهم قوية. حيث تشير النتائج إلى وجود مجموعة لا يستهان بها من غير اليهود، تُبدي التزاماً قوياً بالهوية اليهودية، مع أن الالتزام اليهودي لدى هذه المجموعة أقل بكثير من الالتزام الذي يبديه المهاجرون ذوو الأصل اليهودي حسب (الهلاخا)، إذ يتماثل ٨٩٪ من هؤلاء المستطلعين مع الهوية اليهودية إلى حد كبير أو كبير جداً، مقابل ٥٧٪ لدى غير اليهود. يذكر ٨١٪ من اليهود أنهم لو وُلدوا من جديد لاختاروا أن يُولدوا يهوداً حسب الشريعة اليهودية، مقارنة إلى ٦٥٪ من غير اليهود.

كما تختلف المجموعتان بما يتعلق بتأكيد بقائهم في إسرائيل، وبالنسبة لشعورهم "في البيت" في إسرائيل ورغبتهم في الشعور بأنهم جزء من المجتمع الإسرائيلي، وكذلك الأمر بالنسبة لرضاهم العام من استيعابهم في إسرائيل، إذ إن النسبة في شتى المجالات أعلى بكثير لدى اليهود مقارنة مع غير اليهود.

الفصل الخامس

اليهود الروس
وتفاقم الأزمات الإثنية

تعتبر موجة الهجرة اليهودية الكبرى من روسيا في مطلع التسعينات والتي كونت مع جزء من المهاجرين في السبعينات قطاعاً روسياً ضخماً في كيان العدو بحيث أصبح اليهود الروس بمثابة المجموعة الإثنية الكبرى التي لها أهم التأثير الآن وفي المستقبل على البنية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والإثنية. وفي هذا المجال يرى الكاتب اليهودي الصهيوني آرتر كوستلر في كتابه "القبيلة الثالثة عشرة" ان أصل اليهود الروس يعود إلى رعايا مملكة الخزر الذين تهودوا مع ملكهم بناء على نصيحة اليهودي الأندلسي ميمون بعد أن تلقى رسالة من صديقه ملك الخزر الوثني. والخزريون الذين دامت مملكتهم ثلاثة قرون من القرن التاسع حتى الحادي عشر الميلادي، تعود أصولهم إلى العرق الآري التركي وبعد انهيار إمبراطوريتهم تفرق اليهود الخزريون في دول ما أصبح يعرف بالاتحاد السوفياتي.

ويرى المؤرخ اليهودي يوسيفون في كتابه "كورت يسرائيل" الذي يبحث في أصل الشعوب "إن الخزر هم أحد الأسباط الآرية التركمانية التركية، وهي أسباط ليست إسرائيلية، كما أنها ليست سامية، عاشت في جنوب الاتحاد السوفياتي". عاش اليهود في روسيا كما عاشوا في أوروبا في العصور الوسطى في ظل ما يسمى "المسألة

اليهودية" مثلما وضع نظريتها ابراهام ليون وإسحق دويتش وكارل ماركس. إذ تعرض اليهود للاضطهاد من قبل الشعوب الأوروبية المسيحية خلال قرون عديدة ولأسباب مختلفة، وقد عزيت أسباب هذا الاضطهاد إلى كونهم يهوداً إلا أن ليون ودويتش وماركس في كتابهم "المسألة اليهودية"، اعتبروا أن سبب الاضطهاد يعود إلى اليهود أنفسهم لطبيعة الحياة الاجتماعية والاقتصادية التي مارسوها عبر القرون في مجتمعات لم يندمجوا فيها بل عاشوا في غيتوات طوعية.

لقد عملت الحركة الصهيونية بكل ما لديها من إمكانيات دعائية ومادية وسياسية ضاغطة لتنظيم موجات الهجرة لليهود الروس إلى فلسطين من روسيا ولاحقاً من الاتحاد السوفياتي. وكانت أضخم هذه الهجرات في التسعينات والتي كان أحد أهم أسبابها تفكك الاتحاد السوفياتي.

يقدر عدد المهاجرين الروس إلى إسرائيل بين عامي ١٩٨٩ و ١٩٩٠ بحوالي ٧٠٠ ألف مهاجر إضافة إلى ٢٠٠ ألف قدموا ما بين الأعوام ١٩٧٠ _ ١٩٨٨ ليشكل الجميع نسبة ١٧٪ من عدد سكان إسرائيل.

إلا أن نسبة هذه الهجرة بدأت بالتقلص حسب إحصاءات وزارة الاستيعاب والوكالة اليهودية حيث بلغت نسبة التقلص ١١٪ عام ١٩٩٥ وتشير الإحصاءات إلى توقف الهجرة بشكل كامل من المدن الروسية الكبرى بسبب استقرار الوضع في روسيا والاستيعاب غير الناجح للقادمين الجدد والنشاط غير الفعال للوكالة اليهودية كما يقول وزير الاستيعاب الإسرائيلي السابق يولي ادلشتاين.

أما من أوكرانيا البيضاء فقد ازدادت الهجرة اليهودية إلى إسرائيل العام ١٩٩٦ بنسبة ٥٠٪ بسبب ازدياد سوء الأوضاع الاقتصادية في هذين البلدين.

مع أن هناك إجماعاً إسرائيلياً عاماً على أهمية وحيوية الهجرة بالنسبة لإسرائيل انطلاقاً من الإيديولوجيا الصهيونية وعلى الرغم من استقبال المجتمع الإسرائيلي للقادمين الجدد بحماس في البداية إلا أنه مع ازدياد هؤلاء المهاجرين وما تبع ذلك من مشاكل الاندماج والاستيعاب والمنافسة على المكاسب مع المجموعات الإثنية الأخرى، بدأ الحماس لهذه الهجرة يخفت ومن ثم تحول إلى رفض ثم عدائية. وبدأت تتعالى أصوات من بين الإسرائيليين تدعو إلى وقف هذه الهجرة.

إن اليهود الشرقيين هم الأكثر عدائية في مواقفهم إزاء الهجرة والقادمين الجدد

كونهم يشعرون ان المساعدات والمعونات الحكومية التي يحصل عليها هؤلاء المهاجرون ستكون على حساب تحسين أوضاعهم الاقتصادية الضعيفة أصلاً.

ومن هنا يبدأ التناقض والصراع إضافة إلى الاختلاف الإثني والثقافي لهذه المجموعات المختلفة. وقد بدأت هذه المجموعات تشعر أن القادمين الجدد سيصبحون قوة سياسية واجتماعية تنافسهم على مصادر الدولة وعلى اتخاذ القرارات المصيرية فيها[1]. ومما أدى إلى زيادة حدة هذا الصراع أن ٦٥٪ من هؤلاء المهاجرين الروس ليسوا يهوداً. وبرغم المحاولات المتكررة لغض النظر عن يهودية المقبلين من الاتحاد السوفياتي السابق فإن وزير الداخلية إيلي بشاي (من حزب شاس) قرر إقامة دائرة لمعالجة طلبات المهاجرين الآتين من دول الاتحاد السوفياتي السابق وجاء في القرار المذكور عقب قرار أصدرته الداخلية الإسرائيلية يقضي بتشديد معايير الحصول على تأشيرات هجرة من دول رابطة الدول المستقلة إلى إسرائيل بهدف الحيلولة دون هجرة غير اليهود.

وقد كان للمهاجرين القادمين من رابطة الشعوب المستقلة خلال العقد الأخير من القرن الماضي مميزات عديدة لجهة نوعيتهم ومؤهلاتهم الأكاديمية مقارنة بالقادمين الجدد والآخرين القادمين دول أخرى ولا سيما يهود الفلاشا الذين قدموا من اثيوبيا ويبلغ عددهم حالياً في إسرائيل نحو ٢٣ ألف نسمة.

كما وأنه بالرغم من تمكن اليهود الروس في فترة وجيزة من الزمن من تشكيل عدد من الأحزاب من أهمها: حزب يسرائيل بعالياه (إسرائيل في الهجرة) بزعامة نتان ترانسكي الذي قام بدور أساسي في الساحة الحزبية السياسية الإسرائيلية. إلا أن المشكلات التي رافقت ولا تزال ـ عملية استيعاب اليهود الروس تضع علامات استفهام حول مستقبلهم فعلى صعيد استطلاعات الرأي أفاد استطلاع للرأي أجراه مركز داحاف في أوائل شهر آذار ٢٠٠١ شاركت فيه مجموعة من المهاجرات من الاتحاد السوفياتي السابق تتكون من ٥٠٣ مهاجرات تزيد أعمارهن عن ١٨ سنة أفاد بما يلي: ٢٧٪ منهن يشعرن بأن الإسرائيليين القدامى يتعاملون معهن وكأنهن زانيات أو نساء رخيصات و ٣٦٪ منهن يشعرن بأن الإسرائيليين ينظرون إليهن وكأنهن أجنبيات و ٤٣٪

(١) نداء الوطن ١٢/٣/١٩٩٨، عدنان عقلة.

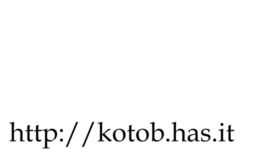
منهن تعرضن للتمييز السلبي لأنهن مهاجرات جدد و ٢٦٪ منهن يعتقدن بأن استيعابهن غير جيد و ٣٩٪ منهن يشعرن بأن وسائل الإعلام باللغة العبرية، تقدم الإسرائيليات القدامى بصورة إيجابية أكثر من صورة المهاجرات الجدد و ١٣٪ منهن تعرضن لملاحقة جنسية في مكان العمل و ٧١٪ منهن يعتقدن بأنهن يتميزن عن الإسرائيليات القدامى بمزايا ثقافية و ٥٠٪ منهن يشعرن بأنه لديهن ميزة أخلاقية.

وجاء في بحث أعده البروفسور اليعزر نشم من الجامعة العبرية والبروفسور ماجد الحاج من جامعة حيفا لصالح مركز التعددية الثقافية والدراسات التربوية في جامعة حيفا ان المواقف والأنماط السلوكية للمهاجرين الروس نحو إسرائيل تثبت أنهم مجموعة عرقية مترابطة ومنغلقة وهوية متبلورة داخل الهوية الإسرائيلية وتنظر للمجتمع الإسرائيلي نظرة استعلائية وتتعامل مع العرب بأكثر من الازدراء والاستهتار.

وكشف هذا البحث عن أن الروس يتميزون بنزعة عرقية روسية عميقة الجذور وبأنماط ومواقف تختزن العقائد والعادات والتقاليد التي أثرت على المجموعة خلال العهد السوفياتي فهم متمسكون بالاستمرارية الثقافية والحضارية، والحفاظ على الأطر الفردية والجماعية والتنظيمية العرقية (الإثنية) وذلك بناء على المعطيات التالية التي أبرزها البحث: إن ٩١٪ منهم يعتبرون تعليم أولادهم اللغة الروسية أمراً مهماً جداً و ٨٨٪ منهم يعتبرون الثقافة الروسية مهمة و ٧٣٪ يعتبرون وجود أحزاب سياسية يقودها مهاجرون من الاتحاد السوفياتي السابق أمراً مهماً جداً و ٨٥٪ منهم شاركوا في انتخابات ١٩٩٩ وصوت ٥٧٪ من هؤلاء لصالح أحزاب روسية و ٤١٪ لصالح حزب يسرائيل بعالياه بشكل خاص و ١٦٪ صوتوا لصالح إسرائيل بيتنا وفي انتخابات السلطة المحلية عام ١٩٩٨ صوت ٤٥٪ منهم لصالح قوائم روسية و ٤٤٪ لصالح قوائم تضم مرشحين روساً كما أن ٨٤٪ منهم يعترضون على الدفاع عن حرية الرأي إذا كانت تمس أمن الدولة و ٣٩٪ غير مستعدين لإعلام السلطات بعمليات الرشوة و ٦١٪ غير مستعدين لإعلام السلطات بظاهرة المحسوبية و ٨٤٪ يسكنون في أحياء يشكل فيها المهاجرون الروس أكثر من الثلث. ٦٠٪ منهم يقرأون بشكل ثابت الصحافة التي تصدر بالروسية و ٧٤٪ منهم رفضوا أن تكون إسرائيل دولة ذات طابع ديني يهودي و ٢٥٪ منهم يؤيدون الانسحاب من الجولان مقابل السلام الكامل مع سوريا و ١٧٪ منهم مع انسحاب جزئي من الجولان و ٣٧٪ منهم على استعداد للانسحاب من مناطق مقابل

السلام الكامل مع الفلسطينيين و ١١٪ مع الانسحاب الكامل أو أجزاء كبيرة و ٢٦٪ مع انسحاب جزئي من الضفة الغربية وقطاع غزة.

ووفق المؤشرات المرتبطة بالأوضاع العامة لليهود الروس في إسرائيل فإن مستقبل هؤلاء يتجه نحو تبلور غيتو روسي داخل الغيتو الإسرائيلي الكبير الأمر الذي يزيد من حدة حرب الثقافات والإثنيات داخل الكيان وبالتالي فإن دور المهاجرين الروس داخل المؤسسات السياسية في إسرائيل من أحزاب وحكومة وكنيست قابل للتعاظم في المستقبل المنظور.


http://kotob.has.it

الفصل السادس

نظرة المجتمع الإسرائيلي للوافدين الروس

تنعكس نظرة المجتمع الإسرائيلي المحلي للقادمين الجدد من خلال ما تنشره الصحف العبرية عنهم والتي تشكل رأياً نلخصه في ما يلي:

١ - إن غالبية هؤلاء المهاجرين قدموا إلى إسرائيل ليس عن قناعة بالفكر الصهيوني بل نتيجة الأوضاع الاقتصادية المتردية التي تعاني منها البلدان التي أتوا منها. وإنهم يحاولون تحسين أوضاعهم على حساب إسرائيل وشعبها.

٢ - إن هذا الروسي القادم إلى إسرائيل يضرب أطفاله بوحشية ويميل إلى الانتقام الدموي ويتطفل على المجتمع الإسرائيلي المزدهر غارساً فيه الدعارة والإدمان على المخدرات والكحول والجريمة المنظمة.

٣ - تسلل المافيا من خلالهم إلى الكيان الصهيوني وبالتالي تحاول هذه المافيا دفع رجالها إلى المشاركة في الانتخابات والوصول إلى الهيئات العليا في أجهزة الدولة ومحاولة شراء بعض الأحزاب السياسية.

٤ - تسلل المخابرات الروسية من خلالهم للحصول على معلومات عن القاعدة الحربية والتكنولوجيا العسكرية الإسرائيلية.

٥ - افتقارهم إلى الشعور الوطني واحتفاظهم بالنزعة الروسية.

وبخصوص هذا الموضوع كتب د. فيكتور بولسكي من حزب الطريق الثالث والسكرتير الأول السابق في سفارة إسرائيل في روسيا البيضاء مقالة في جريدة أخبار الأسبوع الناطقة بالروسية جاء فيها: "إن وجود هذا العدد الكبير من غير اليهود (هناك تقديرات تقول أن نسبة ٢٥ - ٣٥٪ من مجموع القادمين الجدد هم من غير اليهود) واليهود ذوي النزعة الروسية بحد ذاته يؤثر سلباً على حياة المجتمع الإسرائيلي من الناحية الاجتماعية، حيث يطالبون بتوسيع المخازن التي تبيع الأغذية على غير طريقة الكاشير اليهودية وإنشاء مقابر غير يهودية والاعتراف بالزواج المدني والمرونة في طقوس الدخول في الديانة اليهودية وغير ذلك من الأمور التي يرفضها المجتمع اليهودي وخاصة المتدينين فيه. ومن الناحية السياسية وهي الأكثر أهمية أنه اعتماداً على أصواتهم انتخب إلى الكنيست أناس معارضون لا يزالون محتفظون بنزعة روسية غير يهودية. ويدعون بأنهم سيعيدون بناء إسرائيل من خلال تغيير الأولويات. وقد كتب غاي لئور رئيس تحرير صحيفة يديعوت أحرونوت في هذا المجال ان "الجريمة والدعارة والجاسوسية هي مميزات القادمين الجدد، ومن خمس عشرة مجموعة إجرامية في البلاد، هناك أربع عشرة روسية".

ويقول الحاخام باروخ سلمون في إحدى عظاته الدينية: "لماذا جلبنا المهاجرين من روسيا؟ أمن أجل أن يشتروا لحم الخنزير".

الفصل السابع

نظرة المهاجرين الروس لإسرائيل

المهاجرون الروس يرون أن إسرائيل اليهودية تتشكل من عدة قوميات وقبل قيام الدولة كان اليهود ينتمون إلى قوميات مختلفة ويعيشون في دول مختلفة ووسط ظروف ثقافية مختلفة وقد كانت لغاتهم متعددة فهي إما عربية أو إسبانية أو روسية أو ألمانية أو إنكليزية، أما اللغة العبرية التي فقدت نفسها في خضم عواصف الحضارات فقد أصبحت لغة الدولة الرسمية بعد أن تم تحديثها في نهاية القرن التاسع عشر. ومع ذلك فإن هذه اللغة، لا تعكس نمطاً محدداً أو طبيعة سلوكية أو ثقافية موحدة. وفي الباحث الروسي فيكتوروف "إن الدين، على الرغم من جميع المزاعم حول تأثيراته على الوجود الروحي للإنسان فإنه لا يشكل عاملاً أساسياً لتحديد الانتماء القومي".

فالروس في إسرائيل هم روس من حيث نظام حياتهم وطباعهم وعاداتهم الثقافية وحتى من حيث مظهرهم الخارجي وسلوكهم العام.

واليهود المغاربة يشكلون قومية خاصة، فصفاتهم الأخلاقية تختلف كلياً عن صفات اليهود الذين قدموا من أوروبا. فقضية الوزير آرييه درعي من اليهود المغاربة من وجهة نظر الأخلاقيات الأوروبية تعتبر قضية نصب واحتيال وفضيحة أخلاقية بينما تعتبر أمراً طبيعياً يمثل حسب مفهوم القادمين من المغرب "حق الأقوى".

ويعبر المهاجرون الروس عن ندمهم لقدومهم إلى إسرائيل التي لم يجدوا الوضع

فيها أفضل منه في روسيا ولأنهم يتعرضون للاضطهاد والتمييز العنصري والشتائم في الصحف ووسائل الإعلام كما يعبرون عن شكواهم من أنهم خسروا أموالهم عندما حولوها إلى إسرائيل بواسطة النصابين واللصوص المعروفين من قبل الدولة والذين يتمتعون بحمايتها. ويرون أنفسهم أرقى عقلياً وأكاديمياً من بقية الإسرائيليين يقع على عاتقهم النهوض بالبلاد، بينما يهود أميركا وأوستراليا يرفضون الهجرة إلى الكيان الصهيوني ويهود أوروبا يأتون فقط من أجل زيارة أقاربهم[١].

(١) نداء الوطن ١٢/٣/١٩٩٨.

الفصل الثامن

مشاكل
استيعاب المهاجرين الروس

يمكن تلخيص المشكلات التي تواجه استيعاب اليهود الروس داخل إسرائيل بما يلي:

أولاً - تأمين فرص العمل:

أ - هناك صعوبة كبيرة في تأمين فرص عمل لما يقرب من ٤٠٠ ألف قادر على العمل خاصة مع سوق العمل المحدودة في إسرائيل ووجود عشرات الألوف من العمال الأجانب.

ب - العمال الأجانب: نسبة الذين يعملون في تخصصاتهم من هؤلاء لا تزيد عن ٣٣٪ وهذا بدوره يؤدي إلى الاستياء والإحباط خاصة في صفوف النخب المهيمنة والأكاديمية إذ تبلغ نسبة الأكاديميين بين القادمين الجدد ٨٢٪. ومن الواضح أن الاقتصاد الإسرائيلي ليس بحاجة إلى هذا العدد الهائل من الأطباء والمعلمين والعلماء والمهندسين والاقتصاديين. فعلى سبيل المثال هناك ١٤ ألف طبيب و ١١ ألف مهندس وما لا يقل عن ١٢ ألف عالم فني يحصل غالبيتهم على عمل ثابت لكن ليس ضمن تخصصاتهم فكثير من الأطباء يعملون كممرضين والعناية بالمعوقين ودور العجزة، وكثير من العمال المهرة الفنيين يعملون في تنظيف الشوارع وحمامات المؤسسات الحكومية. ونتيجة للإحباط في أوساط الأطباء الذين لم يحصلوا على إجازة عمل قام بعضهم

بالانتحار وعددهم ١٢ طبيباً.

ج - الفروع التي استوعبت قسماً من العمال هي فروع النقل المخصصة لبيع المواد الاستهلاكية وفروع الخدمات المختلفة وشركات البناء والبنوك والصناعة والزراعة.

ثانياً - البطالة:

تشكل نسبة البطالة بين القادمين الروس ٦٦٪ من عدد العاطلين عن العمل في إسرائيل مع أن عدد المهاجرين الروس لا يتعدى ١٧٪ من سكان إسرائيل.

ثالثاً - التمييز:

التمييز الواضح بينهم وبين الإسرائيليين المحليين من حيث الرواتب والضمانات الاجتماعية وظروف العمل. وتجري طرد العديد من العمال الروس من قبل المؤسسات الإسرائيلية بحجة أنهم يسيئون إلى سمعة هذه المؤسسات وهناك بعض المؤسسات التي لا تقبل الروس في العمل لديها أصلاً.

رابعاً - عائق اللغة:

وجود عائق اللغة أمامهم لأن غالبيتهم لا يتكلمون اللغة العبرية كلياً أو جزئياً خاصة في أوساط الراشدين والمتقدمين في السن.

خامساً - السكن:

فعلى الرغم من أن المصادر الحكومية تشير إلى أن حركة الاستيعاب لهؤلاء المهاجرين تسير بشكل موفق وأن غالبيتهم قد حصلت على سكن دائم فإنه لا يزال هناك الكثير من العائلات تسكن في الكرافانات والبيوت المشتركة. ولا تزال مشكلة السكن بارزة بشكل كبير بالنسبة للفئات الضعيفة وكبار السن والمتقاعدين والأمهات الوحيدات. وتسعى الحكومة لحل هذه المشكلة على حساب المناطق العربية داخل الخط الأخضر. فيجري إسكان قسم منهم في مناطق الجليل وحيفا ومناطق الشمال والجنوب بهدف تغيير الوضع الديموغرافي هناك حيث الأكثرية عربية. وأيضاً على حساب

الأراضي الفلسطينية والسورية من خلال إسكان عدد كبير منهم في مستوطنات الضفة وغزة والجولان وتبلغ نسبتهم في هذه المستوطنات ٣٠٪ من مجموع المستوطنين.

سادساً - الاستيعاب:

مشكلة استيعاب عشرات الألوف من القادمين الجدد من غير اليهود، فهؤلاء يشكلون عبءاً إضافياً على الخدمات الاجتماعية الإسرائيلية.

عزلة المهاجرين الروس عن المجتمع الإسرائيلي

١ - إن نسبة ٩٠٪ من الأشخاص الراشدين القادمين الجدد يتواصلون في ما بينهم حتى الآن باللغة الروسية فهناك نحو ١٣٠ ألفاً ممن هاجروا بين الأعوام ١٩٤٥ - ١٩٦٣ وتقريباً العدد نفسه ممن هاجروا من العام ١٩٦٤ وما فوق لا يتكلمون العبرية على الإطلاق. ومن المستبعد أن يتعلموها مستقبلاً مما يعني عزلة لغوية يتبعها اغتراب عن المجتمع. ويعمل الكثير منهم وعلى مدى سنوات عديدة في محيط روسي في إسرائيل لذلك يتم الاتصال والحديث بينهم باللغة الروسية كما أن اكتساب اللغة العبرية يجري بشكل جداً لذلك يبقى الاتجاه الثقافي لغالبيتهم كما كان عليه سابقاً من قراءة للكتاب الروس المفضلين لديهم والاستمرار بمتابعة الأفلام الروسية ومشاهدة البرامج التلفزيونية الروسية أو قنوات خاصة بهم ناطقة باللغة الروسية.

٢ - عدم حل المشاكل الاقتصادية لا يساعدهم على إيجاد وضع اجتماعي مألوف لهم لأن وجود الراحة النفسية هو الوجه الآخر للراحة المادية.

٣ - عدم قدرتهم على الانصهار في مجتمع لا يملك ثقافة موحدة متجانسة ولا تتحد فيه الأحوال والعادات والتقاليد ونمط التفكير. وقد بلور القادمون الجدد الروس ثقافة خاصة بهم تمثلت في إصدار حوالي خمسين صحيفة دورية باللغة الروسية منها جريدة "الأخبار" الأوسع انتشاراً بينهم وجريدة "أخبار الأسبوع" و"بلدنا" و"٢٤ ساعة" و"الصدى" وسواها.

٤ - إن خيبة أملهم في الأحزاب الإسرائيلية الكبيرة في المساعدة على استيعابهم بشكل مرض وتأمين الحياة الأفضل جعلهم يتكتلون في اتحادات مهنية واجتماعية خاصة بهم مثل اتحاد العلماء الروس واتحاد الكتاب الروس الإسرائيلي واتحاد المتقاعدين.

كما بدأوا بتشكيل أحزاب خاصة بهم أبرزها حزب "إسرائيل في الهجرة" الذي يقوده اناتولي شرانسكي والذي نال ٧ مقاعد في الكنيست ودخل الائتلاف الحكومي بوزيرين. ويضع هذا في برنامجه قضية الدفاع عن مصالح المهاجرين الروس وتحسين أوضاعهم السياسية والمادية.

خلاصة

١ - إن اليهود الروس يسعون إلى التكيف مع المجتمع الإسرائيلي وليس الاندماج فيه.

٢ - على الرغم من شعورهم أنهم في مرتبة أدنى اقتصادياً إلا أنهم يعتبرون أنفسهم في مرتبة أعلى من الناحية الثقافية الأكاديمية ويسعون إلى نشر هذه الثقافة والتأثير من خلالها على المجتمع الإسرائيلي.

٣ - يعتبر اليهود الروس أنه بقدومهم إلى إسرائيل يقدمون لها خدمة كبيرة من حيث تغيير الوضع الديموغرافي فيها وأنهم بثروتهم الفكرية والمهنية العالية سيساعدون على تطوير الوضع الاقتصادي والثقافي والمهني.

٤ - يتطلع اليهود الروس إلى إقامة علاقات وثيقة مع روسيا والمحافظة على اللغة الروسية والخلفية الثقافية الروسية التي نشأوا عليها. ولا يزال الكثير منهم حوالي ٤٠ ألفاً يحتفظون بالجنسية المزدوجة. ولا شك أن هناك تناقضات موضوعية بين الإثنيات اليهودية المختلفة غير الروسية يمكن أن تزداد من خلال اشتداد الصراع العربي الإسرائيلي سواء داخل الأراضي المحتلة أم خارجها. وكلما تكبد العدو خسائر أكبر ازدادت التناقضات داخل صفوفه(١).

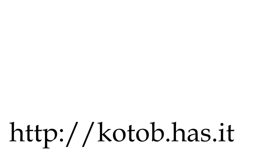
ففي المجال الاقتصادي يرى محللون اقتصاديون إسرائيليون أن الوضع القائم لا يساعد كثيراً على استيعاب الأعداد الكبيرة من اليهود السوفيات من دون توسيع البنية الاقتصادية أولاً. ولذلك فإن استيعاب المهاجرين الروس يمكن أن تكون له نتائج سلبية عديدة منها: تزايد الديون الداخلية والخارجية - العجز الحكومي والتجاري - زيادة البطالة - تدني مستوى المعيشة - عودة التضخم بسرعة كبيرة وتزايد الفجوات

(١) المصدر السابق.

الاجتماعية بين شرائح المجتمع وتدني الأجور وزيادة غلاء المعيشة وتفاقم مشكلة العمل والتشغيل والضغط على المخصصات الاجتماعية في ميزانية الدولة، وتباطؤ النمو الاقتصادي وانخفاض مستوى الدخل القومي وزيادة التوترات الاجتماعية بفعل الفروقات الاجتماعية والاقتصادية ما بين الاشكناز والسفارديم.

هذه السلبيات لم تمنع حكومة العدو من الاهتمام بالهجرة بل اعتبرت أن عمليات الاستيعاب ضمن ظروف قاسية لفترة من الوقت يمكن تحملها في سبيل ربط المهاجرين بالكيان الغاصب ويمكن التضحية بنسب معينة من عمليات الارتداد والنزوح والتساقط ليبقى الأهم وهو استمرار سيل الهجرة بالتدفق إلى فلسطين المحتلة.

لذلك تحملت الحكومة الصهيونية جميع السلبيات الاقتصادية الناتجة عن الهجرة وسعت إلى ترقيع الأمور وتمرير الوقت حتى يصل اليهود إلى فلسطين وبعدها تتم المعالجة وفق الأولويات في استقطاب الطاقات المطلوبة واستيعابها أولاً.



الفصل التاسع

الحلول الإسرائيلية لتفعيل الاستيعاب

نظراً للآثار السلبية التي يعاني منها الكيان الغاصب من جراء عدم القدرة على استيعاب الموجات الحديثة من مهاجري الاتحاد السوفياتي (السابق) اضطرت الحكومة اليهودية إلى اتخاذ إجراءات عاجلة على مستويين: أ - مرحلي؛ ب - بعيد المدى.

- على الصعيد المرحلي سعت حكومة العدو إلى فتح مراكز استيعاب في قواعد الجيش وتم اختيار مستوطنة لإسكان الأفواج الأول من المهاجرين وتوجيه المهاجرين إلى المستوطنات الحالية في الضفة الغربية وغزة.

- رفع احتياط موازنة الاستيعاب إلى ٢,٢٥٠ مليار شيكل على مدى ٣ سنوات.

- تفعيل الجباية من قبل المنظمات اليهودية في الخارج والداخل مثل: الوكالة اليهودية - الجباية الموحدة - المنظمات الصهيونية العالمية - تأمين القروض الخارجية من أميركا وفق المصلحة الإسرائيلية لإسكان المهاجرين - بيع بعض المرافق الحكومية مثل المصارف أو الشركات الحكومية لتأمين المال اللازم للمهاجرين.

- خفض موازنة بعض الوزارات الأخرى وإقامة صندوق لاستيعاب القادمين الجدد.

الإجراءات البعيدة المدى:

-تخصيص عقارات ضخمة لبناء وحدات سكنية.

-توسيع مدن التطوير في الجنوب والشمال.

-تسريع حركة الاستيطان في المناطق التي يسكنها الفلسطينيون في الجليل لتعديل الميزان الديموغرافي في تلك المنطقة.

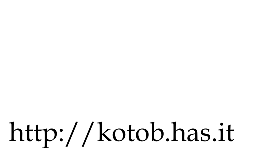
-التخطيط لتوسيع القاعدة الصناعية واستصلاح المزيد من الأراضي لأغراض الزراعة بغية زيادة فرص العمل للقادمين الجدد.

-التحضير لمزيد من التقديمات الاجتماعية من صحية وتعليمية من أجل ضمان راحة المهاجرين وربطهم بدورة الحياة الطبيعية.

-العمل على تخفيض البطالة وخفض الأسعار ورفع معدلات الأجور ومستوى المعيشة لتأمين مستوى يناسب طبيعة واحتياجات اليهود السوفيات باعتبارهم من طائفة الاشكناز المفضلة لدى قادة الكيان الغاصب.

الباب الخامس عشر

اليهود الشرقيون


http://kotob.has.it

الفصل الأول

اليهود الشرقيون
وانقلاب الموازين الإثنية

مما يدعو إلى السخرية أن سياسة حزب العمل الخاصة بجلب المهاجرين من الشرق الأوسط وشمالي إفريقيا إلى الكيان الصهيوني في الخمسينات وأوائل الستينات، هي التي أنتجت التغييرات الإثنية والسياسية في المجتمع الإسرائيلي. ونتيجة لهذه الهجرة تحول الكيان من كونه مجتمعاً أوروبياً بصورة غالبة إلى مجتمع شرقي في غالبيته. إن ٦٠٪ من الإسرائيليين حالياً ينحدرون من أصل شرقي (عرب، إيرانيون، أتراك، أكراد، هنود). وقد جاء ما يزيد عن نصف هؤلاء من البلدان العربية في شمالي إفريقيا وجاء ثلاثة أخماس اليهود الآسيويين من العراق واليمن. ويدعى هؤلاء اليهود الشرقيون خطأ بالسفارادیم، إذ احتفظ السفاراديم الحقيقيون خلفاء الجالية اليهودية الإسبانية المشتتة بممارساتهم الدينية المتميزة واستوطنوا جنوبي أوروبا وتركيا. وقد نجم الخلط بين المجموعتين من جراء أن اليهود الشرقيين يتبعون شعائر دينية مشابهة كثيراً لشعائر السفاراديم ويخضعون لولاية حاخامية السفاراديم في إسرائيل.

وكان اليهود الشرقيون الذين هاجروا إلى إسرائيل محافظين في غالبيتهم، وغير متعلمين، ومتمسكين بتعاليم دينهم، ودخلوا إلى "بلدهم" الجديد عند قاع السلم الاقتصادي والاجتماعي. وصوتوا لصالح العماليين لمدة جيل كامل، إعراباً عن الامتنان.

لكن العماليين خذلوهم. فقد عوملوا كمواطنين من الدرجة الثانية، إذ كانوا يبقون في مراكز إعادة التوطين فترة أطول من المهاجرين الأوروبيين، ويرسلون عموماً إلى مناطق الحدود الخطرة ومناطق التطوير، وتخصص لهم وظائف العمال الزراعيين وعمال التشييد والخدمات البلدية، وهي أعمال شغلها الفلسطينيون بعد احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة في عام ١٩٦٧ ودفعوا اليهود الشرقيين إلى درجة أعلى في السلم. كما شعر اليهود الشرقيون بالاغتراب من جراء العلمانية الحادة للعماليين (قادة حزب العمل)، فانتقلوا إلى حزب حيروت التصحيحي (أو تحالف الليكود بقيادة حيروت) وليس إلى الأحزاب الدينية، لأن هذه الأخيرة كان يسيطر عليها الحاخامات الاشكنازيون الأوروبيون. وقبل انتخابات عام ١٩٨٤ شكل الحاخامات الشرقيون حزبهم الديني وحراس التوارة السفاراديم (شاس) الذي حظي في الانتخابات الأخيرة على ١٧ مقعداً في الكنيست من أصل ١٢٠. وإلى حد ما كانت الإيديولوجيا التصحيحية بديلاً عن المذهبية الأضيق مدى إلى حد كبير والتي نادت بها الأحزاب الدينية: فقد قال يهوشفاط هركابي رئيس الاستخبارات العسكرية والجنرال السابق أنه على الرغم من حقيقة أن جابوتنسكي "لم يكن يعرف شيئاً عن اليهودية" فقد بقي "مؤمناً... بشعور ما بأن هناك نوعاً من الدعم الملهم لليهود"(١).

وقد استطاع اليهود الشرقيون أن يجدوا في الحركة التصحيحية المسيحانية بدون أرثوذكسية دينية. كذلك توحدوا شخصياً مع مناحيم بيغن الذي ظل لفترة طويلة الخاسر المعمّر في إسرائيل، وشعروا بأنهم على راحتهم مع ممارساته وقواعده الدينية السهلة الخاصة بالعادات اليهودية التقليدية كما كان لديماغوجية بيغن المفرطة البساطة جاذبية قوية بين اليهود الشرقيين، بالإضافة إلى أن حزب حيروت الذي يرأسه، خاصة حركة الشباب "بيتار" التابعة له (ولها فريق كرة قدم شعبي جداً) جند الشرقيين ورقاهم في مناصبه على حد سواء.

وتبين نتائج الانتخابات المتتالية كيف أن تصويت الشرقيين أخذ يتحول بصورة مطردة بعيداً عن حزب العمل حتى انتخابات عام ١٩٧٧ عندما حصل الليكود على ٥١٪ من الأصوات. واستمر هذا الاتجاه. ففي عام ١٩٨١ ذهب ما يقرب من ٥٣٪ إلى كتلة

(١) التنافر في صهيون ــ مايكل جاكسون، ص ٤١ وما بعدها.

الليكود هتحياه وفي عام ١٩٨٤ حصلت على ٥٥٪ بالإضافة إلى ٢/٥٪ صوتوا لحزب كاخ المتطرف العنصري التابع للحاخام المقبور مئير كاهانا. وفي تلك الفترة انخفض نصيب حزب العمل من أصوات الشرقيين من ٢٥٪ في عام ١٩٧٧ إلى ٢٢/٥٪ عام ١٩٨١ و ٢٣٪ في عام ١٩٨٤ بالإضافة إلى أصوات حليف حزب العمل فيما بعد الانتخابات وهو حزب أحاد الذي شكله عيزر وايزمان وزير دفاع الليكود سابقاً. وإجمالاً فإن ٧٠ – ٧٥٪ من مؤيدي حزب ليكود و ٢٥ – ٣٠٪ من مؤيدي حزب العمل هم من اليهود الشرقيين. ويزيد عدد السكان الشرقيين بمعدل أسرع من الأوروبيين.

وبسبب هذا التغيير الإثني فإن دولة اليهود لم تقم باعتبارها عينة ديموغرافية تمثل اليهودية العالمية بصورة صحيحة: فالمليونان من اليهود الشرقيين الذين يمثلون فقط سدس أو سبع يهود العالم فقط مركزون جميعهم تقريباً في إسرائيل. وهذا النمط الديموغرافي اللامتوازن لم يغير فقط التوازن السياسي بين أحزاب إسرائيل ومدارسها الإيديولوجية بل غيّر أيضاً، وهو الأمر الأكثر أهمية الطابع السياسي للدولة. ووفق رأي دافيد لنداو، المراسل الدبلوماسي لجروزاليم بوست، لو كانت إسرائيل عينة ممثلة للشعب اليهودي، لاستمرت القيم الديمقراطية والتعددية الدينية ولو كانت الليبرالية واحترام آراء الآخرين سائدة فيها لكانت الهجرة الشرقية غيرت القيم السياسية والاجتماعية للمجتمع.

إن غالبية الشباب الإسرائيلي في سن ١٨ – ٢٢ سنة لم يعودوا يساريين رواداً في آرائهم بل أصبحوا على نحو متزايد في الجناح اليميني. وحسب رأي يورام بيري، عالم الاجتماع والمؤرخ العسكري الإسرائيلي البارز، فإن "كل جيل يهودي يولد في إسرائيل الكبرى يصبح جنوب إفريقي أكثر فأكثر في مواقفه". وإذ يذكر بيري استطلاعاً للرأي أجري خلال صيف ١٩٨٤ فإنه يقول إن آراء العامة اليهود في ما يتعلق بالسكان الفلسطينيين في الأراضي المحتلة "ينبغي أن تزعج كل إنسان بقيت لديه مشاعر إنسانية". فقد قال ١٥٪ أنه يجب طرد الفلسطينيين وقال ٤٣,٥٪ أنه ينبغي السماح لهم بالبقاء لكن من دون أي حقوق مدنية وسياسية وقال ١٥٪ أنه ينبغي أن تكون لهم حقوق على قدم المساواة وقال ٢٦٪ أنه ينبغي أن يكون لهم حق تقرير المصير. وقدر الاستفتاء أن ٦٠٪ من سكان المدن يحبذون حلاً لمشكلة الأقلية الفلسطينية يتضمن الطرد أو

الفصل العنصري (الأبارتهايد). وكان واحد فقط من كل عشرة راشدين يحبذون الطرد في حين كان ثلاثة من كل أربعة في المجموعة العمرية ١٨ – ٢٢ سنة يؤيدون هذا الحل. وقالت معلمة في مدرسة ثانوية دينية في القدس ان تلاميذها البالغين عن العمر ١٧ عاماً منقسمون بين يسار هتحياه (الفرع اليميني من الحزب التصحيحي حيروت) ويمين حركة كاخ العنصرية.

وتتكون الهجرة الحالية أساساً من اليهود المحافظين المتمسكين بتقاليد دينهم من الولايات المتحدة وروسيا وغربي أوروبا وأميركا اللاتينية وجميعهم من أنصار الأحزاب الدينية والقومية المتطرفة المنتمية للجناح اليميني.

الجدير بالذكر أنه خلال السنوات السبع الأولى لحكم الليكود اتسعت الفجوة بين المعسكرين الديني والعلماني بسبب الأزمة الاقتصادية التي نجمت عن الإنفاق العام والخاص غير المقيد. وقد استطاع الميسورون استيعاب قدر كبير من الصدمة التضخمية، لكن الفقراء لم يستطيعوا ذلك وازداد وضعهم سوءاً جراء التخفيض الشديد في الخدمات العامة مثل الصحة والتعليم والرفاهية. وفاقم القمع في الأراضي المحتلة، والحرب في لبنان الخلافات السياسية بين المعسكرين دافعاً أنصارهما نحو قطبيهما الروحاني والمسيحاني. والواقع أن المسيحانيين المتشددين هم الذين كانوا يحددون سياسة الحكومة.

وقد وصف ميرون بنفنستي نائب عمدة القدس السابق هذين المعسكرين باعتبارهما "حضارتين سياسيتين". إحداهما معتدلة وليبرالية وتدعو لحل وسط فيما يتعلق بالأراضي المحتلة عام ١٩٦٧ وتجميد الاستيطان وتتحاشى الادعاءات الدينية والتاريخية المتطرفة وتركز على الدمار المعنوي الطويل الأجل الذي يلحق بإسرائيل من جراء سيطرتها على نحو مليونين فلسطيني في الأراضي المحتلة. والأخرى يعتقد أنها متطرفة وأصولية لأنها تدعو للضم الكامل للضفة الغربية وغزة ونشر المستوطنات في المناطق المكتظة بالسكان في الأراضي المحتلة. كذلك تتبنى هاتان الحضارتان رأيين مختلفين حول مستقبل النظام السياسي لإسرائيل فيقول أنصار الحضارة الأولى ان الاحتفاظ بالأراضي المحتلة يعني أن إسرائيل يتعين عليها إما دمج الفلسطينيين الذين يعيشون

فيها مما يضعف الطابع اليهودي لدولتهم (بنسبة ٤٠٪ باحتساب الفلسطينيين ضمن الخط الأخضر) أو تسليمهم إلى نوع من العيش في المعازل والبانتستونات التي يفرضها البيض على السود في جنوب إفريقيا مما ينفي الزعم بديمقراطية إسرائيل. ويصر متشددوا الحضارة الثانية على أن وحدة أرض إسرائيل ينبغي أن تكون لها الأسبقية على كل شيء سواها وان الاحتفاظ بالأرض أهم من الحفاظ على النظام السياسي الحالي لإسرائيل. وهم مستعدون لدفع الثمن السياسي والاجتماعي والاقتصادي والعسكري لاستمرار الاحتلال وقمع الفلسطينيين، وهم مستعدون لطرد الفلسطينيين إذا دعت الضرورة أو حانت الفرصة لذلك. لقد استطاع المتشددون وأساساً الاشكنازيون والمسيحانيون، الذين يتبعون مذهب الحاخام كوك، الاستحواذ على نسبة كبيرة من اليهود الشرقيين لأنهم يشاركونهم الموقف نفسه تجاه الأرض فجذور الصهيونية الشرقية ليست في العداء للسامية مثلما حدث للصهيونيين الاشكنازيين في شرقي أوروبا ووسطها وبالنسبة للشرقيين كانت الجاذبية هي للأرض إذ كانت صهيون قطعة من الملكية الدينية التاريخية التي تعود إليهم. وهم إجمالاً لا يرضون بأي حل وسط خاصة مع العرب الذين غادروا بلادهم للذهاب إلى إسرائيل. كذلك فإن كثيراً من بلدان العالم بل معظمها منقسم إلى حضارات سياسية، أحياناً تزيد عن حضارتين، لكن إسرائيل فريدة لأن الحضارتين تشطران المجتمع نصفين ولأن أعضاء الحضارتين يحتفظون بماضيهم الإثني لأنهم ما يزالون في أعماقهم روساً وبولنديين وأوكرانيين ويمنيين ومغاربة وأكراد. والواقع أن للحضارة الشرقية الثانوية في إسرائيل تفوقاً عددياً على الحضارة الغربية السائدة بصورة غالبة وهو وضع لا ينطبق في أي مكان آخر. وتبين نتائج الانتخابات الثلاث الأخيرة أن الحضارتين في حالة توازن سياسي بدرجة أو بأخرى وهو توازن دعمته انتخابات عام ١٩٨٤ غير الحاسمة. وبرغم ما يقال عن أن الحضارة السياسية الأولى (الغربية) يمثلها حزب العمل وأن الثانية يمثلها الليكود، فإن بنفنستي، الباحث الاجتماعي المعروف، يعترف بأن الفروق الفعلية بين البرنامجين السياسيين للحزبين "ليست ذات شأن". وهذا هو السبب في أن سياسيي حزب العمل والليكود استطاعوا تكوين حكومة الوحدة الوطنية بعد الانتخابات غير الحاسمة في عام ١٩٨٤. ورغم أن هذه الفجوة بين السياسيين ضيقة بالقدر الذي يتيح لهم العمل معاً داخل تحالف وائتلاف فإن أتباع المعسكرين تفرق بينهم هوة واسعة

لدرجة أنهم يرفضون أن يتحدثوا مع بعضهم البعض بل لا يريدون حتى أن يعيشوا معاً في النواحي نفسها.

ويرجع هذا إلى أن الدين قد أصبح هو الخلاف البارز بين المعسكرين. فلقد كان هناك منذ بداية المشروع الصهيوني في فلسطين احتكاك بين القسمين الديني والعلماني من المجتمع، لكن هذا تحول في السنوات الأخيرة إلى صراع حضارات حيث نبذ الشرقيون الواحد تلو الآخر، الاشتراكية والتغريب والاعتماد على الديمقراطية، وارتدوا إلى الروح المحافظة الاجتماعية المريحة وإلى الأرثوذكسية الدينية لحياتهم السابقة في الشتات مما دعم سلطة المؤسسة الأرثوذكسية والمتشددين العلمانية والمسيحانيين وشجع الاتجاهات الفاشية.

وقد أدى هذا الترابط بين الشرقيين وبين الأرثوذكسيين إلى تزايد الفجوة بين هاتين المجموعتين وبين القسم العلماني الغربي من السكان الذين يصف ٦٠٪ منهم الأرثوذكسيين وصفاً إيجابياً في حين يصفهم ١٩٪ فقط بطريقة سلبية. والواقع أن العلاقات بين العلمانيين وبين الأرثوذكسيين تدهورت إلى حد أن المسؤولين عن التعليم شعروا بأنهم مضطرون لتنظيم لقاءات لكي يجلسوا معاً شباب المجموعتين (مثلما يفعلون أحياناً بالنسبة للعرب واليهود) ووفق الرسالة الاخبارية التي تنشرها مجموعة معينة من المربين الدينيين (التوراة والعمل) فإن الفجوة بين الحضارتين تهدد بالتعجيل بالحرب الأهلية بينهما وتشكل خطراً أكبر من التهديد الخارجي.

الفصل الثاني

اليهود الشرقيون
و"صدام الحضارات"

منذ أن أقيمت حكومة الليكود الأولى عام ١٩٧٧ طفق العنف يزداد حدة. أولاً في الأراضي المحتلة عام ٦٧ بين الفلسطينيين والجيش وبين الفلسطينيين والمستوطنين ثم بعد عام ١٩٨١ عندما شكلت حكومة بيغن الثانية فإن دعاة العنف "عبروا الخط الأخضر" من الأراضي المحتلة إلى داخل إسرائيل نفسها. واتسمت حملة عام ١٩٧٧ الانتخابية بقدر كبير من العنف وفاقها في ذلك حملة عام , ١٩٨١ فقد حطم أنصار الليكود الاجتماعات الانتخابية لمرشحي حزب العمل وأهانوا الذين يحضرونها. وكانت انتخابات عام ١٩٨٤ أقل عنفاً بسبب اغتيال اليمين أحد متظاهري حركة السلام الآن في مسيرة سلمية جرت عام ١٩٨٣. وأعلن الرئيس حاييم هرتسوغ في خطابه الافتتاحي في الأسبوع الأول من أيار ١٩٨٣ أنه قد يثبت أن العنف المادي واللفظي وعدم التسامح والتعصب والتخلي عن القيم الديمقراطية أكثر خطراً من تهديد الأعداء العرب لإسرائيل. وقطع على نفسه عهداً بأن يخوض المعركة مع ما أسماه "العدو الذي يهدد بتفرقتنا". وقال: "هذا العدو الحقيقي... موجود بداخلنا. إنه موجود داخل كل منا نحن مواطني إسرائيل – اليهود والعرب، المتدينون والعلمانيون، الجناح اليمين والجناح اليساري، السفاراديم والاشكنازيم. وهو يفصح عن نفسه في قلة الاستعداد للاستماع إلى زميلنا... عندما نختلف معه".

وكان دافع هرتسوغ لإلقاء هذا الخطاب هو أخذ زمام المبادرة من قادة الليكود الذين انغمسوا في حملة من العنف اللفظي ضد كل خصومهم الإسرائيليين والفلسطينيين على السواء. وقد أشار بيغن رئيس الوزراء السابق إبان توليه منصبه، إلى رجال حرب المغاوير الفلسطينيين باعتبارهم "حيوانات تسير على قدمين" بعد انسحاب منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت عام ١٩٨٢ وتحدث رفائيل ايتان رئيس أركان الجيش السابق عن المدنيين الفلسطينيين بأنهم مثل "صراصير مسممة في زجاجة" ووصف الجنرال افيغدور بن غال القائد الأسبق لما يسمى القيادة الشمالية، العرب في إسرائيل بأنهم "سرطان في جسد السياسة الإسرائيلية". ويقول المستوطنون أن العرب لا يفهمون إلا لغة العصا والقوة. وحاولوا ترجمة نظرتهم هذه في الأراضي المحتلة إلى سياسة إطلاق النار بقصد القتل المتعمد.

وأحد الشعارات المفضلة لدى المستوطنين: الموت للعرب – اخرجوا أيها العرب – وهذا تكرار لشعار اخرجوا أيها اليهود الذي كان شعاراً شعبياً وشائعاً للغاية في إمبراطورية الرايخ الثالث. وبالنسبة لهؤلاء الناس فإنه من السهل عليهم تسمية مواطنيهم الذين يعتبرونهم متساهلين ومفرطين جداً مع العرب بالخونة وبأنهم من منظمة التحرير وبالخنوعين.

وقد بلغت حملة العنف الكلامي والترويع ذروتها في شهر شباط ١٩٨٣ بشأن التوصيات التي وضعتها لجنة كاهان للتحقيق في مسؤولية إسرائيل عن مجازر صبرا وشاتيلا. وكادت إسرائيل تدخل حرباً أهلية إثر مصرع أحد المشاركين مظاهرات اليسار ضد المجازر.

بالنسبة لصراع الحضارات نجد أنه يتجاوز الاختلاف حول مستقبل الأراضي المحتلة فهناك خلاف طويل الأجل حول السؤال: من هو اليهودي. إذ يشترط الأرثوذكسيون أن يكونوا هم الذين يقررون ذلك. ويعلن الليبراليون أن اليهود الذين ينتمون لجميع التيارات الدينية اليهودية هم يهود في حين يقول الأرثوذكسيون أن من ولدوا لأم يهودية أو تحولوا للديانة اليهودية حسب القانون اليهودي والشريعة اليهودية (هالاخاه) هم وحدهم اليهود وينبغي بالتالي قبولهم في الدولة اليهودية. وتسعى الحضارة الأولى لدمج مدارس إسرائيل الدينية والتابعة للدولة. في حين ترفض الثانية الدمج وتحاول فرض إرادتها على مدارس الدولة حيث يشكل التلاميذ القادمون من

بيوت متدينة أغلبية. وتعارض السلطات الدينية التي تسيطر على الحضارة الثانية استخدام التوقيت الصيفي لأنهم يزعمون أنه سيثير مشكلات حول تحديد أيام السبت، وهم ضد تشريح الجثث وبنوك الجلد والأعضاء البشرية وضد الإجهاض ويقاومون تدريس نظرية التطور في المدارس، ويحاولون وقف إجراء الحفريات الأثرية في المواقع التي كانت مقابر لليهود أو يحتمل أن تكون كذلك، ويصرون على المراعاة العامة الشاملة لأيام السبت والصيام بما في ذلك حظر السفر. وبعض الفئات المتشددة في التمسك بدينها في الثقافة الثانية لا تريد التعامل أبداً مع أنصار الحضارة الأولى بل لا تريد حتى التعامل مع من يختلفون معهم داخل ثقافتهم ذاتها. إنهم ينسحبون إلى الغيتو (المعازل) وهي أحياء معينة في القدس، وإلى مستوطنة أرثوذكسية متطرفة بنيت حديثاً تسمى عمانوئيل ومستوطنات غوش ايمونيم الأرثوذكسية في الضفة الغربية. بل لقد شن المتشددون من الحضارة الثانية غارات حرب عصابات استهدفت حياة أعضاء الحضارة الأولى: ففي حزيران ١٩٨٣ أفسدت مجموعة من الطلاب من مركز الحاخام كوك حفلاً موسيقياً في القدس تعزف فيه مقطوعة هندل للمسيح وفي الوقت نفسه تقريباً هوجم عمدة المدينة الليبرالي تيدي كوليك من قبل مجموعة من اليهود الأرثوذكس المتطرفين من أصل أوروبي خارج كنيس كان قد ذهب إليه ليلقي خطاباً في جماعة من المصلين حول موضوع التوترات بين اليهود الأرثوذكس المتطرفين واليهود الأقل تشدداً. وفي شهر آذار من عام ١٩٨٤ أخرج رجلان من الأرثوذكس المتطرفين جثة امرأة كانت قد ولدت مسيحية وتزوجت من إسرائيلي (وصحبته إلى معسكر اعتقال خلال الحكم النازي) من مقبرة يهودية في ريشون لتسيون وألقياها في مقبرة قريبة للمسلمين. وفي شهر آب ١٩٨٤ هوجم العمدة كوليك بالقول من قبل متحدث رسمي ديني لأنه تناول وجبة في مطعم اتناديوم من أيام الصيام وفي عامي ١٩٨٤ و ١٩٨٥ تكرر هجوم الأرثوذكسيين على بنك لؤمي الذي استثمر أمواله في مشروع للتنمية عارضه بعض الحاخامات. وأخذ الأرثوذكسيون المتطرفون يتعرضون لمؤسسات وأعمال ومنازل السكان العلمانيين بل حتى الأرثوذكسيين المعتدلين الواقعة على أطراف الأحياء الأرثوذكسية المتطرفة. وتوجه العنف أيضاً إلى أماكن عبادة الأغيار (غوييم) من غير اليهود وتم اغتيال راهبتين روسيتين تقيمان في إحدى ضواحي القدس. ومورس ضغط ليهودي أرثوذكسي لقوي لمنع استكمال جامعة تابعة لطائفة المورمون المسيحية الأميركية

في القدس.

وفي المقابل أضرمت جماعة تسمي نفسها "المعارضون لغلاة المتدينين" النار في أقسام من كنيس تل أبيب وذلك رداً على هجمات طالت مواقف الباصات قام بها أرثوذكسيون يهود احتجاجاً على لصق إعلانات عليها تظهر فتيات في لباس البحر. وقد وصف الرئيس هرتسوغ هذا بأنه "كابوس ما كان للشيطان نفسه أن يخلقه" وبعد ذلك بيومين وقعت هجمات مشابهة على كنيس ثان وعلى مدرسة دينية.

وفي حين أسهمت خلافات كثيرة في إيجاد الصدع القادم بين الحضارتين القائمتين في إسرائيل فإن أكثرها حدة ينصب على المواجهة حول الأرض. ويصدق هذا لأن الحركة الصهيونية أعلت الأرض وجعلتها أغلى من الروح ولضمان هذا التفضيل فإنها اختارت استخدام القوة بدلاً من التفاوض لتحقيق هدفها.

ويناقش الفصلان التاليان كيف انتهت الأمور بالمؤسسة العسكرية لتصبح هي التي تحدد سياسات الحركة الصهيونية وسياسات الدولة على السواء ويصفان تأثير المؤسسة العسكرية على سيكولوجية الإسرائيليين ثم يوضحان كيف ألقى التصحيحيون بإسرائيل في مغامرة سياسية عسكرية مهووسة أوصلت البلاد إلى شفير الحرب الأهلية.

في هذا السياق لا بد من التذكير بأن حزب الماباي كان قد عامل اليهود الشرقيين القادمين من الدول العربية معاملة سيئة للغاية تأخذ صفة التمييز العرقي من خلال اعتبارهم مواطنين من الدرجة الثانية برغم كونهم يشكلون ٦٠ – ٦٥٪ من سكان إسرائيل. ويعود سبب هذه الظاهرة التمييزية إلى كون حزب مبام يعتبر أن مهمته "تحويل إسرائيل إلى جزء مكون من الغرب". وقد كتب بن غوريون عام ١٩٥٢ "إن إسرائيل لا تشكل جزءاً من الشرق الأدنى إلا من وجهة نظر الجغرافيا التي هي أساساً عنصر ساكن. أما من حيث وجهات نظر أشد حسماً (الزخم والبناء والتنمية) فإن إسرائيل جزء من اليهودية في العالم".

وقد عملت السلطات الصهيونية الحاكمة في الكيان العبري على القضاء على الثقافة الشرقية الأصيلة المتميز لليهود القادمين من الدول العربية والإفريقية والآسيوية.

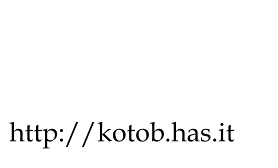
وقد برزت سياسة التمييز العنصري ضد السفاراديم من قبل الحاكمين اليهود

الغربيين الاشكناز من خلال تأمين العمل والوظائف لهم في مؤسسات إنتاجية محلية بنيت في مناطقهم "بينما كانوا يبنون المصانع العالية الممكننة (الآلية) في المناطق التي يسكنها اليهود الغربيون".

كما يلاحظ ذلك من خلال معرفة مستوى حياة الأفراد من الطائفتين الغربية والشرقية فمستوى حياة اليهود الاشكناز هو أعلى بنسبة ١٠٠٪ عن مستوى حياة اليهود الشرقيين والسفارديم. والأمر نسفه في مؤسسات التعليم العالي حيث يوازي عدد المتخرجين من الاشكناز خمسة أضعاف عدد المتخرجين من الفئة الأخرى. وتبلغ نسبة اليهود الشرقيين في النخب الفكرية والسياسية الإسرائيلية ٢/٣٪ فقط. والفرق نفسه يقوم في تمثيل الطائفتين في اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية العالمية وسائر هيئاتها وكذلك في هيئات الهستدروت القيادية.

كان اليهود الشرقيون يدلون بأصواتهم في الانتخابات النيابية لصالح حزب مباي (حزب العمل لاحقاً) منذ العام ١٩٤٨ ولكنهم من جراء الوضع الاقتصادي الشاق الذي عانوه والتمييز الطائفي حيالهم أخذ هؤلاء يقفون أكثر فأكثر ضد السلطات وينتقدون حزب مباي وحزب العمل أكثر فأكثر ويقولون عنه انه حزب اشكنازي وحزب البرجوازية الصغيرة المتعلمة. وقد ازداد التباعد هذا منذ عام ١٩٦٥ وخاصة بعد حرب عام ١٩٦٧. وفي عام ١٩٦٩ فإن ثلثا الناخبين من عداد اليهود الشرقيين لا يزالون يصوتون لصالح كتلة المعراخ – مباي – والثلث فقط لصالح كتلة الليكود.

وقد حاول حزب المباي ومن ثم حزب العمل في أواخر الستينات وأوائل السبعينات إرضاء هذه "الطائفة المتمردة" وإقناعها بأنه يعمل على إزالة الفوارق الاجتماعية بين الطائفتين وذلك من خلال تعيين اليهود المتحدرين من بلدان آسيا وإفريقيا (السفارديم) من أعضاء الحزب في مناصب مسؤولة.



الفصل الثالث

يهود اليمن
كنموذج للتمييز العنصري(*)

بعدما صوّرت الدعاية الصهيونية "إسرائيل" كجنة موعودة يلجأ إليها اليهود من شتى أنحاء الأرض، صدّق اليهود اليمنيون ذلك، فتركوا ديارهم في أواخر الأربعينيات من هذا القرن حيث كانوا يعيشون مع اليمنيين بأمان وحرية، وجاؤوا إلى حيث "الحلم" المزعوم "أرض الميعاد"، ولكن المفاجأة كانت أن الكيان الموهوم لم يوفر لهم ما كانوا يطمحون إليه، فلم يعامَلوا على قدم المساواة مع الآخرين، ولم تُتَح لهم مجالات العلم والعمل، بل أكثر من ذلك، فقد مورست بحقهم شتى أنواع التمييز العنصري من قبل السلطة، ومن اليهود الصهاينة الوافدين من الغرب.

لم تختلف الأساليب الإرهابية التي مارستها الحركة الصهيونية بهدف تهجير يهود العالم في الأقطار العربية كما في الأقطار الغربية، فالخداع والإغراءات الدينية

(*) مصادر الفصل الثالث:
- يهود اليمن قبل الصهينة وبعدها ــ عباس الشامي.
- الدولة اليهودية ــ تيودور هرتزل.
- صحيفة "معاريف" ١٩٦٦/٤/١.
- The Jerusalem Report 2/6/1994.
- كتاب الجنس والتاريخ يوجين بيتارد.
- صحيفة "أفيفيم" ١٩٦٦/٥/١.
- صحيفة "الحياة" ١٩٩٤/٥/٢٠.

وإرسال المبعوثين وإنشاء المكاتب المتخصصة وتوجيه النداءات التي تحث اليهود على تلبية نداء "العودة" إلى فلسطين، ونشر الدعايات المغرضة حول مجازر تُرتكب بحق اليهود، وتصوير "إسرائيل بلداً يعيش في رخاء ورفاهية"، كلها وسائل كاذبة استخدمتها الحركة الصهيونية في أكثر من مكان وزمان لحمل اليهود على ترك الديار التي يعيشون فيها والهجرة إلى فلسطين المحتلة. وقد انخدع الكثير من اليهود، ومنهم اليمنيون، بالوعود والمغريات الصهيونية وانساقوا وراء العروض التي أطلقتها السلطات "الإسرائيلية" داخل الأرض المحتلة سنة ١٩٤٩ بعد قيام الكيان العنصري، فهاجروا إلى "إسرائيل" وكلهم أمل بأن يعيشوا في بحبوحة ورخاء، وكانوا بانتقالهم أول المساهمين في بناء الكيان الصهيوني، وأول منشئي المستوطنات والمزارع، وكانوا أشرس المقاتلين في الحروب "الإسرائيلية" ضد العرب، إلا أن سلطات العدو ردت "جميلهم" هذا بامتهان وعاملتهم باحتقار، ووضعتهم في أسفل الطبقات الاجتماعية "الإسرائيلية".

من هم يهود اليمن؟

تشير المعلومات إلى أنهم أقدم يهود العالم على الإطلاق، وأنهم كانوا موجودين في اليمن قبل عام ٥٨٦ قبل الميلاد، وقد انتشروا في أرجاء البلاد، في شمالها وجنوبها، واستوطنوا في الوديان والقرى كوادي خيبر ووادي تيماء، وفي هذه المناطق بنى اليهود قصورهم على التلال وكانوا يسمونها "الآطام" (جمع أطم) وهو القصر والحصن المبني من الحجارة، وهي في الغالب تشبه القلاع، كما استوطنوا في المدينة – عدن – منذ مئات السنين، وجلُّهم تجمع في مناطق مختلفة من شطري اليمن حيث تأثروا كغيرهم من المواطنين اليمنيين بالحالة الاقتصادية، وهاجروا من المناطق الداخلية طلباً للعمل في المدن، خاصة بعد الاحتلال البريطاني لعدن عام ١٨٣٩ وازدهار التجارة فيها بعد إعلانها منطقة دولية حرة.

وانتشر اليهود في ربوع اليمن كغيرهم من المواطنين دون خصوصية معينة، وكانت الجالية اليهودية في عدن عام ١٩٤٧ من أهم الجاليات نفوذاً، وذلك بسبب تغلغل أفرادها في الحياة الاقتصادية، وتركيز نشاطهم في مجال تهريب العملات الصعبة والذهب المصقول من الأراضي المحتلة وغيرها وإليها. وقد هاجر العديد من هؤلاء اليهود إلى "إسرائيل" لاحقاً بتشجيع من الحركة الصهيونية، وبعد قيام مندوبيها ببعض

الأعمال التخريبية في متاجر عدن التابعة لليهود.

في تلك الأثناء، كان الشباب اليهود يستطيعون في ظل الاحتلال البريطاني، الانتقال متى شاؤوا بين عدن وفلسطين، ومنهم من كان يذهب سراً لأداء الجندية العسكرية والتدرب على أعمال التجسس والشغب ويعودون إلى عدن لمباشرة نشاطهم التخريبي، وقد انتشر السماسرة اليهود ووجدت البضائع الإسرائيلية والشركات الصناعية والتجارية الإسرائيلية في أكثر المناطق اليمنية، ونشط اليهود في تجارة الخمور والجنس خاصة في مدينة عدن أثناء الاحتلال البريطاني الذي شجع على ذلك. وقد قُدر عدد يهود اليمن آنذاك بحوالي ١٢ ألف نسمة يعيشون في ١٥٠ محلة منهم ٢٧٧٤ في صنعاء وحدها.

من أين جاؤوا؟

تشير مصادر التاريخ إلى أن يهود اليمن لم يقدموا من خارج اليمن، ولم يكونوا مهاجرين أبداً، إلا أنهم اعتنقوا اليهودية في أرض اليمن في عصور سابقة بدليل وجودهم في الريف وفي مناطق محددة مثل يهود خمر، يهود صغدة، يهود حاشد، يهود نهم، ويهود ريدة، نسبة إلى المناطق التي يسكنونها، ويهود اليمن جزء من الشعب اليمني في كل الأوصاف سواء منها السمات والملامح أو التحدث باللغة العربية بلهجاتها اليمنية المتعددة. وهذا يؤكد أن اليهود لا ينتمون إلى أصل واحد بل إلى أنواع يهودية متعددة كفلاشا الحبشة والألمان الجرمانيين و"الفلاشا" (اليهود السود) والهنود، والخزر (الأتراك).

وفي كتاب "ما هو الجنس" الذي أصدرته منذ سنوات منظمة اليونيسكو جاء أن "الديانة اليهودية اعتنقها أناس من خارج الجنس الأبيض فهناك يهود أحباش، ويهود زنوج أميركيون" ويؤكد يوجين بيتارد في كتاب "الجنس والتاريخ" قول الباحث الاجتماعي زينان بأن "ليس هناك نوع واحد بل أنواع يهودية متعددة".

وإمعاناً في دحض أصل الجنس اليهودي الواحد، تؤكد دائرة المعارف البريطانية في إصدارها السنوي (١٩٦٥) ان "اليهود يأخذون صفات الجماعات التي يعيشون معها"، أما فلاديمير ايليش لينين فيقول "إن البحوث العلمية الحديثة تنفي عن اليهود ليس الصفة القومية فحسب وإنما المميزات العرقية، فلا يصح القول أنهم ينتمون إلى أصل

واحد أو أنهم يؤلفون شعباً واحداً كسائر الشعوب".

بدايات الهجرة اليمنية

وصلت من اليمن إلى فلسطين أول مئة عائلة يهودية عام ١٨٨١، وكان من دوافع هجرتها ما أشيع في أواسط اليهود عن أن الصهيوني روتشيلد جهّز أرضاً واسعة في القدس سيمنحها ليهود اليمن، هذه الخدعة كانت السبب في قيام دفعة ثانية من اليهود اليمنيين بالهجرة إلى فلسطين على شكل موجات صغيرة من المهاجرين بلغ عددها ستاً، وكان آخرها عند إعلان الكيان الصهيوني عام ١٩٤٨.

وتشير المعلومات إلى أن عدد اليهود في فلسطين كان عام ١٧٩٩ (عندما غزا نابليون فلسطين) قرابة خمسة آلاف، ووصل عام ١٨٣٩ إلى ستة آلاف مقابل ثلاثمئة ألف عربي أي أن نسبة اليهود كانت ٧٪ من سكان فلسطين، أما عام ١٨٨٢ فقد بلغ عددهم حوالي ٢٣ ألفاً ثم أصبحوا عام ١٩١٤، ٣٥ ألفاً، نسبة اليمنيين منهم ٨٪.

يقول تيودور هرتزل (مؤسس كيان العدو) في كتابه "الدولة اليهودية": "لولا العداء للسامية لما كنا بقينا يهوداً، فأعداء السامية هم الذين جعلوا من اليهود شعباً واحداً بالرغم منهم، ولو لم يكن العداء للسامية موجوداً فمن الواجب استنباطه والإبقاء عليه شرطاً لوحدة اليهود وشعورهم بيهوديتهم والحفاظ على كيانهم الانعزالي الخاص".

تهجير اليهود اليمنيين

تركز الأسلوب الذي اتبعته العصابات الصهيونية لتهجير يهود اليمن على دس عناصرها المدربة وسط أفواج المتظاهرين في شوارع عدن استنكاراً لما يحصل في فلسطين، وتنديداً بتآمر بريطانيا على عروبتها، وكان يساعد الصهاينة مأجورون من الأقليات الهندية والباكستانية بهدف حرف المتظاهرين عن هدفهم بتوجيه التظاهرات إلى الأحياء اليهودية بعدن ثم بافتعال الحوادث مع اليهود حرقاً وقتلاً كما حصل في تظاهرات أول أيلول ١٩٤٧، وفي اليوم الثاني، حيث عمل المندسون أثناء تظاهرة مؤيدة للشعب الفلسطيني على افتعال مشاكل بين المتظاهرين حصل خلالها إطلاق نار أدى إلى قتل ١٢٠ شخصاً بينهم ٨٢ يهودياً، وجرح ١٦٣ بينهم ٧٦ يهودياً.

ثم كان لإعلان الحكومة البريطانية عن نيتها الانسحاب من عدن بعد عامين من

عمليات المقاومة الوطنية، المبرر للحركة الصهيونية لتهجير البقية الباقية من اليهود تحت شعار الخوف على حياتهم، فصعّدت نشاطها الإرهابي في الأحياء اليهودية، وكان نتيجة ذلك أن غادر عدن ١٣٢ يهودياً في يوم واحد.

وقد تنبه العديد من اليهود اليمنيين للحيلة الصهيونية هذه، فعمدوا إلى التظاهر باعتناق الإسلام من أجل البقاء في اليمن. أما الآخرون فهاجروا على متن شركتي "العال" و"زيم" للملاحة حيث نُقل المهاجرون إلى فلسطين بحراً من ميناء "المخا" اليمني على البحر الأحمر إلى جيبوتي ومنها إلى الأرض المحتلة بمساعدة الإنكليز والأميركيين.

اليهود اليمنيون في الكيان الصهيوني

جاء اليهود اليمنيون إلى فلسطين المحتلة وهم محمّلون بعادات اليمنيين وخصائصهم وتقاليدهم، فحافظوا في "إسرائيل" على أسلوب حياتهم المعتادة وتمسكوا بكل ما يملكون من تقاليد اجتماعية (كالزواج والطلاق وإقامة الأفراح) وطرق عملية كالبناء وأساليب التغذية كاستعمال الحلبة "السلتة" وما إلى ذلك. وقد حاول اليهود الغربيون خلع هؤلاء عن تراثهم وتقاليدهم إلا أنهم لم ينصاعوا لهم فكان جزاؤهم أن أُبعدوا عن مراكز الوظائف العليا والوسطى في جهاز الدولة، وعن ممارسة خبراتهم في المهن الفنية والإبداعية التي كانوا يمارسونها في اليمن واستُخدموا، فقط في أعمال البناء وحراسة المستوطنات الزراعية، فيما كانوا في اليمن يمتهنون حرف صياغة الذهب والفضة وغيرها.

إضافة إلى ذلك، تم توطين يهود اليمن في عام ١٩٠٧ في أحياء بدون أرض كما يذكر الصحافي باروخ نادل في صحيفة الطائفة الشرقية في القدس وبالقرب من مستعمرتي "رحفوت" و"ريشول ليتون".

أما من جاؤوا عام ١٩١٢ فقد تم إسكانهم في مكان مليء بالمستنقعات حيث مات معظمهم بالحمى، ثم أسكن يهود اليمن لاحقاً في مناطق مقفلة تشتهر باسمهم مثل حي اليمنيين قرب "كريات آنا" و"روشا اين" أو في بيوت متنقلة منعزلة ومخيمات نائية يُمنع عليهم الخروج منها إلى الأحياء الأخرى التي يسكنها مستوطنون اشكناز، وحوصروا "أمنياً" من قبل السلطات الإسرائيلية كي لا يختلطوا مع "شعب الله المختار" الممثل

بالاشكناز – حسب مزاعم الصهيونية.

وقد حاول يهود اليمن الخروج من هذه العزلة التي فرضتها سلطات الكيان الصهيوني عليهم فانتمى بعضهم المراكز النقابية والتشريعية ولكنهم لم يستطيعوا خلق مناخات حياتية مناسبة لهم تجعلهم على قدم المساواة مع سواهم من "الإسرائيليين".

خطف الأطفال اليمنيين

مشهد آخر من مشاهد الاضطهاد "الإسرائيلي" بحق اليهود اليمنيين يتماهى مع وحشية السلطات الصهيونية، وهو خطف الأطفال اليمنيين. فبعد إنشاء الكيان الصهيوني هجر ما بين عامي ١٩٤٩ و ١٩٥٠ أكثر يهود اليمن، حوالي ٥٠ ألف نسمة، أُسكنوا بادئ الأمر في معسكرات انتقال وبقوا فيها لمدة ٣ سنوات.

وبدأت الشكاوى من اختفاء أطفال هذه العائلات بشكل فردي، ثم أصبحت القضية عامة حيث سُجل اختفاء أكثر من ٤ آلاف طفل من المهاجرين عامة بينهم ٤٣٠ طفلاً من يهود اليمن، وكانت صحيفة "افيفيم" (يشرف عليها يهود اليمن وتصدر في "إسرائيل") أول من نشر مقالات حول هذا الموضوع، وتحت عنوان "انتهاك حقوق الإنسان في إسرائيل" نُشر في العدد الصادر في ١٩٦٦/٥/١ ما يلي: "بعد ١٧ سنة على الشكوى الأولى ما زال مصير الأطفال اليمنيين المخطوفين غامضاً، إننا متأكدون من أن هؤلاء لم يموتوا كما ذكرت السلطات، لجملة معطيات منها، أنهم كانوا في صحة جيدة. وعلى افتراض موتهم، لِمَ لم تُسلّم جثثهم لأهاليهم من أجل الدفن، وإذا كانوا قد دُفنوا فلماذا لم تعلن المؤسسات المسؤولة عن قبورهم".

ثم تشير الصحيفة إلى أن بعض العائلات وجدت أطفالها لدى عوائل أخرى، وأن أطفالاً آخرين بيعوا إلى عائلات خارج "إسرائيل" أو داخلها كالعائلات الاشكنازية المحرومة من الأطفال.

أما صحيفة "معاريف" الإسرائيلية فقد كتبت عدة مقالات وأجرت عدة مقابلات حول هذا الموضوع، ومن هذه المقابلات واحدة مع ممثل الوكالة اليهودية في معسكر "روش هاعين" الذي ذكر أنه يعلم أن بعض العوائل التي لم يكن عندها أولاد جاءت إلى المعسكر من أجل تبني بعض الأطفال، وأن أطفالاً أُخذوا من المستشفيات من دون إذن.

أهداف التهجير الصهيوني لليهود اليمنيين

يبدو جلياً أن أهداف التهجير الصهيوني ليهود اليمن وغيرهم من اليهود الشرقيين استعمارية وليست دينية حسب ما تزعم الدعاية الإسرائيلية، وهناك مؤشرات عدة على ذلك نذكر القليل منها:

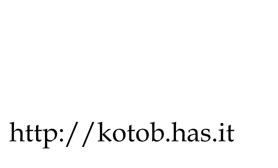
١ – أجبرت الحركة الصهيونية الشباب على الهجرة إلى فلسطين المحتلة، أما كبار السن فتركتهم يعيشون في اليمن.

٢ – الهجرة توفر الطاقة البشرية اللازمة لجيش العدو في اعتداءاته المتواصلة على الشعوب العربية، والمهاجرون هم دوماً وقود أي حرب تشنها "إسرائيل".

٣ – أدت الهجرة اليهودية إلى فلسطين إلى استعمار أوسع للأرض العربية، إذ من أجل إسكان المهاجرين يتم تهجير الفلسطينيين من بيوتهم وإقامة مستعمرات استيطانية مكانها.

٤ – ركز الصهاينة في أنشطتهم وأدبياتهم على السعي لإيجاد وطن قومي، وكانوا ينظرون إلى اليهود كتجمع سياسي وليس كتجمع ديني.

يضاف إلى هذه المعطيات، أن الهجرة اليهودية، ولا سيما الشرقية، تؤمن للسلطات الإسرائيلية أيدي عاملة رخيصة تحل شيئاً فشيئاً مكان الأيدي العاملة الفلسطينية، كما تبعد (الهجرة) تهمة العنصرية عن "إسرائيل" إذ تظهر وجهها "الإنساني" "إنقاذ اليهود من العداء الموجه ضدهم" – حسب مزاعم الصهيونية.



الفصل الرابع

اليهود المغاربة:
نموذج ثان(*)

في مطلع الخمسينيات، نشرت الدعاية الصهيونية شائعات مغرضة تفيد بأن المغرب إذا ما حصل على استقلاله فإنه سيعمل على اضطهاد وقمع الطائفة اليهودية بسبب نكبة الشعب الفلسطيني حينها على أيدي الصهاينة. وعلى رغم التطمينات المستمرة التي بعثت بها حكومة المغرب إلى هذه الطائفة التي كانت تعيش بأمان واستقرار في البلاد، فقد هاجر اليهود المغاربة إلى فلسطين عبر فرنسا وإسبانيا. وما حدث منذ وصولهم حتى الآن، أنهم عاشوا مآسي مختلفة في "المجتمع الإسرائيلي" حيث كان وجودهم مقروناً دوماً بمظاهر التفرقة والتمييز العنصري، إن على المستوى الاجتماعي، التربوي، الثقافي، أو السياسي.

(*) مصادر الفصل الرابع:
- ابراهام صرفاتي، اليهودية المغربية والصهيونية.
- حاييم زفراني، التربية اليهودية في بلاد الإسلام.
- عبد الله العروي، تاريخ المغرب.
- معاريف ٩/٤/١٩٩٠.
- المعرفة ١/٢١/١٩٩١.
- دوريس بن سيمون دونات، "المهاجرون من إفريقيا الشمالية إلى إسرائيل".
- دفاتر المجمع الرابع للحاخامين، صوت البلاد ١٠١.
- شلومو سفيرسكي، "ليسوا ضعفاء بل مستضعفون"، يديعوت أحرونوت ١٧/٧/١٩٨١.

اليهود المغاربة

هم كبرى الطوائف اليهودية في "إسرائيل"، وعلى رغم أن وجودهم ما كان ليذكر حتى عام ١٩٤٨ إلا أن عددهم الآن يزيد على نصف مليون شخص، وتعتبر الطائفة اليهودية المغربية أحدث الطوائف اليهودية من حيث زمن الهجرة وأكثرها شعوراً بالظلم والاضطهاد، وبالتالي أكثرها بروزاً على مستوى التوتر الاجتماعي وحركات الاحتجاج. يشكل اليهود المغاربة مع اليهود القادمين من الجزائر وليبيا وتونس وحدة إثنية تتجاوز في حجمها ثلاثة أرباع مليون نسمة وبالتقريب ربع مجموع اليهود المقيمين في "إسرائيل".

اليهود في المغرب

كان اليهود في المغرب مواطنين متساويين مع أقرانهم في الحقوق والواجبات، يحميهم قانون ونظام واحد، ويعترف ناحوم غولدمان بأن الملك الحسن الثاني وقبله والده الملك محمد الخامس كان لهما دوماً المواقف الإنسانية تجاه اليهود مشيراً إلى موقف محمد الخامس أثناء الحرب العالمية الثانية عندما رفض أن يسمح لحكومة فيشي الفرنسية بأن تؤذي رعاياه اليهود على الرغم من ضغوط بيتان إلا أنه لم يتخلّ عنهم قط.

ويذكر اليهودي المغربي مئير بن حاييم في خطاب ألقاه أمام اللجنة المركزية لحزب مباي: "عندما كنت في الدار البيضاء بين العرب كنت أشعر بأنني واحد منهم وأنني أنتمي إليهم أكثر مما أنتمي لكم أنتم في إسرائيل".

الهجرة اليهودية المغربية

كما ذكرنا سابقاً فقد عملت الدعاية الصهيونية على نشر شائعات تفيد بأن الحكومة المغربية ستعمل على اضطهاد الطائفة اليهودية فور الحصول على الاستقلال بهدف الانتقام للشعب الفلسطيني الذي احتُلت أرضه. هذه الشائعات أدت مفعولها حيث اقترن عامل الخوف والقلق مع التشكيك في المستقبل في ظل الاستقلال الوطني،

مما حمل اليهود المغاربة على الهجرة إلى "إسرائيل" في موجتين، الأولى كانت في النصف الثاني من الخمسينيات، أما الثانية فقد كانت في السنوات الثلاث الأولى من الستينيات. يقول شمعون ليفي حول هجرة اليهود المغاربة: "أرسلت الوكالة اليهودية في عام ١٩٤٩ – ١٩٥٠ مبعوثيها إلى المغرب وكان عددهم في ذلك الوقت سبعين شخصاً ليقوموا بهذه المهمة. لقد خضع شباب اليهود لضغوط مكثفة لإقناعهم بأن لا مستقبل لهم إلا في إسرائيل، وذلك من خلال المناظرات والدروس العبرية والنزهات الجماعية والمسرح والأغاني والرقصات المسماة إسرائيلية، والتي هي في حقيقتها فولكلور أوروبا الشرقية".

اليهود المغاربة في "إسرائيل"

منذ وصولهم إلى دولة العدو الإسرائيلي، عانى اليهود المغاربة من سياسة التمييز العنصري الذي مارسته السلطات الاشكنازية الإسرائيلية بحق جميع اليهود الشرقيين القادمين من الدول العربية، غير أن اليهود المغاربة اعتُبروا الأكثر ظلماً في المجتمع الصهيوني حيث وضعوا في أسفل السلم الاجتماعي وتعرضت ثقافتهم وهويتهم لحرب شعواء، وعملية تدمير لصالح الثقافة الغربية التي حاولت النخبة الاشكنازية فرضها على جميع فئات المجتمع الإسرائيلي. يقول إلياهو اليشار وهو أحد زعماء اليهود المغاربة في القدس المحتلة في تعليق له على التمييز العنصري الذي يمارَس ضد اليهود المغاربة: "خسارة أن لا يستطيع الإنسان اختيار من يكون والده ولا أن يحدد المكان الذي يولد فيه.. تصوروا كم من الناس بيننا كانوا سيختارون أي بلد في العالم، كندا مثلاً، بدل أن يكونوا هنا حيث يتعرضون للكره".

على الصعيد الاجتماعي – الاقتصادي

المحطة الأولى لليهود المغاربة في "إسرائيل" كانت عبارة عن مساكن مؤقتة عرفت بـ"المعابر" يعيش فيها هؤلاء لفترة معينة تمهيداً لنقلهم إلى مساكن دائمة، غير أن هذه "المعابر" أصبحت شبه دائمة لليهود المغاربة، شأنهم شأن أكثرية المهاجرين الشرقيين، وإذا ما نُقلوا من "المعابر" إلى مساكن دائمة تكون في أحسن الأحوال مساكن غير صحية، صغيرة الحجم شديدة الازدحام. أما الأحياء فهي في الغالب على مستوى كبير

من التخلف والفقر. ومن الأحياء التي عُرفت بساكنيها اليهود المغاربة حي المصرارة في القدس، حي الصليب في حيفا، بالإضافة إلى مدن مشارف الصحراء مثل بئر السبع، المجدل، وعسقلان. وإمعاناً منها في احتقار يهود المغرب، أطلقت السلطات الاشكنازية أسماء مخجلة على الأحياء التي يقطنها هؤلاء تحدد هويتها، في المصرارة في القدس مثلاً يطلق عليه اسم "مملكة الفقراء" و"مملكة القذرين الأشرار" و"حثالة البؤس الاجتماعي".

هذا على الصعيد الاجتماعي، أما على الصعيد الاقتصادي، فإن اليهود المغاربة عانوا – وما زالوا – الفقر والبطالة والبؤس. وهم في أفضل الحالات عبارة عن يد عاملة لا يوجد أدنى منها في "إسرائيل" إلا اليد العاملة العربية التي تشكل جزءاً مهماً من القاعدة الدنيا في اليد العاملة في "إسرائيل".

الوضع المأساوي الذي عاشه اليهود المغاربة دفعهم إلى القيام بحركات احتجاجية عدة، وكان لنتيجة ذلك اصطدامات عنيفة بينهم وبين السلطات الإسرائيلية، أبرزها في شهر تموز سنة ١٩٥٩ (حادث وادي الصليب في حيفا) حيث استمرت التظاهرات أربعة أيام كاملة أسفرت عن إصابة العديد من اليهود المغاربة واعتقال المئات منهم.

إستلاب ثقافي وحضاري

أوجز بن غوريون (أول رئيس وزراء لإسرائيل) سياسة الاستلاب الثقافي التي مورست بحق اليهود المغاربة في دولة العدو بقوله "لا أريد لثقافة مراكش أن تكون عندنا هنا". أما غولدا مائير فعبّرت عن الأمر بقولها: "نحن في إسرائيل بحاجة إلى مهاجرين يتمتعون بمستوى رفيع... إن لدينا مهاجرين من مراكش وليبيا ومصر وإيران وبلاد أخرى، ترجع مستوياتهم الاجتماعية إلى القرن السادس عشر".

ويوجز المحامي اليهودي المغربي الأصل ابراهام بوردوغو عملية الاستلاب الثقافي لليهود المغاربة بقوله: "نحن الشرقيين نمر بعملية تحويل إلى يهود غربيين.. إنهم يجهدون لجعل اليهودي الشرقي يخجل من أصله، ويخجل من عاداته ومن التحدث باللغة العربية باعتبارها لغة العدو، ويخجل من الاستماع لأغنية عربية أو موسيقي عربية، لقد خلقوا لدينا ما يسمى بعقدة الولاء للدولة". (صحيفة "القبس" الكويتية ١٩٨٧/١/٢٦).

أما شالوم كوهين، وهو كاتب سياسي ومثقف من أصل مغربي فيقول حول رحلة العذاب هذه: "إن أقذع شتيمة يقذفوننا بها هي تذكيرنا بأننا عرب بحيث أصبح ينتابنا شعور بعقدة الدونية بالنسبة للاشكناز". يضيف: "في إحدى تظاهرات الفهود السود نعَتَني أحدهم بقوله يا عربي فما كان مني إلا أن أنهلت عليه ضرباً لكني بعد فترة تساءلت أولست عربياً حقاً.. أجل أنا يهودي عربي".

في المقابل وعلى المستوى التعليمي، يعاني اليهود المغاربة كغيرهم من اليهود الشرقيين داخل "إسرائيل" من انتكاسات بنيوية تعليمية تبدأ من المراحل الأولى للتعليم أي من "رياض الأطفال" مروراً بالتعليم الابتدائي وصولاً إلى الكيات المهنية.

تقول الكاتبة دوريس بن سيمون دونات في كتابها "المهاجرون من أفريقيا الشمالية إلى إسرائيل": "إن من المسلم به عادة ان مستوى التعليم منخفض في مدارس مناطق التنمية وفي المدارس الواقعة في الأحياء الفقيرة التي يشكل المهاجرون الشرقيون غالبية سكانها. إن الولد القادم من شمالي إفريقيا يجد نفسه في حلقة مفرغة.. تُعبّر المدارس عن تأزم الوضع التعليمي، فالأساتذة فيها غير أكفاء، وفي أكثر الأحيان، تقوم المجندات بالتعليم في مدن التنمية، وهن عديمات الخبرة، ويتركن لدى انتهاء التدريب العسكري، وكذلك الأساتذة لا يبقون، فهم يصلون فور تخرجهم من دار المعلمين ويغادرون حين يبدأون باكتساب بعض الخبرة، وهم يجهلون عادة كل شيء عن طرق معيشة الولد في عائلته، لذلك فالولد يتحمل نتائج انعدام الخبرة والتغيرات العديدة للأساتذة، وينتقل في حياته المدرسية من أزمة إلى أخرى".

وفي التعليم الثانوي والمهني (٣ – ٤ سنوات) يُظهر مدراء أفضل المدارس الرسمية والكليات المهنية للمدن حتى المتوسطة منها خوفهم من قبول الأولاد القادمين من شمالي إفريقيا، ونتيجة لذلك، فإن عدد هؤلاء في المدارس الممتازة يكاد لا يذكر. وفي المدارس المهنية الهامة يندر وجود التلامذة القادمين من شمالي إفريقيا في فروع الإلكترونيك، ولكنهم أكثر عدداً في الفروع الميكانيكية، أما بالنسبة للبنات القادمات من شمالي إفريقيا فإنهن يتجهن عادة نحو الفنون المنزلية والخياطة.

على المستوى السياسي

عندما هاجر اليهود المغاربة إلى "إسرائيل" كانوا يفتقدون إلى عناصر النخبة

القيادية في مختلف المجالات ولا سيما السياسية منها، ويعود ذلك لكون هذه النخبة (زعماء الجالية في المغرب) فضلت الهجرة إلى الدول الأوروبية بدلاً من "إسرائيل"، وهكذا افتقد يهود المغرب في الكيان الصهيوني الأطر القيادية والثقل السياسي مما جعل منهم هدفاً لتنافس الأحزاب الإسرائيلية على أصواتهم الانتخابية، فكان حزب المباي، ثم وريثه حزب العمل، السبّاق في استقطاب أصوات اليهود المغاربة.

غير أن الوضع هذا لم يستمر طويلاً، إذ بازدياد أوضاع اليهود المغاربة سوءاً مع مرور الزمن ظهرت حركات الاحتجاج والتمرد، فكانت انتفاضة "وادي الصليب" الشعلة الأولى لتشكيل أول إطار تنظيمي خاص باليهود المغاربة (اتحاد مهاجري شمال إفريقيا)، ثم تبعتها تظاهرات العام ١٩٧١ في حي المصرارة بالقدس احتجاجاً على التمييز والبؤس اللذين يعاني منهما سكان الحي، فنتج عن ذلك خروج حركة "الفهود السود" إلى العلن، حيث شهدت استقطابات واسعة بين التجمعات السكانية المغربية بشكل خاص والشرقية بشكل عام، وبالتدرج أصبح منظمو "الفهود السود" يتحولون إلى زعامة وقيادة للشرقيين الطامحين بالعمل والمساواة وقد عُرف من بين هؤلاء: موني الياكيم، سعاديا مرشياتو، شارلي بيطون، كوخاتي شيمش، وهم جميعاً من أصل مغربي ما عدا الأول.

وهكذا تبدت "الفهود السود" كأول تبلور سياسي لليهود الشرقيين في "إسرائيل" وبدأ ناشطوها يتوجهون للمشاركة في لعبة المؤسسات النقابية والتشريعية واستخدامها كمنابر للدفاع عما أسموه حقوق اليهود الشرقيين.

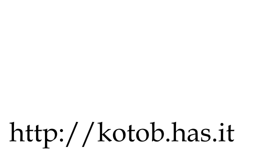
وبما أن خبرتهم في المجال التنظيمي السياسي كانت محدودة فقد اتصلوا بعضو الكنيست السابق شالوم كوهين (المصري الأصل) الذي انفصل عن حزب اوري افنري، هعولام هنري، فوضع خبرته التنظيمية والسياسية بتصرف زعامة الحركة التي وضعت اسمه على رأس قائمة انتخابية لانتخابات الهستدروت عام ١٩٧٣، وتمكن من الفوز ودخول الهستدروت برصيد ضئيل.

وقد شهدت انتخابات عام ١٩٨١ مرحلة جديدة من مراحل التبلور السياسي بين اليهود المغاربة، بظهور حركة "تقاليد إسرائيل – تامي" بزعامة الحاخام المغربي اهارون أبو حصيرة، ومشاركتها في الانتخابات كقائمة مستقلة بعد انشقاق أبو حصيرة عن حزب المفدال، وبعد أن قيل أن الحزب لفق تهم الرشوة والفساد لأبي حصيرة على

خلفية عنصرية. ولم تتمكن هذه القائمة من تطوير ثقلها السياسي في انتخابات عام ١٩٨١ حيث فقدت اثنين منها مما أفقدها الأهمية التي تمتعت بها في الحياة السياسية الإسرائيلية قبل الانتخابات.

وفي الوقت الذي تراجعت فيه حركة تامي برزت إلى الوجود حركة دينية متطرفة، غالبية أفرادها من اليهود المغاربة، وذلك نتيجة انشقاق طائفي في حزب (اغودات يسرائيل) عشية انتخابات عام ١٩٨٤، وشكل المنشقون قائمة انتخابية حملت اسم "قائمة حراس التوراة الشرقيين – شاس" وقد تمكنت هذه القائمة من إيصال أربعة من أعضائها إلى الكنيست.

أما على الصعيد الحكومي، فإن أول يهودي من أصل مغربي يدخل الوزارة الإسرائيلية كان في حكومة مناحيم بيغن الأولى، الذي يبدو أنه أراد مكافأة اليهود من أصل مغربي على دعمهم إياه في الانتخابات التي أوصلته إلى سدة الحكم، فأدخل اثنين من أصل مغربي في حكومته الأولى، هما في الوقت نفسه الوزيران الوحيدان من أصل شرقي، وهما ديفيد ليفي من حيروت – ليكود وزيراً "للاستيعاب والسكان"، والحاخام اهارون أبو حصيرة عن حزب المفدال – قبل انشقاقه عنه – وزيراً للأديان، وأضاف بيغن وزيراً ثالثاً شرقياً من أصل غير مغربي في حكومته الثانية. وفي ما بعد في حكومة شامير الأولى وحكومة الرأسين (الوحدة الوطنية) اقتصر تمثيل اليهود المغاربة على وزير واحد هو ديفيد ليفي.


http://kotob.has.it

الفصل الخامس

اليهود العراقيون
نموذج ثالث(*)

يتجدد النقاش عن اليهود ذوي الأصل العراقي في إسرائيل وذلك لمناسبة تأسيس "جمعية التضامن مع الشعب العراقي" في تل أبيب، وكان الحديث محوراً لمناقشات في صحف عربية قبل سنوات تعليقاً على مقالة للأديب الإسرائيلي سمير نقاش.

وبادئ ذي بدء، فإن شمعون بلاص، عضو اللجنة المؤسسة، أوضح بدقة أن غرضها "تنوير الرأي العام في إسرائيل حول النتائج الوخيمة للحصار الذي فرض على العراق. كما أن من أهدافها جمع الشهادات والوثائق من اليهود العراقيين، سواء في إسرائيل أو خارجها، للشروع بتحقيق أبحاث موضوعية حول التجربة الحياتية المشتركة التي جمعت اليهود وغير اليهود في العراق حتى الهجرة الجماعية في مطلع الخمسينات".

وكما يقول، فإن اليهود عاشوا في انسجام حضاري مع بقية أفراد الشعب العراقي وتسلم عدد من شخصياتهم مناصب حكومية مرموقة، منهم ساسون حزقيل الذي عيّن مراراً وزيراً للمال في العشرينات من دون أن يثير ذلك استغراب العراقيين فضلاً عن استهجانهم، ومنهم مير بصري وشعراء وكتاب وروائيون ذوو تأثير وإبداع، وكوادر قيادية نشطة في الحركات والتنظيمات السياسية من الحزب الوطني الديمقراطي إلى الشيوعي.

إن السحابة القاتمة الحقيقية في تاريخ العلاقات اليهودية _ العراقية حلت في بداية حزيران (يونيو) ١٩٤١، إثر انهيار حركة رشيد عالي الكيلاني، وهي أحداث

(*) الحياة ١٩٩٨/٥/٢٥.

اعتدنا تسميتها "الفرهود"، وراح ضحيتها مئات من المواطنات والمواطنين اليهود... وعوامل تلك الأحداث المروعة كانت سياسية وإيديولوجية طارئة على المجتمع العراقي وجذوره التاريخية والإنسانية. ومعروف أن الإنكليز أعطوا الضوء الأخضر لتلك الفظائع لكي ينسى شعب بغداد احتلالهم الجديد، وأثبتت لجنة التحقيق العراقية الرسمية مسؤولية متصرف بغداد ومدير الشرطة العام وآمر الفرقة العسكرية الأولى ومدراء في الشرطة وغيرهم من أركان الإدارة الحكومية في بغداد. فقد تعمدت تلك السلطات عدم التدخل لوقف الانتهاكات إلا بعد بلوغها درجات بشعة، كما أن من بين مسؤولي الجيش والشرطة من شجع على اقتراف الانتهاكات. واقترن ذلك بالدعايات العنصرية المتطرفة لبعض "القوميين" وبجهل وفقر بعض مهمّشي الأطراف، وحال الإحباط لدى الجندي العائد مهزوماً من المعارك وإطلاق إشاعات كاذبة عن تصرفات نُسبت لليهود يوم دخل الجيش البريطاني.

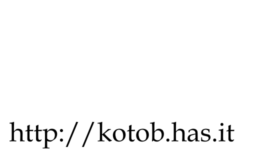
واستطاع العراقيون، (لا سيما بفضل أفكار ونشاط الحركة الديموقراطية وتطورات الحرب العالمية الثانية)، لعق جراحهم بسرعة وإبعاد شبح مأساة "الفرهود" عن العلاقات العراقية _ العراقية المجتمعية، حتى اندلاع حرب فلسطين الأولى التي كشفت نتائجها عن تواطؤ بعض أطرافها العربية في المؤامرة الكبرى المعادية للمصالح الفلسطينية. وعلى رغم كل شيء، ظلت الأكثرية من اليهود متشبثة بالبقاء في وطنها العراقي، حتى عندما أصدرت حكومة صالح جبر في بداية الخمسينات قانوناً لهجرة اليهود. فقد تجاوب بضع مئات فقط مع تشريع الهجرة و"تحليلها" رسمياً. وهنا جاء دور الجمعيات الصهيونية السرية وضباط استخبارات إسرائيليين، لبث الرعب العام بين اليهود لحملهم على الهجرة الجماعية. فجرى إلقاء المتفجرات في أماكن عبادة اليهود وتجمعاتهم، ونسب ذلك للعراقيين لتبرير الهجرة، فيما كان الصهاينة هم رؤوس التفجيرات وأدواتها. وهكذا كان التهجير الجماعي ليهود العراق مؤامرة ثنائية الأطراف: الصهيونية من جهة (والاستعمار معها)، وبض أقطاب الحكم العراقي، عهدذاك، من الجهة الأخرى.

وظلت أكثرية اليهود المهجرين تحن إلى بغداد وسائر المدن والأرياف العراقية التي احتضنتها، وحافظت على بعض التقاليد ومفردات الفولكلور العراقية.

ومن اللافت اليوم الحديث عن يهود العراق ودورهم في رسم مستقبل هذا البلد، عبر التعاون مع قوات الاحتلال الأميركي - البريطاني أو كيان العدو إطار أختراق المجتمع العراقي وفرض التطبيع عليه.

الباب السادس عشر

أقليات يهودية غير معترف بها


http://kotob.has.it

الفصل الأول

لمحة تاريخية(*)

توجد في إسرائيل أقليات يهودية غير معترف بها من قبل المؤسسة الدينية الأرثوذكسية إذ تعتبر يهودية هذه الأقليات في نظر هذه المؤسسة يهودية غير صحيحة وغير أصيلة. وهذه الأقليات بعضها قديم مثل السامريين واليهود الاثيوبيين (الفلاشا) والقرائين وبعضها الآخر ظهر في العصر الحديث مثل الإصلاحيين والمحافظين واليهود الأميركيين السود.

وكانت قد أثيرت ضجة في إسرائيل حول اليهود الإصلاحيين عندما اتهم هؤلاء رئيس الحاخامين السفارديم إلياهو بكش دورون بالتحريض على قتلهم وما زالت هذه الضجة مستمرة إلى اليوم.

لا تقتصر اليهودية اليوم كدين على المذهب الأرثوذكسي وحده لكن هذا المذهب هو الأشهر بين المذاهب اليهودية الأخرى إذ ان الإعلام يتحدث عنه ويسلط الأضواء عليه أكثر من غيره، إذ ان هناك إلى جانبه مذاهب رئيسية ثلاثة هي اليهودية الإصلاحية، اليهودية المحافظة، ومذهب تجديد اليهودية. وعلى رغم أن المذهب الأرثوذكسي اليوم هو الأشهر والأكثر دعاية إلا أن مجموع المنتمين إلى المذاهب الأخرى هم أكثر عدداً من

(*) الحياة ١٥/١٠/١٩٩٦.

أتباع ذلك المذهب.

تاريخياً يعتبر المذهب الأرثوذكسي أقدم هذه المذاهب إذ كان الوحيد الذي يمثل اليهود المتدينين. وانشق عنه فيما بعد مذهب اليهودية المحافظة ومن الأخير خرج مذهب تجديد اليهودية ويعتبر الوحيد الذي نشأ في الولايات المتحدة وأغلب أتباعه من الأميركيين، وهو أيضاً أصغر هذه المذاهب وأتباعه أقل عدداً منها وليس لهؤلاء وجود يذكر في إسرائيل لذلك لن نتحدث عنه.

وكان ظهور مذهب اليهودية الإصلاحية في بداية القرن التاسع عشر في ألمانيا وسببت ظهوره ظروف اقتصادية واجتماعية وفرها عصر التنوير لليهود فقد كان اليهود في أوروبا قبل هذا العصر يعيشون في مناطق خاصة بهم معزولين بصورة عامة عن بقية أبناء الدولة التي يعيشون فيها بل ان الكثير منهم كان يتكلم اليديش وليس لغة البلد وما زالت اليديش يتكلمها الكثير من يهود أوروبا. وكانوا أيضاً يتخذون لباساً مميزاً لهم عن غيرهم ويأكلون طعاماً خاصاً بهم. وكان تعاملهم مع غير اليهود محدوداً جداً لأن الغيتو الذي كان مكان سكناهم قد هيأ لهم ما يحتاجون إليه.

وبسبب الحقوق التي منحت لليهود والفرص الجديدة التي تهيأت لهم زاد اختلاطهم بغيرهم من الناس ودخلوا حياة جديدة لم يعرفوها من قبل ولم يعهدوها، وكان من نتائج ذلك أن ترك الكثير منهم اليهودية واندمج في المجتمع الذي يعيش فيه واعتقد بأن ذلك هو الطريق الوحيد لاغتنام الفرص وتحقيق النجاح.

ورأى آخرون من اليهود ان الطريق الأفضل لإبقاء اليهود ضمن اليهودية وإيقاف عملية تركهم لهم هو إجراء إصلاح على الشريعة يقلل من شعائرها وطقوسها ويجعلها تتناسب وروح العصر. وكانت بداية هذه الإصلاحات في ألمانيا، حين اعتقدت مجموعة من اليهود الألمان - وكان الكثير منهم من الطبقة العليا - بأن الشعائر والطقوس الدينية خصوصاً ما يرتبط منها بالصلاة لا تتناسب مع حاجات الشخص الذي يريد أن يشارك مشاركة كاملة في المجتمع الألماني ولذلك كانت الإصلاحات الأولى على الصلاة حين أخذت تقام بلغة البلد بدل العبرية والآرامية وأصبح وقتها أقصر مما كان عليه وتصاحب أداءها الموسيقى - كما عند المسيحيين - ولبس الحاخامون في الصلاة زيّاً كما يلبس القسس. ومن التغييرات التي أحدثها هؤلاء إزالة الحاجز بين الرجال والنساء في الكنيس (المحيصاه) وألغوا كذلك غطاء الرأس (الكباه) عند أداء الصلاة (بعض

الإصلاحيين يلبسه اختياراً في الوقت الحالي). وألغوا من الصلاة كذلك الإشارات إلى الجوانب القومية والأثنية وما يشير إلى الرجوع إلى صهيون[١]. وبمرور الزمن ألغوا شعائر وطقوساً أخرى غير هذه. لكن الذي أثار حفيظة اليهود الأرثوذكس وجعلهم يخرجون الإصلاحيين من اليهودية التي يؤمنون بها هو تخلي هؤلاء الإصلاحيين عن فكرة قدسية التوراة. إذ قال هؤلاء بأن التوراة وإن تكن قد أوحي بها لكن النبي موسى لم يكتبها بنفسه وإنما كتبها أناس آخرون تعاقبوا على كتابتها في فترات مختلفة من الزمن. وكتبها هؤلاء طبقاً لفهمهم لما يريده الله. ولما كان البشر غير معصومين عن الخطأ فقد أدّى هذا إلى حدوث زيادة ونقصان وتناقض وتكرار في التوراة وأصبح بعض نصوصها غير صالح للعصر الحديث لذلك فلا بد وأن تكون موضوعاً لإعادة النظر. ويبرر اليهود الإصلاحيون هذا الرأي اليوم بقولهم انه ليس هناك حاجة للدفاع عن نصوص متكررة أو متناقضة وليس هناك حاجة إلى البحث عن معان خفية لها لتبرير صحتها بل إن هذه النصوص يجب أن تقبل على أنها نتيجة طبيعية لعمل قام به أكثر من شخص خلال عصور مختلفة[٢]. كذلك لم يعترف الإصلاحيون بقدسية التلمود، بينما يعتقد اليهود الأرثوذكس بأن التوراة قد أوحي بها كلها وهي التوراة الحالية التي لم يمسّها تغيير أو تبديل وان التلمود هو كتاب مقدس وهو المصدر الثاني للشريعة اليهودية حيث يسمى "الشريعة الشفوية" وتسمى التوراة "الشريعة المكتوبة"[٣].

وكان من أشهر الداعين إلى الإصلاح الحاخام الألماني أبراهام غيغر (ت ١٨٧٤ م) الذي يعتبر من المؤسسين لليهودية الإصلاحية والمنظرين لها والمدافعين عنها. وكان يقول إن روح اليهودية هو المهم وليست الشعائر والطقوس التي يمكن أن تتغير ودعا غيغر إلى إزالة تلك الجوانب في اليهودية التي تجعل اليهود متميزين عن غيرهم وتجعلهم يختلفون عن الشعوب التي يعيشون بينها بل أن غيغر حذف من الصلاة المقاطع التي تشير إلى "الشعب المختار"[٤].

(1) S. A. Cohen and E. Don-Yehiya (Eds.), Conflict and Cosensus in Jewish Political Life. pp. 172-173.
(2) Joseph. L. Blau, Modern Varieties of Jodaism, pp. 38-39.
(3) Jonathan A. Romain, Faith and Practice, A Guide to Refrom Judaism Today, pp. 2-3.
(4)Joseph. L. Blau, op. cit, p. 38.

ورأى بعض الإصلاحيين بأن الحركة تذهب بعيداً فيما تحدثه من تغيير على اليهودية حين أخذ مؤيدو الإصلاح يرفضون معتقدات مهمة في اليهودية مثل معتقد المسيح المخلص. وقالوا بأن هذا المعتقد لا يعني ظهور شخص يطلق عليه المسيح المخلص وإنما يعني عصراً مسيحانياً(١). كذلك تغيير اليوم المقدس من السبت إلى يوم الأحد وإلغاء الختان إلى غير ذلك من معتقدات(٢).

وقرر هؤلاء الانشقاق عن الحركة الإصلاحية وتم ذلك في المؤتمر الذي عقد في فرانكفورت عام ١٨٤٥ م وقد قاد الانشقاق الحاخام زكريا فرانكل (ت ١٨٧٥ م) الذي خرج محتجاً على بعض التغييرات على الشريعة اليهودية وعدم استعمال اللغة العبرية. وقال بأن التغيير يجب أن يأتي من الناس لأن إرادة الجماعة هي التي تقرر ما يجب أن يجري على الشريعة ويغير فيها ودعا إلى تغيير تدريجي وليس ثورياً وكانت له آراء أخرى وأطلق عليها فيما بعد اسم "اليهودية الإيجابية التاريخية"، فهي إيجابية نحو التقاليد والشريعة وهي تاريخية لأنها تنظر نظرة نقدية تاريخية إلى اليهودية. وقد طور أتباعه ومؤيدوه أفكاره هذه وأصبحت فيما بعد مذهباً قائماً بنفسه سمي بمذهب اليهودية المحافظة. وبمرور الزمن برزت اختلافات بين المذهبين(١).

وكان من الخلافات المهمة في السنين الأخيرة قرار المذهب الاعتراف بيهودية من يولد لأب يهودي وليس فقط من يولد لأم يهودية (يتحفظ بعض اليهود الإصلاحيين عن ذلك).

وعلى رغم الاختلافات بين المذهبين في الوقت الحاضر حول بعض الأحكام في الشريعة اليهودية، فإن المذهبين يتفقان في نظرتهما إلى التوراة ونظرتهما إلى الشريعة اليهودية عموماً وضرورة استمرار تطورها طبقاً للظروف وإن كانت نظرة المذهب الإصلاحي أكثر تطرفاً. ويتفق المذهبان كذلك على مسائل مهمة مثل جواز أن تصبح المرأة حاخامة، ولدى المذهبين الآن عشرات الحاخامات وان تعدّ من عدد المصلين الذين

(1) Ibid. p. 39.
(2) Michael A. Meyer, Response to Modernity, Altistor of the Reform Movement in Judaism, p. 123.
(3)Gilbert S. Rosenthal, Contemprary Judaism. p. 150.

يمكن أن تقام بهم الصلاة (المنيان)، ومثل جواز الذهاب إلى الكنيس بالسيارة يوم السبت (لا يطبق هذا الحكم عند بعضهم في إسرائيل لكثرة الكنس فيها) ومثل عدم الالتزام بلبس الكباه (القلنسوة) إلى غير ذلك من مسائل كثيرة عمقت شقة الخلاف بين هذين المذهبين والمذهب الأرثوذكسي.

ومنذ ظهور المذهب الإصلاحي في ألمانيا أصدر الحاخامون الأرثوذكس فتاوى بطرد (حِرِم) الذين دعوا إلى الإصلاح من اليهودية[1]. وما زال هذا الطرد نافذاً إلى يوم الناس هذا. وعلى رغم هذه الفتاوى والمعارضة الشديدة لهؤلاء ازداد أتباع هذين المذهبين وأصبح عدد المنتمين إليهما يفوق كثيراً عدد اليهود الأرثوذكس ومع أن نشأتهما الأولى كانت في أوروبا إلا أن أكثر أتباعهما اليوم يوجدون في الولايات المتحدة. ومن البلدان التي دخلها المذهبان هي إسرائيل. لكن الفرق بين إسرائيل والدول الأخرى هو أن المذهب الأرثوذكسي من دون بقية المذاهب والفرق اليهودية الأخرى هو المذهب الوحيد المعترف به لتنظيم الشؤون الدينية والأحوال الشخصية والإشراف عليها مثل الطلاق والزواج والدفن والكشروت والتهود وغير ذلك.

ويرجع هذا الاعتراف إلى بداية ظهور الدولة العبرية عندما اتفق العلمانيون الصهاينة مع المتدينين اليهود - الذين تمثلوا بجماعة أغودات يسرائيل - على الأمور الآتية.

١ - أن يكون اليهود الأرثوذكس هم المسؤولون عن الإشراف على الشؤون الدينية في الدولة.

٢ - أن يكون يوم السبت هو العطلة الرسمية.

٣ - أن يطبق الكشروت في كل مؤسسات الدولة.

٤ - أن تحترم الدولة نظام التربية الخاص باليهود الأرثوذكس[2].

ومنذئذ يسيطر اليهود الأرثوذكس بفئاتهم المختلفة على الشؤون الدينية بكل مفاصلها في إسرائيل ولهم ما يقرب من خمسة آلاف كنيس في طول البلاد وعرضها

(1) *Ibid. p. 89.*

(2) *Hertzel Fishman, The Challenge to Jewish Survival, p. 72.*

تمنحها الحكومة منحاً سنوياً لإدامتها وأداء أعمالها. ولليهود الأرثوذكس عشرات اليشيفوت (المدارس الدينية) يدرس فيها - كما ذكرت بعض المصادر - أكثر من مئة ألف طالب وهؤلاء أيضاً يتسلمون منحاً من الحكومة ولا يخدمون في الجيش. ولليهود الأرثوذكس ما يقرب من ٧٠٠ حاخام يتسلمون رواتب من الحكومة. ويسيطر اليهود الأرثوذكس كذلك على المجالس الدينية التي توجد في بلدية. وقد تسلم اليهود الأرثوذكس في إسرائيل ما يقرب من ٣٥٠ مليون دولار مساعدات من الحكومة في السنة الماضية لبناء كنس جديدة وحمامات شرعية ومراكز ثقافية ولتنفيذ شرعة الكشروت وغير ذلك.

وطيلة العقود الماضية ازداد عدد اليهود الأرثوذكس في إسرائيل والسبب الرئيسي في ذلك هو التكاثر الطبيعي إذ انهم يكثرون من النسل ويعتبرونه فريضة وليس استثناء أن يكون للعائلة الواحدة تسعة أو عشرة أولاد بل حتى ١١ و١٢ ولداً والهجرة أيضاً عامل آخر في هذه الزيادة. كما أصبح لهم ثقل سياسي في إسرائيل حين أسسوا بعض الأحزاب الدينية السياسية.

الفصل الثاني

المذهب الإصلاحي

يعتقد بأن دخول المذهبين (الإصلاحي والمحافظ) إلى فلسطين كان في الثلاثينات. وكان أول يهود إصلاحيين يدخلون إلى فلسطين من اليهود الألمان بعد أن وصل هتلر إلى الحكم عام ١٩٣٣ وكان بين هؤلاء حاخامون. وأنشأ الحاخام ماكس ألك أول كنيس إصلاحي في فلسطين عام ١٩٣٥ في مدينة حيفا ثم أنشأ كنيساً آخر في القدس بعد سنتين[1]. كذلك أنشأ هذا الحاخام مدرسة ثانوية في حيفا عام ١٩٣٩ سمّاها مدرسة ليوبك (وهناك كلية في لندن لليهود الإصلاحيين بهذا الاسم). وبعد ظهور الدولة العبرية أنشأ المذهب الإصلاحي مكاناً للصلاة عام ١٩٥١ وكانت الستينات هي سنين التوسع بالنسبة إلى المذهب الإصلاحي حين أنشئ في هذه الفترة أكثر من كنيس. وأصبح لهم ١٣ كنيساً في عام ١٩٧٩ ثم أصبح عددها ١٨ كنيساً عام ١٩٩٢. وفي الستينات افتتحوا مركزهم الرئيسي في القدس الذي يضم معهداً دينياً ومدرسة للآثار وكنيساً ومكتبة. ويخرج المعهد حاخامين وحاخامات ويقضي فيه سنة كل طالب من المذهب الإصلاحي يريد أن يكون حاخاماً أو طالبة تريد أن تصبح حاخامة أينما كانت

(1) William Frankel, Israel Observed, An Anatomy of the State. p. 217.

دراسة الطالب أو الطالبة خارج إسرائيل، كذلك أنشأ المذهب الإصلاحي مركزاً ثقافياً واجتماعياً في القدس. وأنشأ كذلك بعض المستوطنات اثنتان منها في النقب هما "يحال" و"الوثان" وواحدة في الجليل هي "هارحالوتس"(١).

أما بالنسبة إلى أتباع المذاهب اليهودية المحافظة فقد كان دخولهم إلى فلسطين في الثلاثينات أيضاً إذ أنشأوا كنيساً في القدس عام ١٩٣٧ لكن بعد سنين من إنشائه تحول أكثر أعضائه إلى يهود أرثوذكس وهو اليوم من أشهر الكنس الأرثوذكسية في إسرائيل واسمه يشورون.

ويطلق أتباع هذا المذهب على مذهبهم في إسرائيل اسم "ماسورتي" وهي كلمة عبرية تعني تقليدياً أي يتبع التقاليد (اليهودية). وهذا الاسم أيضاً يستعمله أتباع هذا المذهب في المملكة المتحدة. وقد بدأ نمو المذهب بطيئاً كالإصلاح. وكانت السنين التي تلت عام ١٩٧٠ هي سنوات التوسع بالنسبة إلى هذا المذهب. وقد عقدوا مؤتمرهم الرئيسي عام ١٩٧١ في القدس وافتتحوا الكنيس الرئيسي لهم عام ١٩٧٢ في القدس أيضاً وكان لهم في منتصف الثمانينات ٤٠ كنيساً و١٢٠ حاخاماً ولهم كذلك مدرسة لتدريس اليهودية في القدس ولهم كذلك معهد لتخريج الحاخامين من إسرائيل. وقد افتتحت أبوابها عام ١٩٨٤,(٢) ولهم منظمة للشباب اسمها "تؤام" وأكثر أعضاء هذه المنظمة هم من أبناء أتباعه. كذلك أنشأوا مستوطنة اسمها حناتون في منطقة الجليل عام ١٩٨٤ ولهم أيضاً مجمع صناعي في هذه المنطقة(٣).

وربما أهم نشاط للمذهب الماسورتي في إسرائيل هو البرنامج التربوي الذي يسمى "تالي" وهذه الكلمة هي مختصر لعبارة عبرية تعني تعميق الدراسة اليهودية. وبوشر في تطبيق البرنامج قبل ٢٠ سنة في القدس وهو يطبق الآن في كثير من رياض الأطفال والمدارس حين اختاره آباء التلاميذ الذين يدرس أبناؤهم في مدارس الدولة. وبلغ عدد التلاميذ المنضمين إلى هذا البرنامج عام ١٩٩٠ - ١٩٩١ أكثر من ٢٥٠٠ تلميذ من مجموع التلاميذ في إسرائيل الذين بلغ عددهم في السنة نفسها مليوناً و١٦٠ ألفاً.

(1) Hertzel Fishman, The Challenge to Jewish Survival, p. 83.
(2) Gilbert S. Rosenthal, Contemporary Judaism, p. 355.
(3) Ibid, p. 96.
(4) Hertzel Fishman, op. cit, p. 81.

وازداد عدد المشاركين في السنة التالية حين أصبح أكثر من ستة آلاف. وأصبح عددهم في هذا العام أكثر من ثمانية آلاف تلميذ(٤).

البرنامج في طبيعته برنامج ديني يحث التلاميذ على ممارسة الشعائر في المدرسة ولا يطلب منهم ممارستها في خارجها. وتكون الصلاة في المدارس الثانوية اختيارية وليست إجبارية. ويشارك فيها الذكور والإناث سوية. ونشاطات المذهبين مسموح بها من قبل الدولة لكن الذي يعارض نشاطهم وممارساتهم الدينية هم اليهود الأرثوذكس الذين هم ممثلون بالمؤسسة الدينية التي على رأسها رئيسا حاخامين أحدهما سفاردي والآخر اشكنازي. وهذه المؤسسة هي وحدها المعترف بها من قبل الدولة كما ذكرت.

ذكرت سابقاً بأن اليهود الأرثوذكس كانوا قد أصدروا في السابق قراراً بطرد هؤلاء من اليهودية إذ هم في رأيهم خارجون عن اليهودية الحقّة. لذلك فإن هؤلاء الأرثوذكس لا يعترفون بعقود زواج هؤلاء ولا بأدائهم للطلاق كذلك لا يعترفون بيهودية اليهودي الذي يصبح يهودياً على أيديهم. والسبب في أن الأرثوذكس لا يعترفون بيهودية من يتهود عن طريق هذين المذهبين هو اشتراطهم في الحاخامين الذين يشرفون على التهود أن يكونوا ملتزمين بالشريعة (الهلخا) التي يلتزم بها اليهود الأرثوذكس بينما لا يلتزم بها المذهبان الآخران لذلك فإن الذي يتهود تحت إشراف مجلس (محكمة) من حاخامين غير أرثوذكس لا يكون يهودياً في رأي هؤلاء لأن قرارات المجلس كلها باطلة إذ الحاخامون غير مؤهلين لإصدارها. ونتيجة لهذا فإن المرأة المتهودة عن طريق غير الأرثوذكس لا يعتبر أولادها يهوداً (يعترف اليهود الأرثوذكس بيهودية الشخص عن طريق أمه). كذلك لا يسمح للأولاد بالدخول إلى مدرسة يهودية يديرها الأرثوذكس ولا يسمح لهؤلاء كذلك أن يتزوجوا في كنيس أرثوذكسي.

وكان من القضايا الأولى التي أثارت الجدل والنقاش وتعتبر انتصاراً للأرثوذكس هي قضية امرأة مسيحية تهودت في إسرائيل عام ١٩٧٠ على يد حاخام إصلاحي من تل أبيب ورفضت المؤسسة الدينية الاعتراف بها واعترضت المرأة على المؤسسة الدينية لدى المحكمة العليا وحينها هدد الحزب الديني الوطني - الذي كان مشاركاً في الحكومة الائتلافية - بأنه سينسحب من الحكومة لو اعترفت بتهويد المرأة قانونياً. وأصدرت المؤسسة الدينية بياناً قالت فيه ان الاعتراف بشرعية تهويد الإصلاح سيهز

الشعب الإسرائيلي من أساسه ويحدث شرخاً كبيراً بين الشعب اليهودي لم يحدث مثله منذ انقسام اليهود إلى دولتين بعد موت سليمان بن داود. وقالت الحاخامية ان أي تهود بواسطة غير الأرثوذكس لا يعتبر شرعياً سواء كان في إسرائيل أو خارجها[١].

وكتب وزير العدل حينها رسالة إلى وزير الداخلية يخبره فيها أن الحكومة لا سيطرة لها على من يتهود خارج إسرائيل وان التهود داخل إسرائيل هو من مسؤولية المؤسسة الدينية حيث انها هي المسؤولة عن هذه القضايا وهي وحدها التي تتمتع بالاعتراف من قبل الدولة. وأكد الوزير كذلك بأن رفض تسجيل المتهود عن طريق الإصلاح من قبل وزارة الداخلية يعتبر قانونياً. ثم طُلب من المرأة أن تتهود على الطريقة الأرثوذكسية وتم ذلك بسرعة استثنائية إذ ان التهود عند الأرثوذكس يأخذ وقتاً طويلاً[٢].

كتب أحد الحاخامين الإصلاحيين مقالة بعد هذه الحادثة منتقداً المؤسسة الدينية الأرثوذكسية على مواقفها من الإصلاح جاء فيها: "منذ بداية الجدل حول (قضية) "من هو اليهودي" والمؤسسة الحاخامية (في إسرائيل) والحزب الديني الوطني يعارضان بكل شدة طريقة تهويد الإصلاح... وبعد شهور من تشويه السمعة والقذف ضد اليهودية الإصلاحية وزعمائها تأخذ المؤسسة الحاخامية امرأة تهودت عن طريق الإصلاح ومتزوجة بكاهن وتعيش في مستوطنة غير دينية حيث أحكام الكشروت والسبت لا تطبق فيهودها على الطريقة الأرثوذكسية في فترة استثنائية... وليست الرغبة في الحفاظ على الشريعة قد دفعت المؤسسة الحاخامية (الأرثوذكسية) إلى ذلك لكنها الرغبة في جعل الشريعة من ممتلكاتها الخاصة.

ولما كانوا (الأرثوذكس) يعرفون بأن الوقت والمنطق هما ضدهم فقد قرروا استغلال الوضع السياسي الحساس (في إسرائيل) من أجل أن يشددوا من احتكارهم للقضايا الدينية ومن أجل أن يقوموا بهذا فإنهم استعملوا طريقة قديمة وهي الابتزاز السياسي بلباس الدين وهم يقولون انهم يريدون بهذا أن يوحدوا الشعب اليهودي لكن نتيجة عملهم هذا هو زرع الشقة بين اليهود وتهديد حكومة الائتلاف بالانهيار في الوقت الذي تكون فيه الوحدة في منتهى الأهمية لخير الشعب والدولة. إن القول بأن اليهود في

(1) S. Clement Leslie, The Rift in Israel, Religious Authority and Secular Democracy, p. 45.
(2) Ibid. pp. 45-46.

أميركا يريدون أن يكون للحزب الديني الوطني احتكار القضايا الدينية في إسرائيل هو قول مثير للضحك وكاذب. ففي الواقع ان أقلية صغيرة من اليهود الأرثوذكس في الولايات المتحدة فشلوا في جهودهم من أن يقللوا من تأثير المذهب المحافظ والإصلاح في الولايات المتحدة لذلك فإنهم وجدوا الآن في إسرائيل وسيلة سياسية لفرض المواطنية من الدرجة الثانية على غير اليهود الأرثذوكس"(١).

ولا تدخر المؤسسة الدينية الأرثوذكسية وسعاً في معارضة هذين المذهبين ووضع العراقيل والعقبات أمام نشاطاتهما في إسرائيل. ففي الخمسينات عندما أراد أتباع المذهب الإصلاحي بناء مركزهم الرئيسي في القدس المسمى Hebrew Union Col- legeعلى أرض تبرعت بها الحكومة اعترضت المؤسسة الدينية بشدة على ذلك وقالت بأن اليهود الإصلاحيين خطرون على اليهودية وعلى الدولة واستمر الجدل حول الموضوع من عام ١٩٥٥ إلى عام ١٩٦٣ حين افتتح المركز هذه السنة. وعندما افتتح أصدر رئيس الحاخامين السفارديم آنذاك الحاخام نسيم بياناً قال فيه: "إن الحرية الدينية تعطى لأتباع الأديان ومن ضمنهم الأقليات من أجل ممارسة عقيدتهم، وليس الغرض من هذه الحرية تحقيق هدف مناقض حيث تكون النتيجة لذلك ان الدين الغالب في الدولة يتعرض إلى الخطر والتمزق. إن المذهب الإصلاحي ليس ديناً"(٢).

وفي عام ١٩٨٢ وافقت بلدية بئر السبع على تخصيص قطعة أرض لبناء كنيس لأتباع اليهودية الإصلاحية لكن الحزب الديني الوطني اعترض ثم اشترط أن يكون هذا الكنيس قريباً لأي كنيس أرثوذكسي. وقال ممثل "أغودات يسرائيل" في مجلس البلدية: "إن بناء بئر السبع كارثة وسوء حظ للأجيال القادمة. لقد أعطيت الموافقة للإصلاحيين لبناء كنيس الآن وغداً سيطلب منا (الموافقة على) بناء كنيسة"(٣).

وتطلب المؤسسة الدينية الأرثوذكسية من كل المؤسسات التي لديها إجازة كشروت (الحلال والطاهر شرعاً) أن لا تسمح لليهود من أتباع المذهبين بإقامة شعائر أو

(1) S. Clement Leslie, The Rift in Israel, Religious Authority and Secular Democracy, pp. 47- 48.
(2) William Frankel, Israel Observed, An Anatomy of the State. p. 218.
(3) S. A. Cohen and E. Don-Yehiya, Conflict and Cosensus in Jewish Political Life. p. 185.

احتفالات فيها وإلا فإن الإجازة ستسحب منهم (المؤسسة الدينية الأرثوذكسية هي وحدها التي تعطي هذه الإجازة).

وتصدر المؤسسة الدينية منذ سنوات بيانات حول عدم شرعية الصلاة مع هؤلاء، ومنها بيان صدر عن رئاسة حاخامية القدس في ١٩٨٠/٩/٥ حول عدم شرعية الصلاة مع أتباع المذهب الماسورتي وجاء البيان بالنص الآتي: "إن كثيراً من الناس سألونا فيما إذا كانت المشاركة في صلاة الماسورتي (المحافظ) جائزة في المناسبات الدينية التي أعلن عنها في الصحف. ونحن نريد أن نوضح رأينا (رأي الشريعة) كما أعلنا في الصحف في العام الماضي وهو أن التوراة المقدسة تحرم المشاركة في هذه الصلوات وإن من يشارك فيها لا يؤدي واجبه سواء كانت هذه المشاركة في المناسبات الدينية الخاصة أو بشكل منتظم خلال السنة. كذلك لا يؤدي الشخص واجبه بسماع الشوفار في كنيس المحافظين. ولذلك فإننا نصدر هذا النداء إلى عامة الناس حتى لا تغرهم دعاية هذه الحركة. وعليهم كذلك أن لا يشتركوا بأية طريقة في أي نشاط من أنشطة هؤلاء[1].

وفي عام ١٩٨٨ ضغط اليهود الأرثوذكس من أجل إصدار قانون يمنع فيه هجرة اليهود الإصلاحيين والماسورتي إلى إسرائيل. فقد كان الحزبان الرئيسيان في إسرائيل (العمل والليكود) يحتاجان إلى انضمام الأحزاب الدينية لتأليف الحكومة وكانت للأحزاب الدينية شروط للانضمام منها تغيير ما يسمى بقانون العودة الحالي يعرّف اليهودي بأنه مَن وُلد من أم يهودية أو ممن تهود طبقاً للهلخا وإضافة عبارة "طبقاً للهلخا" تخرج اليهود الإصلاحيون والمحافظون ممن ينطبق عليهم القانون إذ أن هؤلاء لا يهودون طبقاً للهلخا التي يؤمن بها الأرثوذكس.

وعندما علم زعماء المحافظين والإصلاح في الولايات المتحدة بهذه المحاولة ثارت ثائرتهم وجاءت وفودهم تترى لتقابل المسؤولين في إسرائيل حول ما أطلقوا عليه خطورة التغيير. وقابلوا في إسرائيل زعماء الأحزاب وأعضاء الكنيست وعقدوا مؤتمرات صحافية وأعلنوا بأن "قانون العودة" إذا تغير فإنه سيؤثر كثيراً على علاقة يهود الشتات بالدولة العبرية إذ سيكون من نتائج ذلك أن اليهودي غير الأرثوذكسي سوف لا يساعد الدولة مالياً بل ولا يساعد المؤسسات الصحية والاجتماعية كذلك. وان

(1) Ibid, p. 185.

هؤلاء سوف لا يضغطون على حكومات الدول التي يعيشون فيها من أجل مصلحة إسرائيل. وبسبب ضغوط هذه الوفود على الجماعات المؤثرة في إسرائيل اتفق الحزبان الرئيسيان فيها على تشكيل حكومة وطنية تضم الحزبين ورأس الوزارة رئيسا الحزبين بالتناوب(١).

ويطالب الإصلاحيون والمحافظون منذ فترة طويلة بإنهاء احتكار اليهود الأرثوذكس للقضايا الدينية في إسرائيل. وفي عام ١٩٦٤ قدّم المذهب الإصلاحي والماسورتي ومعهما منظمات علمانية طلباً إلى رئيس الوزراء ليفي اشكول لإلغاء احتكار هؤلاء للسلطة الدينية. وفي عام ١٩٧٣ دعا مؤتمر اليهود المحافظين الدولة العبرية للاعتراف بالمذهبين إلى جانب المذهب الأرثوذكس وإيقاف محاربتهما. وفي عام ١٩٨١ دعا مؤتمر اليهود الإصلاحيين إلى إلغاء رئاسة الحاخامية وإقرار المساواة بين المذاهب اليهودية. ومنذ الثمانينات يقوم حاخام إصلاحي اسمه اوري رغب مسؤول مركز العمل الديني التابع للمذهب الإصلاحي بحملة لتحقيق المساواة بين هذه المذاهب. ومنذئذ قدّم حوالي ٤٠ طلباً إلى المحكمة العليا حول قضايا دينية مختلفة(٢). لكن المحكمة ترفض طلباً للاعتراف بشرعية عقود الزواج والطلاق التي يؤديها المذهبان. وكانت المحكمة أصدرت أمراً في عام ١٩٨٩ إلى وزارة الداخلية تطلب منها أن تعترف بيهودية اليهودي الذي يتهود خارج إسرائيل أياً كان المذهب الذي تهود عن طريقه وأن يسجل هذا الشخص يهودياً على بطاقة هويته في إسرائيل ولكنه في الوقت نفسه لا يعتبر يهودياً في حال الزواج والطلاق وغيرها من الأحوال الشخصية إذ في هذه الحالات عليه أن يتحول عن طريق اليهود الأرثوذكس(٣). كما أصدرت المحكمة العليا عام ١٩٩٢ قراراً يدعو الحكومة إلى مساعدة اليهود وغير الأرثوذكس بالمنح المالية لتخصيص مقابر خاصة بهم. وفي عام ١٩٩٣ أصدرت المحكمة نفسها قراراً يطلب من وزارة الشؤون الدينية أن تمنح مساعدة مالية لمعهد اليهود الإصلاحيين في القدس الذي يدرب حاخاميهم والتربويين منهم. وكان المذهب الإصلاحي قد طلب من وزارة الشؤون الدينية أن تعتبر معهدهم يشيفاه (مدرسة دينية) حيث تمنح هذه الوزارة مساعدات مالية لكل

(1) Hertzel Fishman, op. cit, p. 76.
(1) The Jerusalem Report, 8/2/1996.
(3) Hertzel Fishman, The Challenge to Jewish Survival, p. 91

هذه المدارس، لكن الوزارة رفضت طلب الإصلاحيين بحجة أن الذكور والإناث يجلسون سوية. وفي الشهر الأول من عام ١٩٩٦ حلّت المحكمة العليا المجلس الديني في القدس وفي مدينتين أخريين لأنها رفضت قبول مرشحي الإصلاح والمحافظين. ويقول الحاخام اوري رغب بأن هذه القرارات هي انتصار للتعددية المذهبية في إسرائيل وانتصار للديموقراطية ودحض للثيوقراطية. وقال: إننا يجب أن نناضل ليس ضد الأرثوذكس وحدهم لكن ضد المؤسسة السياسية التي سلمت زمام أمورها لهم[١]. ووصفت الصحف الأرثوذكسية قرارات المحكمة العليا خصوصاً صحيفة "يتدنئمان" بأشنع الأوصاف وأسوأها.

(1) The Jerusalem Report, 8/2/1996.

الفصل الثالث

الخلافات بين الأرثوذكس والإصلاحيين

حقق اليهود الأرثوذكس في الانتخابات الأخيرة فوزاً كبيراً في إسرائيل لم يحصلوا عليه من قبل وبلغ أعضاء الكنيست منهم ٢٣ عضواً بزيادة سبعة أعضاء على ما كان لهم في الكنيست الأخيرة. وبعد الانتخابات وحصولهم على هذا العدد الكبير من الأعضاء أعلن قسم منهم بأنهم سيحاولون إلغاء قرارات المحكمة العليا التي صدرت في صالح المذهبين. وعندما أعلنت حكومة نتانياهو الخطوط العامة لسياساتها كان من ضمن نقاطها بأن رئاسة الحاخامية ستكون وحدها المسؤولة عن شرعية تهويد الأشخاص (وهذا يعني أن البقية لا يعترف بهم)، ويعني أيضاً تجاوز قرار المحكمة العليا في تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٩٥ الذي فرض على وزارة الداخلية أن تسجل المتهود عن طريق غير الأرثوذكس كيهودي (وزارة الداخلية الآن من حزب شاس وهو أحد الأحزاب الدينية).

بعد إعلان الخطوط العريضة لسياسة الحكومة أعلن أحد زعماء الإصلاح بأن ما أعلنته الحكومة عمن يكون مسؤولاً عن التهود وغيره سيوسع من شقة الخلاف بين

إسرائيل ويهود الشتات.

وقال الحاخام اوري رغب ان إبقاء اليهود الأرثوذكس محتكرين لقضايا الأحوال الشخصية مثل الطلاق والزواج والدفن وغيرها قد أثار حفيظة الناس وغضبهم. وقال أيضاً ان وفداً يمثل ١٩ منظمة يهودية من الولايات المتحدة قد قابل نتانياهو لإعلان قلق أعضائها حول الاتفاق مع الأحزاب الدينية. وطلب أعضاء الوفد الذي قيل أنه يمثل ثلاثة ملايين يهودي من نتانياهو عدم التطرف واحترام اليهود الآخرين، وأخبروه بأن جعل الأحوال الشخصية حكراً على إشراف اليهود الأرثوذكس لا يهدد فقط جو التسامح لكنه أيضاً سيخلق انشقاقاً كبيراً بين إسرائيل ويهود الشتات الذين قيل أنهم يمثلون ٨٠ في المئة من غير الأرثوذكس (جويش كرونيكل ٢٨/٦/١٩٩٦).

وفي مؤتمر الوكالة اليهودية الذي عقد في القدس في نهاية الشهر السادس طلب ممثلو المذهبين الإصلاحي والمحافظ من الوكالة أن تحثّ الحكومة على حماية التعددية المذهبية. لكن الأعضاء الأرثوذكس في الوكالة رفضوا استعمال التعددية المذهبية وقالوا أن هذا التعبير مثير للشبهة وان المذاهب اليهودية الأخرى هي دين آخر. واضطرت الوكالة اليهودية أن تغيّر في صيغة بيانها وتنص فقط على الأهمية الكبرى لوحدة اليهود. وطالبت الحكومة أيضاً بأن لا تغير الوضع الحالي أو تقوم بتشريعات جديدة تؤثر على الوضع الحالي أو تعزل جماعات كبيرة من الشعب اليهودي. واضطر نتانياهو أن يعلن بأن اتفاق الائتلاف الوزاري ينص على إبقاء الوضع الديني كما هو (جويش كرونيكل ٥/٧/١٩٩٦).

وفي شهر تموز (يوليو) الماضي كان هناك جدل واتهامات متبادلة بين الأرثوذكس والإصلاحيين، بسبب كلام قاله رئيس الحاخامين السفارديم الحاخام الياهو بكش دورون إذ اتهمه اليهود الإصلاحيون بأنه قال كلاماً يحرّض على قتلهم. وهم هنا يشيرون إلى كلام قد قاله في شهر تموز الماضي. وكان رئيس الحاخامين يفسر نصاً من نصوص التوراة التي يدرّسها أسبوعياً في يوم السبت. وتسمى قطعة النص هذه باسم "فنحاس" وهو حفيد هارون أخي النبي موسى. وسميت هذه القطعة باسمه لأنه هو البطل الرئيسي في القصة التي وردت فيها. وقبل أن نذكر تعليق رئيس الحاخامين السفارديم الذي أثار ضجة كبيرة من المفيد أن نذكر النص التوراتي كي تتوضح

الصورة. وجاءت قصة فنحاس في سفر العدد ٢٥/ ١ - ١٤ بالنص الآتي: "وأقام إسرائيل بشطيم وأخذ الشعب يزني مع بنات مؤاب فدعون الشعب إلى ذبائح آلهتهن فأكل الشعب وسجد لآلهتهن وتعلق إسرائيل ببعل فغور فاستشاط غضب الرب على إسرائيل فقال الرب لموسى: خذ معك جميع زعماء الشعب واشنقهم للرب أمام الشمس فينصرف اضطرام الرب على إسرائيل. فقال موسى لقضاة إسرائيل اقتلوا كل واحد من تعلق من قومه ببعل فغور فإذا رجل من بني إسرائيل قد أقبل وقدم إلى اخوته تلك المرأة المدينية على عيني موسى وعيون كل جماعة بني إسرائيل وهم يبكون عند باب خيمة الموعد. فلما رأى فنحاس بن اليعازر بن هارون الكاهن قام من وسط الجماعة وأخذ رمحاً في يده ودخل وراء الرجل الإسرائيلي إلى المخدع وطعنهما كليهما الرجل الإسرائيلي والمرأة في بطنها فكفّت الضربة عن بني إسرائيل وكان الذين ماتوا بالضربة أربعة وعشرين ألفاً. وكلّم الرب موسى قائلاً ان فنحاس بن اليعازر بن هارون الكاهن قد صرف سخطي عن بين إسرائيل بغيرة كغيرتي فيما بينهم حتى لا أفني بني إسرائيل بغيرتي فلذلك قل ها أنا معطيه عهد سلامي فيكون له ولنسله من بعده عهد كهنوت أبدي جزاء غيرته لالهته وتكفيره عن بني إسرائيل". وكان اسم الرجل الإسرائيلي القتيل الذي قتل مع المدينية زمري بن سالو وهو رئيس بيت من الشمعونيين. وقال رئيس الحاخامين في شرحه للنص: "لقد كان زمري أول يهودي إصلاحي (يقتل)". ثم مدح الكاهن فنحاس الذي قتله. ثم علّق قائلاً: "إن تهود الإصلاحيين هو مثل عمل زمري وإن عمل فنحاس هو مثل العملية الجراحية التي لا بد منها حيث يكون هناك أحياناً مرض بين اليهود يكون من الضرورة أن يعالج بعمل حماسي خارج نطاق المألوف". وقد قال هذا الكلام في محطة راديو تابعة لليهود الأرثوذكس. وأنكر في مقابلة مع صحيفة "معاريف" وراديو إسرائيل بأنه يقصد التحريض على قتل اليهود الإصلاحيين. لكنه أيضاً قال بأنه "من الضروري القيام بعمل قوي ضد اليهود الإصلاحيين" ثم قال بأن اليهودية الإصلاحية "هي مرض وإن الجراحين في بعض الأحيان يقومون بإجراء غير اعتيادي من أجل إنقاذ حياة المريض".

وقالت المنظمة الرئيسية لليهود الإصلاحيين في بيان أصدرته بأن كلام رئيس الحاخامين هو تحريض على العداء وسفك الدماء وطلبت من رئيس الوزراء الإسرائيلي

أن يستنكر كلام الحاخام. وجاء في البيان: "إن من الواضح بأن العالم يعرف بعد بضعة أشهر من اغتيال إسحق رابين كيف أن كلام الكره له نتائج خطيرة وأن أي شخص يقول مثل هذا الكلام لا يصلح لأن يكون رئيس حاخامين".

وكتب مسؤولو المذهب الإصلاحي في إسرائيل إلى وزير العدل يطلبون فيه التحقيق في ما إذا كان رئيس الحاخامين قد خرق القانون بكلامه الذي يتضمن التحريض على العنف. وكتب زعماء الإصلاح كذلك إلى رئيس الحاخامين الاشكنازيم بأن يتم التدخل. لكن هذا رفض الطلب والتعليق على الكلام الذي وصفه بـ"الحكيم" وكانت ردود الفعل الأرثوذكسية بصورة عامة دفاعية لكن أحد الحاخامين السفارديم المعروفين في أميركا قال: "إنه انزعج من استعمال الحاخامين للغة غير لائقة" لكنه في الوقت نفسه اتهم الإصلاحيين بأنهم يشوهون سمعة الأرثوذكس لكسب التعاطف لهم. أما منسق اتحاد الكنس الأرثوذكسية في الولايات المتحدة الحاخام اكيناك فقد قال: إن كل من يعرف رئيس الحاخامين بكش دورون يعرف أنه لا يحرض على العنف. وقال لصحيفة الـ"جويش كرونيكل" (١٩٩٦/٨/٢): "إن هذه (ردود الفعل) تأتي بعد عدة حوادث أراد بها زعماء الإصلاح الإساءة إلى سمعة الأرثوذكس بأكثر الطرق سلبية" وقال كذلك: "أن ذلك ازداد بعد الانتخابات الإسرائيلية وكل ذلك بدوافع سياسية وأنه لشيء يؤسف له جداً إذ ليس كل أرثوذكسي هو ايغال عمير". ولم يتراجع رئيس الحاخامين عما قاله. وفي رسالة له إلى يهود أميركا قال: إن القول بأنه يدعو إلى قتل الحاخامين الإصلاحيين كلام غير معقول وتهمة ذم وقد أشيع هذا عن عمد من قبل زعماء الإصلاح بدافع العداوة ضد الأرثوذكس. وقد وجه اتهاماً خاصاً إلى الحاخام ديفيد شيبرشتين رئيس مركز العمل الديني في واشنطن التابع لليهودية الإصلاحية ومن زعماء اليهودية الإصلاحية البارزين.

وقال أحد زعماء الإصلاح بأن رئيس الحاخامين السفارديم لم يتوقف عن الحديث عن أن المقتول زمري هو مثل الإصلاح وأن قتله كان عملاً صالحاً وقال: "إنه (رئيس الحاخامين) على ما يبدو لا يفهم بعد عملية اغتيال رابين أن الإنسان يجب أن يكون حذراً من استعمال كلمات بطريقة يراها الناس مشجعة على العنف وإنني لست فقط متأسفاً لفشل المنظمات الأرثوذكسية بإدانة هذا العمل بل لمشاركتهم في تأجيجها كذلك

من خلال الهجوم الموجه بطريقة عاطفية والاستعمال الغريب لتهمة الدم. وإن اليهود الأرثوذكس إذا استمروا في الدفاع عما قاله رئيس الحاخامين فإنني أخشى أن يكون لهذا تأثير سيئ جداً على العلاقة بين اليهودية الإصلاحية واليهودية الأرثوذكسية" (جويش كرونيكل ١٩٩٦/٨/٢٠).

وذكرت صحيفة الـ"جويش كرونيكل" كذلك في عددها ١٩٩٦/٩/١٣ بأن الشرطة في القدس قالت بأنها اقتفت أثر مئات النداءات التليفونية من تليفونات عامة إلى المقر الرئيسي لليهود الإصلاحيين في القدس. وكانت هذه النداءات تحمل تهديدات لهؤلاء مثل "إننا سوف نفجّركم وندمّر مؤسساتكم وسيكون مصيركم مثل مصير إسحق رابين" وقال نداء آخر: "هذا نداء من مجهول، اسلموا بجلدكم واتركوا المنطقة خلال ساعتين فإن قنبلة ستنفجر وتهزّ المنطقة ولا يبقى منكم شيء". وكان مصدر هذه النداءات من منطقة اليهود الأرثوذكس التي تكثر فيها المدارس الدينية (البيشفوت). وقالت متحدثة باسم اليهود الإصلاحيين: "إن زعماء اليهود الأرثوذكس هم الذين يُلامون على ذلك لأنهم أصدروا بيانات تبرر مثل هذه الأعمال على اليهود الإصلاحيين".

وعلى الرغم من معارضة اليهود الأرثوذكس لهؤلاء في إسرائيل فإن الكثير من العلمانيين يؤيدون الاعتراف بهم وإن بعض المسؤولين الكبار شجعوهم على الهجرة بأعداد كبيرة. وكان رئيس الدولة السابق إسحق نافون قد اقترح على المذهب الماسورتي أن يقوم أتباعه بهجرة كبيرة إلى إسرائيل حتى يتمكنوا من تكوين حزب سياسي يؤثر على سياسة الحكومة(1). كما أن بن غوريون وغولدا مائير قد اقترحا على المذهبين الاقتراح نفسه(2) وآخرون غيرهم. وكان زئيف شافت أحد المحررين الكبار في الـ"جيروزاليم ربورت" كتب في هذه المجلة في ١٩٩٠/٢/١٣ مقالة عنوانها "فرصة الإصلاح" قال فيها: "إن العدد الكبير للمهاجرين غير المتدينين من الروس إلى إسرائيل يهيئ فرصة طيبة للمذهب الإصلاحي من خلال الكُنس والمدارس والنوادي لجلب هؤلاء إلى صفوفهم إذ أن يهودية هذا المذهب تناسب اليهود الروس وترضي فضولهم إذ أنهم

(1) S. A. Cohen & E. Don-Yehiya, Conflict & Cosensus in Jewish Political Life. p. 186.
(2) William Frankel, Israel Observed, An Anatomy of the State. p. 217.

لا يطيقون اليهودية الأرثوذكسية ولما كانت قوة هؤلاء تزداد وعددهم يكثر فليس للحكومة في هذه الحال أي خيار سوى الاعتراف بهم وبالحاخامين الذين يؤدون شعائر التهود لهم وربما يصبح المذهب الإصلاحي مذهباً رئيسياً في إسرائيل خلال عقد من الزمن"(١).

كما أن المؤتمر الصهيوني العالمي أعلن أكثر من مرة بأنه يرغب في أن يرى التعددية المذهبية في إسرائيل. وفي المؤتمر التاسع والعشرين له أعلن بأن إسرائيل هي وطن لكل اليهود ويجب أن تطبّق بشكل كامل مبادئ الحقوق المدنية لكل شخص وبضمنها المساواة بالاعتراف والمساواة بالمساعدة لكل المذاهب الدينية في اليهودية. وعارضت هذه الدعوة منظمة مزراحي الأرثوذكسية الصهيونية.

والمذهبان اليوم ممثلان بمنظمتين في المؤتمر الصهيوني العالمي إحداهما اسمها "أرصينو" وهي تمثل المذهب الإصلاحي والثانية "مركز" وهي تمثل المذهب المحافظ.

وتشجع كذلك الوكالة اليهودية وجود هذين المذهبين في إسرائيل وطالبت الحكومة بإعطاء منح مالية لهما. والمحافظون والإصلاح هم أعضاء مهمون في هذه المنظمة ويتلقون مساعدة مالية منها(٢).

وأتباع هذين المذهبين هم في ازدياد في إسرائيل وقدرت إحصائية أخيرة عددهم بحوالي عشرين ألفاً. ومن مظاهر إقبال الإسرائيليين على هذين المذهبين هو إقامة احتفال "البار مصفاه" (بلوغ سن الرشد للولد) واحتفالات "بات مصفاه" (بلوغ سن الرشد للبنت) بل انه يطلب من الناس أن يحجز لهم يوم قبل سنة من يوم المناسبة. وهم يؤدون كذلك عقود زواج كثيرة وقد أدوا ٢٠٠ عقد زواج في العام الماضي وهذه وإن كانت نسبة ضئيلة بالمقارنة مع عقود الزواج التي أداها اليهود الأرثوذكس في السنة نفسها إذ بلغت ٢٥ ألف عقد(٣). لكن العدد يتضاعف لدى المذهبين مع أن هذه العقود كما ذكرت غير معترف بها من المؤسسة الدينية الأرثوذكسية.

ويتحدث الحاخام أوري رغب عن تقدم هذين المذهبين في إسرائيل فيقول: "قبل

(1) Hertzel Fishman, The Challenge to Jewish Survival, p. 71.
(2) Ibid, p. 75.
(3) The Jerusalem Report, 28/2/1996.

خمس سنوات كنت أنا الحاخام الإصلاحي الوحيد من إسرائيل أما الآن فهناك ما يقرب من عشرين حاخاماً إصلاحياً من إسرائيل". ويدرب المذهب الإصلاحي اليوم ٢٥ حاخاماً وتربوياً إسرائيلياً وتعلل إحدى عضوات منظمة "نعمت" وهي منظمة عمالية نسائية هذا الإقبال بقولها: "إن هناك الكثير من اليهود والعلمانيين الذين يريدون أن يتعلموا التقاليد اليهودية لكن من دون حاخام أرثوذكسي يخبرهم ما هو الصحيح وما هو الخطأ في سلوكهم.

ذكرت سابقاً أن الاختلافات بين المذهب الأرثوذكسي والمذهبين الآخرين تزداد بمرور الزمن. وهذه الاختلافات موجودة أيضاً بين هذه المذاهب في الولايات المتحدة إلا أن حدوث التصادم بينها بعيد الاحتمال في هذا البلد على رغم المعارك الكلامية لأن عدد أتباع المذهب الأرثوذكسي هو أقل بكثير من عدد أتباع المذهبين الآخرين كما أن السلطة الدينية ليست بيد اليهود الأرثوذكس كما هي بأيديهم في إسرائيل إضافة إلى طبيعة الوضع السياسي وتركيبة السكان. أما في إسرائيل فإن عدد اليهود الأرثوذكس هو أضعاف عدد أتباع المذهبين الآخرين وان هذا العدد في ازدياد وتنامٍ كما قلت. إضافة إلى أن الدولة العبرية أسندت إلى اليهود الأرثوذكس مسؤولية الإشراف على الشؤون الدينية. كما أن الثقل السياسي الذي لهؤلاء الذي يتمثل في الأحزاب الدينية المتعددة يلعب دوراً في إبقاء السلطة الدينية بأيديهم إذ لا بد لأي حكومة إسرائيلية تريد البقاء أن تستعين بهم وترضيهم كذلك.

بينما ليس لأتباع المذهبين الآخرين أي ثقل سياسي لذلك فإن الحكومة - أية حكومة إسرائيلية - لا تشعر بأنها تحت ضغط لإرضائهم وأعتقد بأن حصول المذهبين على اعتراف من قبل الدولة في السنين القليلة المقبلة يجعلهم على قدم المساواة مع المذهب الأرثوذكسي هو أمر مستبعد. لكن من جانب آخر فإن عدد أتباع هذين المذهبين في ازدياد كذلك نشاطهم كما أنهم في الوقت نفسه مدعومون من قبل مؤسساتهم خارج إسرائيل ومن قبل المؤتمر الصهيوني العالمي والوكالة اليهودية ومن قبل كثير من العلمانيين في إسرائيل. لهذه الأسباب فإن مضايقتهم لليهود الأرثوذكس ومزاحمتهم لهم في مصالحهم لا بد وأن تحدث في المستقبل وستشتد ردود فعل الأرثوذكس لذلك وسيصبح الصراع أكثر علنية وبروزاً وسيكون ظاهرة من ظواهر المجتمع الإسرائيلي

جديرة بالمراقبة والدراسة.

الفصل الرابع

فرقة "اليهود العيسويين"

يناقش الكنيست الإسرائيلي حالياً مشروع قانون ضد التبشير يجعل كل شخص يقوم بطبع الأدبيات الدينية أو حيازتها أو إنتاجها أو توزيعها أو استيرادها لغرض التبشير بين اليهود عملاً إجرامياً يسجن الشخص بسببه لفترة قد تصل إلى سنة. وإحدى الجماعات المستهدفة بهذا القانون فرقة "اليهود العيسويين" وهي فرقة محاربة في إسرائيل وغير معترف بها. وتستعرض هذه الدراسة تاريخ هذه الفرقة ومعتقداتها وفئاتها ورأي اليهود فيها.

يؤمن "اليهود العيسويين" بعيسى كنبي ومسيح مخلص. ويطلق عليهم اليوم بالإنكليزية اسم *Messianic Jews* وأفضل أن أطلق عليهم في هذه الدراسة اسم "اليهود العيسويون" نسبة إلى كونهم يهوداً يؤمنون بعيسى إذ ترجمة الاسم الإنكليزي إلى اليهود المسيحانيين لا تنطبق على هؤلاء وحدهم في اللغة العربية. فاليهود الأرثوذكس أيضاً يؤمنون بمسيح (*Messianic*) لكنه ليس عيسى وإنما هو مسيح آخر يظهر من بينهم. ووصف هؤلاء بالعيسويين ينطبق على هؤلاء وحدهم من دون غيرهم وسأبقي على كلمة "مسيحانيين" عندما أنقلها من نص ما يسمع عن هذه الحركة آخر

حفاظاً على الأصل.

لم يسمع عن هذه الحركة كثيراً إلا في العقود الماضية لكن بداياتها ترجع إلى عصر ظهور المسيح عيسى إذ ان أتباعه الأوائل وحوارييه كانوا بصورة عامة يهوداً حتى القديس بولس نفسه كان يهودياً بالولادة كذلك. وقال هو عن نفسه نحن يهود بالولادة ولسنا من الوثنيين الخاطئين (رسالة إلى أهل غلاطية) والتزم هؤلاء الأتباع والحواريون بتطبيق الشريعة اليهودية حتى بعد إيمانهم بعيسى كنبي ومسيح مخلص بل ان بعضهم كان يشدد في ذلك حتى عزي إلى بعضهم القول: "إن الذي لا يطبق الشريعة (اليهودية) كاملة فكأنه لم يطبق شيئاً منها"(١).

وإن العدد القليل من غير اليهود الذين آمنوا بعيسى في البداية كانوا يتحولون إلى اليهودية أولاً بل ان "أعمال الرسل" أطلق على غير اليهودي المعتنق لليهودية والذي آمن بعيسى صفة "دخيل" (٥/٦).

إلى تطبيقهم الفرائض اليهودية كان هؤلاء يلتزمون بالعادات والتقاليد اليهودية كما أنهم كانوا يتعبدون في الهيكل اليهودي في القدس قبل تهديمه وفي معابد اليهود الأخرى خارج القدس. كذلك كان هؤلاء يبشرون بين اليهود فقط في البداية حتى بولس نفسه كان يبشر بين اليهود قبل أن يتجه إلى التبشير بين غيرهم.

واعتقد الذين آمنوا بعيسى من اليهود ان الإيمان به هو تأكيد ليهوديتهم بل إنه الصيغة الأصفى لليهودية (وهذا الكلام يقوله اليهود العيسويون المعاصرون كما سنرى) بل انهم اعتقدوا بأن عيسى جاء ليجدد التوراة لذلك فإن الإيمان به يساوي الإيمان باليهودية.

وفي وقت مبكر ظهر خلاف بين هؤلاء الأتباع الأوائل فيما إذا كان يمكن للوثني أن يصبح مؤمناً بعيسى قبل أن يصبح يهودياً ونجد صدى هذا الخلاف في أكثر من مكان في العهد الجديد. ففي أعمال الرسل (١١/ ١ - ٢): "وسمح الرسل والأخوة في اليهودية ان الوثنيين هم أيضاً قبلوا كلمة الله". فلما صعد بطرس إلى أورشليم أخذ المختونون يخاصمونه قالوا: "لقد دخلت إلى أناس قلف وأكلت معهم".

(1) S. W. Baron, Asocial and Religious History of the Jew, Vol. 2, p. 74.

وأصبحت الصفة أو الاسم "المختونون" يطلق على اليهود الذين يرفضون قبول الوثنيين قبل التحول إلى اليهودية (وإجراء الختان) وكان هؤلاء اليهود إما يهوداً بالولادة أو بالاعتناق حيث يؤدون طقس الختان.

اضطهد هؤلاء بعد تهديم الهيكل اليهودي في عام ٧٠ م طبقاً لما ورد في "أعمال الرسل" (٨/ ١ - ٣): "وفي ذلك اليوم وقع اضطهاد شديد على الكنيسة التي في أورشليم فتشتتوا جميعاً في نواحي اليهودية والسامرة". وبعد أن قامت ثورة باركوخبا اليهودي عام ١٣٢ - ١٣٥ م ضد الرومان شارك هؤلاء فيها لكن بعد أن أعلن الحاخام عقيبا بأن باركوخبا هو المسيح المخلص نال اليهود الذين آمنوا بعيسى الكثير من الاضطهاد لأنهم رفضوا الإيمان بباركوخبا كمسيح إذ انهم آمنوا بعيسى كمسيح وكمخلص. وأصدر الحاخام عقيبا قراراً بطرد (حرم) هؤلاء من اليهودية كذلك يعزى إلى باركوخبا قائد الثورة أنه قال "بأن اليهود الذين آمنوا بعيسى هم وحدهم يجب أن ينالوا العقاب الشديد إلا إذا رفضوا عيسى". ويعتقد البعض أن باركوخبا اعتبر هؤلاء طابوراً خامساً وهو في حال حرب[١]. ومنذ هذه الفترة اعتبر من يؤمن بعيسى ليس يهودياً من وجهة نظر اليهود وأصبحت ثورة باركوخبا بداية للعداء بين المسيحية واليهود حيث اعتبر الحاخامون وجود هؤلاء تهديداً لهم بينما رأى المسيحيون من غير اليهود في كره اليهود لعيسى المسيح دليلاً آخر على أن اليهود شعب يستحق الهلاك وربما بدأ أيضاً من هذه الفترة ما سماه اليهود فيما بعد بالعداء للسامية[٢].

ويبدو من بعض الوثائق ومنها الإنجيل أن اليهود العيسويين لم يكونوا فرقة واحدة بل كانوا فرقاً متعددة (كما هو الحال في الوقت الحاضر). فمع أن السمات العامة لهذه الفرق كانت تتمثل في اتباعها الممارسات اليهودية وتطبيق فرائضها فإن اختلافات كانت استجدت بينها. فبعضها جعل يوم الأحد (بدل السبت) هو اليوم المقدس واعتبر ذكرى لقيامة عيسى. وكان بعض هذه الفرق يمارس التعميد والبعض الآخر رفض قبول بعض قصص التوراة مثل سكر النبي نوح وقصة العلاقة الجنسية بين لوط وابنتيه.

(1) Ibid, Vol. 2, p. 132.
(2) K. Crombie, For the Love of Zion, p. 9.

كذلك لم تقبل الصفات البشرية التي أطلقتها التوراة على الرب. وأكثر هذه الفرق اندثر في القرون الأولى للميلاد لكن الذي يبدو ان فرقة "المختونين" بقيت إلى القرن السادس الميلادي. ولم نسمع في القرون اللاحقة عن فرقة يهودية عيسوية عرفت باسم معين لكن كان هناك أفراد من اليهود العيسويين رفضت الكنيسة قبولهم إلا بعد أن يتركوا اليهودية(١).

بعد ظهور المذهب البروتستانتي في القرن السادس عشر تميزت جماعات منه بتعاطفها مع اليهود ورأى هؤلاء ضرورة التبشير بين اليهود إذ اعتقدوا أن تحولهم إلى الإيمان بعيسى يعجل بظهوره. وكانت هذه الجماعات لا تطلب من اليهود التعميد أو ترك اليهودية أو انفصال اليهودي عن أبناء جلدته. وأنشأ هؤلاء أهم جمعية تبشيرية في بداية القرن التاسع عشر في لندن باسم (*Promiting of London Society for Christianity among Jews*) وكان بعض المبشرين الكبار في هذه الجمعية من أصل يهودي مثل هنري شتيرن وغيره. وأصبح الكثير من اليهود عيسويين عن طريقها وساعدت على إيجاد مكان عبادة لهم في لندن اسمه *The Jews Chaple* ثم أنشئت جمعية في لندن لهم أيضاً باسم "بني أبراهام" وكان هؤلاء يجتمعون في ليلة السبت ويوم الأحد للعبادة(٢). ثم كانت هناك جماعات أخرى من اليهود العيسويين في أماكن أخرى مثل الجماعة التي أنشأها جوزف روبنويج في نهاية القرن الماضي باسم "يهود العهد الجديد" في مدينة *Kischnev* حيث وضع لها مؤسسها معتقدات ثلاثة عشر على نمط المبادئ الثلاثة عشر التي وضعها موسى بن ميمون لليهودية. ومنها جماعة أنشأها أبراهام ليفي في إزمير في نهاية القرن الماضي أيضاً، وكانت هذه الجماعة رفضت التلمود وتعاليم الحاخامين وقبلت الإنجيل وأبقت على الختان كأحد مبادئها الرئيسية(٣). وفي الربع الأول من هذا القرن أنشئت منظمة تضم عدداً من هذه الجماعات باسم *International Hebrew Christian Alliance* وعلى رغم العزل الاجتماعي من قبل اليهود والاتهام بالكفر لهم فإن عدد هؤلاء قد ازداد في العقود

(1) M. Prior and W. Taylor, The Christian in the Holy Land, p. 316.
(2) K. Crombie, op. cit, p. 14.
(3) M. Prior and W. Taylor, op. cit, p. 317.

الأخيرة وأصبحت الحركة حركة مهمة في اليهودية وما زالت في نمو مستمر بشهادة اليهود أنفسهم. فقبل عشرين سنة كان هناك عدد قليل من أماكن العبادة والمراكز الثقافية لهؤلاء أما اليوم تضاعف عددها خصوصاً في الولايات المتحدة.

وليست هناك إحصائية دقيقة تؤكد عدد هؤلاء في العالم لكن أرقاماً تذكر من قبلهم ومن قبل غيرهم. فبول كارلن - وهو رئيس جمعية تجارب اليهود العيسويين - يقول: "نحن نعتقد بأن عدد هؤلاء يصل إلى حوالي مئتي ألف في الوقت الحاضر وأضعاف هذا العدد ممن انضم إليهم وتركهم". وقدر مارك بورز – وهو مدير عام منظمة تحارب التبشير اسمها "يهود لليهودية" – عدد المنتمين إلى هذه الحركة بربع مليون شخص من المولودين يهوداً[١] لكن أحد زعماء الفرقة يقول أن جماعته قد وحلت ما يقرب من ٣٠٠ ألف يهودي إلى عيسويين وان عدد اليهود الذين آمنوا بعيسى منذ عام ١٩٦٧ وإلى اليوم هو أكثر من عدد الذين آمنوا به خلال الألفي سنة الماضية.[٢] ويعتبر عام ١٩٦٧ (عام حرب حزيران) نقطة تحول في تاريخ هذه الحركة وتضم فرقة اليهود العيسويين مجموعات كثيرة ومتعددة لها بعض الاختلافات في المعتقد والممارسة الدينية العملية، وربما أشهرها مجموعة تسمى *Jews for Jesus* (يهود عيسى) وكان قد أوجد هذه المجموعة في بداية السبعينات رجل يهودي اسمه موش روزن في مدينة سان فرانسسكو في الولايات المتحدة. بدأ موش عمله كمبشر مع أقدم جمعية تبشير في الولايات المتحدة وهي المجلس الأميركي للتبشير بين اليهود ونشط هذا المجلس كثيراً في الستينات خصوصاً بعد عام ١٩٦٧. وقد انتمى إليه الكثير من شباب اليهود في هذه الفترة وكان منهم موش روزن وذكر بأن سبب إقبال هؤلاء على الإيمان بالمسيح عيسى هو ما حققته إسرائيل من انتصار عام ١٩٦٧ الذي رآه هؤلاء على أنه تحقيق لنبوءات التوراة التي وردت في بعض أسفارها عن قرب نهاية العالم.

وتستعمل جماعة *Jews for Jesus* الكثير من الدعاية بطرق مختلفة ومبرمجة وهي تنفق الكثير من الأموال على ذلك. ومن ضمن نشاطها الإعلان في صفحات كاملة

(1) D. and L. Cohn-Sherbok, The American Jew, p. 325.
(2) The Guardian, 21/12/1996.

في الصحف والمجلات واستعمال الأشرطة العادية وأشرطة الفيديو والأغاني والأناشيد. وهم كذلك يصدرون كتباً وكتيبات تدعو اليهود إلى الانضمام إليهم. وأنتجوا فيلماً عنوانه (*Still not Ashamed*) وتصل منشوراتهم التي يوزعونها إلى الملايين وكثيراً ما تحمل هذه المنشورات عبارة *Jesus Made me Kosher* (عيسى جعلني طاهراً). وألف موشي روزن نفسه موسيقى وأغاني خاصة لهذه المجموعة تتضمن كلمات وعبارات من الأناجيل[1]. وهي تقوم بهذه النشاطات بسبب قدرتها المالية الجيدة وقد ذكر روزن في مقابلة مع إحدى الصحف أنه جمع مئة وخمسين ميلون دولار من الكنائس في العقود الماضية. ويرى البعض بأن جماعة "يهود عيسى" هم أقرب إلى المسيحية منهم إلى اليهودية. ولأن هذه المجموعة هي أنشط المجموعات اليهودية العيسوية فإنها تواجه حرباً شرسة وعنيفة من قبل اليهود المتدينين خصوصاً الأرثوذكس منهم. واليهود العيسويون يختلفون في ممارستهم الدينية قرباً وبعداً عن اليهودية.

معبد "شوفا يسرائيل" يلتزمون بلبس الكباه (غطاء الرأس) والطاليت أثناء الصلاة (والطاليت عبارة عن قطعة قماش، يلبسها اليهود في الصلاة) وصلاتهم لا تختلف عن الصلاة اليهودية حتى أنهم يستعملون مؤشرة عند قراءة التوراة احتراماً وتقديساً لكن صلاتهم تنتهي بعبارة "بشم ليشوع هامشيح" (باسم عيسى المسيح). كذلك الحال في معبد "بيت إل" إذ يقول رئيسه أنهم يلتزمون بالكوشر ولا يأكلون لحم الخنزير.

أما مجموعة معبد "روخ هامشيح" فيقول حاخامهم جاك شتيرن - وهو أصلاً من عائلة يهودية أرثوذكسية - "إننا نلتزم بالاحتفال بالأعياد اليهودية مثل روش هاشناه، ويوم كبور، والسكوت والحنوكة والبوريم ولا نأكل ما تحرمه التوراة ولا نأكل لحم الخنزير وإن كنا لا نفصل بين اللحم والحليب ومشتقاته. ونقوم بختان أولادنا ولنا حمام شرعي يؤدي فيه الأشخاص ما نسميه التعميد ونحن لا نحتفل بعيد رأس السنة الميلادية ولا بالفصح ونعتقد بأن هذه الأعياد وثنية ولكننا نحتفل بعيد قيامة المسيح عيسى ويقول شتيرن أيضاً أنه يؤمن بعذرية مريم وبربوبية عيسى. وفي معبد هذه

(1) *Ibid.*

الجماعة ثابوت فيه نسخة من التوراة ويوضع عند الحائط الشرقي كما في الكنيس اليهودي وأمام الثابوت ستارة عليها نجمة داود وبعض أتباعه يلبس طاليت وكباه. ويقول أيضاً ان من أعضاء جماعته بعض المسيحيين الذين يحتفلون بعيد رأس السنة وبالفصح "ولكننا لا نشجعهم على وضع شجرة عيد الميلاد في هذا العيد"(١).

أما جماعة "بيت هاشم" وهي جماعة من الأميركيين السود ظهرت قبل عشر سنوات وتتخذ مدينة بلبتمور مركزاً لها فإنها تمارس العبادة كما يمارسها اليهود. وهم يحتفلون بالأعياد والمناسبات الدينية مثل السبت كذلك يدرسون الشريعة اليهودية والتاريخ اليهودي. ويضعون في معبدهم المنوراه (الشمعدان) ويضعون فيه كذلك العلم الإسرائيلي.

وتتميز نساؤهم عن بقية نساء المجموعات العيسوية الأخرى في أنهن يغطين شعر رأسهن إضافة إلى قناع وجه تظهر منه العينان فقط. وهؤلاء يعتقدون كما يعتقد اليهود العيسويون بأن عيسى هو المخلص الذي سيعود في آخر الزمان وان لونه لا بد وأن يكون أسود ويقولون بأن عيسى تنبأت به الكتب المقدسة ويرى زعيم هؤلاء بأنه ليس هناك من تناقض بين هذا المعتقد والديانة اليهودية ويؤكد بأن المعتقد لا يجعلهم مسيحيين. ويضيف إلى ذلك أن عيسى لم يطلب من الناس أن يعبدوه لكنه طلب منهم أن يعبدوا الله. وهو يستغرب كذلك من رفض اليهود ليهوديتهم بينما هم يقبلون اليهودي الملحد على أنه يهودي.

ولهؤلاء حاخام مسؤول عن القضايا الدينية ولهم أيضاً مرشد روحي وهم بهذا مثل اليهود الحسيديم(٢).

وتكون في معابد بعض هذه المجموعات الممارسة الدينية بعيدة عن شعائر اليهودية إلا في بعض الرموز الشكلية. ففي معبد بروكلن الذي يسمى "مركز اليهود المسيحانيين" تقام صلاة السبت في كنيسة والصلاة في جوهرها مسيحية مع ذكر شيء بسيط لموضوعات يهودية. والتراتيل التي تنشد هي باللغة الإنكليزية وتتضمن عبارات عديدة

(1) D. and L. Cohn-Sherbok, op. cit, pp. 320-321.
(1) The Jerusalem Report, 24/8/1995.

مكتوبة بحروف لاتينية وتلوح الجماعة بأيديها في الفضاء ويرددون كلمة هللويا بين فترة وأخرى. والرمز اليهودي الوحيد في المعبد هو الطاليت. ولكن هذا الطاليت موضوع على صليب كبير على الحائط فوق المذبح. وكثيراً ما يركعون أمام الصليب ويقول الحاخام سدروث رئيس هذا المعبد: "إنني كيهودي أؤمن برب واحد وليس بربين أحدهما لليهود والآخر لغيرهم". ويضم المعبد بين أعضائه بعض الأميركيين السود أيضاً.

وبعض اليهود العيسويين يحتفلون بالأعياد المسيحية مثل عيد رأس السنة وعيد الفصح على الطريقة المسيحية. ويعتبرون كأس النبيذ الثالث الذي يشربه اليهود أثناء الفصح ممثلاً لدم عيسى عند هؤلاء. أما قطع الخبز الثلاث التي تسمى بالعبرية "مصاه" التي تلف سوية فهي عند هؤلاء تصبح ممثلة للتثليث. وتنتشر ظاهرة الرقص بين هذه الجماعات فهم يرقصون أثناء الصلاة أو بعدها وأثناء الرقص يضربون بالدفوف ويصفقون وهم كذلك يغنون وكثيراً ما تكون هذه الأغاني باللغة العبرية. وغالباً ما تبدأ صلاتهم بوقت دقيق ومحدد وفي نهاية الصلاة يجمعون التبرعات من المصلين. وبعد انتهاء الصلاة يذهب المصلون إلى قاعة مجاورة لأخذ القدوش التقليدي وهو عبارة عن خبز ونبيذ(١).

وتنضوي هذه الجماعات تحت أكثر من منظمة عالمية لكن أشهر هذه المنظمات اثنتان هما:

1-The International Alliance of Messianic Congregations and Synagogues (IMCS)

2- Union of Messianic Jewish Congregation

وترتبط هذه المجموعات بعلاقة وطيدة بإسرائيل فهي تؤيد الدولة وتساندها وتعتبر نفسها من الجماعات الصهيونية الملتزمة. ديفيد غيرنوف حاخام معبد "بيت يشوع" وهو من أكبر معابد هذه الحركة عن الفكر الصهيوني لهذه الجماعات بقوله: "إننا نؤيد إسرائيل تأييداً غير مشروط ومن دون تحفظ حتى عندما يخطئ زعماؤها كما هو الحال الآن حيث يبادلون الأرض بالسلام"(٢).

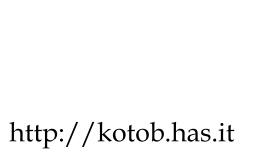
(1) The Guardian, 21/12/1996.

(2) The Jerusalem Report, 26/1/1995.

وقالت واحدة من هؤلاء: "إن المسيحية خرجت من الدين اليهودي واعتمدت على العهد القديم وانه فقط في العيش في إسرائيل وحبها وحب الشعب نؤكد عقيدتنا. وإنني أرجو أن يباركني الله بالموت من أجل هذا البلد إذ ان هذا سيكون دليلاً أكيداً على ولائنا له"(١).

وتنظم هذه الجماعات رحلات كثيرة إلى إسرائيل وتقيم فيها معسكرات صيفية للصغار والكبار. وكثير من هذه الجماعات لها صندوق خاص لمساعدة إسرائيل. وبعض هذه الجماعات اشترت في إسرائيل بيوتاً للراحة وبيوتاً للشباب ويتبرع أعضاؤها للعمل في المستوطنات. وهي تقوم بهذه النشاطات على رغم محاربة اليهود الأرثوذكس لها في إسرائيل.

(1) A. Ramati, Israel Today, p. 143.


http://kotob.has.it

الفصل الخامس

مبادئ اليهود العيسويين

ينتقد اليهود الحركة العيسوية بكل طوائفها وفئاتها إذ ان فكرة قبول اليهود ليعسى كمسيح مخلص تثير في نفوسهم رد فعل سلبي عميق لأنهم يرون في هذا الاعتقاد هدماً للمعتقد اليهودي، وتزييفاً متعمداً يقوم به المبشرون من أجل إدخال اليهود في المسيحية. ويقول الحاخام صموئيل أركوش مسؤول منظمة تحارب التبشير بين اليهود تسمى "عميلة اليهودية": "إن الحقيقة البسيطة هو أنه لا يمكن أن تكون يهودياً وأن تؤمن بعيسى في الوقت نفسه[1]. ومن اليهود من يقول أن هتلر أراد قتل اليهود جسدياً ويريد العيسويون اليوم أن يقتلوا اليهود روحياً"[2]. وينظر اليهود إليهم على أنهم أعداء كما ينظرون إلى النازيين ويقولون عنهم بأنهم مضطهدو اليهود في هذا العصر ويسمونهم كذلك ورثة محاكم التفتيش بلباس يهودي ويرون فيهم يهوداً كارهين لأنفسهم هدفهم "إرضاء المجتمع ولذلك فهم في نظرهم خائنون مرتدون"[3].

ويقول فل ابراميتشز وهو رئيس إحدى جمعيات مكافحة التبشير: "إن هدف هؤلاء هو القضاء على اليهودية كوجود وهم يقومون بهذا العمل مع شيء من الحب بدل

(1) The Guardian, 21/12/1996.
(2) D. and L. Cohn-Sherbok, The American Jew, p. 320.
(3)The Guardian, 21/12/1996.

استعمال القوة التي كان تستعملها محاكم التفتيش"[١]. ويعتقد اليهود أن خطر هؤلاء عليهم هو أعظم من خطر المسيحيين الحقيقيين على اليهودية لأن التهديد الذي يمثلونه هو تهديد داخلي "وليس تهديداً خارجياً نتمكن من التعامل معه". وقال بول كارلن: "إنه لمن الخطأ أن توصف حركة اليهود العيسويين بأنها هامشية وغير مهمة إذ انها - مع الأسف - في نمو مستمر وأعضاؤها مكرسون أنفسهم لهذا الغرض وهم يصبحون أكثر جرأة يوماً بعد يوم وهم غشاشون جداً وان جزءاً رئيسياً من معتقدهم هو الإيمان بربوبية عيسى وهم لا يقولون ذلك في البداية لمن ينضم إليهم ويقولون له فقط ان عيسى هو المسيح". ويقول: "إنه لا شك في أن غرض هؤلاء هو القضاء علي اليهودية وإحلال مسيحية مزيفة مكانها وان اليهود لا يريدون أن يتحدثوا عن هذا الموضوع لحساسيته كما كان الحديث عن الايدز قبل عشر سنوات وكالحديث عن الزواج المختلط قبل عشرين سنة ولكنهم يعرفون أن الخطر موجود"[٢]. ويقول الحاخام طوبيا سنغر وهو رئيس جمعية تحارب هؤلاء اسمها "نشر اليهودية" بأن ما يسمى بالحركة اليهودية المسيحانية هي "مثل مرض الايدز (لليهودية) وليس هناك مساومة في هذا الأمر"[٣]. ولأن اليهود يعتقدون بخطر هذه الحركة على اليهودية قاموا بإنشاء الجمعيات لمحاربتها والكثير من هذه الجمعيات في الولايات المتحدة إذ يوجد لهذه الحركة حضور كبير. وذكرنا بعض هذه الجمعيات في ثنايا البحث. ولا يقتصر نشاط هذه الجمعيات على طبع المنشورات والأدبيات الأخرى ضد اليهود العيسويين بل ان بعض أعضائها يذهب إلى أماكن عبادة هؤلاء في الولايات المتحدة ويقفون أمامها كل أسبوع يشتمونهم ويتهمونهم بالخيانة وكثيراً ما تتدخل الشرطة لفض النزاع بين الجماعتين. وإن بعض زعماء هذه الحركة يتلقون تهديدات من بعض اليهود. و"يهود عيسى" خصوصاً من هذه الجماعات أكثر تعرضاً لهذه المجابهات لذلك أصدر مركزهم الرئيسي كراساً عنوانه "كيف تتغلب على المعارضين" ويزود المركز الأعضاء بهذا الكراس خصوصاً لأولئك الذين يوزعون المنشورات. ويقسم الكراس أنواع الاعتداء إلى اعتداء كلامي مثل الصياح

(1) The Jerusalem Report, 26/1/1995.
(2) D. and L. Cohn, op. cit, pp. 324-325.
(3) The Jerusalem Report, 26/1/1995.

والكلام البذيء وإلى اعتداء بدني مثل المسك والضرب والدفع واستعمال أشياء في الاعتداء مثل المظلة والمجلة وأعقاب السكائر وإلى الاعتداء النفسي. وجاء في الكراس: "إن الجمعية تطلب من أعضائها أن لا ينزلوا إلى مستوى المتعدين ويجب أن نردد دائماً ودُر خدّك للمعتدي واستمر بذلك فنحن خلقنا صالحين ويجب أن نرد بصلاح"(١). لكن اليهود العيسويين يعتبرون أنفسهم جزءاً شرعياً من الطائفة اليهودية فهم يؤكدون على ذلك ويعتبرون الاتهامات التي توجه إليهم باطلة وغير صحيحة. ويقول جف فورمان وهو واحد من نشيطي هذه الحركة ومسؤوليها: "إن هناك نوعاً من النفاق في اتهامنا إذ ان الذي يعتبر الحاخام شنيرسن هو المسيح المخلص ما زال إلى الآن يعتبر يهودياً لا غبار على يهوديته (الحاخام شنيرسن كان الزعيم الروحي لليهود الحسيديم اللوبافتش وتوفي عام ١٩٩٤). حتى اليهودي الذي لا يؤمن بالله يعتبر يهودياً بينما أتباع المذهب الإصلاحي والمحافظ - الماسورتي لا يعترف بهم يهوداً في إسرائيل إذن فمن يحدد المعتقد اليهودي الصحيح في كل هذا. ويقول لنا اليهود اننا قطعنا الصلة بشعبنا بينما الواقع أنهم هم الذين قطعوا الصلة بنا، إنه شيء مؤلم ولكن واقعية المسيح هي أكثر أهمية"(٢). ويذكر المدير التنفيذي لمجموعة "يهود عيسى" ديفد بركنر أنه لا يفهم لماذا لا يعتبر اليهودي الذي يؤمن بشيء آخر كالإيمان بالمسيح عيسى يهودياً ويقول عن نفسه أنه يهودي بالنسب والارتباط الاجتماعي وأنه مسيحاني لأنه يؤمن بالمسيح عيسى. ويضيف أنه لا يريد من أحد أن يؤكد له يهوديته "فأنا ولدت يهودياً وسأموت يهودياً وأن عيسى كان يهودياً كما أن كتّاب الأناجيل كانوا أيضاً كذلك. وأن أتباع المسيح في القرن الأول الميلادي كانوا أيضاً يهوداً. وأن يهود عيسى اليوم هم أقلية يهودية من بين اليهود. إن اليهود يؤمنون بالمسيح المخلص لكن الفارق بينهم وبيننا هو أنهم ما زالوا ينتظرون المسيح بينما نحن نقول بأن المسيح جاء وأن اسمه عيسى. لكن الإيمان بعيسى يثير اليهود لأن المسيحيين في السابق قد آذوا اليهود باسمه لكن تلك الفترة كانت حقبة تاريخية سيئة وليس في الإنجيل أي تعاليم بإيذاء اليهود بل على العكس من ذلك فإن

(1) The Guardian, 21/12/1996.
(2) The Jerusalem Report, 26/1/1995.

عيسى قد أحب أبناء قومه". ثم يقول إن اليهود يحتاجون إلى عيسى كما يحتاج عيسى إلى اليهود وإذا لم يكن عيسى مسيحاً لليهود فهو ليس مسيحاً لأية جماعة بل ان اليهودية ليست كاملة من دون الاعتراف بالمسيح عيسى وان النبي اشعيا تنبأ به عندما قال (سفر اشعيا ٥/٩): "لأنه قد ولد لنا ولد وأعطي لنا ابن وصارت الرئاسة على كتفه وذعي اسمه عجيباً، مشيراً... أبا الأبد رئيس السلام"(١).

ويقول مسؤول معبد "بيت إل" بروس كوهين: "إن اليهود الذين يؤمنون بعيسى يفترض فيهم أن لا يتركوا ثقافتهم ولا تراثهم الديني ويجب أن لا يشعر الواحد منهم بأنه يقوم بهذا، وإننا لا نرغب أن ندعو أنفسنا مسيحيين ولا نريد أن نندمج".

ويقول جاك شتيرن الذي كان مسيحياً وتحول إلى "اليهودية العيسوية" وأصبح حاخاماً له معبده الخاص به: "إنني ما زلت يهودياً وكل اليهود المسيحانيين هنا يؤمنون بأنهم يهود على رغم أن الحاخامية اليهودية ترفض ذلك وهي تحاربنا وإننا نحب أن ندعى باليهود المسيحانيين" (العيسويين). ويطلق على الداخلين إلى هذه الفرقة من غير اليهود وصف "الجدد" تمييزاً لهم عن اليهود بالولادة وهذا يذكرنا بوصف "الدخيل" الذي أطلقه العهد الجديد على غير اليهود ممن آمن بعيسى.

وتتحدث واحدة من اليهود العيسويين - اسمها هلن شابيرو - وتقول إننا عبرانيون أكثر منا شيء آخر فنحن لا نحتفل بعيد رأس السنة الميلادية ولا بالفصح لأنهما معتمدان على أسس وثنية، ونحن نحتفل بالأعياد اليهودية لكننا أيضاً نعتقد بأن تحقيق هذه الأعياد هو في عيسى وليس في غيره ونحن كذلك نصوم يوم الكبور لكن ليس خوفاً بل على اعتقاد بأن عيسى هو الذي ضحى ونرى فيه الغفران للذنب. ونحن نصوم في هذا اليوم لأننا نعتبر أنفسنا يهوداً ونحن نعمل ما أمرنا به ولكن ليس من أجل أن نخلص أنفسنا لكن لنكون قرب الرب ونشكره على أن أرسل المسيح للغفران.

إننا نؤمن بأن المسيح قد "وعد للشعب اليهودي وللعالم وخلال الألفي سنة الماضية فإن العقيدة المسيحانية أضاعت جذورها اليهودية. وعندما أصبحت هذه العقيدة الدين

(1) The Guardian, 21/12/1996. D. and L. Cohn, op. cit, p. 319.

الرسمي للرومان أخرج السبت والفصح اليهودي منها بل وكل شيء يهودي وأدخلت فيها معتقدات وثنية وتأثرت الكنيسة بهذا كثيراً. ونحن كيهود مسيحانيين نؤمن بإله أبراهام وإسحق ويعقوب ونؤمن إيماناً كاملاً بأن العهد القديم هو كلام الله، وان اليهود المسيحانيين حققوا يهوديتهم بالإيمان بالمسيح كما أن المسيح حقق النبوءات وسيحقق المملكة عندما يأتي مرة أخرى"(١).

ومن اليهود العيسويين من يقول بأن حركتهم هي مذهب أو اتجاه في اليهودية كبقية المذاهب الأخرى مثل المذهب الأرثوذكسي والإصلاحي والمحافظ وغيرها. فهذه المذاهب تختلف فيما بينها في بعض جوانب المعتقد وتختلف كذلك في الممارسة الدينية. ويقول هؤلاء إننا نشعر بأننا مجموعة مهمة وجزء مهم من الجماعة اليهودية ككل وان قدرنا الذي نؤمن به هو أننا سنصبح جزءاً مهماً منها. ويقول ديفد شرنوف وهو رئيس "اتحاد المسيحانيين في أميركا": "إن اليهود بصورة عامة لا يريدوننا ولا يريدون أن يعرفوا عنا شيئاً لأننا لا نساهم بكثير من المال في الوقت الحاضر. لكن عندما يكون عندنا أعضاء كثر ونساعد إسرائيل بملايين الدولارات نكون مهمين"(٢).

وفرقة اليهود العيسويون فرقة ناشطة في دعوة الناس إلى الانضمام إليها ويركز أعضاؤها في ذلك على اليهود. ويقول الحاخام العيسوي جاك شتيرن: "إننا نريد أن ينضم إلينا اليهود ويصبحوا عيسويين. وعيسى المسيح واضح حول موضوع الدعوة. فهو يقول: "اذهبوا إلى الناس وادعوا إلى البشارة". ومن أجل أن نطبق هذا فعلينا أن ندعو إلى البشارة"(٣).

وكان مؤتمر الكنيسة التعميدية الجنوبية في الولايات المتحدة الذي عقد في الشهر السادس من عام ١٩٩٦ قد صوت أعضاؤه للعمل بنشاط أكثر وأوسع من السابق للتبشير بين اليهود. واستشهد على ذلك بإحدى رسائل بولس (رسالة إلى رومة) ١٦ - ٩، التي جاء فيها: "فإني لا أستحي من البشارة في قدرة الله لخلاص كل مؤمن لليهودي أولاً ولليوناني ثانياً"(٤). ويرى اليهود العيسويون بأن زيادة نسبة الزواج المختلط

(1) E. Klein, Lost Jews, pp. 147-148.
(2) The Jerusalem Report, 26/1/1995.
(3) D. and L. Cohn, op. cit, p. 321.
(4) The Guardian, 21/12/1996.

بين اليهود والمسيحيين في الولايات المتحدة الذي يصل في الوقت الحاضر إلى أكثر من ٥٠ في المئة سيزيد عددهم لأن الاعتقاد باليهودية العيسوية، كما يرون سيكون هو الحل الأمثل للزوجين من ديانتين مختلفتين[1]. ويرون كذلك بأن التعاون الموجود بين بعض المذاهب اليهودية - مثل المذهب الإصلاحي - وبين المسيحيين في الولايات المتحدة سيزيد من عددهم. كما أن بعض اليهود الإصلاحيين أخذوا يدعون إلى إعتبار عيسى نبياً.

(1) Ibid.
(2) R. P. Bulka, Thcoming Cataclysm, p. 92.

الفصل السادس

الجمعيات التبشيرية لليهود العيسويين

لا يعود وجود فرقة اليهود العيسويين في إسرائيل اليوم إلى ظهور الدولة بل كانت موجودة قبل ظهورها... وتذكر المصادر بأن وجود هؤلاء في فلسطين يعود إلى القرن التاسع عشر على الأقل. وكانت "جمعية لندن للتبشير بين اليهود" التي ذكرناها سابقاً تنشط في فلسطين بين اليهود. وبعثت لهذه المهمة واحداً من أشهر مبشريها وهو غوبت. وحققت الجمعية بعض النجاح على رغم حرب الحاخامين ضد نشاطها والوقوف في وجهها. وكتب غوبت في أحد تقاريره أنه منذ عام ١٨٣٩ م حتى عام ١٨٤٧ م أصبح ٣١ شخصاً بالغاً و٢٦ فتى من اليهود من المؤمنين بعيسى ولم يقتصر الإيمان بعيسى[1] على اليهود العاديين بل آمن بعض الحاخامين كذلك به. ومن أجل وضع حد لتحول اليهود إلى مؤمنين بعيسى أصدر الحاخامون عقوبات صارمة ضد كل يهودي يؤمن بعيسى. ومن هذه العقوبات طلاق الزوجة إذا كان متزوجاً - إلا إذا أصبحت مثله - كذلك أخذ أبنائه منه ووضعهم تحت رعاية الجالية اليهودية ومنعهم من تسلم أموال من أبيهم كذلك كانوا يصدرون طرد (حرم) بحقه من اليهودية حيث لا يكلمه أحد ولا يتعامل معه أحد ويعزل عن الجالية عزلاً تاماً. كذلك كانوا يقيمون فترة

(1) *K. Crombie, For the Love of Zion, p. 77.*

حزن وندب على الشخص وكأنه قد مات - يعتبر المتحول إلى المسيحية من اليهود بمثابة الميت عند اليهود الأرثوذكس - واتخذ عمل المبشرين ورد فعل الحاخامين عليه شكل صراع بين الجماعتين. فكل عمل كان يقوم به أولئك يواجه بعمل مضاد من هؤلاء. فعندما أنشأ المبشرون مستشفى مثلاً في القدس وأخذ بعض اليهود يذهبون للعلاج فيه أعلن الحاخامون بأنهم سيصدرون قراراً بطرد كل يهودي من اليهودية يراجع المستشفى وإخراجه من جماعة اليهود وعدم ختن أولاده أو تغسيله بعد موته أو دفنه في مقابر اليهود. إلى ذلك وضع الحاخامون مراقبين في الشوارع المؤدية إلى المستشفى. وخلال ٢٤ ساعة من ذلك لم يراجع أحد من اليهود المستشفى. وطلب يهود القدس من أغنياء اليهود إنشاء عيادة طبية لليهود حتى لا يراجعوا المستشفى. وأرسل لهم الثري اليهودي المعروف مونتفيور طبيباً مع أجهزة طبية[1]. ورداً على توزيع الأدبيات المسيحية على بعض اليهود كوّن الحاخامون مجموعات سرية تبحث في بيوت اليهود عن هذه الأدبيات ورصد الأشخاص الذين يذهبون إلى بيوت المبشرين أو الكنيسة. كذلك أصدر بعض الحاخامين كتاباً ضد اليهود العيسويين. إلى جهود المبشرين بين اليهود كان لممثلي الحكومة - الذين كانوا في هذه الفترة أعضاء في جمعية لندن للتبشير بين اليهود - نشاط في مساعدة اليهود العيسويين وأنشأ القنصل البريطاني مستوطنة لهم قرب بيت لحم عام ١٨٤٩ م.[2] ويبدو أن وجود اليهود العيسويين استمر في فلسطين ولم ينقطع إذ نسمع عن بعض المجموعات منهم قد تكونت قبل ظهور دولة إسرائيل مباشرة وكان من هذه المجموعات واحدة تزعمها يهودي مسيحاني اسمه بن مئير وكان بن مئير هذا يهودياً أرثوذكسياً وعمل في البداية مع أحد المبشرين النروجيين من الجماعة اللوثرية التي أنشأها المبشر هانسون عام ١٩٤٥ م. وكان بن مئير يصر على الالتزام بالشريعة اليهودية، وخصوصاً السبت والكشروت (الحلال والطاهر) والالتزام بأيام الصيام والأعياد اليهودية[3]. ورفض التعميد كذلك. وكان أيضاً يركز على رجوع عيسى الذي يعيد دولة اليهود وكان يقول بأنه يريد تحقيق

(1) Ibid, pp. 55-58.
(2) Ibid, p. 93.
(3) Per Osterbye, The Church in Israel, p. 213.

نبوءات الأنبياء بالنسبة إلى اليهود(١).

وكان يؤكد كذلك على يهوديته مع إيمانه بعيسى. وكتب في أحد أعداد مجلة الكرمل (١٩٦٢/٤/٥ م): "إنني لست لوثرياً... ولا أنا معمدياً وإنما أنا يهودي وأفكر كيهودي وأؤمن بعيسى المسيح لأنه هذب من إحساسي اليهودي وقواه. واعتقادي هذا يجعلني أكثر انسجاماً مع نفسي"(٢). وكان من هذه المجموعات مجموعة أسسها زئيف كوفسمان باسم "الجماعة المسيحانية في إسرائيل" وكانت هذه الجماعة لا تشدد على الالتزام بشريعة التوراة لكنها تعتبرها كلام الله. ولم يحتفل هؤلاء إلا بالأعياد التي ذكرتها التوراة ويعطون هذه الأعياد بعداً مسيحانياً ورفض هؤلاء التثليث وأكدوا على دعم إنشاء دولة إسرائيل(٣).

ومن هذه الجماعات جماعة ظهرت باسم "المسيحيون العبرانيون الإسرائيليون" ولم أهتد إلى مؤسسها وجاء في مبادئ هذه الجماعة أنها تؤمن بوحدانية الله وان عيسى هو المسيح بن داود (من نسل داود) الذي جاء عنه "في الكتاب المقدس انه ولد في بيت لحم أيام المعبد الثاني وقتل من أجل ذنوبنا ورفع في اليوم الثالث من القبر إلى السماء... وهو سيرجع لإنشاء دولة السماء على الأرض. وإننا نؤمن بالروح القدس وان التوراة كلام الله نؤمن بالأهمية الروحية والسياسية لأرض صهيون طبقاً لوعد الله"(٤). وفي عام ١٩٦٢ أنشئت جماعة من اليهود العيسويين في أشدود وكان أكثر أعضائها من أوروبا الشرقية ثم انضم إليهم جماعة من يهود أميركا اللاتينية. وكان أعضاء هذه الجماعة يجتمعون في البيوت للعبادة وكانت الكنائس تساعد هذه الجماعة وبعد عشر سنوات اضطر أعضاؤها إلى مغادرة المدينة بسبب مضايقة اليهود لهم(٥).

كذلك وصل في مطلع السبعينات مجموعة من "يهود عيسى" لكنهم تركوا إسرائيل بعد فترة وجيزة للسبب نفسه. وكانت بعض هذه الجماعات قدمت طلباً عام ١٩٥٠ إلى الدولة من أجل الاعتراف بها ورفض الطلب. كذلك قدمت طلباً آخر عام ١٩٥٣ للغرض نفسه لكن الطلب رفض مرة أخرى وقال هؤلاء يومها إن اعتراف الدولة بهم غير ممكن(٦).

(1) M. Prior and W. Taylor, Christians in the Holy Land, p. 326.
(2) Per Osterbye, op. cit, p. 165.
(3) M. Prior and W. Taylor, op. cit, p. 326.
(4) Per Osterbye, op. cit, pp. 157-158.
(5) M. Prior and W. Taylor, pp. 322-323.
(6) Ibid, p. 323.

وعلى رغم عدم اعتراف الدولة بهم - بسبب ضغط المؤسسة الدينية - فإن هؤلاء يؤكدون دائماً على انتمائهم للشعب اليهودي وولائهم للدولة. ففي مؤتمرهم الذي عقدوه عام ١٩٥٨ م أعلنوا الآتي: "إن هذه الجماعة ما زالت تعتبر نفسها يهودية ويعتبر أعضاؤها أنفسهم جزءاً مهماً من الشعب اليهودي وكل واحد منهم يعتز بانتمائه إلى هذا الجنس الذي انحدر منه أجداده. وهي تشعر بأن عليها واجباً لخدمة هذا الشعب ان اليهود المسيحانيين خاصة في إسرائيل يعبرون عن إخلاصهم للدولة التي يعيشون فيها التي هم مرتبطون بها"(١).

ولا يعرف على وجه الدقة عدد هؤلاء اليوم في إسرائيل. فقد ذكرت واحدة من أعضاء هذه الفرقة في كتاب نشر عام ١٩٦٢ بأن عددهم يزيد على الألف شخص. وذكر في كتاب آخر نشر عام ١٩٩١ أن عددهم يقدر بحوالي ألفين وأن عدد مراكزهم حوالي ثلاثين مركزاً(٢). وتذكر إحصائية أخرى بأن عدد مراكزهم في إسرائيل يصل إلى ٤٠ منها اثنان تعودان إلى اليهود الاثيوبيين (الفلاشا)(٣). وتذكر مصادر أخرى أن عددهم حوالي ٢٥٠٠ بينما يقولون هم بأن عددهم يصل إلى عشرة آلاف(٤). والسبب في عدم وجود إحصائية دقيقة هو أن هؤلاء يخافون على مكانتهم ومن التفرقة الاجتماعية والدينية ضدهم بل ومن فقدانهم الجنسية الإسرائيلية كما سنرى.

وينظر الإسرائيليون إلى هؤلاء كما ينظر لهم بقية اليهود خارج إسرائيل، فهم يرتابون منهم ويشكون في دوافعهم. واليهود العيسويون يعرفون ذلك وقالت واحدة من هؤلاء: "إن هذا الارتياب شيء طبيعي لأن الناس لا يعتقدون بأن الدافع وراء التحول هو عقيدي بحت بل يعتقدون بأن هناك أسباباً أخرى وراء ذلك. لذلك فإن الناس هنا يقولون عنا كيف يمكن أن نكون يهوداً ونحب بلدنا ونحن نعتقد عقيدة أعدائنا ويتذكر جيداً الكثير من يهود أوروبا المذابح التي حلت باليهود حين أطلق عليهم لقب أعداء المسيح". ثم تقول: "إن اليهود المسيحانيين يجب أن يوضحوا للآخرين بأن من يؤمن بعيسى حقيقة لا يمكن أن يكره الناس الذين جاء منهم المخلص ولا يمكن أن يكون

(1) Per Osterbye, op. cit, p. 73.
(2) K. Crombie, For the Love of Zion, p. 257.
(3) The Jerusalem Report, 26/1/1995.
(4) Jewish Chronical, 4/9/1992.

المسيحاني مسيحانياً قبل أن يكون يهودياً"(١). وهذا الرأي يذكرنا بما كان يقوله المؤمنون بعيسى وتلامذته الأوائل. وصدرت في إسرائيل في الستينات كتب تحذر من هذه الفرقة كان منها كتاب عنوانه "عمليات التبشير في إسرائيل" وينتقد المؤلف اليهود العيسويين ويعطي أسماء بعضهم وعناوينهم ويحض على طردهم من وظائفهم. وصدر كتاب آخر عنوانه "التبشير في إسرائيل" إذ وصف المؤلف - بن زئيف - اليهود العيسويين بأنهم خونة ومخربون ومرتدون وهم أعداء إسرائيل ومساعدو النازية(٢).

وتنشط اليوم في إسرائيل جمعيات لمحاربة المجموعات اليهودية العيسوية وأهم هذه وأشهرها هي جمعية "يد لأحيم" (مساعدة الأخوة) وهذه جمعية كبيرة إلى حد ما ولها على الأقل ثمانية فروع في إسرائيل وهي تقوم بنشاطاتها منذ الخمسينات. أنشأ هذه الجمعية يهود أرثوذكس لذلك فهي تحارب كل نشاط لا يتفق وعقيدتها فهي أيضاً تحارب الزواج المختلط بين اليهود (زواج اليهود من غير اليهود) وخصوصاً زواج اليهوديات من عرب في إسرائيل. وهي أيضاً تعارض تجنيد النساء وهي تعتقد بأن الجماعات اليهودية العيسوية تمثل خطراً على اليهودية وهي أيضاً ضد التبشير المسيحي في إسرائيل. وبسبب ضغطها شرع الكنيست الإسرائيلي قانوناً ضد التبشير عام ١٩٧٧ م. ومن نشاطات هذه الجمعية أنها ترسل لها عملاء سريين في صفوف هذه الجماعات وهم يتظاهرون بأنهم أعضاء فيها ويقوم هؤلاء بكتابة التقارير عن نشاطاتها وتحركاتها وتعطي الجمعية أسماء النشيطين فيها إلى وزارة الداخلية. واعترف المتحدث باسمها بذلك(٣). بل ظهر حديثاً أنها تعطي أسماء النشيطين من هؤلاء حتى لو كانوا يعملون خارج إسرائيل كما اعترف أحد الذين كانوا يعملون مع هذه الجماعات في الولايات المتحدة(٤). وهي تذكر في بياناتها أيضاً أسماء المنتمين إلى هذه الجماعات في إسرائيل وتقول في بيان رسمي لها بأنها نجحت بإخراج ما يقرب من ٣٠٠ شخص من الإسرائيليين من هذه الجماعات بين الأعوام ١٩٨٢ - ١٩٨٧. وقال أحد مسؤوليها أن هناك حوالي مئة جماعة مختلفة في إسرائيل (من يهود عيسويين وغيرهم) وأن أعضاء

(1) A. Ramati, Israel Today, pp. 141-142.
(2) Per Osterbye, pp. 111-114.
(3) The Jerusalem Report, 26/1/1995.
(4) The Jerusalem Report, 23/1/1995.

هذه الجماعات يصلون إلى خمسين ألف عضو".

وتصدر هذه الجمعية نشرة شهرية عن نشاطاتها ضد الجماعات العيسوية وغيرها وهي أيضاً تصدر تقارير وتعيد نشر مقالات نشرت في فترات سابقة. وأصدرت عام ١٩٨٢ كتيباً احتوى على شهادات إسرائيليين كانوا أعضاء في هذه الجماعات وخرجوا منها وأصبحوا يهوداً أرثوذكس. وقبل بضع سنوات نشرت كتيباً يحتوي على أسماء ١٦ مجموعة تعمل في إسرائيل وقدمت مذكرة إلى لجنة أنشأتها الحكومة للتحقيق في نشاط هذه الجماعات. وحثت المذكرة اللجنة على اتخاذ قرار ضدها. ومن التوصيات التي اقترحتها هو أن تكون هناك مراقبة من الشرطة لهذه المجموعات. وقد زودت الجمعية لجنة التحقيق بشهود ضد هذه الجماعات[١]. ويزداد نشاط هذه الجمعية كلما كانت وزارة الداخلية على رأسها يهودي أرثوذكسي وربما كانت هذه الجمعية وراء حرق الكتيبات علناً التي أرسلتها جماعات تبشيرية على عناوين بيوت في إسرائيل في الفترة الأخيرة[٢].

(1) Jews and Jewishnes's in Israel, p.211.
(2) The Jerusalem Report, 23/1/1995.

الفصل السابع

مشروع قانون ضد "العيسويين"

من المنظمات التي تعمل لمحاربة مجموعات "اليهود العيسويين" منظمة تسمى "منظمة الآباء العاملين ضد الفرق الدينية". أنشئت هذه المنظمة على نمط بعض المنظمات في الولايات المتحدة التي تنشط في هذا المجال، في حيفا عام ١٩٨٠، وأصبحت منظمة رسمية عام ١٩٨٢. ضمت في بدايتها ١٥ عائلة، لكن عدد الأعضاء ازداد كثيراً خلال السنوات اللاحقة، وهي تنشط كثيراً في الضغط على وسائل الإعلام والحكومة ويظهر رئيسها كثيراً في التلفزيون والراديو ويتحدث إلى وسائل الإعلام الأخرى عن المجموعات التي يحاربونها وبضمنها الجماعات اليهودية المسيحانية. ومن نشاطات هذه المنظمة مراقبة الصحف في إسرائيل والتحري عن تقارير ومقالات تنشر لصالح هذه المجموعات وترد بسرعة على ما يكتب. وتعقد هذه المنظمة ندوات وحلقات دراسية يشترك فيها مختصون من خارج إسرائيل.

وفي اتحاد المستوطنات (القبوحيم) هناك قسم خاص أنشئ خصيصاً لمحاربة الجماعات التبشيرية ويضم عدداً من الاختصاصيين، وهو ينظم إلقاء المحاضرات وعقد ندوات ويدرب الموظفين من أجل هذا الغرض[1].

(1) Jews and Jewishnes's in Israel, p.233.

وهناك تعاون وثيق بين المنظمات اليهودية في إسرائيل وبين تلك التي في الولايات المتحدة التي تحارب التبشيريين اليهود، بل ان بعض المنظمات الأميركية تتعاون مع حكومة إسرائيل. وقد ذكر سيمون لافمان، وهو رئيس منظمة أميركية اسمها "كتيبة المهمات" عام ١٩٨١ أنه قد كتب إلى وزير الداخلية الإسرائيلية تقريراً خاصاً حول هذه المجموعات. وقال أحد اليهود النشطين في أميركا في هذا المجال عام ١٩٨٢: "أنا لم أتحدث مع وزير الداخلية والأديان والصحة والدفاع وحسب، بل عرضت القضية على رئيس الوزراء وبينت له حجم المشكلة واقترحت عليه أن يعمل على تشريع قانون بهذا الخصوص، وربما تتحقق رغبة هذا الشخص وغيره من اليهود، إذا أقر مشروع القانون المعروض على الكنيست للنقاش في الوقت الحاضر".

وينص مشروع القانون في بعض فقراته على جعل كل شخص يقوم بطبع الأدبيات الدينية أو حيازتها أو إنتاجها أو توزيعها أو استيرادها لغرض التبشير بين اليهود عملاً إجرامياً يسجن الشخص بسببه لفترة سنة. وانتقد المسيحيون واليهود العيسويون هذا المشروع. وقال باروخ موعز، وهو رئيس "جماعة الرحمة والحقيقة"، وهي إحدى الجماعات العيسوية في إسرائيل: "إن مشروع القانون يخرق حقوق الإنسان الأساسية ويحدد حرية الناس في التعبير عن معتقداتهم". بينما قال موشي غفني، من الحزب الديني "ديغل هانوراه" وهو أحد اثنين قدما المشروع: "إن هذا القانون سيجعل إسرائيل قادرة على العمل ضد الحملات التبشيرية المنظمة التي تمولها المنظمات العالمية لتحويل اليهود عن معتقدهم وإن الشعب اليهودي قد عانى كثيراً خلال تاريخه بسبب محاولات تحويله عن دينه"(١). وتبذل منظمة "يد لأحيم" جهوداً كبيرة بين أعضاء الكنيست من أجل إقرار القانون. وقد احتجت الكنائس وكثير من أعضاء الكونغرس على حكومة نتانياهو. ووعد نتانياهو زعماء هذه الكنائس والآخرين بمنع تشريع هذا القانون(٢).

وكانت إحدى القضايا التي برزت في الإعلام في السنين الأخيرة قضية بعض

(1) The Jerusalem Report, 29/5/1997.
(2) The Jerusalem Report, 21/7/1997.

العوائل من هذه الجماعة، حين هاجرت إلى إسرائيل طبقاً لما يسمى بقانون العودة. وقد رفضت وزارة الداخلية طلب هذه العوائل للحصول على الجنسية الإسرائيلية وعندما اعترضت على الوزارة في المحكمة العليا، أكدت المحكمة الرفض. وقال المدعي العام الإسرائيلي في حينه إن قانون العودة ينطبق على اليهودي المولود لأم يهودية أو الذي اعتنق اليهودية من دون أن يعتنق ديناً آخر. لكن "اليهود العيسويين" يؤمنون بعيسى وهذا يجعلهم يؤمنون بدين آخر[١].

وقالت امرأة من هذه العوائل في اعتراضها إن والديها يهوديان وان زوجها ينحدر من عائلة يهودية. وذكرت أن وزارة الداخلية شكّت في عقد زواجنا لأنه كان تم في كنيسة، وسبب ذلك هو الضرورة. واشتكت بأن عملية تنصت حصلت على تليفونها، كذلك فتح بريدها من دون علمها. وهي تتهم الجمعيات التي تحارب اليهود العيسويين في إسرائيل. وقالت إن بعض المسؤولين في الوكالة اليهودية اتهموها بالخيانة وقالوا لها إنهم سيعملون كل ما في استطاعتهم لإخراجها من إسرائيل. وقالت مسؤولة في وزارة الداخلية في حينها: "إننا نعلم بأن اليهود المسيحانيين في كل أنحاء العالم مهتمون بهذه القضية، وأنا آمل أنهم الآن فهموا أنه ليس لهم حق المجيء إلى هنا والإقامة الدائمة في إسرائيل". وذكرت "أنه إذا انتهت فيزا هذه العوائل، فإن عليها أن تغادر"[٢]. ولوزير الداخلية السلطة المطلقة لمنع دخول الأشخاص إلى إسرائيل وطردهم منها. واستعمل الوزير سلطته عدة مرات ضد "اليهود العيسويين" و"العبرانيين السود". وإذا ما اكتشفت وزارة الداخلية بأن حامل الجنسية يهودي عيسوي، فإن القانون الإسرائيلي يعطيها الحق في سحب الجنسية منه. وحققت وزارة الداخلية في عدة حالات مع أشخاص شكّت في أنهم ينتمون إلى هذه الجماعة[٣]، بل كانت هناك أكثر من حالة سحبت فيها جنسية الشخص وتعاد له إذا قدم طلباً يؤكد فيه أنه لا يؤمن بعيسى[٤]. كذلك يوجد قسم في وزارة الشؤون الدينية يطلق عليه "قسم الخدمات الخاصة" ويتعاون هذا القسم كثيراً مع المنظمات التي تحارب هذه الجماعة.

(1) Jewish Chronical, 11/9/1992.
(2) Jewish Chronical, 11/9/1992.
(3) Jews and Jewishnes's in Israel, pp. 214-215.
(4) Per Osterbye, The Church in Israel, p. 69.

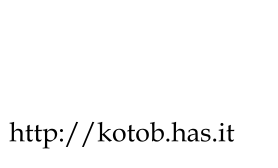
كذلك تبعث وزارة التربية في إسرائيل رسائل إلى المدارس بين فترة وأخرى تحذر المسؤولين فيها من تأثير هذه الجماعات على الطلاب مع أن هؤلاء لا يقومون بالتبشير بين طلاب المدارس الثانوية. وإذا شكّت المدرسة في الشخص، فإنها لا تقبل أولاده، خصوصاً إذا كانت المدرسة دينية، كما حدث لشخص اسمه ديفيد شتيرن، وهو مؤلف وباحث له عدة كتب عن اليهودية والعهد الجديد، كان هاجر من الولايات المتحدة إلى إسرائيل قبل ١٥ سنة وعندما أراد أن يدخل ابنته إلى إحدى المدارس الدينية الابتدائية رفضت المدرسة قبولها، وقال له المدير لأنه يؤمن بـ"يوشكه"، وهو لقب باليديش يطلق على السيد المسيح احتقاراً. وحاول ديفيد شتيرن أن يقنع مدير المدرسة بأنه يؤمن باليهودية أيضاً، لكن المدير أصر على رفض قبول ابنته. وحاول شتيرن بعد ذلك أن ينضم إلى المذهب الماسورتي (الذي يسمى في الولايات المتحدة مذهب اليهودية المحافظة ويعد أكبر المذاهب اليهودية فيها)، لكن المسؤولين فيه رفضوا قبوله مع أن هذا المذهب غير معترف به في إسرائيل[١].

وهناك دعوات اليوم من قبل اليهود للاعتراف بهؤلاء من قبل اليهودية ومن قبل الدولة. ودعا المفكر اليهودي ميخائيل ويستروج إلى قبول "اليهود العيسويين". وقال إن اليهودي الذي يؤمن بعيسى يجب أن يبقى يهودياً وإن ظلت منزلته أقل من منزلة اليهودي المتدين من وجهة نظر اليهودية. ودعا بن خورن إلى مناقشة قضية "اليهود العيسويين" علناً، وأن تعامل بشكل موضوعي في ظل الديمقراطية في إسرائيل. وقال كما قبل المجتمع الإسرائيلي اليهودي الملحد واللاأدري فهو يجب أن يقبل اليهود المسيحاني[٢].

وكان بعض "اليهود العيسويين" تنبأ في الستينات بأن قضية الاعتراف بهم وقبولهم في إسرائيل ما هي إلا قضية وقت، إذ سيكون وجودهم طبيعياً كما أن وجود يهود من لون مختلف هو شيء طبيعي[٣]. لكن هذا لم يتحقق إلى الآن ولا أعتقد بأنه سيتحقق في الوقت القريب، وأسباب ذلك دينية وتاريخية، لكن الحركة ستستمر في التوسع

(1) The Jerusalem Report, 26/1/1995.
(2) M. Prior and W. Taylor, Christian in the Holy Land, p. 333.
(3) A. Ramati, op. cit, p. 143.

والنمو، وسيؤدي هذا إلى صراع بينها وبين اليهود الأرثوذكس، خصوصاً وقد مرّ بنا بعض أوجه هذا الصراع، إضافة إلى أن ظهور هذه الفرقة اليهودية يطرح السؤال الجديد القديم حول هوية اليهودي، كما تطرحه بقية الأقليات الدينية الأخرى التي كتبنا عنها في مقالات سابقة.



الفصل الثامن

اليهود القراؤون

مؤسس فرقة القرائين وزعيمها الأول هو عنان بن داود الذي لا نعرف على وجه الدقة متى ولد ومتى توفي وإن كنا نعرف بأنه عاش وتوفي في القرن الثامن الميلادي في بغداد. وقد كان ظهوره كمعارض لليهودية الرسمية وثائراً عليها في بداية النصف الثاني من القرن المذكور أيام الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور.

ويذكر بعض المؤرخين اليهود مثل أبراهام بن داود وبعض المؤرخين المسلمين مثل أبي الريحان البيروني بأن عنان بن داود كان من سلالة داود النبي وقد اشتهر من عائلة عنان أخوه حنانيا وعمه سلومون بن حسداي حين أصبح كل واحد منها رئيساً للطائفة اليهودية. وقد درس عنان اليهودية منذ الصغر، وكان من أساتذته علماء مشهورون عند اليهود مثل الغاؤون يهوداي (ت ٧٦١ م) الذي كان رئيساً لمدرسة "سورا" الدينية اليهودية. ووصل عنان إلى مرتبة علمية متقدمة أقر له بها علماء اليهود واعترفوا به عالماً متميزاً.

وكان عنان مرشحاً لتولي رئاسة الطائفة لتوافر الشروط فيه لكن النقد الذي كان يوجهه إلى اليهودية الرسمية وللحاخامين عموماً حرمه من ذلك ورشح بدله أخوه حنانيا لرئاسة الطائفة.

ولم يعترف عنان برئاسة أخيه ورفض الانصياع لذلك. وقد اتهم عنان الحاخامين بالسلوك المنحرف وقال عنهم بأنهم ليسوا جديرين بما يطلقون على أنفسهم من صفات، وقد رفض سيطرتهم على الطائفة اليهودية. ومن المسائل المهمة التي رفضها عنان مسألة التلمود. والتلمود يعتبر عند اليهود "شريعة شفوية" مقابل الشريعة المكتوبة (التوراة). بينما رأى عنان بأن التوراة هي وحدها التي لها القدسية، وليس للتلمود أية قدسية "إذ هو بدعة ابتدعها الحاخامون ولفّقوها وقالوا للناس بأنها شريعة شفوية حيث طلبوا منهم أن يومنوا به ويقدسوه". (ولاعتماد هؤلاء على التلمود وقدسيته عندهم أطلقنا عليهم في هذه الدراسة اسم التلموديين مقابل القرائين). ومن المسائل المهمة الأخرى التي انتقدها عنان هي مسألة التقويم السنوي وتحديد اليوم الأول من الشهر. وكان اليهود في عصر عنان وما زالوا يعتمدون في تقويمهم الحسابات الفلكية في تحديد اليوم الأول من الشهر. أما عنان فقد انتقد هذا النظام وطالب اليهود بالرجوع إلى ما كانت تأخذ به اليهودية القديمة وهو تحديد أول الشهر بواسطة رؤية الهلال وليس عن طريق الحساب. ولهذه المسألة أهمية كبيرة عند اليهود إذ في ضوء التحديد تعرف أوقات المناسبات الدينية والأعياد. وقد أصبحت هذه القضية أيضاً من مسائل الخلاف بين القرائين والتلموديين.

وما أن شاعت آراء عنان هذه بين اليهود حتى أيده مجموعة منهم وانضموا إليه وأعلن عنان انفصاله عن اليهودية الرسمية على رؤوس الأشهاد ومن دون خوف أو وجل. وقد اعتبرته المجموعة التي أيدته في آرائه رئيساً وزعيماً لها.

ولم يكن انفصال عنان عن اليهودية الرسمية ونقده لها بمسألة يحتملها الحاخامون ويسكتون عليها لذلك أصدروا قراراً (يسمى بالعبرية "حرم") بطرد عنان ولم يؤثر عليه ولم يجعله يقلل من نقده. وقد استمر في الدعوة إلى أفكاره والترويج لها بين اليهود. فلجأت المؤسسة اليهودية إلى الحكومة في بغداد تشكوه لها وتتهمه بالمروق عن الدين اليهودي والخروج عليه وعدم الاعتراف باليهودية الرسمية. وألقي القبض على عنان وأودع السجن. ولا نعرف الفترة التي قضاها فيه قبل أن يعفى عنه. وتقول بعض الروايات عن سبب العفو عن عنان هو أنه التقى في السجن بعالم مسلم كان أيضاً سجيناً وتذكر روايات أخرى بأن هذا العالم لم يكن غير الإمام أبي حنيفة النعمان بن

ثابت (ت ١٥٠ هـ / ٧٢٦ م) الذي سجنه أبو جعفر المنصور ومات في السجن. فاقترح على عنان بعد أن عرف قصته أن يلتقي المنصور ويشرح رأيه له ومعتقده باليهودية ويبيّن له بأنه لم يخرج عليها ولم يرتد عنها وإنما هو صاحب رأي ومذهب فيها. وترتب لعنان لقاء أبي جعفر المنصور - كما تقول الروايات - وبعد لقائه هذا أمر المنصور بإخراجه من السجن وتحريره منه. ويذكر العالم القرائي أبو يعقوب القرقساني القرائي (من القرن العاشر الميلادي) أن الحاخامين بعد هذا ائتمروا به واحتالوا لاغتياله والتخلص منه "لكن الله سلمه". وكتب عنان كتاباً في الفقه اليهودي أسماه "سفرها مصفووت" (كتاب الفرائض). وقد استعمل اللغة الآرامية فيه، لأنها اللغة الطاغية في التلمود إضافة إلى أن اليهود يعرفونها من خلال النصوص الدينية في شعائرهم وطقوسهم. وربما أراد عنان لكتابه أن يكون مدرسياً مثل التلمود ويقبل عليه أتباعه ويدرسونه كما يدرس التلمود اليهود الآخرون. و"كتاب الفرائض" هو كتاب مختصر صغير ويتضح مما بقي من نصوصه أن عنان لم يعتمد على رأي حاخام من حاخامي اليهود وإنما جعل التوراة مصدر أحكامه الفقهية وفتاواه. إضافة إلى الاجتهاد والقياس الذي وسع دائرته وتطبيقاته. وقد حثّ عنان أصحابه على الاجتهاد والأخذ به وقد نسب إليه القول المعروف بين القرائين "ابحثوا في التوارة باجتهاد ولا تعتمدوا على رأيي". وقد أصبح "كتاب الفرائض" موضوع دراسة وشروح وتعليقات ليس من قبل أتباعه حسب بل من قبل الجماعات الأخرى التي عارضت التلموديين أيضاً. وبرفض التلمود أيضاً من قبل عنان وأتباعه أصبحت التوراة معتمدهم الرئيسي.

ولم يعرف عن عنان بأنه ادعى الخلاص لليهود بالمعنى المسيحاني كما ادعى بعض من انشق عن اليهودية ممن جاء قبله أو بعده بل انه لم يُتهم بذلك حتى من قبل التلموديين على رغم تحقق بعض الشروط المهمة التي يشترطها اليهود في المخلص اليهودي كشرط النسب إلى داود النبي، ويرى القراؤون بأن هذا يؤكد بأن عنان كان يهدف من حركته إرجاع اليهودية إلى أصولها الصحيحة وتطهيرها - كما يعتقدون - مما أصابها من تشويه وتحريف. وتوفي عنان في نهاية القرن الثامن الميلادي. ولم يعرف عن عنان كذلك بأنه أضفى على نفسه صفة القدسية والعصمة ولم يعرف عن أتباعه بأنهم اعتقدوا فيه ذلك. لكن هؤلاء الأتباع اعتبروه إماماً وقدوة لهم وفي الوقت

نفسه رأوا فيه بشراً يصيب ويخطئ. وقد عبر عن ذلك أبو يعقوب القرقساني بقوله: "ولعمري ان رأس الجالوت عنان رضي الله عنه (هو) إمام وقدوة ومقدّم في الدين والعلم غير أنه لم يكن نبياً بل كان رجلاً نظاراً بحاثاً إلا أنه لا يعرى من الغلط والسهو". وقد أسبغ أتباعه عليه وعلى أولاده وأحفاده لقب "ناسئ" (أمير) ولقب من قبلهم أيضاً "روش هامسكيليم" (إمام المرشدين). وقد خصصوا له دعاء يتلونه ويدعون له به إلى يومنا هذا وهو هكذا: "اللهم ارحم الأمير عنان بن داود الولي الذي أبان طريق التوراة وأنار قلوب القرائين وهداهم وأرشدهم إلى طريق الحق. اللهم أنزله منزلاً طيباً ومسرّاً في الدرجات السبع للصالحين".

ومن آراء عنان التي عرفت عنه أن قواعد النحو المعروفة لا تطبق على التوراة. فإذا كان هناك تعارض وتناقض في الظاهر بين نصين فيجب أن تكون هناك قاعدة جديدة لتطبق على النص المناقض. ومن آرائه كذلك أنه إذا كان هناك خيار في حكم فيجب الأخذ بالحكم الأشد. وكذلك أوجب على أتباعه أن يصوموا في اليوم السابع من كل شهر. وهذا أيضاً يوجد عند بعض الفرق اليهودية الأخرى. وعنان كان أول من قال بنظرية "الركوب" (التراكم) وهذه النظرية تزيد عدد محارم النسب في الزواج إلى أضعاف ما هو معروف عند اليهود. وقد بنى ذلك عن عبارة التوراة في سفر التكوين ٢٤/٢: "لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسداً واحداً". ولقد ظل القراؤون يعتمدون هذه النظرية لفترة طويلة حتى أخذت تؤثر في عدد أفرادها وبسبب الخوف من انقراض الفرقة أفتى علماء قراؤون فيما بعد بتقليل عدد المحارم.

وبعد وفاة عنان عرف أتباعه باسم "العنانية" نسبة إليه وقد كان أشهر من برز من أتباعه وخلفه في زعامة الفرقة بنيامين بن موسى النهاوندي (ت ٨٦٠ م) الذي كان حاخاماً في نهاوند في إيران. والنهاوندي هو الذي أطلق على الفرقة اسم القرائين من كلمة "مقرا" العبرية التي تطلق على التوراة لأنهم كما ذكرنا قد اعتمدوا على التوراة من دون التلمود وأخذوا شرعهم منها. ويعتبر النهاوندي الرجل الثاني أهمية عند أتباع الفرقة بعد عنان بن داود حتى أُسمي القراؤون في المصادر القديمة - حتى العربية منها - بأنهم أتباع عنان والنهاوندي. ولمنزلة النهاوندي عند القرائين فإنهم يذكرونه في صلواتهم إلى جانب عنان. وقد عمل النهاوندي الكثير من أجل الفرقة فثبت أسسها

وقوى من مكانتها وأوضح منحاها واتجاهها وذلك بما كتب وألف في الشريعة اليهودية وتفسير التوراة. فأصبحت فرقة القرائين منذئذ معروفة متميزة حيث كثر أتباعها وانتشروا في كثير من بقاع عالم تلك الفترة. وكان كلما ازداد حجم الفرقة ازداد التلموديون خوفاً منها واشتد هجومهم عليها. وكان من الوسائل التي استعملوها ضد القرائين وسيلة الطرد من اليهودية (الحرم). وكان من أشد قرارت "الحرم" هذه ذلك الذي صدر أيام النهاوندي الذي أصدره الغاءون نطروناي بن هيلاي (ت ٨٥٦ م) رئيس مدرسة "سورا" الدينية في العراق. وقد جاء الآتي في نصه:

"إن هؤلاء (القرائين) الزنادقة الذين يسخرون من كلام العلماء ويحتقرونه هم تلامذة "عنان" عسى الله أن يمحو ذكره الذي قال للذين اتبعوه على فسقه اتركوا المستناة والتلمود وسأجعل لكم تلموداً جديداً. وما زال هؤلاء يتعلقون بأوهامه. وقد أصبحوا كما لو كانوا طائفة أخرى. والواقع فإن عنان قد جعل لهم تلموداً وهو تلمود سيئ كما هو بين من كتابه المقيت "سفر مصفووت". والآن فإن هؤلاء يجب أن يطردوا (من اليهودية) ويجب أن يمنعوا من الدخول إلى معابد اليهود المؤمنين وأن يبعدوا إلى أن يغيروا طريقهم ويتبعوا التوراة التي تطبقها مدرسة "سورا" ومدرسة فومتبدا".

وقرارات "الحرم" هذه وإن عمقت الشقة بين القرائين والتملوديين إلا أنها لم تؤثر كثيراً على مسيرة الفرقة. لذلك انبرى لها واحد من أشهر حاخامي اليهود التلموديين ومتفلسفيهم في القرون الوسطى الذي كان أيضاً أحد رؤساء المدارس الدينية اليهودية الكبرى وهو الغاءون سعديا بن يوسف الفيومي (منتصف القرن العاشر الميلادي) الذي عاش أكثر حياته في العراق. حيث أصدر كتابه المعروف عند اليهود والذي أسماه "الرد على عنان". وتضمن الكتاب هجوماً قاسياً وعنيفاً على عنان بن داود خصوصاً والقرائين عموماً، حيث وصف عنان بالخارجي والقرائين بالخوارج على اليهودية. وكان للكتاب وقع وتأثير كبيرين في تحجيم نشاط الفرقة وإبطاء انتشارها مع ما كتبه من أدبيات أخرى ضد القرائين كما في كتابه "التمييز" وكتابه الآخر "القياس على الشرائع السمعية"، وفي كتابه "كتاب تفسير التوراة".

وقد أثار هجوم سعديا على القرائين حفيظتهم وغضبهم وقد تصدوا للرد عليه وتفنيد حججه. وقد ظل القراؤون يكتبون الردود على سعديا إلى فترة متأخرة

وأصبحت هذه الردود تمثل جانباً مهماً من أدبيات القرائين.

وفي نهاية القرن التاسع الميلادي أسس القراؤون معهداً خاصاً بهم في فلسطين ونشط كثيراً لفترة من فترات تاريخهم إذ كان يضم في هذه الفترة ٧٠ عالماً من علمائهم وكان من هؤلاء أحفاد عنان. وقد كتب القراؤون في مجالات مختلفة مثل الفقه والتفسير والقرارات واللغة وعلم الكلام. وكتب أغلبهم في هذه الفترة باللغة العربية. ومن مشاهيرهم أبو يعقوب يوسف البصير ويعتبر من أشهر فلاسفة القرائين ومتكلمهم. وقد كتب كتابين مهمين في هذا المجال أحدهما كتاب "المحتوي" والآخر كتاب "التمييز". وكان من مبرزيهم ومشاهيرهم أبو يعقوب إسحق القرقساني الذي اشتهر بكتابه "الأنوار والمراقب" ويحتوي هذا الكتاب الذي هو في جزئين على تاريخ وفقه وكلام. وربما كان القرقساني أول يهودي يؤرخ للفرق اليهودية. ومنهم يوسف بن نوح الذي اشتهر بتفسيره للتوراة وبكونه نحوياً. وكان من أشهر لغوييهم داود بن إبراهيم الفاسي الذي كتب أول معجم لألفاظ التوراة وغير هؤلاء كثيرون.

ويلاحظ على كتابات القرائين وأدبياتهم تأثرهم بالثقافة الإسلامية حتى أن التلموديين قد اتهموهم بهذا التأثر. وقد قال التلمودي طوبيا بين اليعازر (من القرن الثاني عشر الميلادي): "إن هؤلاء (القرائين) قد أفسدوا كثيراً طريقة الحياة اليهودية الحقيقية لأنهم تلامذة المسلمين ومتأثرون بروح مجنونة ضربت عقولهم". بل كان نتيجة هذا التأثر أن تحول بعضهم إلى الإسلام كما يذكر السموأل بن يحيى المغربي (من القرن الثاني عشر الميلادي وهو يهودي أصبح مسلماً).

وكان أحد أسباب تأثرهم بالفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية عموماً هو أن فرقتهم كانت بحاجة إلى قاعدة كلامية وفلسفية تعتمد عليها وتركن إليها في رد هجوم التلموديين ونقدهم لهم فكان أن وجدوا مبتغاهم في الفكر الإسلامي ومدارسه. ومن يقرأ بعض كتب علمائهم مثل أبي يعقوب إسحق القرقساني ويوسف البصيري أثر مدارس الفكر الإسلامي متجلياً في أوضح صوره.

وقد تأثر القراؤون كذلك بأصول الفقه الإسلامي، وأصبح أغلب هذه الأصول كما هي عند العلماء المسلمين. كالكتاب (التوراة) والرواية (النقل) والاجتهاد والقياس،

والإجماع. وأصبحت هناك بعض التفاصيل في هذه الأصول لا توجد عند المسلمين وذلك لطبيعة اختلاف المنطلق واختلاف النظرة. فمثلاً أصبح عندهم ما يسمى بـ"وقش هاقش" (قياس المقياس)، بل ان أنواع القياس تطورت عندهم حتى أصبح عددها ثمانين نوعاً.

ومنذ بداية ظهور الفرقة كانت هناك نزاعات بينها وبين فرقة التلموديين عدا فترات سلم قصيرة في بعض البلدان. وقد تطورت هذه النزاعات أحياناً إلى عراك وفي حالة نادرة أدى النزاع إلى قتل... ولم يكن ما حدث مقتصراً على منطقة معينة لكنه شمل أكثر البلدان التي سكنتها الفرقتان وذلك على رغم عدم سكن القرائين مع التلموديين في حين واحد لأن القرائين قد أمروا منذ البداية من قبل عنان بن داود ومن خلفه أن ينفصلوا عن التلموديين ما أمكنهم الانفصال واعتبر ذلك واجباً عليهم. وقد قال يهودا هاداسي أشهر علمائهم في بيزنطة: "إن من يسكن مع التملوديين ويعيش معهم ويسمع قولهم ويسكت عليهم فإنه كافر مثلهم ومصيره مصيرهم". وقد استدل على وجوب الانفصال بما جاء في التوراة في سفر العدد ٢٦/١٦: "فكلم موسى الجماعة قائلاً اعتزلوا عن خيام هؤلاء القوم البغاة ولا تمسوا شيئاً مما لهم لئلا تهلكوا بجميع خطاياهم".

وأول نزاع مسجل بين الفرقتين هو الذي كان في بغداد موطن نشأة الفرقة عندما أعلن حفيد عنان بن داود، داود بن شاؤول بن عنان عام ٨٢٥ م أنه يعتبر نفسه رأس الجالية اليهودية بفرقتيها وقال بأنه أحق من غيره لرئاستها فثارت ثائرة التلموديين واحتدم نزاع بين الفرقتين حتى وصلت أخباره إلى الخليفة المأمون العباسي الذي أصدر أمراً يجعل كل فرقة منفصلة عن غيرها ومستقلة عنها.

وكانت فلسطين من البلدان الأولى التي استقر فيها القراؤون كما ذكرنا. وأول هذه النزاعات التي تذكر في فلسطين هو النزاع الذي يؤرخ من القرن التاسع الميلادي وهي الفترة التي أنشأ فيها القراؤون معهدهم الديني في القدس. وكان من هذه النزاعات ما حدث أيام الظاهر الفاطمي حيث اشتكى القراؤون التلموديين إلى الدولة فتدخل الظاهر الفاطمي وأصدر منشوراً طويلاً بهذا الخصوص حين أكد فيه على التلموديين بأن لا يتعرضوا إلى القرائين وطلب من كل فرقة أن ترعى شؤونها الخاصة.

وحصلت بين الفرقتين كذلك نزاعات في اسبانيا وبيزنطة وبعدها في تركيا كذلك في بولندا. وقد عثر على رسائل كثيرة يشكو فيها القراؤون من التلموديين وقد جاء في إحدى هذه الرسائل من بولندا في القرن الثامن عشر ما نصه: "لم يكن في السابق أحد منهم (التلموديين) في بلدنا لكنهم الآن طوقونا مثل الكلاب الوحشية وهم قد أصبحوا الآن كثيرين لا يمكن عدهم". وتقول إحدى هذه الرسائل من مدينة فلنا: "أنتم التلموديون تلاحقوننا بسيف الحقد والكره والتعصب حتى هلاكنا".

وفي روسيا حدثت نزاعات بين الفرقتين حتى فترة متأخرة. وكان زعيم القرائين في روسيا في القرن الماضي أبراهام فرقوفتش (ت ١٨٧٤ م) لا يطيق التلموديين ولا يحتمل وجودهم حتى أنه كتب بعض الرسائل ضدهم. وقد طلب من الحكومة الروسية عام ١٨٢٥ م أن تبعد التلموديين عن الحدود الروسية وذلك من أجل إيقافهم عن التهريب والمتاجرة في السوق السوداء كما قال. واقترح كذلك على الحكومة تغريهم بالزراعة وتبعدهم عن التجارة والصناعة حين اتهمهم بالغش والخداع. وقبل ظهور إسرائيل كان القراؤون يعيشون بأعداد كبيرة في شبه جزيرة القرم وبولندا وتركيا ومصر وبأعداد أقل في إيران والعراق.

الفصل التاسع

التلموديون يتهمون القرائين بالنازية

بعد إنشاء إسرائيل هاجر الكثير من القرائين إليها استجابة إلى قانون العودة الذي أعلنته. وكانت المجموعة الأولى قد هاجرت من مصر ومن العراق، والمجموعة القرائية من العراق كانت مجموعة صغيرة تسكن في مدينة "هيت"، وقدر عددها بعشرين عائلة في القرن الماضي بينما تحدثت أدبيات القرائين من القرن العاشر الميلادي عن أعداد كبيرة منهم كانت تسكن هذه المدينة[1]. وقد برز من هؤلاء أشهر مؤرخ قرائي ويسمى "ابن الهيتي". وبين الأعوام ١٩٥٦ - ١٩٥٧ م هاجرت أعداد ضخمة من مصر.

وبلغ عدد المهاجرين بضعة آلاف إذ كانت مصر تضم أكبر عدد منهم ولهم تاريخ طويل فيها. ثم بعد ذلك هاجرت أعداد من تركيا وإيران وشبه جزيرة القرم (ولكن ما زال يعيش في بعض هذه المناطق مجموعات قليلة من القرائين).

وعارض بعض اليهود قبولهم في إسرائيل خصوصاً يهود بولندا إذ اتهمهم هؤلاء بالتعاون مع الحكم النازي أثناء الحرب العالمية الثانية. وأصبحت هذه القضية موضوع جدل ونقاش بين اليهود لم ينته إلى اليوم. إذ أن القرائين كانوا قد اعتبروا من قبل النظام النازي مجموعة مستقلة عن اليهود ولا علاقة لهم بهم. وعلى هذا أصدرت

(1) I. Ben-Zevi, The Exiled and the Redeemed, p. 162.

وزارة الداخلية للحكومة النازية عام ١٩٣٩ قراراً اعتبرت فيه القرائين طائفة مستقلة لا علاقة لهم باليهود وطبق هذا القرار في ما بعد في فرنسا أثناء الحرب(١).

وفي عام ١٩٤٢ عممت وزارة الأراضي الشرقية المحتلة في ألمانيا قراراً جاء فيه: "إن القرائين هم من أصل تركماني - تتري(٢) وهم قريبون في النسب إلى التتر من شبه جزيرة القرم... وإنهم يجب أن لا يعاملوا كيهود بل يعاملوا كما يعامل الشعب التركماني - التتري". وعندما احتل الجيش الألماني أوكرانيا وشبه جزيرة القرم وعثر على بعض القرائين اتصل قائد الجيش بحكومته لمعرفة التعامل معهم فأخبر - كما جاء في شهادته في محكمة نورنبرغ - بأن القرائين وإن كانوا يمارسون الديانة اليهودية لكنهم لا يجب التخلص منهم لأنهم ليسوا من الجنس اليهودي(٣)، وذكرت بعض الدراسات كذلك أن قرائي بولندا لم يمسهم النازيون بسوء(٤).

وربما كانت هذه المعاملة معتمدة على آراء بعض علماء القرائين المشهورين من شبه جزيرة القرم أمثال أبراهام فرقوفتش (ت ١٨٧٤ م) وسرايه ماركوفتش شبشل (ت ١٩٦١ م) اللذين أنكرا أن يكون القراؤون في تلك المناطق من الجنس اليهودي، وإنما هم من أصل تتري تحولوا إلى اليهودية(٥).

ويدعي بعض اليهود أن الجيش النازي أعطاهم مسؤوليات ووثق بهم وأن مجموعة منهم عملت مع الجيش النازي في البلدان الأوروبية التي احتلها حين عملوا له مترجمين. ويقول يهود آخرون أن القرائين اعتدوا على النساء اليهوديات والأطفال وساعدوا في تدمير الغيتو اليهودي. وكان أحد هؤلاء اليهود الذي سلم من النازيين قد كتب رسالة إلى صحيفة "الجيروزاليم بوست" في حينها قال فيها: "كان من سوء حظي أن أقضي أربع سنوات سيئة في أطراف مدينة تروكي حيث كانت تعيش جالية قرائية كبيرة. وقد راقبت سلوكهم المشين نحو اليهود، إذ كانوا سعداء أن يعاملهم النازيون على أنهم غير يهود. لقد كان القراؤون خداماً مخلصين للحكومة النازية وتعاونوا معها بكل

(1) Encyclopaedia Judaica, Karaites.
(2) D. Ross, Acts of Faith, p. 134.
(3) Ibid, p. 131.
(4) I. Ben-Zevi, The Exiled and the Pedeemed, p. 160.
(5) Ibid, 160.

حماس ولم يرضوا أبداً أن تكون لهم علاقة باليهود. وإنني أعرف بعض البولنديين الذين أنقذوا أطفالاً يهوداً لكنني لا أعرف حالة واحدة لقرائي كان مستعداً لحماية طفل يهودي"(١). ويذكر باحثون يهود أن القرائين ساعدوا اليهود في مدينة فلنا وغيرها حيث زودوهم بطاقات شخصية قرائية وبذلك سلم هؤلاء من الموت. وفي بعض الأحيان كان اليهود يختبئون عند القرائين. وهناك حالة شهيرة لزوجين يهوديين ساعدهما زعيم القرائين في بولندا، إذ هاجرا بعد ذلك إلى الولايات المتحدة الأميركية(٢).

يضاف إلى ذلك أن بعض القرائين كانوا من ضحايا النازية كذلك. فقد ذكر أناتولي كوزنتسوف في روايته "بابي بار" أنه كان قد أخبر في صغره بأن القرائين قد سيقوا إلى الموت وكانوا وهم يساقون إليه يصيحون "لنقابل الموت بشجاعة"(٣).

أما دائرة المعارف اليهودية فتقول بأن سلوك القرائين أثناء الحرب العالمية الثانية تراوح بين اللامبالاة لوضع اليهود وبين التعاون مع النازية في بعض الأحيان(٤).

مشاكلهم في "إسرائيل"

ويواجه القراؤون مشاكل كثيرة في إسرائيل لأنهم غير معترف بهم يهوداً من قبل المؤسسة الدينية اليهودية في إسرائيل، وغير معترف بهم من قبل الدولة بكونهم طائفة دينية مستقلة. ويترتب على هذا أن وثائق الطلاق والزواج التي تصدرها محاكمهم الدينية غير معترف بها والمرأة القرائية التي تطلق وتتزوج مرة أخرى تعتبر زانية لأنها - من وجهة النظر التلموديين - ما زالت في عصمة زوجها السابق حيث يعتبرون الزواج صحيحاً. وعلى هذا فإن الطفل الذي يولد من الزواج الثاني هو طفل ممزر (غير شرعي).

وقد جاء عن الممزر في التوراة في سفر التثنية ٣/٢٣ ما نصه: "ولا يدخل (ممزر) نغل في جماعة الرب ولو في الجيل العاشر فلا يدخل منه أحد في جماعة الرب". وحتى لا يدخل الممزر (القرائي) في جماعة الرب فإنه يحرم تزويجه من اليهود، إذ

(1) D. Ross, Acts of Faith, p. 135.
(2) Ibid, p. 135.
(3) Ibid, p. 131-132.
(4) Encyclopaedia Judaica, Karaites.

الممـزريم (جـمع ممزر) في شـرعـة التلمـوديين لا يتـزوجـون إلا من مـثلهـم. والتلمـوديون يعتبـرون الطلاق القـرائي غيـر صـحيح لأن صيغتـه التي يستعملونها هـي صيغة غيـر صحيحة وغير شرعية كما يقولون. والدولة أيضاً لا تعترف بوثيقة الطلاق القرائية لأنه غيـر مـعـترف بالطـلاق من قبل المؤسـسـة الدينيـة اليـهـودية في إسـرائيل وأيضـاً لأنه لا يصدر عن محكمة دينية معترف بها من قبل الدولة. إذ ان القانون الذي تطبقه إسرائيل هو قـانون عثمـاني يعـمل به منذ أن كانت فلسطين جـزءاً من الدولة العـثمـانيـة. وهذا القانون يحيل قضايا الطلاق والزواج الشـرعيين إلى المجموعـة الدينية التي ينتمي إليها الشخص كالمسيحيين والمسلمين. وقد أعطيت الصلاحية للمشرع في الدولة أن يحدد الجماعة الدينيـة. ومنذ إنشاء الدولة لم يعتبر القراؤون جماعة دينية كبقيـة المجموعات الأخرى ولأنهـا ليست كـذلك فإن الوثائق التي تصدرها لأتبـاعهـا غيـر معـترف بها[1] وكذلك فإن حالتهم شاذة وغريبة.

وربما يقـول البـعض أن القـرائين ينطبق عليـهم القـانون الذين ينطبق على اليـهـود الآخـرين الذي صـدر في إسـرائيل عـام ١٩٥٣ م الـذي جـاء فـيـه: "إن الزواج والطـلاق ينفذان في إسـرائيل طبقاً لشريعة التوراة". ولكن عبارة "شـريعة التوراة" يفسرهـا اليهود التلمـوديون بطريقـة حتى أنهـا لا تنطبق على القـرائين على رغم أن القـرائين يعتـبـرون أنفسهم ممن ينطبق عليهم القـانون أعـلاه. وظل القـراؤون غير معـترف بهم لا من قـبل المؤسسة الدينية ولا من قبل الدولة[2]. وحدث في عام ١٩٦٥ أن فرضت محكمة قرائية مؤلفـة من ثلاثة حـاخـامين طلاقـاً على قـرائـي لأن زوجتـه رفـضت العيش مـعـه بسـبب مخالفته للشـريعة اليـهـودية ومطالبته لزوجتـه أن تخالف أحكامها، وقد اعترف الزوج بذلك ولكنه اعترض على قـرار المحكمة العليـا وقال بأن قـرارهـا باطل وغيـر معـترف به. وقد قـدم اعتـراضـاً إلى المحكمة العليـا، وأصـدرت المحكمة العليـا قـراراً لصـالحـه. وقـد جاء في قـرارهـا: "إن وثيقـة الطلاق القـرائية لا تعتبـر قانونية" وإن وزارة الشـؤون الدينية لا تعترف بشـرعية هذه الوثيـقـة ولا أفادت بأنهـا سـتعترف بهـا[3]. في حينهـا أعلن وزير

(1) M. Roshwald, Marginal Jewish Sects in Israel, International Journal & Middle East Studies, 4 (1973), pp. 228-229.
(2) Ibid, p. 229.
(3) S. Z. Abramov, Perpetual Dilemma, p. 282.

الشؤون الدينية بأن وثيقة الطلاق القرائية لا تعتبر صحيحة. وقال: "إن الأشخاص الذين يعتبرون أنفسهم محكمة للجماعة القرائية في مدينة الرملة ليست لهم شرعية لأداء الطلاق أو إصدار وثيقة به"(١). واعتبر القراؤون هذا القرار إهانة لهم ولتاريخهم الديني الطويل واعتبرو ذلك أيضاً خرقاً لحقوقهم المدنية. وأرسل ممثلهم القانوني رسالة إلى رئيس الدولة وإلى رئيس الوزراء وإلى وزير الشؤون الدينية ذكّرهم فيها بما جاء في بيان استقلال الدولة الذي وعد بالحقوق الاجتماعية والسياسية المتساوية لكل السكان وكذلك حرية المعتقد الديني واللغة والتعليم والثقافة. وقال: "ومع ذلك إن أقلية يهودية تبقى من دون وضع قانوني مناسب"(٢).

ومن أجل حل مشكلتهم فقد طالب القراؤون بأن يعتبروا جماعة مستقلة منفصلة عن اليهود كالمسلمين والمسيحيين وقدموا طلباً بذلك ثلاث مرات ولكن رئيس الدولة رفض طلبهم وكذلك الحكومة.

وبسبب قضية الطلاق المذكورة أعلاه التي كان لها الكثير من الدعاية والتنويه عين وزير الشؤون الدينية لجنة خاصة للنظر في وضع القرائين. وقد فوضت اللجنة تقديم توصية للقيام بخطوات قانونية وإدارية من أجل حل المشاكل التي تتعلق بمسألة الطلاق والزواج بين القرائين. وترأس اللجنة نائب رئيس القضاة في إسرائيل القاضي سلبرغ وكان فيها ستة أعضاء آخرون من الكنيست والشخصيات المعروفة. وقد قدمت اللجنة تقريرها عام ١٩٦٧ م وكان عنوان التقرير "تقرير لجنة دراسة الأحوال الشخصية للقرائين". ولم تقتصر دراسة اللجنة على زواج القرائين وطلاقهم بين أنفسهم بل كذلك بينهم وبين اليهود الآخرين. وذكرت اللجنة في تقريرها بأنها ترفض رفضاً قاطعاً بأن يكون للقرائين وضع ديني مستقل كبقية الطوائف الدينية الأخرى غير اليهودية، ولم يوافق رئيس اللجنة على هذا، وقد أعلن أنه يرفض تماماً هذا الرأي لأنه سيعمق ويؤبد الخلاف التاريخي بين القرائين والتلموديين"(٣).

ومما اقترحته اللجنة كذلك أن يكون هناك قانون خاص يجعل قرارات المحكمة

(1) *M. Roshwald, op. cit, p. 230.*
(2) *Ibid, p. 230.*
(3) *Ibid, pp. 223-232.*

الشرعية القرائية نافذة وصحيحة ومعترف بها على أتباع الفرقة من دون أن يعترف بالفرقة جماعة دينية مستقلة. واقترحت كذلك أن يرجع القراؤون إلى المحكمة اليهودية الأرثوذكسية التلمودية إذا أرادوا ذلك. وقد اقترحات كذلك بأن القانون يجب أن يكون لفترة أربع سنوات إذا يؤمل أن يبرز حل لقضية القرائين خلال هذه الفترة. وقد تلكأت الحكومة لعدة سنوات قبل تقديم مشروع القانون. وعندما قدم عام ١٩٧١ حذف منه حق مراجعة القرائي للمحاكم الأرثوذكسية التلمودية. وقد لقي معارضة شديدة من الكنيست حين قال المعارضون بأن وضع القرائين لا يمكن أن يصلح لكونهم أبناء غير شرعيين ولا يمكن أن يكونوا جزءاً من اليهود[1]. وسقط مشروع القانون في التصويت ولم يتغير شيء[2].

وكان رئيسا الحاخامين السفاردي والاشكنازي في إسرائيل مثلاً أمام اللجنة وسئلا إذا كان بالإمكان أن يصلح الأمر بين القرائين والتلموديين وإذا كان بالإمكان إلغاء المنع المفروض عليهم في الزواج من غيرهم من اليهود، فقال رئيس الحاخامين السفارديم الحاخام نسيم: "لقد قلت مرة لوزير الشؤون الدينية أن عليه أن يُحضر زعماء القرائين ويسألهم إذا كانوا لا يمانعون في التخلي عن معتقداتهم والانضمام إلى الرسالة الإلهية الكاملة. وليست هناك فائدة من طرح هذا السؤال حتى يحضروا ويبدوا رأيهم". وعندما سئل عن وضع الفرد القرائي الذي يريد الانضمام إلى التلموديين قال: "إننا لا نقبل الفرد وحده لأنه ليس هناك علاج له فحالته أسوأ من حالة المسيحي الذي يرغب في التحول إلى اليهودية وذلك بسبب شبهة الممزروت" (الولادة غير الشرعية).

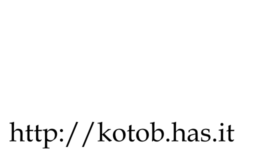
ولما سئل إذا كان بالإمكان إزالة منع الزواج عليهم بعد أن يتبين القراؤون عقيدة التلموديين قال: "لا يمكنني أن أعطي وعداً بذلك".

أما الحاخام اونترمان رئيس الحاخامين الاشكنازيم فقد قال: "لا يمكن رأب الصدع بين الجانبين بواسطة إلغاء تحريم الزواج لأن هذا يشبه تخيل إزالة المسافة بين موسكو وبطرسبرغ بواسطة إزالة علامات الطريق بين المدينتين، لأن هذا العمل لا يقرب

(1) S. Z. Abramov, Perpetual Dilemma, p. 284.
(2) D. Ross, Acts of Faith, p. 142.

المدينتين إلى بعضهما البعض. إن موقفنا قد تحدد خلال الأجيال والقرون السالفة، وإن حاخامينا السابقين قد لعنوا كل من يزيل تحريم الزواج. ولذلك يكون رفع التحريم شيئاً غير ممكن"[١].

(1) S. Z. Abramov, Perpetual Dilemma, pp. 282-283.
D. Ross, Acts of Faith, p. 141.


http://kotob.has.it

الفصل العاشر

رفض الاعتراف بيهودية القرائين

أثار قرار المؤسسة الدينية اليهودية في إسرائيل بعدم شرعية زواج القرائي من غيره من اليهود حفيظة ديفيد بن غوريون الذي قال في الكنيست: "إن مجموعة كبيرة من اليهود لا يمكن أن تقبل بأن يكون هناك قانون لا يسمح بزواج القرائي من غيره من اليهود". وقال: "إن الكثير من اليهود لا يدخلون تحت تصنيف القرائين أو تصنيف الربانيين (التلموديين) لكن أحداً لا يشك في أن هؤلاء يكوّنون جزءاً مهماً من الشعب اليهودي ولا أحد يشك في حقهم في الزواج". وهدد بن غوريون المؤسسة الدينية بتجريدها من حق الإشراف على عقود الزواج في الدولة العبرية إذا لم يُغيّر القرار. ولم ينفع تهديد بن غوريون هذا. وبعد خمس سنوات من تهديده هذا اعترف في الكنيست بأنه لم يتمكن من تغيير عقلية الحاخامين. واقترح بعض اليهود غير المتدينين بأن يكون هناك قانون مستقل لا يحتاج إلى موافقة الحاخامين، يسمح بالزواج للقرائين من اليهود الآخرين "من أجل وحدة الشعب اليهودي".

واقترح بعض هؤلاء أن يعدل قانون ١٩٥٣ حتى يكون شاملاً للقرائين من دون ذكر اسمهم[1].

(1) M. Roshwald, op. cit, pp. 234-235.
D. Ross, Acts of Faith, p. 141.

وكان رئيس اللجنة المذكورة أعلاه - وهو يهودي علماني - قد قال أن أحد الحاخامين التلموديين الكبار من القرن السادس عشر الميلادي أجاز زواج القرائي من غيره من اليهود وأنه من الممكن أن يعتمد على هذا الرأي ليكون مبرراً لتشريع يسمح للقرائين بالزواج من غيرهم من اليهود.

والحاخام الذي قصده رئيس اللجنة هو داود بن (أبي) زمرا (ت ١٥٨٩ م) الذي أجاز زواج القرائي من غيره من اليهود استناداً إلى أن الطلاق ليس وحده هو الباطل لكن عقد الزواج باطل أيضاً طبقاً لأحكام اليهودية التلمودية وذلك لعدم أهلية الشهود لأن القرائي في نظر التلموديين غير مؤهل للشهادة الشرعية المقبولة. ولما لم يكن هناك زواج إذن فليس هناك طلاق (فالمسألة كما يقول أهل المنطق سالبة بانتفاء الموضوع). لذلك فإن المرأة القرائية لا تعتبر مرتكبة لأنها إذا تزوجت وهي مطلقة (على الطريقة القرائية) فهي ليست في عصمة رجل آخر ويترتب على هذا أن لا يكون المولود "ممزر" (ابن غير شرعي).

وذكر بأن بعض الحاخامين التلموديين يأخذ بهذا الرأي وفي ضوئه أجازت محكمة دينية تلمودية في إسرائيل زواج قرائي من بنت يهودية عمرها ١٥ سنة وهي حامل منه في شهرها الخامس. لكن بعض الباحثين يذكر بأن المحكمة قد طلبت من القرائي أن يتحول إلى اليهودية التلمودية ويقوم بأداء شعائر هذا التحول.

ومن حالات الزواج الاستثنائية الشهيرة هي حالة شقيق موسى مرزق - أعدم في مصر عام ١٩٥٥ بتهمة التخابر مع إسرائيل - وقد أجاز الحاخامون التلموديين لأخي موسى أن يتزوج من بنت غير قرائية. وبرر الحاخامون فتواهم بأنهم فحصوا شجرة نسبه إلى الجد الثالث وتبين لهم أنه لم تكن هناك حالة طلاق ثم افترضوا أن هؤلاء الأجداد غير مشكوك في زواجهم لذلك لا تطالهم شبهة "الممزروت". لكنهم أيضاً قالوا بأن فتواهم خاصة بحالة موسى مرزق ولا يمكن أن تطبق في المستقبل على آخرين. وعلّق أحد الحاخامين القرائين على هذه الفتوى بقوله: "إن القرائي يحتاج إلى أن يعدم أخوه حتى يسمح له بالزواج من غير قرائية"[1].

(1) Ibid, p. 141.
M. Roshwald, op. cit, p. 228.

ويبدو أن قرار الحاخامين في هذه الحالة هو لاعتبارات سياسية وعبارة الحاخام القرائي توحي بهذا. يضاف أن تبريرهم للفتوى غير صحيح فموسى مرزق من عائلة قرائية معروفة وكان يجب أن تطبق عليه شبهة "الممزروت" كما تطبق على بقية القرائين. وإذا كان عدم وجود حالة طلاق إلى الجد الثالث هو الذي يزيل شبهة "الممزروت" إذن يجب أن يطبق هذا المبدأ على بقية القرائين بدل أن تبقى هذه الشبهة تلاحقهم جميعاً. والموافقة من قبل المؤسسة الدينية على زواج مرزق من بنت تلمودية - وإن اعتبروه حالة خاصة - إلا أنه يخالف بشكل صريح ما ذكره رئيسا الحاخامين السفارديم والاشكنازيم أمام اللجنة التي ذكرناها سابقاً.

وهناك حالات زواج تمت بين أفراد من الفرقتين لكنها قليلة. وفي هذه الحالة يخفي القرائي انتماءه ويتزوج من تلمودية حيث لا يتبين من بطاقة هويته انه قرائي ويكون الزواج عن طريق حاخام تلمودي. وهذه الحالات كما ذكرت هي قليلة لأن أسماء القرائين تدل على انتمائهم في الغالب ثم ان هذا الزواج إذا تم فإن يخلق مشاكل للأطفال الذين يولدون منه إذا عرف أصل الأبوين. فليس التلموديون وحدهم يحرمون الزواج من القرائين بل ان القرائين أيضاً يحرمون الزواج من التلموديين. لأن هؤلاء يجيزون الزواج ببنت الأخ وبنت الأخت والقراؤون يحرمون ذلك لأنهم يعتبرونها من المحارم - كما في الإسلام - لذلك فإنهم أيضاً يطبقون عليهم شبهة "الممزروت". ويطبقون عليهم عبارة التوراة التي ذكرناها سابقاً: "ولا يدخل نغل في جماعة الرب ولو في الجيل العاشر".

أثيرت شرعية طلاق المحكمة القرائية مرة أخرى عام ١٩٧٦ عندما اعترض الزوج على على قرار المحكمة القرائية وقدم اعتراضه على القرار إلى المحكمة العليا. وفي حينها انتقدت المحكمة العليا الحكومة لعدم قيامها بعمل من أجل حلّ قضية القرائين وقالت ان الحكومة "أبقت قضية القرائين تدور في حلقة مفرغة وأن مسؤولية كبيرة تقع على عاتق المجتمع الإسرائيلي الذي يجب عليه أن يجد حلاً لهذه القضية في أسرع وقت"(١).

(1) D. Ross, op. cit, p. 141.
M. el-Kodsi, The Karaite Jews of Egypt, p. 299.

وربما يكون من المناسب أن نذكر هنا بأن الاختلافات في مسائل الشريعة بين الفرقتين لا تقتصر على قضية التلمود أو مسألة الطلاق وإنما هناك مسائل أخرى مهمة عمقت الاختلاف بينهم. ومن هذه الاختلافات أن القرائين يعترفون بيهودية اليهودي المولود من أب بينما التلموديون يقصرون ذلك على الأم.

والقراؤون في هذا الحكم لا يختلفون عن بعض الفرق اليهودية الأخرى التي لا يعترف بها التلموديون كذلك، مثل يهود اثيوبيا (الفلاشا) ومثل اليهود السامريين ومثل اليهود الإصلاحيين (فرع الولايات المتحدة) إضافة إلى فرق يهودية قديمة.

ومن هذه الاختلافات كذلك تحريمهم الزواج من بنت الأخ وبنت الأخت كما ذكرت سابقاً. والتلموديون يجيزونه وما زالوا يمارسونه إلى يومنا هذا. كذلك لا يحتفل القراؤون ببعض أعياد اليهود المهمة مثل عيد الحنوكة لأنه ليس من أعياد التوراة. كذلك تختلف طريقة ختانهم وطريقة ذبحهم الشرعي للحيوانات عن طريقة التلموديين.

وهم كذلك لا يلتزمون بوضع التفلين في الصلاة ولا يضعون مزوزة على جوانب الأبواب التي جاء النص عنها في التوراة في تثنية الاشتراع ٦/ ٦ - ٩: "لتكن هذه الكلمات التي أنا آمرك بها اليوم في قلبك ورددها على بنيك وكلمهم بها إذا جلست في بيتك وإذا مشيت في الطريق وإذا نمت وقمت واعقدها علامة على يدك ولتكن عصائب بين عينيك واكتبها على دعائم بيتك".

والقراؤون لا يفسرون هذه العبارات حرفياً وإنما يفسرونها على المجاز وأنها تشير إلى الالتزام بالفرائض. وهم كذلك لا يمتنعون عن أكل اللحم مع مشتقات الحليب وما ورد في التوراة مكرراً من عدم جواز طبخ الجدي بلبن أمه يعطيه القراؤون معنى مجازياً ويقصرونه فقط على طبخ الجدي بلبن أمه من دون توسيع تطبيقه على الزبد والجبن وغيرهما من مشتقات الحليب الأخرى كما يمارسه اليوم التلموديون. بل ان الكثير من هؤلاء لا يغسل أواني المادتين سوية.

وعدا مشكلة الاعتراف بهم في إسرائيل فإن القرائين يواجهون صعوبة في الحفاظ على عقيدتهم وتقاليدهم لأن شبابهم يجب أن يلتحقوا بالجيش كبقية اليهود الآخرين حيث يعيشون في جوّ يخيم عليه الطابع اليهودي غير القرائي إضافة إلى الظروف

المهيأة لتكوين علاقات مع المجندات في الجيش إذ قد تنتهي هذه العلاقة بزواج غير شرعي.

والمشكلة الأخرى التي يواجهونها هي مشكلة التعليم، فأطفال القرائين ينتظمون في المدارس الإسرائيلية كبقية أطفال اليهود الآخرين. والجو في هذه المدارس هو جو يهودي غير قرائي ولذلك فإن الأطفال القرائين يكونون تحت تأثير الثقافة التلمودية غير القرائية كالأعياد والمناسبات الدينية - التي غالباً لا تكون في نفس أوقاتها كما عند القرائين - كذلك في العقائد والتقاليد وغيرها من القضايا الأخرى.

ويحاول القراؤون التعويض عن ذلك بتدريس العقيدة القرائية والتقاليد في فصول دراسية خاصة بهم لثلاثة أيام في الأسبوع. وهناك أيضاً فصول خاصة لمن يريد أن يصبح منشداً دينياً أو قصاباً أو خاتناً شرعياً. وإلى اليوم ليس هناك معهد ديني خاص بالقرائين لتخريج الحاخامين كما عند اليهود الآخرين(١).

ويسكن القراؤون اليوم في أشدود وفي يافا وفي بئر السبع - حيث استقر فيها قراؤو العراق - وفي مدينة مصلياح - التي سميت على اسم أحد علمائهم -. وتعتبر مدينة الرملة مدينتهم الرئيسية إذ بنوا فيها مركزهم الرئيسي ويضم هذا المركز كنيساً ومكتبة ومكاتب للحاخامين ولرئيس الحاخامين. ويضم كذلك المحكمة الشرعية وقاعة كبيرة تقام فيها الاحتفالات الدينية وغيرها. وفي عام ١٩٨٤ بنوا كنيساً آخر في الرملة. وفي أشدود انتهوا من بناء كنيس جديد عام ١٩٨٤ وافتتحه رئيس الدولة آنذاك إسحق نافون. كذلك بنوا كنيساً آخر في بئر السبع وآخر في رعنين. وجددوا سابقاً كنيساً لهم في القدس يعزى بناؤه إلى مؤسس الفرقة عنان بن داود(٢).

ويختلف كنيس القرائين عن كنس بقية اليهود إذ لا توجد فيه كراسٍ بل عادة ما يكون مفروشاً ببسط تتسم بمسحة شرقية من أجل أن يسجد عليه القرائي. وقبل الدخول إلى الكنيس ينزع القرائي حذاءه وهم بهذا يختلفون عن اليهود التلموديين الذين يصلون بأحذيتهم. والقراؤون يستدلون على وجوب خلع الحذاء بما جاء في سفر الخروج ٣/٥: "وقال موسى، موسى قال ها أنذا. قال لا تدن إلى ههنا. اخلع نعليك من

(1) D. Ross, op. cit, p. 142.
(2) M. el-Kodsi, op. cit, p. 298.

رجليك، فإن المكان الذي أنت قائم فيه هو أرض مقدسة". وهناك في باحة الكنيس حنفية يتطهر بها القرائي قبل دخول الكنيس.

وللقرائين جمعية في إسرائيل اسمها "جماعة اليهود القرائين في إسرائيل". وهم يعتبرون كلمة "قرائين" صفة وليس اسماً ولذلك يستعملون في أدبياتهم عبارة اليهود القرائين. وتعنى هذه الجمعية بشؤون القرائين وتمثل مصالحهم لدى الحكومة والمؤسسات العامة وتؤمن كذلك الاحتياجات الدينية لهم. فهي التي تعيّن الحاخامين والمنشدين الدينيين والقصابين الشرعيين وغيرهم. وتتكون الجمعية من المجلس العام الذي يكون عدد أعضائه ٣١ عضواً. ويمثل هؤلاء المجموعات القرائية المختلفة. وأهم لجنة في هذا المجلس هي اللجنة الدينية التي يرأسها رئيس الحاخامين للقرائين. وفي هذا المجلس كذلك لجنة إدارية ويكون أعضاء هاتين اللجنتين من أعضاء المجلس العام. وكل مكان يوجد فيه مجموعة من القرائين هناك لجنة خاصة بهم وهي تعمل في ضوء نهج المجلس العام. وتعمل اللجان عادة بطريقة التصويت وهم يؤكدون على الاستقلال الذاتي لكل جماعة. وتطبع الجمعية مجموعة من الكتب والكتيبات ومنها كتب الصلاة. وللجمعية صندوق مالي يقوم بمساعدة المحتاجين منهم. وينفق على أعمال الجمعية من الأموال التي تأتي من الاشتراكات والتبرعات والأجور التي تحصل عليها الجمعية من عقود الزواج والطلاق والتحكيم بين أعضائها، إلى جانب بعض المساعدات التي تتلقاها الجمعية من وزارة الشؤون الدينية(١).

وكانت هذه الوزارة تخصص لهم المساعدة من قسم الشؤون الإسلامية. وانزعج القراؤون من ذلك حيث اعترضوا بأن ذلك يعني التشكيك في يهوديتهم. وقد أصروا على عدم التعاون مع القسم واشتكوا في حينها عند رئيس الدولة إسحق بن زفي. وبعد أخذ وردّ وافقت الوزارة على إنشاء قسم خاص بالقرائين والسامريين وآخرين غيرهم من الأقليات اليهودية. لكن القرائين رفضوا ذلك وطالبوا بأن يكون القسم خاص بهم وبالسامريين فقط. والمساعدة التي تقدمها لهم الحكومة ليس بذا شأن وهي أقل بكثير مما يعطى للسامريين لذلك يضطر بعض حاخاميهم للعمل لبعض الوقت في الزراعة(٢).

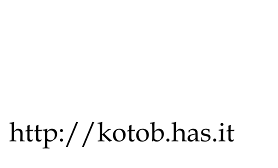
(1) M. Roshwald, op. cit, p. 226.
(2) D. Ross, op. cit, p. 140.

ويشعر القراؤون في إسرائيل بأنهم يعاملون يهوداً من الدرجة الثانية من قبل الحكومة في إسرائيل والسكان أيضاً. ففي إحدى الإحصاءات في إسرائيل وضعت خمسة حقول في الاستمارة لديانة الشخص وهي يهودي، مسلم، مسيحي، درزي. ووضع في الحقل الخامس سامري، قرائي، بهائي، الخ... وقد أثار هذا ثائرة القرائين لأنهم قد وضعوا في حقل غير اليهود. واضطر رئيس الوزراء حينها ليفي اشكول للاعتذار لهم لكن الاستمارات لم تغيّر(١).

ويشكو القراؤون كذلك من معاملة السكان لهم. ومن الحوادث التي لا ينسونها في إسرائيل هي تلك التي وقعت عام ١٩٧٨ عندما أعادوا بناء كنيس عنان في القدس. وأثناء ما كانوا يحتفلون بافتتاحه قوطعوا بصياح الاستهزاء والسخرية من قبل اليهود الآخرين وقد انتهى الاحتفال بالضرب واللكمات بين الطرفين. وربما كانت هذه المعاملة واحداً من الأسباب التي دفعت بعضهم إلى الهجرة من إسرائيل إلى دول أخرى... فهناك اليوم قراؤون في أستراليا وكندا وفي فرنسا وسويسرا. وكانت هناك أعداد كبيرة منهم في الولايات المتحدة إلا أن الكثير منهم اضطر للاندماج في اليهود الآخرين. وقد أسس جاك منغوبي جمعية عام ١٩٧٦ أسماها "جماعة اليهود القرائين في أميركا". وأسست في سان فرانسيسكو جمعية أخرى عام ١٩٨٢ - ١٩٨٣(٤) للحد من عمليات الاندماج.

(1) Ibid, p. 142.
(2) M. el-Kodsi, The Karaite Jews of Egypt, p. 298.

(*) *الحياة* ١٩٩٧/٩/٣٠.


http://kotob.has.it

الفصل الحادي عشر

الصراع بين اليهود الأرثوذكس واليهود الإصلاحيين(*)

ازداد هجوم اليهود الأرثوذكس خاصة المتشددين منهم على اليهود الإصلاحيين والمحافظين في إسرائيل في الفترة الأخيرة، وقد تصاعدت وتيرة هذا الهجوم بعد أن فاز الأرثوذكس بمقاعد كثيرة في الكنيست في انتخابات العام ١٩٩٦. وكان آخر ما حدث ضد هؤلاء الحريق المتعمد الذي دمر روضة أطفال لليهود الإصلاحيين في بلدة "مفسرت صيون" قرب القدس في أغسطس (آب) الماضي. وقد كانت الروضة خالية عندما شب الحريق. وعلى رغم أن الشرطة لم تعتقل أحداً إلى الآن فإن الإصلاحيين لا يشكون بأن اليهود الأرثوذكس - الذي يكثرون في بلدة "مفسرت صيون" - هم الذين قاموا بذلك، إذ أنهم يعتبرونهم الأعداء الرئيسيين لهم. وحزب شاس الأرثوذكسي المتشدد كان قد صوّت ضد قرار مجلس البلدية في استعمال مدرسة متروكة كروضة مؤقتة بديلة عن تلك التي احترقت. كما أن الحزب نفسه قد طلب من الحكومة عدم إعادة بناء الروضة وأنه طلب كذلك من العمال الذين أزالوا الأنقاض عدم السماح للصحافيين بالدخول إلى البناية المحروقة. كما أن ايغال برزني عضو المجلس البلدي (عن شاس) اعترف بأنه نشيط في توزيع المنشورات والأدبيات الأخرى ضد وجود

اليهود الإصلاحيين في "مفسرت صيون"، وقال: "إنني أقوم بما أستطيع ضد الإصلاحيين ضمن ما يسمح به القانون".

وقد أثار الحريق المتعمد حفيظة الإصلاحيين داخل إسرائيل وخارجها. فقد اتهم الإصلاحيون في مفسرت صيون ايغال برزني بإثارة السكان ضدهم وقالوا عنه وعن حزبه بأنهم متطرفون، وقال يوري رغب - أشهر حاخام إصلاحي في إسرائيل - "إن هناك أشخاصاً متعصبين يترجمون الخطابات الحاقدة إلى أعمال عنف، وهؤلاء ينتظرون الإجازة الدينية ليعتبروا اليهود الإصلاحيين شياطين حيث يجب تدميرهم". وأدان هذا العمل كذلك الإصلاحيون في الولايات المتحدة الأميركية. وقد بعث المؤتمر المركزي للحاخامين غير الأرثوذكس الذي يضم ١٨٠٠ حاخام برسالة إلى رئيس الوزراء الإسرائيلي قال فيها: "بينما لا يعرف إلى الآن على وجه التحديد الأشخاص الذين قاموا بهذا العمل فإننا قلقون جداً من الجو العدائي نحو اليهود الإصلاحيين والمحافظين في إسرائيل، إذ أننا نخشى أن تتطور هذه الأعمال إلى أبعد من رمي القذارة وإشعال الحريق في البنايات إلى قتل الناس". ثم طلب المؤتمر من رئيس الوزراء أن يزور الروضة تعاطفاً معها "ضد الهجوم الجبان".

وتعهد اليهود الإصلاحيون بتقديم المساعدة المالية لإعادة بناء روضة الأطفال التي دمرت.

وأدان رئيس الوكالة اليهودية ابراهام بورغ العمل ووصفه "بأنه تعبير عن إعلان حرب أهلية تنبئ بإراقة الدماء في المستقبل". وقال بأن الوكالة ستساعد في شراء أثاث وحاجيات أخرى للروضة. وفي حزيران (يونيو) الماضي عندما جاء يهود إصلاحيون ومحافظون من النساء والرجال والأطفال من إسرائيل وغيرها، إلى حائط البراق للصلاة فيه وتأدية شعائر عيد الأسابيع أحاط بهم مجموعة من اليهود الأرثوذكس غالبيتهم من الشباب وأخذوا يهاجمونهم ويبصقون عليهم ويشتمونهم ويصفونهم بالنازيين. وعندما جاءت الشرطة طلبت من المصلين أن تنزع النساء لباس الصلاة (الطاليت) (في نظر اليهود الأرثوذكس لا يحق للمرأة أن تلبس هذا اللباس إذ هو في رأيهم خاص بالرجال). ونزعت النساء هذا اللباس ومع ذلك استمر هجوم الأرثوذكس على هؤلاء إلى أن أخبرتهم الشرطة بأنها لا تتمكن من حمايتهم وطلبت منهم أن

تصحبهم إلى مكان آخر.

ويقول أحد اليهود المحافظين ممن كانوا عند الحائط بأنه عندما كان خارجاً مع جماعته سحب بعض الأرثوذكس لباس الصلاة منه مرات عدة وأخذ أحدهم لباس رفيقه ورمى به على الأرض وداس عليه. ويقول انه كان على قمصان بعضهم ولباس الصلاة بقع بلون بني. وقالت الشرطة بعد ذلك بأن أكياساً من القذارة رميت على المصلين. ويعتقد بعضهم أن هذه الأكياس كانت رميت من اليشيفاه الأرثوذكسية القريبة من المكان وينوي الحاخام المحافظ اندرو ساكس أن يقدم شكوى ضد رئيس اليشيفاه متهماً طلابه برمي الأكياس من شبابيك اليشيفاه (مدرسة دينية) وقال أحد اليهود البريطانيين ممن كان مع المصلين بأنه لم ير شيئاً في حياته مثل ما حدث له عند الحائط.

وحدث مثل هذا في آب الماضي عندما جاء أكثر من ١٥ شخصاً من اليهود المحافظين من الرجال والنساء لإحياء ذكرى تهديم الهيكل عند الحائط إذ هاجمهم مجموعة من الأرثوذكس بالحجارة والأوساخ. وكانت المؤسسة الدينية الأرثوذكسية قد أخبرت الشرطة بأنها سوف لا تتمكن من السيطرة على أتباعها إذا ذهب اليهود المحافظون إلى الصلاة عند الحائط.

وإلى جانب هذه الاعتداءات فإن اليهود الأرثوذكس يحاولون أن يمنعوا المنتسبين إلى هاتين الفرقتين من أن يكونوا أعضاء في مجالس بلديات المدن أو في مجالسها الدينية. وفضّل وزير الشؤون الدينية ايلي سويسا (من حزب شاس) الاستقالة في آب الماضي على أن يوقع على قرار انضمام عضو من اليهود الإصلاحيين إلى المجلس الديني لبلدة نتانيا. وهاجم هذا الوزير اليهود الإصلاحيين وقال عنهم بأنهم غير يهود وهم مندمجون في المجتمعات غير اليهودية. وقال أيضاً بأن تعيين إصلاحي في المجلس هو استخفاف بكل الذين ماتوا من أجل عقيدتهم (من اليهود). وان الغالبية من الإسرائيليين لا تؤيدهم ومما يؤسف له أنهم يحصلون على تأييد المحكمة العليا.

وهاجمهم كذلك أحد أعضاء الكنيست من حزب يهودية التوراة المتحد (أرثوذكسي متشدد) وقال بأنه لا يجوز أن تعطى للإصلاحيين شرعية عن طريق السماح لهم بأن يكونوا أعضاء في المجالس الدينية وقال بأنه سيستقيل من الائتلاف الحكومي إذا

سمحت الحكومة بذلك.

وهناك الآن مشروع قانون معروض على الكنيست قدمه وزير الشؤون الدينية يمنع اليهود غير الأرثوذكس - من إصلاحيين ومحافظين - أن يكونوا أعضاء في المجالس الدينية للمدن. ويطالب الحزب القومي الديني (أرثوذكسي) أن يوافق على مشروع القانون خلال أسبوعين من بدء الدورة الجديدة للكنيست في تشرين الأول (أكتوبر) المقبل.

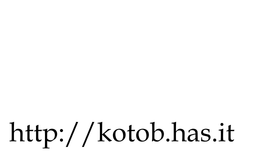
وكانت رئيسة اليهود الإصلاحيين قدمت طلباً إلى مجلس بلدية "مفسرت صيون" للحصول على قطعة أرض لبناء كنيس عليها وعندما كانت حاضرة لمناقشة الموضوع قام لها يهودي أرثوذكسي من أعضاء المجلس وقال لها: "إنه لشيء سيئ جداً أنهم لم يحرقوكم في اوشوفتز" (أحد المعسكرات النازية). وقال آخر: "إنكم تبيعون لحم الخنزير في سوق المدينة ونحن سوف نحرق السوق ونحرقكم معه أيضاً".

وفي مطلع السنة الجارية كانت الأحزاب الدينية قدمت مشروع قانون إلى الكنيست ينص على عدم الاعتراف بيهودية من تهود عن طريق غير الأرثوذكس - وقد تحدثنا عن مشروع هذا القانون بالتفصيل في مقال سابق - وبضغوط من اليهود غير الأرثوذكس في الولايات المتحدة وتهديدهم للحكومة بإيقاف المساعدات المالية تأجل البث في القضية إلى تشرين الثاني (نوفمبر).

ويبدو أن هذا الصراع سيستمر - كما ذكرت أكثر من مرة - ويتخذ شكلاً أكثر عنفاً إذ أن ضغط الأرثوذكس على الإصلاحيين والمحافظين سوف لا يتوقف لأنهم لا يعترفون بهم بينما تصر هاتان الفرقتان على الحصول على الاعتراف في إسرائيل بمساعدة أتباعهما الأقوياء في الولايات المتحدة.

الباب السابع عشر

مباحث في المشكلة الإثنية _ الطائفية في "إسرائيل"


http://kotob.has.it

الفصل الأول

التركيب
العرقي - الإثني - الطائفي

يتميز مجتمع الاستيطان الصهيوني، بتعددية الأصول العرقية - الإثنية والدينية - الطائفية والحضارية الثقافية، حسب الأصول الجغرافية والعرقية والحضارية لليهود ذاتهم. وتتموقع كل مجموعة وطائفة من هؤلاء في مواقع اجتماعية واقتصادية وثقافية محددة، وفقاً للخطة الصهيونية العامة بشأن التوزيع الجغرافي - السكاني، وسياسات الاستيعاب للمهاجرين التي تخضع لها.

والصهيونية التي تقوم على الفصل بين البشر، على أساس التصنيف العمودي لهم؛ باعتبارهم يهوداً أو غير يهود (أغيار)؛ تقوم أيضاً على أساس تقسيم اليهود ذاتهم، حسب "درجات سلم طائفي سلالي"[1]، لكل من تلك المجموعات والأقليات، وتزرع فيما بينها "الأفكار الطائفية السلالية الشوفينية" و"الأطروحات القومجية الصهيونية"، في الكيان الصهيوني[2].

يجري تقسيم المجموعات والأقليات اليهودية في درجات السلم الاستيطاني، على أساس أصولها العرقية والحضارية والجغرافية. ويسود توزيع في ثلاث درجات أساسية؛ يأتي في مقدمته الاشكنازيون الغربيون، يليهم الصابرا، فالسفارديون.

(١) غوبين ف. ف، مصدر سابق، ص ٦٤.

(٢) وكتاب "الصهيونية عدوة السلام والتقدم الاجتماعي". دار نشر "ناؤوكا دوكا". كييف، ١٩٨٤، ص ٧٦ / بالروسية.
روشين س. ك: "علم البسيكولوجيا والعنصرية". في كتاب: "الأعراق والمجتمع". دار نشر "ناؤوكا". موسكو، ١٩٨٢، ص١٨٠/بالروسية.

أطلقت تسمية "الاشكنازيم"، على يهود ألمانيا، في أوائل القرون الوسطى. وأصبحت في أوائل القرن العشرين، تشمل يهود أوروبا وأمريكا عامة. ولقد تطور مدلول التسمية مع مرور الزمن، بحيث أضحى منذ القرن الثالث عشر، يعني الخصائص الحضارية وليست الجغرافية لهؤلاء، كونهم يتميزوا بمجموعة من الخصائص في اللغة والطقوس الدينية والثقافة... الخ[1]. والتسمية ذاتها، جاءت للتفريق أساساً بين هؤلاء وبين "السفارديم"، الذين ينتسبون إلى سلالات وشعوب وحضارات أخرى. ويعتقد عديد الباحثين، بأن أصول هؤلاء تعود بشكل رئيسي، إلى الدولة التركية – السلافية – الخزرية، التي قامت في جنوب شرقي روسيا، واستمرت وازدهرت من القرن الثامن حتى القرن العاشر الميلادي. ولما اندثرت، هاجر معتنقو الديانة اليهودية هناك، بأمر من حاكمها، إلى البلدان الأوروبية القريبة المجاورة، وخاصة نحو بلدان البلطيق وبولندا وروسيا وألمانيا، وبلدان أوروبا الشرقية. لذا، فإن المدلول يجعل إلى جانب المعاني الحضارية، معانٍ عرقية – إثنية أيضاً؛ الأمر الذي قد يجعل من تسميتهم بـ"اليهود الغربيين"، دلالة على أصولهم العرقية الأوروبية، أكثر دقة وتعبيراً وأمانة علمية.

ولقد استخدم هؤلاء، لغة اليديش، وهي خليط من اللغة الألمانية واللغات الأوروبية المحلية لبلدان أوروبا، وخاصة الشرقية.

أما طوائف الـ"سفارديم"، فتسميتهم مشتقة من كلمة "سفراد"، والتي تعني بالعبرية إسبانيا. وتطلق التسمية على اليهود المنحدرين من المجموعات والأقليات التي اعتنقت اليهودية في إسبانيا والبرتغال، وطردت من هناك في أثر محاكم التفتيش فيهما عامي ١٤٩٢ و١٤٩٦. ولقد هاجرت تلك الأقليات إلى جنوب أوروبا وشمال إفريقيا وبلدان الشرق الأوسط، وغيرها. وكانت اللغة السائدة بينهم، هي لغة "اللادينو"، وهي خليط من الإسبانية والعبرية والتركية والعربية.

أصبحت هذه التسمية، تشمل أيضاً يهود البلدان العربية عموماً. وتختلط تسمية السفارديم والشرقيين معاً؛ علماً أن الأصول العرقية – الإثنية والحضارية – الثقافية تتباين بينهم[2].

(١) هلدا شعبان صايغ: *"التمييز ضد اليهود الشرقيين في إسرائيل"*. مركز الأبحاث الفلسطيني. بيروت، ١٩٧١، ص ٢٠ – ٢١.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٧ – ٢٠.

إلى جانب هاتين المجموعتين الرئيسيتين، هناك مجموعات عرقية - إثنية أخرى تختلف تماماً عنهما. فاليهود السود والسمر، أمثال: زنوج أمريكا، وفلاشا الحبشة، وطائفة يهود ليبيريا، والهند، وأخيراً هنود البيرو، لهم سمات وخصائص متناقضة تماماً، من حيث العادات والتقاليد، ولون البشر، واللغة والثقافة... الخ. وتعود أصول هذه المجموعات والأقليات إلى عديد الشعوب والأمم والسلالات العرقية المختلفة؛ والتي كانت قد اعتنقت الديانة اليهودية، فأسبغوا عليها طابعاً قومياً مزعوماً.

ولعل في أحدث ترهات الصهاينة الأخيرة، بخصوص "يهود" البيرو، ما يكشف ويثبت ما نقول. فلقد قام الحاخام المتطرف عبيهائل إلياهو من القدس، بزيارة للبيرو، حيث تمكن من تهويد بعض الهنود الحمر في البيرو، باعتبارهم قبائل من "أسباط إسرائيل العشرة الضائعة". كان هذا منذ بضع سنين فقط. واستطاعت الوكالة اليهودية من نقل وتهجير قسم من هؤلاء، يتكون من عشر عائلات، إلى الكيان الصهيوني في آذار عام ١٩٨٩. وبتاريخ ٢١ آب ١٩٩١، وصل منهم أيضاً، ٣٢ شخصاً، لينضموا إلى مستوطنة إيلون موريه في الضفة الفلسطينية، لينضموا إلى ما سبقهم من هنود البيرو هناك[١]. وهناك بعض التقارير التي تتحدث عن خطة واسعة لتهويد بعض القبائل الإفريقية في القارة السوداء، حيث ينتشر عشرات الحاخامات هناك، للبحث عما يدعونه عن "الأسباط العشرة الضائعة" منذ تدمير هيكل سليمان.

وإن كانت الصورة، من حيث الانتماءات العرقية - الإثنية والثقافية الحضارية، لليهود هكذا، فإن أطروحة "العرق اليهودي" تظهر عارية وكاذبة تماماً. فكما يؤكد بعض البحاثة، "تؤكد البيولوجيا، ويثبت التاريخ أن يهود اليوم، هم كالناس جميعاً: نتاج اختلاط وامتزاج شعوب متعددة، من القرم إلى اليمن، ومن اثيوبيا إلى إسبانيا؛ ولا يمكنهم أبداً المطالبة بإرث أسلاف وهميين"[٢].

وكان جوزيف رينبافي قد كتب في ١٩١٩، بأنه "لم يكن هناك إذن جنس أو عرق يهودي، أو أمة يهودية؛ وهناك فقط دين يهودي. فالقائل بالصهيونية إذن مخطئ تاريخياً وعلمياً". أما توماس كيرنان، فيؤكد في كتابه "العرب"، الصادر في عام ١٩٥٧

(١) *انظر صحيفتي "القدس العربي" و"الحياة" اللندنية، بتاريخ ٢٣ آب ١٩٩١.*

(٢) *روجيه غارودي: "ملف إسرائيل: دراسة للصهيونية السياسية". دار الشروق. القاهرة / بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٤، ص ١٤٨ - ١٤٩.*

في بوسطن، أن ادعاءات الصهاينة بأصولهم العبرية وتوارثها عبر التاريخ يتنافى مع الحقائق التاريخية والإنثروبيولوجية، لأن "الصهيونيين أوروبيون تماماً، وليس هناك أية رابطة بيولوجية أو إنثروبيولوجية، بين يهود أوروبا والقبائل العبرية القديمة"(١). ويستنتج غارودي بالقول: "والواقع أنه لم يكن هناك قط (جنس يهودي) إلا في الشطحات الجنونية لهتلر وللصهيونيين"(٢).

وعلى الرغم من الحقائق العلمية، لا تزال خرافة "العرق اليهودي النقي"، وسراب البحث عن "الأسباط العشرة الضائعة"، وأساطير "التفوق" و"الفرادة" تضرب بجذورها في مجتمع الاستيطان الصهيوني بهدف اصطناع الروابط والصلات بين المجموعات والأقليات المتناثرة أصلاً. ولذا "يتضح مدى أهمية الخرافة والأسطورة في خلق الإطار النفسي العنصري اليهودي، لدرجة تتجاوز الحقيقة التاريخية، خاصة لأن هذه الخرافة والأسطورة، اصطبغتا مع الزمن بقدسية الدين"(٣)، بعدما صيغت في مقولات "شعب الله المختار" و"الشعب الأزلي والأبدي" و"الشعب المقدس" و"المهمة الإلهية للأغيار"... الخ؛ أي أن "الفكر الديني قد صاغ العقلية اليهودية في إطار من العنصرية (... و) الاستعلاء العنصري، هو أساس ثابت في تكوينها"(٤).

وعلى الرغم من هشاشة ولاعلمية الأطروحات والمقولات النظرية والسياسية للصهيونية، وخلطها التاريخي والإنثروبيولوجي والنظري عموماً، إلا أنها لا تزال تتمسك بها، وتقوم بتحديث بعضها وإعادة إنتاجه من جديد، للارتكاز عليها في ممارستها وتبريرها أيضاً. وبهذا الصدد، يؤكد د. حفني، بأننا "بصدد ممارسة عملة اصطنعت لنفسها غطاءً نظرياً، ولم يكن أمامها إلا أن تظل متمسكة به إلى النهاية، مهما بلغ تهلهله"؛ مستطرداً بأن ذلك يعود أساساً إلى أن "أي تردد في تأكيد دعاوى (وحدة اليهود) يعني تهديداً لصهيونية التجمع الإسرائيلي، حتى لو كان هذا التردد استجابة لحقائق تفور بها أحشاء التجمع الإسرائيلي ذاته: حقائق التفاوت بين

(١) *المصدر ذاته، ص ٥٤، ٥٥.*

(٢) *المصدر ذاته، ص ٥١، ٥٢ – ٥٣.*

(٣) *د. رشاد الشامي: "الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية". سلسلة "عالم المعرفة"، العدد (١٠٢). الكويت، ١٩٨٦، ص ٢٩.*

(٤) *المصدر ذاته، ص ٣٠.*

الاشكنازيم والسفارديم". ولهذا فإن الصهاينة يبذلون كل ما في المستطاع لـ"إنكار دلالته الجوهرية، من حيث علاقته بمقولة (الأمة اليهودية)"(١).

إن كانت هذه المصادر، هي أبرز بلدان وشعوب وأعراق وثقافات، بلدان منشأ المجموعات والأقليات اليهودية في فلسطين، فما الذي يا ترى نتج عن عيشهم المشترك في التجمع الصهيوني؟! وما هي المسارات الحقيقية لعمليات التنشئة والتربية لهؤلاء، ولأطفالهم المولودين في التجمع الصهيوني من آباء لم يلدوا هناك؟! وما هي أبرز الادعاءات الصهيونية عن نتائج "عملية صهر" المجموعات والأقليات، في قالب إسرائيلي - صهيوني جديد (؟!).

إن الإجابة على كل ذلك، تتمثل في الفئة الرئيسية الثالثة، والمعروفة باسم "الصابرا". والصابرا، حسب المفهوم الصهيوني، هم اليهود المولودون في فلسطين، بغض النظر عن الأصول العرقية والجغرافية لآبائهم. أي أن كافة أبناء المجموعات والأقليات الذي يولدون في فلسطين، هم من الصابرا. وتدعي الصهيونية بأنها قد نجحت في صهر أبناء المهاجرين في شخصية إسرائيلية واحدة، وهو ما يعني، حسب ادعائها، إعادة تنشئة وقولبة هؤلاء في هذه الشخصية، التي ستصبح السائدة مع مرور الوقت.

وتسمية "الصابرا" تعود أصلاً إلى تسمية "الصبار"، ونشأت في بدايات الهجرة الاشكنازية في بدايات القرن. ويروى أنها نشأت نتيجة لإمكانية ودراية اليهود الفلسطينيين العرب في قطف "الصبار" بأيديهم، وعدم إمكانية أبناء المهاجرين من الاشكناز على ذلك، خلال اللعب فيما بينهم. ولهذا، بدأ لقب وتسمية "الصابرا" يُطلق على هؤلاء اليهود الفلسطينيين العرب، أصلاً، للتفريق بينهم وبين أطفال الاشكناز القادمين(٢). ومع مرور الوقت، أخذت هذه التسمية تشمل كافة من ولدوا هناك؛ باعتبارهم نتيجة الصهر والتنشئة الصهيونية في الكيان الصهيوني.

في دراسته لهذه الظاهرة الاجتماعية، يؤكد د. رشاد الشامي، بأن لا مجال للتحدث عن "شخصية يهودية إسرائيلية واحدة، في إطار هذا التباين والتنوع في الأصول

(١) د. قدري حفني: *"الصراع الحضاري داخل المجتمع الإسرائيلي". مقدمة كتاب – وجيه حسن قاسم (أبو مروان): "نظرة جديدة في التحالف الصهيوني الإمبريالي". دار البيادر. القاهرة، ١٩٨٧، ص ٦.*

(٢) *انظر للتفصيل: د. قدري حفني: "الإسرائيليون من هم؟ دراسة نفسية". مكتبة مدبولي. القاهرة، ١٩٨٩، ٣٣٣ – ٣٣٥.*

الحضارية والثقافية، للتنويعات الديمغرافية لسكان إسرائيل، الذين وفدوا من ٧٠ دولة؛ وفي إطار التباين والاختلاف في أساليب التنشئة الاجتماعية، بين كل من السفارديم والاشكنازيم والصباريم". وعلى الرغم من أن الصهاينة وإسرائيل يحاولون "إنكار وجود مثل تلك الفروق بين الأبناء المولودين في فلسطين، وذلك بوضعهم جميعاً تحت عنوان "الصباريم"(١) وذلك باعتبارهم "ككتلة واحدة متسقة في خصائصها النفسية والاجتماعية الموحدة"؛ فإن حقائق الممارسة وركائز ومدارس علم الاجتماع الإسرائيلي، والتمحور والانعزال الذاتي والفصل والعزل الرسمي لتلك المجموعات والأقليات، تؤكد عكس ذلك تماماً. وبهذا الخصوص فإن الادعاء الصهيوني يصعب تدعيمه بالبراهين، ويشكل "تجاهلاً تاماً لحقيقة أن أساليب التنشئة الاجتماعية (طرق تربية الأطفال)، التي يمارسها المهاجرون، تتباين تبعاً للأصول الحضارية للوافدين"(٢).

وعلى الرغم من محاولات المؤسسة الصهيونية الاشكنازية، فرض أنساقها التربوية، بحيث "يجب أن ينمو الصبار دون آباء، ودون أسرة، ودون سلسلة أنساب"؛ الأمر الذي دعا د. رشاد الشامي للقول: "لقد ولد الصبار إذن؛ في فراغ لا يمثل فيه الأدب الشخصية التعليمية، ويقوم بهذا الدور الأنا المجردة الكيبوتسية، التي وضعت له كنموذج مثالي". ويستطرد الباحث بالقول، أن الصهيونية والمؤسسة الاشكنازية المهيمنة قد استطاعت إلى حد كبير، من جعل هؤلاء "متشابهين جميعاً، نفسياً وأخلاقياً، في ظل المحاولة التي لا تلين في قولبة الجيل الجديد بقوالب المثل الصهيونية، التي تتم قسراً؛ بحيث تحولوا جميعاً إلى أنماط باردة عاطفية وعدوانية (... و) شخصيتهم الاسبرطية خالية تماماً من الإنسانية"(٣).

كل هذا لا يعني بتاتاً، بأن عمليات وأنساق التنشئة، قد أذابت الفروقات الجوهرية

(١) *د. رشاد الشامي، مصدر سابق، ص ٩٤.*

(٢) *انظر مثلاً:*

- *د. رشاد الشامي، مصدر سابق، ص ١٠٣.*
- *د. عبد الوهاب المسيري: "موسوعة المفاهيم"، مصدر سابق، ص ٢٣٩.*
- *د. قدري حفني: "تجسيد الوهم – دراسة سيكولوجية للشخصية الإسرائيلية". في كتابه: "الإسرائيليون من هم؟..."، مصدر سابق.*

(٣) *د. رشاد الشامي، مصدر سابق، ص ١١٠ و١١١.*

- *د. قدري حفني، مصدر سابق، ص ٢٩٤.*

بين أبناء تلك المجموعات والأقليات. ولذا، فإن رؤية الفروقات في مراتبيتهم وخصائصهم المميزة، هامة لتعرية الأطروحات الصهيونية التي توهم وتدعي بأن عملية إذابة وإعادة صهر المجموعات والأقليات، على مستوى الأبناء، تجري وتتحقق عبر جيل جديد، هو "الصابرا"؛ والذي سيزيل مع الوقت الفروقات الحضارية والإثنية والعرقية وغيرها.

والحقيقة الماثلة تشير إلى "امتداد ذلك الانشقاق الذي يقسم المجتمع الإسرائيلي إلى اشكنازيم وسفارديم، إلى تلك التجربة أيضاً"[١]. فالسلم المجتمعي حتى بين هؤلاء، أي الصابرا، يختلف باختلاف وتباين أهميتهم وموقعهم المجتمعي، وطوائفهم الدينية، وعاداتهم ولون بشرتهم ولغاتهم، وأصولهم الجغرافية والعرقية - الإثنية ومستوياتهم الثقافية. ولذا، فحتى بين اليهود أبناء الشرقيين، وكذلك الأوروبيين، هناك تقسيم "طائفي سلالي"، وتمارس ضدهم وفيما بينهم، سياسة تمييزية فصلية، على أساس الـ"(خافلية) وفي كافة مناحي الحياة الاقتصادية، والاجتماعية والثقافية"[٢].

وهكذا، فإن دراسة الصابرا، تظهر بأن الانقسام العرقي - الإثني والحضاري - الثقافي، يضرب بأطنابه بينهم أيضاً. ولا يجوز الأخذ بالدعاية الصهيونية، عن وحدة هؤلاء، نتيجة عملية التنشئة والمولد في كيان الاستيطان. فالشخصية الصبارية "تمثل الامتداد الطائفي الحضاري والعمراني لطائفة الاشكنازيم"، وليس لكل المجموعات والأقليات اليهودية، بما فيهم من ولد ونشأ هناك[٣]. ويفرق الإسرائيليون أنفسهم بين الصابرا - كامتداد اشكنازي، وبين الصابرا من أبناء السفارديم والشرقيين، بإطلاق تسمية "يليدي هكرتس" أي "أبناء البلد"، لتمايزهم الثقافي والحضاري عن الغربيين[٤].

إن الوقائع المجتمعية في مجتمع الاستيطان الصهيوني، تثبت خطل الادعاءات والأطروحات الصهيونية بشأن "الشخصية اليهودية الإسرائيلية" في إطار الصابرا. والتدقيق والتمحيص، كما جرت المحاولة في السطور السابقة، يبينان أن "المجتمع الصباري الإسرائيلي، يتحول إلى مجتمع مكون من (مجتمعات) صغيرة مغلقة

(١) د. قدري حفني، مصدر سابق، ص ٢٩٥.
(٢) غريغوليفيتش ي. أ: "الدين، العنصرية، والتمييز العنصري". في كتاب: "الأعراق والمجتمع". مصدر سابق، ص ٣٠٠.
(٣) د. رشاد الشامي، مصدر سابق، ص ٩٥.
(٤) المصدر نفسه، ص ١٠٣.

ومحدودة" - كما يقول الدكتور الشامي(١)؛ والذي يضيف، بأن "قسماً كبيراً من السكان الإسرائيليين، ما زال يعيش بصورة قبلية تقريباً، في إطار جماعة عنصرية أو جماعة تتحدث بلغة معينة"(٢).

إن تناول هذا الموضوع تفصيلياً، يبدو في غاية الصعوبة. فلقد تم ترتيب أوضاع ومواقع الخمس والثمانون مجموعة وأقلية، على توزيع فسيفسائي في غاية التعقيد والتداخل؛ على الرغم من الانعزال الذاتي والفصل الرسمي بينها، وبشكل يخدم المؤسسة الاشكنازية للحفاظ على هيمنتها. ولعل ما يلفت الانتباه، أن "الظروف الخاصة بترتيب كل جماعة في فئة محددة، ظلت جامدة، حيث استمر التفاوت"(٣). وبهذا الخصوص، يؤكد الباحث اليكس وينفرود، ان "ترتيب المجموعات الإثنية" يتأسس بشكل رئيسي، على سمات وخصائص كل مجموعة وأقلية، ويقول: "أن تكون يمنياً أو هنغارياً أو تونسياً، يعني أيضاً مكانة اجتماعية معينة. فاسم الشخص ولهجته وتفصيل ملابسه ولون بشرته، كل هذه وأشياء أخرى يتم استيعابها، وعلى أساسها يكون رد الفعل"(٤). أما الدكتور حماد، فيشير إلى هذه المقاييس العرقية - الإثنية والحضارية - الثقافية، وخصوصيتها في أجواء التنافر بين المجموعات والأقليات وتسارع الاستقطاب الإثني - الطائفي - الثقافي بينها، فيؤكد بأنها دفعت بأن "بات وعي الجماعة لذاتها، والانغلاق على الذات، والتمحور الإثني..."، من التقاليد التي يجري الحرص عليها على جميع المستويات الرسمية، وغير الرسمية أيضاً، لأن كل مجموعة وأقلية وجماعة منها، اعتبرت خصوصياتها "كدلالة على قصد إلهي..."(٥).

ولما كان الانعزال والفصل الذاتي، يضرب بجذوره في أعماق الوعي للعقلية اليهودية، الأمر الذي أدى إلى أن العزلة اليهودية، قد فرضت نفسها على حياة تلك المجموعات والأقليات والجماعات على مدى مئات السنين، بفعل وبتأثير الديانة اليهودية وأوامرها

(١) المصدر نفسه، ص ١٢٣ - ١٢٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٥١.

أشرف راضي: "الفجوة: الصراع الطائفي في التجمع الصهيوني". دار البيادر، القاهرة، ١٩٨٧، ص ٤٢.

(3) Alex Weingrood: "Israel: group relations in a New Society". N. Y. 1965, pp. 38-39.

(٤) د. مجدي حماد: "النظام السياسي الاستيطاني..."، مصدر سابق، ص ١٦١.

(٥) أشرف راضي: "الفجوة..."، ص ١٥٤.

ونواهيها؛ فإن هذا الانعزال والانفصال قد ترجم نفسه أيضاً في مجتمع الاستيطان، بشكل آلي وطبيعي من قبل تلك المجموعات والأقليات ذاتها. ولكن الوجه الآخر، الجدير بالرؤيا والتدقيق يتمثل في السياسة المنهجية الصهيونية، في هذا المجال.

فعلى الرغم من أطروحات "الاندماج والصهر" التي تتشدق بهما إسرائيل، إلا أن هذه الأطروحات الدعاوية قد تراجعت تماماً لصالح أطروحة "الاستيعاب". والفرق واضح بين هذه وتلك، في المضامين والأهداف والنتائج النهائية لكل منهما. وفي دراسته للفروق هذه، يؤكد الباحث أشرف راضي، بأن عملية "الاستيعاب" أقل تعقيداً من الأولى، إذ "لا تنطوي على صهر للجماعات المختلفة (...) بل تعني إمكانية السيطرة والتحكم، لدرجة قد تصل للهيمنة"(١).

تسير سياسات الاستيعاب بقصد التحكم والإحاطة الشاملة، للإبقاء على هيمنة الاشكناز، مع سياسات العزل والانفصام الرسمي والذاتي؛ على كافة الأصعدة. فمع إدراك المجموعات والأقليات لأبعاد سياسة الإبادة، التي يحلو للصهاينة تسميتها بعمليات "الصهر" لخلق الشخصية الإسرائيلية، "حاولت المجموعات اتباع الانفصال، والاستيطان كمجموعة إثنية - دينية" - كما يكتب الباحث السوفييتي غورا. ويستطرد باحث آخر في تتبع الآثار الناجمة عن ذلك، فيؤكد أن "كل مجموعة لها رأيها الخاص، وكنسها الخاصة، ومحاكمها الدينية (...) وتطور علاقات الزواج في إطار طائفتها فقط"(٢).

ولعل في عديد الاستنتاجات، التي توصل إليها عدة باحثين إسرائيليين في شتى المجالات، والتي سنتناولها تباعاً حسب موضوعاتها لاحقاً، ما يثبت هشاشة الادعاء الصهيوني بشأن أن هذه الفوارق والانفصام، تزول مع مرور الزمن بين المجموعات والأقليات تلك. وعلى الرغم من تبني بعض الباحثين لهذه الأطروحة، إلا أن الدراسات الميدانية الإسرائيلية ذاتها، تقدم استنتاجات مخالفة تماماً. فالفوارق و"الفجوة" لا تزال تحافظ على نفسها، رغم مرور عشرات السنين، ليس فقط بين المهاجرين، بل وبين

(١) *غورا ف. ك: تفاقم الوضع الاجتماعي — السياسي في إسرائيل". في كتاب: "الإيديولوجيا والممارسة للصهيونية العالمية". "ناؤوكا دومكا"، كييف، ١٩٨١، ص ٩٧ / بالروسية.*

(٢) *وستيفانسكين ف. أ: "في خدمة العدوان — الآلية السياسية والممارسة الإسرائيلية". "الأدبيات السياسية". كييف، ١٩٨٤، ص ٤٥ — ٤٦ / بالروسية.*

أجيال أبنائهم المولودين في الكيان الصهيوني ذاته. ولهذا، فإن أطروحة تقسيم فئات ومجموعات وأقليات السكان اليهود إلى مهاجرين حسب فترات قدومهم، ليست إلا لذر الرمال في عيون الباحثين والمتابعين، لإخفاء الحقائق الصارخة بالتمييز والفصل الصهيوني.

وبالأساس تقوم هذه الأطروحة، على أن الاشكناز هم أول من استوطن، واليهود السفارديم والشرقيين لم يأتوا إلا بعد إقامة الكيان. ولكن، أين تموقع الاشكناز القادمون في الستينات والسبعينات؟! وأين تتموقع جموع المهاجرين اليهود السوفييت في الوقت الراهن؟! أحقاً أن هؤلاء سيبدأون درجات السلم المجتمعي الأولى والدنيا؟! وهل يتم استيعابهم حسب نفس المعايير، التي تتعامل فيها الصهيونية والوكالة اليهودية ووزارة الاستيعاب والإسكان، مع اليهود الفلاشا مثلاً؟!

إن ما تحمله وكالات الأنباء من معلومات وحقائق، تكشف حقائق وصنوف التمييز والفصل العنصري الآثم. ففي تقرير لوكالة "فرانس برس" في حزيران عام ١٩٩٠، بشأن اليهود الفلاشا وأوضاعهم في إسرائيل، حقائق دامغة(١). فمنذ عملية التهجير التي سميت "بعملية موسى" في عام ١٩٨٤، أقام الصهاينة أحد عشر مركزاً للاستيعاب (معبراة) لليهود الفلاشا. وقد تركزت هذه المراكز على مشارف النقب والمناطق الجنوبية الصحراوية، أو على الحدود اللبنانية في الشمال. ويصف مراسل الوكالة المذكورة أحد هذه المراكز بقوله: "جرى تكديسهم في (المركز ب - لاستيعاب المهاجرين)، وهو غيتو أسود حقيقي، على مشارف صحراء النقب". ولقد صرح أحد الفلاشا، بالقول: "منذ سنوات، وأنا في هذا الحجر مع زوجتي وأطفالي، من دون عمل ومن دون أي إمكانية لأستأجر أو أشتري بيتاً"، مشيراً بيده إلى "حي الأنبياء" السكني الحديث والضخم، الواقع على الجانب الآخر من السياج المعدني الذي يحيط بالمركز. ولقد أشارت الصحف الإسرائيلية إلى أن أكثر من ثلاثة آلاف فلاشي، كانوا لا يزالون في مراكز الاستيعاب، حتى نهايات عام ١٩٨٨، ويعيشون في ظروف حياتية لا تطاق(٢).

ولما بدأ التدفق اليهودي من الخزان السوفييتي، أقدمت الحكومة الإسرائيلية على إقرار تقديم منحة نقدية للمهاجرين الجدد، تشمل نفقات السكن والمعيشة فور وصولهم

(١) صحيفة *"القبس" الكويتية، بتاريخ ٢٥ حزيران ١٩٩٠.*

(٢) *"يديعوت أحرونوت"، ٢٨ تشرين الثاني ١٩٩٨، عن مجلة "الأرض".*

مباشرة. كان ذلك في نيسان عام ١٩٨٨. فالهبات والمنح لم تخرج من الخزينة إلا بعد قدوم الاشكناز السوفييت، بينما حرمت منها تماماً الأقلية الاثيوبية من يهود الفلاشا؟! وفي حين تم استيعاب اليهود الفلاشا، بالصورة السابقة، وتم حشرهم في المناطق الجنوبية الصحراوية والمناطق الشمالية الخطرة أمنياً، والأقل في مستوى الخدمات وتنتشر فيها البطالة؛ فإن السلطات الاشكنازية قد استوعبت أقرانهم من اليهود السوفييت في مدينة تل أبيب وضواحيها، والمناطق الساحلية في المدن الكبرى. ولقد طفت للسطح إحدى قضايا الفلاشا، بعدما تعزز وجودهم بالهجرة الأخيرة، عبر "عملية سليمان". فلقد نشرت صحيفة نيويورك تايمز وكذلك هآرتس(١)، تقريراً يكشف عن أن السلطات الإسرائيلية قد أجبرت نحو مائتي يهودي فلاشي، على الانتقال والاستيطان في مستوطنة "كريات أربع"، الملاصقة لمدينة الخليل في الضفة الفلسطينية المحتلة. وكان هؤلاء الفلاشا قد نقلوا رغماً عنهم إلى هناك، بعد "عملية موسى" عام ١٩٨٤، وطالبوا طوال الوقت بالانتقال منها، الأمر الذي رفضته السلطات؛ لأن رؤساء البلديات والمجالس القروية الإسرائيلية كانوا قد رفضوا استقبالهم في بلداتهم وقراهم (؟!). وبعد إثارة المشكلة حديثاً، صرح سمحا دينتس - رئيس الوكالة اليهودية - بقوله أن الجهات قد وافقت على فكرة تجميع الأقلية الاثيوبية - الفلاشا - بعدما أكد أن عديد العائلات قد تم عزلها عن بعضها؛ ولذا يتوجب تصحيح الخطأ عن طريق الإسراع في جمع شمل هذه العائلات.

إن قول دينتس هذا، ينطوي ليس على إصلاح الغبن الناتج عن الممارسة الاشكنازية تجاه الفلاشا، والذي شبهته شلوميت ألوني بأنه "يصل إلى حد الخزي"(٢)؛ بل استجابة لعوامل الفصل العرقي - الإثني، والذي سيترجم في حشر هؤلاء في غيتوات شبيهة بغيتوات عراد وديمونة، الخاصة باليهود السود.

يتناول تقرير فرانس برس المذكور جوانب أخرى من مظاهر التمييز والفصل العنصري. ولقد نقل عن يهود الفلاشا بأنهم "موضع عزل فعلي، من قبل الإسرائيليين، وخاصة في المدارس والأمكنة العامة، أو في مكاتب الوكالة الوطنية للعمل". وقالوا:

(١) *صحيفة "الرأي" الأردنية، ٩ حزيران ١٩٩١.*

(٢) *"يديعوت أحرونوت"، ٨ تشرين الثاني ١٩٨٤، عن مجلة "الأرض".*

"عندما تتساوى الكفاءة، فإن رب العمل الإسرائيلي يفضل دائماً إسرائيلياً أبيض على يهودي اثيوبي". وأضاف أحدهم: "اسمعنا الأطفال في الشارع ملاحظات حول لون جلدنا. والمسنون كذلك ينظرون إلينا بارتياب". ويضيف آخر: "في اثيوبيا كنا نعتبر كيهود، أما هنا فإننا سود فقط" (؟!).

بهذه العجالة، تتكثف أوضاع الاثيوبيين من يهود الفلاشا، في إسرائيل. ولدى مقارنة ذلك بما يجري راهناً لاستقبال واستيعاب اليهود الاشكناز السوفييت، تظهر الفروق الصارخة بالتمييز والتفرقة؛ علماً أنهم جميعاً من فئة المهاجرين الجدد. ففي حين تغدق السلطات من كرمها وهباتها وتوفير كل ما يمكن للسوفييت الاشكناز. كشفت بعض الصحف الإسرائيلية مؤخراً، بأن عديد الفلاشا يعيشون في حالة من الجوع في (المعبرات) مراكز الاستيعاب، ويشكون من أن السلطات لا تقدم الأكل الكافي لهم، وأن الأطفال في حالة جوع[١].

ولعل في الشجار الدامي بين الفلاشا واليهود السوفييت، الذي حصل في ٢٥ و٢٦ آب عام ١٩٩١ في أحد الفنادق المختلطة بهم، ما يجسد أشد صور الفوارق العرقية والثقافية. فلقد احتدم التناقض بينهم، بعدما شعر الفلاشا بالإحباط جراء رفض قبول طفلين اثيوبيين في روضة أطفال في إحدى ضواحي تل أبيب؛ واستنكار ومعارضة وضع بيوت متنقلة لهم في أحد أحياء يقطنه مهاجرون من الطبقة الوسطى. ولقد تسبب طريقة عيشهم وممارسة عاداتهم وتقاليدهم، وكذلك لون بشرتهم، في حدوث شجار، تخلله طعن بالسكاكين أوقع أربعة جرحى على الأقل. ولقد صرح مدير عام وزارة الاستيعاب، بأن وضعهما سوياً كان "خطأ" لأن "عقلياتهما وظروف معيشتهما تختلفان تماماً"[٢]؛ الأمر الذي دفع السلطات بفصلهما الجغرافي - السكاني، أو كما قالت افتتاحية إحدى الصحف الإسرائيلية بـ"الفصل بين القوات (..) أي الفصل بين القادمين حتى لا تحصل مواجهات عنيفة، كالتي كانت في فندق (دبلومات) في القدس"[٣].

والفصل العرقي - الإثني والحضاري - الثقافي، يبدأ أساساً بالفصل الجغرافي - السكاني، ويتتوج في ترتيب كل من تلك المجموعات والأقليات في درجة معينة من السلم

(١) *نفس المصدر، ٣ تموز ١٩٩١، عن صحيفة "القدس العربي".*

(٢) *صحيفة "الحياة" اللندنية، ٢٩ و٣١ آب ١٩٩١.*

(٣) *"يديعوت أحرونوت"، ٢٨ آب ١٩٩١، عن صحيفة "القدس العربي".*

المجتمعي الاستيطاني؛ كل حسب المعايير الأساسية الصهيونية، والمتمثلة أساساً في: الأصل العرقي - الإثني؛ الأصل الجغرافي؛ المميزات العرقية - الإثنية، كاللغة، ولون البشرة، والعادات والتقاليد ...؛ الانتماء الديني - الطائفي؛ والمستوى الحضاري - الثقافي... الخ.

هذه هي المقاييس الاشكنازية للفصل العنصري في الكيان الصهيوني. وهي التي تحدد موقع كل مجموعة وأقلية، في النسيج ودرجة الأهمية في المجتمع، وليست مقاييس سنة هجرة هؤلاء كما تدعي الصهيونية. فسنة الهجرة، لا تعني موقعاً اجتماعياً، بقدر ما تعني مدى التكيف والتقولب مع النظام العنصري الفصلي الصهيوني. وخلال هذه العملية ينسلخ بعض أبناء هذه المجموعة أو الأقلية أو تلك، ويلحقون بركاب أجهزة السلطة الاشكنازية، ليكونوا أداة لها في كسب الأصوات الانتخابية من تلك المجموعات والأقليات.

خلاصة القول، أن السلم المجتمعي الاستيطاني الصهيوني يقوم على تلك المقاييس العنصرية سابقة الذكر، الأمر الذي يمكن أن يتيح تصور درجاته وهرميته التقريبية الأساسية. فعلى رأس السلم الهرمي الذي يختلط به الطبقي والإثني - الطائفي، يقف الاشكنازيم، والذين ينقسمون إلى فئات ودرجات بدورهم، ويتصدر الفئة الأولى منهم البولونيون، والرومان والسوفييت والألمان... الخ.

وتتمثل الفئة الثانية بـ"الصابرا"، حيث ينقسمون بدورهم إلى "الصباريم" - أبناء الاشكنازيم، و"ويلدي هآرتس" - أبناء البلد من الشرقيين والسفارديم. وكل من هؤلاء يتوزعون على فئات حسب طوائفهم وأقلياتهم السلالية.

أما الفئة الثالثة فهي "السفارديم أو/ و الشرقيون"، والذين يتوزعون بدورهم على مجموعة كبيرة من الأقليات والدرجات المجتمعية الاستيطانية. ويقف على رأس هؤلاء الأقليات القادمة من بلدان البلقان، يتبعهم العراقيون، وتنتهي درجات سلمهم المجتمعي باليهود اليمنيين.

والفئة الرابعة تمثل "الممزيري" - هؤلاء الذين لا تعرف أسرهم أو أبوتهم، وولدوا من أمهات ساقطات أخلاقياً. ولعل ما في الأمر من غرابة أيضاً، أن أبناء أي زواج لا تعترف به الحاخامية، يصنفون ضمن هذه الفئة. وهم بدورهم ينقسمون إلى فئات

حسب لون بشرتهم وخلافه.

والفئة الخامسة والأخيرة، هي فئات السود - الملونين، حيث ينقسمون بدورهم إلى فئات متعددة، مثل: الليبريين؛ الهنود؛ الزنوج الأمريكيين؛ الفلاشا الاثيوبيين... الخ. ولعل في بدء وصول الهنود الحمر من البيرو مؤخراً، بعد تهويدهم، قد يضيف فئة سادسة في المستقبل.

إن هذه المراتبية الصهيونية، القائمة أساساً، على المبدأ السلالي والعنصر واللون والأصل الإثني والقومي والديني الطائفي، لاعتبارات عنصرية تستهدف الهيمنة الاشكنازية؛ تنطوي على أبعاد عنصرية تمييزية وعزلية فصلية بينها، بطريقة تحكمية وتمييزية ضد تلك المجموعات والأقليات المراتبية، وذلك لإعاقة تنميتها الشاملة ومشاركتها في الحياة المجتمعية "بغرض إقامة وإدامة هيمنة فئة عنصرية ما]الاشكنازية - ك. ق.) من البشر، على أية فئة عنصرية أخرى من البشر واضطهادها إياها بصورة منهجية (المجموعات السفاردية والشرقية وغيرها - ك. ق.)"، وفقاً لمصطلح "جريمة الفصل العنصري" في المادة الثانية من الاتفاقية الدولية الخاصة بذلك في ٣٠ تشرين الثاني عام ١٩٧٣. وهي أيضاً انتهاك جسيم للفقرة الخامسة من المادة الأولى من الـ"إعلان بشأن العنصر والتحيز العنصري"، الصادر عن اليونسكو في ٢٧ تشرين الثاني عام ١٩٧٨، والتي لا تجيز استخدام الفروق العرقية - الإثنية والحضارية - الثقافية - الجغرافية "بأي حال، أن تتخذ هذه الفروق ذريعة لأي تصنيف متفاوت المراتب...".

الفصل الثاني

من سياسة "الصهر" إلى "التنمية المنفصلة"

تتميز المجتمعات الاستيطانية ببنية اجتماعية - اقتصادية تختلف جوهرياً وشكلياً عن بنى المجتمعات البشرية الأخرى، وهو ما يطلق عليه عادة بـ"الفرادة التاريخية" لتلك المجتمعات، إذ تبرز خصائص وسمات تلك الفرادة، في النقاط الرئيسية التالية:

أولاً: ظاهرة الازدواجية القومية - الثقافية من حيث أصول المستوطنين؛

ثانياً: ظاهرة التعددية متعددة الثقافة والانتماء، والاتجاهات والأفكار، والعقائد والعادات والتقاليد بحكم تأثيرات بلد المنشأ لكل طائفة من تلك الطوائف.

ثالثاً: ظاهرة التداخل والتمازج بين الوضعين الطبقي والإثني، إذ تبرز أولوية الوعي الاستيطاني على الوعي الطبقي، ويختلط الوضع الطبقي بالوضع الإثني(١).

إن ما يهمنا تناوله وتوضيحه الآن، هو، أبعاد الظاهرة الثانية، إذ أن مجتمعات الاستيطان، كما وصفها عالم الاجتماع الإسرائيلي ايزنشتادت هي "مجتمعات المهاجرة" والتي جاءت نتيجة نقل "وزرع مؤسسات اجتماعية غربية في إطار آخر جديد غير غربي"(٢). أما الباحثان د. عمرو محيي و د. محمد حقي، فيصفانها بـ"نقل حجم

(١) انظر دراستنا بعنوان: "اليهود السود في الخارطة الطائفية – الإثنية للكيان الصهيوني". أعداد مجلة "الهدف": ٧٥٩، ٧٦٠، ٧٦١، شباط وآذار عام ١٩٨٥.

(1) Eiesenstadt E. "Israeli Society". New York: Basic Books, Inc., Publishers, 1967, pp. 4-5.

سكاني بكل أعداده ورأسماله ومهاراته ومعارفه الفنية والسوق الذي يمثله من مكان إلى آخر"(١)، إلا أن هذا الحجم السكاني المهاجر والمستوطن "يتشكل تكوينه - كما يكتب د. مجدي حماد - من خليط متنوع الأصول الحضارية والاجتماعية والإثنية والثقافية والجغرافية"(٢).

ثمة نظرة سريعة في التركيبة المجتمعية والسكانية للمجتمع الاستيطاني الصهيوني، من حيث تركيبته العنصرية - القومية والدينية - الطائفية تبين أن سكانه قادمون من أكثر من (١٠٢) دولة مختلفة، ويتمحورون في إطار (٨٥) مجموعة، ويتكلمون (٥١) لغة. وتتميز هذه التركيبة غير المتجانسة "بحالة الاستقطاب الإثني، إذ يتبلور التناقض بصفة أساسية بين اليهود الغربيين واليهود الشرقيين، أو ما يطلق عليهم بـ"الاشكنازيم" و"السفارديم". ولا يعني ذلك الاستقطاب أن لا توجد عناصر إثنية أخرى، وتناقضات أخرى داخل كل فئة على حدة"(٣). رغم هذه التركيبة الفسيفسائية الهجينة، لا تزال الصهيونية تعتبر اليهود "شعباً عالمياً"، و"أمة خارج الزمان والمكان" تتمتع بصفات "شعب الله المختار"، وتدعوهم للاستيطان من أجل إعادة صهرهم في بوتقة "الشعب الإسرائيلي".

اهتم العديد من البحاثة بدراسة دينامية التفاعل بين مجموع تلك المجموعات البشرية، التي تشكل مجتمع الاستيطان الصهيوني، طارحين ثلاثة احتمالات:

أولاً: تذويب السفارديم(٤) في إطار مجتمع غربي، بإفقادهم خصائصهم الثقافية والحضارية؛

ثانياً: تحويل إسرائيل إلى دولة شرقية، حيث أن السفارديم باتوا يشكلون أكثر من ٦٠٪؛

ثالثاً: التطور على أساس التعدد الثقافي - الحضاري والديني - الإثني، لكافة تلك المجموعات، عبر "التطور من خلال التنوع".

أثبت العديد من المختصين والبحاثة أن مقولة "دمج الطوائف" تحولت إلى أكذوبة

(١) د. عمرو محيي و د. محمد حقي: "الاقتصاد الإسرائيلي". مركز الدراسات الفلسطينية في جامعة بغداد، ١٩٧٣، ص ١٥ - ١٦.

(٢) د. مجدي حماد، مصدر سابق، ص ٨٧، ١١٨، ١١٢.

(٣) *Avineri Sh,: "Israel: Two Nations?", in: Curtis M. and Chertaff, ed.,: "Israel Social Structure and Change". New Jersey: Transaction Books, 1973, p. 315.*

(٤) أوري افنيري: "ثورة الطوائف الشرقية". الحلقة الثانية، بعنوان: "اتحاد فيدرالي للطوائف". مجلة "هعولام هازيه". ١٥ حزيران ١٩٨١.

رغم مرور عدة عقود على قيام مجتمع الاستيطان. فـ"أوري افنيري" يؤكد، أن "خلق الأمة"، أو "أمة واحدة جديدة غير طائفية" وتذويب العواطف في بوتقتها، أصبحت غير ممكنة"(١)، أما حاني كيم فقد كتب في (عل همشمار ١٢/٦/١٩٨١) بعنوان "طوائف فوق البركان" بأن الخطر أصلاً يكمن في "تخليد الفجوة الطائفية - الدينية" القائمة. أما الكاتب الإسرائيلي آريه إيلياف فيؤكد بـ"أن مفهوم اندماج المهاجرين هو الآن في محصلة الاحتضار"، والكاتب الإسرائيلي شلومو فرنكل يؤكد بأن "المسيرة عكسية"(٢)، والباحث إبراهيم كروان يؤكد "فشل استراتيجية بوتقة الصهر، التي لجأت إليها الحكومات الإسرائيلية"(٣)، واليهودي السوفييتي الهارب من إسرائيل، والذي كتب كتاباً ونشره في باريس بعنوان: "وداعاً يا إسرائيل"، يشبه إسرائيل بـ"إناء مهشم، يتشكل من ثمانين جزءاً من مختلف الأحجام"، ويقول، أن إسرائيل "تختنق في جوار عدائي" بين الطوائف و"منقسمة إلى عشرات الطوائف المتأثرة جغرافياً ببلدانها الأصلية، والعلاقات فيما بينها، بعيدة كل البعد عن الودية. ويعيشون في مدن وأحياء حسب هذا الأساس الطائفي"(٤).

بعدما فشلت الصهيونية في "غربنة" وتذويب وصهر الطوائف اليهودية الشرقية، وقاومت بكل ما تملك من مؤسسات ووسائل ضد تحويل إسرائيل إلى دولة شرقية، وبدت فكرة الدمج عقيمة وغير ممكنة؛ فإن مجتمع الاستيطان الصهيوني ينتهج الطريق الثالث، وهو "التطور من خلال التنوع الإثني" *Pluralism. Ethnic* هذا ما أكده العديد من البحاثة في هذا المجال(٥). رغم ذلك، فإن المنظرين الصهاينة لا يزالون يدّعون

(١) الأرض"، العدد (٣) ٢١/١٠/١٩٨١، ص ٢٠.

(٢) أرييه الياف: "الحلم الذي تحول إلى كابوس". ترجمة د. عبد القادر ياسين، مجلة: "صامد الاقتصادي". العدد (٢٩) حزيران ١٩٨١، ص ١٩٨٦.

(٣) كتاب: "متخذو القرارات في الكيان الصهيوني". ترجمة مؤسسة "الأرض" للدراسات الفلسطينية. دمشق، ١٩٨٠، ص ٣٣.

إبراهيم كروان: "ملامح التطور الداخلي للكيان الإسرائيلي". في كتاب: "الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين". تحرير: السيد يسين و د. علي الدين هلال. الجزء الأول. معهد البحوث والدراسات الاستراتيجية العربية. القاهرة، ١٩٧٥، ص ٤٣١.

(٤) أفرام سيفيلا: "وداعاً يا إسرائيل". ترجمة ونشر "شؤون فلسطينية". العدد ٦٨ — ٦٩ عام ١٩٧٧، ص ١٢١.

(5) Weingrod Alex: "Israel: Group Relations.." p. 27, 77.

- د. مجدي حماد: "النظام السياسي..."، مصدر سابق، ص ٢٢٢.

- د. منير بشور وخالد مصطفى: "التعليم في إسرائيل". مركز الأبحاث الفلسطيني. بيروت، ١٩٦٩، ص ١٤٠ — ١٤١.

بمقولاتهم اللاعلمية حول "الأمة اليهودية العالمية" و"الأخوة اليهودية" و"المجتمع اللاطبقي" و"الجنس اليهودي النقي"... الخ.

إن طريق "التطور من خلال التنوع الإثني"، والذي ينطوي على تعددية عرقية – إثنية وحضارية – ثقافية ودينية – طائفية، يقود لا محالة، إلى انتهاج سياسات تدعمها القوانين والتشريعات والأوامر الإدارية – المؤسساتية، تقوم على التحيز والتمييز بين هذه المجموعات والأقليات. ولما كانت المجموعة الاشكنازية، وخاصة فئاتها العليا – البولونية والروسية... الخ – هي التي أنشأت الصهيونية، وبدأت في شروعها الاستيطاني، والسباقة في وضع الأسس المجتمعية لذلك التجمع، وتشعر بتمييزها العرقي – الإثني والحضاري الثقافي؛ فلقد انتهجت سياسة الهيمنة والسيطرة على المجموعات والأقليات الأخرى، وحاولت تذويبها وصهرها ومحو وإبادة شخصياتها وثقافاتها وأصولها المتنوعة، في قالب صهيوني جديد، للحفاظ على هيمنتها وسلطتها عليها.

وكانت الصهيونية قد أخذت من الدين اليهودي ما يفي أغراضها، وما يشكل تبريراً لهدفها وممارساتها. فأدلجت الدين، وقامت بتسييس نواهيه وأوامره، وركزت على الأطروحات الميثولوجية العزلية الفصلية التمييزية فيه؛ وخاصة أطروحات "الأمة اليهودية"، و"الفرادة البيولوجية والعرقية"، و"شعب الله المختار" و"الأرض الموعودة" و"الحق التوراتي والتاريخي" و"الانعزال عن الغويم" (الأغيار)... الخ، من تلك الأطروحات التي جرى نقلها من الميثولوجيا الدينية، إلى منظومة من الأطروحات والمقولات الإيديولوجية والسياسية.

لا تاريخ البشرية يعرف ما يطلق عليه بـ"الأمم العالمية" أو "الكسموبوليتية" التي تتواجد خارج الزمان والمكان أيضاً. ولقد أكدت المعارف العلمية منذ زمن بعيد بأن اليهود لا يشكلون "أمة" أو "عرق" محدد. ولعل ما تضمنته وثيقة "الإعلان بشأن الأعراق والاختلافات العرقية"، المقرة من قبل مجموعة من الانثروبولوجيين (علم السلالات) ومختصين في علم الوراثة، عام ١٩٥١، ما يثبت خطل الادعاء الصهيوني بشأن "الأمة" و"العرق" اليهوديين. فلقد أقر هؤلاء بدون أي لبس بأن "المسلمين واليهود، لا يشكلون عرقاً، كما الكاثوليك أو البروتستانت"(١). وبهذا المعنى، صرح أيضاً المستشار النمساوي

(١) *"الوثائق تفضح الصهيونية". موسكو، دار العلم، ١٩٦٨، ص ٣٠ / بالروسية.*

السابق برونوكرايسكي، وهو من أصل يهودي، إذ قال: "إن اليهود لا يشكلون أمة ولا شعباً بالمفهوم العلمي. ففي الواقع، ماذا يربط بين يهودي صيني ويهودي سويدي؟ ما هو العامل المشترك باستثناء العامل الديني - الذي يجمع بين الاثنين؟ ثم لماذا لا يبادر الكاثوليك والبروتستانت أو المسلمون، في العالم بأجمعه، بتشكيل أمة واحدة لهم وبنفس معنى (الشعب الواحد)؟" ويستطرد كرايسكي بتأكيده: "مثلما لا توجد ملامح أو مميزات خاصة بأي عرق، كما كان يدعي هتلر، فإنه لا يوجد عرق يهودي كما تدعي الصهيونية"؛ مشيراً إلى تشابه الأطروحات النازية والصهيونية، ومؤكداً: "هذا منطق مذهل وخيالي، يتعارض مع الأمانة التاريخية ومع الموضوعية العلمية"(١).

إن أطروحة "الأمة اليهودية" و"العرق اليهودي النقي"، تنهار في ضوء تقدم العلوم الإنسانية، وخاصة علمي الانثروبولوجيا وعلم الوراثة. ولقد أطلقت الصهيونية هذه الأطروحات منذ بداية تشكيلها الإيديولوجي والسياسي، حيث انتشرت آنذاك، الإيديولوجيات العنصرية الأوروبية؛ ولكنها لا تزال تطرحها راهناً، وتجري عليها تحديثات مستمرة، وخاصة على صعيد التركيب المجتمعي الاستيطاني الصهيوني. فمثلاً، كتب راب الجيش الرئيسي عام ١٩٧٣، بأنه و"بنتيجة الاختيار البيولوجي، في عملية تطوير الإنسانية، أصبح شعب إسرائيل الوحيد بين جميع أمم العالم، الموهوب باللياقة البيولوجية والميتافيزيقية الفريدة؛ وهذا مكنه من الارتفاع فوق النسيج الطبيعي الفاعل في العالم، ومن الارتقاء إلى أعلى مرحلة من تحقيق التماثل مع الألوهية"(٢). وفي مقدمة كتاب الخوارزمي، الصادر عن شعبة التربية في الكنيست وبمصادقة وزارة المعارف والثقافة الإسرائيلية، وبإعداد الدكتور تسفروني، تأكيد صهيوني بأن "شعب إسرائيل هو صفوة الشعوب كلها (...) وأفخر العناصر، لأنه تكون عن طريق انتقاء الأفضل"(٣).

وهكذا، انتقل الصهاينة من الحديث عن "الأمة اليهودية العالمية" و"العرق اليهودي النقي"، إلى التركيز على "فرادة ونقاء الشعب الإسرائيلي"، استناداً إلى "نظرية الاختيار

(١) انظر: مقابلة مع برونو كرايسكي، مجلة المستقبل، السنة السابعة، العدد ٣٥٤، بتاريخ ١٩٨٣/١٢/٣، ص ٤٨.
(٢) انظر: د. إميل توما، "طريق الجماهير..." ص ٦١.
(٣) المصدر ذاته، ص ٦٥.

والانتقاء للأفضل" الداروينية المعروفة ولعل ما يلفت الانتباه، أن تلك الأسانيد والمصطلحات تتشابه تماماً مع الأطروحات المغالية في العنصرية والفاشية، مع بعض التحديث والتجديد؛ وهي في الوقت ذاته انتقلت من الحديث عن اليهود عامة، للتركيز على ادعاء "الشعب الإسرائيلي" خاصة. وبهذا الخصوص، يكتب الدكتور قدري حفني، مفسراً، بأن "فكرة نقاء الجنس اليهودي *[...]*لم تعد بالفكرة السائدة الآن"؛ في الوقت الذي "ظهرت محلها أفكار تعادلها سيكولوجياً، بمعنى أنها تعبر عن نفس القضية، قضية تمايز اليهود"، مضيفاً بأن "ما حدث هو انتقال التركيز من تلك الفكرة، إلى فكرة أخرى وثانية وثالثة، وهكذا دون أن يعني ذلك اندثاراً نهائياً لأي منها"(١).

وفي الوقت الراهن، انتقل إيديولوجيو وسياسيو الصهيونية للتركيز على أطروحات التمييز و"الفرادة البيولوجية والانثروبيولوجية" لما يدعوه بـ"الشعب الإسرائيلي"، منتقلين بذلك للتركيز على مجتمع الاستيطان، كنقطة جذب للطوائف والأقليات الدينية – الإثنية اليهودية في دول العالم. وهكذا، بدون إسقاط أو دثر مقولات "الأمة اليهودية الكسمبوليتية" و"العرق اليهودي"، دأب الصهاينة على محاولة الإيهام بوجود "الشعب الإسرائيلي"، الذي انتقلت إليها سمات وخصائص "الفرادة" و"النقاء"، بفعل التوارث ونظرية "الاختيار والانتقاء للأفضل"... والأطروحات الأخيرة، هي استمرارية منهجية للأطروحات العنصرية في الصهيونية، والتي تشكل جزءاً من مكوناتها البنيوية الملازمة لها حتماً؛ إذ أن "الجذور الحقيقية للعنصرية الصهيونية، يمكن أن نتلمسها، في صميم الإيديولوجية الصهيونية نفسها"(٢).

فعتات الصهاينة ينكبون منذ إقامة الكيان، على وضع صياغة جديدة لبعض أطروحاتهم، بما يتناسب مع أهداف تبرير وتدعيم الكيان الاستيطاني. والانتقال والتركيز، على ما يدعوه بشأن "الشعب الإسرائيلي" كجزء من "الأمة اليهودية العالمية"، محاولة لإخفاء طبيعة الكيان وجوهره المتمثل في كونه استيطاني استزراعي، إجلائي – إحلالي، طائفي – عنصري، كولونيالي – استغلالي في بنيانه التحتي والفوقي. وبهذا، فإنه كيان غير طبيعي، ولا يمكن التعامل معه حسب مناهج الدراسة والبحث

(٤) د. قدري حفني: *"الإسرائيليون من هم؟..."*، ١٩٧١، ص ١٦٧، ١٧٠.

(٢) حسين غباش: *"فلسطين: حقوق الإنسان وحدود المنطق الصهيوني"*، ص ١٦٩.

للمجتمعات الإنسانية، التي تشكلت بفعل صيرورة التراكم التاريخي - الحضاري والاقتصادي - الاجتماعي؛ بل تقتضي اتباع مناهج البحث الخاصة بالمجتمعات الاستيطانية، مع أفراد خصائصه الفريدة أيضاً وإيلائها أهمية خاصة في البحث والدراسة.

ولعل أبرز معالم خصوصيات الكيان الصهيوني، تتمثل في فسيفسائية تركيبته المجتمعية، من حيث أنها تتشكل من تنويع عنصري - إثني، وديني - طائفي، وحضاري - ثقافي، يتوزع على نوع خمس وثمانين مجموعة، يتشكل الكيان منها. ولذا، فإن دراسة هذه التركيبة المتنوعة، إلى حدود الفسيفسائية الفريدة، تعتبر واحدة من أبرز مجالات البحث؛ كونها تشكل مكامنه وجزئياته البنيوية، التي تعكس ديناميكياته المجتمعية ذاتها.

وإذا كانت دراستنا، ستتناول الموضوع، من ذاك الجانب المتعلق بموضوعها المباشر؛ فإنها ستتعرض لبعض التخوم، دون الخوض في جزئياتها وعناصرها العديدة. إن واحداً من تلك التخوم، يتمثل في إمكانية أو/ و عدم إمكانية، صهر كافة تلك التنويعات والتعددية في الكيان الاستيطاني، في بوتقة ما يدعى بـ"الشعب الإسرائيلي" أو/ و "الأمة الإسرائيلية" و"العبرية" أو "الصابرا". ولا يزال هذا الموضوع محطة دراسة عديد المختصين والباحثين في العالم، كما في إسرائيل ذاتها.

يتناول الباحث أشرف راضي هذه المسألة مؤكداً بأن مجتمع الاستيطان الصهيوني "لا يشكل (مجتمعاً) تاريخياً ولم تتشكل فيه طبقات بالمعنى التاريخي للكلمة؛ ناهيك عن تبلور مثل تلك الطبقات. فالمجتمع الصهيوني لا يعرف عمليات التراكم الاقتصادي والاجتماعي ومن ثم الحضاري"، ولذلك يستنتج الباحث بأنه "لا يمكن الحديث إلا عن جماعات يهودية استيطانية جاءت من شتى أرجاء المعمورة. ويمكن الحديث فقط عن وجود تفاوت اقتصادي، وليس طبقياً"[١]. وإن كنا نوافق على هذا الاستنتاج، الذي يدعمه عديد الباحثين، إلا أننا نرى بأنه لا يزال موضوعاً للحوار والنقاش؛ ويرتبط

أشرف راضي: "الفجوة: الصراع الطائفي في التجمع الصهيوني". تقديم: د. محجوب عمر، دار البيادر، القاهرة، ١٩٨٧، ص ٦٤؛

- أشرف راضي: "الصراع الطائفي في التجمع الصهيوني ومستقبله". مجلة "قضايا فكرية". عدد خاص حول "مستقبل الصراع العربي الصهيوني — الانتفاضة الفلسطينية.. إلى أين؟". الكتاب السابع، تشرين الأول عام ١٩٨٨، ص ٣٣.

- د. محجوب عمر: "حوار في ظل البنادق: التاريخ، والأمة والطبقة والتجمع الصهيوني". دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٨.

أشد الارتباط باستقرار تلك المجموعات وتعايشها لفترات طويلة، مما قد ينسج منها تشكيلاً بشرياً، من أنماط اقتصادية - اجتماعية وثقافية حضارية شبيهة بتلك في الدول الاستيطانية. وبهذا المعنى فإن استنتاج الباحثين السوفييتيين برودسكي. ر. وكراسيفسكي و.، على جانب كبير من الموضوعية العلمية، حيث يؤكدان بأنه في حالة نجاح الحركة والمؤسسة الصهيونية تأسيس وتشكيل هكذا "أمة"، فإنها ستكون "قريبة من تلك الأمم التي تقوم على تعددية التركيبة والأصول الإثنية، والتي ظهرت على أسس كولونيالية في الوقت الحديث"[١].

إن أبرز هذه التشكيلات الاستيطانية - الكولونيالية، تتمثل في نظام الأبرثايد في بريتوريا؛ حيث بقي التركيب الإثني والعنصري الطائفي سيد الموقف، طوال الحقبة الماضية؛ كما هو الحال بالنسبة لإسرائيل. ففي إسرائيل، تتحرك تلك المجموعات نحو مزيد من الاستقطاب والتمحور فيما بينها، وتبلوره الدائم، مع مرور الزمن، باتجاه انطواء وانزواء تلك المجموعات العنصرية - الإثنية والدينية - الثقافية - الطائفية على نفسها، عبر تقسيماتها الرئيسية. لذا، نجد بعض الباحثين يؤكدون على أهمية الفاصل الزمني بين قيام جنوب إفريقيا وقيام إسرائيل؛ حيث تمثل الأولى بهذا المعنى (صورة المستقبل) في بعض الجوانب بالنسبة للثانية. ويبرز في هذا الإطار برنامج (التنمية المنفصلة) الذي تتبناه رسمياً جنوب إفريقيا منذ عام ١٩٤٨"[٢].

إن صحة هذا الاستنتاج، تثبته الوقائع القائمة راهناً والمنظورة لديناميات التفاعل، بين الطوائف والمجموعات اليهودية تلك، ومستقبل العلاقات فيما بينها، والمؤشرات الاستشرافية الدالة على التوجهات والمسارات الرئيسية لها. ولقد استطاع عديد الباحثين التوصل إلى استنتاجات بهذا الخصوص. فالعالم اليهودي الفرنسي جورج فريدمان يقدر بأن "وحدة الشعب اليهودي ليست سوى مفهوم براغماتي". والدكتور حفني يصل إلى استنتاج مكمل، استناداً إلى عديد الدراسات، بتأكيده "ان العلاقات السائدة بين أفراد تلك القوميات (المجموعات القومية - الإثنية والدينية - الطائفية /

(١) برودسكي. ر. أ. وكراسيفسكي. و. ياء: "الجوهر الحقيقي للصهيونية".

(٢) د. مجدي حماد: "النظام السياسي الاستيطاني..."، مصدر سابق، ص ٢٠١.

ك. ق.) أقرب إلى العداء المتبادل"، وأن الانقسام العمودي بين الاشكنازيم والسفارديم "ليس بالانقسام السطحي، ولا حتى بالانقسام الذي يقف عند حدود الاختلاف الحضاري والثقافي فحسب، بل يتعداه بالفعل إلى انقسام في النظرة إلى الدين اليهودي نفسه، وفهم ذلك الدين"(١).

حقاً، فإن الانقسام يأخذ أشكالاً ومجالات متعددة، بما في ذلك التناقض بين الأوساط الدينية - الاكليريكية والأغلبية العلمانية، وحتى بين كل من تلك الأقليات والمجموعات الدينية - الطائفية اليهودية ذاتها. وتتسع الهوة والانفصال فيما بينها، عبر تجليات عديدة، ولكن بخطى ثابتة باتجاه "التنمية المنفصلة" و"التعايش ضمن التعددية" التي لا تلغي معالم وصفات وخصائص كل منها. ولم تستطع أجهزة ومؤسسات الصهر الصهيونية من تحقيق نتائج ملموسة وفعلية؛ بحث باتت السلطات ودوائر الفعل والتأثير، ترى أن لا بد من اتباع منهج "التنمية المنفصلة" بين كافة تلك المجموعات والأقليات.

ولعل دراسة البروفيسور اليعيزر شافيد، من قسم الفكر الإسرائيلي في الجامعة العبرية، ترسم صورة واضحة. ففي دراسته لعلاقات الطوائف والمجموعات على أساس تقسيمها الديني والعلماني، يشير إلى أن الوضع قد قاد "إلى تزايد الحاجة للانفصال." بما في ذلك "التطلع إلى الانفصال على الصعيد الاجتماعي (الضواحي، السكني، المستوطنات المنفصلة، مؤسسات التعليم المنفصلة، النشاط الثقافي - الطائفي المنفصل)"(٢). إن هذا الاستنتاج يقود إلى استنتاج منطقي آخر، يتمثل في أن مطلب الانفصال و"التنمية المنفصلة" أصبح مطلباً رئيسياً من قبل هؤلاء، في تحدٍ صريح لسياسة الصهر والدمج، والتي باتت تأخذ خصائص "الاستيعاب" ليس إلا، وفي إطار المجموعات العنصرية - الإثنية والدينية - الطائفية ذاتها. ولعل في استطراد البروفيسور شافيد، ما يشير إلى ظاهرة أبعد مما تقدم، إذ يؤكد بأن "لدى الطرفين المتناقضين، جماعات صاخبة تفضل الانفصال الكامل وتدفع باتجاهه". وإن كانت تلك الجماعات تسعى للانفصال الجغرافي - السكاني، عبر ضواحٍ ومساكن ومستوطنات

(١) د. قدري حفني: *"الإسرائيليون من هم؟"*، مصدر سابق، ص ٢١٨، ٢٤٥، ٢٤٧.

(٢) *اليعيزر شافيد: "العلاقات بين المتدينين والعلمانيين في دولة إسرائيل". سكيراة حودشيت بتاريخ ١١ أيار ١٩٨٦، ترجمة "الملف". المجلد الثالث، العدد ٢٨/٤، تموز ١٩٨٦، ص ٢٩٧.*

طائفية خاصة بها، حيث يمكنها ممارسة تعليمها ونشاطها الثقافي - الطائفي بشكل منفصل، فإن ذلك يقود بالضرورة إلى "تنمية منفصلة" كاملة. ولإدراك البروفيسور لخطورة هذه المسارات، فإنه يرى بـ"أن الخيار الوحيد للانفصال الكامل هو نموذج المجتمع القائم على التعددية"، حيث بإمكان كل مجموعة "التعبير عن نفسها بحرية كاملة في إطار حركة أو طائفة"؛ داعياً إلى انتهاج "الاتجاه القائم على التعددية"[١].

واقتراح البروفيسور شافيد "القائم على التعددية"، يصب ويلتقي مع أطروحات ومطالب "التنمية المنفصلة"، للمجموعات والأقليات القومية - الإثنية والدينية الطائفية. ولقد جاء اقتراحه هذا، تحت وقع أحداث الصراع السافر في النصف الأول من عام ١٩٨٢، حيث تواجهت المجموعتان - الدينية والعلمانية - في صراع ومواجهات صاخبة وتدميرية[٢]. أحدثت تلك المجموعات في القدس وضواحي تل أبيب وأنحاء متفرقة أخرى، حيث دمرت نحو مائة وأربع محطات للباصات، وخلفت خسائر مادية كبيرة، من قبل المتدينين؛ والتي رد عليها العلمانيون بحرق كنيس في ضواحي تل أبيب، هلعاً كبيراً في أوساط مجتمع الاستيطان والدوائر الصهيونية. فمثلاً وصفها هرتسوغ - رئيس الكيان - بأنها "كابوس"، وتيدي كوليك - رئيس بلدية القدس - بـ"حرب أهلية"، أما يتسحاق بيرتس - وزير الداخلية آنذاك - فقد قال بأنها "صراع حضاري"[٣]. والصحفي عاموس عوز، استنتج بأن "احتمال الانشقاق والانفصال أفضل، بشكل لا يقارن، من شبح الحرب الأهلية. كما أن واقع التقسيم أفضل من جميع النواحي من واقع بلفاست"[٤].

إن إيراد هذه المقتبسات العديدة، وهي غيض من فيض ما تغص به الصحافة الإسرائيلية وسواها، يراد بها إظهار أن دعاوى الانفصال وحتى "التقسيم"، أصبحت أمراً مطروحاً ليس بالمعنى النظري فقط، بل إنها قد وجدت طريقها في التطبيق الفعلي، من قبل تلك المجموعات والأقليات اليهودية، كل بذاتها. وأمام ذلك، وجدت

(١) *المصدر ذاته، ص ٢٩٨.*

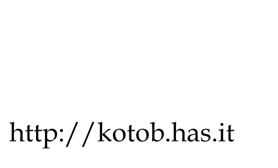
(٢) *انظر: مصطفى الحسيني: "صراع المتدينين والعلمانيين: خلفية وأبعاد". الملف، المجلد الثالث، العدد ٢٨/٤، تموز ١٩٨٦، ص ٣١١ - ٣١٨.*

(٣) *هآرتس ١٢ حزيران ١٩٨٦ عن الملف، المصدر السابق.*

(٤) *دافار ٢٣ حزيران ١٩٨٦ عن الملف، المصدر السابق.*

السلطة نفسها، أمام واقع فعلي مخالف تماماً لأهدافها ومراميها، فبدل الصهر والتماثل في البوتقة الصهيونية، تمحورت تلك الجماعات والأقليات نحو نفسها عبر عملية "العزل الذاتي"، لحماية خصوصياتها وسماتها الخاصة من سياسة الإكراه الشمولي - "التوتاليتاري" - الصهيونية، القائمة على إعادة صياغة تلك المجموعات والأقليات، بتفكيكها ومحو شخصيتها، وهويتها القومية - الإثنية والدينية - الطائفية - الثقافية، وإعادة تركيبها بما يخدم السلطة الاشكنازية حصراً.

وهكذا، ارتدت السياسة الصهيونية الاشكنازية العنصرية التمييزية، لتخلق واقعاً معاكساً لما استهدفته في الواقع العملي.



الفصل الثالث

الفصل والانعزال
الجغرافي – الديمغرافي

إن خصوصية الدولة الصهيونية، كونها "دولة مهاجرة"، تجمع في إطارها تعددية عرقية – قومية ودينية – إثنية – كما سبق وأوضحنا – قد انعكست على التوزيع الجغرافي – الديمغرافي لتلك المجموعات، التي أدركت بُعيد استيطانها في فلسطين، أن ما يجمعها أقل بكثير من عوامل تنافرها وفرقتها. كما وتتبين هشاشة العامل الديني المشترك، بفعل الاختلافات الجوهرية منها والشكلية في الاتجاهات الدينية اليهودية، منذ الأيام الأولى لعملية الاستيطان.

تعود أسباب الفصل الجغرافي – السكاني بين تلك المجموعات البشرية إلى عاملين أساسيين؛ أولهما: الفصل الذاتي والانعزال الذاتي؛ والثاني: السياسة الفصلية المبرمجة من قبل زعماء الصهيونية ودولة إسرائيل، في التوزيع القسري الإلزامي لجموع المستوطنين على أساس انتماءاتهم العرقية – القومية والدينية – الإثنية. ولذا نجد د. علي الدين هلال، يؤكد، بأن التنافر والفرقة بين تلك المجموعات غير المتجانسة قد انعكس على المستوى الجغرافي، "حيث تمركزت كل جماعة إثنية داخل مناطق مغلقة عليها"، ويضيف أن هذه الظاهرة تبدو واضحة في كل من إسرائيل وجنوب إفريقيا "سواءً على مستوى الواقع الفعلي أو على مستوى السياسات الحكومية، التي أصبحت تشجع مثل هذا النمو تحت شعار (الوحدة من خلال التنوع)"[١].

(١) د. علي الدين هلال: "تكوين إسرائيل – دراسة في أصول المجتمع الإسرائيلي". مطبعة دار الهلال. القاهرة. بدون تاريخ النشر، ص ١١١ – ١١٢.

سبق التعرض وتناول العامل الأول. وبودنا هنا أن نبين أبعاد وأهداف وأشكال تطبيق العامل الثاني، الذي يعتبر عملاً من أعمال الفصل الجغرافي والتمييز العنصريين.

كشف العديدون من البحاثة، عن خطة توزيع وإسكان المستوطنين المهاجرين، بدءاً من قيام الدولة الصهيونية، علماً، أن القائمين على تنفيذ سياسة وتطبيقات "استيعاب المهاجرين الجدد" كانوا من كبار قادة وموظفي "الوكالة اليهودية العالمية" والمنظمات المتخصصة المتفرعة عنها وعن المنظمة الصهيونية العالمية. ويكشف ميكائيل الباز الستار عن خطة توزيع السكان في الخمسينات، بالقول أن "تطبيقها أتى تمييزاً في الأساس، لأن الأكثرية الساحقة من سكان المستعمرات التي أنشأت في المناطق النائية والحدودية من شمال البلاد وجنوبها، كانت من المهاجرين الشرقيين"، ويضيف بأن ذلك "التوزيع المتحيز والتمييزي الذي جرى على المناطق، قام على أسس عنصرية"(١). ويكشف الكاتب اليهودي السيفاردي صموئيل تريفانو وكذلك الباحثة الفلسطينية هيلدا الصايغ والباحث الفلسطيني حبيب قهوجي بأن التوزيع السكاني كان يطبق بعد مرحلة "الإقامة المؤقتة" في "المعبرات" - وهي عبارة عن معسكرات تجميع للمهاجرين الجدد يقيمون فيها لفترة مؤقتة حتى يتسنى للسلطات الصهيونية وفي مقدمتها الوكالة اليهودية توزيعهم و"استيعابهم" - ويشير هؤلاء الباحثون إلى أن توزيع المهاجرين الشرقيين كان ينفذ "بشكل إلزامي حتمي"(٢) على تلك المناطق المذكورة سابقاً.

ويؤكد الباحث اليهودي *S. Eisenstadt* بأن الاعتبارات التي حكمت سياسة الاستيعاب الصهيونية تركزت في "الرغبة في تشكيل الحياة الاجتماعية للمهاجرين وفق أسس القيم والمؤسسات الاجتماعية القائمة"(٣)، أي وفق القيم والمؤسسات الصهيونية، التي أشادها المستوطنون الغربيون الذين سبقوا الشرقيين في القدوم إلى فلسطين. وترمي "سياسة الاستيعاب" تلك، إلى تحقيق أهداف الصهيونية، وذلك عبر خلق مواطنين على صورتها وكما تشتهي من جموع المستوطنين الجدد، وتطويعهم للحفاظ

(١) *ميكائيل الباز: "إعداد الإقليم وإكراه اليهود الشرقيين على التحول إلى طبقة البروليتاريا المستغلة". في كتاب مجموعة مؤلفين: "إسرائيل الثانية: المشكلة السفاردية". ترجمة فؤاد جديد. منشورات "فلسطين الثورة". بيروت، ١٩٨١، ص ١٠٧.*

(٢) *صموئيل تريفانو: "التناسق الشامل للدور السيفاردي - تحليل استراتيجي". في المصدر السابق: "إسرائيل الثانية..."، ص ٩٣، ١٩٨.*

وانظر: حبيب قهوجي: "بنية ومشاكل المجتمع الصهيوني..."، مصدر سابق، ص ٢٤.

(3) Eienstadt Sh,: "Israel Society...", p. 196.

على هيمنتها وسلطتها وتبدو هذه الحقيقة بارزة في كون أن (٨٧) موشافاً[١] اشكنازياً متجانساً أقيمت في أعوام ١٩٤٩ - ١٩٥٠، على الرغم من أن المهاجرين السفارديين في تلك الفترة بلغ تعدادهم (٧٥) ألف مهاجر[٢]. ويزيد الباحث الإسرائيلي حنان أنوش الصورة وضوحاً بتأكيده أنه من أصل (٢١٤) موشافاً أقيمت بين ١٩٤٨ - ١٩٦٣ هناك (١٦٣) منها شرقياً متجانساً، بلغ عدد سكانها عام ١٩٧٢ حوالي (٨٠) ألف نسمة. ويضيف مشيراً إلى حقيقة في غاية الأهمية، تكشف سياسة الفصل بين المجموعات العرقية - القومية والدينية - الطائفية، التي اتبعتها السلطات الصهيونية، وذلك بقوله أن تلك الموشافات "تتميز بتركيبة أحادية الطائفة"[٣]. وللتدليل على ذلك، تبدو الخارطة الفسيفسائية للمجموعات العرقية - القومية والدينية - الإثنية بارزة للعيان، والأمثلة كثيرة على ما نقول: فمستوطنة "رامات أفعال" تسكنها أغلبية عراقية؛ ومستوطنة "نيتيغوت" بأغلبية مراكشية؛ ومستوطنة "روش هاعين" بأغلبية يمنية؛ ومستوطنة "علما" بأغلبية ليبية؛ وكيبوتس "حوكوك" مغلق اشكنازي ما عدا يهودية شرقية واحدة متزوجة من أحدهم[٤].

والجدير ذكره، أن هذا "التوزيع السكاني" المبرمج، لم يأتِ وليد الصدفة، بل بخطة

(١) الموشاف – Mushav – الجمع: موشافيم.

ظهرت لأول مرة عام ١٩٢١، وهو عبارة عن أرض يملكها الصندوق القومي اليهودي أو الحكومة أو الوكالة اليهودية. ويتم تقسيمها إلى شرائح ومساحات صغيرة، تعطي كل منها لعضو في الموشاف، ليعيش وعائلته فيها؛ في سكن خاص ويحصل من تلك الأرض على دخله الخاص.

تشبه القرى الصغيرة، والعمل فيها جماعي، ويوزع دخل العمل على الأعضاء العاملين، ويأخذ كل عضو مبلغاً من المال شهرياً لإنفاقه بمقدار الوضع المالي أو بحسب ميزانية الموشاف.

تقوم الموشافيم على أربعة مبادئ، مفروضة من الجهات الرسمية – الوكالة اليهودية، الصندوق القومي والحكومة – وهي:

١ – ملكية الأرض "قومية" – "للشعب اليهودي"، تؤجر لمدة (٤٩) عاماً تكون قابلة للتجديد؛ وليس للمستأجر الحق في بيعها أو تكبيرها أو التنازل عنها، إلا بموافقة السلطة المالكة لها؛

٢ – يقوم بالعمل في تلك الأرض، هو وعائلته، ولا يجوز استئجار عمال من خارج الموشاف، إلا بموافقة الأعضاء؛

٣ – المسؤولية مشتركة، وشراء الضروريات مشتركة، واستخدام المكائن والآلات مشترك أيضاً.

انظر للتفصيل: مجلة "الدراسات الفلسطينية". بغداد، العدد ٤٠ – ٤١ لعام ١٩٨١، ص ١٢٦ وما بعدها.

(٢) هلدا صايغ: "التمييز العنصري..."، مصدر سابق، ص ٩٦.

(٣) حنان أنوش: "الطوائف الشرقية في البنية الطبقية للمجتمع الإسرائيلي". ترجمة ونشر: "نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية". العدد (٣) ١٩٨١، ص ١٨٠.

(٤) انظر دراستنا: "اليهود السود..."، مصدر سابق، الحلقة الأولى، ص ٤٦.

محكمة، أخذت بعين الاعتبار طبيعة تلك المناطق من حيث صلاحياتها للزراعة أو وجود التصنيع فيها، أو الأخطار الأمنية بفعل الحرب الفدائية الفلسطينية ومجاورتها لحدود الدول العربية. كل هذا بتمييز واضح بين أبرز تلك المجموعات بتفرعاتها - الغربية والشرقية. وفي هذا الصدد يذكر الباحثان الإسرائيليان د. سفيرسكي و د. برنشتين أن نصف موشافات الشرقيين قائم في منطقة الساحل، مقابل ١٧٪ في منطقة النقب الصحراوية و٢٦٪ في جبال يهودا والجليل الوعرة والخطرة أمنياً. بينما تتوزع الموشافات الغربية، كالتالي: ٨٦٪ في المنطقة الأولى، ٤٪ في الثانية و١٦٪ في الثالثة[١].

ولذا يستنتج ميكائيل الباز بأن الخطة الصهيونية لتوزيع الشرقيين "واستقرارهم الجغرافي لم يؤد إلا إلى إعادة إنتاجه (المتخلف) من جديد"[٢]. وبهذا، استطاعت الصهيونية فرض "التخلف الوراثي" على الشرقيين، والسيطرة عليهم لخدمة مصالحها الغربية، كما سنرى لاحقاً.

لم تكن خطة "توزيع السكان" هذه حالة استثنائية في تلك المرحلة فقط، بل هي تعبير مبرمج للأهداف الاستراتيجية الصهيونية، وفي المقدمة منها النمو المنفصل لتلك المجموعات، والتي ما تزال قائمة حتى يومنا هذا. ففي شهر كانون أول - ديسمبر - عام ١٩٨٥، هدد حزبا "أغودات يسرائيل" و"موراشاه" بالانسحاب من الائتلاف الحكومي إذا لم تتوقف أعمال إقامة مستوطنة خاصة بطائفة المورمن في منطقة القدس.

ذكرت مصادر الأرض المحتلة[٣] أن ما يسمى بـ"دائرة أراضي إسرائيل" صادقت مؤخراً للأحزاب الدينية المتشددة "شاس" و"اغودات يسرائيل" و"ديغل هتوراة"، على بناء ٢١٠٠ وحدة سكنية استيطانية في تلة شعفاط شمال القدس، على أراض منحت لتلك الأحزاب مجاناً.

وأضافت المصادر أن "اغودات يسرائيل" حصلت على موافقة وزارة الإسكان التي يقف على رأسها المتشدد آرئيل شارون على بناء ٦١٨ وحدة سكنية، فيما حصلت "ديغل هتوراة" على مصادقة لبناء ٥٨٧ وحدة، وحركة شاس على مصادقة لبناء ٥٧٨ وحدة

(١) *انظر: حنان أنوش، المصدر السابق، ص ١٨٠.*

(٢) *ميكائيل الباز: "إعداد الإقليم وإكراه اليهود الشرقيين..."، مصدر سابق، ص ١١٣.*

(٣) *صحيفة "الدستور" الأردنية، بتاريخ ٣٠ حزيران ١٩٩١.*

سكنية أخرى، والحركة الدينية "حباد" ٢٠٨ وحدات سكنية.

وقال تلفزيون العدو أن هذه هي المرة الأولى التي تمنح بها "دائرة أراضي إسرائيل" أراضي على خلفية حزبية خالصة.

ونقل التلفزيون عن وزارة الإسكان تعقيبها على هذا بأن تلة شعفاط ولأسباب عديدة خصصت لاستيطان العناصر الدينية، وذلك بالتنسيق مع بلدية القدس.

إن الموافقة الإسرائيلية الرسمية، على إقامة هذه المستوطنات الحزبية لبعض الكتل الدينية، والتي تتميز تماماً بطابع طائفي - إثني، قد جاءت تتويجاً لمطالب قديمة - جديدة فتلك الكتل والأحزاب تخوض صراعاً طائفياً - إثنياً لتعزيز مكانتها وسيطرتها على المدينة المقدسة. وكان اليشع أفرات قد كشف عن ذلك مبكراً(١).

يتناول أفرات وضع القدس، مؤكداً أنها مقسمة إلى "ثلاث مجموعات مهيمنة من السكان (...) ولهؤلاء نمط حياة مختلف بالكامل، ومصالح اجتماعية وثقافية متباينة؛ وحتى سيطرة على مناطق منفصلة مما يخلق تقريباً ثلاثة أنواع من سكان القدس"؛ أي العرب من جهة، واليهود المتزمتين - الاكليريكيين (حراديم)، واليهود العلمانيين. ويتبين أن "الحراديم يحتلون الأحياء الصغيرة التي يشكلون فيها أغلبية"، الأمر الذي ينطبق أيضاً على المجموعتين الأخرتين. وما أسماه بـ"الانتشار المناطقي" لهؤلاء، والذي يتحرك دوماً باتجاه التوسع على حساب طائفة لصالح طائفة أخرى، وخاصة في مناطق التخوم والتقاطع. فهؤلاء "محاطون بفسيفساء معقدة من الوحدات السكنية" المنفصلة تماماً بين كل مجموعة. ويتناول اليشع بالتفصيل تلك التوزيعات المتواصلة طائفياً وإثنياً، وكذلك ما أسماه بـ"ثغور" التماس والتخوم فيما بينها.

ويطرح اليشع احتمالات تطور المواجهة بين تلك المجموعات، - والتي تنقسم هي بذاتها وكل منها تنقسم إلى مجموعات عرقية - إثنية ودينية - طائفية - فيعتقد بأن المواجهة ستتمركز بين المجموعات اليهودية؛ حيث ستعمل المجموعات "الحرادية" على التوسع الجغرافي - السكاني على حساب المجموعات العلمانية. وهو ما حصل ويحصل فعلاً.

(١) اليشع افرات: *"القدس: واحدة، اثنتان أم ثلاث"*. هآرتس ٣٠ أيلول ١٩٨٧. عن: *"نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية"*، السنة الرابعة عشرة، العدد (١٠) تشرين الأول ١٩٨٧، ص ٧٧١ — ٧٧٢.

ومدينة القدس، تشكل نموذجاً ذا دلالة خاصة على توزع والتمحور الانفصالي - الانعزالي بين تلك المجموعات والأقليات؛ خاصة وأن نحو ما يزيدد عن ثلث سكانها يتمحورون في أحياء وأطر دينية - طائفية، وعنصرية - إثنية، وهو ما يطلق الصهاينة عادة بـ"التركيبة الفسيفسائية". ويجهد هؤلاء لجعل تلك الصورة تتخذ صفة النزاعات الدينية أو الدينية والعلمانية؛ علماً أنها في جوهرها ومساراتها الأساسية، ليست سوى نموذجاً للصراعات العرقية - الإثنية والدينية - الطائفية والثقافية - الحضارية بين المجموعات والأقليات اليهودية.

يتناول تيدي كوليك هذا الوضع، وهو الأعلم، كونه رئيس البلدية منذ عقود، ففي مقالة فريدة، ربما يكشف كوليك عن حقيقة إن مدينة القدس قد أبقت على "التمايز الذاتي للمجتمعات المستقلة، العضوية والتاريخية؛ كل بدينه ولغته وأدبه وتاريخه وأزيائه وطعامه"، وحتى في إطار "أحياء منفصلة". وتظهر عنصرية كوليك في ادعائه أن يهود البلدان الإسلامية من أفغانستان إلى المغرب، ومن شرق أوروبا وأمريكا اللاتينية، يفتقرون "إلى التقاليد الديمقراطية"، كونهم كما يعترف "كانوا على الدوام لا يثقون في أجهزة الدولة؛ وقد استمروا في البقاء بخلق مجتمعات مستقلة مكتفية بذاتها، وكان قادتها يمثلونها لدى العالم الخارجي والدولة"(١).

إن التمعن في اعتراف كوليك هذا، يكشف بأن الانفصال والتنمية المنفصلة، قد قطعت أشواطاً كبيرة في المجموعات العنصرية - الإثنية والدينية - الطائفية - الثقافية اليهودية؛ فهو يؤكد أنها مستمرة في خلق "مجتمعات مستقلة مكتفية بذاتها". ولكن الأبرز في أقوال كوليك يتمثل في أن التنمية المنفصلة لتلك المجموعات والأقليات، قد وصلت إلى مستوى فرز قيادتها لتمثيلها داخلياً مع سلطات الحكم الاشكنازي؛ ولتقوم بتمثيلها "لدى العالم الخارجي" أيضاً (؟!). وإن كان حقاً ما يقوله كوليك، فإنه يعني أن الفصل والتنمية المنفصلة، قد وصلت لدى تلك المجموعات والأقليات، إلى المستوى الأعلى، خاصة وأنه يقول بأن "اليهود الذين جاؤوا من (١٠٣) شتات، متباينين بصورة واسعة".

(١) *تيدي كوليك: "التشارك في القدس المقدسة". ترجمة مركز التخطيط التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية. التقرير رقم ١٩٨٩/١٣، بتاريخ ١٩٨٩/١٠/١١؛ عن مجلة "فورين أفيرز"، مجلد (٦٧)، العدد (٢)، ص ٩، ١٣.*

وإن كانت "القدس ليست بوتقة انصهار" كما يؤكد كوليك، فإنه يفضل ويطالب بـ"الحفاظ على مجاوراتنا (التعبير الملطف لأحياء العزل المنفصلة - ك. ق.) المتباينة، وفق رغبات سكانها الحاليين"؛ واستكمال "تشكيل مجالس المجاورات التي سميت (منيهالوت)" لكل من تلك الأحياء المنفصلة، والتي تنفرد فيها، عموماً، واحدة من تلك المجموعات والأقليات العرقية - الإثنية والدينية - الطائفية اليهودية. و"المينهالوت" هذا هو شكل من أشكال الإدارة الذاتية لتلك المجموعات والأقليات و"كأطر للامركزية"، وصيغة من صيغ "التقسيم الوظيفي للسلطة"، كما يقول كوليك. ويستطرد بقوله: "إن القدس كبيرة، بما يكفي لتتسع بضعة أعلام بجانب علم إسرائيل" (؟!!؟).

إن القول الأخير لكوليك، يضيف جديداً في الرؤيا الصهيونية، بشأن مسارات الصراع العنصري - الإثني والديني - الطائفي. فهو يعطيهم، بل وواقع الحال أنهم قد انتزعوا إدارتهم الذاتية، وانعزالهم السكاني - الجغرافي في أحياء منفصلة، حيث تجري هناك عمليات "التنمية المنفصلة". وكوليك - كرئيس للبلدية - يدعو لتنظيم هذا الانفصال والانعزال، عبر ربط جزئياته وأطرافه المتناثرة والمتباينة والمتصارعة، في إطار إداري - لامركزي، تحت مجموعة من "الأعلام" إلى جانب "العلم الإسرائيلي". وإن كانت بعض تلك "المجاورات" - الأحياء - قد انفصلت جغرافياً وسكانياً، وتدير عمليات "التنمية المنفصلة" في إطار كل منها، ولها ممثليها لدى السلطة المركزية ولدى العالم الخارجي، ويدعو كوليك لرفع صواري أعلامها؛ فما الذي بقي يا ترى لاستكمال استقلال المجموعات والأقليات تلك (؟!). يحدد ويكشف كوليك عن ذلك الجزء المتبقي، في ثلاث قضايا أساسية، وهي:

أولاً: الانتخابات المباشرة للمينهالوت

يدعو كوليك لهذا، حتى تحدد الانتخابات هذه و"تضمن تحديد الطابع الديني واللغوي والإثني والثقافي والتعليمي والاقتصادي، لكل مجاورة (...) بواسطة سكانها ووفق عاداتهم - وهو عامل هام للتعايش السلمي"[1].

بهذا، فإن الانتخابات المباشرة لإدارة كل حي وتجمع عرقي - إثني وديني - طائفي،

(١) المصدر نفسه، ص ١١ و١٢ و١٤ و١٦.

ستحدد طابعه من كافة الجوانب. وتبرز في القضايا التي يتوجب تحديدها وضمانها، كافة عناصر ومكونات الشعوب والأمم والأقليات؛ والتي تنسحب عملياً على المجموعات اليهودية ذاتها، من حيث أصولها العرقية وتنوعها اللغوي والثقافي والتعليمي، والإثني والديني الطائفي. وبموجب هذه الانتخابات المباشرة، يقدر "المينهالوت" تحديد وضمان طابع كل "مجاورة"، يتم ضمانه من قبل المجلس البلدي العام، والممثل لكافتها. ولعل في قول كوليك أن ذلك سيشكل "عاملاً هاماً للتعايش السلمي" (؟!)، ما يفصح عن مدى التناقض التناحري الكامن بين تلك المجموعات والأقليات اليهودية.

ثانياً: إضفاء الطابع المؤسسي

وحتى يتم إنجاز ذلك وضمانه، فإن كوليك يدعو لـ"إضفاء طابع مؤسسي على الاجراءات القائمة، وأن توسع بسخاء نطاق تطبيقها، حتى تظهر في نهاية المطاف مجموعة متكاملة من الحقوق تحل محل الترتيبات الحالية"(١). وهو بذلك يدعو الحكومة والسلطات الصهيونية لإقرار صيغة "التنمية المنفصلة" رسمياً ومؤسساتياً؛ ويدعوها لدفع عملية الانفصال هذه قدماً وتشجيعها(٢). وفي هذا الإطار، فإنه يدعو أيضاً لإلغاء "الترتيبات الحالية" الإدارية والقانونية - الحقوقية في المدينة المقدسة، واستبدالها بـ"مجموعة متكاملة من الحقوق" الأخرى، التي تنسجم تماماً مع "التنمية المنفصلة" للأحياء العرقية - الإثنية والدينية - الطائفية والحضارية - الثقافية. أي أنه يطالب رسمياً، باستبدال سياسة وقوانين صهر وتمثل تلك المجموعات، بسياسة وقوانين الفصل والتنمية المنفصلة، للمجموعات اليهودية المختلفة(٣).

(١) المصدر نفسه، ص ١٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٧.

(٣) تيدي كوليك لا يطالب بالفصل والتنمية المنفصلة بين المجموعات والأقليات اليهودية فحسب، بل كذلك والعربية أيضاً. ويحاول كوليك فرض واستنساخ التنافر والصراع بين الأقليات والمجموعات اليهودية، على العرب الفلسطينيين هناك أيضاً. فهو مثلاً يصل إلى حد الادعاء بأنهم يتحدثون "باعتبارهم جوزيين (من وادي الجوز)، أو طوريين (من وادي طور). إنهم يتوحدون مع مجتمعات قراهم ولا يتحدثون عن أنفسهم باعتبارهم مقدسيين" (؟!!)... ويستطرد ليمزق الفلسطينيون المسيحيون كل حسب طائفته - علماً أنه لم يسبق منذ مئات السنين وأن تناقضت تلك الطوائف فيما بينها، أو فيما بينها وبين الطوائف والملل الإسلامية - فيقول: "ولا يستطيع المرء أن يتحدث عن مجتمع مسيحي واحد، وإنما فقط عن اليونان والأرمن واللاتين والمجتمعات الأخرى." (صفحة ١٠). ويستطرد في مكان آخر ليدعي فيه أن الفلسطينيين المسيحيين ينقسمون إلى أربعين مجموعة. (صفحة ١٣).

ويدعو الفلسطينيين، لقبول مقترحاته، باعتبارها الصيغة الوحيدة التي تضمن لهم إدارتهم الذاتية؛ وذلك بتأكيده على التمييز وانتهاك حقوقهم الأساسية من قبل السلطات، الذي قد يستمر إذا لم يقبلوا بصيغ "المينهالوت"، لأنه "لن تستطيع أي حكومة أن ترسخ في القانون، حقوق الأقليات غير اليهودية في القدس. ربما لأنه لن يمكن تعبئة أغلبية كافية في الكنيست، لإصدار مثل هذا القانون" - كما يقول كوليك ذاته. (ص ٢٢).

ثالثاً: ضمانات دولية

وهكذا، بعدما تتم الخطوتين السابقتين، وترتسم الصورة الفسيفسائية للجيوب والأحياء العرقية – الإثنية والدينية – الطائفية، وتحدد طبيعتها المنفصلة ولامركزيتها مع السلطات المركزية، نستطيع "إذا أعربت حكومات أخرى عن تأييدها لهذه الحقوق، أن (نحصل) على بعض (الضمانات الدولية)، التي يكثر ذكرها بالنسبة للقدس"(١).(؟!!)

لم يتطرق كوليك إلى من ستشمله "الضمانات الدولية"، وإذا كانت ستقتصر على الفلسطينيين العرب، أم على جميع تلك الأحياء المنفصلة وإدارتها الذاتية – المينهالوت –. ومع الأخذ بعين الاعتبار أن بعض تلك المجموعات اليهودية تطالب بهكذا "ضمانات" وحق "حماية دولية" ولا تعترف بالكيان الصهيوني عموماً، كطائفة ناطوري كارتا؛ فإن ما يقصده قد يمتد إلى عدد كبير من المجموعات والأقليات اليهودية.

إن ما يطرحه كوليك، وغيره من الإسرائيليين الذين يستشرفون مسارات الانفصال والانعزال للمجتمعات والأقليات ذات الديانة اليهودية، شبيه كل الشبه بتطور فكرة ونظام "التنمية المنفصلة" – الأبرثايد – في بريتوريا. ورب محاولة لمقارنة هذه الوقائع والمسارات الراهنة والمستقبلية، لديناميات التفاعل بين تلك المجموعات والأقليات، ومحاولة إلغاء نظريات وسياسات الصهر الصهيونية بعد اكتشاف عدم إمكانية تحقيقها، والمطالبة بإلغاء "النظام الحالي" واستبداله بـ"مجموعة متكاملة من الحقوق" الأخرى التي تحقق وتضمن الانفصال والتنمية المنفصلة؛ مع نظام البانتوستانات الجنوب إفريقية، تكشف طبيعة السياسة الفصلية الصهيونية الراهنة والمستقبلية.

فالتوزيع الجغرافي – السكاني، كان أساسه أصلاً ونتيجة لسياسة وخطط الاستيعاب الاشكنازية الرسمية، وتطور إلى العزل والانفصال الذاتي. والمقترحات والدعوات سابقة الذكر تسعى لقوننة هذا التطور عبر قوانين جديدة. وتحضرنا هنا، قوانين البانتولاند لعام ١٩٦٤ وقوانين المناطق المجتمعية لعام ١٩٥٠، وقوانين الأرض لعام ١٩١٣ و١٩٣٦ في جنوب إفريقيا(٢). ففي الوقت الذي يقوم فيه نظام الأبرثايد

(١) المصدر السابق، ص ١٧.

(٢) انظر للتفصيل: إحسان الكيالي: "العنصرية والفصل العنصري في جنوب إفريقيا وإسرائيل – دراسة مقارنة". دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر. دمشق، ١٩٨٧، ص ٥٩ – ٦٧ وغيرها.

– وليد عبد الناصر: "جنوب إفريقيا وتصفية الأبارتيد". مجلة "السياسات الدولية"، العدد (١٠٥) حزيران ١٩٩١، ص ٦٢ – ٨٠.

(التنمية المنفصلة)، بإلغاء هذه القوانين، كما تفعل ووعد دي كليرك – رئيس جنوب إفريقيا – في خطابه البرلماني في الأول من شباط عام ١٩٩١؛ فإن التطبيقات الفعلية لها ولمضامينها تدب في التركيب المجتمعي الاستيطاني الصهيوني، ويدعو الصهاينة لقوننتها عبر "مجموعة متكاملة من الحقوق" (؟!!).

فالأحياء والتجمعات السكانية اليهودية في القدس – وهي نموذج لواقع التركيبة الصهيونية في المناطق والمدن الإسرائيلية الأخرى – قد تتطور، وهي حقاً كذلك، إلى شبيه ببانتوستانات جنوب إفريقيا، حيث انفردت المجموعات العرقية – الإثنية في كل منها، ودفع ببعضها لاعتبارها كيانات مستقلة – فندا، ترانسكاي، سيسكاي، بوفوتاتسونا –. فهل ستتطور مقترحات كوليك وعديد الإسرائيليين سواه، إلى هكذا سياسة رسمية تتبنى "التنمية المنفصلة" للمجموعات والأقليات ذات الديانة اليهودية – والإسلامية والمسيحية كما يطالب كوليك –؟! إن الإجابة على ذلك، ستبقى رهناً بالتطورات المجتمعية الكامنة في تجمع الاستيطان الصهيوني، والتي ستظهر على السطح أكثر فأكثر في المرحلة القادمة.

وفي مجال المقارنة مع نظام الأبرثايد، عادة ما يرتبط هذا النظام الفصلي بمصطلحات "الغيتو" – الأحياء المنفصلة –؛ فكيف تبدو صور تلك الغيتوات والأحياء المنفصلة في نظام الفصل الصهيوني تجاه المجموعات والأقليات اليهودية في إسرائيل (؟!!؟).

إن مسألة "الغيتوات" أو ما تسمى رسمياً بـ"أحياء الضائقة"، تمثل مظهراً سافراً من مظاهر الفصل والتمييز بين تلك المجموعات. إذ أن ميكائيل الباز يصف التجمعات الشرقية في ضواحي المدن بـ"الخرام الأسود" و"الأحياء العرقية"[1]، أما الباحث كارل بلويس فإنه يصفها بـ"الأحياء العرقية" و"الأحياء القذرة"، ويقارن بينها وبين "أسوأ معازل الملونين في الولايات المتحدة الأمريكية"[2].

(١) ميكائيل الباز، مصدر سابق، ص ١١٣.

(٢) كارل بلويس: "الوهم والواقع"، في كتاب: "الصهيونية: الحقيقة والاختلاقات..."، مصدر سابق، ص ١٧٦.

إن أبرز الغيتوات، هو الغيتو الزنجي في ديمونه، والذي يتكون من بعض طائفة يهود ليبيريا والولايات المتحدة، الذين استوطنوا فيه في أواخر الستينات وبداية السبعينات. ويصف أمير رونر نفليت في سلسلة مقالاته حول "الغيتو الزنجي في ديمونه"، حالتهم المأساوية، وانعزالهم العنصري من جهة وسياسة الفصل العنصري الصهيونية تجاههم. فالسلطات الرسمية والبلدية لا تعتبرهم مواطنين في الدولة، وترفض منحهم الجنسية، ويُرفض قبول أبنائهم في المدارس، ولذا حوّلوا الملاجئ إلى مدارس وهم يقومون بتعليمهم. ويعترف رئيس بلدية ديمونه إيلي هاليلي أن سكان الغيتو "لا تطبق عليهم قوانين الدولة"، ويضيف: "تقيم في المدينة جالية منطوية، مثل دولة في داخل دولة، والتي تدير حياتها مثل الحكم الذاتي، دون أية واجبات تجاه الدولة"، ويؤكد بأنهم لا يدفعون الضرائب، وليس ثمة إشراف عليهم، ولا يُعرف عددهم الدقيق لأنهم ليسوا مواطنين، ولا يحملون تذاكر هوية[١]. أما الباحثة والصحفية يوئيلا هارشافي فكتبت بأن الزنوج قد عُزلوا عن المجتمع، بحيث أنهم يكتفون بالخضروات والفواكه التي يزرعونها، أما ملابسهم الزاهية فيحيكونها بأنفسهم، كما بدأوا بصنع الأحذية التي يلبسونها[٢]. وتضيف هارشافي بأن الدولة الصهيونية، كما والمجموعات السكانية الأخرى "تعاملهم على أساس عنصري".

إن هذا الغيتو الزنجي ليس وحيداً، بل هناك غيتوان زنجيان آخران وهما عراد ومتسبيه ريمون بالقرب من مدينة بئر السبع الصحراوية النائية. بُعيد تصريحات زعيم الطائفة الزنجية بن عمي كارتر بأنه سيعمل على تهجير ملايين اليهود الزنوج إلى إسرائيل، وأن بقية يهود الطوائف الأخرى يجب أن يحتذوا أصول الديانة اليهودية منه، أثارت الجهات العنصرية - الاكليريكية قضية الزنوج في الكنيست، فشكلت لجنة تحقيق (لجنة دافيد جلاس) للتحقيق في "الوضع القانوني لتواجد الزنوج العبريين في البلاد، وظروف سكنهم وعملهم وعلاقاتهم مع جيرانهم"، والتي تتوجت بتوجيه في حزيران ١٩٨٠ يوصي "بنقل جميع عناصر هذه الطائفة بصورة عاجلة إلى مستوطنة

(١) أمير رونرنغليت: *"الغيتو الزنجي في ديمونه"*. ترجمة ونشر، مجلة *"الأرض"*. العدد (١٤) ٧/٤/١٩٨٤، ص ٤٥ - ٤٨.

(٢) يوئيلا هارشافي: *"الزنوج الصهاينة"*. في صحيفة *"معاريف"* بتاريخ ٢١ آذار ١٩٨٠. ترجمة ونشر *"دار الجليل"*. عمان، في التقرير رقم (٢٤٠) بتاريخ ١٠ أيار ١٩٨٠.

طائفية قروية خاصة، مثل المستوطنات الطائفية في يهودا والسامرة (أي - الضفة الغربية - ك. ق.) ومنحهم مكانة خاصة"[١].

والغيتوات أو "أحياء الضائقة" تلك تنتشر كالحزام حول المدن الرئيسية الثلاث الكبرى في المنطقة الوسطى، وفي الأحياء العربية - الفلسطينية القديمة التي هُجر سكانها عامي ١٩٤٨ - ١٩٤٩، وهي بأغلبيتها الآن، غيتوات شرقية. وفي سياق خطة "توزيع السكان"، يكشف الكاتبان سفيرسكي وساره كتسير أن ٧٠٪ من السفاردين قد تم إسكانهم في أطراف وأحياء المدن تلك[٢]. ففي منطقة مدينة القدس مثلاً، توجد خمسة غيتوات - أحياء عرقية، وفي منطقة تل أبيب تنتشر الأحياء العرقية مشكلة حزاماً فسيفسائياً. ولقد ظهرت في هذه الأحياء تحديداً، الحركات والانتفاضات الاحتجاجية من قبل اليهود الشرقيين، ولعل أبرزها: أحداث غيتو وادي الصليب في حيفا تموز عام ١٩٥٩، والذي بأغلبيته الديمغرافية من يهود دول شمال إفريقيا، وذلك احتجاجاً على أوضاعهم السكنية والاجتماعية السيئة؛ أحداث غيتو - حي حتكفا في تل أبيب في أوائل صيف عام ١٩٦٥ بسبب إيقاف المواصلات في الحي والذي كانت نتيجته تدمير العديد من باصات شركة الحكومة؛ ولعل في مظاهرات شتاء عام ١٩٦٧، ما له دلالات هامة، إذ انتفض يهود اليمن في مستعمرة "توحيليت" إحدى غيتوات منطقة تل أبيب بسبب قرار ترحيلهم بناءً على طلب مستعمرة "كفار حاباد" الاشكنازية المجاورة. ولقد قام يهود اليمن هؤلاء وبتضامن من يهود اليمن الآخرين في إسرائيل، بنصب ستة خيام أمام الكنيست، والاعتصام فيها لمدة شهر كامل في ظروف البرد والصقيع[٣]. ولعل أبرز حالات الاحتجاج تلك، هي حركة "الفهود السود" التي انطلقت من غيتو - حي المصرارة في مدينة القدس في آذار ١٩٧١، وكذلك مجموعات "هؤهاليم" أعوام ١٩٧٩ - ١٩٨٠. ولقد أنشأت حركة "مأفاك ٨٥" وتعني "النضال ٨٥"، والتي تضم عدداً من التنظيمات، ونشيطي الأحياء الفقيرة، والمدن التطويرية، وحركة الفهود السود، وحركة "شاحاك" و"الفهود الموحدين" و"جبهة الأحياء" وشخصيات مستقلة أخرى، وأخيراً، بهدف النضال

(١) *أمير رونرنغليت، مصدر سابق.*

(٢) *"أحياء الضائقة في الكيان الصهيوني". مجلة "الأرض". العدد (١٠) ١٩٨٢/٢/٧، ص ٢١.*

(٣) *المصدر نفسه، ص ٢٧.*

ضد سياسات السلطة الصهيونية حيالهم، وحيال الغيتوات - الأحياء و"مدن التطوير" التي تعاني من أزمة سكنية واجتماعية وخدماتية في غاية السوء والقسوة(١).

بفعل تلك الانتفاضات الشرقية، أقرت الكنيست "قانون بناء وإخلاء مناطق الإصلاح السكنية عام ١٩٦٥" عين بموجبه ثلاثة غيتوات - أحياء فقط، علماً أن اللجنة المكلفة بتنفيذ القانون قد حددت قائمة بـ (١٦٠) غيتواً - حياً. ورغم ذلك، بقي القانون واللجنة حبراً على ورق. ومع تفاقم الأزمة، ابتدعت السلطات الصهيونية عام ١٩٧٦ "وحدة إصلاح الأحياء" في إطار وزارة الإسكان، بواسطة الشركات الحكومية - البلدية، وهي بدورها فشلت في جهودها لتقتير وزارة الإسكان في المستحقات المالية. وفي عام ١٩٧٧ وكذلك عام ١٩٨١، تصدر مناحيم بيغن في حملاته الانتخابية، وديماغوجيته السافرة لكسب أصوات اليهود الشرقيين، شعارات ووعود تصفية غيتوات - أحياء الضائقة، ولكنها ما تزال قائمة حتى يومنا هذا(٢).

ولزيادة توضح أوضاع الغيتوات - الأحياء تلك، يذكر حنان أنوش بأن "٣٠ ألف من فتيان الضائقة بين أعمار ١٤ - ١٨ عاماً لا يتعلمون ولا يعملون، وتنتشر بينهم الجريمة والمخدرات وتجارة الجنس"(٣)، كما وتعيش تلك الغيتوات - الأحياء في ظروف ازدحام خانقة. ففي غيتوات منطقة تل أبيب السفاردية لوحدها، أدى الازدحام الخانق بسكانها إلى بناء (٦) آلاف منزل وبناء غير مرخص حتى عام ١٩٧٧، وأن (٢٥) ألف أسرة تعيش في ظروف ازدحام خانقة. ولا تتورع السلطات الصهيونية من تنفيذ سياستها الإسكانية تجاه العرب الفلسطينيين في غيتوات المدن المختلطة، على غيتوات اليهود الشرقيين أيضاً، ولذا تصدر القرارات بهدم تلك البيوت غير المرخصة، وتمنع أهاليها من إجراء تحسينات أو إضافة غرفة إضافية. ولعل في حادثة قتل يهودي يمني في غيتو كفار شاليم يوم ١٩٨٢/١٢/١٣ عند محاولته للدفاع عن بيته غير المرخص، ومنع السلطات من هدمه، مثال حي على ذلك، حيث تبع ذلك مظاهرات صاخبة في أحياء الشرقيين وأعمال عنف وتحطيم السيارات... الخ(٤).

(١) *مجلة "فلسطين الثورة". العدد (٥٤٥) ١٩٨٥/٢/١٦، ص ٢٦.*

(٢) *"أحياء الضائقة..."، مصدر سابق، ص ٢٢.*

(٣) *حنان أنوش، مصدر سابق.*

(٤) *مجلة "الأرض". العدد (١٠) ١٩٨٣/٢/٧، ص ٣٦ - ٣٧.*

زادت هذه الحركات الاحتجاجية من تخوف النخبة الاشكنازية - الغربية، من تململ المجموعات السفاردية - الشرقية، واحتجاجاتها التي اتخذت الشكل المنظم على السياسات العنصرية - الفصلية ضدهم، ولذا أقدمت على سن تشريع آخر يقضي بزيادة ميزانيات ما أطلقت عليها بـ"مدن ومناطق التطوير". وحتى يتوضح الفرق بين تلك المناطق والمدن الخاضعة "للتطوير".. وتلك العادية مثلها، نورد ما كتباه الباحثان الإسرائيليان سفيرسكي وكتسير، إذ يقولان: "... ومستوى الدخل فيها منخفض... ومستوى الخدمات الثقافية أكثر انخفاضاً... ومستوى الخدمات والمنشآت الصحية، كما أن عدد الأطباء لكل نسمة، أكثر انخفاضاً فيها من وسط البلاد. وحالة السكن فيها متدنية أكثر في نوعيتها، والازدحام أعلى بكثير مما هو في الدولة عامة... كذلك فالخدمات البلدية فيها أقل مما هي عليه في وسط البلاد، وكذلك فإن الإنفاق على النشاطات الثقافية والصحية والتعليمية لكل نسمة أقل بكثير"[1]. والجدير ذكره، أن الغالبية العظمى من سكان مدن ومناطق التطوير هم من الشرقيين، إذ يشكلون ٧٠,٣٪، أما الغربيون فلا تزيد نسبتهم عن ٢٩,٧٪. كما ويجب الانتباه إلى أن نسبة الغربيين في تلك المدن القائمة في منطقة النقب ضئيلة حتى تصل في نتيغوت إلى ٢,١٪ وفي أوفاكين ٥,٦٪ من السكان. وهم أيضاً قليلون في تلك المدن في الأطراف الشمالية الخطرة أمنياً، إذ لا تزيد نسبتهم عن ٥,٦٪ في حتسور في الجليل الشرقي، و٣,٢٪ في معلوت بالجليل الأعلى الغربي[2].

هكذا ترتسم معالم التقسيم والتوزيع الجغرافي - السكاني بين المجموعات والأقليات اليهودية، العرقية - الإثنية والدينية - الطائفية. والرسم الفسيفسائي هذا يصعب تحديد معالمه على الخارطة الجغرافية، لجزئياته وتناثره الشديد وتموقعه المختلف.

وطالما أن سياسة "الصهر والتمثل" الاشكنازية الصهيونية قد ثبت فشلها واستحالة تحقيقها؛ فإنها تترك المجال راهناً ومستقبلاً لسياسة "التنمية المنفصلة"، ذات

(١) *حنان أنوش، مصدر سابق، ص ١٦٩.*

(٢) *مجلة "الأرض". العدد (١) ١٩٨٣/٩/٢١، ص ٢٨.*

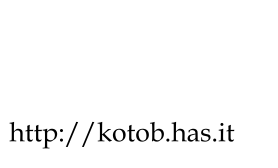
الاتجاهين اللذين يصبان في محصلة واحدة. والاتجاه الأول، يتمثل في التوزيع الرسمي للمهاجرين الجدد، عبر عمليات استيعابهم، بما ينسجم وتموقع أفراد مجموعاتهم وأقلياتهم الذين سبقوهم في الهجرة؛ حتى تضمن السلطات نجاح عمليات الاستيعاب، من جهة، واستقرار تلك المجموعات والأقليات، وإبقاء التناقض كامناً معها، من جهة أخرى.

أما الاتجاه الثاني، فهو العزل والفصل الذاتي والميكانيكي، بين تلك الأقليات والمجموعات، واستقطاب أفرادها في أطرها الجغرافية - السكانية، وأطرها التنظيمية الذاتية؛ مما يؤدي بدوره، إلى التموقع والانفصال الفعلي بين المجموعات ذاتها.

وإن كانت السلطات الاشكنازية - كونها القائمة على مقاليد الحكم - وتنتهج سياسات استيعابية حسب الانتماءات والأصول العرقية - الإثنية والحضارية - الثقافية، من جهة، وتغض النظر صاغرة عن الاستقطاب القائم؛ فإنها تتحمل المسؤولية عن النتائج التمييزية والفصلية هذه.

ولعل ما يهمنا هنا، الاستنتاج بأن السلطات الصهيونية تنتهك البند (د) من المادة الثانية للاتفاقية الدولية بشأن القضاء على جريمة الأبرثايد والمعاقبة عليها في آذار عام ١٩٧٣. فالبند المذكور يعتبر الفصل السكاني - الجغرافي وإقامة غيتوات خاصة بالمجموعات والأقليات العربية - الإثنية وغيرها، عملاً من أعمال الفصل العنصري؛ وهو من ينطبق تماماً مع الممارسات الصهيونية بهذا الشأن.

والإعلان بشأن العنصر والتحيز العنصري، الصادر عن اليونسكو عام ١٩٧٨، يؤكد بأنه "لا يجوز لتنوع أنماط العيش وللحق في مغايرة الآخرين، أن يتخذا في أية ظروف، ذريعة للتحيز العنصري، أو يبررا قانوناً أو فعلاً، أية ممارسات تمييزية من أي نوع، ولا أن يوفرا أساساً لسياسة الفصل العنصري، التي تشكل أشد صور العنصرية تطرفاً." - الفقرة الثانية من المادة الأولى للإعلان المذكور -. ويظهر مما تقدم، أن الصهيونية الاشكنازية، قد استخدمت تلك الأنماط المعيشية، ذريعة لتطبيق سياسة العزل والفصل بين تلك المجموعات والأقليات والطوائف، لتحقيق أهداف إقامة وإدامة الهيمنة عليها، واستغلالها واضطهادها منهجياً.



الفصل الرابع

القوانين الصهيونية - الاكليريكية: أداة التمييز والفصل والهيمنة

إن أحد أوجه الصراع في المجتمع الاستيطاني الصهيوني، يتمحور بشأن المسألة الدينية، والتي يتنازع فيها المتدينون وغير المتدينين. فالمتدينون الذين ساهموا في إعادة تسييس وأدلجة المقولات اليهودية مع الصهاينة، وأضفوا على اليهودية طابعاً "قومياً" زائفاً؛ استطاعوا أن يجعلوا من تلك الأطروحات والمقولات الدينية أساساً للإيديولوجية السياسة الصهيونية. وبذلك، استطاع الصهاينة تبرير خطتهم الاستيطانية بدعاوى دينية - غيبية؛ بينما جهد المتدينون الذين ساروا وإياهم لتحقيق أهدافهم ومثلهم الدينية الخاصة، التي لا تخلو من البراغماتية.

ومع بداية الاستيطان، بدأ أيضاً الصراع بين الاتجاهات الصهيونية المختلفة، وخاصة بين المتدينين والعلمانيين من المستوطنين، والذي تتوج بنوع من الهيمنة الدينية على عديد المناحي المجتمعية.

الانقسام الديني والانفصال والانفصام العمودي، بين المجموعات والأقليات اليهودية على الأسس الدينية، باتجاهاتها ومذاهبها المختلفة من جهة، وفيما بينها وبين "العلمانيين" من جهة أخرى، يظهر ويبين الآثار المترتبة على سياسة الفصل والعزل الذاتي، أولاً، والتمييز والفصل الرسمي الاشكنازي، ثانياً. ويعتقد أحد الباحثين بأن الصراع بين المتدينين والعلمانيين، الذي ينطوي بالضرورة على أبعاد عرقية - إثنية

وطائفية – ثقافية، "يظهر أحياناً، ويخبو أحياناً أخرى ...[وهو) واحد من أهم وأخطر التناقضات الرئيسية التي تشق الكيان الإسرائيلي من الداخل"(١).

في دراسة حديثة نسبياً لهذا التناقض، يؤكد اليعيزر شافيد – بروفيسور قسم الفكر الإسرائيلي في الجامعة العبرية، بأن هذا التناقض يمثل "أعمق حالات الانفصام"، حيث أنه متوارث وقديم من قبل عصر التنوير والثورات البرجوازية الأوروبية(٢). وما هو جدير بالتأكيد، يتمثل في أن هذا "الانفصام" المتوارث، قد قننته سلطات الانتداب البريطاني بصيغة اتفاق "الوضع الراهن" (Status Quo) كما يقول البروفيسور شافيد؛ أو باتفاق "الفيتو المتبادل" – حسب تعبير الدكتور اليعيزر دون ياحي من جامعة بار إيلان في النقب.

يتناول البروفيسور شافيد طبيعة ذلك الاتفاق الذي تم بضغط وبمطالبة الأحزاب والكتل الدينية وبرضوح العلمانيين، وبرعاية سلطات الانتداب، فيقول: إن هذا "الوضع الراهن"، والذي لا يزال قائماً حتى هذه اللحظة، قد أرسى نظامين تعليميين منفصلين في إطار الطوائف والمجموعات الثقافية – الحضارية، ونظامين قضائيين خضع المتدينون لأحكام الشريعة اليهودية؛ واختارت الأحزاب العلمانية القانون البريطاني؛ ولكن على أساس أن تبقى "أحكام الأحوال الشخصية والهوية اليهودية وأحكام الأطعمة الحلال، طبقاً للشريعة اليهودية (كاشير)؛ والحفاظ على قدسية يوم السبت والأعياد اليهودية وسائر (الخدمات الدينية)" تخضع لإشراف الحاخامية طبقاً للشريعة اليهودية"(٣)، ويضيف: "ولم يؤد إنشاء إسرائيل إلى تقويض هذا الوضع"(٤)، بل لا يزال قائماً على أساس اتفاق "الوضع الراهن"، على الرغم من مرور عشرات السنين على التوافق عليه.

ينطوي "الوضع الراهن" هذا، على تشابك المصالح والأهداف، بين الاتجاهات الاكليريكية (السلفية المتعصبة) اليهودية، وما بين القادة الصهاينة. فكلاهما يعتنقان

(١) مصطفى الحسيني: "صراع المتدينين والعلمانيين في إسرائيل: خلفية وأبعاد". "الملف". المجلد الثالث، العدد ٢٨/٤ تموز ١٩٨٦، ص ٣١٤.

(٢) اليعيزر شافيد: "العلاقات بين المتدينين والعلمانيين..."، مصدر سابق، ص ٢٩١.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٩٣.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٩٤.

المقـولات الأسـاسـيـة: فكرة "الشـعب المخـتـار"؛ "أرض الميـعـاد"؛ "الأمـة اليـهـودية الكسموبوليتية"؛ "العرق اليهودي السـامي"؛ والأطروحـات العنصرية الفـصلية... الخ. ولقد نتج عن هذه الأرضية المشتركة في التطبيق الاستيطاني المجتمعي المؤسساتي، أن "سيطرت منذ البدء أنظمة، تصب فيه السياسة في الدين، والدين في السياسة، خدمة للمصالح المشتركة للقادة الصهاينة، ومعاندة حماة الأوامر التوراتية والتلمودية"(١).

ولقد نتج عن هذه المصالح المشتركة، تحالف غير مقدس بين الصهاينة والاكليريكية الصـهـيـونيـة. وبهذا الخـصـوص، ينبـغي ويتـوجب "أن نميـز اليـهـودية مـن الأسطورة الصهيونية، التي تشوه شكل اليهودية من أجل أغراض سياسية" - كما يكتب روجيه غارودي؛ الذي يستطرد بأن "الصهيونية السياسية خانت روح اليهودية" بعدما قرأت واستقت من التوراة، ما يخدم أهدافها، بشكل انتقائي(٢). إن أبرز المقولات التي تم تسييسها وأبطتها، وإضفاء الطابع السياسي والإيديولوجي، إضافة للديني عليها، تتمركزان حول أطروحة "شعب الله المختار" و"أرض المعياد"؛ واللتان يشتق منهما عادة مجموعة من الأطروحات الفرعية. وتظهر انسيابية التلاقي الاكليريكي الصهيوني بشأن الأولى في كونها تبريراً دينياً للصهيونية، كونها "فكرة إجرامية من الناحية السياسية، لأنها هي التي أضفت دائماً صفة القداسة على كل ألوان العدوان والتوسع والسيطرة" هذا من جهة، أما من الجهة الأخرى، فهي تشكل رافعة دينية للسياسة العنصرية الفصلية الصهيونية من ناحية، وأداة العزل والفصل والتمييز الديني - الطائفي لليهودية من ناحية أخرى؛ "فوجود (مختارين) معناه وجود (مبعدين) غير مرضي عنهم" - كما يكتب غارودي(٣).

يتناول ناثان في نستوك، في كتابه: "الصهيونية ضد إسرائيل"، الصادر في أواخر الستينات، جدلية وبراغماتية التحالف الصهيوني الاكليريكي، بقوله: " فإذا ما ألغينا مفهوم (الشعب المختار)، وفكرة (أرض الميعاد)، فإن أساس الصهيونية سينهار؛ ولهذا

(١) غولانبرغ م.أ: *"التخفي بالتوراة". في كتاب: "حرب بلا هدنة". إصدار "كارتيا مولدوفيانسكا". كيشنيوف (بيلوروسيا)، ١٩٨٥، ص ٨٩ / باللغة الروسية.*

(٢) *روجيه غارودي، مصدر سابق، ص ٢٩، وص ١٠٠ وماقبلها وبعدها.*

(٣) *المصدر نفسه، ص ٨٤ - ٨٥.*

السبب، تستمد الأحزاب الدينية قيمتها من التواطؤ مع الصهيونيين، الذين لا يؤمنون بالدين"[١].

في ظل هذا التحالف الصهيوني الاكليريكي اليهودي، ظهرت تباينات وتناقضات، أخذت أشكال الصراع حيناً، والمنافسة والمزاحمة حيناً آخر. فالأولى - أي الصهيونية - تدعي وتسعى لمجتمع علماني، بينما الأخرى - اليهودية - تسعى لجعل دولة المستوطنين، دولة ثيوقراطية صرفة؛ خاصة وأن اليهودية، ليست فقط عبادة وطقوساً ومثل دينية، بل هي أيضاً "نظام قيم، وقوانين الأسرة، والقانونين المدني والجزائي"[٢]. والحاخامية تمسك تماماً بهذه المناحي الأساسية في مجتمع الاستيطان، ولديها من الصلاحيات المطلقة ما تطال: حقوق الإنسان الأساسية؛ قوانين الزواج والطلاق؛ المحافظة على قدسية أيام العطل والأعياد الدينية؛ قانون الطعام الحلال - كشير -... الخ. من النظام التعليمي المنفصل؛ وإعفاء المتدينين من الخدمة الإلزامية... وغيرها.

ومع مرور الزمن، وتثبيت الهيمنة الاكليريكية على هذه المناحي؛ استطاعت الحاخامية والأحزاب الدينية من انتزاع عديد القوانين الثيوقراطية - العنصرية. ولقد هيأ لها القانون العنصري الفصلي الأساسي، والمتمثل بـ"قانون تحديد اختصاص المحاكم الحاخامية لعام ١٩٥٣"، الحصول على صلاحيات مطلقة في[٣]:

أولاً: كل ما يتعلق بالزواج أو الطلاق لليهود، سواء أكانوا مواطنين أم مقيمين. حسب المادة الأولى من القانون.

ثانياً: يكون زواج اليهود وطلاقهم في إسرائيل، وفقاً لقانون التوراة، حسب منطوق المادة الثانية.

لم تكتف الحاخامية والأحزاب الدينية بذلك، بل استطاعت انتزاع قوانين أخرى: قانون أيام العطل - السبت والأعياد الدينية؛ قانون الطعام الحلال للجنود؛ قانون ميزانية الخدمات الدينية؛ قانون التشريح والباثولوجيا، الذي لا يجيز تشريح الجثة إلا بالموافقة المسبقة من الميت؛ قانون الإدارة الذاتية الكاملة للتعليم الديني... الخ. وتسعى هذه الأحزاب لانتزاع المزيد من القوانين. ففي مرحلة تشكيل كل وزارة، تدفع بقائمة

(١) *اقتباساً عن المصدر نفسه، ص ٨٦.*

(٢) *بيغون ف. يا: "اقتحام بلا سلاح". الطبعة الثانية. دار نشر "مولوديا غفارديا"، موسكو، ١٩٧٩، ص ٣٣ / بالروسية.*

(٣) *كلود كلاين، "الصفة اليهودية لدولة إسرائيل"، عن غارودي، ص ١١٨.*

طويلة من المطالب هذه. فعقب انتخابات الكنيست العاشرة، مثلاً، تمت صياغة اتفاق ائتلافي يتكون من (٨٣) مادة، خمسون منها تضمنت وتعلقت بمطالب الأحزاب الدينية - الاكليريكية، وخاصة: وقف الرحلات في ميناء حيفا والمطارات يوم السبت؛ إعفاء المتهودين حديثاً من الخدمة لفترة ثلاثة أعوام؛ التهود وعمليات التهويد حسب الطقوس الأرثوذكسية، تغيير وتعديل "قانون من هو اليهودي"... الخ.

يعلق الباحث السوفييتي غولانبرغ، وهو يهودي سوفييتي، على ذلك بقوله أن إسرائيل تتميز بـ"أقسى اضطهاد سافر، من طرف الأقلية المتعصبة"[١]، وذلك بمساعدة وتغاضي وتساوق الأحزاب الصهيونية العلمانية.

وبغية إضفاء الطابع الديني الاكليريكي على قانوني "العودة" في الخامس من حزيران عام ١٩٥٠، و"قانون الجنسية" عام ١٩٥٣، انتزعت تلك الأحزاب "قانون من هو اليهودي" في العاشر من شباط عام ١٩٦٠، والذي ينص على: "يُسجل كيهودي في خانتي (الديانة) و(الجنسية) من تتوفر فيه الشروط التالية:

أولاً: ولد من أم يهودية، ولا يتبع ديناً آخر؛

ثانياً: من اعتنق اليهودية وفقاً للشروط المعروفة باسم (حلقه)"[٢].

يتناول البروفيسور شاحاك الأبعاد القانونية لهذا القانون، فيؤكد أن "القضية ليست لاهوتية فقط، إنها أيضاً قضية الحقوق - سواء منها أبسط الحقوق المادية: كالحق في عقد قرض، والحق في الحصول على مسكن رخيص، والحق في الإقامة في هذا المكان أو ذاك؛ أم الحقوق بوجه أعم - كالحق في أن يكون الإنسان إنساناً بكامل معنى هذه الكلمة". ويستطرد حتى بالقول، أن هذا القانون يطال حقوق الإنسان "ليس فقط حين يكون على قيد الحياة؛ بل أيضاً بعد الموت"، في مراسيم وأمكنة الدفن، ومصير مقابرهم أيضاً[٣].

جرى تعديل هذا القانون عدة مرات، بضغط من الحاخامية والأحزاب الدينية الاكليريكية، بحيث ينسجم مع السعي الدائم نحو تحويل إسرائيل لدولة ثيوقراطية

(١) غولدنبرغ م. أ: *"مأزق الصهيونية"*. إصدار *"كارتيا مولاوفيانسكا"*. كيشنيوف، ١٩٧٩، ص ٩٥.

(٢) انظر: روجيه غارودي، ص ١١٩.

(٣) إسرائيل شاحاك: *"الصهيونية إنما هي العرقية والتمييز والفساد"*. في كتاب: *"الصهيونية: الحقيقة والاختلاقات"* مصدر سابق، ص ٢٠٥.

صرفة. ومحاولات تعديله قائمة حتى اليوم.

وبفعل تطبيقات هذا القانون، برزت فئتان يهوديتان، تمارس ضدهما أقس أنواع التمييز والفصل والاضطهاد. الفئة الأولى: اليهود الذين ليسوا يهوداً، أي هؤلاء الذين لم تكن أمهاتهم وجدات أمهاتهم، يهوديات أو اعتنقن اليهودية على يد حاخام غير أرثوذكسي. في هكذا حالة، يجري انتزاع هويته الشخصية، ليجري تسجيله في فئة غير اليهود، وتسجل كلمة "ألماني" أو/ و "روسي"... الخ. إذا كانت جدته مثلاً من هناك. ويحرم هؤلاء من الحقوق والحريات الأساسية، كالزواج مثلاً؛ ويعتبرون "ناقصي القيمة"، ولا يعتبرون مهاجرين يستحقون ما ينص عليه القانون، ويخضعون لعمليات تهويد قاسية(١).

تلقى هذه المسألة بثقلها، على العديدين من المهاجرين السوفييت وكذلك الاثيوبيين، في الفترة الأخيرة. فمثلاً، أعلن كبير حاخامات إسرائيل - جون كلود بن دافيد - من أصل فرنسي - أن ما بين ٣٠ إلى ٤٠ بالمائة من اليهود السوفييت هم من غير اليهود. وكرر هذا التصريح، وزير الاستيعاب وعدة وزراء آخرون. فوزير الداخلية السابق، أرييه درعي، ممثل حزب شاس الديني، أبدى تخوفه من أن نحو (١٢) مليون سوفييتي قد يصبحون إسرائيليين بموجب قانون العودة. وتقول روزا فينكلبيرغ، مسؤولة في "الجمعية الصهيونية لليهودية السوفييتية"، أن السوفييت من غير اليهود يتسللون إلى جموع المهاجرين إلى إسرائيل. ولذلك، فإن الحاخام ميلز، مثلاً، يدعو إلى التحقيق في فحص البطاقات، والتأكد من "يهودية" المهاجرين قبل حضورهم؛ وهو ما أخذت به وزارة الداخلية، إذ أرسلت بعثة إلى القنصلية الصهيونية في موسكو لفحص الطلبات، وللتأكد من أن المهاجرين يهود فعلاً(٢).

أوضح الحاخام جون كلود بن دافيد، أربعة أسباب تجعل من هؤلاء المهاجرين غير يهود، وهي:

أولاً: أن تكون الزوجة غير يهودية؛

(١) *المصدر ذاته، ص ٢١٣ - ٢١٤.*

(٢) *انظر مثلاً: صحيفة "القبس" الكويتية، ١٩٩٠/٤/٥؛ صحيفة "الأهرام" القاهرية ١٩٩٠/٢/٢٦ وصحيفة "الصباح" التونسية ٩٠/٤/٥.*

ثانياً: أن يكون الزوج غير مختون؛

ثالثاً: أن يكون الأبناء من غير اليهود، إذا ولدوا من امرأة غير يهودية؛

رابعاً: أن يكون كلا الزوجين خاليين من أي ارتباط بالديانة اليهودية.

تجري عمليات التدقيق هذه، بممارسة التنكيل والحط من شأن القادمين. فمثلاً، رفض الحاخام ميلز، القيام بالتهويد الجماعي لهؤلاء، بل دعا إلى فتح ملف لكل عائلة منهم، حتى يضمن بأن أولادهم في المستقبل لا يتزوجون يهوديات. والتهويد يجري بطريقة تثير الاشمئزاز. فلقد تبين أن نحو (٩٥) بالمائة من هؤلاء، لم يخضعوا للختان، وهو أحد شروط الانتماء لليهودية؛ ولذا جهزت كل المستشفيات الإسرائيلية بأقسام يقوم فيه جراح وحاخام معاً، بختان الأطفال والكبار أيضاً.

وكانت وزارة الداخلية قد أثارت قضية اليهود الرومان في مطلع عام ١٩٩٠، حيث أكدت أن نحو تسعين بالمائة من هؤلاء الذين هاجروا خلال عام ١٩٨٩، كانوا مسيحيين، لكون جداتهم أساساً، كن يعتنقن المسيحية[١].

خفت الأصوات والتصريحات حول "غير اليهود" المتسللين بين المهاجرين اليهود، ولم تعد هذه المسألة من القضايا المطروحة. ويبدو أن الصهيونية قد استبدلت تكتيكها بهذا الشأن. ولقد كشف أحد مسؤولي منظمة يهودية أمريكية خاصة بالهجرة، رفض الكشف عن اسمه، بأن "سياستنا هي استقدام أكبر عدد من السوفييت إلى إسرائيل"؛ وأضاف: "عندما يصبحون جميعاً هنا، سنرى"[٢]. وهو الأمر الذي ينطبق على قرار بتهجير نحو ثلاثة آلاف اثيوبي مسيحي، تدعي السلطات الصهيونية، أنهم يهوداً تنصروا رغماً عنهم (؟!!). ويبدو أن الحاجة الماسة للمهاجرين، بغية استكمال خطوة أخرى في تهويد الضفة والقطاع المحتلين، وتعديل ميزان القوى الديمغرافي اليهودي والصهيوني الاشكنازي، هو الذي يدفع بالصهاينة لجلب وتهجير ما أمكنهم من بني الشعوب الأخرى؛ حيث سيجد هؤلاء أنفسهم مضطرين للخضوع إلى إجراءات التهويد القسري والمخزي في الآن ذاته. ولعل في تهويد بعض قبائل الهنود الحمر في البيرو،

(١) مجلة *"الهدف"*. العدد (٩٩٤) ١١/٢/١٩٩٠، ص ٢٦.

(٢) صحيفة *"القبس"* الكويتية، ٥/٤/١٩٩٠.

وتهويد الآلاف من أبناء القارة السوداء، ما يثبت ذلك (؟!).

فهل يا ترى استبدلت الاكليريكية اليهودية، والصهيونية العرقية التمييزية الفصلية، جلدها العنصري (؟!). ربما الإجابة ستبقى رهن التطورات التي لا تزال تتفاعل؛ ولكنها بالضرورة لن تطال المقولات العنصرية الأساسية، كونها تعود للحاجة إلى العنصر البشري الذي سيخضع للتهويد والصهينة أيضاً، على أساس القوانين العنصرية السائدة.

إن حالتي اليهود السود ويهود طائفة الفلاشا الاثيوبية، تعتبران حالتين صارختين على الفصل العرقي - القومي والديني - الإثني. فطائفة اليهود السود الليبرالية - الأمريكية حال وصولهم في أواخر الستينات وبداية السبعينات، منحت تصاريح كزوار لمدة ثلاثة أشهر و"بطاقة معالجة". وحصلت مشكلة عندما حضر ٤٩ شخصاً زنجياً أمريكياً في ٦ آذار ١٩٧٠، من قبل الحاخامية - الاكليريكية حيث طالبت بإعادتهم إلى الولايات المتحدة وعدم قبولهم. ولكنهم قد تمترسوا في أرض المطار وفرقوا جوازات سفرهم الأمريكية، سمح لهم بالاستيطان بدون مساعدة السلطات وعدم إعطائهم حقوق "المهاجر الجديد". وعند قدوم الموجة الرابعة في ٨ كانون الأول عام ١٩٧١، حجزتهم السلطات في المطار، ومن ثم تم ترحيلهم مجدداً للولايات المتحدة، بسبب تهديد الأحزاب الدينية - الاكليريكية بالانسحاب من الائتلاف الحكومي. حينذاك طرح التعديل على "من هو اليهودي؟!" في الكنيست.

شككت الحاخامية في يهودية اليهود السود، ورفضت طقوسهم وعاداتهم وتقاليدهم وطريقة عيشهم. فأرسلت وزارة الأديان حاخاماً ليعلمهم أصول الدين اليهودي (؟!)، وعند وصوله، استغربوا الأمر قائلين: هل هو سيعلمنا أصول الدين اليهودي؟ وسيعمل على تهويدنا؟ إنه لا شك مخطئ، إننا نحن اليهود الحقيقيين ويجب على الإسرائيليين أن يتعلموا أصول الديانة اليهودية منا. كان رد الحاخامية والسلطات اليهودية، بعدم الاعتراف بيهوديتهم، والمطالبة بتهويدهم مجدداً، وعدم الاعتراف بهم كمواطنين حتى يتم ذلك[1]. وكشفت الصحافة[2] مؤخراً، أن وزارة الداخلية والحكومة الصهيونية قد

(١) *يونيلا هارشافي: "الزنوج الصهاينة"، مصدر سابق.*

(٢) *انظر مثلاً: مجلة "الهدف" العدد (٧٢١) ١٩٨٤/٤/٣٠، ص ٢٣، ونفس المجلة العدد (٧٨٦) ١٩٨٥/٩/٢٣، ص ٢٥.*

شكلت لجنة للبحث مع وزارة الخارجية الأمريكية الوضع الشرعي لأفراد هذه الطائفة البالغة (١٥٠٠) شخص، وأن ترتيبات تجري لطردهم وعودتهم للولايات المتحدة.

كما وأن طائفة يهود الفلاشا الاثيوبية، التي تم ترحيلها في بدايات عام ١٩٨٥ بمساعدة الولايات المتحدة، والتي يصل عددها إلى (١٨) ألف شخص، تعاني ما تعانيه الطائفة الزنجية. والجدير ذكره، أن هذه الطائفة تتبع كتب موسى الخمسة فقط، ولا تعترف بالتلمود، وهذا ما جعل الحاخامية الاكليريكية المتنفذة، عدم الاعتراف بيهوديتهم، وكذلك بعقود زواجهم ويهودية أطفالهم، بحجة أن بعضهم جاء نتيجة زيجات مختلطة، وتطالبهم الحاخامية والسلطات الحكومية بإجراء طقوس معينة كالطغس في "حمام يهودي" بموجب تعاليم التلمود، ليتحولوا بصورة رمزية إلى الديانة اليهودية قبل أن يستطيعوا الزواج مرة أخرى عبر الحاخامية[١]. رفض الفلاشيون ذلك، واعتصموا أمام الحاخامية في القدس لأكثر من ثلاثة أسابيع، وقاموا بمظاهرات صاخبة، طالبوا فيها العودة إلى إثيوبيا، أو الاعتراف بهم، ومنحهم الجنسية ولأطفالهم، ووقف الاضطهاد والتمييز العرقي - الإثني والديني - الطائفي ضدهم، فردت عليهم السلطات بإطلاق النار والقنابل المسيلة للدموع[٢].

وفي عملية احتجاجية قل نظيرها، تم الكشف عنها في الصحف الإسرائيلية، انتحر عشرون اثيوبياً من الفلاشا، بشكل جماعي يوم الثاني من آب عام ١٩٨٥، في مكتب للتجنيد الإلزامي في مدينة بئر السبع. وجاءت عملية الانتحار الجماعي هذه، احتجاجاً على المعاملة العنصرية، ورفضهم الخدمة العسكرية، حتى يتم الاعتراف بيهوديتهم ومنحهم حقوق المواطنة.

تطال القوانين الدينية، وخاصة "قانون من هو اليهودي؟"، فئة أخرى، لا تقل معاناتها، والتمييز والفصل ضدها، عن الفئات سابقة الذكر. وتتشكل هذه الفئة من اليهود المسمون "بمواليد تحت السياج"، أي اليهود "غير الشرعيين بالولادة"، والذين يطلق عليهم بالعبرية "ممتسيريم"[٣]. وتشمل هذه الفئة، الأشخاص المولودين في

(١) صحيفة *"السفير" اللبنانية، ١٩٨٥/٩/٧؛ وصحيفة "الوطن" الكويتية بتاريخ ١٩٨٥/٨/٦.*

(٢) صحيفة *"الانزفستيا" السوفييتية، ٢٢ تموز ١٩٨٥.*

(٣) انظر: *إسرائيل شاحاك، مصدر سابق، ص ٢١٤ — ٢١٥.*

الزواج الشائي، أي المختلط بين يهودية وغير يهودي، أو العكس، أو حتى إذا كانت جدة أحدهما أو والدة جدتهما قد اقترفت هذه "الخطيئة" - حسب تعبير البروفيسور شاحاك. ويكشف شاحاك، عن ثمة "كتاب أسود"، يستخدم ومعتمد رسمياً، يشمل هؤلاء "ناقصي القيمة" ولعل ما يثير الانتباه، أن هؤلاء الذين يشملهم السجل يمنعون من الزواج، هم "وأيضاً ذريتهم إلى دهر الداهرين" - كما يقول شاحاك.

وبمقتضى القوانين الثيوقراطية هذه، لا يجوز ليهودي يحمل اسم كوهين، باعتباره من سبط كوهين، عقد زواجه على مُطلقة أو أرملة، للعلاقة الخاصة التي كانت لهذا السبط، بطقوس العبادة في الهيكل اليهودي. هذا، ما حال دون تمكن قاضي المحكمة العليا السابق، حاييم كوهين، من عقد زواجه[1].

واليهودية، مذاهب وطوائف متعددة، طبقاً لاعتقادها بهذه أو تلك من الكتب المرجعية الدينية. فمنها من يعتقد بـ"التاناخ"، وهو العهد القديم؛ وأخرى بالتوراة، وهي الكتب الموسوية الخمسة؛ وثالثة بالتلمود، وهو مجموعة كبيرة، تصل إلى أكثر من ثلاثين مجلداً، جمعت فيه تفسيرات التوراة، وأقوال واجتهادات وفتاوى الحاخامات.

وتمارس الاكليريكية اليهودية، تمييزاً واضحاً، وفصلاً واضطهاداً سافرين، ضد المجموعات والأقليات الطائفية التي لا تتبعها. فمثلاً، تخضع طائفة القرائيين، التي تعتنق التوراة ولا تعتنق التلمود، لمعاملة تمييزية قاسية. وهو الأمر الذي ينطبق على طائفة الفلاشا، أيضاً. والاختلافات الدينية المذهبية - الطائفية هذه، جعلت الاكليريكية المهمينة والمتسلطة، أن تمارس سياسة تمييزية فصلية، بموجب قوانينها وقوانين الدولة التي انتزعتها. والاختلاف الرئيسي بين هذه المذاهب - الطائفية، يتمثل في أن سلطة التلمود، كمستودع وكمرجع للقانون الشفهي، تعتبر إلهية لدى اليهود الأرثوذكس، أي إلزامية وثابتة وغير متغيرة. بينما لا يقبل اليهود المحافظون والإصلاحيون، تلك السلطة الإلزامية الكلية للتعاليم التلمودية؛ بل حتى يعتبرها قسم منهم، كفراً ومروقاً عن الدين اليهودي، كما الحال بالنسبة لطائفة "ناطوري كارتا"[2].

إن أحد أوجه الإكراه الديني الرسمي، والذي تم تعميده بقانون، يتمثل في عدم إعطاء الحق لأي يهودي بالتخلي عن ديانته؛ بينما تسعى اليهودية لتهويد أبناء الديانات

(١) صبري جريس: *"الحريات الديمقراطية في إسرائيل"*، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٧١، ص ٢٦.

(٢) انظر: ظفر الإسلام خان: *"التلمود: تاريخه وتعاليمه"*. دار النفائس، بيروت، ١٩٨١، ص ٢٩.

الأخرى. ففي عام ١٩٧٨، اتخذت الكنيست قانوناً يجري بموجبه تحريم أي شخص يثني يهودياً نحو ديانة أخرى، عن "طريق الشراء" (؟!!)، أو أي نحو آخر، وينص القانون على سجن هذا الشخص لفترة خمسة أعوام أو غرامة مالية تصل إلى خمسين ألف شيكل إسرائيلي(١) والقانون المذكور، وإن استند إلى "حجة الشراء"، وهي واهية وهشة فإنه ينطوي على إكراه ديني سافر. ففي المادة الثامنة عشرة من العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية في كانون الأول عام ١٩٦٦، نص واضح بشأن أن "لكل إنسان حق في حرية الفكر والوجدان والدين. ويشمل ذلك حريته في أن يدين بدين ما، وحريته في اعتناق أي دين أو معتقد يختاره" (البند الأول). ويتضمن البند الثاني حقاً لا يجوز بمقتضاه "تعريض أحد لإكراه من شأنه أن يخل بحريته في أن يدين بدين ما، أو بحريته في اعتناق أي دين أو معتقد يختاره".

إن كل ما تقدم، يبين أشكال التمييز وأعمال العزل والفصل، بالاعتماد على القوانين الدينية الحاخامية ذات السلطات المطلقة في عديد المناحي والأمور المتعلقة بحريات وبحقوق الأفراد والمجموعات والأقليات اليهودية. والمشكلة ليست ولم تكن يوماً تتعلق في ممارسة الشعائر الدينية التي تخص كل طائفة، بقدر ما هي تتعلق بممارسة الهيمنة والتسلط الديني الاكليريكي، التي تصب في السياسات والقوانين التمييزية العزلية الصهيونية أيضاً.

وإن كان هذا أحد أوجه التمييز والعزل، إلا أن المشكلة من ناحية أخرى "هي مشكلة حرية غير المتدينين، الذين يطالبون بالكف عن التدخل في شؤونهم، تحت ستار التعاليم الدينية"(٢). ومنذ عام ١٩٦١، نشأت "رابطة مناهضي الإكراه الديني" في إسرائيل، للمطالبة برفع هيمنة الحاخامية على الحريات والحقوق الأساسية، وفصل الدين عن الدولة، وإلغاء القوانين الثيوقراطية.

أبرز معالم الفصل والعزل الديني، بين المذاهب والطوائف اليهودية، يتمثل في الانقسام العمودي في الحاخامية؛ حيث هناك حاخامية للاشكناز، وأخرى للسفارديم. وتنقسم كل من هاتين الحاخاميتين، إلى حاخاميات فرعية في إطار كل منها، حسب الطوائف والأقليات. ولعل ما يوضح معالم الانعزال والعزل، والانفصام والفصل، "أن

(١) غولدنبرغ م. أ: *"مأزق الصهيونية"*، مصدر سابق، ص ٩٦.

(٢) صبري جريس: *"الحريات الديمقراطية..."*، مصدر سابق، ص ٢٧.

حاخامي الطوائف اليهودية المختلفة، بما فيهم الأكثر كبراً بينها - الغربيون والشرقيون - لا يختلط حتى بعضهم ببعض"(١). ولكل من هذه الحاخاميات، حاخاميوها الخاصون، وكنسها ومحاكمها الخاصة أيضاً.

إن أحد أوجه التمييز الديني، يتمحور ضد المرأة اليهودية. والمرأة في اليهودية أصلاً، عنصر مكروه، حيث يتلو اليهود المتدينون كل صباح، شكراً لله لأنه لم يخلقهم نساء (؟!!). وتسيطر الحاخامية على كافة قضايا المرأة، وفقاً لـ"قانون المحاكم الحاخامية" لعام ١٩٥٣.

والمرأة في القوانين الإسرائيلية، ليس لها الحق في الطلاق، والحق في وراثة الزوج، وفي حال وفاة زوجها، لا يمكنها ولا يحق لها الزواج إلا من شقيق زوجها. وإن هذا لا يريد الزواج منها، فعليها الحصول على موافقته للزواج من شخص آخر. وإن كان شقيقي زوجها المتوفي لم يبلغ بعد سن الرشد، فعليها أن تنتظر ذلك، ليحدد مصيرها. والمرأة اليهودية مضطهدة ويتم التمييز ضدها في شؤون العمل، والأجور التي لا تزيد عن ٤٠ بالمائة عما للرجل، وهي تخضع لإلزامية الخدمة في الجيش أيضاً. وتصل نسبتها في الكنيست إلى أقل من عشرة بالمائة، وفي المؤسسات الحكومية أقل من أربعة بالمائة(٢).

ولا تزال إسرائيل ترفض المصادقة على العهدين الدوليين لعام ١٩٦٦، وكذلك على "اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة" في كانون الأول عام ١٩٧٩؛ والتي تشكل أساساً لضمان حقوق المرأة.

وبفعل القوانين التمييزية ضد المرأة، والانفصال والفصل والانعزال والعزل، الديني الاكليريكي - الأرثوذكسي اليهودي والصهيوني؛ تخضع المرأة لتقييدات عديدة وعزل دائم في إطار مجموعتها وأقليتها وطائفتها الخاصة. فحسب أحد الصحف الإسرائيلية، بلغت نسبة الزواج المختلط بين الطوائف نسبة عشرين بالمائة فقط(٣).

خلاصة القول؛

إن القوانين الثيوقراطية اليهودية، والتي وجدت نفسها في أساس التشريع

(١) ستيفانسكين ف. أ: "في خدمة العدوان..."، مصدر سابق، ص ٤٥.

(٢) خطاب توفيق طوني في الكنيست بمناسبة يوم المرأة العالمي... في صحيفة "الاتحاد" الحيفاوية بتاريخ ٢٥/آذار/١٩٨٣.

(٣) "هآرتس" ١٨ آب ١٩٨١ عن "مجلة الأرض" العددان (١٢ - ١٣) ٢١ آذار ١٩٨٤، ص ٣٢.

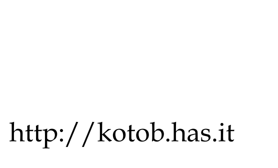
الإسرائيلي الصهيوني، تشكل رافعة "قانونية" وتشريعية، لممارسة التمييز وسياسة وأعمال الفصل الديني – الطائفي، ضد المجموعات والأقليات والطوائف العرقية – الإثنية والدينية الطائفية.

وتشمل هذه القوانين، عديد المناحي الحقوقية والاجتماعية الأساسية لتلك الفئات، حيث تنفرد فيها الحاخامية الاشكنازية خاصة بالهيمنة والتسلط وممارسة التمييز والعزل الديني والاجتماعي والحقوقي، بسبب عديد الادعاءات – المذهبية، العرقية، الطائفية، والجنس أيضاً.

وهي في الوقت ذاته تشكل أداة قانونية لممارسة الإكراه والاضطهاد الديني، ليس فقط على معتنقي الديانة اليهودية، بل وعلى هؤلاء من غير المتدينين.

وتندرج هذه القوانين والأعمال، في إطار الانتهاكات الجسيمة لعديد الاتفاقيات الدولية، كالعهدين لعام ١٩٦٦، والإعلان بشأن القضاء على جميع أشكال التعصب والتمييز القائمين على أساس الدين أو المعتقد بتاريخ ٢٥ تشرين الثاني ١٩٨١، وكافة الإعلانات والاتفاقيات الدولية بشأن الزواج والأسرة؛ والاتفاقية الدولية للقضاء على جميع أشكال التمييز العنصري في كانون الأول ١٩٦٥؛ والاتفاقية الدولية لقمع جريمة الفصل العنصري والمعاقبة عليها في عام ١٩٧٣، وخاصة البندين (ج) و(د) من المادة الثانية منها.

فالاكليريكية اليهودية بالتحالف والتواطؤ مع الصهيونية، تستخدم الدين كأساس إيديولوجي وتشريعي مرجعي، لممارسة التمييز والفصل والعزل الديني – الطائفي الذي يختلط بالعرقي – الإثني. ففي الإعلان العالمي "بشأن القضاء على جميع أشكال التعصب والتمييز القائمين على أساس الدين أو المعتقد"، الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة في ٢٥ تشرين الثاني عام ١٩٨١، تحريم ومنع لـ"أي تمييز أو استثناء أو تقييد أو تفضيل، يقوم على أساس الدين أو المعتقد، ويكون غرضه أو أثره، تعطيل أو انتقاص الاعتراف بحقوق الإنسان والحريات الأساسية، أو التمتع بها أو ممارستها على أساس من المساواة" (الفقرة الثانية، من المادة الثانية). ولهذا، فإن هذا الإعلان، يحث الدول لاتخاذ التدابير والإجراءات اللازمة لمنع واستئصال هذا التمييز والفصل الديني، و"لسن التشريعات أو إلغائها حين يكون ذلك ضرورياً" لتحقيق مقاصد الإعلان وأهدافه. وهو ما ينطبق تماماً على واقع الحال في الكيان الصهيوني.


http://kotob.has.it

الفصل الخامس

مظاهر ومناحي التمييز والفصل

تعاني المجموعات العرقية - القومية والدينية - الإثنية الشرقية والسوداء من عدة مظاهر تمييزية وفصلية *Cezpezus* من قبل السلطات الاشكنازية - الغربية. وتتعدد مظاهر وأشكال ومجالات تلك السياسات التمييزية الفصلية، بتعدد أوجه نشاطات المجتمع الاستيطاني الصهيوني.

إن سياسة وتطبيقات البلترة، من قبل الصهيونية، تجاه المجموعات البشرية السفاردية - الشرقية، لم تبدأ بقيام الدولة الصهيونية، بل اعتُمدت كنهج منظم للحركة الاستيطانية الصهيونية منذ بدايات الاستيطان الصهيوني في فلسطين. فسعياً وراء تطبيق شعاراتها - "احتلال الأرض" و"العمل العبري" و"الإنتاج العبري" فـ"السوق العبرية"، وبسبب فشل المؤسسات الاستيطانية الأولى في تطويع المهاجرين من أوروبا في عملة البلترة وأَنَفَة الاشكناز - الأوروبيون من العمل اليدوي وخاصة في مجالات الزراعة، أقدمت الحركة الصهيونية في أعوام ١٩٠٧ - ١٩٢٤ على تهجير جزء من الطائفة اليهودية اليمنية، لاستبدالهم مكان العمال العرب - الفلسطينيين.

ويذكر الصحفي الإسرائيلي بروخ نادل أن المهجرين اليمنيين عام ١٩٠٧ "استوطنوا في أحياء بدون أرض، وبالقرب من مستعمرتي رحوفوت وريشون ليتسيون (الاشكنازيتين - ك.ق.) واشتغلوا كعمال أجراء في مزارع الاشكنازيين". أما من هاجر

عام ١٩١٢ فقد تم "إسكانهم في مكان مليء بالمستنقعات. حيث مات معظمهم بالحمى - حوالي ٨٠٪ منهم"(١). أما كاتس وزلوتسوبر فيؤكدان أن أغلبيتهم لم تكن لها أية تجربة في الزراعة؛ فهم حرفيون صغار أصلاً، ولذا "بدأوا يعملون في بساتين الاشكناز"، أما نساؤهم فقد اشتغلن كخادمات في بيوت الاشكناز(٢). ويضيف جرينبويم أن "أجرة عملهم أقل من أجرة العامل اليهودي الأوروبي، لكنها أعلى بعض الشيء من أجرة العامل العربي"(٣).

وباستمرار تهجير الطوائف اليهودية السفاردية الشرقية، لاحقاً، زودت الصهيونية كيانها "بما كانت تحتاجه من قوة عمل رخيصة ومطواعة وقابلة للاستخدام في مجالات العمل غير الماهر"، وتوفير احتياطي بشري لجيشها، كما يكتب الباحث الفلسطيني نزيه قوره(٤). أما من أعطته الوكالة اليهودية أرضاً، فلقد فرضت عليه تلك الوكالة "تحديد اختيار نوع الزراعة وكيفية تسوية الأرض"، كما يكتب ميكائيل الباز. ويضيف أن أهداف الصهيونية هي التي حددت "النمو اللامتساوي للرأسمالية الإسرائيلية، التي تبدو مبنية على أسس إقليمية، ومن خلال تمييز عرقي - مكاني"(٥). والصهيونية بمؤسساتها الاستيطانية، خلقت جهازاً واسعاً لبلترة الشرقيين، ودفعهم باتجاه العمل الزراعي وكأيدي عاملة رخيصة، والاحتفاظ بهم في داخل هذا المستوى وشروطه. ولقد سهل في ذلك كون هذا الجهاز، كان وما يزال يتشكل أساساً من الاشكناز، بينما عمله موجه في الأساس نحو السفارديم الشرقيين. لذا، نجد د. شلومو سبيرسكي - أستاذ العلوم الاجتماعية في جامعة حيفا - يقول في كتابه "ليسوا ضعفاء، بل مستضعفون"، أن الجهاز الصهيوني "لم يخلق توزيعاً طبقياً مجرداً، بل توزيع عمل طائفي"(٦). أما سامي سموحه عالم النفس في جامعة حيفا، فيقول: "لقد وقع هنا ظلم (...) مهاجرو الشرق أجبروا على أن يصبحوا بروليتاريا"(٧).

إن خصوصية الكيان الصهيوني، كمجتمع هجرة، تفرض على القائمين عليه تهجير

(١) باروخ نادل: "بعينين اشكنازيتين". ترجمة ونشر مجلة "الأرض" العدد (١٠) ١٩٧٨/٢/٧، ص ٤٨.
(٢) وولف أرليخ: "الصهيونية - نظرية وتطبيق". في كتاب: "دراسات في الصهيونية". منشورات صلاح الدين. القدس، ١٩٧٦، ص ٤٥.
(٣) نفس المصدر، ص ٤٦.
(٤) نزيه قوره: "المشروع الصهيوني في مواجهة أزمته الداخلية". مؤسسة "الأرض". دمشق، ١٩٧٧، ص ٥٧.
(٥) ميكائيل الباز، مصدر سابق، ص ١١١.
(٦) مجلة "الأرض". العدد (٥) ١٩٨٤/١١/٢١، ص ١٥.
(٧) صحيفة "السفير" اللبنانية، ١٩٨٣/٤/١٥.

ما أمكن من الطوائف اليهودية في دول العالم؛ إذ أن ذلك، كما يكتب نزيه قوره، يعتبر ضرورة ملحة، لكون أن "الصعود الاجتماعي للمهاجرين القدامى مرهون بمجيء موجات هجرة جديدة، تأخذ محل المهاجرين القدامى في الدرجات الدنيا للسلم الاجتماعي"(١). ولكون أن الأغلبية الساحقة من مهاجري الثمانينات، من الأكاديميين والطبقة الوسطى الميسورة، ويتموقعون ويستقرون في الجزء العلوي من الهرم الاجتماعي - الاقتصادي، أقدمت الصهيونية على ترحيل طائفة الفلاشا الاثيوبية، وتبذل الجهود لتهجير ما تبقى من يهود اليمن والهند وأمريكا اللاتينية.

يقصد بهذا التهجير الحفاظ على التوازن الداخلي الوظيفي لمجتمع الاستيطان، إذ أن تهجير الفلاشا مثلاً، يأتي لحاجة مجتمعية بنيوية استيطانية، حتى لا يصبح الكيان، فاقداً لفئات سكانية في القاعدة الدنيا من السلم المجتمعي الوظيفي، والتي تختص عادة بالمهن غير الماهرة والأعمال الدنيا، من أصناف العمل اليدوي الشاق.

وبغية تحقيق ذلك، تقوم المؤسسات الصهيونية المختصة بالاستيعاب، بتوزيع المهاجرين ليس فقط على أساس المقاييس العرقية - الإثنية، بل وعلى أساس الخطة العامة لتشغيل هؤلاء، ومواقعهم الإنتاجية المفترضة، حسب أصولهم الجغرافية والعرقية - الإثنية - الطائفية. ولهذا، فإن عملية تموقع هؤلاء في العملية الإنتاجية تبدأ فور عمليات البدء باستيعابهم. فلقد وزعت السلطات الاشكنازية، أبناء جلدتها من الاشكنازيم الغربيين في الساحل والمدن الكبرى؛ بينما أرسلت السفارديم والشرقيين إلى القرى وبلدات التطوير. وتركز الغربيون في الكيبوتسات، بينما الشرقيون في الموشافات (القرى التعاونية) والتي أقيمت كأحياء فقيرة لعزلهم - كما حصل مع الأقلية اليمنية التي أجبرت على السكن في ضواحي بتاح تكفا، ورحبوت، وريشون لزيون(٢).

ولقد استهدفت السلطات من عملية التوزيع هذه، الحفاظ على "استمرار العزلة البيئية المفروضة على اليهود الشرقيين، في أحزمة الفقر والأحياء الفقيرة"، حيث أن "نسبة المهاجرين الشرقيين تزداد في المناطق الأفقر، التي لا يقبل المهاجرون الغربيون على العيش فيها"(٣١). وعادة ما تتواجد أحياء الفقر هذه على تخوم المدن الكبرى،

(١) نزيه قوره، مصدر سابق، ص ١٧٢ - ١٧٣.

(٢) أنظر: وليم فهمي: *"الهجرة اليهودية إلى فلسطين"*. الهيئة المصرية للكتاب. القاهرة، ١٩٧٤، ص ١٧١ - ١٧٦.

(٣) أشرف راضي: *"الفجوة..."*، مصدر سابق، ص ١٥٤، ٣٦.

وتشكل محيطاً بشرياً واقتصادياً لها. وتقود هذه العملية إلى ربط الشرقيين من اليهود، باحتياجات المركز - المدن الاشكنازية - الصناعي والإداري الذي يحتاج للأيدي العاملة غير الماهرة؛ وهو ما تلبيه المحيط والتخوم الشرقية.

استخدمت الموشافات والكيبوتسات، إضافة إلى مؤسسة الجيش والأمن وكذلك المدرسة، كأوعية وإطارات لتحقيق هذا الغرض. فالشرقيون يتواجدون في الموشافات؛ بينما الغربيون في الكيبوتسات، حيث يجري اختيار أعضاء الكيبوتس طبقاً لسياسة عنصرية انتقائية. وحيث تواجد شرقيون في الكيبوتس، فإن مقامهم هناك لا يطول، حيث يفضلون الهرب منه، لإدراكهم بأنه إطار للسيطرة والهيمنة عليهم، ووسيلة لإعادة صياغتهم الثقافية والمجتمعية، وأداة لبلترتهم القسرية واستغلال قوة علمهم(١).

وهكذا، تتبين أساليب وطرائق بلترة الطوائف والمجموعات والأقليات السفاردية والشرقية، وغيرها من الفئات والأقليات، التي تقع في الدرجات الدنيا من السلم المرتبي المجتمعي الصهيوني. وتظهر أبعاد البلترة، بقصد استغلال عمل أعضاء هذه المجموعات العرقية - الإثنية، في عديد المناحي الحياتية.

لعل في إحصاءات عام ١٩٧٩ عن التوزيع في مجال العمل، ما يدل على الاستنتاج الذي سبق وأوردناه حول سياسة البلترة وحشر الشرقيين في مجالات عمل محددة، تخدم بمحصلتها التنمية الاشكنازية. وتشير تلك الإحصاءات إلى أن الاشكناز المولودين في أوروبا وأمريكا يحظون بتمثيل كبير في المراتب الثلاث العليا من سلم الوظائف (مهن علمية وأكاديمية، مهن حرة ومدراء) في مجتمع الاستيطان الصهيوني. ان نسبة السفارديم لا تتعدى ٣٢,٧٪، كما وينطبق التمييز على أبنائهم من مواليد إسرائيل، والاشكناز ٤٦,٦٪ مقابل ١٦,٦٪ للسفارديم في المراتب نفسها. ويتجلى حضور السفارديم في المراتب الأربع السفلى (خدمات، زراعة، عمال مهن في الصناعة ومقالع الحجارة والمواصلات). حيث تبلغ نسبتهم ٦٢,١٪ مقابل ٣٨,٧٪ للاشكناز(٢) في

(١) أنظر: رضا سليمان – اعداد: "إسرائيل ٨٤ – أحداث ومواقف". مؤسسة الدراسات الفلسطينية. قبرص، ١٩٨٥، ص ٣٤ – ٣٥.

(1) Statistical Absinuct of Israel, 1980, pp. 324-325, 328-329.

المراتب نفسها. أما الأبناء في هذه المراتب، فالسفارديم ٦٫٥١٪ مقابل ٩٫٢٦٪ للاشكناز. إن هذه الإحصائية الرسمية تخفي عديد الحقائق، وعن أنها تزخر بحقائق التمييز.

تبدأ عملية الترتيب والتموقع المجتمعي باستيعاب المهاجرين، إذ أن الاستيعاب الاقتصادي لهم يتفق مع الأصول العرقية والإثنية والجغرافية لهم، كما أن المحدد الأساسي في عملية تموقعهم الوظيفي والاقتصادي والاجتماعي يستند إلى الأصل الإثنوغرافي[١]...

يولي عديد الباحثين الإسرائيليين أهمية كبيرة لدراسة الخارطة الإثنية – الطائفية لمجتمع الاستيطان، والسياسات الرسمية تجاهها وانعكاساتها على كافة البنى المجتمعية. ولقد برز من هؤلاء شلومو سبيرسكي – أستاذ العلوم الاجتماعية في جامعة حيفا؛ والدكتور سامي سموحه – عالم النفس في الجامعة ذاتها؛ والأستاذ حاييم ادلر – الجامعة العبرية؛ والدكتور عوزير شيلد – جامعة حيفا؛ والدكتور يهدا أمير – جامعة بار إيلان؛ والدكتور يعقوب ناهون.

ولقد أصدر الأخير بحثاً، يشكل وثيقة إدانة لسياسات التمييز والفصل الصهيوني، بعنوان: "أنماط الثقافة والدراسة وبنية فرص العمل – البعد الطائفي"، في الربع الأخير من عام ١٩٨٧[٢]. ويثبت د. ناهون في بحثه بأن جهاز التعليم الرسمي "ساهم في خلق طبقة عمال من ذوي الياقة الزرقاء، الذين في معظمهم، من الشرقيين من أصحاب الدراسة الثانوية المهنية"، و"وجه الشرقيين نحو المهن ذات المرتبة والأجر المتدنيين؛ ووجه الغربيين نحو المهن ذات المرتبة والأجر المرتفعين"؛ وهو ما ينطبق أيضاً على "سوق العمل" بالنسبة للمهاجرين حسب انتماءاتهم. ويؤكد البحث بأن سياسة توجيه الطلاب السفارديم نحو التعليم المهني والاشكنازيم نحو المجالات البيرقراطية والمراكز العالية، قصد منها "إنزال أبناء الطوائف الشرقية من جيل الأبناء إلى المستوى البروليتاري؛ مقابل تحويل جيل أبناء الطوائف الغربية في اتجاه المهن الحرة".

(١) وليم فهمي، مصدر سابق، ص ١٩١ – ١٩٢ و٢٠٧.

(٢) انظر: ياعل فيشباين: "لم تمت المساواة فقط، بل الوهم أيضاً". "دافار" ٢٣ أيلول ١٩٨٧، ترجمة ونشر "نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية". السنة الرابعة عشرة، العدد (١٠) تشرين الأول ١٩٨٧، ص ٧٦٦ – ٧٦٩.

وما هو جدير بالبيان، أن ما يسمى بـ"الثغرة" و"إسرائيل الثانية"... الخ، لا تزال تحافظ على نفسها عبر أجيال المستوطنين. ويذكر بحث د. ناهون، أنه منذ الستينات فإن معظم المديرين والمهندسين والمحامين، ومدققي الحسابات، والأطباء، يتحدرون من أصول غربية. وفي المهن الأكاديمية هناك واحد فقط من أصل عشرة من أصل شرقي. وقد ظلت هذه النسبة ثابتة طوال الثلاثين سنة الأخيرة" (؟!). وتظهر منهاجية سياسة البلترة والاستغلال المنهجي والرسمي الواعي، في توارث هذا التقسيم والفصل، إذ يدل البحث المذكور بأن معظم أبناء الشرقيين، هم عمال من ذوي الياقة الزرقاء مثل آبائهم ويشكل الأبناء ١، ٦٣ بالمائة من المستخدمين، في حين شكل الآباء ٤، ٦٤ بالمائة من هؤلاء. وفي المقابل تقدم أبناء الاشكنازيم على آبائهم، إذ أن هناك ١، ٢٩ بالمائة فقط منهم من العمال في مجالات الياقات الزرقاء، مقابل ٦، ٤١ بالمائة من جيل الآباء.

ولعل ما هو جدير بالتأكيد، أن الاشكنازيم في مجالات الياقات الزرقاء، هم من بين هؤلاء المصنفين في الفئات الدنيا منهم، والقادمين أساساً من بلغاريا واليونان وغيرها. في الوقت الذي تشكل فيه الفئات العليا نسباً لا تذكر بتاتاً. والاستخلاص الأساسي في بحث د. ناهون يتهم الحكومة والمؤسسة الاشكنازية بقوله، أن جهازها للتعليم "هو الذي يحدد مستقبل من سيكون (أزرق) ومن سيكون (أبيض)" (؟!).

تظهر نتائج وتجليات البلترة الصهيونية في معدلات الدخل. ويتبين أن متوسط دخل أبناء طوائف البلدان الإسلامية عام ١٩٧٨ كان بنسبة ٥٥٪ من متوسط دخل الأوروبي. ولو قسمت معطيات الدخل لعشرة أعشار لتبين أنه في عام ١٩٧٨، احتلت العائلات الاشكنازية ١، ٤٥٪ من المراتب الثلاث العليا، مقابل ٤، ١٢٪ من السفارديم الذين يبرزون في المراتب الثلاث السفلى بنسبة ٥، ٤٧٪ مقابل ١، ١٦٪ للاشكناز وتوضح (صحيفة دافار بتاريخ ٨٢/٥/٧) بناءً على معطيات المكتب المركزي للإحصاء: أن العشرين الأعليين للهرم الاجتماعي يحصلان على أكثر من ٤٠٪ من مجمل الدخل، في حين عام ١٩٧٧ حوالي ٣٦٪. في المقابل فالعشرين الأسفلين يحصلان على ٦٪ فقط من الدخل، في حين عام ١٩٧٧ حصلا على ٤، ٨٪، كما وأوردت (صحيفة يديعوت أحرونوت ٨٠/٥/٢) أن الفرق بين معدل دخل الأسر الاشكنازية والسفاردية بلغ ٣٤٪

عـام ١٩٧٦، بينمـا ٣٩٪ عـام ١٩٧٨، وهذا مـا يبـين أن الهـوة في الدخل في ارتفـاع مستمر(١).

كما وجدير بالانتباه، أن هناك تفاوتاً في الدخل بين مجموعات الشرقيين أنفسهم، فاليمنيون يحصلون على أقل أجر، يليهم يهود شمال إفريقيا ثم مهاجرو العراق. إلا أن أقل مستويات الدخل تتمثل في دخل أسر اليهود السود.

كما، أن السلطات الصهيونية؛ انتهجت سياسة الإبادة الثقافية تجاه المجموعات العرقية - القومية والدينية - الإثنية الشرقية، ويبدو ذلك واضحاً خلال عملية استيعابهم وتطبيق "خطة التوزيع السكاني" في الخمسينات إذ يولي حنان أنوش أهمية لذلك في بحث له، فيقول: أن عملية الاستيعاب "تخللها كذلك تحطيم واضطهاد، عجرفة وعدم اعتبار لتراث الحياة والتقاليد التربوية"، إذ استهدفت السلطات الصهيونية "تحطيم عزة النفس الذاتية والثقة للقوى التي استهدفت أن تكون قوة عمل رخيصة متنقلة وطيّعة بل وإظهارهم "كمساكين بدائيين... بدون علائم حضارية"(٢). ويعترف أربيه إلياف، وهو الصهيوني الاشكنازي، أنهم قاموا "بمصادرة ثقافة اليهود الشرقيين، وكان العديد منا يجهل كل شيء تقريباً عن ماضيهم وتراثهم الثقافي" و"جعلنا من اللغة والثقافة العربية موضوعاً للسخرية والاحتقار" بل "وأقنعنا الصغار بأن اللغة التي كانوا يسمعونها في المنزل كانت بدائية ولا بد من التخلي عن استخدامها"(٣).

وتتحدث تامار ماروز عن إبادة ثقافة السفارديم فقالت: "تعاملنا مع الطائفة الشرقية وكأننا كنا نتعامل مع أطفال. لقد رششناهم بالـ د. د. ت.، وقمنا باستئصالهم من تقاليدهم. لقد قللنا من شأنهم لنكبر نحن"(٤). ويروي أحد مهاجري يهود الهند عام ١٩٥١ بأنه "قيل لنا في بئر السبع أنه يتحتم علينا أن نأكل الخبز الأسود لأننا من السود؛ أما الخبز الأبيض فإنه للبيض وحدهم"؟!(٥) ولقد تعاملت السلطات الاشكنازية

(١) انظر: حبيب قهوجي: "بنية ومشاكل..."، مصدر سابق، ص ٢٢٠ - ٢٢١ و٢٢٤.

(٢) حنان أنوش: "الطوائف الشرقية في منظار طبقي". مجلة "الدرب" حيفا، العدد (١) نيسان ١٩٨١، ص ٣٥.

(٣) أربيه الياف: "الحلم الذي تحول إلى كابوس". مصدر سابق، ص ٨٩.

(٤) "هآرتس"، ١٣ أيلول ١٩٨٥، عن مجلة "الأرض".

(٥) وليم فهمي، مصدر سابق، ص ١٣٥.

مع يهود الحضارة الإسلامية والعربية، عبر سياسة منهجية استهدفت إبادتهم الثقافية والحضارية وهويتهم الخاصة(١).

قادت هذه السياسات إلى اغتراب شديد بين الشرقيين والغربيين، وشعر الشرقيون بعد وصولهم بالتمييز وسياسة الإبادة الثقافية. ويصف الأديب والمسرحي حاييم، وهو من يهود المغرب تلك النتائج بالقول: "إذن تشعر بالعقم واليتم والعُزلة والقهر والاضطهاد. أنت شخص غير مرغوب فيه وغير لازم. رجل لا أحد يعني بثقافتك، موسيقاك ليست موسيقاهم، وأغانيك ليست أغانيهم، وبالطبع، قيمك ليست قيمهم"(٢).

ولا يتورع الصهاينة عن الإجهار، بحقيقة سياسة الإبادة الثقافية والحضارية، للمجموعات والأقليات السفاردية والشرقية، التي يتبعونها. فبن غوريون قال: "إننا لا نريد أن يصبح الإسرائيليون عرباً، ومن واجبنا أن نحارب الروح الشرقية التي تفسد الأفراد والمجتمعات (...) فمن الأفضل أن يتمثل الشرقيون العقلية الغربية، بدلاً من أن يجرونا إلى استشراق مخالف للطبيعة". ويكمل أبا إيبان الجنوب إفريقي هذا القول، بإعلانه: "غايتنا أن نغرس فيهم الروح الغربية، وليس السماح لأنفسنا بأن ننجر إلى استشراقية مصطنعة"(٣).

وهكذا، انبرت المؤسسات الصهيونية، وخاصة مؤسسات الاستيعاب والهجرة، والمدارس والجيش، في ترجمة السياسة الرسمية القائمة على أساس "عملية مسح دماغ" شاملة وإعادة صياغة وصهر الأصول والخلفيات والثقافات المتباينة والمتعددة للمهاجرين اليهود، وإبادة مستوى وأنماط القيم والأنساق المعرفية - الثقافية - الحضارية للمجموعات الشرقية والسفاردية. ولقد استهدفت هذه السياسة، فرض الثقافة والمفاهيم المعرفية الغربية الاشكنازية؛ أي تغريبهم. ولقد استطاعت المؤسسة الصهيونية، التي تقوم على الهيمنة والتحكم والمحوطة الشاملة الاشكنازية من الارتكاز على عوامل أساسية ثلاثة، وهي:

(١) للتفصيل، يمكن مراجعة: وجيه حسن قاسم (أبو مروان): "نظرة جديدة..."، مصدر سابق، ص ٧ - ٢٤ و٤٥ - ٦٠.

(٢) مجلة "الأرض". العدد (٣) ٢١ تشرين الأول ١٩٨١، ص ٣٢.

(٣) يمكن الاستزادة، من:

- شالوم كوهين: "المنفى في العودة - الوضع السفاردي عام ١٩٧٨". في كتاب: "إسرائيل الثانية..."، مصدر سابق، ص ١٢٢.
- أشرف راضي: "الفجوة..."، مصدر سابق، ص ١٢٦ - ١٢٧.
- وثيقة الأمم المتحدة، رقم (أ / ب. ف، ٢٣٩٨)، ص ٤٨ / بالروسية.
- ديمه عبد الرحمن: "يهود المغرب العربي في إسرائيل". مجلة "شؤون فلسطينية". العدد (١٢٠) تشرين الثاني ١٩٨١، ص ٦٩.

أولاً: اشكنازية فكرة المشروع الاستيطاني؛

ثانياً: الشعور بالتفوق الثقافي والحضاري والتقني؛

ثالثاً: المؤسسة الاشكنازية الحاكمة.

ولقد عجلت هذه العوامل الثلاثة على تحقيق إبادة ثقافة اليهود الشرقيين، وزرع وفرض الأنماط والثقافة الغربية الاشكنازية للصهيونية عليهم. ولقد جعلت المؤسسة الاشكنازية الحاكمة من احتقار كل ما يتصل بالشرق وثقافته "أحد المراسي العرقية لليهودية الاشكنازية"(١).

شكلت ولا تزال، إشكالية تمشرق مجتمع الاستيطان الصهيوني، قضية مركزية في التخطيط الرسمي الإسرائيلي. ولقد أدت طفرة هجرة يهود المشرق، وخاصة العربية، بين أعوام ١٩٤٨ وحتى نهاية الخمسينات، إلى تغيير درامي للتركيبة المجتمعية. ففي حين شكل يهود آسيا وإفريقيا حتى عام ١٩٤٨، نسبة ١٠,٤ بالمائة من إجمالي المستوطنين، ازدادت نسبتهم بين أعوام ١٩٤٨ - ١٩٥١ إلى ٤٩,٧ بالمائة، وتزايدت في أعوام ١٩٥٢ - ١٩٥٤ إلى نسبة ٨١ - ٧٠ بالمائة، وعادت للهبوط تدريجياً؛ ولكنها بقيت حتى نهاية عقد الثمانينات تشكل نحو ستين بالمائة(٢). ولقد شكلت الأقلية المغربية اليهودية، أكبر التجمعات الإثنية - الحضارية في الكيان عموماً.

ومع تبلور الملامح الشرقية والسفاردية لإسرائيل، وظهور الاستقطاب الطائفي العمودي بين السفارديم والاشكنازيم من جهة، وتمحور وتبلور التجمعات الشرقية بتعبيراتها المنظمة، وخاصة حركة الفهود السود في السبعينات؛ استشعرت السلطات الاشكنازية ذلك، بعدما فشلت في إنجاح سياسة الاستيعاب والدمج. ولقد ركزت السلطات الصهيونية على انتهاج إجراءات كثيرة للحيلولة دون تعمق اختلال موازين القوى الديمغرافية، واستخدمت لذلك وسائل عديدة، أبرزها تشجيع الهجرة اليهودية من بلدان شرق أوروبا، لإحداث توازن بين السفارديم والاشكنازيم، ووضع العراقيل أمام هجرة شرقية وإفريقية مكثفة، هذا إلى جانب اتباع أساليب التنشئة الاشكنازية لضمان

(١) د. رشاد الشامي، مصدر سابق، ص ٩٨.

(٢) انظر: محمد جمال عرفة: "التعددية في المجتمع الإسرائيلي". مجلة "المستقبل العربي". السنة الثامنة، العدد (٨٢) كانون الأول ١٩٨٥، ص ٥٤.

السيطرة والهيمنة على هؤلاء[١].

إن أول الإجراءات المتحدة تمثلت، في سن قانون جديد للهجرة، في أعقاب الدفق الواسع لليهود الشرقيين في الخمسينات. ولقد استهدف ذلك القانون التركيز على الاختيار للمهاجرين، والتقليل من المهاجرين الشرقيين. فالقانون نص على أن لا يتجاوز عمر المهاجر عن خمسة وثلاثين عاماً، وأن يتعهد خطياً بالعمل سنتين في الزراعة، ولا يسمح للعائلات التي يزيد عمر معيلها عن خمسة وثلاثين عاماً. ويتبين أن السلطات قد وضعت هذا القانون "آملة انخفاض الهجرة من بلدان الشرق الأوسط وشمالي إفريقيا، وازديادها من البلدان الأوروبية والأمريكية"[٢].

ومع بداية الهجرة الأوروبية، وخاصة من بلدان أوروبا الشرقية والاتحاد السوفييتي في أواسط الستينات، سنت الحكومة قانوناً عام ١٩٦٨، يقدم مجموعة تسهيلات وامتيازات للمهاجرين، كإعفاء أولادهم من الأقساط المدرسية والضريبة على أمتعتهم.

ويسود رأي في أوساط الاشكناز، ينحاز إلى وقف هجرة يهود آسيا وإفريقيا عموماً، بل ويطالب حتى بتخطأة قبولهم أصلاً. ففي كتابة "الثورة الاشكنازية"، يقول كالمان كاترتلسون: "ومع أن الأمة الاشكنازية العليا قد أرسلت لتحكم، إلا أنها ارتكبت خطأ فاحشاً حين قبلت اليهود من الدرجات الدنيا من غير الاشكنازيين. ويتطلب ذلك أول ما يتطلب حماية الدولة من أن تتآكل سيطرتها ويتحقق دمار إسرائيل"[٣]. هكذا، يتبين أن المشروع الصهيوني اشكنازي المنشأ والجوهر، وأطروحته "الأمة اليهودية" قصد بها يهود أوروبا فقط. والعالم كان أيضاً أوروبا، حيث حينما ظهرت الصهيونية سادت في أوروبا التي هي ربيبة الصهيونية، أن كل ما هو خارجها "متخلف" و"غير حضاري"؛ ويتميز بهذا الشعور يهود وسط أوروبا وشرقها[٤]...

وبغية تعديل الميزان الديمغرافي، لم تدخر الصهيونية وسيلة من أجل تهجير يهود بلدان أوروبا الشرقية، وخاصة من الاتحاد السوفييتي. ولقد استطاعت مؤخراً، تحت

(١) انظر:
- د. رشاد الشامي، ص ١٠٠.
- ليف كورنييف: "الجوهر الطبقي..."، ص ٢٢٣ – ٢٢٤.
- غورا ف. ك. "تأزم الوضع..."، ص ٩٥.

(٢) إلياس سعد: "الهجرة اليهودية إلى فلسطين المحتلة". مركز الأبحاث الفلسطيني، بيروت، ١٩٦٩، ص ٦٦ و٦٩.

(٣) مجلة "الأرض"، العدد (٢١) ١٩٧٩/٧، ص ٣٤.

(٤) د. قدري حفني، مصدر سابق، ص ١٧٥.

وقع الأحداث والمتغيرات الدرامية هناك، من فتح أبواب خزان الهجرة السوفييتية على مصراعيها. فمثلاً، تم تهجير نحو (٢١٦,٣٤٧) يهودياً في الفترة الواقعة بين آذار عام ١٩٩٠ ونيسان عام ١٩٩١، بينهم (٢٠٠,٢٩٨) يهودياً سوفييتياً[١]. ولقد علق بعض زعماء اليهود الشرقيين على هذه الهجرة، والآثار المترتبة عليها، بقولهم أنها "ستحل مشكلة الاشكناز الديمغرافية في إسرائيل الصغرى، وفي إسرائيل الكبرى"[٢].

في هذا القول دلالات هامة. إذ أنه بفعل الهجرة الاشكنازية العارمة الراهنة والمنظورة، تحقق السلطة الاشكنازية، أهدافاً طالما كانت بالنسبة إليها مجرد سراب وحلم يصعب تحقيقهما. والهجرة الاشكنازية – الشرق أوروبية – جاءت في وقت وصلت فيه الأزمة الديمغرافية إلى قمتها وأوجها؛ فانقلبت التوقعات، وكأنها انقلاب حقيقي. وبغية الاستثمار الأفضل للهجرة العارمة، وضعت وزارة الداخلية والمؤسسات الصهيونية الأخرى خطة جديدة لتوزيع السكان، تمتد على خمسة أعوام؛ وبدأت بتنفيذها فعلاً[٣]. وتتوقع السلطات أن يصبح عدد المستوطنين في إسرائيل عام ١٩٩٥ نحو ٦,٣ ملايين. وكشف أوري غوردن في ٢٨ آب عام ١٩٩١، عن أن السلطات قد استوعبت ونقلت ثلث المهاجرين، الذين وصلوا إلى (٣٤٧,٥٠٠) شخصاً، والقادمون منذ عام ١٩٨٩، في منطقة الشمال. والجدير ذكره أن هناك غالبية كبرى من سكان هذه المنطقة، من اليهود السفارديم والشرقيين. وبفعل هذه الخطة وترجماتها حتى تاريخه، ازداد عدد سكان صفد بنحو ٢٢ بالمائة؛ والناصرة العليا بنحو ٢٠ بالمائة؛ ومعالوت بنحو ٢٠ بالمائة أيضاً؛ بينما استوعبت مدينة حيفا الرقم القياسي، إذ استوطن فيها ٢٧ ألفاً، وفي تل أبيب ٢١٢٠٠، وفي القدس ١٨ ألفاً[٤]...

إذ كانت هذه الأرقام والإحصاءات الصماء تظهر المتغيرات في ما يطلق عليه الصهاينة بـ"إسرائيل الصغرى"، وخاصة في منطقة الجليل الذي استعصى طوال السنوات على التهويد؛ فإنها أيضاً ذات دلالة خطيرة على الميزان الديمغرافي اليهودي – العربي الفلسطيني. ففي تقرير أعدته الوكالة اليهودية مؤخراً، يظهر بأن الهجرة

(١) عن تقرير للوكالة اليهودية، نشرت مقتطفات منه، صحيفة *"القدس العربي"*. بتاريخ ١١ آب ١٩٩١.

(٢) "حداشوت" بتاريخ ١٩٨٩/١٢/١١، عن تقرير خاص.

(٣) *"الحياة"*، ٩ آب ١٩٩١.

(٤) *"الحياة"*، ٢٩ آب ١٩٩١.

المتوقعة حتى عام ١٩٩٤، ستؤخر عشر سنوات المساواة بين عدد السكان اليهود والعرب في ما يسمى بـ"إسرائيل الكبرى". والتساوي في الميزان الديمغرافي كان متوقعاً حدوثه في العام ٢٠١٥ تقريباً، إلا أنه وبفضل الهجرة الراهنة لن يتم إلا في العام ٢٠٢٥؛ حيث ستكون نسبة زيادة اليهود ٣٥ بالمائة، ولولا الهجرة لاقتصرت نسبة زيادتهم على ١٣ بالمائة فقط. وبفضل هذه الهجرة، وفي غضون أربعين عاماً، سيعيش نحو نصف يهود العالم في إسرائيل مقابل الثلث في الوقت الراهن(١).

إن إحدى جرائم الفصل العنصري المقيتة، والتي تندرج في عداد أحد أشكال ممارسة الإبادة، تتمثل في فصل الأطفال عن أسرهم وإخفائهم نهائياً... فلقد مارست الصهيونية هذا الشكل، على المجموعات العرقية – الإثنية اليهودية، مبكراً، وبشكل يثير الاستهجان.

فعشية صعود النازية، نظمت الحركة الصهيونية حملة تهجير للأطفال، من بلدان شرقي أوروبا خاصة. وكانت تنتزعهم من أسرهم، تحت التهويل من الأخطار النازية، والضغوط والتهديدات الصهيونية. ولقد نجحت الصهيونية إبان أعوام ١٩٣٣ – ١٩٧٠ من تهجير مائة وأربعون ألف طفل، بعد فصلهم من أسرهم، وسرقة بعضهم واختطافهم. ولقد شكلت لهؤلاء "عالمهم الصهيوني الخاص" في الكيبوتسات ومراكز التدريب العسكري والمهني. وتشير الإنسوكلوبيديا اليهودية، إلى أن خريجي "هجرة الأطفال شكلوا عام ١٩٧١، أكثر من عشرة بالمائة من مجموع السكان من فئة العمر ١٥ – ٥٠ عاماً؛ وهم يشكلون نحو عشرين بالمائة من أعضاء الكيبوتسات، وثلاثين بالمائة من أعضاء كيبوتسات المتدينين"(٢).

ويروي الصحفي بروخ نادل، أن ممثلي الوكالة اليهودية اختطفوا حوالي ستين طفلاً صغيراً من بيوت أهلهم في العراق وأرسلوهم إلى الكيبوتسات. وأشارت مصادر أخرى، إلى أن ٤٣٠ طفلاً قد فصلوا عن أسرهم واختفوا نهائياً، من الأسر اليهودية اليمنية في الأعوام ١٩٤٩ – ١٩٥٢؛ والتي لا تزال مشكلة مطروحة من أسرهم على محكمة العدل الإسرائيلية، لاسترداد أطفالهم. ويعلق بروخ نادل على الجريمة الصهيونية هذه،

(١) *"القدس العربي"، ١٠ – ١١ آب ١٩٩١.*

(1) Encyclopedia Indaica, Vol. 16, pp. 861-865.

ساخراً، بقوله: "وجدوا أن من حقهم أن يفعلوا ذلك، لأنهم (أنقذوا) الأولاد من أهلهم المتخلفين"(١).

والصهاينة لا ينكرون الجريمة، بل يعترفون بها. ولقد وصل بن غوريون أن يهدد جمع من الأمريكيين القادمين إلى إسرائيل، ومن خلالهم، في نهايات آب عام ١٩٤٩، بالقول: "ونحن نناشد الآباء والأمهات أن يساعدونا على نقل أطفالهم إلى هنا. ولكن، حتى لو امتنعوا عن مساعدتنا، فإننا سنعمل على نقل هؤلاء إلى إسرائيل، بيد أنني آمل أن لا يستدعي الأمر ذلك"(٢).

والجريمة المتمثلة بفصل الأطفال عن أسرهم، واختفائهم واختطافهم نهائياً تترافق مع عذابات شنيعة. ولقد كشفت حركة "ناطوري كارتا" جزئياً عن ذلك، بتأكيدها أن سرقة الأطفال اليهود، والتي لا تزال قائمة، ترافقت مع أن "أطفالاً يهوداً من دول مختلفة، تمت سرقتهم، وأن بعضهم قد مات في الطريق إلى إسرائيل"(٣).

والدلالة على أن هذه الجريمة، لا تزال تمارس من قبل المؤسسة الاشكنازية الحاكمة، ما تم كشفه عن أن الوكالة اليهودية قد فصلت نحو (٢٢٠) طفلاً من طائفة الفلاشا الاثيوبية، عن أسرهم، وأسكنتهم بعيداً عن أهلهم في مدينة صفد، وبإشراف اشكنازي(٤).

إن ما تم كشفه عن سرقة وفصل واختفاء الأطفال، لا يشكل إلا جزءاً من الجريمة الفصلية والإبادية الصهيونية. وتنضوي هذه الجريمة في إطار جريمتي الفصل والإبادة، وخاصة الأخيرة، بموجب المادة الثانية من كل من المعاهدتين الدوليتين الخاصتين بهما.

وتمثل ظاهرة التمييز والفصل في المجالات التعليمية، أحد أوجه السياسات العنصرية والفصلية الصهيونية، في سياق تنفيذ سياسة "العدمية الثقافية" ضد

(١) للاستزادة والتوسع:
- بروخ نادل: "بعينين اشكنازيتين"، مصدر سابق.
- مجلة "الأرض". العدد (١٧) ١٩٧٩/٥/٢١، ص ١٣.
- مجلة "الأرض". العدد (١٠) ١٩٨٥/٢/٧، ص ٥٥.

(٢) انظر: ألفرد أ. ليلينتال: "المناورات الصهيونية لاستدراج اليهود للهجرة إلى إسرائيل". في مجموعة أبحاث ندوة طرابلس في الجماهيرية حول "الصهيونية والعنصرية في تموز عام ١٩٧٦" في كتاب "الصهيونية حركة عنصرية". المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت، ١٩٧٩، ص ٥٣.

(3) New York Times, 19.1.1986.

(٤) معاريف" بتاريخ ١٩٨٥/١/١٨ عن مجلة "الأرض".

الشرقيين. فمنذ الصفوف الأولى أوجدوا تقسيمات بحسب الأصل العرقي - القومي والديني - الإثني للطلاب "لاعتبار أن ٩٠٪ من التلاميذ الشرقيين يعتبرون مُعَوَّقين ثقافياً"(١)، ولذا اتبعوا سياسة فصلهم في صفوف خاصة بهم. وتدل الإحصاءات الرسمية لعام ١٩٧٩ أن ٣٢,٢٪ من أبناء الطوائف الشرقية أنهوا دراستهم الثانوية وفوق الثانوية والجامعية، مقابل ٦٦,٢٪ من الغربيين، وأن ٤٣٪ من الشرقيين أنهوا تعليمهم في ثانويات مهنية وزراعية، مقابل ٢٤٪ من الغربيين(٢). إن هذه الإحصاءات لتؤكد أن المناهج الخاصة بالشرقيين في صفوف "المعوَّقين ثقافياً" قد وضعت، كما يقول ميكائيل الباز، بحيث "تصنع منهم عمالاً مهنيين أو شغيلة منفذين، يفون بحاجة البنية الصناعية الإسرائيلية ولصالح رأس المال"(٣).

أدت هذه السياسة إلى انقسام وانفصام في جهاز التعليم الإسرائيلي، والذي أدى إلى تكريس "العدمية الثقافية" بين الشرقيين، والذي يسميه أرييه الياف بـ"الظلم" الذي سيخلق "مجتمعين"(٤)، غير متجانسين، بل ويُفند أرييه إلياف، مزاعم مقولة أن الجيش يشكل "بوتقة لصهر التجمعات الإثنية"، مشيراً إلى التمييز اللاحق بأبناء الطوائف الشرقية في الجيش نفسه، كمؤسسة صهيونية.

ولقد أدى القانون الصادر عام ١٩٦٨، والقاضي بإعفاء أولاد المهاجرين القادمين بعد عام ١٩٦٣، وأغلبيتهم الساحقة من الغربيين، من أقساط المدارس، إلى تمييز واضح ضد الشرقيين، التي قدمت أغلبيتهم قبل ذلك، وبذلك أثقلوا بالتبعات المالية العالية... أدى هذا القانون إلى تحول العديدين من أبناء الطوائف الشرقية للمدارس الدينية والحزبية، إذ نجد أن ٥٠٪ من طلبة المدارس الابتدائية الرسمية منهم، بينما ٧٥,٤٪ في المدارس الابتدائية الدينية، و٤٧,٦٪ في المراحل الإعدادية الأولى بينما ٨٢,٣٪ في المماثلة في الثانية، و٩٧,١٪ في المراحل الإعدادية التابعة لنظام "التعليم المستقل" التابع لحزب لأغودات - إسرائيل(٥).

(١) ميكائيل الباز، مصدر سابق، ص ١٢١.

(1) Statistical Absinact of Israel, 1980, p. 580.

(٣) ميكائيل الباز، مصدر سابق.

(٤) أرييه الياف: "سقط الحساب". في كتاب: "إسرائيل الثانية..."، ص ٢٧ و٢٩.

(٥) حنان أنوش: "الطوائف الشرقية..."، ص ٣٨.

أدت هذه السياسات الرسمية، إلى أن يطالب زعماء الشرقيين، بإلغاء نظام التعليم المعمول به حسب قانون ١٩٥٣، واستبداله بنظامين للتعليم، أحدهما اشكنازي والآخر سفاردي[١] أي رفض مبدأ الثقافة الأحادية التي تستهدف ترسيخ "العدمية الثقافية" من قبل النخبة الاشكنازية المسيطرة على مقاليد الدولة، واعتماد مبدأ التعددية الثقافية. إلا أن السلطات ترفض ذلك رسمياً، وتطبقه عملياً. يبدو ذلك جلياً، بسماحها افتتاح جامعة خاصة بطائفة المورميين اليهودية في القدس؛ والتي تظاهر عشرات الآلاف الإسرائيليين بتاريخ ١٩٨٥/١١/١٤، احتجاجاً على افتتاحها، بعدما سمح تيدي كوليك - رئيس البلدية - بذلك. والتظاهر ضد افتتاح الجامعة، يعود إلى خلافات في الأوساط الدينية؛ حيث يتهم بعضها بأن طائفة المورميين تقوم بنشر دعوتها بين اليهود، وبأنها تتستر وراء أردية وأنشطة ثقافية[٢]. والمسألة لم تتعلق بتاتاً بمناهضة سياسات الفصل التعليمي، الذي يضرب جذوره في كافة المؤسسات التعليمية.

ولتبيان سياسات السلطة الاشكنازية، والدائرة في محيطها، على الصعيد التعليمي والتربوي؛ نعود مجدداً لنتائج بحث د. يعقوب ناهون، سابق الذكر، بشأن "أنماط الثقافة والدراسة وبنية فرص العمل - البعد الطائفي"[٣]. فأحد أبرز استنتاجاته تمثل في أن "جهاز التعليم الإسرائيلي ينمّي عدم مساواة طائفية وطبقية، ويستعمل كأداة أساسية للمحافظة على عدم المساواة"، وهو "جهاز غير عادل ينمّي الثغرات بين الطوائف والطبقات"، وهو إلى جانب كل ذلك "لم يحقق نبوءة مؤسسي الدولة في دمج جاليات المنفى، بل على النقيض من ذلك عمّق الثغرة بين أبناء الطوائف الشرقية وأبناء الطوائف الغربية". ولقد استخدم الجهاز الرسمي التعليمي أسلوب العدمية الثقافية والحفاظ على توارث التدني الثقافي - التعليمي للشرقيين والسفارديم، حيث وضع هؤلاء "في مدارس ذات مستوى متدن. ونالوا أساتذة من مستوى قليل الجودة (...) وخلقت سياسة توزيع السكان تجمعات كبيرة للمهاجرين الشرقيين في المحيط غير المتطور".

(١) حسين خشبه: *"الاستراتيجية الاجتماعية للكيان الإسرائيلي". في كتاب "الاستعمار الاستيطاني في فلسطين"، الجزء الأول، مصدر سابق، ص ١٥٣ و١٦٧.*

(٢) مجلة *"فلسطين الثورة"، العدد (٥٨٤) بتاريخ ١٩٨٥/١١/٢٣.*

(٣) ياعل فيشباين، *"لم تمت المساواة فقط..."، مصدر سابق.*

ويشير د. ناهون في خلاصات بحثه إلى أنه "في المدارس التي كان من المفترض أن تكون اندماجية، حدثت عملية معاكسة للدمج"، مضيفاً إلى أن "جهاز التعليم عمل بتوجهات (اشكنازية سلطوية - ك. ق.) خلقت تمييزاً بين الطوائف". ويدلل د. ناهون، على ترهات وأطروحات تقدم الشرقيين مع الزمن، بتأكيده أنه "ومنذ الستينات، وحتى اليوم لم يرتفع الحجم النسبي لأبناء الطوائف الشرقية في التعليم العالي. ومنذ ثلاثة عقود كان هناك تلميذ شرقي بين كل خمسة تلاميذ. واليوم أيضاً ما زالت النسبة هي نفسها". أما شأن حملة شهادة الدكتوراه، فيقول:

"هناك واحد فقط من أصل عشرة من أصل شرقي. وقد ظلت هذه النسبة ثابتة طوال الثلاثين سنة الأخيرة".

والمؤسسة الحاكمة الاشكنازية، قبلت وارتضت التقسيم العمودي للتعليم بين المجموعتين الدينية وما يطلق عليه بـ"العلمانية"، ولقد تطور هذا النظام الفصلي منذ سنوات الانتداب، وبقي ساري المفعول حتى يومنا هذا. وتحول هذا النظام الفصلي العام، إلى أنظمة فصلية أصغر في التطبيق والممارسة في إطار كل طائفة دينية؛ بحيث يمكن الحديث عن أنظمة فصلية تعليمية في عديد الأقليات والطوائف وكذلك الأحزاب والحركات الطائفية؛ حيث "بذلت كل الحركات الإيديولوجية - كل في مجالها - قصارى جهدها من أجل التطوير، ليس في مجال التعليم فحسب، وإنما في مجالات الاقتصاد والمجتمع والثقافة أيضاً" - كما يكتب البروفيسور اليعيزر شافيد، من قسم الفكر الإسرائيلي في الجامعة العبرية في القدس.

إن ما تقدم من استخلاصات واستنتاجات، لاثنين من أهم الباحثين الأكاديميين الصهاينة، لا يمكن التشكيك فيها ولا فيهما أيضاً. وهي، على كل حال كافية، كما يبدو، لتبيان أوجه ونتائج ووسائل التمييز والفصل الصهيوني، العنصري - الإثني والديني - الطائفي والحضاري - الثقافي بين المجموعات والأقليات ذات الديانة اليهودية في إسرائيل. فالانفصال والفصل هذا، أدى إلى "أن كتلة إيديولوجية، أخذت تطور (...) نظامها التعليمي، بل وبلورت أيضاً أطراً طائفية، ونتاجاً ثقافياً خاصاً بها"[1] لحماية طائفتها ومجموعتها البشرية من سياسة التغريب والإبادة الثقافية الصهيونية، ومواجهة

(1) اليعيزر شافيد: *"العلاقات بين المتدينين والعلمانيين..."*، مصدر سابق، ص ٢٩٤.

سياسات الهيمنة الاشكنازية العدمية تجاهها.

منذ سنوات الاستيطان الأولى، تصاعدت ظاهرة التنافر والصراع الطائفي، فارتضت الطوائف المتعددة بالفصل السياسي بينها. علت وخفت وتائره، بمستوى احتدام أو خفوت، الممارسات الصهيونية العنصرية الفصلية. فلقد أقرت سلطة الانتداب، قانون تنظيم الطائفة اليهودية في كانون الثاني عام ١٩٢٨، وذلك بتقسيم الحاخامية، إلى حاخامية اشكنازية وأخرى سفاردية، ومجلس حاخامي من ستة أعضاء بالمناصفة. كما برزت القوائم السفاردية، وخاصة اليمنية المستقلة في مؤتمرات المنظمة الصهيونية العالمية منذ العشرينات.[١] والجدير بالاهتمام، أن الأحزاب السياسية الصهيونية "بدأت كأحزاب طائفية متعصبة"[٢]، وأوروبية المنشأ والمعتقدات وأسس التنظيم، وما يزالا حزبي "أغودات يسرائيل" و"بوعالي أغودات يسرائيل" يحافظان على طابعهما الاشكنازي[٣].

إلا أن تغير الموازين الديمغرافية، والخوف من ظهور أطر حزبية مستقلة لليهود الشرقيين، كان أحد دوافع الأحزاب الاشكنازية الكبيرة والصغيرة لفتح أبوابها أمام السفاردين؛ إلا أنها في الوقت ذاته، حشرتهم وفصلتهم في دوائر خاصة بهم...[٤] وتبين مجرى التطورات، بأن السفارديم في تلك الأحزاب، كان مآلهم الانفصام عنها وتشكيل أحزاب طائفية، كما حصل وحزب "تامي" (حركة تراث إسرائيل) المغربية، و"شاس" (رابطة السفارديم المدافعين عن التوراة)، كما والهزات الحزبية التي تصف بها تكتل "الليكود"، تشير إلى احتمال انشقاق الشرقيين عن النخبة الاشكنازية – البولندية. لذا، فالأحزاب الاشكنازية تزيّن قوائمها الانتخابية للكنيست بممثلين سفارديين، لجذب الأصوات الشرقية، وللإبقاء على الشرقيين في خدمتهم وفي إطارهم الحزبي.

إن في الدراسة التي أجراها عضو الكنيست شفيح فايس من حزب العمل (دافار ١٥/٨/١٩٨٤) حول تركيب الكنيست آنذاك، كافية لإعطاء صورة تقريبية حول التركيبة

(١) *المصدر نفسه*، ص ٢٩٣.

(٢) حنه شاهين: *"الهوة الطائفية في التمثيل السياسي في إسرائيل"*. مجلة *"شؤون فلسطينية"*. العددان (١٣٨ – ١٣٩) ١٩٨٤، ص ٩٩.

(٣) د. أسعد رزوق: *"نظرة في أحزاب إسرائيل"*. مركز الأبحاث الفلسطيني. بيروت. ١٩٦٦، ص ٢٨.

(٤) حنه شاهين: *"الهوة الطائفية..."*، ص ١٠٣.

العرقية – القومية والدينية – الإثنية في الكنيست الصهيوني. يتبين من تلك الدراسة أن (٧١) عضواً من مواليد إسرائيل، بينهم (٥٦) اشكنازي و(٨) سفاردي و(٧) عرب فلسطينيين. أما مواليد المغرب، فعددهم (١١)، وبولونيا (١١) أيضاً، والعراق (٦)، و(٣) من مواليد كل من لتوانيا ورومانيا واليمن، و(٢) من مواليد كل من النمسا وألمانيا وإيران وروسيا، و(١) من مواليد كل من جنوب إفريقيا وبلغاريا والولايات المتحدة وأفغانستان[١]. ولم تختلف الصورة كثيراً في انتخابات الكنيست الحادي عشر والثاني عشر أيضاً، على الرغم من زيادة نسبة تزيين القوائم الانتخابية بشخصيات شرقية وسفاردية، لكسب أصوات اليهود السفارديم والشرقيين[٢].

وفي قراءة لثماني دورات انتخابات للكنيست، يتبين أن من بين (٣٧٤) عضواً كان هناك (٣٧) شرقيون؛ أي بنسبة (١٠) بالمائة فقط، في حين سيطر اشكنازيو يهود شرق أوروبا على (٢١٥) مقعداً منها[٣].

أما على صعيد الوزارات فلقد كانت النسبة بينهم أيضاً معبرة. فحتى الكنيست الحادي عشر، تبين أن كل حكومات إسرائيل ضمت عشرة وزراء شرقيين من مجموع (١٢٠) وزيراً[٤].

وفي العقد الأخير، بدأت تتبلور الأحزاب الطائفية الشرقية، لخوض الانتخابات وتحسين تمثيلها السياسي. فلقد انسحبت قاعدة هامة، من القوائم والأحزاب الاشكنازية، وشكلت أحزاباً وكتلاً طائفية حزبية مغلقة؛ كتامي، شاس وغيرها. وتميزت تلك الفترة ببروز فعالية يهود شمالي إفريقيا، وخاصة المغاربة[٥]. وفي انتخابات الكنيست الثاني عشر تقدمت (٢٧) قائمة انتخابية، (١٤) منها جديدة تماماً. وتتميز هذه القوائم والأحزاب، بكثرة الانسلاخات والانشقاقات على أسس طائفية صرفة. فمثلاً، انشق اليهود التونسيون عن "حركة شاس" التي تتشكل أساساً من الطوائف

(١) مجلة "الأرض". العدد (٢٤) ١٩٨٤/٩/٧، ص ٥٧.

(٢) للتفصيل، انظر: نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية. العدد (١١) تشرين الثاني ١٩٨٨.

(٣) حنه شاهين: المصدر السابق، ص ١٠٨.

(٤) المصدر ذاته، ونفس الصفحة.

(٥) سمير جبور: "انتخابات الكنيست الحادي عشر ٨٤: الأبعاد السياسية والاجتماعية". مؤسسة الدراسات الفلسطينية. سلسلة الدراسات (٧١). قبرص، ١٩٨٥، ص ١٨٥ – ١٨٦.

والأقليات المهاجرة من بلدان المغرب العربي، في أعقاب الانتخابات، بتاريخ ٥ كانون الأول عام ١٩٨٨، وأعلنوا عن إقامة حركة جديدة برئاسة مئير مازوز.

ولا تتوقف عملية توليد الأحزاب الطائفية المعبرة عن الأقليات والمجموعات العرقية - الإثنية والدينية - الطائفية. فها هو أحد نشطاء يهود الفلاشا يتحدث عن رغبته بتشكيل حزب لطائفته مع قدوم الانتخابات القادمة. وبتزايد المجموعة السوفييتية، والتي أصبحت المجموعة العرقية الإثنية الأكبر في التجمعات الاستيطانية، أعلن يوسف حورول، وهو مهاجر سوفييتي منذ أكثر من عشرين عاماً، بأنه يعمل على تشكيل تنظيم سياسي، خاص باليهود السوفييت، تحت اسم "تساعد"(١).

وعلى الرغم من أن كافة هذه الأحزاب والكتل الطائفية، تسعى لتحسين وضعها التمثيلي في الكنيست وغيرها من المؤسسات الحكومية، بالصراع مع الهيمنة الاشكنازية؛ إلا أنها تمثل أيضاً استقطاباً سياسياً "عرقي - إثني وديني - طائفي وحضاري - ثقافي"، يزيد من وقائع الفصل بينها.

وتظهر سياسات التمييز والفصل في مؤسسة الجيش الإسرائيلي. وعلى الرغم من الادعاء الصهيوني، بأن الجيش يشكل مدرسة وبوتقة صهر المجموعات والأقليات والطوائف، فإن حقيقة ما يجري هناك، يثبت العكس تماماً.

لقد تصدى الباحث سامي سموحه، في أحد أبحاثه الخاصة بالأزمة الطائفية، لهذه المسألة، وأصدر بحثاً ميدانياً ووثائقياً بعنوان "الطائفية والجيش في إسرائيل: أطروحات للنقاش والبحث"(٢). ولقد استند سموحه إلى عديد الاستنتاجات في عدة دراسات مشابهة. ومن ذلك، مثلاً، ما يستنتجه "روماني" في كتابه: "من مهاجر إلى مواطن: مساهمة الجيش في الاندماج الطائفي في إسرائيل"، والصادر في عام ١٩٧٩؛ والذي مفاده أن الجيش قد فشل في تقليص الفجوة الطائفية، وعجز عن تنمية العلاقات والاتصالات الاجتماعية الدائمة بين الطوائف. وكذلك، ما استنتجه هورفيش من أن الجيش "ليس عنصراً لتحقيق المساواة". ودراسة أخرى، أشارت إلى أن الجيش يدعم تهميش الشرقيين من خلال خدمتهم في مراكز هامشية ورتب متدنية في الجيش(٣).

(١)"دافار" بتاريخ ١٩٩١/٤/٣٠، تقدير خاص.

(٢) سامي سموحه: "الطائفية والجيش في إسرائيل: أطروحات للنقاش والبحث". دراسة مترجمة ومنشورة في: "الملف". المجلد الأول. العددان التاسع والعاشر، كانون الأول ١٩٨٤، وكانون الثاني ١٩٨٥.

(٣) المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٧٧٦ و٧٧٩ .

ورسم سموحه، صورة سياسة التمييز والفصل، بهدف الهيمنة والاستغلال في الجيش، بقوله: أن الاشكناز يشكلون هيكلية الجيش والمؤسسة الأمنية كلها، بحكم مكانتهم في الحياة المدنية؛ بينما الشرقيون والسفارديم يزودون المؤسسة العسكرية بالطاقة البشرية الجماهيرية الحيوية. ولذا، يتوزع في الجيش، الجنود والضباط، طبقاً لانتماءاتهم الطائفية. وفي دراسة لعينة من الجنرالات، تبين أن أحد عشر منهم، بينهم سبعة جنرالات من مواليد فلسطين (صابرا) من أبوين اشكنازيين، واثنان من مواليد يوغسلافيا، وجنرال واحد من كل من روسيا وتركيا. وفي عقد السبعينات، كان هناك (١٣) عميداً من أصل شرقي؛ وخمسة قادة أسلحة شرقيين من بين خمسة عشر قائداً لمختلف الأسلحة؛ وثلاثة ألوية من بين خمسة وعشرين لواء من أصل شرقي[١].

يلقي سموحه الضوء، أيضاً، على سياسة التغريب الاشكنازية في مؤسسة الجيش، حيث تجري هناك تحت وقع الأوامر والزجر والانضباط العسكرتاري. فالقيادة العليا هناك، تقوم بمحاولة دمج الشرقيين في أنماط ثقافية غربية اشكنازية، لا تحترم فيها الفوارق العرقية والثقافية والطائفية، ويكون بموجبها على أبناء الطوائف الشرقية والسفاردية أن تكيف نفسها مع تلك المعايير وتقبل الاندماج القسري على أساسها[٢]. وإن كانت المؤسسة الاشكنازية الصهيونية لا تستطيع تطويع بعض هؤلاء بإبادتهم ثقافياً، وغرس الثقافة الاشكنازية الغربية فيهم؛ إلا أن الجزء الأكبر تبقى لديه الغصة والشعور بالتمييز ويستعصي على السياسات المنهجية المتبعة.

لعل أهم وأبرز استنتاجات الباحث سموحه، تتمثل في أن الانقسام والانفصام الطائفي في الجيش، أقوى منه في الحياة المدنية، وأن الطبقية الطائفية فيه أكثر حدة. وفي تتبعه لهذا الانقسام والانفصام، يؤكد الباحث، بأنه "هادئ". ولكنه "كامن" أيضاً، بفعل عوامل الانضباط والأوامرية العسكرية. ولكن الباحث يشير إلى أن هذا الهدوء الكامن، قابل للنهوض وللحراك، كلما ازداد الغليان الطائفي في مجتمع الاستيطان[٣].

تكفي الاستنتاجات الرئيسية المعروضة، لواحد من الأبحاث الإسرائيلية، للتدليل

(١) المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٨٨٥ و٨٨٦ .

(٢) المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٧٧٦ و٧٨٣ و٧٨٥ .

(٣) المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٧٨٠ .

بوضوح ما بعده وضوح، على سياسات التمييز والفصل الاشكنازية في مؤسسة الجيش والأمن، والتي لطالما اعتبرها القادة الصهاينة المؤسسة الأكبر والأهم ما بين المؤسسات الصهيونية، والأكثر انضباطية بينها، والأداة الرئيسية إلى جانب جهاز التعليم، لترجمة السياسات التربوية والتنشئة الاجتماعية وصهر المجموعات والأقليات اليهودية، حسبما تريده السلطات المركزية السلطوية الاشكنازية.

لا تختلف الصورة كثيراً، في دوائر ومؤسسات الوكالة اليهودية وكذلك الهستدروت والسلطات البلدية والقروية، وهيئات ودوائر المنظمة الصهيونية العالمية. ولعل ما هو جدير بالبيان، أن هذه المنظمات الاجتماعية - الاقتصادية والسياسية، قد خلقت أيضاً بدورها، دوائر فصلية لممارسة التمييز والفصل فيما بين المجموعات والأقليات اليهودية. فهناك مثلاً، "مكتب السفارديم" في الوكالة اليهودية، وسكرتاريا الشؤون السيفاردية في مكتب رئيس الوزراء؛ وفي الهستدروت والمنظمة الصهيونية العالمية أيضاً. ولقد استهدفت كافة هذه الإجراءات والسياسات من قبل الاشكناز، كفئة مهيمنة ومسيطرة، إلى "عزل الطوائف الشرقية عن السلطة ومراكز التأثير والنفوذ، كما رأوا ضرورة استيعابهم في ثقافتهم الغربية الخاصة بهم"[١].

إن هذه الأعمال والسياسات تنتهك عديد المبادئ والقواعد والأحكام، وكذلك الإعلانات والتوصيات الدولية. فسياسة "التغريب" والإبادة الثقافية للمجموعات وللأقليات العرقية - الإثنية والدينية - الثقافية اليهودية، تشكل تنكراً لما استقر من مبادئ وقواعد وأحكام بهذا الشأن. فمثلاً، تنص الفقرة الثالثة من المادة الأولى للإعلان الدولي "بشأن العنصر والتمييز العنصري"، على أنه "لا تؤثر وحدة الأصل، (علماً أن اليهود لا ينتمون لأصل واحد، سواء عرقياً أو إثنياً أو ثقافياً... الخ - ك. ق.) كما لا تحول دون وجود فروق بينهم، مصدرها تنوع الثقافات والظروف البيئية والتاريخية، ولا دون حقهم في الحفاظ على هويتهم الثقافية". وتتناول الفقرة الخامس من المادة ذاتها أسباب الفروقات تلك، فتحيلها "إلى عوامل جغرافية وتاريخية وسياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية". غير أنها في الكيان الصهيوني أشمل من ذلك بكثير،

(١) *أشرف راضي: "الفجوة..."، ص ١٢٦.*

كونها تنطوي على التعددية العرقية - الإثنية والحضارية - الثقافية والدينية - الطائفية.

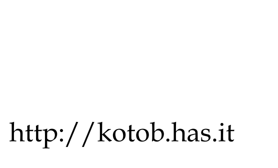
وجاءت الفقرة الأولى من المادة الخامسة للإعلان المذكور، لتؤكد "حق كافة الجماعات في أن تكون لها هويتها الثقافية الخاصة، وفي تنمية حياتها الثقافية التي تميزها داخل الإطارين الوطني والدولي". وإذا تستطرد الفقرة ذاتها، بأن "لكل جماعة أن تقرر بنفسها وبملء حريتها، الحفاظ على القيم التي تعتبرها من المقومات الأساسية لهويتها، والقيام بما تراه مناسباً من تكييف لهذه القيم أو إثراء لها". هذا على المستوى الثقافي.

أما على الصعيد التعليمي - التربوي، فالإعلان المذكور يناشد الدول "باتخاذ تدابير مناسبة لمعالجة أوجه القصور، التي تعاني منها بعض الفئات العنصرية أو الإثنية، على صعيد مستواها التعليمي أو المعيشي، وخصوصاً لتفادي انتقال أوجه القصور المذكورة إلى الأطفال". وفي حال التدقيق بهذا الحكم الدولي، يتبين أن الصهيونية تخالفه نصاً وروحاً، بسعيها الدائم لنقل القصور التعليمي وتوارثه من قبل أبناء الأقليات والمجموعات الاشكنازية؛ كما سبق وتبين (الفقرة الثانية للمادة الخامسة من الإعلان).

ولقد كانت الفقرة الثانية من المادة التاسعة، أكثر شمولاً، وتتضمن كافة موضوعات التمييز والفصل الصهيوني، التي تضمنتها الصفحات السابقة. فهي تناشد الدول بـ"إيلاء عناية خاصة للجماعات العنصرية أو الإثنية المتحيّفة اجتماعياً أو اقتصادياً، بحيث تكفل لها، على قدم المساواة الكلية مع غيرها من الجماعات، ودونما تمييز أو تقييد، حماية القوانين والأنظمة والانتفاع بمزايا التدابير الاجتماعية النافذة؛ ولا سيما في مجالات الإسكان والعمالة والصحة، وبحيث وتحترم إصالة ثقافتها وقيمها، وبحيث تيسّر لها سبل الترقي الاجتماعي والمهني، وخصوصاً عن طريق التعليم".

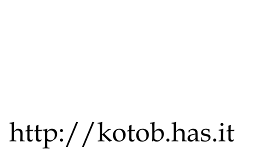
وبالتدقيق في هذا النص ونصوص ومضامين الفقرة (٢) من المادة الثانية من الاتفاقية الدولية لقمع جريمة الفصل العنصري والمعاقبة عليها في ٣٠ تشرين الثاني عام ١٩٧٣، مع التطبيقات والإجراءات العملية الصهيونية؛ تظهر سياسات التمييز والفصل العنصري الصهيوني، في المجالات والمناحي المختلفة، التي تناولتها الصفحات السابقة عارية وواضحة. إن هذا، ما يمكننا من الاستنتاج، بأن هذه "الأفعال

اللاإنسانية" وممارسات التمييز والعزل والتمييز الصهيوني، تشكل انتهاكات جسيمة لتلك القواعد والأحكام القانونية - الدولية، وتندرج كأعمال من أعمال الفصل العنصري.


http://kotob.has.it

الباب الثامن عشر

محاولات تضييق الفجوة الدينية ـ العلمانية في "إسرائيل"


http://kotob.has.it

الفصل الأول

توطئـــة

يقول الباحث جيرالد ستينبرغ مدير برنامج حل النزاعات في جامعة بار إيلان أنه لعل الوجه الأشد تأثيراً في النفوس، من بين أوجه الاحتفالات في الذكرى الخمسين لاستقلال إسرائيل، هو إدراك أننا نبدأ "اليوبيل" الثاني منقسمين داخليا، رغم أننا تمكنا من تأسيس الدولة اليهودية والدفاع عنها ضد أعدائها الخارجيين. وعلى الرغم من أن الاغتيال المأساوي لرئيس الوزراء رابين – مع ما يحيط بهذا الحدث من جدل – جلب المشكلة إلى واجهة الاهتمامات، إلا أنه لا يمثل ظاهرة جديدة على الإطلاق. فإسرائيل هي مجتمع منقسم على امتداد العديد من خطوط الخلل المختلفة. ونحن منقسمون على خلفية عرقية (اشكنازيم – سيفارديم – روس – مغاربة – إفريقيون...)، وتبعاً لرؤى إيديولوجية وسياسية عميقة التجذر (يمين – يسار؛ المستوطنون – السلام الآن...)، وبين المجتمعات الدينية والعلمانية، وحتى داخل المجتمع الديني نفسه (بين الحريديم والميزراحي أو الأرثوذكسية الحديثة). وبين الحين والآخر، تظهر هذه الخلافات وجهاً بشعاً للغاية يحمل ملامح الغضب والعنف. وما من فريق يستطيع أن يتحكم بهذه المميزات أو أن يكون حريزاً (آمناً) منها.

ويضيف: لو أنني خبير في علم الاجتماع، لكنت قادراً على التركيز على أسباب هذه الخلافات والانقسامات، وعلى السبب الذي يجعل الشعب اليهودي – بعد كل هذه الأعوام من الضعف والمعاناة على أيدي الآخرين – يبدو غير قادر على البقاء متماسكاً

وموحداً رغم أنه كان قادراً على تأسيس وبناء "الدولة اليهودية الحديثة"... أعجوبة الحركة الصهيونية. ومن الواضح أن هناك خلافات إيديولوجية وفلسفية قوية، وخاصة حول نوع الدولة الذي يجب أن تجسده إسرائيل، وحول ما تعنيه الدولة اليهودية الحديثة بعد ألفي عام في المنفى. ويعتقد البعض أن خلق الدولة التوراتية هو واجب ملقى على عاتقنا؛ في حين أن العلمانيين الملتزمين - على الطرف النقيض الآخر - يصرون على محاولة تدمير ما يرونه قيوداً رجعية خانقة تفرضها السنّة اليهودية و"الهالاخا" (الشريعة). وبالنسبة إلى كلتا الجماعتين، يبدو الرهان كبيراً جداً، في غياب أي حيز للتسوية، عندما يكون الأمر متعلقاً بتحديد مستقبل الشعب اليهودي. وعلاوة على ذلك، ليس هناك أي مجال للتعددية والتسامح؛ وأية نقطة ضعف يمكن أن تستغل وتسمح للمعسكر الآخر بالانتصار في الحروب الثقافية.

ويقول ستينبرغ: ولو أنني خبير في علم النفس، لكنت قد بحثت في الأساس السيكولوجي لهذا الصراع المحتدم، رغم حقيقة أن جميعنا - تقريباً - أتينا إلى إسرائيل من مختلف أنحاء العالم خلال القرن الماضي من الزمن. ولعل ذلك نتيجة لحالة الضغط والجهد التي يعيش في ظلها جميع الإسرائيليين. فكل منا ينتابه الخوف من الإرهاب والحرب كل يوم؛ وهذا النوع من التوتر كان يمكن أن يدمر أعصابنا. ونحن ننفس هذا التوتر عن طريق التحامل على بعضنا البعض، لأنه ليس هناك من وسيلة أخرى للتخفيف من وطأة الضغط. ويمضي بعض المحللين إلى أبعد من ذلك حتى، ليقولوا أن عهود الكبت والجهد التي ملأتها المذابح والاستقصاءات(*)، وختمتها المحرقة النازية المروعة، خلقت حالة من "التوتر الفطري". وفي إسرائيل الحديثة، وحسب هذا النمط من التفسير، تمثل المواجهات العنيفة بين الجماعات الحاريدية والشرطة والجماعات العلمانية تعبيراً عن التوتر الذي خلفته عهود الاضطهاد. وفي عملية التحول (الانتقال) النفساني، تصبح الشرطة الإسرائيلية بديلاً عن الشرطة الألمانية أو البولندية أو الروسية أو عن جهاز الأمن السري الروسي (*KGB*) ويغدو العلمانيون الإسرائيليون - بأقراط أنوفهم وتسريحات شعرهم الغربية - بعيداً عن "الغوييم" الذين قادوا المجازر.

(*) Inquisitions.

ثم يستطرد ستينبرغ فيقول: بالمقابل، لو أنني عالم في شؤون الاقتصاد، لكنت قد فتشت عن تأويل لما يجري في ضوء المصالح المتضاربة، أو حسب نماذج نظرية اللعبة، أو ضمن أطر مشابهة.

لكنني لست خبيراً في علم النفس، أو الاجتماع، أو الاقتصاد؛ ويبدو لي أنه، علاوة على محاولة شرح الأسباب الكامنة وراء هذا الصراع الداخلي، نحن بحاجة إلى التركيز على وسائل عكس هذه النزعة، من أجل خلق إحساس بالوحدة والمصير المشترك. وجدير بالذكر أن الانضباط الأكاديمي في حل مشكلة الصراع مركّز على تطوير التقنيات الكفيلة بتوفير الأسس لهذه العملية مع مرور الوقت.

استطلاع وتقدير المصالح المشتركة - الانتقال من إطار "القيمة المعدومة" إلى إطار "القيمة الإيجابية".

العنصر الأساسي في أية عملية تهدف إلى إنهاء الصراع هو اعتراف جميع الأطراف بأنها تتطلع - رغم كل الخلافات - إلى تحقيق أهداف وغايات هامة لا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق التعاون.

وفي قاموس نماذج الحل الأكاديمي للصراعات، تعرف هذه العملية بالانتقال من إطار القيمة المعدومة، الذي يكون فيه "ربح" أحد الطرفين "خسارة" للجانب الآخر، إلى إطار القيمة الإيجابية، الذي فيه يمكن للتعاون أن يخدم مصالح الطرفين في آن معاً. وهذا يعني أن إطار القيمة المعدومة هو إطار الصراع الشامل؛ في حين أن إطار القيمة الإيجابية هو إطار قائم على الجهود المبذولة لتفادي عقوبات وتكاليف الصراع، ولتحقيق مكاسب العمل التعاوني المشترك. أي أن رؤية القيمة الإيجابية ليست قائمة على التسليم المثالي الساذج، بل على إدراك أنه، رغم استمرار الخلافات والصراعات الهامة، ستبقى هناك مخاطر مشتركة يمكن تفاديها ومكاسب مشتركة يمكن تحقيقها.

لكن، لسوء الحظ، هناك في غالبية حالات الصراع نزعة إلى الراديكالية والاستقطاب، بحيث يغدو التعاون مستحيلاً والمصالح والتهديدات المشتركة غير مرئية. وغالباً ما يطغى على هذه الصراعات الطابع الشخصي؛ فينظر كل من الطرفين إلى الآخر من خلال عدسة تكشف العيوب وتحجب المحاسن؛ الأمر الذي يؤدي إلى عملية

الاستقطاب المذكورة.

وفي إسرائيل، أدى الصراع بين المتدينين والعلمانيين إلى بلورة صور سلبية جداً تطغى على إحساس اليهود بالمصير المشترك. إذ أن كره العديد من الإسرائيليين العلمانيين لأبناء المجتمع المتدين، الذي لا يكاد يقوم بينهم وبينه أي اتصال، ولا يعرفون عنه إلا الشيء القليل، أصبح قوياً جداً، شأنه في ذلك شأن العداوة التي يكنها المتدينون - وخاصة منهم أبناء المجتمع "الحاريدي" - تجاه العلمانيين في إسرائيل.

وجدير بالذكر هنا أن المجتمعات العلمانية الإسرائيلية غاضبة مما تعتبره إكراهاً دينياً ومن الدور السياسي المتنامي الذي يلعبه المتدينون (دونما تمييز بين "المتدينين الوطنيين" (القوميين) و"الأرثوذكس العصريين" و"الحاريديم")؛ وهي مستاءة أيضاً من المزايا الخاصة التي يتمتع بها هؤلاء المتدينون، وأبرزها الإعفاءات الجماعية من الخدمة العسكرية (للحاريديم على وجه الخصوص).

وعلى نحو مماثل، يبدو المعسكر الديني غاضباً مما يعتبره إكراهاً علمانياً في المنشآت والمؤسسات العامة التي تعمل يوم السبت. ويتساءل أبناؤه عن السبب الذي يجعل الإسرائيليين المتدينين يوافقون على عمل التلفزيون الرسمي ومحطات الإذاعة الرسمية أيام السبت، وعن الذي يلزمهم بدفع الضرائب التي تمول هذا العمل. والأهم من ذلك هو أن الإسرائيليين المتدينين ينظرون إلى العلمانيين - الذين لا يعرفون شيئاً تقريباً عن التاريخ اليهودي وعن ثقافة اليهود وتقاليدهم - على أنهم يعتنقون الثقافة الغربية، متنصلين من أية مسؤولية عن دعم استمرارية اليهود ومتخلين عن أية اهتمام بالإحيائية اليهودية.

وهكذا، نلاحظ أن السؤال الجوهري الذي نواجهه هنا هو "كيف نوقف هذا الاستقطاب ونبدأ بالانتقال من حالة الصراع الشامل (أطر القيمة المعدومة) إلى الحالة التي لا يكون فيها التعاون ممكناً فحسب، بل مفهوماً أيضاً كشرط ضروري للاستمرار؟" و"كيف يمكن للجانبين - رغم الغضب والعداوة الشخصية - أن يتمكنا من رؤية الصورة الكاملة وأن يتعاونا دون الاضطرار إلى تغيير أهدافهما الأساسية؟" فالحاريدي لن يقبل بالتخلي عن هدفه المتمثل في بناء المجتمع التوراتي؛ والعلماني لن يقبل بسلطة الهالاخا أو الهيئة الحاخامية.

الخبر الجيد هو أن خطورة الداء باتت ملحوظة في هذه المرحلة، وإن جاء الأمر

متأخراً. وحسب عمليات المسح (استطلاع الآراء)، نستطيع أن نقول أن ثلثي السكان الإسرائيليين ينظرون إلى الصراع الديني - العلماني على أنه المشكلة الرئيسية التي تعاني منها إسرائيل، والتي تبدو أكثر إلحاحاً من مشكلة الصراع مع الفلسطينيين. ومن الجدير ذكره أن بعض القادة الشبان في حزب العمل والمؤسسة العلمانية - كعضو الكنيست يوسي بيلين - أصبحوا يدركون أن المجتمع العلماني يجهل التقاليد والشرائع اليهودية. وعلى الرغم من أن الجيل السابق (*Apikorism*) كان على مستوى مقبول من الثقافة في هذا المجال، نلاحظ أن الجيل الجديد الذي تربى في المؤسسات العلمانية الإسرائيلية يبدو جاهلاً تماماً، إلى حد مأساوي، ولا يعرف ماهية ما يرفضه.

"...الاعتراف هو الخطوة الأولى... ونحن نعرف أن لدينا مشكلة عويصة...".

رغم ذلك، وبالنظر إلى تاريخ الصراع وشدته، سيكون من الخطأ أن نقلل من شأن هذا التحدي. إذ أن حل هذه الصراعات لا يمكن أن يتم عن طريق إجراء بعض الحوارات أو إطلاق بعض النداءات التي تدعو إلى التفاهم والإخاء. فالعملية قد تستغرق سنوات عديدة وقد تمتد جيلاً من الزمن إذا كنا متفائلين. وبمجرد أن نتفق على أن هناك مصالح مشتركة وحاجة إلى ترسيخ بعض "قواعد لعبة التعاون"، نصبح مستعدين للمباشرة في تنفيذ المرحلة التالية من النشاط.

الفصل الثاني

حل "ثلاثي الطبقة" للصراع

من الأهمية بمكان أن نتجنب خلق انطباع بأن هناك صيغة سحرية تضمن حل الصراع، أو - على الأقل - معالجته وضبطه؛ لكن، هناك بعض الأساليب التي أثبتت أنها قادرة على إعطاء نتائج إيجابية إذا ما استخدمت بطريقة منهجية. وبالإمكان وصف "العلاج" وتطبيقه في ضوء نشاط ثلاثي الطبقة:

١ - إجراء حوار شعبي - شعبي، على الصعيد المحلي؛

٢ - عقد حلقات البحث التي تضم "قادة الرأي العام" على المستوى المتوسط؛

٣ - وعلى رأس الهرم، إجراء مفاوضات اجتماعية تضم عناصر النخبة الصانعة للقرار، التي ستكون مسؤولة عن عملية التطبيق.

أسلوب الحوار الشعبي - الشعبي

عندما كنت طالباً في الولايات المتحدة، أجريت اتصالات بعدد من الأكاديميين والمسؤولين الإسرائيليين، الذين كانوا - بمعظمهم - غير متدينين، والذين كان الشباب منهم يجهلون حتى أبسط الممارسات اليهودية الأساسية، "كالشابات" و"الكاشروت"، ولا يملكون أدنى فكرة عما يجري في "بت كنيست"(*). وبالمقابل، كان اليهود "التائبون" في الشتات أكثر إدراكاً واستعرافاً للتقاليد والتعاليم اليهودية. وعندما كنا ندعوهم أنا

(*) الكنيست.

وزوجتي لتناول "غداء السبت" معنا، غالباً ما كانوا يقولون أنهم لم يدعوا من قبل لحضور "غداء شابات" في بيت متدين (كبينتا). وفي بعض الحالات، كان يزورنا أكاديميون بارزون ومعتبرون (من جامعة تل أبيب والجامعة العبرية، وليس من جامعة بار إيلان بالطبع؛ وهذا يجسد مشكلة المجتمع الإسرائيلي ويسلط الضوء على أهمية وجود جامعة غير دينية بطبيعتها).

كانت المناقشات التي نجريها في تلك اللقاءات مفيدة للغاية؛ وأنا أعرف تجربتنا لم تكن فريدة في هذا المجال. لكن لا بد من الإشارة إلى أن هناك حائط ضخم من الجهل والتحامل بين الإسرائيليين العلمانيين والمجتمع المتدين في إسرائيل. وبالطبع، هناك فرصة محدودة جداً لصياغة "أسلوب القيمة الإيجابية" وتحقيق التعاون في مواجهة التهديدات المشتركة؛ وهذا عائد - تحديداً - إلى غياب التواصل، وعدم تعيين أماكن مخصصة للقاءات، واعتماد كل جانب على الرسوم المسخية - فحسب - لصياغة مداركه المتعلقة بالجانب الآخر.

ويمكننا أن نقول أن هذه الرسوم المسخية والنماذج الأولية (المشوّهة) - الناتجة عن غياب أي شكل من أشكال التواصل - تتحول إلى سمة بارزة من سمات المشهد الاجتماعي والسياسي في إسرائيل. وفي حالات عدة، لا تستخدم هذه الرسوم والنماذج عن قصد - بغية تصعيد حالات الغضب والاستياء - بل نتيجة حالة متجذرة من الجهل. وبدل التعاطي مع الأساليب المختلفة - الوفيرة والمعقدة - للتقرب من اليهودية والشعب اليهودي، وهي الأساليب التي تبلورت عبر آلاف السنين، تحاول الثقافة الإسرائيلية المعاصرة أن تقزم كل طرف في إطار مجموعة قليلة من الصور المضللة والمبسطة إلى حد الإفساد.

هذا هو واقع الحال في المجتمع الأكاديمي الإسرائيلي، حيث يجب على الناس - ولو من الناحية النظرية - أن يكونوا أكثر حساسية إزاء التأثير المضلل - والمغذي للصراعات - الذي تمتاز به هذه الرسوم (المسخية) والنماذج (الأولية). وفي الفترة الأخيرة، على سبيل المثال، عقدت جامعة تل أبيب حلقة بحث لمناقشة العلاقات العلمانية - الدينية؛ وقد تم طبع وتوزيع وقائع تلك الجلسة على نطاق واسع. ومما لا شك فيه أن اللقاء المذكور كان تجسيداً لمسعى واع يهدف إلى تعزيز الحوار (وإن كان على مستوى الطبقة المتوسطة من قادة الرأي العام، كما سأناقش لاحقاً). وعلى غلاف

الكتيب الذي تضمن محضر الجلسة، عرضت ثلاث صور: في الصورة الأولى يظهر "حاريدي" بلباسه الكامل وهو يصلي رافعاً سلاحه في استطارة من الفرح، والنشوة الدينية؛ وفي الصورة الثانية، يظهر "مستوطن متدين" يحمل مسدساً على وسطه، وهو يقف عابساً أمام مقطورة (منزل متنقل) في مكان ما من "الأراضي (المحتلة)"؛ وفي الصورة الثالثة، تظهر شابتان وهما تقفزان متعانقتين، تعبيراً عن تمتعهما بالحياة على ما يبدو.

والآن، دعونا نحدد الصورة المفضلة - أو بالأحرى أسلوب الحياة المفضل - بالنسبة إلى الطلبة والطاقم التعليمي في جامعة تل أبيب، باعتبار أن كلا من هذه الصور توحي بنمط حياتي مختلف.

ما أشارت إليه الرسالة الخفيفة التي نطقت بها خيارات الطلاب والأساتذة، من هذه النماذج الأولية، هو أن النمط الحياتي العلماني هو النمط "الطبيعي" الوحيد في نظر الإسرائيليين، وأن "الناشزين اجتماعياً" هم وحدهم الذين يمكن أن يختاروا أحد النمطين الآخرين. أي أن كلا من "الحاريدي" و"المستوطن المتدين" يقف وحيداً، بدون أصدقاء؛ في حين أن "الصورة العلمانية" (صورة الفتاتين الفرحتين) تمثل النمط الحياتي الوحيد الذي يتمتع بقرينة (بيئة) اجتماعية. وأنا أقول أن العلمانيين الذين حرروا ونشروا الكتيب كان يجب أن يختاروا صورة لأبناء "الحاريديم" أو "المستوطنين المتدينين" وهم يلعبون لعبة كرة السلة؛ وذلك تأكيداً على العناصر المشتركة.

هذه الصور تقابلها نماذج أولية عن الإسرائيليين العلمانيين في إعلانات "اليشيفوت" ومدارس "شاس" الدينية. ففي هذه الإعلانات، يوصف المجتمع العلماني بصور تظهر المدمنين على المخدرات والشبان المستهترين الذين لا قيم لديهم ولا جذور لهم. وليس هناك من تعقيد أو بعد غور في هذه الصور؛ إذ أن الرسالة التي يطلقها آرييه درعي - زعيم حركة شاس وأبرز شخصية فيها - هي أن إنقاذ هؤلاء الأحداث من حياة المخدرت والحفلات الماجنة لا يكون إلا بإدراجهم في نظام شاس المدرسي. وغالباً ما نرى هذه الفكرة مكررة في محاضرات وعظات الحاخام أوفيديا يوسف، الزعيم الروحي لهذه الجماعة.

غير أن هذه النماذج الأولية عن الإسرائيليين العلمانيين ليست محصورة في منشورات ومطبوعات شاس فحسب، بل هي منتشرة في الأوساط "الحاريدية" والمتدينة

على أوسع نطاق. وكما تستخدم الصور التي تقزم اليهود المتدينين لتبرير السياسات والنزعات المعادية للجماعات الدينية، يعمد المجتمع المتدين إلى رفض كل الإسرائيليين العلمانيين - واصفاً إياهم بالمجرمين والمدمنين على المخدرات - من أجل أن يؤكد على صلاحه وصوابية نهجه. وعندما يفقد كل جانب القدرة على إبصار تنوع الجانب الآخر وتميز كينونته الفردية، ولا يرى إلا الصور السلبية فيه، فهذا يعني زوال القاعدة التي يمكن أن يقوم عليها الحوار والتفاهم المتبادل.

إذاً، فالرسالة عند هذا المستوى هي تلك التي تؤكد على الأهمية القصوى للحوار الشامل بين كل طبقات ودرجات المجتمع. ونستطيع أن نقول أن حلقات الحوار التي تعقد في العديد من المدارس الثانوية والجامعات والمراكز المجتمعية والمنظمات الاجتماعية والسياسية هي بداية هامة على طريق تصحيح النماذج الأولية. وجدير بالذكر أن جامعة بار إيلان تلعب دوراً بالغ الأهمية في هذه العملية، وأن جلسات الحوار التي دعهما "الراحل" هانس باشراش لا تزال تعقد باستمرار وبوتيرة متزايدة في هذا الإطار. إذ أن هذه الجامعة، التي تتمازج العناصر الدينية والعلمانية - بشكل متساو تقريبا - في هيئتها التعليمية وجسمها الطلابي، هي نموذج فريد ومكان تلتقي فيه الجماعات في إسرائيل.

وعلى نحو مماثل، رتبت منظمة "غيشير" شبكة واسعة من جلسات الحوار الشعبي - الشعبي، التي كان آخرها في الذكرى السنوية الثالثة لاغتيال رئيس الوزراء الراحل إسحق رابين.

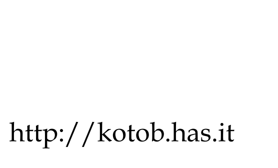
غير أن جلسات الحوار هذه ليست سوى نقطة في دلو، رغم ما تتمتع به من أهمية بحد ذاتها. فهي لا تستقطب إلا عدداً قليلاً من الناس؛ وهذا يعني أن الرسالة ستستغرق أعواماً عديدة قبل أن تبدأ باختراق الحواجز التي تعترض طريقها. ومن خلال ما اكتسبته من خبرة وما لاحظه أولادي في المدرسة الثانوية، أستطيع أن أقول أن غالبية هذه الاجتماعات تقوم على مهاترات واتهامات متبادلة، لأن كل جانب يبدأ بعرض قائمته الطويلة من الشكاوى التي تراكمت مع مرور السنين، ثم ينتقل إلى نماذجه الأولية المسخية، مقتنعاً كل الاقتناع بشرعية شكاويه ومتحمساً لأن يظهر للجانب الآخر خطأ أساليبه. وقد يحتاج الأمر إلى عدد من الجلسات للانتقال من مرحلة العداوة والصراخ إلى المرحلة الثانية التي تقوم على الإصغاء والحوار وتحديد

مواطن الاتفاق. وفي حالات قليلة، تبدأ العلاقات الشخصية بالتبلور إلى درجة تسمح بتخطي الحواجز ونبذ النماذج الأولية المسخية الشاملة (التي تصور اليهود المتدينين - أو اليهود العلمانيين - على هيئة واحدة)؛ لكن هذا النوع من العلاقات يندرج تحت عنوان "الاستثناء" وليس تحت عنوان "المألوف".

وفي بعض الحالات، تكون جلسات الحوار هذه مثقلة بعبء القيادة الضعيفة، وخاصة عندما يكون معظم الحضور من الطلاب. ففي اللقاءات التي جمعت طلاباً علمانيين ومتدينين من مدارس القدس الثانوية، على سبيل المثال، عجز رؤساء الاجتماعات - الذين انتموا إلى هذه الجماعة أو تلك - عن توفير المداخلات والإرشادات الحيادية الإيجابية التي كان يتوقع منهم أن يقدموها؛ الأمر الذي حول جلسات الحوار إلى حلقات جدل عنيف. وقد أسفر ذلك عن توسيع الفجوة بدل تضييقها.

والمشكلة الأخرى التي عانت منها جلسات الحوار الشعبية - الشعبية هي أنها غالباً ما كانت تخلو من المشاركين "المتحولين" أو - على الأقل - من الأشخاص المرنين نسبياً، والمنفتحين على إمكانية التعاون. وفي الوقت نفسه، يبدو معارضو الحوار بعيدين كل البعد عن هذه الجلسات؛ وهذا من شأنه أن يخلق وضعاً يتوهم فيه المشاركون بأن تعاطيهم مجد وذو معزى، ويفترضون - خطأ - أن الناس على الجانب الآخر يمثلون في الحقيقة الشريحة الأوسع من المجتمع. (وهذه المشكلة تغدو عويصة جداً عندما يكون الحوار بين إسرائيليين وفلسطينيين وعندما يكون معظم الإسرائيليين أعضاء في جماعات غير تمثيلية، كحركة "السلام الآن". فعلى أساس هذه الاجتماعات، كان الفلسطينيون يخرجون باستنتاجات عامة في ما يتعلق بالمدارك الإسرائيلية وينطلقون من هذه الاستنتاجات إلى استعراف ملامح السياسات الإسرائيلية المستقبلية. وكانوا يتعجبون عندما لا تتحقق توقعاتهم ويدركون أن الإسرائيليين الذين تحاوروا معهم لا يمثلون تيارات إسرائيلية سائدة).

ومما لا شك فيه أنه من الخطأ التقليل من شأن هذه الحوارات، التي تفتح بعض الأبواب وتقهر بعض الحواجز التي تقف في وجه التفاهم، وإن أتت نتائجها تدريجية وبطيئة؛ لكننا يجب أيضاً أن لا نبالغ في وصف أهميتها؛ فهي مجرد وجه واحد - ذي أهمية - من أوجه عملية بناء وتفعيل آلية تدبر الصراع وحل المشكلة الإسرائيلية في مآل الأمر.


http://kotob.has.it

الفصل الثالث

برامج خاصة
للنخبة من قادة الرأي العام

حتى في ظل أكثر الظروف تفاؤلاً ونجاحاً، لا تمثل العمليات الشعبية – الشعبية أكثر من مجرد مستوى واحد من مستويات نموذج معقد يهدف إلى تعزيز عملية الانتقال من مرحلة القيمة المعدومة إلى مرحلة القيمة الإيجابية. ومن أجل بلوغ هذه المرحلة في أي صراع شعبي أو سياسي، من الضروري أن يتم حشد وإشراك النخبة من قادة الرأي العام، كالصحافيين والأكاديميين والمدرسين والحاخامات والمثقفين اليهود ورجال الأعمال والساسة المتوسطي المستوى. وفي العملية التي تبدأ من رأس الهرم نزولاً (كما سنشرح لاحقاً)، والتي تنطلق فيها مساعي تسوية الصراع من الشخصيات البارزة في دوائر صنع القرارات السياسية أو الدينية، يؤدي قادة الرأي العام المذكورون مهمة الوساطة ويعملون كجسر يوصل إلى إمكانية التأثير على الرأي العام وتغيير المواقف والمسلكيات على المستوى الشعبي. ويوفر هؤلاء القادة ما يطلق عليه في قاموس المصطلحات العسكرية اسم "مضاعف القوة"، الذي يتمثل في قدرتهم على الوصول – بانتظام – إلى شريحة واسعة من الجمهور الإسرائيلي، والتأثير على آراء هذا الجمهور، سواء في قاعات لدراسة، أو عبر الصحافة، أو من على منابر دور العبادة اليهودية.

وبالنتيجة، يغدو من الضروري دفع الطبقة المتوسطة إلى التولج الفاعل في عملية الانتقال من مرحلة "القيمة المعدومة" إلى "مرحلة القيمة الإيجابية"، حيث يعترف

الجانبان بأهمية التعاون، ولو بالحد الأدنى، وحيث تعين "قواعد اللعبة" وترسم الحدود الكفيلة بوقف التصعيد.

وفي حالتنا هذه، يجب أن نحقق نجاحاً كبيراً على هذا المستوى؛ ولا أبالغ في الكلام إذا قلت أن المجهود كان يسيراً جداً، في ما عدا بعض الاستثناءات القليلة. وفي الحقيقة، ورغم كل الحديث عن الحاجة إلى إيجاد الأطر الكفيلة بتسوية الصراع، هناك قلة قليلة من الذين يعترفون بأهمية إشراك النخبة من صانعي القرار.

وتشمل الاستثناءات الاجتماعات وحلقات البحث التي تعقدها الجامعات أو يدعو إليها كبار المفكرين، والتي تضم عدداً كبيراً من الأكاديميين والصحافيين، إلى جانب بعض أعضاء الكنيست والقادة الدينيين. لكن، على وجه العموم، كانت حلقات البحث هذه مرسومة بصراع عنيف وجدالات حامية عرض فيها كل مشارك وجهات نظره وهاجم آراء الجانب الآخر. وبالإضافة إلى ذلك، وفي ما عدا بعض الاستثناءات القليلة والمميزة، لم تشمل هذه النشاطات "الحاريديم"؛ أي أن حزباً هاماً من الأحزاب المعنية بالصراع كان ولا يزال غائباً عن ساحة النقاش. وبالنتيجة، لم تساهم حلقات البحث هذه في عملية تسوية الصراع؛ بل لعلها ساعدت على زيادة التصعيد في بعض الحالات.

ما نحتاج إليه هو برنامج مكثف يشمل الصحافيين والمدرسين ورجال الأعمال والنساء والسياسيين من كل المستويات والجماعات، بما فيها "الحاريديم". (وجدير بالذكر هنا أن عدداً متزايداً من الصحافيين والأشخاص البارزين الحاريديين باتوا يألفون الجمهور العلماني). وبمجرد أن يقتنعوا بأهمية تحويل الصراع و - الأهم من ذلك - بمركزية دورهم كقادة للرأي العام في هذه العملية، يغدو ممكناً تطوير البرامج الخاصة للمدارس والمراكز المجتمعية والمجموعات الكنيسية.

إلا أن ذلك يتطلب توافقاً على مستوى القيادة العليا في المجتمعات الحريدية الخاضعة للسيطرة التراتبية الكهنوتية الصارمة، و - بقدر أقل - في الجماعات الوطنية (القومية) المتدينة أو المجموعات الأرثوذكسية اليمينية العصرية. ولذلك، وحتى في أحسن الظروف، التي لا نزال بعيدين عنها، سوف يبقى تفعيل نشاط النخبة من قادة الرأي العام محدوداً وغير كامل إذا بقيت الطبقة العليا غائبة عن عملية تسوية الصراع هذه وغير ملتزمة بها.

الفصل الرابع

تعاقد اجتماعي عند قمة الهرم

منذ خمس سنوات، تم حل مشكلة الصراع بين المجتمعين الديني والعلماني من خلال ما سمي آنذاك "باتفاق الوضع الراهن". وقد غطى هذا الاتفاق نطاقاً واسعاً من المواضيع التي لها علاقة بالدين والدولة، كدور الهيئة الحاخامية في شؤون الأحوال الشخصية (الزواج والطلاق و.. الخ)، والإشراف على مراسم أيام السبت، و"الكاشروت" في المؤسسات العامة، والأنظمة التعليمية المنفصلة والمستقلة، والمواضيع الصعبة المشابهة. وكان الاتفاق على إدامة الحالة الراهنة يعني إدامة الممارسات المقبولة آنذاك، ليس لأن هذه الممارسات كانت مرغوبة بالضرورة، بل من أجل تفادي الصراع على هذه الجبهة في وقت تطلبت فيه قضايا الحياة والموت - بالنسبة إلى الشعب اليهودي - قدراً كبيراً من التعاون الوثيق.

كان "اتفاق الوضع الراهن" ترتيباً متخذاً - من قمة الهرم نزولاً - من قبل قادة الجماعات المختلفة (بن غوريون عن العلمانيين المهيمنين والحاخامات عن الجماعات المتدينة). وتجدر الإشارة إلى أن هذا الاتفاق صمد حوالي خمسين عاماً، رغم الإشكالية التي كانت تبرز بقوة كلما طرأ موضوع جديد لا يندرج تحت عنوان الحالة الراهنة (كالتلفزيون و"شركة العال" و... الخ).

وبالنسبة إلى دراستنا التحليلية هذه، تمثلت أهمية الاتفاق المذكور في حقيقة أنه تم التوصل إليه عبر التولج المباشر لقادة الأحزاب الرئيسية وبفضل القرارات الصادرة عن

هؤلاء القادة. وقد كان ذلك جزء من "تعاقد اجتماعي" أوسع نطاقاً أثبت أنه الوصفة الكفيلة بتفادي الصراع وتعزيز التعاون الضروري لتحقيق المصلحة العامة في حماية الشعب اليهودي. وحتى العناصر غير الصهيونية - أو المعادية للصهيونية - في المجتمع "الحاريدي" كانت مستعدة لأن تقبل بإدامة الوضع الراهن لهذا السبب. وعلى نحو مماثل، كان الاتفاق على أعضاء الحاريديم من واجب الخدمة العسكرية جزء من هذا "العقد الاجتماعي".

وبعد خمسين عاماً، تصدع اتفاق الحالة الراهنة وانفصمت عرى التعاقد الاجتماعي الأوسع نطاقاً. وعلى الرغم من وجود أسباب عديدة وراء هذا التصدع، وهي التي ناقشت بعضها في بداية حديثي، لسنا هنا في صدد الاستفسار عن تشخص المرض، بل عن وصف العلاج الملائم له. فكيف يستطيع قادة اليوم أن يصلحوا النظام القديم القائم على امتداد "الحالة الراهنة"، كما ينادي البعض؟ وهل يمكن التفاوض بشأن تعاقد اجتماعي جديد يوفر القواعد الأساسية للعبة على مدى الخمسين سنة المقبلة إذا كان "اتفاق الحالة الراهنة" هذا غير قابل للإصلاح؟

الخبر الجيد هو أن بعض الخطوات اتخذت في هذا الاتجاه. ففي العام الفائت، عندما هدد جدل "من هو اليهودي؟" - الذي تجسد في النقاش الدائر حول قانون "التحول الديني" (الاهتداء) - بالتسبب في قطع شامل للعلاقات العلمانية الدينية، تم تشكيل "لجنة نئمان" في إطار المساعي المبذولة لحل مشكلة الصراع. وقد ضمت عضوية هذه اللجنة عدداً كبيراً من قادة الجماعات الإصلاحية والمحافظة والأرثوذكسية العصرية (باستثناء جماعة "الحاريديم"). ووافق الأعضاء على إيجاد حلقات دراسية خاصة مهمتها العمل بشكل جماعي، وبمجموعة واحدة من المتطلبات (الشروط)، من أجل معالجة شؤون "المتحولين" (المهتدين) الجدد. وعلى الرغم من أن هذا المشروع لقي رفضاً من جانب الهيئة الحاخامية العليا، إلا أن التقرير المتعلق به نشر وحظي بموافقة الكنيست (وحتى بموافقة العديد من الأعضاء المتدينين، رغم معارضة أبرز حاخامات "الحزب الديني القومي")، وتم تشكيل وتطوير المنظمات المطلوبة. وهذا مؤشر على وجود قدر كبير من التعاون الإيجابي.

وفي شباط ١٩٩٨، أصدر عضو الكنيست المتدين "آلكس لوبوتسكي" (الطريق الثالث)، وعضو الكنيست العمالي يوسي بيلين، واثنان من القادة الإسرائيليين الشبان،

وحاخامات متحالفون مع "حركة ميماد"، مسودة مشروع يهدف إلى إيجاد "عقد اجتماعي" جديد يحل محل "اتفاقات الحالة الراهنة" التي تحكم ممارسة شعائر احتفالات "الشابات" والإشراف عليها، والتي تضبط الشؤون والأحوال الشخصية. ويطالب هذا المشروع بزيادة نشاط مصلحة النقل الداخلي (الباصات) أيام السبت، وبالترخيص بفتح المزيد من مراكز التسلية والترفيه (دور السينما والمسرح...)، مع الحفاظ على حظر النشاط التجاري (في الأسواق ومراكز البيع) في هذه الأيام. ويدعو هذا المشروع إلى إلغاء الأعداد الكبيرة من المجالس الدينية المحلية مع الحفاظ على الدور المركزي للهيئة الحاخامية العليا في ما يتعلق بإدارة الشؤون والأحوال الشخصية (المدنية) وتوفير البدائل للأزواج الذين يرغبون في الاقتران خارج هذا الإطار. وينص المشروع أيضاً على تشكيل هيئة استشارية متخصصة في شؤون الآثار، لتعتني بشؤون المدافن وتحافظ على قدسيتها، على أن تضم هذه اللجنة خبراء في الأمور التاريخية و"الهالاخية". وبالإضافة إلى ذلك، يوصي المشروع نظام المدارس العلمانية بتعزيز مناهج دراساته اليهودية، لكي يوفر للطلاب العلمانيين فهماً أساسياً للسنة اليهودية الغنية، ولكي يسمح لهم بممارسة حرية الاختيار في ما يتعلق بالشعائر الدينية.

بعد هذا المسعى، وخلال الفترة الممتدة بين "يوم الغفران" و"سوكوت"، منذ أسابيع قليلة، اجتمع نحو مئة شخص من مختلف الجماعات الدينية والعلمانية في كيبوتز "معالي هاهاميشا"، في إطار الجهود المبذولة من أجل إرساء قواعد "تعاقد اجتماعي" جديد. ومن بين المشاركين في هذا الاجتماع، كان هناك عضو الكنيست المتدين آلكس لوبوتسكي، ووزير التعليم إسحق ليفي (الذي يرأس "الحزب الديني القومي")، وأعضاء الكنيست حنان بورات (من الحزب نفسه) وديدي زوكر (من شاس) وآفراهام بوراز (من شينوي) وشموئيل حاكوبوفيتش (الشخصية "الحاريدية" البارزة وابن اللورد إيمانوئيل جاكوبوفيتش) الذي يرأس مجموعة "يوري كافودي". وقد شمل النقاش إمكانية تشريع قانون جديد من شأنه إحياء الوضع الراهن، من جهة، والخروج باتفاق يقوم على التغييرات السلوكية التي تضع حداً لكل التشريعات الدينية، من جهة ثانية. حتى أن بعض المشاركين اقترحوا تشكيل "سانهردين" (لجنة عليا) مشتركة، تضم مفكرين متدينين وعلمانيين بارزين للتحكيم في الصراعات العلمانية - الدينية حين وقوعها.

الفصل الخامس

دور "برنامج حل الصراعات" في جامعة بار إيلان

نكون مخطئين جداً إذا قللنا من شأن وخطورة المشكلة والتحدي اللذين يواجههما الشعب اليهودي بسبب الانقسامات الدينية - العلمانية في إسرائيل والشتات. ومما لا شك فيه أن أي نجاح في المسعى المبذول من أجل تضييق الفجوة والبدء بالانتقال من مرحلة العداء شبه الكامل إلى مرحلة التعاون المحدود (وضع القيمة الإيجابية) يتطلب بذل جهود مضاعفة على المدى الطويل.

ومن بين أهم الإسهامات في هذا المجال، هناك "برنامج حل الصراع"، الذي أطلقه هانس باشراش، علاوة على جلسات الحوار التي عقدها الطلاب، والتي كان له إسهام فيها أيضاً.

والحقيقة أن (جامعة) بار إيلان كانت - ولا تزال - نقطة التقاء أساسية بالنسبة إلى الإسرائيليين المتدينين والعلمانيين على حد سواء، وأن الحوارات التي يجريها الطلاب، والنقاشات اليومية التي تدور بين هذين المجتمعين، هي شيء فريد في المجتمع الإسرائيلي المنفرد.

ووراء هذا التواصل الشعبي - الشعبي، يمكن قول أن برنامجنا هذا أطلق برنامجاً (مرعياً) شاملاً خاصاً بالطبقتين الأولى والثانية من هذا العملية. وقد رتبنا عدداً من مناهج البحث (في كيفية تسوية الصراع) باللغتين الإنكليزية والعبرية (هذه السنة)، وزدنا عضوين متخصصين في هذه العملية إلى أعضاء الهيئة المشرفة. وعن طريق

التدريب، من خلال الحاسوبات (الكمبيوتر) وحلقات البحث الطلابية، بدأ المشاركون يكسبون خبرة بالغة الأهمية في هذا الصدد.

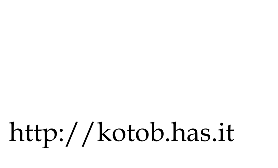
في السنة الماضية، عقدنا مؤتمرنا الأول، الذي شمل جلسة تقويمية خطب فيها آلكس لوبوتسكي، ودار الحديث حول "لجنة نئمان". وفي المؤتمر الذي سنعقده هذه السنة، سوف نركز على السنّة (الشريعة) اليهودية وكيفية إنهاء الصراع. وهدفنا هو أن ينضم إلينا عدد كبير من أعضاء النخبة الصانعة للقرار والأكاديميين والمثقفين والصحافيين اليهود وقادة المجتمع الحاريدي. وفي اليوم الثالث، سوف ندعو كبار صانعي القرار، بمن فيهم رئيس المحكمة العليا "أهارون باراك" وكبير الحاخامات "لو"، لمتابعة البحث في موضوع صياغة عقد اجتماعي عصري ومنقح لإسرائيل والشعب اليهودي. وسوف ننشر الوثائق والمناقشات باللغتين العبرية والإنكليزية، إذا سمحت الموازنة بذلك، لنستخدمها في الدروس التي من شأنها تزويد الطلاب والقادة الإسرائيليين المستقبلين بالأساس اللازم لمتابعة هذا العمل.

وما من شك من أننا سنواجه صعوبات جمة في هذه العملية. وحتى المتفائلون منا يدركون أن الأمر سيستغرق سنوات عديدة، قبل أن تزول مرارة الجهل التي تنغص العلاقة بين المجتمعات الدينية والعلمانية. لكن في الوقت نفسه، نحن ندرك أن هذه العملية هي أعظم تحد يمكن أن يواجهه الإسرائيليون واليهود خلال العقود الخمسة المقبلة.

هذا هو الإرث الذي تركه لنا هانس باشراش، الذي لم تكن المفاوضات بالنسبة إليه مجرد موضوع أكاديمي، بل عنصراً أساسياً من عناصر قدرة إسرائيل والشعب اليهودي على الاستمرار والبقاء. وكان باشراش يفهم أن التهديد الذي نواجهه لم يعد خارجياً بالدرجة الأولى، بل أصبح – من المقام الأول – تهديداً داخلياً نابعاً عن عجزنا عن تسوية الخلافات المحلية، دون اللجوء إلى العنف، في إطار من التفاهم والاحترام المتبادل؛ كما كان يدرك أيضاً أن للمجتمع الأكاديمي دوراً هاماً في هذه العملية، وأن جامعة بار إيلان تتمتع بموقع فريد يسمح لها بالمساهمة في هذه العملية (عمليّة إنهاء الصراع) داخل المجتمع اليهودي.

الباب التاسع عشر

تقييم وخلاصات أساسية



الفصل الأول

فشل الصهيونية

هذا المشهد السابق من الانقسامات والاختلافات الحزبية والعرقية والاجتماعية له دلالات واستنتاجات على المستويين النظري والعملي ومن أهمها:

- فشل النظرية الصهيونية في إقامة المجتمع الخالي من التناقضات وفشل الزواج المقدس بين الدين والقومية من ناحية وبين الصهيونية والبراغماتية من ناحية أخرى، الأمر الذي أدى إلى فشل جذب يهود الشتات من مختلف أنحاء العالم لصهرهم في بوتقة الكيان الصهيوني.

- فشل الكيان الصهيوني في حل أزماته الداخلية والخارجية، وافتضاح جوهر الصهيونية الفاشي أمام الرأي العام العالمي والداخلي.

- فشل الصهيونية في تطبيع الشخصية اليهودية أولاً ولا تزال هذه الشخصية داخل إسرائيل وخارجها تعاني الأمراض نفسها: الطفيلية والانعزالية والعنصرية والعدوانية.

- فشل الصهيونية في طرد الفلسطينيين وتحويل فلسطين إلى أرض بلا شعب وفق الادعاء الصهيوني ولا يزال الحضور السياسي والديموغرافي والديني للفلسطينيين أصحاب الأرض الأصليين قائماً ومتزايداً.

- فشل الصهيونية في تحويل الأخلاط اليهودية المهاجرة من كل أنحاء العالم إلى شعب يستحق أن يستوطن في فلسطين وفق الشعار الصهيوني "شعب بلا أرض" ولا تزال هذه الأخلاط متنافرة تماماً ومتصارعة بأعنف الوسائل كلامياً ومادياً.

- فشل الصهيونية في توفير الأمن لإسرائيل ومع كل انتصار وتوسع حققته على حساب الدول العربية تتضاعف أعباؤها الأمنية ويزداد اعتمادها على القوى الكبرى لضمان استمرارها ورفاهيتها.

- فشل الصهيونية في إجبار المحيط العربي على الاعتراف بها والتعايش معها وتحويل شرعية الأمر الواقع المفروضة بقوة السلاح والطغيان الدولي إلى قبول بوجودها.

- فشل الإمبريالية الأميركية أيضاً وإسرائيل في جعل حدود عام ١٩٦٧ حدوداً لا يمكن هدمها أو تخطيها.

- فشل الأحزاب الصهيونية الكبرى في تشكيل حكومات أكثرية قوية مما أتاح المجال أمام الأحزاب الصغيرة لاختراق الائتلافات الحكومية وفرض شروطها على الأحزاب الكبرى.

- ثمة شكل آخر من أشكال فشل الصهيونية ويتجلى في تزايد الاتجاهات اليمينية والشوفينية المتطرفة الأمر الذي أدى إلى تفريخ منظمات إرهابية فاشية ذات أشكال سياسية واقتصادية واجتماعية وخاصة في أعقاب حرب عام ١٩٧٣.

- ويتجلى فشل الصهيونية أيضاً في تزايد الاستقطاب السياسي الطائفي وتزايد ظهور الأحزاب الطائفية الصرفة المعبرة عن مزيد من الشرذمة الدينية والاجتماعية.

- وأخيراً تجلي فشل الصهيونية في تزايد حركات الاحتجاج في المجالات الأمنية والاجتماعية والطائفية.

على أرضية هذه الملاحظات جميعاً يمكن تلخيص الواقع الحالي للصهيونية والصهيونيين على الوجه التالي:

١ - بروز الاتجاه الصهيوني التصحيحي الذي يقوده الليكود وبعض الأحزاب والحركات اليمينية العلمانية مثل حركة تسوميت وموليديت وهي تسعى إلى ترقيع الثوب الصهيوني البالي والانطلاق من الأرضية نفسها التي سبق أن أثبتت فشلها وهو تيار لم يستوعب بعد دروس الصراع العربي الإسلامي - الصهيوني الإسرائيلي ولا التحولات العالمية الراهنة، وهذا الاتجاه يظهر الآن بمظهر الجانب المفتقر إلى التجربة لوضع تصور موضوعي وواضح لمستقبل الكيان اليهودي وهذا الجانب لا يملك حالياً من وسائل ناجحة سوى بث العداء والحقد والكراهية ضد العرب والمسلمين وإثارة الهاجس

الأمني لدى الإسرائيليين كأساس لاستمراره في الحكم والتقليل من شأن الخيارات البديلة التي يطرحها الطرف السياسي الآخر.

٢ - الاتجاه الديني وهو منشق على نفسه على أسس عدة منها موقفه من الصهيونية حيث توجد حركات دينية صهيونية أبرزها الحزب القومي الديني وأخرى لا صهيونية مثل شاس ويهدوت هاتوراه وهي تسعى لفرض الطبيعة الدينية على الدولة. وقد بدأ هذا الاتجاه يتغلغل في مؤسسات الدولة الرسمية وغير الرسمية وهو يحاول الآن استغلال سقوط الإيديولوجيا الصهيونية وبخاصة لدى الشباب المتحمس المتطلع إلى المثل والدين ويعاني من الآثار السلبية للمادية المفرطة والعولمة ويتطلع إلى الخلاص الإعجازي والورطة التي سببتها الصهيونية بإيجادهم في وطن مصطنع وغير مستقر في محيط الأعداء وضمن صراع لا ينتهي ويفرض عليها بذل دمائهم باستمرار.

٣ - الاتجاه اليساري ويمثله حزب العمل وحركة ميرتس ومنه بالأساس تخرج دعاوى ما بعد الصهيونية كموقف تعديلي لمواقفه التاريخية في محاولة للتكيف مع المتغيرات الدولية والإقليمية والمحلية وهذا الاتجاه يريد أن يلبس إسرائيل ثوباً على موضة القرن القادم ليبرالياً وديمقراطياً على أسس مستمدة من النموذج الليبرالي العالمي السائد.

وإسرائيل حالياً تعيش حالة من عدم التوازن ما بين الاتجاهات الثلاثة دون أن تبدو في الأفق إمكانية للمصالحة أو التوفيق ما بينها، في وقت تتزايد حدة الاستقطاب والابتزاز ما بينها أيضاً، وغالب الظن أن إسرائيل في النهاية سوف تعود لتحافظ وتتشبث بعنصريتها المعهودة وهي سترفض السلام في المستقبل كما ترفضه في الحاضر، الأمر الذي يفتح أبواب الصراع أكثر فأكثر على المزيد من المواجهات الدموية والمزيد من مشاريع الهيمنة والسيطرة إسرائيلياً وإمبريالياً في ظل الرعاية الأميركية الإجرامية التي شهد اللبنانيون والفلسطينيون والسوريون بشكل خاص الكثير من مظاهرها وتجلياتها سواء في الحرب الأهلية اللبنانية عام ١٩٧٥ أو عدوان عام ١٩٧٨ أو عدوان عام ١٩٨٢ وما تبعه من اعتداءات أخرى مستمرة عامي ١٩٩٣ و١٩٩٦ والمستقبل سيحمل أيضاً مزيداً من إفرازات العدوان والإجرام من هذا الكيان الغاصب الذي لا يسعه أن يستمر في الوجود من دون إخراج فائض التوترات والتناقضات الكامنة في داخله إلى المحيط القريب وهو لن يتوانى عن تكرار جرائمه ومحاولاته الفاشلة على الرغم من كل الخسائر التي يمنى بها لأن مثل هذه الخسائر في الخارج

هي أقل بكثير من كل الخسائر التي يمكن أن تقع في الداخل في حال انفجر الصراع الأهلي والحرب الدينية العلمانية على مداها بين قوتين يستحيل عليهما التعايش وقتاً طويلاً في ظل مساعي كل منها للانتصار على الأخرى. وفي هذا السياق يقول الباحث الإسرائيلي أهرون ميفيد: "إن العنصرية ليست غريبة عن اليهودية وأن بذورها مدفونة في التربة دائماً وأبداً وهنا وفي خضم حماسة الجدل المتعصب يشهر أنصار تكامل الشعب والبلد جميع الفقرات الملائمة من التوراة والتلمود وموشيه بن ميمون من أجل إنعاش نظرية التفوق.." ويضيف: "هل سنقول ونحن نكافح العنصرية أنه يجب أن نفرض الرقابة على التوراة وأن نزيل منها فقرات من شأنها أن تفسد نفوس الشبيبة. لا تاريخنا ولا توراتنا اليهودية ولا طبيعتنا تنطوي على أية ضمانة ضد العنصرية".

وهذه العنصرية المفرطة كان قد أوضحها المقبور مئير كاهانا عندما كان عضواً في الكنيست حين قال: إن العرب ليسوا مسؤولين عما يجري بل "نحن المذنبون لأننا عندما منحنا الرب المبارك اسمه عام ١٩٦٧ الفرصة الذهبية لإخراج هؤلاء الملعونين، خفنا وبقوا هنا لقتل اليهود.. يجب عدم التكلم عن التعايش مع القتلة والأفاعي".

الفصل الثاني

محاولات للمستقبل

لا شك بأن كبار المسؤولين والمفكرين الإسرائيليين يدركون تماماً وبعمق حجم الخطر والمأزق الذي يغرقون فيه من جراء جملة الانقسامات والخلافات التي بيناها في هذا البحث، ومن أجل ذلك تجري وباستمرار محاولات لتطويق هذا الخطر والحد من آثاره السلبية المدمرة على وجودهم. وفي هذا السياق يمكن الإشارة إلى حقيقة التوصل مثلاً إلى تضييق شقة الخلافات السياسية بين اليمين واليسار إذا صح التعبير حول ما يسميه الإسرائيليون بـ"أرض إسرائيل" (ايرتس يسرائيل) بحيث تم توصيف حزب العمل في بعض الأحيان بأنه مجرد ليكود رقم ٢. وقد أوضح البروفسور أفرايم أنبار أنه لعدة سنوات مضت كان المعسكران المتنافسان يتجادلان حول الحكمة في تحقيق ما يسمى "حلم إسرائيل الكبرى" من خلال ضم الضفة الغربية بشكل أساسي وعبر توطين أكبر عدد ممكن من اليهود في أراضيها.

وقد جعل حزب ليكود لدى وصوله إلى السلطة عام ١٩٧٧ من هذه المسألة نقطة التجاذب والخلاف الأساسية المطروحة على جدول الأعمال "الوطني". ولكن هذا النقاش والجدل الإيديولوجي - السياسي الكبير والتاريخي يبدو أنه حسم وانتهى بعد توقيع حكومة نتنياهو على اتفاق الخليل ومن ثم على اتفاقية واي ريفر المتعلقتين بالتنازل عن أراضي كانت تعتبر مقدسة ومحتسبة في خانة القاعدة اليمينية المعلنة

والتي تقول بعدم التنازل عن أي شبر من الأرض "المحررة" حسب اعتقادهم. وبالتالي فهذا يعني أن الليكود بات يقبل ولو بتردد عملية أوسلو التي تنطوي ضمناً على تقسيم ما يسمى "أرض إسرائيل"، وهذا هو الموقف الذي كان موقفاً تقليدياً ومعتمداً من قبل حزب العمل، والجدل السياسي تمحور فقط حول النسب المئوية للانسحاب من الأراضي ذات الكثافة الفلسطينية، وليس حول الأسس العقائدية المتعلقة بالانسحاب مع الأخذ بعين الاعتبار دائماً حاجات إسرائيل الأمنية وما هو أقل كلفة على صعيد السياسة المحلية. وأكثر من هذا فإن فكرة قيام دولة فلسطينية بشكل أو بآخر باتت تنتظر آلية النخب السياسية على أنه تحصيل حاصل.

كذلك هناك من يرى أن الشرخ بين السفاراديم والاشكنازيم أصبح أقل عمقاً في المجتمع الإسرائيلي مما كان عليه في الماضي بحيث أن عدد الزيجات المتبادلة بات في تزايد وارتفاع مما يخفف الفوارق العرقية. والملاحظ أن النظام السياسي الإسرائيلي بات أكثر تقبلاً لزيادة عدد السياسيين والعسكريين السفاراديم في المناصب العالية. وكذلك هي الحال بالنسبة للنظر إلى الهيكليات الاقتصادية حيث باتت كلمة خصخصة كلمة جذابة في سياق المجتمع الإسرائيلي والاتجاه نحو الرأسمالية لتوفير مستوى أرفع للمعيشة.

ولكن في المقابل كل هذه المحاولات التوفيقية تبقى أمام المجتمع الإسرائيلي مشكلة كبرى يستحيل حلها لاستشرائها على جميع الصعد الاجتماعية والثقافية السياسية ألا وهي مشكلة الشرخ الكبير القائم بين المتدينين والعلمانيين. وفي هذا المجال تجدر الإشارة إلى أن الفوارق في أساليب الحياة وأساليب الاستهلاك الثقافي بين جماعات الأرثوذكس وسائر المجتمع هي في ازدياد مستمر وذلك مع ابتعاد غير الأرثوذكس أكثر فأكثر عن جذورهم الأرثوذكسية. وعلى الرغم من الجهود المبذولة للتخفيف من عواقب ومخاطر الاختلافات المتنامية ما بين المجتمع العلماني والمجتمع الحرادي المتدين، فإن الشرخ بين الفريقين غير قابل للردم علماً بأن الدراسات تظهر بأن أكثرية الإسرائيليين تعتبر نفسها في عداد "التقليديين" وسط التجاذب الأرثوذكسي العلماني.

الفصل الثالث

تناقضات مختلفة

لقد تبين لنا من خلال ما قدمناه من بحث في تفاصيل التناقضات والصراعات الكثيرة التي تمزق الهوية الإسرائيلية الوطنية والدينية والاجتماعية أن هذا الكيان الغاصب يعاني من احتقانات محملة بطاقات انفجار داخلية تتصل بالهوية اليهودية من ناحية وبهوية ما يسمى "دولة إسرائيل" من ناحية أخرى. وقد عرف التاريخ اليهودي سابقاً ولاحقاً مثل هذه التناقضات تجلت في مسيرة اليهودية التاريخية المتناقضة مع بعضها البعض وفي مسيرة الصهيونية وصولاً إلى الحياة الإسرائيلية المعاصرة. وبالإمكان إيجاز هذه التناقضات بالنقاط التالية:

١ - إن أول وأهم وأخطر تناقض يعاني منه اليهود هو ما يتصل بتحديد وتعريف من هو اليهودي الحقيقي ومن هو اليهودي المزيف. والجواب عن ذلك يختلف ويتباين بتباين المذاهب اليهودية الدينية والفكرية والسياسية قديماً وحديثاً. فهنالك المدلول العرقي (الإثني) لهذا الوصف وهو أن اليهودي هو كل طفل ولد من أم يهودية أو أب يهودي تبعاً لبعض التفسيرات التي تأخذ بها النزعة اليهودية الإصلاحية - ومعنى ذلك أن أي إنسان ينتسب إلى المجتمع اليهودي ويرتبط بمصيره هو يهودي بحكم ولادته من أصول يهودية، سواء كان مؤمناً أو غير مؤمن وسواء ارتبط بمؤسسة دينية يهودية أو لم يرتبط وسواء صدق على هذا الانتساب وأكده أو لم يصدق عليه.

وهنالك أيضاً المدلول الديني الذي يعني أن اليهودي هو أي إنسان يؤمن بالإله

الواحد إله إبراهيم وإسحق ويعقوب ويؤمن أن هذا الإله قد اختار الشعب اليهودي ووعده بالعودة إلى أرض الميعاد في فلسطين. وواضح أن المدلولين العرقي والديني لا يتطابقان. وفي الماضي كان يكفي أن يكون الإنسان يهودياً بالدم (بالمعنى العرقي) كي يكون في الوقت نفسه يهودياً بالمعنى الديني. لكن في الوقت الحالي وبعد ولادة الصهيونية وما يسمى دولة إسرائيل فالأمر يختلف باختلاف الحركات الدينية والأحزاب الدينية وغير الدينية.

٢ - النقطة الثانية في التناقضات الإسرائيلية واليهودية تتعلق بمعنى المواطنية الإسرائيلية. فقانون العودة الذي تم سنة بعد قيام إسرائيل يقول بأن يمنح اليهود جميعاً حق امتلاك الهوية الإسرائيلية. ولكن يأتي في هذا السياق السؤال: ما هو الموقف بالنسبة إلى الذين اعتنقوا الديانة اليهودية حديثاً والذين لم يختاروا الديانة الأرثوذكسية التقليدية واختاروا اليهودية المحافظة الإصلاحية؟ هل هم حقاً يهود تبعاً للقانون المذكور؟ الجواب عن هذا السؤال أعطاه وزير الداخلية الإسرائيلي عام ١٩٨٧ وكان من الأرثوذكسيين المتطرفين وكان بالنفي القاطع وطلب من الذين يريدون أن يعتنقوا اليهودية أن يفعلوا ذلك وفق التعاليم والشرائع اليهودية "هالاخاه".

٣ - إن الربط بين المواطنية الإسرائيلية واعتناق الديانة اليهودية طرح معضلة خاصة بالمقيمين في إسرائيل من أبناء الديانات والقوميات الأخرى من العرب وسواهم. وفي العام ١٩٨٩ كان العرب المسيحيون يمثلون ٢٪ من السكان. وهؤلاء يعانون من التمييز العنصري في كل جانب من جوانب الحياة وينخرطون في جملة التناقضات والصراعات الداخلية.

٤ - النقطة الرابعة في التناقضات تتعلق بمسألة ما يسميه اليهود الأغيار أي "غوييم" وفي هذا المجال يعتبر القانون الإسرائيلي أن قتل اليهودي جريمة كبرى عقوبتها الإعدام بينما يختلف الأمر عندما تكون الضحية إنساناً غير يهودي. وإذا كانت القوانين الجزائية في إسرائيل اليوم لا تميز في ظاهر الأمر بين اليهودي وغير اليهودي فإن الحاخامين الأرثوذكس يدعون جمهورهم إلى اتباع قوانين "الهالاخاه" أي التشريع اليهودي؛ وقد توصل العديد من الشارحين والمفسرين لهذه الهالاخاه إلى أنه في حال الحرب يمكن أو يجب قتل جميع المنتسبين إلى شعب معاد. ومنذ عام ١٩٧٣ أذيعت هذه العقيدة على نطاق واسع لإرشاد الجنود المتدينين. وقد أعيدت الآن في كتب صلوات

عديدة مطبوعة في إسرائيل لعنات خاصة موجهة إلى المسيحيين وغيرهم من المنشقين اليهود.

٥ - إن التمييز المتبع في إسرائيل لا يقتصر على التباين في المعاملة أو النظر ما بين اليهودي وغير اليهودي بل يمتد ليشمل التفريق بين المواطنين اليهود أنفسهم وجعل المواطنية بالتالي درجات ومراتب. وقد تحدثنا عن الفروقات بين الاشكناز والسفارديم، التفريق بين اليهود السود واليهود البيض (مشكلة الفلاشا) والفروقات بين اليهود القادمين من روسيا والدول الاشتراكية السابقة وبين القادمين من الغرب والولايات المتحدة وهناك أيضاً فروقات بين اليهود المولودين داخل إسرائيل (يهود الصابرا) واليهود الوافدين وهكذا يتبين أن هذه الفروقات لا تسمح بوجود لحمة وطنية تكاملية بين الجميع. هذا ناهيك عن الخلافات بين المذاهب الدينية والسياسية المتصارعة والتي تتأرجح ما بين صنع السلام مع الفلسطينيين والعرب وبين طرد آخر فلسطيني من أرض الميعاد المزعومة.

٦ - كما سبق وأشرنا فالتناقض الأكبر والباقي دائماً هو بين المتدينين والعلمانيين وخاصة بعد أن تم في السنوات الأخيرة نمو متواز لكلا الطرفين ومن تعاظم التناقض بينهما بوجه خاص بعد تزايد ظاهرة الأمركة المتفشية في المجتمع الإسرائيلي. وأصبح العديد من الإسرائيليين الجدد المولودين داخل إسرائيل يعتبرون أنفسهم أفراداً قبل أن يكونوا مواطنين وغدوا يتوقون اليوم إلى أن يحيوا حياتهم الخاصة بمتعها وملذاتها وأحلامها ويرفضون الإيديولوجيات والعقائد وقد يميلون إلى السلام الذي لا يدركون معنى التغيير العميق الذي يستوجبه بالإضافة إلى الثمن الواجب تسديده. ومن هنا لم يكن مستغرباً أن تترشح للانتخابات إحدى الفنانات المفضلة لدى الشبان. وقد قال أحد المفكرين الإسرائيليين المعروفين وهو يشعياهو ليبوفيتش واصفاً صعوبة التناقضات الدينية العلمانية: إن هذا الشعب الذي توضع له القوانين والأوامر الدينية ليس هو الشعب اليهودي الذي تتحدث عنه "الهالاخاه" أي الشرائع الدينية اليهودية.

ويصف الحاخام الأرثوذكسي داود هارتمان هذه الحقيقة بقوله: إن أخطر تساؤل في إسرائيل اليوم هو التساؤل عما إذا كانت الخلافات المزمنة ستقود إلى حرب أهلية. فالاستقطاب بين اليهود المتدينين واليهود العلمانيين مستمر. والمشكلات الكبرى المطروحة في الصحف ليست في معظم الأحوال تلك المتصلة بأمن إسرائيل بل تلك

المتصلة بمعرفة ما إذا كانت الحافلات والباصات تعمل في مدينة حيفا يوم السبت وفيما إذا كانت قاعة السينما في بلدة ما سوف تعرض فيلماً مساء الجمعة. وحاخام المدينة الأكبر (الذي أدخل السجن لأنه قاد مظاهرة عنيفة وغير مصرح بها ضد فتح السينما أبوابها) يدعي أنه فوق قانون الدولة لأنه يتكلم باسم الله. ولا شك أن قتل إسحق رابين رئيس الحكومة الإسرائيلية الأسبق يشكل معلماً هاماً وموضحاً لهذا التيه الدائم في البحث عن هوية كيان مصطنع اسمه إسرائيل. وقد لخص يسرائيل هارئيل رئيس مجلس المستوطنات اليهودي في الضفة الغربية، وهو من الحاخامات القلائل الذين أدانوا قتل رابين رؤيته لإسرائيل المستقبل بقوله: "إن ثمة وطنين آخذان بالتكون في إسرائيل؛ وطن الإسرائيليين ووطن اليهود أما الإسرائيليون فهم أغيار "غوييم" يتكلمون العبرية لا أكثر ولا أقل. وقد أنهكتهم الحروب وسئموا منها ونسوا الصهيونية، من دون أن يعرفوا اليهودية في أي يوم من الأيام. وقد جاء رابين ليقول لهم فوق هذا كله أن لا خوف على أمن إسرائيل وأن في وسعهم أن يطمئنوا بعد اليوم إلى أنهم لن يرحلوا عن هذه البلاد فماذا يبقى لهم إذاً بعد هذا؟ يبقى لا شيء، يبقى الفراغ المطلق. وهو فراغ لن تستطيع العلمانية أو الديمقراطية أن تسده فكلتاهما لا تعتبران من القيم النبوية الأساسية للشعب اليهودي. وبمقدار ما كنا نقترب من تنفيذ اتفاقيات أوسلو كان يبدو واضحاً للفريق الأول، فريق المنتمين إلى "وطن الإسرائيليين" أن الأرض قد غدت عقبة في وجه التطبيع، بينما كان يبدو للفريق الثاني فريق المنتمين إلى وطن اليهود أن التطبيع خطر على الهوية الإسرائيلية".